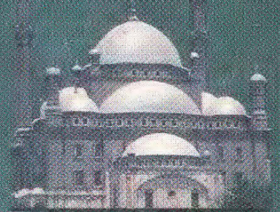
الدولة الأموية
في
عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك

تأليف
الدكتور/ عبدالله بن حسين الشريف
أستاذ التاريخ الإسلامى
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية الشريعة
جامعة أم القرى

دار القاهرة



١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة
ت.ف. ٣٩٢٩١٩٢

الدولـــة الأمـويـــة

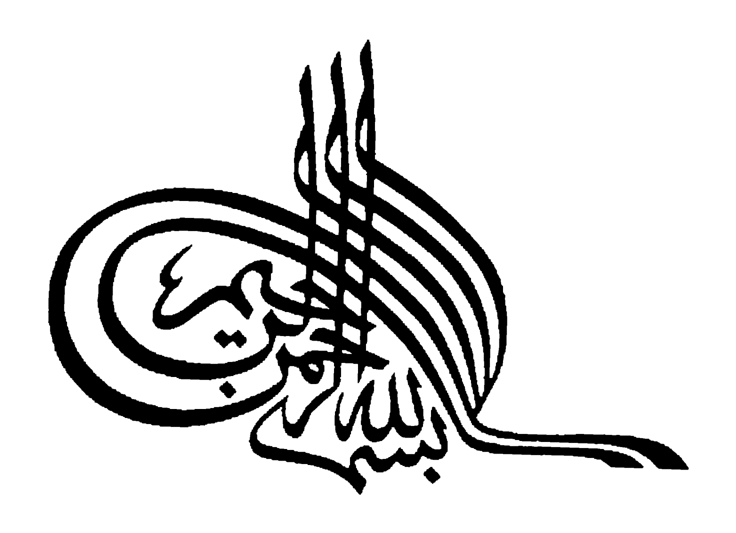
فى

عهد الخليفة يزيد بن عبـد الملك

تأليف
الدكتور/ عبدالله بن حسين الشريف
أستاذ التاريخ الإسلامى
قسم التاريخ و الحضارة الإسلامية كلية الشريعة
جامعة أم القرى

الناشر
دار القاهرة
١١٦ ش محمد فريد القاهرة
ت: ٣٩٢٩١٩٢

اسم الكتـــاب : الدولة الاموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك
اسم المـؤلف : د/ عبد الله بن حسين الشريف
رقم الطبـعة : الأولى
السنـــة : ٢٠٠٥
رقـم الإيداع : ١٦٣٣٣
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
977-6048 -18-8
اسم النـــاشر : دار القاهرة
العنــــوان : ١١٦ شارع محمد فريد
البـــــلد : جمهورية مصر العربية
المحافظــة : القــاهرة
التــليفون : ٠٠٢٠٢٣٩٢٩١٩٢
فـــاكس : ٠٠٢٠٢٣٩٢٩١٩٢
المحمــول : ٠١٢٣١٧٧٥١٠


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأكرم، وآله وصحبه وسلم... أما بعد:

فهذا الكتاب دراسة أكاديمية تقوم على أسس البحث العلمي وتطبيق مناهجه، تناولتُ من خلالها تاريخ (الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك).

ونستطيع أن نعد هذا المؤلف صفحة جديدة في موسوعة ما يسمى بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي، فالتاريخ الأموي أحوج ما يكون لإعادة الدراسة بسبب ما أصابه من تشويه وتشكيك، وذلك لمجيء هذا العصر بعد وهج القيم الإسلامية والسير المثالية؛ الخلاقة في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين، ولتأثير الموقف العدائي الذي اتخذه أكثر الأمويين من الدعوة الإسلامية في فجرها، ومنافستهم لآل بيت النبوة، ومنازعتهم سياسيًا، وما أصاب أهل البيت من المآسي جراء حوادث ذلك النزاع، وما حفل به العصر الأموي من حوادث مست حرمة المقدسات وعدد من الرموز الإسلامية، كوقعة كربلاء والحرة، وحصار مكة، الأمر الذي ولَّد عند البعض شعور النفور منهم والكراهة لحكمهم والتحامل عليهم وتشويه تاريخهم.

ولا شك أن تأخر تدوين التاريخ الأموي إلى العصر العباسي، كان له دوره الفاعل في ما شاب تاريخهم من تزييف، متأثرًا بنفوذ خصومهم العباسيين أصحاب السلطان، مثقلاً بما تشبعت به الرواية التاريخية من نقد المعارضين كالشيعة والخوارج والفرس، ومُشكلاً بتوجه أصحاب الهوى من الرواة والمؤرخين، فجاء ما وصلنا من تاريخهم وقد شُوهت بعض حقائقه وأخفى عددًا من محامده وقُلل من شأن منجزاته وفُخمت سلبياته.

وتأتي أهمية هذه الدراسة أيضًا في قيامها على كشف الغموض الذي غطى على

شخصية الخليفة يزيد بن عبدالملك كونه تولى الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز، مع ما بين الرجلين من تفاوت واختلاف، جعل عهد عمر يستحوذ على اهتمام المؤرخين، فتوارى يزيد في ظلال خلافة عمر الوضاءة، إلى جانب ما اعترى سيرته من طعن وتجريح، حيث اتهم بنكث إصلاح عمر بن عبدالعزيز، والإنصراف إلى اللهو والمجون، وما أشبه ذلك من الفعل المذموم، الأمر الذي جعل عدداً من المؤرخين يعتقدون أن عهده كان بداية النهاية للدولة الأموية.

وهكذا ظهرت صورة خلافة يزيد بن عبدالملك في الموروث التاريخي الإسلامي قاتمة مشوهة، فكان دور هذا البحث في القيام بالتحقق من صحة الأخبار المروية عن سيرته والدولة في عهده، وإماطة اللثام عن وجه الحقيقة التاريخية.

حيث أمست الحاجة جد ملحة لدراسة هذه الحقبة من تاريخ الدولة الأموية، في ضوء منهج البحث التاريخي النزيه، متجردين من الهوى والميل، مؤمنين بأن التاريخ ما هو إلا صورة لحياة الأفراد والجماعات بكل ما فيها من خير وشر، وأنه رصدٌ لحضارات تزدهر وتضمحل، ولها جوانب مشرقة وأخرى مظلمة.

وتزداد أهمية هذا الكتاب كون موضوعه لم يدرس من قبل، فيكون بذلك إضافة هامة تسد ثغرة علمية في المكتبة الإسلامية.

وقد عملت هذه الدراسة على بحث أخبار عهده من مضانها، استقصاءً وتمحيصًا، وعرضًا وتحليلاً، ومناقشة ومقارنة، واستنباطًا واستنتاجًا، أثمر عن التوصل إلى نتائج جلَّت حقائق مبهمة وصححت مفاهيم خاطئة، ورسمت صورة للخليفة يزيد بن عبدالملك والدولة الأموية في عهده، أقرب ما تكون إلى واقع الحال إن شاء الله، وأهم ملامحها أن يزيدًا لم يكن بتلك الصورة السيئة التي رسمها له بعض المؤرخين، وأن عهده حفل بعدد من المنجزات والحوادث الجديرة بالدراسة.

وقد تمت دراسة موضوع الكتاب وفق التبويب التالي:

هذه المقدمة، وتمهيد عن أحوال الدولة الأموية قبل خلافة يزيد بن عبدالملك، وستة فصول، الأول عن سيرة الخليفة يزيد بن عبدالملك، والثاني عن الحركات الداخلية في عهده، والثالث عن مرسوم الخليفة يزيد بن عبدالملك بتكسير الأصنام والتماثيل

والصلبان وإزالة الصور وهدم الكنائس المستحدثة، والرابع عن الفتوحات الإسلامية في زمنه، والخامس عن سياسته الإدارية والمالية، والسادس عرض لأبرز جوانب الحياة العلمية في خلافته، وخاتمة تضمنت أهم نتائج البحث. يجد القارئ تفصيل ما تناولته من موضوعات في فهرست الكتاب.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل . . .

المؤلف

الدكتور/ عبدالله بن حسين الشريف

مكة المكرمة

١/١/١٤٢٤هـ

التمهيد

عرض موجز لأحوال الدولة الأموية

مطلع القرن الثاني الهجري

تمهيد

عرض موجز لأحوال الدولة الأموية

مطلع القرن الثاني الهجري

كانت الدولة الإسلامية مطلع القرن الثاني الهجري، قد اكتملت مقوماتها، وتميزت شخصيتها عما عداها، وبلغت شأوا بعيدًا من السعة والقوة والتطور والنماء، إذ ترامت أطرافها وضمت حدودها مساحة كبيرة من المعمورة آنذاك، وأصبحت من القوة ما جعلها مصانة الحدود، مهابة الجانب، مُقاتِلَة في سبيل الله لا مُقاتَلَة. ولا أراني أعدو الحقيقة إذا ما قلت أنها أضحت أكبر دولة، وأعظم قوة، وأكرم أمة.

كما تطورت التنظيمات الإدارية والمالية والعسكرية تمشيًا مع التطور العام للدولة، وخطا المسلمون خطوات حثيثة نحو التقدم العلمي، وبخاصة في العلوم النظرية، والعمران، والزراعة، والصناعة. وصبغوا مظاهر حضارتهم بصبغة الإسلام، وجعلوا اللغة الرسمية لغة القرآن، معتمدين على موروثات الأمة، آخذين بما عند الآخرين، مما يناسب الدين الإسلامي ودولته.

ولاشك أن الفضل في كثير من المنجزات التي حققتها دولة الإسلام حتى ذلك الوقت، يعود للخلفاء الأمويين، وينسب إلى دولتهم. وسنعرض فيما يلي أهم معالم الدولة الأموية ومنجزاتها حتى مطلع القرن الثاني الهجري، لتصبح صورتها جلية أمام أعيننا، ونحن نتناول بالدراسة عهد يزيد بن عبدالملك، الذي جاءت خلافته مطلع ذلك القرن.

إن المتفق عليه أن أعظم إنجازات الدولة الأموية، هي تلك الفتوحات الكبرى التي شهدها ذلك العصر، حيث بلغت الدولة الإسلامية على أثرها، أقصى اتساع لها – تقريبًا –، إذ لم يكد ينقض القرن الأول (قرن الفتوح العظمى)، حتى وصل المجاهدون المسلمون في دولة بني أمية، براية الإسلام حتى حدود الصين شرقًا، والمحيط الأطلسي غربًا، وبحر خوارزم وبحر الخزر شمالاً، والمحيط الهندي وصحراء إفريقية الكبرى جنوبًا.

لقد كان القيام بالدعوة إلى الله ونشر دينه القويم، وحرية العقيدة وحماية أهلها. الهدف الأسمى لدولة الإسلام منذ نشأتها، فبعد أن أقام الرسول ﷺ الدولة الإسلامية، وتم له فتح جزيرة العرب، وكان قد دعا رؤساء القوى المجاورة للإسلام فلم يستجيبوا، كانت غزوة مؤتة (سنة ٨هـ) في زمنه، الخطوة الأولى في تحقيق ذلك الهدف، والقيام بالفتح خارج نطاق جزيرة العرب. ثم توالت الفتوح بعد وفاته عليه السلام، امتدادًا لما بدأه، وتحقيقًا لغايات الفتح وأهدافه، وقيامًا بمسئوليات الدولة وواجب الحكام المسلمين، فتم للمسلمين في عصر الخلفاء الراشدين القضاء على دولة الفرس، وفتح ممالكها من العراق وحتى خراسان وسجستان شرقًا، وفتح الشام حتى جبال طوروس والجزيرة وأرمينية شمالاً، وفتح مصر حتى بلاد النوبة جنوبًا، هذا بالإضافة إلى محاولات فتح إفريقية التي لم تتمخض عن فتح تام ودائم لها[١].

وفي العصر الأموي، استأنف المسلمون فتوحاتهم، وحمل الخلفاء الأمويون وعمالهم وقوادهم راية الجهاد الإسلامي، في حركة فتح كبرى، بدئت بإعادة السيادة الإسلامية على بعض المناطق التي تمردت على سلطان المسلمين كخراسان وأرمينية مستغلة الفتن الداخلية التي عاشتها الدولة الإسلامية، أواخر عصر الراشدين وأول العصر الأموي. وبلغت أوجها في عهد الوليد بن عبدالملك، ففتح من الناحية الشرقية بلاد السند والبنجاب على يد محمد بن القاسم الثقفي، الذي وجه إلى تلك البلاد من قبل الحجاج الثقفي، عامل الخليفة الوليد بن عبدالملك على العراق والمشرق، حيث سقطت

---

(١) عن حركة الفتوح الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين انظر/ البلاذري: فتوح البلدان، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م - الواقدي: فتوح الشام، بيروت، دار الجيل - ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب وأخبارها، تحقيق محمد صبيح، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر - ابن أعثم: الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٢م - محمد فرج: الفتح العربي للعراق وفارس، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٨٦هـ - أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، دار النفائس، بيروت، ١٣٩٧هـ - أحمد عادل كمال: الطريق إلى دمشق (فتح الشام)، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

على يده مدنها وأقاليمها كالديبل، والعاصمة راور والبيرون والملتان والكيرج حتى وصل كشمير، وقد قتل ملك السند داهر وضم السند لدولة الإسلام، ونشر الإسلام بين أهلها[١]. وبتوجيه من هذا العامل وفي خلافة الوليد أيضًا، قام قتيبة بن مسلم الباهلي[٢] بفتح بلاد ما وراء النهر وضمها للدولة الإسلامية، إذ تمكن من فتح مدنها وأقاليمها، كبخاري وسمرقند والصغد وفرغانة والشاش وغيرها. وسار إلى الصين فاتحًا. فصالحه ملكها، فكان ذلك أقصى مدى وصلته الفتوح الإسلامية شرقًا. كما عمل قتيبة على اجتثاث الوثنية من تلك البلاد، فحطم الأصنام، ودعى إلى الإسلام، إلا أن دخول أهالي تلك البلاد في الإسلام كان بطيئًا، وولاءهم سطحيًا، لذلك كثيرًا ما سنرى في بقية العصر الأموي تمردهم، وخروجهم على سلطان المسلمين كلما حانت لهم الفرص.

كما فتح على يد يزيد بن المهلب، كل من جرجان وطبرستان وقوهستان، في خلافة سليمان بن عبدالملك[٣].

أما الفتح شمالاً، فقد عمل الأمويون على تثبيت سلطان المسلمين في أرمينية، التي لم تخضع للمسلمين خضوعًا تامًا ودائمًا، مثلما حدث في بعض الأقاليم الأخرى، كالشام ومصر وغيرهما، والتي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الدولة الإسلامية، حيث ظلت أرمينية

---

(١) عن فتوح المسلمين في بلاد السند، انظر/ فوزي محمد عبده ساعاتي: انتشار الإسلام في بلاد السند والبنجاب حتى نهاية العصر الأموي، رسالة ماجستير مقدمة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، عوض السميري: محمد بن القاسم وفتح بلاد السند، رسالة جامعية، جامعة الإمام محمد بن سعود.

(٢) لم يكن قتيبة أول من عبر نهر جيحون إلى بلاد ما وراء النهر فاتحا، لكن الفتح لم يأخذ شكلاً منتظمًا، ويتم في تلك البلاد إلا على يد هذا القائد. انظر عن فتوحاته / ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مراجعة وتعليق نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ١٠٥/٤ - ١٤٢ - راضي عبدالله عبدالحليم: دراسات في تاريخ خراسان في العصر الأموي، الأندلس للإعلام والنشر، مطبعة جامعة القاهرة، و الكتاب الجامعي، ١٩٨٧م، ص٣٥ - ٤٣ - نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص٢٠٢ - ٢٠٥، ٢٤٠.

(٣) عن فتوح يزيد بن المهلب لهذه الأقاليم، انظر : نبيه عاقل: نفس المرجع، ص١٥١ - ١٥٣ - راضي عبدالله عبدالحليم: نفس المرجع، ص٤٥ - ٤٩.

منطقة صراع سياسي وعسكري، بين المسلمين والأمراء المحليين من الأرمن من ناحية، وبين الملمسين والقوى المجاورة من الروم والخزر والقبائل القوقازية من ناحية أخرى. وقد ساعد على ديمومة هذا الصراع، وعدم استقرار الفتح ما عاشته الدولة من فتن واضطرابات كأحداث الفتنة الكبرى، وكذلك الأحداث التي تعرضت لها الدولة الأموية بعد وفاة يزيد بن معاوية، وكادت تقضي عليها حتى نجاح عبدالملك بن مروان، في القضاء على ابن الزبير والسيطرة على الأوضاع، وبسط نفوذ الدولة الأموية على كامل الأمصار الإسلامية من جديد، إلى جانب شدة مراس الشعب الأرمني، وبأس أهله، وقسوة طبيعة أرضه، وانقسام أمرائه على أنفسهم، فإذا والى فريق دولة الإسلام، مال الفريق الآخر للروم، أو حالف الخزر. وهذا ما ساعد الأرمن على الانتقاض كلما حانت لهم الفرصة، واستغل الأعداء تلك الظروف لإشغال المسلمين بالجبهة الأرمينية. وقد تمكن الأمويون في فترات الاستقرار السياسي داخل الدولة الإسلامية، من بسط نفوذهم على تلك المنطقة، وضمها لدولتهم، وقد أعطوا للأمراء المحليين، نوعًا من الحكم الذاتي على أقاليمهم، وهؤلاء يخضعون للوالي المسلم على أرمينية[1].

أما الفتح في أرض الروم فقد استلزم أمرين، الأول: تأمين الفتوح الأولى في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية، باتخاذ عدد من وسائل الحماية والدفاع، تمثلت في بناء وتحصين الثغور البحرية والبرية، وبناء الأربطة والمناظر، وتزويدها بالرجال، وشحنها بالميرة والسلاح.

الأمر الثاني: استمرارية الجهاد ومواصلة الفتح في أرض الروم برًا وبحرًا. وذلك عن طريق غزوات برية موسمية، على أملاك الروم في آسيا الصغرى، والتعاون مع الحملات البرية في غزواتها على معاقل الروم في آسيا الصغرى، وحملات بحرية مستمرة على الجزر البيزنطية في البحر المتوسط، والتعاون مع الحملات البرية في غزواتها على معاقل الروم في آسيا الصغرى، أو الحملات الكبرى على القسطنطينية.. وقد تحقق على أثرها، الاستيلاء على بعض المدن والثغور البيزنطية في آسيا الصغرى

---

[1] عن أرمينية انظر/ صابر محمد دياب: أرمينية من الفتح الإسلامي إلى مستهل القرن الخامس الهجري، الناشر دار النهضة العربية، مصر، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ص٢٠ - ٤٩.

وعدد من جزر البحر المتوسط. وكان أعظم الحروب التي خاضها الأمويون ضد البيزنطيين، هي تلك الحملات الثلاث التي وجهوها لفتح مدينة القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية[1]. وإن لم تنجح هذه الحملات، فإنها شكلت تهديدًا إسلاميًا للدولة البيزنطية، وجعلت زمام المبادرة وكفة التفوق العسكري في ذلك العصر للمسلمين[2].

وباتجاه الغرب، أتم الأمويون فتح إفريقية، وذلك بعد جهود عسكرية كبيرة قادها عدد من القادة على مراحل متتالية وهم معاوية بن حديج، وعقبة بن نافع الفهري، وأبو المهاجر دينار، وعقبة للمرة الثانية، و زهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان، وآخرهم موسى بن نصير[3]، الذي فتح الله على يديه أيضًا، وهو وقائده طارق بن زياد إقليم الأندلس[4]. وتشير مجموعة من المراجع، إلى أن موسى اجتاز جبال البرتات (البرنيه)، فاتحًا بلاد الغال، وأن ذلك كان تنفيذًا لمشروعه الرامي إلى فتح أوروبا من ناحية الغرب وإسقاط كرسي المسيحية في روما، وفتح القسطنطينية عن طريق البر من غربها، بعد أن أعجز لمسلمون فتحها بحرًا من الناحية الشرقية، ومن ثم الالتفاف شرقًا عن طريق آسيا الصغرى حتى الوصول إلى دمشق، لتصبح أوروبا وقد أشرق عليها

---

(1) قامت في عهد معاوية بن أبي سفيان الحملة الأولى سنة ٤٩هـ، والثانية سنة ٥٤هـ. أما الحملة الثالثة فقد حدثت في عهد سليمان بن عبدالملك ٩٨هـ. عن هذه الحملات انظر/ عمر سليمان العقيلي: خلافة معاوية بن أبي سفيان، ص ١٠٨ وما بعدها - إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص١٦٢ - ١٧٨، ٢١٢ - ٢٢٣.

(2) عن الفتوح في أرض الروم، وأساليب المسلمين الدفاعية والهجومية، ولمعلومات أشمل وأوسع، انظر/ هاشم إسماعيل الجاسم: دراسات تاريخية وعسكرية عن الثغور البيزنطية والعربية منذ الفتح العربي للشام حتى نهاية العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، غير مطبوعة، مقدمة لكلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م ص ٨٠ - ٩٦، ١٠٢-١٤٥ - إبراهيم العدوي: نفس المرجع.

(3) عن فتح المغرب، انظر/ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٤٧م.

(4) عن فتح الاندس، انظر/ حسين مؤنس: فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ - ٧٥٦م)، الشركة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٥٢ - ١٠٣ - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م ص٥١ - ١١٢.

نور الإسلام، ويُضحى البحر المتوسط بحيرة إسلامية، ويتخذ من تلك الأرض مسلكًا بريًا لأهل الأندلس إلى المشرق وبالعكس، لا يركبون بحرًا. لكن استدعاء الخليفة الوليد بن عبدالملك لموسى وطارق، وإلحاحه عليهما، أدى إلى عدم تنفيذ هذا المشروع[1].

كما أدى ذلك إلى إيقاف الجهاد في الأندلس قبل أن يتم فتح جميع نواحيه، وخاصة الجنوب الشرقي الذي أتم فتحه عبدالعزيز بن موسى، والجزء الشمالي الغربي، وهو منطقة اشتريس، وجليقية. وقد كانت فلول القوط، قد تقهقرت أمام جيوش الفتح في الأندلس، واعتصمت بصخرة بلاي من نواحي كنتبرية بجليقية، في حين وصل موسى بن نصير إلى مدينة خيخون من تلك المنطقة، وبعث سرية وصلت البحر، وحاربت الفل في تلك الصخرة، حتى صاروا ثلاثين رجلاً، ليس لهم من قوت سوى عسل النحل، فأعيا المسلمون أمرهم لوعورة المنطقة، فانصرفوا عنهم، ولعل استصغار شأنهم، وإلحاح الخليفة على موسى بالقدوم، هو السبب في تركهم. المهم أن بقاء تلك المنطقة دون فتح، مكن تلك القلة القليلة من تشكيل قوة مقاومة للوجود الإسلامي، حيث نبتت هناك و في تلك الصخرة جذوة المقاومة النصرانية ضد المسلمين - كما سنرى ذلك عند حديثنا عن حركة بلاي في الفصل الثاني، الذي تزعم تلك القوة وقاد تلك المقاومة - والتي ستكون نواة لقيام دولة اشتورية المسيحية، أو ما عرف بعد ذلك بمملكة ليون[2].

وما من شك أن ما تحقق من عظيم الفتوحات في العهد الأموي، كان وراءه عوامل مساعدة معنوية وحسية، ولعل من أهم تلك العوامل، ما وصل إليه الجيش الأموي من كثرة وكفاءة وقوة جوهرها الإيمان، وظاهرها، حسن الأعداد والتنظيم و التدريب والتجهيز، وتطور الأساليب، وتنمية القدرات.

---

(١) عن الفتوحات في بلاد الغال، انظر/ شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٣٠ - ١٤٧.

(٢) عن الجزء الشمالي الغربي من شبه جزيرة ايبيريا وترك موسى بن نصير هذه البلاد دون فتح، وعن فتح الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة على يد ابنه عبدالعزيز، انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٠٥ - ١٠٦، ١١١ - ١١٧، ٣١٣ - ٣١٥ - خليل إبراهيم السامرائي: الثغر الأعلى الأندلسي، دراسة في أحواله السياسية (٩٥ - ٣١٦هـ / ٧١٤ - ٩٢٨م)، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦م، ص١٠٢.

ويشير ابن عساكر[١] إلى أن الجيش الأموي بلغ تعداده، خمسمائة ألف جندي. وتلك قوة ضاربة إذا ما جمعت قوة الإيمان وسلامة الإعداد، وهذا ما حرص بنو أمية عليه[٢].

والحق أن ما فتح على يد الأمويين من بلاد، وما انضوى في ظل دولتهم من العباد، في تلك الحقبة القصيرة، يعد من خصائص هذه الأمة، ومفخرة لبني أمية. ودليلاً على قوة دولتهم، و أثر دعوة الإسلام، ومدى استجابة الناس لها.

ومما يحسب للدولة الأموية، تطور الجهاز الحكومي الذي تمثل في إنشاء بعض الدواوين التي دعت الحاجة إلى إستحداثها وفيما قام به الأمويون من تنظيمات إدارية ومالية وعسكرية، كما وأن من أبرز سمات الحكم الأموي، تحويل نظام الخلافة من نظام يقوم على الشورى إلى نظام وراثي، وأخذ الخلفاء الأمويين بمظاهر الملك، بعد بساطة الخلافة الراشدة، أما فيما يخص أشكال الحكم وأساليبه، فقد سار بنو أمية على كثير مما كان منها في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ﷺ. فقام الكثير منهم بإمامة الناس في الصلاة، ومباشرة أحوال الناس، والجلوس لمظالمهم، والأخذ بمبدأ الشورى في تصريف ما عظم من الأمور، والاستعانة بأهل العلم، وذوي الرأي والخبرة، وحراسة الدين وسياسة الدنيا به.

كما أبقوا على التنظيمات التي وضعها النبي عليه الصلاة والسلام، وخلفاؤه الراشدين، لكنهم طوروها بما يلائم نمو الدولة، واستحدثوا ما دعت إليه الحاجة، وذلك بعد توسع رقعة الدولة الإسلامية، ودخول عناصر جديدة في المجتمع الإسلامي، وكذلك ثقافات وأديان ومذاهب متعددة، والإطلاع على مظاهر حضارية جديدة، وأساليب حياة،

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م ١/٢٦٢.

(٢) عن الجيش الأموي وتنظيماته، انظر: خالد جاسم الجنابي: تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، رسالة مطبوعة، دار الشئون الثقافية العامة الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، وزارة الثقافة والإعلان، العراق، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م – وفيق الدقدوقي: الجندية في عهد الدولة الأموية، رسالة جامعية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

ونظم حكم، ورثوها عمن كان قبلهم من الأمم في البلاد المفتوحة.

وقد برز التطور الإداري في العصر الأموي، فيما وصل إليه نظام الدواوين من تطور، تمثل في توسع اختصاصات الدواوين السابقة وتنميتها، واستحداث أخرى دعت إليها الحاجة، ولشمول الخدمات والضبط والدقة. ولعل من أهم ما يذكر لبني أمية وينسب لدولتهم، استكمال إنشاء الدواوين التي دعا تطور الدولة إلى إنشائها. وأهم دواوينهم: ديوان الخاتم، وديوان البريد، وديوان الرسائل، وديوان الخراج، وديوان الجند، وديوان العطاء، وديوان بيت المال. وديوان الصدقات، وديوان الذراري، وديوان الأحباس، وديوان الطراز، وديوان المستغلات، وديوان النفقات، وديوان العمال، وديوان الزمام، وديوان الزمني، ودار السكة، ودار الإستخراج والشرطة. كما أنشئت دواوين فرعية في الأمصار للدواوين المركزية الموجودة في عاصمة الدولة دمشق[1].

لكن هذا التطور الذي شهده الجهاز الإداري والمالي، كان ينقصه اكتمال الشخصية، فلقد ظلت بعض الدواوين تكتب بلغة أهل البلاد المفتوحة وتقوم على خبرات كتابها، حتى عهد عبدالملك بن مروان، الذي عرب الدواوين، وكانت تكتب في الشام بالرومية، فنقلها له إلى العربية سليمان بن سعد الخشني سنة ٨١هـ. وكانت تكتب في العراق بالفارسية، فعربها صالح بن عبدالرحمن أيام الحجاج بن يوسف، وفي مصر كانت تكتب بالقبطية، فنقلها إلى العربية ابن يربوع الفزاري، بإشراف الوالي عبدالله بن عبدالملك في خلافة أخيه الوليد بن عبدالملك بن مروان، وفي مصر عربت القراطيس (أوراق البردي)، حيث كانت تصدر بالشعار المسيحي فأمر عبدالملك بن مروان بإزالة ذلك واستبداله بذكر الله تعالى، والنبي عليه الصلاة والسلام، وكذلك فعل بصناعة الطرز (الأقمشة) فأمر بتعريب الكتابات والنقوش التي عليها كما سك عبدالملك النقود

---

(١) عن الدواوين في العصر الأموي، انظر/ أحمد السيد دراج: صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية، دعوة الحق، سلسلة شهرية تصدر عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، السنة الأولى، ١٤٠١هـ، ذو القعدة، العدد (٨)، ص٢٦ – ٣٤. – نجدة خماش، الشام في صدر الإسلام، ص ٢٦٠ – ٢٧٥ – زريف مرزوق المعايطة، نشأة الدواوين وتطورها في صدر الإسلام، ص ٨١ وما بعدها.

الإسلامية، وأوقف التعامل بالدنانير الذهبية البيزنطية، والدراهم الفضية الفارسية[١] وما أعظم اثر تلك الأعمال على الدولة الإسلامية، فقد صبغت الدولة بصبغة الإسلام ولغته، وأدت إلى تميز الدولة وتكامل شخصيتها، وتحريرها من أي نفوذ أجنبي.

ومن معالم الدولة الإسلامية البارزة مطلع القرن الثاني ما وصلت إليه من تقدم علمي ملحوظ، وبخاصة في العلوم الدينية من قراءات وتفسير وحديث وفقه. و في الأدب، والكتابة التاريخية. فقد عاشت الدولة الإسلامية حركة علمية نشطة، تتزامن مع بداية الرسالة، حيث جاء القرآن آمرًا بالعلم حاثًا عليه مفضلاً لأهله، وكذلك الحديث والأثر، ومن هنا عاشت الأمة حركة علمية واسعة، حظيت باهتمام أولي الأمر وأهل العلم وإقبال الناس[٢].

---

(١) عن تعريب الدواوين والقراطيس والطرز وسك العملة الإسلامية، انظر/ فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية (منذ قيام حكومة الرسول بالمدينة حتى نهاية الدولة الأموية)، ماجستير في الآداب، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م. ص٢٠٥ – ٢١٩.

(هذا وقد أغفل فرج الهوني وغيره من المؤرخين المحدثين الذين تحدثوا عن تعريب الدواوين، الإشارة إلى تعريب ديوان خراسان، وكان بالفارسية، فنقله إلى العربية إسحق بن طليق الكاتب سنة ١٢٤هـ في ولاية نصر بن سيار بأمر من عامل العراق يوسف بن عمر الثقفي، في خلافة هشام بن عبدالملك. عن ذلك (انظر/ الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبدالحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده، بمصر، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص٦٧). وهذا يعني أن تعريب الدواوين وأن بدأ في عهد عبدالملك بن مروان إلا أنه لم يستكمل في بعض الأقاليم إلا في أواخر الدولة الأموية.

(٢) عن النصوص الدالة على فضل العلم ووجوب العمل به وتعليمه، وما اتخذ من تدابير في سبيل دفع الحركة العلمية والكتب التي اختصت بذلك، انظر: سعد بن موسى الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة النبوية خلال القرن الثاني الهجري، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، مقدمة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، غير مطبوعة، ١٤٠٩هـ، ص ٣ – ٧ – خليل داود الزرو: الحياة العلمية في الشام في القرن الأول والثاني للهجرة، رسالة ماجستير في الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، التربية والفكر في الإسلام خلال عصور الإسلام القوية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٩ – ١٩.

ولا شك أن العلم بمبادئ الدين الجديد، قد حظي باهتمام الناس وتكالبهم عليه، فكانت حركة العلوم الدينية أكبر الحركات العلمية وأوسعها نطاقًا. حيث أقبل الناس على القرآن يتلونه، ويفهمون معانيه، يفسرون آياته ويستنبطون منه الأحكام، وكذلك فعلوا في الحديث، وقد بدأت هذه الحركة منذ زمن المصطفى ﷺ ، ثم أخذت في الاتساع بعده، فقد تتلمذ صحابته رضوان الله عليهم على يديه، فصاروا أئمة يقتدى بهم، وعلماء يعلمون الناس ويفقهونهم في الدين، أينما كانوا وحيثما حلوا، سواء كان ذلك بتوجيه من أولي الأمر أو من تلقاء أنفسهم، فكونوا لهم مدارس بالأمصار، أصبح التابعون فيها تلاميذهم، ثم أضحى هؤلاء علماء الناس، تلقى عنهم أتباعهم، في حركة علمية متنامية جيلاً بعد جيل[1].

وإذا أراد الباحث أن يتحدث عن العلوم في القرن الأول الهجري فإنه لا يستطيع فصل علم من العلوم عن علم آخر، كما يصعب العثور على عالم لا يجيد إلا تخصصًا واحدًا[2]. لهذا آثرنا الحديث عن العلوم في قول مجمل، يركز على أهم معالم هذه النهضة، نشأتها وتطورها، وأيضًا بداية التدوين ومراحله، والسمات الأساسية للحركة العلمية، وأهم مظاهر نشاطها.

لقد ظل الأسلوب الغالب في حفظ العلوم وتدارسها، أسلوب الحفظ في الذاكرة، حيث سيطر هذا المنهج على العلوم إلى ما يقارب الربع الأخير من القرن الأول الهجري[3]. لكنه لم يكن الأسلوب الوحيد، فقد اعتمد المسلمون أيضًا على تقييد العلم، وبدأوا يدونونه منذ عهد الرسول ﷺ ، بعلمه و أمره أو إقراره، من ذلك كتابة القرآن، وما كتبه الرسول إلى الملوك والأمراء وبعض عماله، وكذلك ما كتبه بعض الصحابة من صحف خاصة بهم، تضم فنونًا شتى، حديثًا وفقهًا وغير ذلك كعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وأبوشاة، وأبوأمامة الباهلي، وأبوالدرداء، وأبوموسى الأشعري، وابن عباس وغيرهم كثير، ويذكر في هذا الصدد أكثر من خمسين صاحبيًا

---

[1] أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة العلمية، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٦٥م، ص ١٤٥ – ١٥٢.

[2] سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص ٨.

[3] سعد الموسى: نفس المرجع، ص٨٥.

كتبوا الحديث أو كتب لهم[1].

ولما جاء عصر التابعين ومن تلاهم، قويت الحركة العلمية، بسبب الفتوح، وما أدت إليه من دخول أمم متعددة ذات تراث حضاري في الإسلام، وما أورثته من مستجدات ومتغيرات جعلت الحاجة ماسة في نشر العلم وتفقيه الناس وتلبية حاجاتهم، فنما العلم وكثر التدوين زمن التابعين[2].

أما تلقي المعلومات ونقلها إلى الآخرين، فكان يتم بعملية شفهية بحتة، وأما حفظ هذه المعلومات فكان يعتمد على الكتابة في معظم الأحوال، ليستذكر العالم ما كتب، يستعين به على الحفظ، ويعود إليه وقت الحاجة[3].

أما مراحل ذلك التدوين، فالحق أن وضع فواصل زمنية لمراحل تطوره، أمر لا يمكن تحقيقه على وجه الدقة المطلقة، والآراء حول ذلك متضاربة، وأن قد تبين بما لا مجال للشك معه، أن بداية التدوين تمت منذ العصر النبوي، وإن كانت بدايات بسيطة غير واضحة المعالم. ويبدو أن اختلاف الآراء حول بداية التدوين، راجع إلى الاختلاف في فهم المقصود بالتدوين، أهو بداية الكتابة، أم تأليف الكتب، أم وضع المصنفات المبوبة المرتبة، فمن عنى بالتدوين الكتابة جعل بدايته منذ عصر النبوة، ومن عنى به ظهور الكتب الجامعة للعلم دون تبويب وترتيب، أرخ له بأواخر القرن الأول وبداية الثاني، ومن عنى به التصنيف في العلوم كل على حدة وفق التبويب والترتيب، جعل

---

(١) رفعت فوزي عبدالمطلب: صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه، تحقيق وشرح، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ص ٤ - ٥ - وانظر للمؤلف أيضاً/ توثيق السنة في القرن الثاني الهجري أسسه واتجاهاته، رسالة مطبوعة، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨١م، ص٤٧ - ٥٣ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص ٨٥ - ٨٦ - خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص ٧٥.

(٢) من أجل ذلك، انظر/ أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٩٧ - ١٩٨ - سعد الموسى: نفس المرجع، ص١٠، ٢٤، ٨٦ - ٨٧ - خليل الزرو: نفس المرجع، ص٧٨. وسيتبين مدى انتشار التدوين عند دراستنا لجوانب الحياة العلمية زمن يزيد في الفصل السادس.

(٣) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م، ١ / ٧٥ - ٧٦.

بدايته منذ منتصف القرن الثاني تقريباً[١].

ولعل مما ساعد على القول بتأخر التدوين، الاعتماد على ما اشتهر من القول، أن المسلمين اعتمدوا في حفظ علومهم على الذاكرة وتناقولها وتدراسوها عن طريق الرواية الشفهية البحتة، مع إغفال دور التدوين والمدونات في تلك العملية. وكذلك على ما ورد من نصوص تفيد كراهة الكتابة والنهي عنها من رسول الله ﷺ ، وبعض الصحابة رضوان الله عليهم، وعدد من التابعين، وتلك أمور لا تصح عطفاً على ما قدمناه من ثبوت التدوين منذ عهد رسول الله ﷺ . وقد فند رفعت فوزي عبدالمطلب[٢] تلك المزاعم وعلل ما ورد حول القول بالكراهية وأقرب ما رأيته إلى الصحة عن مراحل تدوين العلم، التقسيمات التي وضعها سعد الموسى[٣]، الذي جعلها ثلاث مراحل:

الأولى: كتابة القرآن، وتدوين بعض المعلومات المتفرقة من حديث أو فقه أو شعر أو نوادر، على يد بعض الصحابة، و استمر ذلك حتى الربع الأخير من القرن الأول، وكان صاحب هذه المدونات يسمونها صحيفة أو جزءًا.

الثانية: جمع الكتابات المتفرقة في كتاب واحد بدون ترتيب أو تبويب، كجمع السنن في دفاتر زمن عمر بن عبدالعزيز، وهذه المرحلة جاءت في أواخر القرن الأول وبداية الثاني.

الثالثة: مرحلة التصنيف المبوب المرتب حسب الموضوعات، وتبدأ منذ منتصف القرن الثاني تقريبًا.

أما صفة العلماء في العصر الأموي وتدوينهم ومدوناتهم فجملة القول فيها، أن

---

(١) ممن فهم التدوين على أنه التصنيف الذي تم في العصر العباسي، محمد يوسف موسى، انظر قوله في كتابه: تاريخ الفقه الإسلامي، الجزء الثاني، عصر نشأة المذاهب، دار المعرفة، القاهرة، ص٥٠.

(٢) من أجل ذلك، انظر: توثيق السنة، ص٤٣ – ٥٤.

(٣) تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٨٦ – ٨٧.

وعن مراحل التدوين التاريخي بشكل خاص، انظر/ محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ماجستير مطبوعة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص٢٨٦ – ٢٩٠.

العلماء كانوا موسوعيين، يأخذون من كل علم بنصيب وافر، وكان للعلماء من الموالي دورهم المميز إلى جانب العرب خصوصًا في أواخر القرن الأول، وكانت العلوم والدروس خليطًا من فنون العلم المختلفة، لا تميز بينها ولا استقلال، وأن بدأ في أواخره ظهور التدوين والتدريس المستقل لكل علم[1]. أما العلوم المدونة فلم تكن إلا مجموعة روايات وأخبار لا أثر للدرس والتحقيق فيها[2]. فلم تظهر شخصية المؤلف فيما دُوِّن، واقتصر دوره على الجمع في الغالب[3]. وقد أنصبت العناية بشكل رئيسي في ذلك العصر على العلوم النقلية، بينما ظهر الاهتمام بالعلوم العقلية في العصر العباسي[4].

ولقد حظيت الحركة العلمية باهتمام غالب الخلفاء الأمويين، لكنه اهتمام محدود الجوانب والأثر، غير أن العلوم عاشت حركة نمو من تلقاء نفسها، في أمة دعاها الدين الحنيف إلى العلم وحثها عليه[5].

وكان لهذا النشاط العلمي مظاهره المتمثلة في مؤسساته ورجاله، ومناهجه، ويأتي على رأس المؤسسات العلمية في صدر الإسلام المساجد[6]، حيث قامت بالدور الأساسي في التعليم وأشهرها المسجد النبوي، والمسجد الحرام، وجامع دمشق، والكوفة، والبصرة، وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط، وجامع القيروان بإفريقية. حيث جلس رسول الله ﷺ في مسجده يعلم الناس، وهكذا فعل علماء الصحابة والتابعين، كانوا يجلسون في حلقات علمية، غالبًا ما تكون متعددة في الجوامع الكبيرة، ويتناولون من

---

(1) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٥٢، ١٦٣ - ١٦٤.

(2) محمد عبدالمنعم خفاجي: تاريخ الأدب في العصر الأموي مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ص١٩.

(3) أحمد أمين: نفس المرجع، ص ١٦٩.

(4) محمد الحسيني عبدالعزيز: الحياة العلمية في الدولة الإسلامية، ماجستير مطبوعة، وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٣م، ص ١٨ - محمد خفاجي - نفس المرجع، ص٤٤.

(5) محمد بدوي: دراسات في التربية والفكر في الإسلام، ص٢٥ - ٢٨ - أحمد أمين: نفس المرجع، ص١٦٤ - ١٦٥، ١٨٩.

(6) عن دور المسجد في خدمة الحركة العلمية، انظر/ محمد بدوي: دراسات في التربية والفكر في الإسلام، ص ٧٢ - ٧٤ محمد السيد الوكيل: الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه، دار المجتمع للنشر والتوزيع، السعودية، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٤ - ١٦.

العلم فنونًا شتى من تفسير وحديث وفقه ومغاز وغير ذلك، كابن عباس، ومنهم من يقتصر الدرس في حلقته على فن معين كالقصص أو المغازي أو اللغة. وكانت هذه الحلقات إما فردية، يتصدرها عالم واحد، كحلقة سعيد بن المسيب، أو ثنائية يشترك فيها عالمان، كحلقة سالم بن عبدالله و القاسم بن محمد في المسجد النبوي. وكان لبعض الأسر حلقات، كأسرة آل حزم وآل عقبة. كما كان هناك مجالس لبعض العلماء في منازلهم، ومجالس لكبار الفقهاء في المدينة، يعرض عليه ما أشكل من المسائل[1]. وكان للتعليم في هذه الحلقات والمجالس، مناهجه وأساليبه وآدابه[2].

ومن دور العلم الكُتَّاب[3]، وهي من أقدم مؤسسات التعليم في الدولة الإسلامية، حيث أسهمت مع المساجد في نشر العلوم والمعارف، وتعتبر النواة الأولى في العملية التعليمية، ولعل دورها الأساسي تعليم الصبيان القراءة والكتابة، وتحفيظهم القرآن. وقد اشتغل بالتعليم فيها رجال بلغوا درجة كبيرة من العلم، كالإمام القدوة الحافظ، القاسم بن مخيمرة الهمداني الكوفي (ت ١٠٠هـ أو ١٠١هـ).

كما ظهرت فئة المؤدبين في العصر الأموي، وهم الذين يعلمون أبناء الخلفاء والأمراء والخاصة، ويشرفون على تأديبهم وتربيتهم في منازل آبائهم، ومن مؤدبي ذلك العصر دغفل بن حنظلة الشيباني، الذي اختاره معاوية رضي الله عنه مؤدبًا لابنه يزيد، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مؤدب بني عبدالملك بن مروان، وكان الخليفة يزيد ممن تربى على يديه، وغيرهما كثير. وكان اختيارهم يتم وفق شروط يأتي في مقدمتها الدين وسعة العلم والفضل، وكان للتأديب مناهجه وطرقه، وهو بهذا كان عظيم

---

(١) عن الحلقات والمجالس العلمية، انظر/ سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص ٨٩ - ٩١.

(٢) عن مناهج وطرق التعليم وأساليبه، انظر/ محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي - محمد بدوي: دراسات في التربية والفكر في الإسلام، ص ٩٤ - ١٠٦ - خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ٢ / ١٩ - ٢٣.

(٣) عن الكتاب، انظر/ يوسف أحمد حواله: الحياة العلمية في إفريقية "المغرب الأدنى" منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، رسالة دكتوراه غير مطبوعة، مقدمة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ١٤٠٥ - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥ - ١٩٨٦م، ص٢٣٢ - ٢٣٤ - محمد بدوي: نفس المرجع، ص ٦٦ - ٧١.

الأثر في شخصيات هؤلاء المتعلمين[١].

وإلى جانب ذلك عُرفت المكتبات العامة والخاصة، وقد وصلت إلى درجة جيدة من وفرة الكتب، وكفايتها على القيام بالدور المنوط بها، ومنها خزانة الأمويين للكتب، ومكتبات العلماء في منازلهم، كمكتبة عروة بن الزبير، وبعض المكتبات التي أقامها بعض الناس لخدمة العلم، وفتحت أبوابها لسائر المتعلمين، كمكتبة عبدالحكم بن عمور بن عبدالله بن صفوان الجمحي، وقد كان هناك أسواق رائجة للنسخ الكتب وبيعها، ساعدت على انتشار الكتب وظهور المكتبات ونشاط حركة العلم[٢].

وعلى ضوء هذا العرض الموجز لأهم منجزات العصر الأموي حتى مطلع القرن الثاني - ماعدا سياسات عمر بن عبدالعزيز وإصلاحاته والتي سنشير إلى معالمها في أواخر هذا التمهيد - يتبين بما لا اختلاف حوله عظمة الإنجازات التي تحققت في الستين عامًا - تقريبًا - التي سبقت عهد يزيد بن عبدالملك. خصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار ما عانته الدولة الأموية من مشاكل داخلية مستعصية، كان من الممكن في حالة عدم وجودها تضاعف تلك الإنجازات وإزديادها.

فقد حفل العصر الأموي بصراع داخلي شبه دائم، تمثل في قيام كثير من الحركات المناوئة للحكم الأموي والخارجة على سلطان المسلمين، والتي كان وراء حدوثها أسبابًا متعددة، أما مذهبية ودينية، أو سياسية ذات صبغة شخصية، أو نزعة إقليمية، أو عرقية، وإن كان من الحق القول بأن سياسات حكام بني أمية، كانت وراء قيام بعض تلك الحركات والتي ابتلى المسلمون بفتنها، وشغلت الدولة بإخمادها، وأراقت من الدماء، واستنزفت من الجهد والمال الكثير. فكانت بذلك عقبات أعاقت الدولة عن تحقيق كثير من أهدافها العليا، كالاستمرار في الفتح ونشر الدين، والاهتمام بتطوير الدولة وخدمة رعاياها. كما عرضتها للمخاطر وطمع الأعداء المتربصين في الداخل والخارج.

---

(١) عن المؤدبين في العصر الأموي، انظر/ محمد صالحية: مؤدبوا الخلفاء في العصر الأموي، (بحث)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، تصدر عن جامعة الكويت، العدد الثالث، المجلد الأول، صيف ١٩٨١م، ص٣٥ - ٧٤ - خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص ٢١، ٢٨ - ٢٩.

(٢) أنظر/ أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٦٣، ١٦٧، ١٦٨ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة النبوية، ص ٢٤، ٢٣، ٨٧، ٩٦.

ومع ذلك فقد تصدى لها الخلفاء الأمويون، وعالجوها بشيء من اليقظة والحزم حينًا، وبالحكمة واللين حينًا آخر، بينما ظلوا في عزيمة لا تهن يواصلون تحقيق كثير من الخير للإسلام ودولته. وإن كان تكالب تلك الظروف، واستمرار تلك الحركات، قد أوهن جسم الدولة الأموية مع الأيام، فأدى أخيرًا إلى انهيارها قبل أن تبلغ من العمر قرنًا من الزمان.

ويمكن حصر أهم تكل الحركات، في حركات الخوارج، ومن خرج من رجالات الإسلام والعرب، على الحكم الأموي، على أساس رفض وراثة الخلافة، والمطالبة بعودتها شورية والدعوة لأنفسهم باعتبارهم أحق بالخلافة، ومنهم من كان خروجه لأسباب ومطامع شخصية. وكذلك حركات الموالي، وحركات أهل الذمة.

فالبنسبة لحركات الخوارج في العصر الأموي، فما هي إلا استمرارًا لحركاتهم التي بدأت منذ نشأة هذه الفرقة في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إذ يكاد المؤرخون وأصحاب الملل والنحل أن يتفقوا على أن ظهور فرقة الخوارج كان بعد حادثة التحكيم زمن الخليفة علي رضي الله عنه، وقد انقسم الخوارج إلى فرق كثيرة اختلف المؤرخون على عددهم، لكنهم اتفقوا على أنها لا تقل عن عشرين فرقة، بعضها أصول وبعضها فروع. وفرقهم الأصلية – على خلاف – هي: المحكمة الأولى، والأزارقة، والنجدات، والبيهسية، والعجاردة، والثعالبة، والأباضية، والصفرية، ويجتمع الخوارج رغم اختلافهم على تكفير علي وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضي بالتحكيم وصوب الحكمين أو أحدهما، ووجوب الخروج على السلطان الجائر، كما يتفقون على أن الخلافة لا يتولاها أحد إلا بانتخاب حر صحيح، يقوم به عامة المسلمين، ويبقى في منصبه مادام يطبق الشرع، فإن انحرف أو أخطأ وجب عزله وقتله، ويقولون أن الخلافة حق لكل عربي حر، وأنه إذا اختير لا يحق له أن ينزل عنها، ثم أدخلوا تعديلاً على هذا الشرط في أواخر القرن الأول الهجري، فاشترطوا الإسلام والعدل بدلاً من العروبة والحرية، وذلك لإنضمام بعض المسلمين من غير العرب إلى صفوفهم، كما أنهم يختلفون على أمور كثيرة أيضًا.

وتعتبر معركة النهروان سنة ٣٧هـ، أول حرب يخوضها الخوارج ضد الدولة الإسلامية، كما أنها أول وآخر معركة يجتمع فيها الخوارج تحت قيادة واحدة، حيث

تفرقوا بعدها، واختلفوا فيما بينهم، فتعددت فرقهم.

فلما انتقلت الخلافة إلى بني أمية، رأى الخوارج أن حرب معاوية حق لا شك فيه، لاعتقادهم أنه لم ينل الخلافة عن إجماع من المسلمين ورضا منهم، ولما اتخذه من مظاهر الملك، لذا قامت منذ عهد معاوية رضي الله عنه وحتى آخر العصر الأموي حروب كثيرة بين فرق الخوارج الثائرة، وولاة بني أمية، وخاصة في العراق، فتصدى لها ولاة بني أمية على العراق، كالمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي، ونجحوا في توجيه ضربات قاضية لنشاط الخوارج الأمر الذي أدى إلى ازدياد الخلاف بين فرقهم وانقسامهم إلى عدة فرق، مما ساعد الأمويين على ملاحقتهم والقضاء على حركاتهم، حتى استؤصلت فرق من الخوارج نهائيًا، كفرقة الأزارقة التي قضى عليها (سنة ٧٧هـ)، في ولاية الحجاج الثقفي.

ونتيجة لجهود الحجاج وقائده المهلب بن أبي صفرة، هدأت حركات الخوارج في عهد الوليد بن عبدالملك وأخيه سليمان بن عبدالملك، ثم عادوا للظهور زمن عمر بن عبدالعزيز[1].

أما أهم الحركات التي قام بها رجالات الإسلام والعرب، فكان أولها خروج الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه على يزيد بن معاوية، بعد رفضه بيعة ليزيد، وإرسال العراقيين له بالبيعة وهو في مكة، داعينه للخروج إليهم لمناصرته، فخرج إلى العراق لكن الأمر انتهى بمقتله بعد خذلان أهل العراق له، وذلك في كربلاء (سنة ٦١هـ)[2].

---

(١) عن الخوارج في تلك الفترة، انظر/ نايف محمود معروف: الخوارج في العصر الأموي، نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، أدبهم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م – علي مصطفى الغرابي: تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م، ص٢٦٤ – ٢٨٤ – فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين (٩٠ – ١٣٢هـ)، رسالة ماجستير، غير مطبوعة، مقدمة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ، ص١٠١ – ١٠٤ – حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي، ١ / ٣٧٥ – ٣٩٤.

(٢) عن قيام الحسين على يزيد بن معاوية، انظر/ عبدالعزيز غنيم: موقف الحسين من الخلافة وآثاره السياسية، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية اللغة العربية الأزهر.

واستعاذة عبدالله بن الزبير رضي الله عنه بالبيت، ثم البيعة له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، وخضوع الأمصار الإسلامية له ماعدا بعض بلاد الشام، والأمويين وبعض بني هاشم، لكن أمره تناقص وانتهى بمقتله (سنة ٧٣هـ)[١]. وحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، والذي قام باسم المطالبة بحق آل البيت في الخلافة، والدعوة لمحمد بن الحنفية، وإن كان قد أخفى مطامعه الشخصية وراء ذلك وهي الوصول إلى السلطان، وانتهى الأمر بمقتله (سنة ٦٧هـ)[٢].

وحركة عبدالرحمن بن الأشعث، الذي خلع الحجاج وعبدالملك بن مروان، أنفة من الخضوع للحجاج، وطموحًا لأهداف شخصية، ساعده على ذلك كره الناس للحجاج، والنزعة الإقليمية في نفوس العراقيين تجاه أهل الشام وحكومته، وانتهى الأمر بمقتله (سنة ٨٥هـ)[٣]. وغيرها من الحركات[٤].

أما حركات الموالي، فلاشك أن سياسات بعض الحكام الأمويين كانت وراء قيامها، إذ دخل الموالي في دين الإسلام، مدفوعين إليه بعظمته وسماحة مبادئه وشرائعه، عالمين ما تحتوي عليه من العدل والمساواة بين الناس. فكانوا ينتظرون بعد إسلامهم أن يكونوا للعرب الفاتحين أخوة في الإسلام، متساوين معهم في الحقوق والواجبات، ينعمون بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة. لكن الأمر الواقع في العصر الأموي، لم يأت بتلك الصورة المثلى، التي رسمها الإسلام وحدد معالمها، حيث تجمع الإشارات في المراجع التاريخية على دلائل لأنفة العربي وتعاليه على الأعجمي، ونحن لا نستبعد وقوع شيء من هذا، إذ كنا نعلم بعودة العصبية إلى الظهور بين العرب أنفسهم، لكن الأمر لا يصل

---

(١) عن قيام عبدالله بن الزبير على الدولة الأموية، انظر/ علي الخربطلي: حركة ابن الزبير وأثرها على تاريخ الدولة الأموية، ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة – شحادة الناطق: ثورة عبدالله بن الزبير، ماجستير كلية الآداب، الجامعة اللبنانية.

(٢) عن حركة المختار الثقفي، انظر/ خالد أبوالنصر محمد: قصة المختار بن أبي عبيد الثقفي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، نجيب جرجس: المختار الثقفي وأثره في العصر الأموي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة اللبنانية.

(٣) عن حركة ابن الأشعث، انظر/ نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص١٧٢ – ١٨٣.

(٤) عن الحركات في العصر الأموي عمومًا، انظر/ محمد جمعة عبدالعزيز: المعارضة في العصر الأموي، ماجستير، كلية الآداب، جامعة الملك عبدالعزيز.

إلى الحد الذي غالى فيه بعض الكتاب المحدثين، فإن من النصوص ما يدل على حسن معاملة الموالي، والتعامل معهم الند بالند، بل وتبجيلهم واتخاذهم أئمة يقتدى بهم، إذا ما كانوا أهلاً لذلك، كالحسن البصري وغيره من أهل العلم والفضل والدين.

والدولة الأموية، كان من أبرز معالمها الاعتماد على العنصر العربي، لكن ذلك لم يكن على وجه الإطلاق فقد اعتمد بنو أمية على الموالي في إدارة الدولة وماليتها، وقيادة جيوشها، فمن الولاة أبوالمهاجر دينار، ومن القادة طارق ابن زياد، ومن عمال الخراج عبدالله بن دراج مولى معاوية الذي ولاه خراج العراق. وغيرهم كثير.

والبين أن تذمر الموالي قد جاء بشكل رئيسي من بعض السياسات المالية المخالفة للنهج الإسلامي، والتي عمل بعض الحكام الأمويين على تطبيقها، فالنهج الإسلامي يقتضي إسقاط الجزية عمن أسلم، والخراج عن الأرض التي أسلم عليها أهلها والأرض التي صولح أهلها على أن تبقى على ملكهم، وأن يفرض له في العطاء، ولا يفرض عليه ضرائب غير شرعية، ولا يلزم إلا بدفع الزكاة.

وكان الأمويون قد أعادوا تنظيم الخراج والجزية واتخذوا بعض الإجراءات المالية المخالفة للنهج الإسلامي والمتسمة بالعسف والشدة، بما يكفل زيادة الموارد لمواجهة الاحتياجات المتزايدة للدولة وتغطية مصروفاتها. ففرضت الجزية على بعض من أسلم، وكان أول من فرضها الحجاج بن يوسف، الذي حرمهم أيضًا من حق ترك قراهم إذا ما أسلموا، وألزمهم العودة إليها – وسيكون لنا رأي عن مدى تطبيق هذا القرار وحدوده في الفصل الخامس – وكان عبدالملك قد زاد جزية العراقيين إلى أربعة دنانير، بعد أن رأى قدرتهم على ذلك، وكذلك فعل بأهل الجزيرة.

أما الخراج، فقد فكر معاوية في زيادة قيراط على القبط، وأن لم يتم في عهده فقد نفذ في خلافة هشام بن عبدالملك، مما أدى إلى ثورات القبط على الدولة الإسلامية (سنة ١٠٧هـ)، كما لم يسقطوا الخراج عن الأرض التي أسلم أهلها وكانوا قد صولحوا على أن تبقى ملكًا لهم، وتلك أرض يسقط عنها الخراج ويجوز بيعها وتكون عشرية. أما بالنسبة للعطاء، ففرض للبعض ولم يفرض للكل، فقد اشتكى موالي خراسان وإفريقية من عدم الفرض لهم في العطاء، مع إسلامهم ومشاركتهم في القتال. ويدل على ذلك أيضًا نقد العرب للمختار الثقفي، عندما جعل للموالي عطاء كمن معه من العرب. وكان

أول من فرض لهم في العطاء معاوية، حيث جعل لكل واحد خمسة عشر درهمًا، زادها عبدالملك خمسة، وكذلك سليمان وهشام، الذي بلغ عطاء المولى في عهده ثلاثين درهمًا وهو قليل إذا ما قورن بما يعطى للعربي، ومن هو في شرف العطاء.

أما الضرائب، فقد أعيد عليهم الضرائب التي كانوا يؤدونها قبل الإسلام، كهدايا النيروز والمهرجان وغيرها، وحدث ذلك منذ عهد معاوية.

وقد استخدم الأمويون أسلوب الشدة في تنفيذ مثل هذه الإجراءات، لإرغام الموالي على أدائها، وهذا ما أدى إلى تذمر الموالي وتمردهم وخروجهم على الحكام الأمويين، كلما وجدوا فرصة سانحة لذلك، فلكل فعل رد فعل، وذلك بالمشاركة في الحركات التي تقوم ضد الحكم الأموي، كالدخول مع المختار الثقفي، ومصعب بن الزبير وابن الأشعث، بل ومع الخوارج. أو بالقيام بحركات تخصهم تعبر عن نقمتهم وتطالب بحقوقهم، وظهر ذلك في النصف الثاني من العصر الأموي، مثل ذلك، تمرد الصغد في ما وراء النهر، وثورات القبط بمصر، والبربر بإفريقية، وأخيرًا الانضمام لأبي مسلم الخراساني، قائد الثورة العباسية، فكان لهم دور بارز في إسقاط الخلافة الأموية[1].

أما أهل الذمة، فقد حظيوا في ظل الدولة الإسلامية بسماحة الإسلام، ووجدوا من الأمويين التقريب وكثيرًا من التسامح والحظوة، فقد أعطوا الحرية الدينية التي نصت عليها عهود الصلح، بل وتسامح معهم الأمويون في هذا الأمر، إذ سمحوا لهم بممارسة شعائرهم بكل حرية، والاحتفال بأعيادهم، وابتناء الكنائس وترميمها، بل وإعانة الدولة لهم على بعض ذلك، كما قرب الذميون، فكان منهم شاعر البلاط كالأخطل، والطبيب، كابن أثال طبيب معاوية.

---

(١) عن الموالي، انظر/ محمد الطيب النجار: الموالي في العصر الأموي، دار النيل للطباعة، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ / ١٩٤٩م، ص٤٨ – ٦٨ – ثريا حافظ عرفة: الخراسانيون ودرهم السياسي في العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير مطبوعة، الناشر تهامة، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٢٨ – ٣٨ – فرج الهوني – النظم الإدارية والمالية، ص ١٩٢ – ١٩٦ – وانظر عن ثورات البربر، فاطمة رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص١١٣ – ١٤٤.

أما في مجال الإدارة. فقد اعتمد الأمويون على أهل الذمة في إدارة كثير من مرافق الدولة، وخصوصًا المالية منها. فقد أسند معاوية إلى سرجون بن منصور الرومي ديوان الخراج في دمشق وظل يتوارثه أبناؤه حتى تعريب الدواوين، وكذا كان حال أهل الذمة جميعًا، والحق أن التعريب لم يكن يعني إقصاء أهل الذمة عن تلك الوظائف، فقد ظلوا يتولون كثيرًا منها، ولكن بمشاركة العرب، بعد أن كانت مقصورة عليهم قبل التعريب.

غير أن المناصب الكبرى حولت إلى العرب ومن أسلم من أهل الذمة (الموالي)، بينما تركت الحكومة الإسلامية لرؤساء أهل الذمة، جباية الأموال من أبناء ملتهم.

لكن الأمويين اتخذوا تجاه أهل الذمة بعض الإجراءات المغايرة لما أشرنا إليه من حسن المعاملة والتسامح، وتمثل ذلك، في إعادة فرض ضرائب النيروز والمهرجان وغيرها مما كان يؤخذ منهم قبل الإسلام في العراق، كما فرض الخراج على الأساقفة وأملاك الكنائس، وزيد عليهم في الجزية والخراج، مع اتخاذ بعض التراتيب التعسفية ولتنفيذ ذلك، وضبطه.

ولقد ظلت طبيعة معاملة أهل الذمة، مرهونة باختلاف الخلفاء والولاة، والأوضاع السياسية خصوصًا مع الدولة البيزنطية، وموقف أهل الذمة منها.

وعطفًا على حسن معاملة الأمويين لأهل الذمة، وقلة قيمة تلك الضرائب والزيادات المالية التي وضعت عليهم، مع إحساسهم بعدم تثاقلها، لفرضه على من أسلم أيضًا، فقد أدى ذلك إلى استكانة أهل الذمة، وخلو صدر العصر الأموي من مشاركتهم في الحركات المناوئة أو القيام بثورات ضد الحكم الإسلامي.

إلا أن تزايد تلك الإجراءات المالية مع مرور الوقت، والتعسف في تنفيذها، واتخاذ بعض السياسات التي تحد من تجاوز أهل الذمة لما أعطوا من حرية دينية، بنص عهود الصلح والأمان، وما تسمح به مبادئ الدين الحنيف – كبعض سياسات عمر بن عبدالعزيز، ويزيد بن عبدالملك – وظهور بعض الزعامات الدينية والسياسية لهم، جعلتهم يقومون بعدد من الحركات في أواخر العصر الأموي، كثورات القبط في مصر (١٠٧ هـ)، وبعض حركاتهم التي شهدها عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك – وإن كانت

قد قامت بدوافع سياسية أو عقائدية - لا تأثرًا بسياسات بني أمية تجاههم[1].

هكذا كانت الدولة الأموية في أواخر القرن الأول الهجري فتوحات كبرى وتطورًا في كثير من المجالات، وبالمقابل حركات وفتن داخلية شبه دائمة، ومشاكل مستعصية، ومتغيرات ومستجدات كثيرة، كل ذلك تم في فترة وجيزة من عمر التاريخ مما ضاعف المسئولية على هذه الدولة، وأظهر حاجتها إلى وقفة ينظر من خلالها إلى كل ذلك، لإستيعابه والسيطرة عليه وهذا ما يستوجب ترتيب السياسات الأموية بما يتناسب مع كل تلك المنجزات والأحداث، والقيام بكثير من الإصلاحات، واحتواء كل المتغيرات والمستجدات وصهرها في قالب الدولة والأمة الواحدة، وتصحيح الاخطاء، وتطوير النظم والأساليب بما يمكن من هيمنة الدولة على الموقف، ثم مواصلة الواجب التاريخي.

وحقًا جاء عمر بن عبدالعزيز الرجل المناسب في الوقت المناسب، وأدرك ببعد نظره ما تعانيه الدولة داخليًا، وأن بدت قوية، وأن الاستمرار في التوسع لا يعني إلا إزدياد المتغيرات والمستجدات وثقل الحمل على كاهل الدولة، كما أن الاستمرار على النهج الأموي، في مواجهة الحركات الداخلية، والاكتفاء بالحلول الوقتية وإخمادها، دون النظر في أسبابها وعللها، وفي إصلاح الأحوال وتغيير السياسات، بما يضمن زوالها وعدم تكرارها، ما هو إلا استمرار للمشاكل وتعقدها. أدرك كل ذلك عمر، فوقف يصلح شئون الدولة، يتفحص مواضع الداء، فيصف الدواء، ولنعرض الآن لمعالم إصلاحته وسياساته تجاه أهم الأمور التي عاشتها الدولة قبله.

فبالنسبة لموقفه تجاه الفتوح. نرى أنه ارتكز على ثلاثة أسس أولها: الحد من التوسع في الفتوحات الخارجية وذلك لعاملين. العامل الأول: الالتفات إلى إصلاح الشئون الداخلية، لتمكين الدولة من استيعاب المتغيرات الكبيرة التي أورثتها الفتوح العظيمة

---

[1] عن أهل الذمة، انظر/ أ. س. ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق حسن حبشي، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد بمصر - توفيق سلطان اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق (١٢ - ٢٤٧هـ)، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣، ص ٧١ - ١٣٩ - نادية حسني صقر: سياسة عمر بن عبدالعزيز تجاه أهل الذمة، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ص٧ - ١٣. وعن حركات أهل الذمة في عهد يزيد بن عبدالملك انظر بعد الفصل الثاني. المبحث الثالث والرابع والخامس.

التي سبقت عهده وذلك عن طريق نشر الإسلام بين العناصر الجديدة التي انضوت تحت لواء الدولة، وحل مشاكلها وفق النهج الإسلامي، وصهر الأجناس والحضارات والعقائد في قالب المجتمع الإسلامي الكبير(١).

العامل الثاني: الحرص على الجند الإسلامي، سواء كان المحارب في ميادين القتال أو المرابط في الثغور، وتقديم المحافظة على سلامته وأمنه، على المغامرة به إذا ما تعرض للأخطار، ويتبين موقفه هذا من سياسته إزاء الفتوحات الإسلامية في الجبهات العسكرية في ما وراء النهر شرقًا، ومع الروم شمالاً، وفي الأندلس غربًا، فلقد حاول عمرو إجلاء المسلمين من بلاد ما وراء النهر إلى خراسان بعد أن لمس الأخطار المحدقة بهم من جراء تمرد الصغد وهجمات الترك على تلك البلاد، ثم أمر بإيقاف الفتح في ذلك الميدان، والاكتفاء بما فتح بعد أن امتنع المسلمون عن الجلاء(٢).

أما الحرب مع الروم، فقد أمر عمر بفك الحصار الذي فرض على القسطنطينية منذ عهد سلفه سليمان بن عبدالملك، بعد أن تكالبت الظروف على الفاتحين وتعرضوا للمخاطر والهلاك، وفي آسيا الصغرى نقل المرابطين في ثغر طرندة إلى ملطية، ثم أخرب طرندة، خشية على المسملين لإيغالها في بلاد الروم، كما فكر في هدم المصيصة للسبب نفسه، فأمسك عندما تبين أهمية بقائها(٣).

كما فكر عمر في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها منهم، خشية من تغلب العدو عليهم، ولانقطاعهم وراء البحر عن المسلمين(٤).

ولعل خبر ظهور المقاومة النصرانية بقيادة بلاي في الأندلس، في أواخر خلافة

---

(١) عن سياسة عمر تجاه أهل الذمة، ونشر الإسلام بين العناصر الجديدة وتفقيهها، انظر/ نادية حسني صقر: سياسة عمر بن عبدالعزيز تجاه أهل الذمة - ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، ماجستير مطبوعة، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص١٧٣ - ١٧٩.

(٢) انظر نص هذا الخبر بعد: الفصل الرابع، المبحث الأول، ص٢٣٥.

(٣) من أجل ذلك، انظر/ ماجدة فيصل زكريا: نفس المرجع ص١٦٨ - ١٧٠ - هاشم الجاسم: دراسة تاريخية عسكرية، ص١٤٠.

(٤) انظر/ حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ١٣٦ - ١٣٧.

سليمان – والتي سنتحدث عنها في الفصل الثاني – قد وصل إلى مسامعه، فخشى على المسلمين سوء العاقبة.

الأساس الثاني: تغليب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ونشر الإسلام دون قتال، وتمثل ذلك في توجيه رسائله ورسله إلى ملوك القوى المجاورة، يدعوهم إلى الإسلام، فقد بعث إلى ملوك السند وما وراء النهر والى ليو الثالث إمبراطور الروم[1].

الأساس الثالث: حسن تجهيز القوة الإسلامية، وإعداد الجندي المؤمن المجاهد، العارف بمبادئ دينه وأخلاقياته، وأكد على قواده، تحقيق منهج الإسلام في فتوحاتهم، وذلك بدعوة الأعداء إلى الإسلام، أو دفع الجزية، وإلا فالقتال، كما حرص على صيانة الثغور وأعمارها، كأمره ببناء اللاذقية بعد أن هدمها الروم من جراء غارة قام بها أسطولهم عليها في زمنه[2] وكذلك الحرص على درء الأخطار عن الدولة وصيانة حدودها، والدفاع عنها، مثل ذلك توجيه حاتم بن النعمان الباهلي للتصدي للخزر الذين أغاروا على أذربيجان، وأيضًا الحرص على إبقاء زمام المبادرة بيد المسلمين ومواصلة الجهاد، من ذلك الاستمرار في إرسال حملات الصوائف والشواتي إلى بلاد الروم، وقيام عامله على السند بغزو بعض بلاد الهند، وكذلك إيغال الجراح الحكمي عامله على خراسان في بلاد الترك حتى هم بدخول بلاد الصين[3].

لقد حاول عمر أن يتخذ سياسة عسكرية متوازنة، فلا قتال إلا بعد الدعوة إلى الله، ولا جهاد إلا باسم الدين ووفق مبادئه، ولا غزو ولا مرابطة فيها مخاطرة بجند المسلمين، ولا استكانة أو ضعف، بل إعداد وتيقظ ودفاع عن الإسلام ودياره وأهله، وإن كانت بعض سياساته كإيقاف الفتوح، قد أطمع بعض الأعداء في غزو المسلمين، كالترك في ما وراء النهر، والخزر في أذربيجان، أو تمرد بعض العناصر الجديدة في الأطراف، كتمرد الصغد فميا وراء النهر. لكن العمر القصير لخلافة عمر لم يسمح

---

(1) عن ذلك، انظرم قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، العراق، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م. ص٤٠٩، ٤٢١ – ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسيلته في رد المظالم، ص١٧٢ – ١٧٣.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٩، ماجدة فيصل زكريا، نفس المرجع، ص١٧٢.

(3) ماجدة فيصل زكريا: نفس المرجع، ص١٧٠ – ١٧١.

بوضوح منهجه، والتمكن من تطبيق كل سياساته، التي أراد من ورائها الإصلاح، في ضوء فهم صحيح لأوضاع الدولة، ووفق النهج الإسلامي. كما أن عودة يزيد بن عبدالملك إلى سياسة التوسع في الفتوح، قد عاق استكمال ما بدأه.

أما سياسات عمر بن عبدالعزيز الإدارية والمالية، وما قام به من تنظيمات وإصلاحات، وموقفه من السياسة التي اتبعها الخلفاء الأمويين قبله في هذا المجال، فقد أخذت السمة العامة لخلافته، وهي العودة إلى هدى الخلفاء الراشدين. فأحيا ما مات من السنن، وأمات ما ظهر من البدع وأصلح ما أحدث من الأمور، في حركة إصلاح كبرى، عمت جميع مناحي الحياة ومرافق الدولة، وكان هدفها نشر العدل، ودفع الظلم، وتطبيق الشرع بين الناس. ولا غرابة في ذلك فقد جاء عمر إلى الخلافة وقد خبر الأمور، وأعد لكل داء دواء. وهذا ما جعل البعض يعده خامس الخلفاء الراشدين.

وسنتكفي هنا بذكر المعالم الرئيسية لسياسته في هذا المجال، مما له علاقة بما قدمناه عن أحوال الدولة قبله، وما يرتبط بسياسة يزيد بعده.

فبالنسبة لتطوير النظم الإدارية والمالية، قام عمر بإنشاء فروع لديوان بيت المال وفق موارده، فجعل لكل من الفيء والصدقة والخمس، بيوت مال تخصها، منعًا للتداخل والفوضى، كما نظم السجون وأعد لها ديوانًا خاصًا يشرف عليها.

أما إدارة الدولة فقد سار على مبدأ الشورى. ومظاهر الخلافة الراشدة، وقام عمر بعزل من أساء السيرة من العمال وولى أهل التقوى والصلاح والقدرة[1]. وجعل ولايتهم عامة، وأطلق أيديهم، لكنه ظل موظفًا لهم، رقيبًا عليهم، محاسبًا لمن خالف منهم، كما وسع عليهم تحصينًا لهم من الخيانة وإعانة لهم على التفرغ لشئون الرعية. وفي المقابل أمر عمر بمنع استعمال غير المسلمين في إدارة الدولة، والعمل في دواوينها، وعزل من كان بها، إلا من أسلم منهم[2]. وندب عمر نفسه لرد المظالم، عامة أو

---

(1) عن عزله العمال السابقين، انظر/ اليعقوبي: مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٢م، ص ١٩ – محمد كرد علي: الإدارة الإسلامية في عز العرب، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م، ص٩٧.

(2) عن أمر عمر بمنع غير المسلمين من الأعمال الإدارية، انظر/ ابن الأثير: الكامل، ٤ / ١٦٥ – نادية حسني صقر: سياسة عمر بن عبدالعزيز تجاه أهل الذمة، ص٣٤ – ٤٥.

خاصة، وجد في ذلك.

أما من الناحية المالية: فقد رشد مصروفات الدولة، وحفظ بيت المال من الإهمال والتفريط، وحافظ على أموال المسلمين.

وفي سبيل معالجة وإصلاح بعض السياسات المالية السابقة. أمر عمر برفع الجزية عمن أسلم، وعن الرهبان، وألغى الضرائب غير الشرعية، ما كان منها على العرب أو الموالي أو أهل الذمة، ورفع الخراج عن أملاك الكنائس، وأسقط ما زيد على صلح بعض أهل الذمة، كما وسع دائرة العطاء، وزاد فيه، وفرض للموالي، وألغى عمر المكوس.

ومن ناحية أخرى حرص عمر على تنمية موارد الدولة والمحافظة عليها، ومن أجل ذلك منع بيع الأراضي الخراجية، وأكد على بقائها خراجية حتى مع إسلام صاحبها، يدفع عنها الخراج إن بقي عليها، أو من صارت اليه[١]، ونظم الأراضي المفتتحة حديثًا، كأمره بمسح الأندلس. واستصلح واستغل أراضي الصوافي لصالح المسلمين، ومنع إقطاعها[٢]. وأكد على جباية الزكاة والعشور، وصرفها في وجوهها الشرعية[٣].

أما بالنسبة لدور عمر في النهضة العلمية التي شهدها العصر الأموي، فلاشك أن تكوين عمر العلمي، وتفقهه في الدين قد دفعه إلى دور مميز في خدمة العلم والعلماء، فقد أمر بنشر العلم، وحث العلماء على بثه من خلال حلقاتهم ومجالسهم، وعين المعلمين.

كما أنفق على العلماء وطلاب العلم، ووجه البعثات العلمية لتفقيه الناس وتعليمهم في البوادي والأمصار. وأن أعظم أعماله في هذا المجال هو أمره بتدوين وجمع

---

(١) عن مجمل سياسة عمر بن عبدالعزيز المالية، انظر بعد: الفصل الخامس، المبحث الثاني.

(٢) فالح حسين فالح: الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، ماجستير مطبوعة، بدعم الجامعة الأردنية، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٨م، ص٥٢.

(٣) عن مجمل سياسة عمر الإدارية والمالية، وأهم تنظيماته وإصلاحاته، انظر: فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٢٢٣ – ٢٥٥ – نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٢٥٥ – ٢٩٥ – نادية حسني صقر: سياسة عمر بن عبدالعزيز تجاه أهل الذمة – ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، ص١٠١ – ١٦٦، ٢٢٧ – ٢٥٦.

الحديث. ونشره في كافة بلدان الدولة الإسلامية وتعليمه، فأصدر في هذا الشأن أوامر بصيغة العموم إلى الآفاق وأهل المدينة، كما خص بالأمر بعض العلماء، كأبي بكر بن محمد بن حزم، ومحمد بن شهاب الزهري، وكان العلم يكتب في مجلسه، ويقوم بمراجعة بعض ما دون. وقد أتم بعض العلماء كالزهري، هذه المهمة في عهد عمر، وقد دونوا ذلك في دفاتر، فنسخت وبعث منها إلى كل الأقطار الإسلامية، بينما توفي عمر ولم يصله كل ما دون. ويعرف هذا التدوين بالتدوين الرسمي للسنة، كما كان لعمر اهتمامه الخاص بالفقه أيضاً[1].

أما الأدب، وبخاصة الشعر، فلم يحظ باهتمام عمر بن عبدالعزيز ورعايته، فقد أقفل الباب في وجوه الشعراء، ومنع عنهم ما اعتادوه من حظوة الخلافة وعطاياها[2]. بينما اهتم بالمغازي، وأمر بتدريسها في جامع دمشق[3].

ويتبقى أن نلمح لموقف عمر من الحركات والمشاكل الداخلية، فالحق أن عمر لم يأت بجديد، وإنما عاد إلى تطبيق المنهج الإسلامي على كل مناحي الحياة. فبالنسبة للحركات نجد أن عهده قد نعم باستقرار نسبي، غير أنه لم يخل من قيام بعض الحركات، ومنها: خروج شوذب الخارجي بأرض العراق، وخارجي آخر من الحرورية بالعراق

---

(1) عن عطاءات عمر العلمية، وأمره بتدوين السنة وجمع الحديث، ونشره وتعليمه. انظر/ أبا زرعة: تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، ماجستير مطبوعة، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة المفيد الجديدة، دمشق ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ١ / ٣٥٤ – ٣٥٥، ٥٢٠، ٦٢٨ – ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز الخليفة الزاهد، ضبطه وشرحه وعلق عليه الأستاذ زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ٩٢ – عماد الدين خليل: ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبدالعزيز، الدار العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ص١٨٣، ١٨٥، ١٩٠ – محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين، ماجستير مطبوعة، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ص ٣٢٩ – ٣٣٢، ٣٦٧، ٥١٧ – حسن الشاذلي: المدخل للفقه الإسلامي، تاريخ التشريع الإسلامي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٧م، ص٢٢٠ – ٢٢١ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٤٦ – ٤٧.

(2) عن موقف عمر من الشعراء، انظر/ ابن الجوزي: نفس المصدر، ص١٩٦ – ٢٠١.

(3) انظر بعد: الفصل السادس، المبحث الثالث، ص٥٦١.

أيضًا، وثالث منهم بالموصل، وكذلك استمرار حركة بلاي بالأندلس، ولقد حاول عمر أن يجرب الطريق السلمي مع الخوارج، عن طريق مجادلتهم ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، معالجة للمشاكل عن طريق تلمس الأسباب، وحلها، وكرهًا في إراقة الدماء، وتقديمًا للحلم واللين على العنف والشدة. فنجح مع شوذب عندما أقنع رسله، فترك القتال، لكنه عاد للخروج بعد موت عمر[1]. غير أن هذا الأسلوب الذي أفاد مع شوذب، لم يكن مجديًا على الدوام، إذ لم يستطع إقناع الخارجي الآخر بالعراق، والذي بالموصل، فاستمروا في طغيانهم، فما كان هناك بدًا من مقاتلتهم[2]، كما قاتل السمح بن مالك عامل عمر على الأندلس متمردي ذلك الإقليم[3].

أما قضايا الموالي وأهل الذمة، فكان وراءها في الغالب أسباب مادية، وأخرى علمة تتعلق بالعدل والمساواة والحرية، وكان فيما أشرنا إليه قبل عند عرضنا لسياسة عمر المالية حلولاً لمشاكلهم وقضاياهم، وذلك حينما رفع الضرائب غير الشرعية عن الفئتين، ورفع الجزية عمن أسلم من الموالي، وأعطاهم حرية الهجرة إلى الأمصار، والالتحاق بالجيش. كما فرض لهم في العطاء مع العرب. فأزال أسباب تذمرهم، وما أبقى لهم على الدولة حجة. أما أهل الذمة فرفع الجزية عن الرهبان والأساقفة، والخراج عن أملاك الكنائس، كما أعطاهم الحرية الدينية، في حدود الشريعة وما نصت عليه عهود الصلح، ورد مظالمهم كالزيادة في الجزية التي صولح عليها بعضهم كأهل قبرص، وأعاد كنائسهم التي أخذت منهم. وبالمقابل التزم عمر بالنهج الإسلامي، وما جاء في عهود الصلح، من ألزم أهل الذمة بحدود لحريتهم الدينية، إذ منع استحداث الكنائس، والخروج عما جرى عليه الصلح في ممارسة بعض الشعائر ومظاهر العبادة، كإظهار الصلبان، ودق النواقيس، ورفع الصوت بالترتيل، وأيضًا منعهم من العمل في دواوين الدولة، ومنع بيع الأرض الخراجية، وإلزامهم بزيهم الخاص في الملبس، وعدم الركوب على السرج، ومنعهم من اقتناء الأسلحة في منازلهم.

إن ما فعله عمر لم يكن بدعًا، بل هو الحق، حين طبق الشرع، فأعطى رعايا

---

(1) انظر ما سنكتبه عن حركة شوذب بعد: الفصل الثاني، المبحث الثاني.

(2) انظر ما ذكرناه عنهما بعد: الفصل الثاني، المبحث الثاني.

(3) من أجل ذلك انظر/ الفصل الثاني، المبحث الرابع، والمبحث الخامس.

الدولة حقوقهم، وألزمهم حدودهم وواجباتهم، على أساس العدل والمساواة في ضوء الشريعة والعهود[1].

كما ما قدمناه في هذا التمهيد وصفًا لحال الدولة الأموية مطلع القرن الثاني، عنينا فيه بإبراز ملامح القوة وأهم المنجزات، وأبنّا مظاهر التطور والنمو في الدولة الإسلامية خلال العصر الأموي، بل والإشارة إلى مقدمات بعض تلك المظاهر منذ نشأة الدولة الإسلامية، إذا كان في تلك اللمحات ما يعين على وضوح الرؤية والتصور.

وبالمقابل تتبعنا الحركات والمشاكل الداخلية، التي أخذت تعاني منها الدولة الأموية، وأضحت تمثل عوامل هدم، في كيان تلك الدولة، عارضين لسياسات بني أمية في مواجهة تلك القضايا، وأثر ذلك على الدولة.

ثم عرضنا لملامح عهد عمر بن عبدالعزيز، الذي طلع القرن الثاني على عهده، فعرضنا لمعالم سياسته وإصلاحاته، وتبين أنه لمس واقع دولته وحاجتها إلى الإصلاح، فوقف معها يعيد ترتيب سياساتها، ويصلح أحوالها، في محاولة منه لإعادة توازنها، حتى تستطيع الاضطلاع بدورها التاريخي من جديد، بكل قدرة وقوة. فبدأ إصلاحاته، وعمل قدر طاقاته فقدم الكثير، وانتظر منه الكثير، لكن عمر خلافته لم يطل ليأتي يزيد بن عبدالملك مكان عمر خليفة للمسلمين، فماذا سيقدم من إنجازات، وما موقفه من سياسة عمر وتلك الإصلاحات، وكيف تكون أحوال الدولة في عهده، وعلى أي حال ستؤول إلى خلفه؟ أسئلة نجد إجابتها في ثنايا هذا البحث.

---

(1) عن سياسة عمر تجاه الموالي وأهل الذمة، انظر/ نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٢٥٥ - ٢٩٥ - نادية حسني صقر: سياسة عمر بن عبدالعزيز تجاه أهل الذمة - فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٢٢٥ - ٢٥٥ - ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، ص٢٢٧ - ٢٤٨.

الفصل الأول

سِيرة الخَليفة يَزِيد بن عَبد المِلكِ

الفصل الأول

سيرة الخليفة

يزيد بن عبدالملك

إن غايتنا من دراسة سيرة يزيد بن عبدالملك، تكمن في الرغبة الصادقة، والأهمية الكبرى، للتعرف على حقيقة شخصية رجل تولى الخلافة، وأدار دفة الحكم في دولة الإسلام، ومدى تأثير تلك الشخصية على الدولة الإسلامية، وأحداث ذلك العهد. وتبرز هذه الأهمية في ضوء ما ورد حول شخصية يزيد من الأقاويل، وما وصف به من سفه ومجون وفسق وقلة دين، صُوِر من خلالها في صورة مشوهة، منصرفة عن شئون الحكم، مؤثرة سلبيًا في مجرى بعض الأحداث.

لذلك سينصب اهتمامنا في المقام الأول، على ما قيل في يزيد بن عبدالملك، ماله وما عليه، ومدى صحة ذلك، في محاولة الوصول إلى التصور الأرجح لحقيقة شخصيته، ومدى أثرها على الدولة في عهده. اعتمادًا على معالجة المعلومات والحقائق الواردة في مختلف المصادر حول سيرته الذاتية، وما توصلنا إليه خلال دراستنا الجديدة لأحداث عهده، وأحوال الدولة في زمنه.

ترجمته:

يزيد بن عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، أبوخالد. وقيل: أبوليلى، القرشي الأموي، أمير المؤمنين، قيل: كان يلقب القادر بصنع الله ويزيد الفتى، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان وكثيرًا ما ينسب لأمه النابغة الذكر، فيمسى يزيد بن عاتكة[1].

ولد بدمشق (سنة ٧١ أو ٧٢هـ، وقيل ٦٦هـ) والثاني أرجح الأقوال، وكان رجلاً طويلاً جسيماً جميلاً، أبيض مدور الوجه أفقم[2].

---

(١) انظر ترجمة أمه عاتكه عند/ عمر رضا كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٣ / ٢١٦ - ٢٢٠.

(٢) أفقم: الفقم في الفم، دخول الأسنان العليا إلى الفم وقيل: الفقم اختلافه، وهو أن يخرج أسفل اللحى ويدخل أعلاه. ابن منظور: لسان العرب، دار الفكر، دار صادر، بيروت، (فقم).

وكان له من الزوجات، سعدة بنت عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وزينب بنت محمد بن يوسف الثقفي، أخي الحجاج بن يوسف، وبنت عون بن محمد بن علي بن أبي طالب، وربيحة بنت محمد بن عبدالله بن جعفر، وعاتكة بنت عبدالله بن معاوية بن أبي سفيان، والجرباء بنت عقيل بن علفة.

وله من الأولاد عشرة ذكور هم: الوليد[1]، ويحيى، وعبدالله، والغمر، وسليمان، وعبدالجبار، وداود، وأبوسفيان، وقيل: أبوسليمان، والعوام، وهاشم، وذكر له بعضهم من الأولاد أيضًا محمد والنعمان، وقيل: ثمانية، وثلاث بنات.

وقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز، يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب (سنة ١٠١هـ) على المشهور. وكان عمره آنذاك تسع وعشرون سنة، وقيل غير ذلك، يسند ذلك قول جرير، الشاعر المعاصر:

سربلت سربال صدق غير مغتصب

قبل الثلاثين أن الملك مؤتشب

وحيث أن بعض الروايات القديمة قد جعلت عمره عند توليه الخلافة (٢٩) سنة، فإن ذلك يرجح أن يكون مولده (سنة ٧٢هـ). وكانت ولايته بعهد من أخيه سليمان بن عبدالملك، الذي عهد إليه بها بعد عمر بن عبدالعزيز. فعهد إليه بها عمر، وأوصاه بالأمة، ثم ابنه الوليد بن يزيد.

ومات يزيد بن عبدالملك يوم الخامس والعشرين من شعبان (سنة ١٠٥هـ) على المشهور والراجح، وقيل غير ذلك. عن ثلاث وثلاثين سنة، أو أربع وثلاثين، وقيل غير ذلك. وقد دامت مدة خلافته أربع سنين وشهرًا، على المشهور والراجح.

---

[1] هو الوليد بين يزيد بن عبدالملك، الذي تولى الخلافة (١٢٥ - ١٢٦هـ). انظر عنه/ حسين عطوان: سيرة الوليد ابن يزيد، دار المعارف، القاهرة. وقد اشتمل هذا الكتاب على مبحث عن يزيد بن عبدالملك أبوالوليد، وقدم فيه المؤلف على منهجه في الكتاب، دارسة علمية مميزة. قامت على الاستقصاء والتحليل والاستنباط، والوصول إلى حقائق جديدة.

وكانت وفاته بإربد[١] من أرض البلقاء[٢]، وقيل: بحوران[٣]، وقيل: بسواد الأردن[٤]. وقيل غير ذلك.

وحمل على الأعناق، ودفن في دمشق بين باب الجابية وباب الصغير وقيل: بل دفن في الموضع الذي مات فيه. وصلى عليه ابنه الوليد، وقيل: هشام، وقيل: مسلمة.

وكان مرضه طرفًا من السل، أو الطاعون[٥].

ولقد استقينا هذه الحقائق المجملة الموجزة من الكتب التي ترجمت للخليفة يزيد، أو تناولت شيئًا من سيرته، سواء كانت من كتب التراجم أو كتب التاريخ العامة[٦]، والتي سنعرض فيما يلي لذكر ما ورد فيها حول شخصية يزيد بن مالك، مالها وما عليها، ثم مناقشة ذلك، وإبراز ما توصلنا إليه من الحقائق والمفاهيم الجديدة في هذا الصدد.

بادي ذي بدء، لم يترجم ابن سعد (ت ٢٣٠هـ)، صاحب أول كتاب وصل إلينا من كتب التراجم، للخليفة يزيد بن عبدالملك، وإن كان قد أورد عهد سليمان له بالخلافة بعد عمر في ثنايا ترجمة عمر بن عبدالعزيز، وكتاب عمر إلى يزيد يوصيه بالأمة[٧].

---

(١) إربد: قرية بالأردن، قرب طبرية، ياقوت: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ١/١٣٦.

(٢) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى بها قرى كثيرة، وقصبتها عمان. ياقوت: نفس المصدر، ١/٤٨٩.

(٣) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق، من جهة القبلة، ذات قرى كثيرة. ياقوت: نفس المصدر، ٢/٣١٧ - ٣١٨.

(٤) سواد الأردن: نواحي قرب البلقاء. وسميت بذلك لسواد حجارتها. ياقوت: نفس المصدر، ٣/٢٧٢.

(٥) اتسمت المصادر الإسلامية بتعدد الروايات، وفيما يخص يزيد بن عبدالملك كان هنالك اختلافًا كبيرًا في مولده، وولايته، وعمره عند الخلافة، ووفاته، وعمره عند وفاته، ومدة ولايته، ومكان وفاته، وكثير من أخباره فعملت على تقديم ما رأيته الأرجح، وأخرت ما عداه، وأشرت إلى وقوع الاختلاف أو وجود أقوال أخرى.

(٦) لاستكمال ما أجملناه عن سيرة يزيد انظر ما سنورده في الصفحات التالية من أقوال المؤرخين حول سيرته.

(٧) انظر: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ٥/٣٣٥ - ٣٣٩، ٤٠٥ - ٤٠٦.

أما النسابة مصعب الزبيري (ت ٢٣٦هـ)[١]، فذكر نسبه من طريق أبيه وأمه، والعهد له من سليمان بعد عمر، وأن عبدالملك قد أخذ على سليمان عندما عهد له بالخلافة بعد الوليد أن يعهد إلى أحد بني عاتكة يزيد ومروان، وكان مروان قد مات في خلافة الوليد. فجاء عهد سليمان ليزيد بعد عمر. كما أورد استخلافه لهشام ثم ابنه الوليد بن يزيد. وذكر أولاده وأمهاتهم. والأهم أن حديثه عن يزيد جاء خالياً من أي إشارة فيها ما يدل على سوء سيرته.

وترجمته عند ابن خياط (ت ٢٤٠هـ) [٢] مقتصرة على نسبه ومولده ووفاته وعمره ومدة خلافته، ليس فيها شيء مما ينسب إلى يزيد من السوء، ويترجم له عبدالله بن محمد بن يزيد (ت ٢٧٣هـ) [٣]، ترجمة مختصرة على نهجه في كتابه، ولا تشتمل على شيء من سمات سيرته سواء كان له أو عليه. أما ترجمة ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) له في كتاب الإمامة والسياسة[٤]، فقد تضمنت الإشارة إلى حسن هديه قبل الخلافة، والسير على نهج الوليد في خلافته، ونص قوله: «وكان يزيد قبل ولايته محبوبًا في قريش بجميل مأخذه في نفسه، وهديه وتواضعه وقصده، وكان الناس لا يشكون إذا صار إليه الأمر، أن يسير بسيرة عمر لما ظهر منه. فلما صارت إليه الخلافة حال عما كان يظن به، وسار بسيرة الوليد أخيه واحتذى على مثاله، وأخذ مأخذه. حتى كأن الوليد لم يمت». ثم ذكر استعظام الناس لذلك، وأن جماعة من أشراف قريش وخيار بني أمية هموا بخلعه، فأخذهم ومن صانعهم، وسجن وقتل بعضهم، وأغرم وصادر أموال آخرين، بعد أن نكل بهم وفرقهم في البلاد. وهذا الخبر الأخير لم نجد له ذكرًا فيما

---

(١) كتاب نسب قريش، عنى بنشره لأول مرة وتصحيحه والتعليق عليه أ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ص١٦٢ – ١٦٣، ١٦٦ – ١٦٧.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٣٢٢، ٣٣١ – ٣٣٢.

(٣) تاريخ الخلفاء، رواية أبي بكر السدوسي وزيادات لأبي بكر السدوسي، وأبي بكر الشافعي، وأبي علي بن شاذان تحقيق محمد مطيع الحافظ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص٣٣.

(٤) تحقيق طه محمد الزيني، دار المعرفة، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ٢/١٠٣ – ١٠٤.

أطلعنا عليه من المصادر الأخرى سوى إشارة عن تحدث الناس في خلعه، أوردها الكتبي[١]، ولعله استوحاها من هذا الخبر.

ويترجم له ابن قتيبة في كتابه الآخر، المعارف[٢]، وإلى جانب ذكره لمعالم ترجمته من نسب وخلافة ومولد ووفاة وعمر وولاية وأبناء، نجده أول من يشير إلى ميل يزيد إلى اللهو والملذات، ولكن في قول مختصر، ونصه: «وكان (يعني يزيد) صاحب لهو ولذات، وكان صاحب حبابة[٣]، وسلامة[٤]».

ونجد ابن قتيبة أيضًا في كتابه عيون الأخبار[٥]، وإن لم يترجم له، يذكر أخبارًا متفرقة ذات صلة بسيرته، وهي زواجه من الجرباء بنت عقيل بن علفه[٦]، وكتابه إلى أخيه هشام معاتبًا إياه على سروره عندما ألم بيزيد المرض[٧]، وكذلك عطفه على أهل الهوى والعشق، وذلك من خلال إيراده قصة عاشقين، ماتا كمدًا ووجدا، عندما امتنع أبو الفتاة أن يزوجها من ابن عمها العاشق، وكان قد علم بذلك من رسول بعثه إليه عامله على المدينة في أمر، فعطله عن مهمته ولم يعطه جوابًا عما قدم من أجله، وأمره

---

(١) انظر إشارة الكتبي إلى ذلك بعد: ص٦٠.

(٢) تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ص٣٦٤.

(٣) حبابة جارية يزيد بن عبدالملك، مغنية من ألحن القيان، ومن أحسن الناس وجهًا وأكملهم عقلاً وأفضلهم أدبًا، قرأت القرآن وروت الأشعار وتعلمت العربية، وهي من مولدات المدينة، كانت لرجل يعرف بابن رمانة وقيل ابن مينا، هو الذي خرجها وأدبها، فأخذت الغناء عن بعض المغنيين في ذلك الوقت، ثم اشتراها يزيد بن عبدالملك بأربعة آلاف دينار، وكان اسمها العاليه، فلما شراها يزيد سماها حبابة، ولها أخبار كثيرة، انظر ترجمتها عند / عمر رضا كحالة: أعلام النساء، ٢٣٢/١ - ٢٣٥.

(٤) سلامة القس، نسبة إلى عبدالرحمن بن أبي عمار الجشمي وهو من قراء أهل مكة، يلقب بالقس لعبادته، كان قد أحبها لكنه انصرف عنها تقوى، فغلب لقبه عليها. وهي من مولدات المدينة، أخذت الغناء من عدد من المغنين وحذقت الضب على الأوتار، وقالت الشعر الكثير. وهي جميلة ظريفة حسنة الغناء. ثم اشتراها يزيد بن عبدالملك، وعاشت بعده، ولها أخبار كثيرة. انظر ترجمتها عند/ عمر رضا كحالة: نفس المرجع، ٢٢٩/٢ - ٢٣٤.

(٥) دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

(٦) نفس المصدر، ١٢/٤.

(٧) نفس المصدر، ١١٤/٣.

بالعودة واستقصاء خبرهما، وإثبات ذويهما في شرف العطاء مع أهل المدينة، ثم العودة إليه بالخبر، وأخذ الجواب فيما بعث من أجله أولاً[1].

وآخر أخباره في هذا الكتاب عن يزيد، خطبة لأبي حمزة الخارجي، يعرض فيها بني أمية، ويصف سوء سيرة يزيد فيها عند ذكره بقوله: «يأكل الحرام، ويلبس الحلة بألف دينار قد ضربت فيها الأبشار، وهتكت الأستار، حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره تغنيانه، حتى إذا أخذ الشراب فيه كل مأخذ قد ثوبه ثم التفت إلى إحداهما فقال: ألا أطير؟! نعم طر إلى النار»[2] مما يدل على شيوع القول بسوء سمعته، واستغلالها من قبل خصوم الدولة الأموية.

وترجمته في أنساب الأشراف هي أشمل ترجمة له في كتب التاريخ، فقد استوفى البلاذري (ت ٢٧٩هـ) فيها سيرته الذاتية والرسمية، و استقصاها في جميع الروايات، بغير تحيز له أو تحزب عليه، مع إبانة ما يميز شخصيته وسياسته، والتدقيق في البحث عن دوافعها وبواعثها، فساق أخبار يزيد التي تتصل بأسرته ونشأته وأزواجه وأولاده، ومزاجه، وشغفه بالنعيم، وكلفه بالغناء، وسرد أخباره التي تتصل بولايته للعهد وخلافته، والحركات التي قامت في عهده[3].

أما اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) في كتابه تاريخ اليعقوبي[4]، فقد جاءت ترجمة يزيد عنده، مقتصرة على نسبه وخلافته، وأحداث عهده وسياسته، ولم يشر إلى شيء مما ذكر له أو عليه. لكنه في كتابه الآخر مشاكلة الناس لزمانهم[5]، يشير إلى تأثره بحب حبابة وتأثيرها في سياسته في شيء من الإيجاز، إذ يقول: «وكان يزيد بن عبدالملك فهو أول خليفة اتخذ قينة وغلبت على أمره امرأة، فكانت حبابة جاريته تولي وتعزل وتطلق وتحبس وتأمر وتنهي». ويقول: «وكان مع ذلك يسرع إلى الدماء، والأموال وعاود عماله ما كانوا عليه من الجور».

---

(١) عيون الأخبار، ١٢٨/٤، ١٣٠.

(٢) نفس المصدر، ٢٩٤/٢.

(٣) حسين عطوان: سيرة الوليد بن يزيد، ص٣٢.

(٤) دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ٣١٠/٢ – ٣١٥.

(٥) ص ٢٠.

ويأتي الطبري (ت ٣١٠هـ)[1] على سيرة يزيد بعد أن عرض لأحداث عهده وسياساته، وقد أشار إلى خلافته وعمره آنذاك، ثم ذكر وفاته ومكانها وعمره وقت وفاته ومدة ولايته، ثم أورد أربع مرويات، عن بعض سيره وأموره، خص بها الجانب اللاهي في حياة يزيد، ذكر في الأولى يزيد وشدة طربه بغناء جاريته حبابة، وحزن جاريته سلامة عليه عند وفاته وتمثلها بشعر لبعض الأنصار. وهذه الرواية من حديث عمر بن شبه (١٧٣ - ٢٦٢هـ) عن علي بن محمد المدائني (١٣٢ - ٢٢٤هـ)، والثانية من قول علي بن محمد المدائني عن قصة شراء حبابة، والثالثة من قول علي أيضًا عن يونس بن حبيب (ت ١٨٣هـ) عن ٨٣ سنة وقيل جاوز المئة، يذكر فيها شدة طربه بغناء حبابة وحزنه وبكاءه عليها عند مرضها، وكانت الرواية الأخيرة من قول عمر بن شبه عن علي بن محمد المدائني، وتضمنت الإشارة إلى مكوث يزيد سبعة أيام لا يخرج إلى الناس بعد موت حبابة وذلك بمشورة أخيه مسلمة، خشية أن يظهر منه ما يسفهه عند الناس.

وكما يتبين أن إسناد هذه الروايات منقطع، فالأولى لم يذكر فيها مصدر المدائني، والثانية لم يذكر فيها المصدر الذي استقى من الطبري قوله عن المدائني، ولا المصدر الذي روى عنه المدائني، وكذلك الثالثة لم يذكر الطبري المصدر الذي أخذ عنه رواية المدائني، والأخيرة لم يورد مصدر المدائني فيها.

وكنا نريد أن نتبع نقد السند إلى جانب النظر في متون المرويات. لكن ورود هذه المرويات بسند منقطع في بعض المصادر وخصوصًا القديمة كالطبري. والتي سينقل عنها كثير من المؤرخين الذين سيأتون من بعدهم، وورود الكثير منها في كثير من المصادر دون إسناد، دفعنا إلى صرف النظر عن إتباع هذا المنهج وهو نقد السند، والاكتفاء بالنظر في المتون، واستخلاص ما توصلنا إليه، بعد عرضنا لما ورد عن سيرة يزيد في المصادر التي نحن بصدد ذكرها، خصوصًا أن من الروايات ما أسند إلى من وصفوا بالصدق والثقة والعدالة، لذلك لم يعد هناك جدوى من مناقشة تلك المرويات

---

[1] تاريخ الأمم والمملوك، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ٥٧٤/٦ - ٢٤/٧.

ومعالجتها على أساس نقد السند.

فعلى سبيل المثال، نجد أن مرويات الطبري الأربع أخذها عن المدائني، وهو أخباري حافظ، قال الذهبي فيه: «كان عجبًا في السير والمغازي والأنساب وأيام العرب مصدقًا فيما ينقله عالي الإسناد». وقال ابن معين: ثقة ثقة ثقة. وقال الطبري: «كان عالمًا بأيام الناس صدوقًا في ذلك». وذكره ابن عدي في كتابه الكامل في الضعفاء وقال ليس بالقوي. وقال ابن حجر: «لم أره في ثقات ابن حبان وهو على شرطه»[1]. وقال ابن حجر: «صدوق»[2].

وغيره من الثقات من رووا شيئًا من هذه الروايات، سنذكر منهم من نرى في ذكره تأييدًا لقولنا آنف الذكر.

ونعود إلى ما أوردته المصادر حول سيرة يزيد، فنجد ابن أعثم[3] (ت ٣١٤هـ)، يصب اهتمامه على أحداث عصر يزيد وبخاصة فتنة ابن المهلب والفتوح، ثم يشير إلى وفاته وعمره ومدة خلافته ولا يزيد على ذلك شيئًا عن سيرته.

أما ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ)[4] فقد قدم ترجمة جيدة ضمنها نسبه وخلافته ومماته وعمره وولايته، وأولاده، والعهد لهشام وابنه الوليد، وعتبه على هشام في تنقصه إياه، وبعض رجال الإدارة في عهده وشيئًا من سياسته، وفتنة ابن المهلب، ثم عرض للهو يزيد وكلفه بجاريته حبابة وسلامة، فكرر قول ابن قتيبة في كتابه المعارف من أنه صاحب لهو ولذات، وهو صاحب حبابة وسلامة، وأضاف رواية أخرى، ظهرت فيها روح المبالغة تضمنت شدة كلفه بحبابة، وأنه أكب عليها، يتشممها أيامًا حتى انتنت، ثم دفنها بنفسه.

ويشير أن عبد ربه في موضعين آخرين خارج نطاق سيرة يزيد، إلى تبذيره المال

---

(١) محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص٤٧٧ - ٤٧٨.

(٢) تقريب التهذيب، قدم له دراسة وافية وقابله بأصل مؤلفه مقابلة دقيقة محمد عوامه، دار الرشيد، سوريا حلب، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص٤٠٥.

(٣) الفتوح، م ٤/٢٤٢ - ٢٦٤.

(٤) العقد الفريد، تحقيق عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، توزيع دار الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، ٥/١٨٧ - ١٩١.

قبل توليه الخلافة، عندما ذكر أن سليمان همَّ بالحجر عليه عندما أصدق سعدة بنت عبدالله بن عمرو بن عثمان عشرين ألف دينار، وشرى جارية بأربعة آلاف دينار، وأن سليمان قال: «هممت أن أضرب على يد هذا السفيه و....»[1].

كما أورد أن كَلَفَهُ بحبابة وانشغاله بها، قد أدى به إلى إضاعة أمر الرعية، والاحتجاب معها عن الناس وشهود الجمعة، مشيرًا إلى لوم مسلمة له على ذلك، وارعوائه قليلاً ثم العودة إلى سيرته الأولى بتأثير من حبابة[2].

أما الأزدي (ت ٣٣٤هـ)[3]، وقد عرض لشيء من سياسة يزيد وأحداث عهده، فقد ترجم له بإيجاز، وكرر ذكر الروايات الأربع التي أوردها الطبري، لكنه أضاف: «وكان يزيد مولعًا بالنساء والغناء واللهو والشراب». فزاد القول بولعه بالنساء، والشرب، دون مستند أو رواية نقل عنها أشار إليها.

ويترجم المسعودي (ت ٣٤٦هـ) له في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر[4]، ترجمة مختصرة عن نسبة وخلافته ووفاته، تاريخها ومكانها، وعمره ومدة ولايته. ثم عرض لمعًا من أخبارهْ وسيره. صدرها بذكر الجانب المعتمد من سيرته، فذكر غلبة جاريتَيه سلامة وحبابة عليه، وإقباله على الشرب واللهو واحتجابه عن الناس، ولوم مسلمة له على ذلك، وإقلاعه عما كان فيه مدة مديدة، ثم عودته إلى ما كان عليه من لهو وقصف. وذكر عدم اكتفائه بهن، واستدعاءه لأحد بني أبي لهب من مكةَ، على دواب البريد والإنفاق على حملة من بيت المال، لأنه يحسن غناء شعر بعينه، وقدومه على الخليفة وغناءه له، وطربه بغنائه، وثناءه على أبي لهب الذي أخذ عنه ذلك الغناء، ووصله وإعادته مكرمًا. ثم يكرر رواية شدة طربه لغناء حبابة وسلامة، واحتجابه عن الناس عند مرض حبابة، وامتناعه عن دفنها بعد موتها من شدة الجزع عليها حتى جيفت، ثم دفنه إياها، وموته بعدها بأيام قلائل، ذاكرًا قول أبي حمزة الخارجي[5] في

---

(١) العقد الفريد، ١٧٥/٥.

(٢) نفس المصدر، ٦٦/٧.

(٣) تاريخ الموصل، تحقيق على حبيبة، القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ص ٥-٢١.

(٤) تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، ص٣٠٦ - ٣١٥.

(٥) انظر قوله قبل: ص٤٨.

يزيد كدليل على سوء سيرته. ثم عرض لبعض أخبار دولته، وختم قوله: وليزيد أخبار حسان، فصدَّر حديثه عن يزيد بالمساوئ، وختمه بالإشارة للمحاسن ولم يذكرها، مع التوسع في ذكر أخبار لهوه وطربه واحتجابه، مكررًا قول الأزدي في شربه الخمر.

ويترجم له أيضًا في كتابه الآخر التنبيه والإشراف[1]، فيوجز ترجمته، ويصف أخلاقه بعد وصف خلقه، بقوله: «فتى الشباب شديد الفخر ظاهر الكبر، يجب اللهو يستعمل الحجاب لا يعرف صوابًا فيأتيه، ولا خطأ فيدعه».

ويكرر المقدسي (ت ٣٥٥هـ)[2] القول بلهوه وشغفه بحبابة وشربه الخمر، ثم تنكر لها، وعزمه على الرشد، والتشبه بعمر ثم العودة إلى سيرته الأولى بتأثير منها، عندما غنته أبياتًا تزين له فيها اللهو والطرب الأمر الذي أدى به يومًا إلى الاعتزال معها في مقصورة له لينال حظه من الاستمتاع بها، وأمر حجابه ألا يفتحوا الباب ذلك اليوم ولو كان بطلبه وأشار إلى موتها ذلك اليوم، حيث غصت بحبة رمان وحمله جنازتها، ودفنها، وموته بعدها بخمسة عشر يومًا.

ثم نرى دور الكتاب واضحًا في تفخيم الأمور، والمبالغة في الوصف، والتحريف والزيادة أو النقص، يتبين لنا ذلك مما أضافه الجاحظ (ت ٣٥٥هـ)[3] إلى قول أبي حمزة الخارجي في يزيد، وهو ينقل الخطبة التي نقلها ابن قتيبة[4]، إذ يحرف فيها ويزيد، ونص ما أورده: «ثم ولي يزيد بن عبدالملك الفاسق في دينه المأبون في فرجه، الذي لم يؤنس منه رشد وقد قال الله تعالى في أموال اليتامى: (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم)[5] فأمر أمة محمد عليه السلام أعظم. يأكل الحرام، ويشرب الخمر، ويلبس الحلة قومت بألف دينار، قد ضربت فيها الأبشار، وهتكت فيها الأستار، وأخذت من غير حلها، حبابة عن يمينه...»

---

(١) دار صعب، بيروت، ص٢٧٧ – ٢٧٨.

(٢) كتاب البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٩م ٤٨/٦ – ٤٩.

(٣) البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون مكتبة الجاحظ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ١٢٢/٢ – ١٢٥.

(٤) انظر قبل: ص٤٨.

(٥) النسا: من آية ٦.

وبإلقاء نظرة مقارنة بين النصين، نجده زاد كل ما قبل قوله «يأكل الحرام» مضيفًا بعدها، رمية بشرب الخمر، مما يوضح ما أصاب النص من تحريف، هذا إن كان قد صح نقله عن قائله من الأساس، مع عدم التسليم بما جاء فيه، لأنه قول عدو خارج نال من الصحابة رضوان الله عليهم فكيف لا ينال من يزيد.

ويبلغ القول عن أخبار يزيد مع سلامة وحبابة مداه عند أبي فرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)[١]، الذي جمع في ترجمتيهما الكثير من الروايات حول ذلك، وكرر القول حول شرائهما، ولهوه وطربه وشربه وغلبتهما عليه، واحتجابه مع أمائه، وتركه الظهور للناس، وشهود الجمعة والجماعة، والإرسال في إحضار بعض الشعراء والمغنيين، للسماع منهم، أو الحكم فيما يختلفن عليه من الشعر والغناء، كاستقدام الأحوص الشاعر، ومعبد والغريض المغنيان.

وقد أشار إلى هجره حبابة مدة من الزمن، رغبة في التشبه بعمر بن عبدالعزيز، وفي رواية، للوم مسلمة إياه على سلوكه ذاك، ثم العودة إلى سيرته، لتعرضها له وأسماعه غناء أطربه، وقيل من شعر سمعه من الأحوص، فترك ما أراد من الرشد وعاود الغي.

وبأقل جهد، وشيء من إمعان النظر، تظهر مبالغة الأصفهاني فيما أورده، والخيال فيما قصه، والتناقض والاضطراب في مروياته.

فعلى سبيل المثال، نراه في رواية يشير إلى أن يزيد قال: بماذا صار عمر أرجى لربه جل وعز مني، فأراد التشبه به، فشق ذلك على حبابة، فعملت على رده عن الرشد، ونجحت في ذلك. وغالب المصادر تشير كما سنرى إلى سير يزيد على نهج عمر في أول خلافته لمدة وجيزة حددها البعض بأربعين يومًا، ثم نكوصه عن ذلك، ولكن ليس بسبب حبابة لأنها لم تكن عنده آنذاك، فإنه لم يشترها إلا في خلافته، كما أن الروايات تورد أسبابًا أخرى لنكوصه، نوردها عند ذكر المصادر التي أوردتها. ورواية تقول أن التي

---

(١) كتاب الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستا توماس وشركاه، القاهرة، ٨/٣٣٤ - ٣٥١، ١٥ / ١٢٤ - ١٤٥.

شرت حبابة هي زوجته سعدة التي أخذت عليها أن تمهد لابنها عبدالله ولاية العهد، ورواية أخرى تقول أن زوجته الثقفية أم الوليد هي التي شرتها له، وأنها أخذت عليها أن تعمل على تولية ابنها الوليد العهد ورجح القول الأخير.

ويبدو الاضطراب كبيرًا في خبر موتها ودفنها، فرواية تقول: أنه أمر بدفنها بعدما انتنت، وحضر دفنها، ثم أراد نبشها ورجع عن ذلك، وهي رواية أنه نبشها بعد ثلاثة أيام فأزالوه عنها، ودفنوها فلم يلبث أن مات ودفن إلى جانبها، وثالثة، تقول أن مسلمة طلب منه أن يكفيه الصلاة عليها، فأمر مسلمة بعض أصحابه بالصلاة عليها وانصرف، وغيرها. ولعل الأخيرة أقرب المرويات إلى ما يقبله العقل ويناسب سمة تلك الزمان وأهله.

ويقول حسين عطوان[1] فيما نقله الأصفهاني: وحذا أبوالفرج حذو المسعودي في عرض أخبار يزيد الذاتية اللاهية عرضًا موجهًا يزري به وينال منه، فأكثر ما أورده من المرويات استقاه من علماء الزبيريين واليمنيين، وفيه أخبار مصنوعة. ثم أورد خبرًا عن موت حبابة ودفنها وموقف الخليفة وموته كمدًا عليها كأنموذج على مروياته الباطلة. فمصدر الخبر عبدالله بن عروة بن الزبير الذي قال أنه خرج إلى الشام مع أبيه زمن يزيد بن عبدالملك، وحكى القصة، وقد أبطل حسين عطوان الخبر، على أساس أن عروة بن الزبير لم يدرك زمن يزيد، فوفاته كانت (٩٣ أو ٩٤ أو ١٠٠هـ). مما يدل على تلفيق واختلاق هذا الخبر، وكثير من الأخبار المسيئة لشخص هذا الخليفة، سواء كان ذلك من بعض المؤرخين أو رواة الأخبار.

ومرويات الأصفهاني في هذا الصدد بعضها مسند، وأخرى منقطعة السند، وغيرها بلا إسناد، وقد اعتمد فيها على عدد من الرواة الكذابين والمجروحين والمطعون عليهم، إلى جانب أناس من أهل الصدق والثقة والعدالة. وهو في ذاته لا تقبل أخباره إلا بعد تمحيص ونظر، فهو شيعي المذهب، شعوبي النزعة، كذاب، يصرح في كتاباته بما يوجب عليه الفسق، ويهون شرب الخمر، وبها كثير من الطعن والأعاجيب[2].

---

(١) سيرة الوليد بن يزيد، ص٣٥.

(٢) عن أبي الفرج الأصفهاني، ترجمة، ومذهبًا، ومنهجًا، ومصادرًا، وقول العلماء فيه وفي كتابه الأغاني، ونقد بعض مروياته، انظر: وليد الأعظمي: السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب =

وقدم له ابن عساكر (ت ٥٧١هـ)[1] ترجمة جيدة، جمعت بين ما له وما عليه، مسندة مروياته على طريقة المحدثين، وقد أورد فيها نسبه، ومولده، وخلافته، وموته زمانًا ومكانًا، وعمره ومدة خلافته وصفته، ثم عرض لبعض سيره، ومما ذكره ليزيد من المحاسن، مجالسة العلماء، وحضور حلقاتهم العلمية والأخذ عنهم سواء في دمشق أو المدينة وذلك قبل توليه الخلافة، فيروي عن ابن جابر قوله: «بينما نحن عند مكحول[2] إذ أقبل يزيد بن عبدالملك، فهممنا أن نوسع له، فقال مكحول: دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس يتعلم التواضع». وعن عبدالله بن يسار: «إني لجالس في مسجد النبي ﷺ وقد حج في ذلك العام يزيد بن عبدالملك، قبل أن يكون خليفة فجلس مع المقبري[3] ومع

= الأغاني، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م. وقد أورد فيه روايتين من مختلقات الأصفهاني عن يزيد بن عبدالملك، وناقشهما، انظر منه ص١٥٢ – ١٥٣، ١٥٨ – ١٦٤.

(١) تاريخ دمشق، صورة من نسخة المخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق وكمل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش واستانبول، صنع لكل جزء منها فهرسًا للتراجم والموضوعات الشيخ محمد بن رزق بن الطرهوني، الناشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ١٤٠٧هـ. ١٨/ ٣٣٧ – ٣٤٥.

(٢) أبوعبدالله مكحول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل الدمشقي، مولى لامرأة هذلية. وأصله من سبي كابل على الصحيح، حيث اختلف على ولائه وأصله، وهو من التابعين. جليل القدر، محدثًا، ثقة، صدوقًا. كان يرى القدر ثم رجع، (ت ١١٢هـ على خلاف). انظر ترجمته عند: الذهبي: سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه. شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ٥/١٥٥ – ١٦٠ – ابن كثير: البداية والنهاية، دقق أصوله وحققه أحمد أبو ملحم وفؤاد السيد وعلي عطوى ومهدي ناصر الدين وعلي عبدالستار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨، ٩ / ٣١٧ – ابن حجر: تهذيب التهذيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ١٠/٢٥٨ – ٢٦٠.

(٣) أبوسعيد المقبري، واسمه كيسان، مولى لبني جندع من كنانة، أدرك عمر بن الخطاب، وكان ثقة كثير الحديث (ت ١٠٠هـ) في خلافة عمر بن عبدالعزيز. وقيل توفى بالمدينة في خلافة الوليد بن عبدالملك. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٥/٨٥ – ٨٦.
وقد يكون الذي تعلم على يديه الخليفة يزيد هو ابن أبي سعيد المقبري، واسمه سعيد بن أبي سعيد المقبري فابن عساكر اكتفى بذكر اللقب ولم يحدد الاسم. =

ابن أبي العتاب[1]...» وذكر قصة وقوف أبي عبدالله العراط صاحب أبي هريرة رضي الله عنه عليه وهو عندهما، ووصايته له بأهل المدينة.

ويبدو أنه حفظ كثيرًا من الحديث ورواه، حتى عد من المحدثين، فيروي ابن عساكر أن أبا زرعة قال: «ومن بني أمية ممن يحدث، يزيد بن عبدالملك».

كما أورد ما يدل على سير يزيد أول خلافته على نهج عمر ثم نكوصه عن ذلك. يقول عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: «لما توفى عمر بن عبدالعزيز وولى يزيد بن عبدالملك قال سيروا بسيرة عمر، قال فأتى بأربعين شيخًا فشهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب»، وقال عبدالملك بن الماجشون: «لما مات عمر بن عبدالعزيز قال يزيد: والله ما عمر بأحوج إلى الله مني. قال فأقام أربعين ليلة يسير بسيرة عمر..» لكن الرواية عللت نكوصه عن نهج عمر بسبب عمل جاريته حبابة على صرفه عن ذلك بإسماعه غنائها، فصرفته إلى اللهو.

وبالمقابل أورد شيئًا مما قيل فيه، وذلك عن شراء سلامة واختلائه مع حبابة وموتها شرقًا، ودفنها بعدما جيفت، وحزنه وجزعه عليها، وشعره فيها، وموته على أثرها، بل أنه أورد رواية تطعن في دينه، مع أنه ذيلها بالحكم على إسنادها. إذ قال: «في إسنادها غير واحد من المجهولين».

أما ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)[2]، فقد استهل حديثه عن عهد يزيد باستخلاف يزيد، وبعد أن عرض لأحداث عهده وسياسته، استكمل الحديث عن سيرته وشيء من أخباره فذكر استخلافه بعد عمر بعهد من سليمان، وأشار إلى وصية عمر إليه، وقول ينم عن حسن رأيه فيه قال: لما احتضر عمر قيل له: أكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة، قال: بماذا أوصيه؟ أنه من بني عبدالملك، ثم كتب وصيته إليه[3].

- (انظر ترجمة الابن بعد: الفصل السادس، المبحث الأول ص٥٠٣).

(١) أراه منصور بن المعتمر ويكنى أبا عتاب، إذ لم نعثر على أحد بهذا الاسم في تلك الفترة غيره، ومنصور من العباد، رفيعاً عالمًا صدوقًا، ثقة كثير الحديث، مات ١٣٢هـ. ابن سعد: الطبقات، ٦/ ٣٣٧.

(٢) الكامل، ٤ / ١٦٥ - ١٩٢.

(٣) انظر نصها بعد: الفصل السادس، المبحث الثاني، ص٥٢٢.

لكن ابن الأثير، سرعان ما يضمن حديثه عن يزيد بقوله: «وعمد يزيد إلى كل ما صنعه عمر بن عبدالعزيز مما لم يوافق هواه فرده، ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثمًا عاجلاً». وهذه مقولة سنناقش مدى صحتها في دراستنا لسياسته الإدارية والمالية[1].

أما أخبار سيرته، فكرر فيها ابن الأثير، ما ورد عند الطبري وغيرها من الروايات عن شرانه لجاريتيه سلامة وحبابة وشدة طربه لغنائهما وكلفه بهما، وحزنه وجزعه على حبابة بعد موتها. وعلى طريقة المحدثين كان يورد الروايات المختلفة وإن تناقضت، وعلى منهجه دون إسناد، لكن الدارس يلمس تقديمه لما هو أقرب للمنطق. مستبعدًا إصدار الأحكام عليه والروايات التي تطعن في دينه. فنراه على سبيل المثال، يقدم القول بموته بمرض السل، على موته كمدًا على فقد حبابة، وعندما يصور طربه بالغناء يقدم الرواية التي تقول: «كان يزيد من فتيانهم، فقال يومًا وقد طرب وعنده حبابة وسلامة القس: دعوني أطير، فقالت حبابة: على من تدع الأمة؟ قال: عليك». ثم يورد بعدها رواية تقول: «وغنته يومًا:

وبين التراقي واللهاة حرارة　　　　وما ظمئت ماء يسوغ فتبردا

فأهوى ليطير، فقالت: يا أمير المؤمنين أن لنا فيك حاجة فقال: والله لأطيرن، فقالت: على من تخلف الأمة والملك؟ قال: عليك والله، وقبل يدها، فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك». فالخبر واحد، لكن الرواية الثانية بها زيادة، وفيها مبالغة تستهدف التعريض والإساءة، فأورد الاثنتين لكنه قدم أكثرها اتزانًا.

ويكثر المؤرخ المجهول[2]، من الروايات التي ترسم صورة يزيد اللاهي. في شيء من المبالغة وهو لا يكتفي بإيراد الروايات المشيرة إلى لهوه، وإنصرافه، إلى الإمساء، والشرب وما عم الناس من الظلم و الجور بسبب ذلك، وإقلاعه ثم عودته إلى سيرته الأولى، كما عند كثير ممن سبقه من المؤرخين، بل يصدر أحكامًا قاسية، فبعد أن عرف بيزيد على أنه صاحب لهو وهو صاحب حبابة وسلامة وصف خلقه، كما وصف خلقه

---

(١) انظر ذلك في الفصل الخامس. وقد أثبتت الدراسة الجدية عدم صحة هذا القول على وجه الإطلاق.

(٢) العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ويليه تجارب الأمم لمسكويه، مكتبة المثنى، ببغداد، ٣/٧٥ - ٨٠.

بالفجور، ومن المبالغة في رواياته التي نقلها، القول بشراء حبابة وسلامة بمائتي ألف دينار، ورواياته غير مسندة.

وسنتجاوز عددًا من المؤرخين لنصل إلى ترجمته عند اثنين من كبارهم، أولهما: الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، الذي تناول شيئًا من سيرته في كتبه التاريخية، فأورد في تاريخ الإسلام[1]، وصف خلقه، وحضوره مجلس مكحول، كما كرر القول أن يزيد قال سيروا بسيرة عمر، فأتى بأربعين شيخًا، فشهدوا له أن ما على الخلفاء من حساب و لا عذاب. وأضاف في كتابه دول الإسلام[2] قوله: «وكان طائفة من الجهال الشاميين يعتقدون ذلك». كما أشار في كتابه تاريخ الإسلام إلى طرف من قصته مع حبابة، وموتها، وحزنه عليها وموته على أثرها. وترجم ليزيد في كتابه سير أعلام النبلاء[3] ترجمة جيدة، أورد فيها نسبه، واستخلافه، ومولده، وصفته، ووفاته زمانها، ومكانها، ومدة خلافته، وعهد لهشام ثم ابنه الوليد. ثم أشار إلى جانب من محاسنه، حيث كرر القول بحضور حلقة مكحول لطلب العلم، والسير بسيرة عمر أول خلافته، وشهادة أربعين شيخًا له، أن ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب، وأورد رواية أخرى لهذا الخبر، ذكر فيها أن يزيد قال: والله ما عمر بن عبدالعزيز بأحوج إلى الله مني، فأقام أربعين يومًا يسير بسيرته، ثم أشار إلى انصرافه عن ذلك إلى اللهو مع حبابة التي أغرته بغنائها.

ثم عرض للجانب اللاهي من حياة يزيد، فذكر قصة وفاة حبابة، وحزنه عليها، وموتها بعدها بخمسة عشر يومًا. وعرض لوصفها، كما ذكر لوم مسلمة لأخيه يزيد في شغفه بتلك الجارية، وتركه مصالح المسلمين، وعدم إفادته فيه. وبين رأيه في يزيد بقوله: «وكان لا يصلح للإمامة، مصروف الهمة إلى اللهو والغواني»[4].

وثانيهما ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، الذي تعد ترجمته ليزيد من أفضل التراجم التي تناولت سيرته، لما تميزت به من الشمول والاتزان، حيث تناول ماله وما عليه بل ودرء

---

(1) وطبقات المشاهير والأعلام، مطبعة السعادة، نشرة مكتبة القدس، القاهرة، ١٩٦٨م، ٢١٢/٤ - ٢١٤.

(2) مطبعة دار المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر أباد، الدكن، الطبعة الأولى، ٥٥/١.

(3) ١٥٠/٥ - ١٥٢.

(4) البداية، ط٤، ٢٤١/٩ - ٢٤٢.

بعض الشبه عنه. واشتملت على نسبه، وصفته، وخلافته بعد عمر بن عبدالعزيز بعهد من سليمان، وذكر كتاب عمر إليه ووفاته وعمره ومدة ولايته، والعهد من بعده لهشام ثم ابنه الوليد بن يزيد. أما أخبار سيرته فقدم ما كان ليزيد من أثر حسن ومحامد طيبة، ثم تناول الجانب اللاهي في شيء من الاتزان. فبدأ بخبر متابعة يزيد لعمر بن عبد العزيز الذي عاد إلى ما كان في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين من عدم توريث المسلم الكافر، والكافر المسلم، وترك ما سار عليه بنو أمية منذ عهد معاوية من توريث المسلم الكافر، فلما تولى هشام أخذ بما كان عليه بنو أمية. ثم كرر رواية تعلم يزيد على يد مكحول وحضوره مجلسه. ثم أكد على كثرة حضور يزيد مجالس العلماء، وأثر ذلك عليه في عزمه على التأسي بعمر عند توليه الخلافة. يتبين ذلك من قوله: «وقد كان يزيد هذا يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة، فلما ولي عزم على من يتأسى بعمر بن عبد العزيز، فما ترك قرناه السوء، وحسنوا له الظلم. قال حرملة عن ابن وهب عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: لما ولي يزيد بن عبدالملك قال سيروا بسيرة عمر، فمكث كذلك أربعين ليلة، فأتى بأربعين شيخًا فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب».

وقد دفع عنه تهمة الطعن في دينه بقوله: «وقد اتهمه بعضهم في الدين. وليس بصحيح. إنما ذاك ولده الوليد بن يزيد كما سيأتي، أما هذا فما به من بأس». وبالمقابل تناول الجانب الآخر، حيث تحدث عن علاقة يزيد بجاريته حبابة وشراءها. وحظوتها عنده، وكلفه بها. وقصة موتها عندما اعتزل كل شيء ليخلو بها في أحد قصوره، فماتت على أثر شرقها بحبة عنب، وتأخيره دفنها حتى جيفت، ومدى حزنه عليها وموته على أثرها، بمرض السل.

وقد قدم ذلك بشكل موجز، مستبعدًا ما ينم عن التحامل، وإن لم يسلم قوله من ذكر ما يستغرب، كالقول ببقائه أيامًا بعد موتها يقبلها ويرشفها وهي ميتة حتى أنتنت وجيفت. ويتضح أنه جمع أكثر من رواية في خبر موجز أجمل فيه قصة يزيد مع حبابة، وبدون إسناد، مخالفًا منهجه وبخاصة في الروايات المسندة التي تناولت الجانب الحسن من سيرة يزيد.

وكرر كثير من المؤرخين المتأخرين، القول بلهوه، وكلفه بجاريتيه سلامة وحبابة،

وانصرافه إليهن، بينما أشار بعضهم إلى إتباعه نهج عمر أول خلافته. وأصدر بعضهم الأحكام القاسية عليه، كقول ابن الطقطقا (ت ٧٠٩هـ) [١]: «كان – يعني يزيد – خليع بني أمية، شغف بجاريتين اسم إحداهما سلامة والأخرى حبابة، فقطع معهما زمانه». ومثل ذلك نجده في ترجمته عن الكتبي (ت ٧٦٤هـ) [٢]. الذي ضَمَّن ترجمته الكثير مما يسيء ليزيد دون ذكر لشي من محاسنه، فوصفه بالعجز. وقال: «كان يسمى يزيد الماجن» وخلال تحدثه عن قصته مع حبابة، قال: أن عقله اختل على أثر موتها. وأضاف قوله: «وتحدث الناس في خلعه من الخلافة» وهو خبر سبق إليه ابن قتيبة[٣]، الذي أشار إلى محاولة خلعه، لعودته إلى سياسة الوليد بن عبدالملك، و ليس بسبب علاقته بحبابة كما قال هذا. وأبدى رأيه فيه و نصه: «فغلبت – أي حبابة – على قلبه من ذلك وقت شرائها ولم ينتفع به في الخلافة».

وأضاف بعضهم تبذيره المال ومبلغ ترفه، فأشار اليافعي (ت ٧٦٨هـ)[٤]، إلى إعطاء يزيد قبل الخلافة لأحد الحلاقين أربعة آلاف درهم. ويذكر القلقشندي (ت ٨٢٠هـ)[٥] أن يزيد كان يلقب القادر بصنع الله. وقد انفرد بذلك. كما يذكر تنعمه وعظمة قماشه، فيقول: «كان قماشه – يعني يزيد – يحمل على ستمائة جمل. وأنه خلف عشرة آلاف قميص لنفسه، وليقص على ذلك باقي أمواله». غير أن لهذا الخبر مثيلاً ينسب مثل ذلك لهشام بن عبدالملك.

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، ص١٣١.

(٢) فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م، ٣٢٢/٤ – ٣٢٣.

(٣) انظر قوله قبل: ص٨٠.

(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، تحقيق عبدالله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م، ٢٥٣/١.

(٥) مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق عبدالستاراحمد فراج، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م، ٣٦٣/١.

قال المصعب الزبيري[1]: «وكان – أي هشام – قد اتخذ طرازًا له قدر، واستكثر منه، حتى كان يحمل طرازه على سبعمائة جمل، وحمله على ذلك أن عمر بن عبدالعزيز لما مد يده إلى بعض أموال بني أمية، لم يعرض لما قطعوا من الثياب ولبسوا، تركها لهم، فرأى هشام أن عمر إمام عدل، وأن من يأتي بعده من أهل العدل يقتدي به، فجعل يتخذ المتاع الجيد ويؤثر فيه ويلبسه، ثم يدخره لولده، وكان يستجيده ويغالي بثمنه».

وروى ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)[2]، في ترجمته ليزيد القول بأن يزيد صاحب لهو طرب، وكذلك سيره على نهج عمر أربعين يومًا، ثم ترك ذلك إلى اللهو والشرب.

بينما خلت ترجمته عند آخرين من أي ذكر لأخبار سيرته، كما عن ابن العمراني (ت ٥٨٠هـ)[3]، أو الاقتصار على ذكر الحسن من أخباره، كما فعل السيوطي (ت ٩١١هـ)[4]، الذي ضمن ترجمته روايتين عن أتباع نهج عمر أول خلافته، ثم عدوله.

ونرى أن فيما أوردناه من أقوال المؤرخين وأصحاب التراجم، ما يكفي لمناقشة ما قيل حول شخصية يزيد بن عبدالملك، ووضع التصور الأقرب لسيرته، ولا نقول التصور الأصوب أو ما كانت عليه سيرته في الحقيقة، لأن المعلومات التي اشتملت عليها مصادرنا حول سيرته، قليلة نادرة، مقتصرة على بعض جوانب حياته وليس كلها، مضطربة متناقضة، مما يصعب معها الوصول إلى الحقيقة أو الحكم القاطع.

وما عرضنا له من المصادر التي تناولت سيرة يزيد، يمكن تقسيمه إلى فئات، الأولى: أحجمت عن ذكر أخبار سيرته واقتصرت على إيراد أبجدياتها، من نسب، ومولد، وخلافة، ووفاة، وعمر، ومدة خلافة، وشيء عن أسرته، وهي: نسب قريش، وتاريخ ابن خياط، وتاريخ الخلفاء لعبدالله بن محمد بن يزيد، وتاريخ اليعقوبي، والفتوح، والأنباء في تاريخ الخلفاء.

---

[1] نسب قريش، ص١٦٤.

[2] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١/٢٥٥ – ٢٥٦.

[3] الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ص٥١.

[4] تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ص٢٤٦ – ٢٤٧.

فئة ثانية: ضمنت ترجمته الجمع بين ذكر المحمود من سيرة ومذمومها، وهي الإمامة والسياسة، وأنساب الأشراف، وتاريخ دمشق، وتاريخ الإسلام، ودول الإسلام، وسير أعلام النبلاء، والبداية والنهاية، ومرآة الجنان.

وفئة ثالثة: أوردت في ترجمته من الأخبار ما أخذ عليه وهي المعارف، ومشاكلة الناس لزمانهم، وتاريخ الأمم والملوك، والعقد الفريد وتاريخ الموصل، ومروج الذهب، والتنبيه والإشراف، والبيان والتبيين، والبدء و التاريخ، والأغاني، والكامل، والعيون والحدائق، ومآثر الانافة. بينما وجدنا السيوطي كمثال لمن اقتصر على شيء من محاسنه في الترجمة ليزيد.

وهذا التقسيم مبني على طبيعة ما حوته تلك المصادر من أخبار سيرة يزيد، لا على أساس أنه يبين اتجاه هؤلاء المؤرخين وأهواؤهم، ولا يدل بشكل مطلق على اثر الهوى في كتاباتهم التاريخية. فعلى سبيل المثال، نجد أن الطبري قد اقتصر فيما أورده من أخبار سيرة يزيد ضمن ترجمته، على بعض ما أخذ عليه من علاقته بجاريته حبابة، لا عن هوى في نفسه وهو الإمام الحافظ العلامة الثقة الصدوق حسن المذهب والاعتقاد(١)، وإن كنا لا نجد مبررًا لإغفاله أي شيء عن الجانب الحسن من سيرة ذلك الخليفة، إلا أنه لم يسمع أو يطلع على شيء من ذلك. بينما أغفل أخبار سيرته اللاهية من كان يتوقع منه الطعن والإساءة، كاليعقوبي في كتابه تاريخ اليعقوبي، وهو المعروف بالتشيع، وأتباع الهوى في كتاباته(٢)، وإن كان قد ذكر شيئًا من أخبار تلك السيرة في كتابه الأخر مشاكلة الناس لزمانهم.

ويمكن أن نجمل أخبار سيرة يزيد بن عبدالملك، كما جاءت فيما استعرضناه من المصادر في جانبين: المحمود من سيرته وهو ما يحسب له، والمذموم منها وهو ما يؤخذ عليه.

وتمثل المحمود من سيرته، أنه كان قبل الخلافة محبوبًا في قريش، بجميل مأخذه

---

(١) عن ترجمة الطبري، وعقيدته، انظر: محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص٤٣٦ – ٤٣٩.

(٢) عن ترجمة اليعقوبي، وعقيدته، انظر: محمد السلمي: نفس المرجع، ص٤٢٦ – ٤٣٢.

في نفسه، وهديه وتواضعه وقصده[1].

ويحسن بنا أن ننوه - وإن كان من خارج تراجم يزيد في المصادر التي عرضنا لها - إلى حسن تربيته وتأديبه في صغره كواحد من أبناء الخليفة عبدالملك بن مروان، الذي أولى تربية أولاد عناية كبيرة واهتماماً بالغًا، زودهم بتوجيهاته ووصاياه، وأعطاهم حبه، وأسبغ عليهم عطفه، وها هو ذا يعبر عن حبه لهم بشعر قال فيه عن يزيد:

يزيد زيادة الرحمن فينا وصاحب عروة الأمر الشديد[2]

كما أحسن اختيار المؤدبين لأبنائه، فانتقاهم من أهل الدين والعلم والفضل، وقدم لهم توجيهاته، فيما ينبغي أن يفعلوه وما يريد أن يكون عليه أبناؤه. فكان منهم الضحاك ابن مزاحم الهلالي، وعامر بن شراحيل الشعبي، وإسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر، ومحمد بن مسلم الزهري[3].

وقد تأدب يزيد على يد إسماعيل بن أبي المهاجر[4][5]، والزهري[6][1].

---

[1] انظر قبل: ص ٤٦، ٥٥.

[2] عن اهتمام عبدالملك بن مروان بتربية أبنائه، انظر محمد ضياء الدين الريس: عبدالملك بن مروان والدولة الأموية، مطابق سجل العرب، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م ص ٤٩ - ٥٣ - عواد مجيد الأعظمي: الأمير مسلمة بن عبدالملك، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ١٩٨٠م، ص١٩ - ٢٢.

[3] عن مؤدبي بني عبدالملك، التعريف بهم، وأسس اختيارهم، وتوجيهات عبدالملك لهم، وتربيتهم لبنيه انظر: محمد صالحيه: مؤدبو الخلفاء، (بحث)، ص٤٠ - ٤٣، ٤٨ - ٥٣.

[4] إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، مولى بني مخزوم، إمام كبير، من العلماء رواة الحديث الثقات كان مفقه أولاد الخليفة عبدالملك بن مروان، وهو من الزهاد، ولاه المغرب عمر بن عبدالعزيز، فأقام بها سنتين حتى عزل بابن أبي مسلم، وقد أسلم عامة البربر في ولايته. وكان حسن السيرة. توفي سنة ١٣٢هـ. الذهبي: سير، ٢١٣/٥.

[5] أبوزرعة: تاريخ أبي زرعة، ٣٤٧/١ - ٣٤٨.

[6] محمد بن مسلم الزهري القرشي، الفقيه الحافظ، أحد الأئمة الأعلام، وعالم الحجاز والشام، كان ثقة كثير الحديث، له نحو ألفي حديث، وكان وافر العلم، كثير الرواية، جامعًا. وكان يكتب كل ما يسمع، من أعلم الناس، قال عنه عمر بن عبدالعزيز: لم يبق أعلم بسنة ماضية منه. وقال عن =

ولاشك أن مثل هذه التربية، و التأدب، والتعلم، على مثل هؤلاء العلماء، سيكون له الأثر الحسن في سلوك يزيد وهديه، وإن كان حسين عطوان[٢]، يشير إلى ضعف الصلة العاطفية بين يزيد وأبيه عبدالملك، وأنه كان ميالاً لابنه الوليد، فلم يرع يزيد كبقية أبنائه من زوجاته الأخريات، وطلق أمه.

وذكر أنه بعد تطليق عبدالملك لأمه عاتكة بنت يزيد، أصبح يزيد كل أملها، خصوصًا أنه ابنها الأكبر، ولما اتصف به من حسن الخلق وتمام البنية وسمات الرجولة، فأسبغت عليه حنانها، وأحاطته برعايتها، وغرست فيه الشموخ بالنسبة والنفس، لانتمائه إلى البيت المرواني عن طريق أبيه والبيت السفياني عن طريق أمه. كما قوت فيه الشعور بالكرامة والشهامة، والفخر بذاته ومنزلته، وقد نشأ في أحضانها نشأة فيها الرقة والنعومة والترف.

ولعل هذه التربية في أحضان أمه، ما أوجد فيه بعض السمات، وما كان معينًا لبعض المؤرخين يستقون منه أوصافه التي ضمنوها كتبهم، كقولهم أنه كان فتى الشباب ظاهر الكبر، شديد الفخر، وغير ذلك من الصفات.

وعلى كل حال فإنه لما شب ونضج، اعتمد على نفسه، وسمى في طلب العلم، فكان يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة، ويغشى مجالسهم، ويحضر حلقاتهم، ويتأدب بآدابهم، ويصغي لكلامهم ويقبل توجيهاتهم، ويأخذ العلم عنهم[٣]. وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم، مكحول[٤] والزهري، في الشام[٥]، والمقبري، وابن أبي العتاب، من

= نفسه: ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشرى ولا بذله بذلى، ولد سنة ٥١هـ على خلاف ومات سنة ١٢٤هـ على خلاف أيضًا. انظر: ابن حجر: تهذيب، ٩/٣٩٥ - ٣٩٩. وأضاف الذهبي: أنه قدم الشام على عبدالملك بن مروان، ثم لازم الوليد وسليمان وعمر بن عبدالعزيز ويزيد، فاستقضاه يزيد بن عبدالملك مع سليمان بن حبيب جميعًا. انظر: سير، ٥/٣٢٦ - ٣٥٠.

(١) محمد صالحية: مؤدبو الخلفاء (بحث)، ص٤٢.

(٢) سيرة الوليد بن يزيد، ص١٤، ١٥.

(٣) انظر قبل.

(٤) انظر قبل: ص٥٥.

(٥) عن تعلم يزيد علي يد الزهري، انظر: حسين عطوان: نفس المرجع، ص١٥ (نقلاً عن: عيون التواريخ، مخطوطة المكتبة الظاهرية، رقم ٤٠٥ تاريخ، ج٥، الورقة: ١٥و).

علماء المدينة(١).

وعلى ما يبدو أنه بلغ درجة رفيعة من العلم وبخاصة في حفظ الحديث وروايته، جعلت بعضهم يعده من المحدثين(٢).

وقد كان رأي عمر بن عبدالعزيز في يزيد حسنًا(٣)، كما كان عمر عند يزيد ممن به يقتدي، فإنه لما ولى الخلافة بعد عمر، أراد التأسي به، والسير على طريقته، وقال: والله ما عمر بأحوج مني إلى الله، فأمر بالسير على نهجه. وكان مما تابعه فيه، إحياء سنة عدم توريث المسلم الكافر، والكافر المسلم. وذلك كما كان متبعًا في عهد الرسول ﷺ، وخلفائه الراشدين. بعد أن ورث معاوية رضي الله عنه المسلم الكافر، وتابعه على ذلك خلفاؤه من بني أمية، حتى عاود عمر السنة الأولى، ووافقه في ذلك يزيد. وقد سار يزيد بسيرة عمر مدة حددها البعض بأربعين يومًا. إذ لم يتركه قرناء السوء، فحسنوا له الظلم، وأتوه بأربعين شيخًا، شهدوا له أن ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب(٤).

أما الجانب الأخر، وهو ما ذم به وأخذ عليه، فتمثل في عدد من الأوجه أولها: تركه السير على نهج عمر الذي عمل به أول خلافته، سواء على أثر شهادة الأربعين شيخًا أن ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب، أو بفعل حبابة التي سعت إلى صرفه إلى اللهو معها، وزاد من ذلك أنه عمد إلى كل شيء صنعه عمر مما لم يوافق هواه فرده - كما قال بذلك ابن الأثير(٥) وهو ما سنناقشه في ثنايا الفصل الخامس بعد - والعمل بسيرة أخيه الوليد، وإتباع هديه(٦).

الوجه الثاني: وهو الجانب اللاهي في حياة يزيد، أو ميله إلى اللهو واللذات، وقد بنى على قصته مع جاريتيه سلامة وحبابة، واستمد مما روى حقًا حول حبه لهما، وكلفه بهما، وحظوتاهما عنده، وما زيد على ذلك، أو اختلق حوله، وقد إتضح لي أنه

---

(١) انظر قبل: ص٥٦.

(٢) انظر نص ابن عساكر في ذلك، قبل: ص٥٦.

(٣) انظر إشارة ابن الأثير إلى ذلك، قبل: ص٥٦.

(٤) انظر ذلك قبل: ص٥٦، ٥٨، ٦٠.

(٥) انظر قوله: ص٥٧.

(٦) انظر ذلك ضمن قول ابن قتيبة قبل: ص٤٦ - ٤٧.

المحور الذي دارت عليه الرحا التي طحنت شخصية يزيد بن عبدالملك.

وقصة يزيد مع جاريتيه في الأصل بسيطة كما يبدو لي، فهما جاريتان، جميلتـــان، ظريفتان مغنيتان، شراهما يزيد بعد استخلافه، فملكتا عليه قلبه، خصوصًا حبابة، التـــي كلف بحبها، واشتد طربه لغنائها، فحظيت عنده، فلما ماتت، حزن لموتها وجزع عليهـــا، ولم يطل العمر به بعدها حيث مات بعدهما بأيام معدودة، بالطاعون وقيل بل كان مـــرض السل.

وقد أغمض كثيرًا من المؤرخين القول بموته مطعونًا أو مسلولاً، وجعلـــوه كمـــدًا وأسفًا على فقد حبابة. مع أنه من غير المستبعد ذلك بل هو الأولى، فكثيرًا مـــا انتشـــر وباء الطاعون وغيره من الاوبئة في حواضر الشام كدمشق، فكان ذلك من الأسباب التي دعت الخلفاء الأمويين إلى بناء قصور لهم في بوادي الشام وأريافه[1].

ومع أن قصر الصفراء الذي بناه سليمان بن عبدالملك ظل دارًا للخلافة اتخذ هشام بن عبدالملك الرصافة مقرًا له بدلاً من دمشق[2]، إلا أن يزيد كان ككثيـــر مـــن الخلفـــاء الأمويين الذين اتخذوا لهم قصور خارج دمشق، يستجمون بها ويقضـــون فيهـــا بعـــض أوقاتهم منزل قصر الموقر[3]، الذي يرجح أن يكون يزيد بن عبدالملك هو الذي بناه، أو رممه[4]، وقد بنى على قمة جبل الموقر، إلى الشمال الشرقي من قصر المشـــتى، وقـــد

---

(1) عن أسباب بناء الأمويين للقصور الصحراوية والريفية، انظر: فواز أحمد طوقان: الحائر في العمارة الأموية لتاريخ بلاد الشام، من القرن السادس إلى القرن السابع عشر الميلادي، المنعقد في الجامعة الأردنية، ١٩٧٤م، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م، ص٧١ – ٧٥ (وإن كان قد حاول إبطال القول بالأسباب القديمة كالهروب من الأوبئة، وذكر أسبابا أخرى).

(2) عصام عبدالرؤوف: الحواضر الإسلامية الكبرى، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م، ص٤٢.

(3) موقر: اسم موضع بنواحي البلقاء من نواحي دمشق، وكان يزيد بن عبدالملك ينزله. ياقوت: معجم البلدان، ٥/٢٢٦. ويتضح أن القصر سمى باسم المكان الذي بنى فيه.

(4) إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون، الدار القومية للطباعة والنشر، دار الجيل، الفجالة، الطبعة الثانية، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ص٢٧٢ – فيليب حتى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، أشرف على مراجعته وتحريره جبرائيل جبور، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، ٢/ ١٢٥.

تهدم ولم يبق منه سوى البركة وأنقاض أبنيته[1].

ولقد احتوت مدائح وقصائد بعض الشعراء في يزيد بن عبدالملك، إشارات إلى ذلك القصر ونزوله فيه، من ذلك قول الأحوص الشاعر يمدح يزيد بن عبدالملك:

ألا لا تلمــه اليــوم أن يتبلـــدا فقد غلب المحــزون أن يتجلـــدا

نظرت رجاء بــالموقر أن أرى أكاريس يحتلون خاخا فمنشدا[2]

وقول جرير:

أشاعت قريش للفرزدق خزيــه وتلك الوفود النازلون المــوقرا

عشية لاقى القين قين مجاشــع هزبرا أبا شبلين في الغيل قسورا[3]

ويرجع أيضًا نسبة قصر المشتى ليزيد بن عبدالملك[4]، فإنــه وإن اختلفــت الآراء حول نسبة هذا القصر، إلى أي العصور والملوك والخلفاء، فإن أنضــجها نســبته إلــى العصر الأموي، وقد ذهب من نسبه إلى العصر الأموي إلى رأيين: الأول نسبته إلى يزيد بن عبدالملك، والثاني إلى ابنه الوليد بن يزيد، وقد فسر أصــحاب الــرأي الأول تــرك القصر قبل إتمامه بوفاة يزيد بعد وفاة جاريته حبابة[5].

وحيث أن أجزاء من قصر المشتى جاءت خالية تمامًا من رسوم الكائنــات الحيــة، عكس بقية الأجزاء التي احتوت على رسوم طيور وحيوانات حقيقية وخرافية، مما حير علماء الآثار وأدى إلى اختلافهم في تفسير هذه الظاهرة، والتي رأى بعضهم أن صاحب هذا القصر اقتنع بعد إتمام القسط الأكبر من الزخرفة، بكراهية تصوير الكائنات الحية في

---

(١) عن موقع هذا القصر وصفته، انظر: فواز طوقان: الحائر (بحث)، ص١١٩.

(٢) انظر قوله عند: الأصفهاني: الأغاني، ١٢٣/١٥.

(٣) ياقوت: معجم، ٢٢٦/٥.

(٤) عن قصر المشتى موقعه وصفته، انظر: زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ملتزم الطبع والنشر، دار الفكر العربي ص٤٨ – ٥٢.

(٥) زكي محمد حسن: نفس المرجع، ص٥٢.

الإسلام، ففضل الزخارف النباتية في الجزء الباقي[1].

ولعلمنا بموقف الخليفة يزيد بن عبدالملك من الصور، والمتمثل في إصداره المرسوم القاضي بمحو الصور وإزالة التماثيل وكسر الأصنام وتحطيمها[2]، فإننا نرى ذلك قرينة قوية لنسبة قصر المشتى إليه.

ولقد جعلنا موته بالطاعون أولى، لموته بعد فترة وجيزة من موت جاريته حبابة. بينما لا يستبعد موته بالسل، فلقد وردت الإشارات إلى مرضه أثناء الخلافة، فلعله كان مريضًا بالسل. فقد ذكر أن يزيد ألم به المرض واشتكى شكاية شديدة، قيل أن أخاه هشامًا سربها، فكان من يزيد العتب، ومن هاشم الاعتذار[3].

كما أشار أيضًا إلى مرضه هذا بعض المصادر غير الإسلامية[4] وكما ذكرنا أن قصة يزيد مع جاريتيه كانت في الأصل بسيطة عادية، غير أنها جاءت في المرويات التي تناولتها مهولة مشوهة، اعتراها كثير من المبالغة والاضطراب، والتناقض والزيادة بل والاختلاق، فمنها ما يشير إلى تلك القصة باتزان، ومنها وإن كان مسندًا ونقله بعض كبار المؤرخين على طريقة المحدثين، فقد شابه ما لا يقبل ويعقل، ومنها ما ظهرت فيه الإساءة والطعن بتحريف، أو زيادة، أو اختلاق، فجاءت تلك المرويات تحمل العجب والمنكر، وذلك أما لهوى في نفس راويها، أو لغرض يقصده ناقلها، أو نقلها من لم يهتم بالاختيار، أو نقلها مسندة، فحمل المسئولية من رواها.

فإذا ما دققنا النظر في الروايات التي تناولت لهو يزيد من خلال هذه القصة، لوجدناها بدأت متزنة إلى حد ما عند المؤرخين الأوائل، كابن قتيبة والطبري[5]، ثم بدأ الترقي في تضخيمها، والزيادة عليها واختلاق ما لم يكن موجودًا، مع تكرار أقوال

---

(1) زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ص٥٠ – ٥١.

(2) انظر مرسوم الخليفة يزيد في الفصل الثالث.

(3) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ٣/١١٤ – ابن عساكر: تاريخ دمشق، المخطوط، ١٨/ ٣٤١ – ابن كثير: البداية ط٤، ٩/ ٢٤١ – وقيل: بل كان ينتقصه ويتمنى موته، انظر ابن عبد ربه: العقد، ٥/١٨٩ – ١٩٠ – المسعودي: مروج ٣/٢١٣.

(4) انظر ذلك بعد: الفصل الثالث.

(5) انظر قبل: ص٤٦ – ٤٧، ٤٩.

السابقين أو بعضها.

وأن أوضح مثال لذلك، ما صور به الخليفة يزيد عند موت حبابة، ومدى حزنه عليها. فمن المصادر ما يشير إلى موتها واعتزال يزيد بن عبدالملك الناس بعد وفاتها سبعة أيام حتى لا يرى عليه ما يسفهه، بعد أن ترك أمر الصلاة عليها ودفنها لأخيه مسلمة، فأمر مسلمة أحد أصحابه بالصلاة عليها وأخرى قالت بدفنه إياها. وغيرها قالت لم يستطع المشي جزعًا فحمل بينما تشير بعض المصادر إلى تأخير دفنها ثلاثة أيام، وقال غيرهم كان يقبلها ويرشفها وهي ميتة حتى جيفت بينما نجد من بالغ في تصوير حزنه بعد دفنها وبكائه على أطلالها. والتمثل بالأشعار وتقريب صويحباتها، حتى وصل ببعضهم الأمر إلى القول بنبشه قبرها وإخراجها، لا مرة فحسب بل ومرتين.

ولنرى كيف صور الأصفهاني يزيد بن عبدالملك، قال: «روى المدائني: أنه اشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إياها، فقال: لابد من أن تنبش، وكشف له عن وجهها وقد تغير تغيرًا قبيحًا فقيل له: يا أمير المؤمنين اتق الله، ألا ترى كيف صارت؟ فقال: ما رأيتها قط أحسن منها اليوم أخرجوها، فجاءه مسلمة ووجوه أهله، فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك، ودفنوها، وانصرف فكمد كمدًا شديدًا حتى مات فدفن إلى جانبها»[1].

سخف وإيما سخف، لا سخف يزيد الخليفة بل سخف هذه الروايات وما اشتملت عليه، مما لا يقره العقل، ولا يوافق المنطق والعرف، أمر نستبعده عن سفيه في عصرنا الحاضر، فكيف نصدقه من خليفة للمسلمين، عاش مطلع ثاني خير القرون. ولكنه التاريخ، يوجب علينا أن نذكر مثل هذا السخف، فندرسه وننقده.

وليتبين لنا أثر بعض الرواة والمؤرخين في تفخيم هذه القصة، وتعاظمها مع تقادم الأزمان، بما زادوه فيها أو عليها، حتى صارت بالشكل الذي وصل إلينا، وجعلت سيرة يزيد بتلك الصورة المعتمة التي أمسى فيها. سنتتبع أهم الإضافات، والآراء، والأحكام، في المصادر التي استعرضنا أخبار سيرته فيها، آخذين في الاعتبار تكرار المؤرخين لبعض أو كل ما ذكره السابقون حول ذلك. فيشير اليعقوبي إلى غلبة حبابة على يزيد

---

(١) الأغاني، ١٥/١٤٤ - ١٤٥.

حتى غدت تولى وتعزل، وتطلق وتحبس[١] ثم كان ابن عبد ربه أول من أشار إلى احتجابه مع تلك الجارية وترك شهود الجمعة والجماعة. واتهامه بالسفه والتبذير[٢].

ويصرح الأزدي، باتهام يزيد بالولع بالنساء وشرب الخمر[٣]، وإن كان قد ورد ذكر شربه عرضًا في خطبة أبي حمزة الخارجي التي رواها ابن قتيبة[٤]. ويظهر المسعودي مدى اهتمامه بالغناء، واستدعاء المغنيين إليه، ولا يقف عند ذلك فيصفه بما لا يحمد ويتهمه بالجهل[٥].

ويتكرر قول تلك الأشياء أو بعضها، في كل مصدر يأتي فلما أتانا الأصفهاني، أو جئنا على ما عنده في الأغاني، وجدنا عنده حشدًا كبيرًا من تلك الروايات وأخبار حبابة وسلامة مع يزيد، ودعوته المغنيين، منها ما هو مكرر ومنها ما هو مبالغ، وإن كان في الحقيقة لم يبد آراءه في يزيد ولم يصدر أوصافًا شنيعة أو أحكامًا قاسية، من لدنه[٦].

ولم يسلم يزيد من روايات تطعن في دينه، كما جاء في تاريخ دمشق[٧]، وقد دفع عنه ابن كثير ذلك[٨]. كما بالغ المؤرخ المجهول في رواياته المزرية بهذا الخليفة، فكرر وبالغ في كثير مما ذكر، واتهمه بالفجور[٩].

ونصل إلى بعض المؤرخين الذين لم يكتفوا بإيراد الروايات التي تتناول شخصيته، فقدموا له أوصافًا خلقية، وبينوا فيه آراءهم وأصدروا فيه أحكامهم، في ضوء تلك المرويات، التي وصلت إليهم، فكان منها الجارح المرفوض. والمعتدل المقبول.

---

(١) انظر قبل: ص٤٨.

(٢) انظر قبل: ص٥٠ – ٥١، وانظر كذلك القول بتبذيره وتنعمه ص٦٠.

(٣) انظر قبل: ص٥٠ – ٥١.

(٤) انظر قبل: ص٤٨.

(٥) انظر قبل: ص٥١ – ٥٢.

(٦) انظر قبل: ص٥٣ – ٥٤.

(٧) انظر قبل: ص٥٥ – ٥٦.

(٨) انظر دفعه لتلك التهمة، قبل: ص٥٩.

(٩) انظر قبل: ص ٥٧ – ٥٨.

فقالوا: فتى الشباب، شديد الفخر، ظاهر الكبر، يحب اللهو، فاجرًا[١]، عـلجزًا[٢]، لا يعرف صوابًا فيأتيه، ولا خطأ فيدعه[٣]. ووصفه بعضهم: بخليع بنـــي أميـــة[٤]، ويزيـــد الماجن[٥].

ومن أقوالهم: ولم ينتفع به في الخلافة[٦]، وكان لا يصلح للإمامة، مصروف الهمة إلى اللهو والغواني[٧].

وتأتي الإشارة إلى تحدث بعض الناس وعزمهم على خلع يزيد من الخلافة، واحـــدة ذكرها ابن قتيبة[٨]، وذكر أن ذلك جاء لتركه سيرة عمر التي اطمأن لها الناس، وأخرى عند الكتبي[٩]، أوردها على أثر حديثه عما صار إليه حال يزيد بعد موت جاريته حبابـــة. وهاتان الإشارتان لم أجد لهما مثيلاً ولا قرينة في المصادر التي اطلعت عليها فـــي هـــذا البحث، سواء أثناء دراسة سيرة يزيد، أو أحداث عصره.

هكذا كانت شخصية الخليفة يزيد بن عبدالملك، كما صورتها المصادر الإســـلامية، فكان جهدنا استقصاء ما ذكرنا حوله وإبراز ماله وما عليه، ما حمد من سيرته وما ذم. مؤكدين وكما ناقشنا وبينا في ثنايا هذه الدراسة على ما اعترى مرويات هذه السيرة من مبالغة واختلاق وتزييف، حتى غدت كأنها أسطورة من نسخ الخيال، حوت ما لا يوافـــق المنطق، ولا يقبله العقل، ولا يقره العرف وابتلى صاحبها بالأوصاف الشـــنيعة، والآراء المتحاملة، والأحكام الجائرة.

ونحن أخيرًا لا نستطيع أن ننفي كل ما قيل عنه، ولا نؤكد ما قيل فيه، ولا نحكم له

---

(١) انظر قبل: ص ٥٧ – ٥٨.

(٢) انظر قبل: ص ٦٠.

(٣) انظر قبل: ص ٥٢.

(٤) انظر قبل: ص ٦٠.

(٥) انظر قبل: ص ٦٠.

(٦) انظر قبل: ص ٦٠.

(٧) انظر قبل: ص ٥٧.

(٨) انظر قبل: ص ٤٧.

(٩) انظر قوله قبل: ص ٦٠.

أو عليه، لأن مثل ذلك لا يتم إلا بالحجة البينة والحقيقة الواضحة، فكنا نريد أن نصل إلى ذلك عن طريق نقد السند، فوجدنا قليلها المسند، وكثير قليلها منقطع السند. أما كثيرها فغير مسند. وإذا ما لجأنا إلى نقد المتون ومقابلتها، وهذا ما عملنا عليه ما استطعنا، فإننا نجد كثيرًا من الاضطراب والتناقض والاختلاف مما يدل على الزيادة والتحريف والاختلاق. لذلك لم نستطع الوصول إلى الحقيقة المطلقة، ولا الحكم النهائي القاطع، غير أننا نستطيع أن نقول، أن يزيدًا لم يكن بتلك الدرجة التي صور بها من السوء، ونردد قول ابن كثير فيه: أما هذا فما به من بأس.

ويبقى سؤال مهم يفرض نفسه، ما مدى تأثير شخصية يزيد وحياته الخاصة في سياساته الرسمية وإدارته الدولة الإسلامية وما مدى تأثر الدولة بسيرته، وما مدلول احداثها على حقيقة شخصيته؟

لاشك أن لبعض جوانب سيرة يزيد شيء من الأثر على سياسته العامة. فيذكر أنه ما عزل أبابكر ابن حزم عن المدينة، إلا انتقامًا لنفسه، فإن يزيدًا كان قد حج في خلافة الوليد بن عبدالملك، فتزوج بنت عون بن محمد بن علي بن أبي طالب، وأصدقها مالاً كثيرًا، فكتب الخليفة الوليد إلى ابن حزم قاضي المدينة، أن يفسخ نكاح يزيد من بنت عون، وأن يستعيد المال، فنفذ ابن حزم أمر الوليد[1].

كما أن أصهاره إلى ثقيف، وتزوجه من زينب بنت محمد بن يوسف، أخو الحجاج بن يوسف الثقفي، كان له بالغ الأثر في سوء العلاقة بين الخليفة يزيد، ويزيد بن المهلب، الذي أوكل إليه زمن سليمان تعقب آل الحجاج ومحاسبتهم وتعذيبهم فما قبل ابن المهلب شفاعة يزيد بن عبدالملك في زوجته الثقفية أو أختها، مما أغضب عليه يزيد بن عبدالملك، الذي هدده بالانتقام أن تولى الخلافة، فكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى هروب ابن المهلب من سجن عمر بن عبدالعزيز في آخر حياته، وخروجه على عمر بن عبدالعزيز، والقيام بالحركة التي استهدفت تقويض الحكم الأموي[2].

أما مدى تأثر الدولة بشخصية يزيد، فالحق أنه لم يكن الرجل المناسب لتلك الفترة،

---

(1) حسين عطوان: سيرة الوليد بن يزيد، ص١٧.

(2) انظر ذلك خلال أسباب حركة ابن المهلب، بعد: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص١٣٣ – ١٣٥.

ولم تكن سياسته تلائم وضع الدولة آنذاك. فإن خليفة عمر بن عبدالعزيز الذي أدرك حاجة الدولة للإصلاح، كان يجب أن يدرك ذلك، ولو لم يكن كعمر في شخصه، وأن اتخذ في سبيل ذلك سياسة تخصه، المهم أن يحقق الغاية ويتم ما بدأه عمر بن عبدالعزيز.

غير أن من الحق أيضًا، أن يزيدًا لم يقد الدولة نحو الهاوية، ولم يكن عهده بداية الانهيار والنهاية، وأن شخصيته وسيرته، لم تكن سببًا قويًا فيما أصاب تلك الدولة، ولعل مجمل دوره، أنه عاد بالدولة إلى سابق عهدها، فطبق كثيرًا من سياسات اسلافه من بني أمية، وخالف كثيرًا من سياسات عمر، وأبقى على شيء منها، لتعيش الدولة من جديد في ظل كثير من الظروف الماضية التي كانت بمثابة معاول هدم تزايد أثرها مع الزمن حتى أسقطت الدولة الأموية.

ومما هو جدير بالذكر أن دراستنا الجدية لأحداث عصره، أثبتت لنا قيام يزيد بتحمل مسئولية الحكم، ومباشرة مهام الدولة، فوجدناه على رأس كثير من الأحداث الجليلة، والأخبار الهامة، يسوسها، فيضع الخطط، ويستشير ذوي الرأي، ويتخذ القرارات، ويشرف على التنفيذ، ويتابع الأحداث، وينتظر النتائج، ويتخذ الحلول المناسبة للمشاكل المستعصية.

فلم نجد لسيرته الذاتية اللاهية، أثرًا كبيرًا في قيامه بواجبات الجانب الرسمي من حياته، إذ لم نطلع على حدث نتج عن إهماله، أو على خبر يؤكد انصرافه عن شئون الحكم، وترك مصالح المسلمين.

لكن الواضح أن قدراته السياسية، وكفاءته الإدارية، لم تكن تؤهله لملء مكانه وقيادة الدولة باقتدار، أو تحقق العظيم من المنجزات والفريد من السياسات التي تلفت إليه الأنظار.

فكان يزيد حاكمًا عاديًا، ليس سياسيًا مقتدرًا كمعاوية أو إداريًا ناجحًا كعبدالملك، أو مصلحًا كعمر، كما لم يكن سيئًا كابنه الوليد بن يزيد، ويمكن القول أن توليه الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز جعل المفارقة بينه وبين عمر واضحة وكبيرة، وأدت إلى عتامة صورته لدى جمهرة المسلمين.

هذه سيرة يزيد، وتلك سمة شخصيته، التي كان لها صدى واسعًا، استغله الأعداء

والخصوم وأهل الهوى، من الساسة والقادة والمؤرخين، وأهمل بسببها كثير من المؤرخين قدماء ومحدثين، أحداث عهده ومنجزات حكمه.

وما دراستنا هذه لعهد يزيد وسيرته، إلا صدى لتلك السيرة، ولكنه صدى إيجابيًا، استهدف البحث الجاد، وجلاء الحقائق وتصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة، عن يزيد بن عبدالملك وعهده.

الفصل الثاني

الحركات الداخلية في الدولة الأموية

في عَهد الخليفَة يزيد بن عَبدالملك

المبحث الأول: حركة يزيد بن المهلب.

المبحث الثاني: حَركات الخوارج.

١) حركة شوذب.

٢) حركة مسعود العبدي.

٣) حركة مصعب الوالبي.

٤) حركة عقفان.

المبحث الثالث: حركة شيريم اليهودي.

المبحث الرابع: حركة بلاي.

المبحث الخامس: حركة أخيلا.

الفصل الثاني

الحركات الداخلية في الدولة الأموية

في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك

يعتبر عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، نموذجًا يمثل الحركات المختلفة المشارب، التي عانت منها الدولة الأموية منذ قيامها، وكذلك سياسة الدولة في التصدي لها، وأساليب معالجتها، وقدرة الدولة على تجاوزها والاستمرار في أداء واجبها التاريخي.

وسنعرض في مباحث هذا الفصل للحركات التي قامت في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، أحداثها، وسياسة الدولة في التصدي لها وإخمادها، وأهم آثارها ونتائجها.

المبحث الأول

حركة يزيد بن المهلب

حدثت حركة يزيد بن المهلب ضد الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، لكن مقدماتها وأسبابها لم تكن وليدة زمنه، بل بدأت في الظهور منذ تألق نجم ابن المهلب، خصوصًا بعد ولايته على خراسان، في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، وبروزه كزعيم يمني التفت حوله عصبيته وتولى جل شأنها. فوضعه ذلك ما بين نقمة الخلفاء ذوي الهوى القيسي وأمرائهم على المشرق، وبين حظوة من قرب اليمانية واعتمد عليهم من بني أمية. فأضحى ابن المهلب ممن يشكل سياسة عصره، ويحرك أحداثها، وجنى من وراء ذلك تحمل مسئولية بعض الأحداث وعداء بعض أطراف النزاع فيها، كالحجاج الثقفي ومن ثم الخليفة يزيد بن عبدالملك، وهذا ما أدى إلى خلق دوافع الثورة وأسباب حدوثها. كما أثمر عن كسب ابن المهلب مقومات القيام والتحدي، وهذا ما تمثل في المكانة التي وصلها، والخبرة التي نالها، والثروة التي جمعها. فكان لزامًا علينا أن نعرض لتلك المرحلة من حياة يزيد بن المهلب وهي ما قبل الحركة، لنتعرف بإيجاز على تلك المقدمات والأسباب.

حياة ابن المهلب قبل الحركة:

كان لحياة يزيد بن المهلب قبل الحركة وما رافقها من أحداث، بحكم مكانته وموقعه منها كقائد وأمير وزعيم قبيلة وعلاقته بالبيت الحاكم، وإمارة المشرق، دور كبير في الخروج على الحكم الأموي، وتبدل موقف الأسرة المهلبية. ودورها الإيجابي في مساندة الأمويين وتثبيت سلطانهم في شرق الدولة الإسلامية، إلى أسرة ثائرة، وعصبية يمنية ناقمة. ما فتئت تلعب دورها في هدم البيت الأموي وتقويض سلطانه.

نسبه:

هو يزيد بن المهلب بن أبي صفرة واسمه ظالم بن سراق بن صبح بن كندي بن عدي بن وائل بن الحارث بن العتيك بن الأزد – ويقال الأسد بالسين الساكنة – بن عمران بن عمرو بن عامر بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، الأزدي العتكي

البصري[١]، من أزد دبا[٢]. ويكنى بأبي خالد[٣].

وقد برز آل المهلب كقادة كبار لقبيلة الأزد، في البصرة، وكانوا فيها كما كان الأحنف[٤] في تميم[٥]. وكانوا من المكانة علوًا وجودًا في دولة بني أمية كالبرامكة في

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيوت، ٢٩٩/٦ – الزركلي: الإعلام، دار العلم للملايين، بيروت للبنان، الطبعة السابعة، ص٢٧٧ (وأضاف: عمرو بعد كندي، وقال: عامر بن حارثة بن ثعلبة، وزاد بعد الأزد على نسبه: الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ).

(٢) ابن قتيبة: المعارف، ط٤، ص٣٩٩ (قال: أن دبا فيما بين عمان والبحرين. أسلم أهلها وارتدوا، فحاربهم عكرمة وقتل وسبى، و كان أبوصفرة غلامًا لم يبلغ وكان فيمن بعث منهم إلى أبي بكر، فأعتقهم عمر فنزل أبوصفرة البصرة). لكن ابن خلكان الذي يضيف في كتابه: وفيات الأعيان، ٣٥٨/٥ على التعريف بدبا قوله أضيفت جماعة من الأزد إليه لما نزلوه، وكان الأزد عند تفرقهم أضيفت كل طائفة إلى شيء يميزها عن غيرها، فقيل أزد دبا وأزد شنوءه، وأزد عمان، ومرجع الكل إلى الأزد المذكور. ونجده في نفس المصدر ٣٥٠/٥-٣٥١. يرد على الواقدي قصة قدوم أبي صفرة على أبي بكر وهو غلام ناقلاً عن ابن قتيبة بقوله: هذا الحديث باطل، أخطأ فيه الواقدي لأن أبا صفرة لم يكن في هؤلاء ولا رآه أبوبكر قط، وإنما وفد على عمر وهو شيخ، أمره عمر أن يخضب. وكيف يكون غلامًا زمن أبي بكر وقد ولد المهلب وهو من أصاغر ولده قبل وفاة الرسول ﷺ بسنتين، وقيل سنين وقد كان في و لده من ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثين سنة أو أكثر. ونحن نستغرب رد ابن خلكان الذي قال أنه نقله عن ابن قتيبة، لأننا نحن قد نقلنا الخبر عن ابن قتيبة الذي صرح بنقله عن الواقدي، ولم يشكك في الخبر ولم يرد عليه بعدما ذكره (للتأكد من ذلك. انظر ابن قتيبة: نفس المصدر والصفحة).

وليس هناك خلاف بين الخبرين إلا أن الواقدي قال: فأطلقهم أبوبكر ولم يقل عمر كما وجدناه نحن عندابن قتيبة. وقد أورد قصة الواقدي ابن خلكان ورد عليها نقلاً عن ابن قتيبة.

(٣) الزركلي: نفس المرجع، ١٨٩/٨.

(٤) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرى السعدي المنقري التميمي، أبوبحر، سيد تميم، وأحد العظماء الفصحاء الشجعان الفاتحين. يضرب به المثل في الحلم، ولد في البصرة (سنة ٣ق.هـ)، أدرك النبي ﷺ ولم يره، ووفد على عمر، واعتزل الفتنة يوم الجمل، وشهد صفين مع علي، كما شهد الفتوح في خراسان، ووليها. وقد وفد على صديقه مصعب ابن الزبير في الكوفة، وتوفي فيها وهو عنده، سنة ٧٢هـ. انظر: الزركلي: نفس المرجع، ٢٧٦/١ – ٢٧٧.

(٥) ناجي حسن: القبائل العربية في المشرق خلال العصر الأموي، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص٩٨.

دولة بني العباس[1]. حتى أننا نجد التشابه في النهاية السيئة للأسرتين على يد الدولة وتصفيتهما. لكن ناجى حسن ينقل عن الأصفهاني: «أن آل المهلب لم يكونوا من الأزد، وإنما كان أبوصفرة والد المهلب فارسي من أهل خارك[2]، فقطع إلى عمان ثم قدم البصرة، فكان سائسًا لعثمان بن أبي العاص[3]، ولما هاجرت الأزد إلى البصرة كان معهم في الحروب فوجدوه نجدًا فاستلاطوه[4]، فادعى إلى الأزد»[5].

وقد ولد يزيد بن المهلب (سنة ٥٣هـ)[6]، ونشأ في كنف أبيه، فشاركه في معظم حروبه، واكتسب خبرة حربية عالية، كما كان أفضل أولاد المهلب، يتجنب مواطن الذم ويعمد إلى فعل المحامد، إلا أنه لم يكن بمنأى عن رمي خصومه له ببعض المثالب،

---

(١) اليافعي: مرآة الجنان، ١/٢٤١ - ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١/١٢٤.

(٢) خارك: جزيرة في وسط البحر الفارسي (الخليج العربي) من أعمال فارس. انظر/ ياقوت: معجم البلدان، ٢/٣٧٧.

(٣) عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان بن عبدالله بن همام بن أبان بن يسار بن مالك بن خطيط بن جشم من ثقيف. أبو عبدالله. قدم على الرسول مع وفد ثقيف، فاستعمله على الطائف وأقره أبوبكر وعمرو، الذي ولاه البصرة، وقيل عمان والبحرين سنة ١٥هـ. ثم عزله عثمان بن عفان، له فتوح وغزوات في الهند وفارس. وهو الذي منع ثقيفًا عن الردة. خطبهم وقال: كنتم آخر الناس إسلامًا فلا تكونوا أولهم ارتدادًا. وسكن البصرة حتى توفي سنة ٥١هـ وقيل: سنة ٥٥هـ. انظر: ابن سعد ٧/١١٧ - ١١٨ - ابن حجر: كتاب الإصابة في تمييز الصحابة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ، ٢/٤٦٠ - الزركلي: الإعلام، ٤/٢٠٧.

(٤) استلاطوه: أي الزقوه بأنفسهم. انظر: اللسان (لوط).

(٥) القبائل، ص٩٨ (نقلاً عن: الأغاني، ١٤/٣٠٠ - الأعلاق، ص٢٠٩). وقد دحض خبر الأصفهاني بفارسية المهالبة، لعدم ذكرها في المصادر الأخرى، ومجيئها على لسان خصوم المهالبة. إلا أننا وجدنا هذه التهمة عند بعض الخصوم والشعراء المعاصرين. (انظر: العيون والحدائق، ٣/٤٩ - معجم البلدان، ٢/٣٣٧). لكن ذلك ليس كافيًا لتصديق هذه المقولة، خصوصًا أن كتب التراجم لم تقل بذلك، وقد عدنا لترجمة عثمان بن أبي العاص (انظر أعلاه هـ١) ولم نجد في ترجمته ذكرًا لكون أبي صفرة مولى له. ومع ذلك فإن هذه الروايات تفتح بابًا للبحث الجدي حول هذه المقولة. والوصول إلى حقيقتها.

(٦) نافع توفيق العبود: آل المهلب بن أبي صفرة (دورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري)، رسالة دكتوراه، غير مطبوعة، مقدمة لجامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٧٦م، ص٥٧ - ٥٩ - الزركلي: نفس المرجع، ٨/١٨٩.

كإتهامه بالنساء و شرب الخمر، وإن كان هناك ما يعارضها، كتحذيره لابنه مخلد من التعرض لأعراض الناس، وإقامته الحد الشرعي على ذوي المنكر، مثل ضربه للشاعر هزيمة بن كعب حدًا في السكر، وعزله لكاتبه يحيي بن يعمر العدواني بسبب شربه النبيذ. ويمكن القول: أن يزيدًا كان شخصية قوية ومؤثرة، استطاع أن يقوم مقام والده، ويوحد شمل بيته. فكان إخوته سندًا قويًا له في الشدائد، وبخاصة عند خروجه على الأمويين[1].

ولايته على خراسان:

ولي يزيد بن المهلب خراسان بعد وفاة أبيه (سنة ٨٢هـ) إذ استخلفه عليها عند وفاته، وهو أمير خراسان آنذاك من قبل الحجاج الثقفي[2]. فكتب يزيد بذلك فأقره الحجاج على خراسان[3]. وقيل بل كانت ولايته (سنة ٨٣هـ)[4].

وقد أقره الحجاج على كره منه لصلفه وتيهه[5]. فمكث في ولايتها أقل من ثلاث سنوات. إذا ما لبث الحجاج أن عزله عنها بإذن الخليفة عبدالملك بن مروان، وذلك سنة ٨٥هـ[6].

---

(١) عن صفات يزيد بن المهلب، وحياته في كنف أبيه. انظر/ نافع العبود: آل المهلب بن أبي صفرة، ص٥٧ – ٩٩.

(٢) لمعلومات أوسع عن ولاية المهلب على خراسان. انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٣١٩/٦ وما بعدها – نبيه عاقل: تاريخ خلافة بين أمية، ص١٦٦.

(٣) نافع عبود: نفس المرجع، ص٥٩ – الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٣٥٤ – ٣٥٥ – ابن الأثير: الكامل، ٨٣/٤ – ٨٤.

(٤) الزركلي: الأعلام، ١٨٩/٨.

(٥) عواد مجيد الأعظمي: مسلمة، ص٤١.

(٦) نافع العبود: نفس المرجع، ص٦٠ وما بعدها – نبيه عاقل: نفس المرجع، ص١٦٦ – الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٣٩٥ – الزركلي: نفس المرجع، ١٨٩/٨ – ١٩٠، إلا أنه جعل ولايته ست سنوات. وهذا خطأ إذ أن ولايته كانت سنة ٨٢هـ وعزله سنة ٨٥هـ، بأمر الخليفة عبدالملك الذي توفى سنة ٨٦هـ. فكيف تكون ولايته ست سنوات، وهي في الحقيقة ما يقارب سنتين وأربعة أشهر.

أسباب العداء بين ابن المهلب والحجاج:

لما فرغ الحجاج من حركة عبدالرحمن بن الأشعث، لم يكن له هم إلا يزيد بن المهلب، وأهل بيته، وقد كان أذل أهل العراق كلهم إلا آل المهلب، ومن معهم بخراسان. إذ كان يخاف على العراق[1]، خشية من بأسهم[2] فقد كان المهالبة أصحاب السيطرة والنفوذ في خراسان، ويعود ذلك لأن قبيلتهم (أزد عمان) التي نزحت من البصرة وسكنت خراسان، حالفت قبائل ربيعة وتألفت منها جبهة يمنية ربعية في خراسان، تقابل جبهة مضرية تتألف من قبائل تميم وقيس. وكان يلي خراسان في هذا الوقت يزيد بن المهلب الذي كان أيضًا زعيم الجبهة اليمنية المناوئة للحجاج[3]، الذي كان بدوره يريد التخلص من ابن المهلب لأشياء أخذها عليه منها عدم جديته في ملاحقة فلول ابن الأشعث الذين التجأوا إلى هراة، وإطلاقه اليمنية دون المضرية ممن أسر منه، وتباطؤه في محاربة موسى بن عبدالله بن خازم[4]، وأصحابه من القيسية، وامتناعه عن تنفيذ أمر الحجاج بغزو خوارزم سنة ٨٥هـ، التي غزاها فيما بعد عندما توجس من الحجاج خيفة بإلحاحه عليه بالقدوم إلى واسط، وعدم إطاعة الحجاج بقتل بني الأهتم، واتهامه

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ٩٦/٤.

(٢) الزركلي: الأعلام، ١٨٩/٨ - ١٩٠.

(٣) هذا التفسير المبني على العصبية القبلية وحدها، وأن الحجاج القيسي كانت قبائل اليمن مناوئة له، وأن خطر ابن المهلب عظم بزعامته لهذه الجبهة، وأن عزله كان خشية من هذا الخطر. يعتبر تفسيرًا قاصرًا، فقد كان المهلب سيد الأزد وزعيمها قبل ابنه ومع ذلك لم يخشه الحجاج بل كان محل احترامه ومقدر جهوده، فكافأه على قضائه على الأزارقة بإمارة خراسان، ثم أقر ابنه من بعده، وكان بمقدوره أن يجعلها لغيره. لذا فإننا سنجد فيما سيأتي ذكره في الصفحات التالية المبررات الحقيقية لعزل ابن المهلب عن خراسان.

(٤) موسى بن عبدالله بن خازم، ثائر اعتصم بعد أن ضعف أمر أبيه بترمذ - وكان أبوه أمير خراسان لابن الزبير فرفض البيعة لعبدالملك بن مروان، وقاتل رجاله، فقتل سنة ٧٢هـ - وظل فيها نحو خمسة عشر عامًا، وسيطر على ما وراء النهر جملة في كثير من الأحيان، ونجح في التغلب على من قاتله من الترك، وجيوش أمراء خراسان، وكان المهلب غير مقاتلا له، وأوصى بنيه بعدم مقاتلته، وقال: إن قتلتم موسى كان أول قادم عليكم أمير من قيس على خراسان. فلم يقاتله يزيد بن المهلب، ثم قاتله المفضل بن المهلب ليحظى عند الحجاج، فظفر به سنة ٨٥هـ. فعزله الحجاج بقتيبة بن مسلم الباهلي. (انظر عنه/ ابن الأثير: نفس المصدر، ٩٧/٤ - ١٠١).

باختلاس مبلغ وقدره مائة ألف درهم من خراج خراسان[1].

إلا أن تعاظم أمره وحظوته عند الأمويين[2]، وسعيه إلى تثبيت مركزه بالاعتصام على الأزد وحليفتها ربيعة، وحرصه على توثيق صلته بالأمويين، حيث أظهر مناوأته حركة ابن الأشعث، وتصديه له في خراسان، وذلك بإيعازه إلى أخيه المفضل واليه على هراة بحربهم[3]، كان كل ذلك من الأسباب الرئيسية التي أقلقت بال الحجاج من ابن المهلب، خصوصًا أن صحت الرواية القائلة بأن راهبًا أجاب الحجاج عن سؤاله فيمن سيلي العراق من بعده: أنه رجل يقال له يزيد. فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب. فكتب الحجاج على عبدالملك يذم يزيد وآل المهلب ويستأذنه في عزله[4]. وكان الحجاج قبل ذلك يحاول استخراج يزيد من خراسان إلى واسط. والآخر يعتذر بالعدو وحرب خراسان. وقد رفض عبدالملك مشورة الحجاج بادئ الأمر، ثم وافق أخيرًا على عزل ابن المهلب، وكان ذلك (سنة ٨٥هـ)[5]. وبعد استصدار عزل يزيد بن المهلب. تزوج الحجاج هند بنت المهلب لئلا يثير شكوك يزيد، واستدعاه، فقدم عليه واسط. وترك أخاه المفضل على خراسان[6] الذي كتاب إليه الحجاج بولايتها، فأخذ يستحث يزيد على الخروج إلى الحجاج[7]. فلما قدم يزيد على الحجاج سجنه، وعزل حبيب بن المهلب عن كرمان وسجنه، وعزل عبدالملك بن المهلب عن شرطته[8]. وأمر فأخرج إخوته عن

---

(١) نافع العبود: آل المهلب، ص٦٠ وما بعدها – عواد الأعظمي: مسلمة، ص٤١. وأضاف: وفي رواية (ابن أعثم: الفتوح، م٧/٢١٣) أن الحجاج طالب يزيد بن المهلب بسبعة آلاف درهم فأنكرها.

(٢) نافع العبود: نفس المرجع، ص٦٠ وما بعدها.

(٣) نافع العبود: نفس المرجع، ص٥٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ٩٦/٤.

(٥) نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص١٨٣ – ١٨٤.

(٦) نافع العبود: نفس المرجع، ص٦٠ وما بعدها.

(٧) ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٨) نافع العبود: نفس المرجع، ص٦٠ وما بعدها – ابن العماد: شذرات، ١٢٤/١ – اليافعي: مرآة، ٢٤٢/١ – ٢٤٣ – الزركلي: الأعلام، ١٨٩/٨.

خراسان وقطع أصولهم منها، وفرق التجمع اليمني الذي كانوا يراسلونه[1]. وفي (سنة ٩٠هـ) هرب يزيد بن المهلب وإخوته الذين كانوا معه في سجن الحجاج، الذي كان يطالبهم بستة آلاف ألف، وأخذ يعذبهم عليها، فاحتالوا لذلك والتجأوا إلى سليمان بن عبدالملك في الرملة من فلسطين، فأمنهم واستعفى الخليفة الوليد بن عبدالملك، فعفى عنهم، وكتب إلى الحجاج بالكف عنهم، فكف عنهم. وأقام يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبدالملك[2].

مما تقدم من حياة يزيد بن المهلب يظهر تغير موقف الحجاج أمير المشرق تجاه الأسرة الملهبية، وسوء العلاقة بين الطرفين، مما ترتب عليه إبعادهم عن مراكز السلطة، ومعاقبتهم بأكثر مما كانوا ينتظرونه. ومع ذلك نستطيع أن نقول أن هذا العداء كان لا يزال محصوراً بين آل المهلب والحجاج أمير المشرق، وحفظ البيت الأموي ولاء المهالبة واليمانية بإجارة سليمان وعفو الوليد حتى الآن. لكن قادم الأيام من حياة يزيد بن المهلب بولايته الثانية على العراق ثم خراسان، وتوليه تعذيب آل أبي عقيل ذوي الحجاج بأمر من الخليفة سليمان بن عبدالملك، سيوسع دائرة الصراع، لتسوء علاقتهم بالبيت الأموي نفسه، ممثلاً في الخليفة عمر بن عبدالعزيز، المحاسب لابن المهلب على أموال المسلين التي أفاء الله بها عليهم من فتوحاته لجرجان وطبرستان، وما جمعه من خراج خراسان، فأنكرها، ويزيد بن عبدالملك الناقم على ابن المهلب في تعذيبه لأصهاره

---

(١) نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص١٨٣ – ١٨٤.

(٢) نافع العبود: آل المهلب، ص٦٦– ٦٩ (وقال: أن سليمان أجارهم نعلمه بمكانتهم في اليمانية الذين كان يسعى إلى استمالتهم ليساعدوه للوصول إلى الخلافة، كما أضاف: أنه اتخذ يزيد كاتبا له) – نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٢٣٩ (وقال: أن سليمان تحمل المال الذي طالبهم به الحجاج، وحدد مدة بقاء يزيد لديه بتسعة أشهر) – ابن الأثير: الكامل، ٤/١١٤ – ١١٦. ونحن نشير هنا إلى أننا قد سعينا لجمع أسباب الخلاف بين الحجاج وآل المهلب. حتى لا نفسر الأحداث من زاوية واحدة، وبنظر قاصرة، ولتكن الرؤية الشاملة لما يحيط بالحدث هي عين الباحث الممحصة، وصولاً إلى الحقيقة، وتحقيقاً لمعالجة تاريخية أدق. فقد رأينا قصور النظرة لمن علل هذا العداء على أساس العصبية، أو الخوف على المركز فحسب، ولكننا وجدنا وراء ذلك أسبابا تعددت وتعاونت على خلق الحدث.

كما أن هذا العداء يمثل سببا رئيسيا في ثورة ابن المهلب على الدولة الأموية كما سنرى.

آل أبي عقيل وعدم مبالاته بشفاعة الأمير الأموي لهم، مما سيؤدي بالتالي إلى سجنه على يد عمر، والخروج على سلطان الدولة زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك[١].

ولايته على العراق، وتوليه خراسان للمرة الثانية:

ما أن تولى الخلافة سليمان بن عبدالملك سنة ٩٦هـ، حتى أمر بالقبض على آل أبي عقيل، وهم أسرة الحجاج. ثم بعث يزيد بن المهلب إلى البلقاء من أعمال دمشق، فاستولى على أموال الحجاج وحمل عياله إلى سليمان، وكان فيهم زوجة يزيد بن عبدالملك – وهي من ثقيف – فعذبها يزيد بن المهلب بالرغم من شفاعة زوجها لها[٢]. وفي نفس العام عزل سليمان يزيد بن أبي مسلم عن العراق وأمر عليه يزيد بن المهلب، وجعل صالح بن عبدالرحمن على الخراج، وأمره أن يقتل آل أبي عقيل ويبسط عليهم العذاب، فعذبهم، وكان الذي يلي عذابهم عبدالملك بن المهلب[٣]. وهنا نرى اعتماد سليمان على خصوم الحجاج في الانتقام منه بتعذيب آله. ثم ولاه الخليفة سليمان إمارة خراسان بطلب منه لما عساها أن تدره عليه من الأموال والثروات التي حرمه منها صالح بن عبدالرحمن في العراق، فقدمها سنة ٩٧هـ، بعد أن أقصى عنها وكيع بن الأسود الذي تولاها تسعة أشهر بعد قتل قتيبة، وقد استخلف على العراق وأموره فيها[٤].

وفي عام ٩٨هـ فتح الله على يدي ابن المهلب جرجان وطبرستان كما صالح قهستان[٥]، وفتح الرويان ودنباوند[٦]، وسبى وغنم، وكتب إلى سليمان بالفتح يعظمه ويخبره أنه قد حصل عنده من الخمس ستمائة ألف ألف وقيل أربعة آلاف ألف[٧]، وهذا نص كتابه:

---

(١) أنظر تطور الأحداث في الصفحات التالية.

(٢) نافع العبود: آل المهلب، ص٦٨ – ٦٩.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٠٦/٦ – ابن الأثير: الكامل، ١٣٨/٤ – الزركلي: الأعلام، ١٨٩/٨.

(٤) نافع العبود: نفس المرجع، ص٦٩ – ٧٤ – الزركلي: نفس المرجع، ١٩٨/٨ – ١٩٠.

(٥) انظر عن تفاصيل هذا الفتح وأخباره: ابن الأثير: نفس المصدر، ١٤٧/٤ – ١٥٠ – الزركلي: نفس المرجع، ١٨٩/٨ – ١٩٠.

(٦) عواد الأعظمي: مسلمة، ص٤٢ – ٤٣.

(٧) ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٥٠.

«أما بعد يا أمير المؤمنين فإن الله عز وجل قد فتح فتوحًا لم يفتحها على خليفة من خلفاء المسلمين من قبلك من أهل خراسان إلى جرجان ودهستان وطبرستان، وقد أعيى ذلك الفاروق وعثمان ومن بعدهما من الخلفاء، حتى فتح الله ذلك كرامة لأمير المؤمنين وزيادة في نعم الله عليه، وقد صار في يدي مما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من الفئ والغنيمة عشرون ألف ألف درهم، وأنا باعث بهذه الأموال التي أفاء الله بها إلى أمير المؤمنين إن شاء الله، والسلام[1]».

عزله من خراسان وسجنه بأمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز:

ويذكر البلاذري: أن ابن المهلب ولى ابنه مخلدًا خراسان، وانصرف إلى سليمان، فكتب إليه أن معه خمسة وعشرون ألف ألف درهم، فوقع الكتاب في يدي عمر بن عبدالعزيز، فأخذ يزيد به وحبسه[2]. إذ كان سليمان بن عبدالملك قد توفى في هذه الأثناء سنة تسع وتسعين، وتولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز بعهد من سليمان[3]. الذي كتب إلى ابن المهلب باستخلاف سليمان له وليزيد بن عبدالملك من بعده وطلب منه أخذ بيعة من قبله، فبايعوا، ثم كتب إليه أن يستخلف على خراسان ويقدم عليه[4]، فلما بلغه كتابه شخص من خراسان، واستخلف بها ابنه مخلدًا، وحمل كل ما كان معه مخافة من أهل خراسان، واصطحب معه وجوه خراسان، وقد أشار عليه قوم ألا يبرح، فلم يفعل[5]. وخرج، حتى صار إلى الري فوجه بجميع ما كان معه من الأموال إلى البصرة، ثم خرج بعد ذلك يريد البصرة فنزل واسطًا، وركب منها السفن إلى البصرة فلما وصل إلى نهر

---

(1) ابن أعثم: الفتوح، م٤/ ٢٢١ - نافع العبود: آل المهلب، ص٧٦ - ٧٧. وقد خالفه في مقدار الخمس بأنه (ستة آلاف ألف جرهم). (نقلاً عن الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٤٤).

(2) فتوح البلدان، ص٣٣٣ - ابن خلكان: وفيات، ٦/٢٩٩.

(3) ابن الأثير: الكامل، ٤/١٥١ - ١٥٢.

(4) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٦٧ - ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٦٢ - ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز، ص٣١٨ - ٣١٩ - مجهول: العيون، ٣/٤٨ - ابن أعثم: نفس المصدر، م٤/ ٢٣٢.

(5) في هذا الخبر دليل على إيثار ابن المهلب للعافية، وعدم عزمه على الإنشقاق والفتنة. وأن أسباب الثورة وإن كانت قد ظهرت قبل زمن الخليفة يزيد، إلا أن شرارة إشعالها كان خوفه من يزيد بن عبدالملك، وهروبه من السجن لذلك.

معقل، عند جسر البصرة، لحق به موسى بن الوجيه الحميري الذي بعثه عدي بن أرطأة أمير البصرة من قبل عمر بن عبدالعزيز، فقبض عليه وأوثقه، وكان عمر قد كتب إلى عدي بالقبض عليه وإرساله مقيدًا. فقدم له كتاب عمر، فقال سمعًا وطاعة لأمير المؤمنين وعامله، ثم رجع مع ابن الوجيه إلى واسط[1]. وكان قدومه إليها حيث وجد أمر عزله والقبض عليه (سنة ٩٩هـ)[2].

فاستأداه عدي في الأموال التي جباها من خراسان وطبرستان وجرجان بأمر عمر، فقال فرقتها في الأجناد لتقويتهم على جهاد عدوهم. فلما أبى إخراجها أمر بحبسه[3]. ثم أوثقه في الحديد وبعث به إلى عمر (سنة ١٠٠ هـ)، فلما وصل عمر زج به في

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٥٤/٦ - ٥٥٧ - ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٠ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م٢/ ٣٠١ - ابن أعثم: الفتوح، م٣/ ٢٣٢ - ٢٣٣ - مجهول: العيون، ٤٨/٣ - ٤٩ - ابن الأثير: الكامل، ١٥٤/٤ - ١٥٧ - الذهبي، تاريخ الإسلام ٣٣٣/٣ - دول الإسلام، ٥٣/١ - ارمينيوس فامبري: تاريخ بخاري، ترجمة أحمد محمد الساداتي ويحي الخشاب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥م، ص٧٤ - ٧٥ وهو يقدم قولاً ليس له أصل في المصادر الإسلامية التي أطلعنا عليها إذ يقول: «إذا كان ابن المهلب قد أثار شكوكه - يعني عمر - بما صار له من النفوذ والثراء البالغ في مدى عامين، وحين تأكد له اعتزام عامله هذا على الخروج عليه رأى أن يسبقه في خططه ويفسدها عليه، فعهد بخلع يزيد إلى قائده مسلمة وكان يقود الجند في حروب الروم إذ ذاك، وكتب الخليفة نفسه إلى يزيد يستدعيه فلبى الدعوة، حتى إذا ما بلغ البصرة ألقى القبض عليه» وهذا القول يتنافى مع موقف ابن المهلب الذي لم يسمع لمن نصحه بعد إجابة الخليفة عمر بالقدوم عليه، بل استجاب وأعلن السمع والطاعة له ولعامله عدي بن أرطأه عند القبض عليه. إلا أن عزله قد يكون لأن عمر لا يحب آل المهلب، إذ كان يقول هؤلاء جبابرة، ولا أحب مثلهم. كما أن نوعية ابن المهلب من الرجال لا تناسب سياسة الخليفة الجديد التي اعتزمها. (انظر نافع العبود: آل المهلب، ص٧٨ - الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٥٥٤ - ٥٥٨ - ابن الأثير - نفس المصدر و الجزء والصفحات ابن خلكان: وفيات، ٣٠٠/٦).

(٢) نافع العبود: نفس المرجع والصفحة - ابن خياط: نفس المصدر والصفحة - الذهبي: تاريخ الإسلام، ٣٣٣/٣.

(٣) ابن أعثم: نفس المصدر، م٤/٣٣٣ - ٣٣٧.

السجن[١].

فدعا به عمر، وسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان، فاعتذر بأنه لم يكتب ذلك إلا ليسمع الناس، و لعلمه أن سليمان لن يأخذه بها. وأنه بالغ في الصرف لتفخيم أمر الخلافة، وأنه لذلك أنفق أكثرها على عساكره وبعضها على الإصلاحات العمرانية في جرجان فلم يقتنع الخليفة بإنفاقها جميعًا، واعتقد أن يزيد اختلسها، وأنها حقوق للمسلمين لا يسعه تركها، فأمر به إلى السجن. ورفض وساطة ابنه مخلد بن يزيد، الذي طلب من الخليفة أن يصالحه على ما يسأل فيه أبيه، فأبى الخليفة إلا أن يحمل كل المال، فقال مخلد: أن كان لك بينة فخذه بها وإلا فصدق قوله واستحلفه، فإن لم يفعل فصالحه، فأبى الخليفة إلا أخذه بجميع المال، فلما أبى يزيد أن يؤديها، ألبسه جبة صوف وحمله على جمل وأمر بتسييره إلى دهلك[٢]. فاستثار ابن المهلب قبيلته، التي غضبت له، وخشي انتزاعه، وأشير على عمر برده إلى محبسه، فرد إلى سجنه بحصن حلب[٣]. وكلم عمر في يزيد، فقال هو رجل سوء قتال والسجن خير له[٤]. ولعل هذا يوضح لنا رأي عمر فيه وفي أهل بيته إذ يقول: هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم، وكأنه يشير إلى

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٥٨/٦ - مجهول: العيون ٤٨/٣ - ٤٩ - ابن كثير: البداية والنهاية، دار الفكر العربي، دار النيل، الجيزة، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ , ١٩٣٣م، ٢١٠/٩ - ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص ٣٢٠، الذهبي: تاريخ الإسلام، ٣٣٣/٣ - أرمينيوس فامبري، نفس المرجع، ص٧٥ - ابن قتيبة: المعارف ط٤، ص٤٠٥.

(٢) دهلك: جزيرة في بحر اليمن (البحر الأحمر) وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة، بلدة ضيقة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها. (انظر / ياقوت: معجم ٤٩٢/٢).
وقيل: جزيرة في بحر عيذاب (البحر الأحمر) بالقرب من سواكن. (ابن خلكان: وفيات، ٦، ٣٠٠).
والمعنى واحد. وانظر عن التعريف بها أيضًا/ القلقشندي: صبح الأعشى، ٢٣٥/٥.

(٣) لمعلومات أوسع عما كان بين عمر وابن المهلب. انظر/ نافع العبود: آل المهلب، ص٧٧ - ٧٨ - ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص٢٧٠ - ابن الأثير: الكامل، ١٥٧/٤ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣٠١/٢ - ٣٠٢ - المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٢٧٧ - ابن أعثم: الفتوح، م٢٣٧/٤ - ٢٣٨ - مجهول: نفس المصدر، ٥٠/٣ - ابن كثير: نفس المصدر، ط١، ٢١٠/٩ - ابن خلكان: نفس المصدر والجزء والصفحة - الزركلي: الأعلام، ١٩٠/٨.

(٤) مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة.

جبروت هذه الأسرة واحتمالات تشكيلها مركز ثقل يهدد الدولة الأموية واردة سلطتها العليا، لكنه لم يتعامل مع رأس هذا المركز على أنه يمثل كتلة يمنية من قود السيمن، وإنما كسارق لأموال المسلمين[1]. وكان رأي عمر فيه قديمًا[2]، وما كذب رأيه، بل أضحى الشك يقينًا فما أن توفر السبب، وتهيأت الفرصة، بمرض عمر وانتظار كرسي الخلافة ليزيد بن عبدالملك الناقم على ابن المهلب، حتى هرب من سجنه وهدد كيان الدولة بتمرده على سلطاتها، وخلعه حاكمها.

أسباب الحركة:

لم يزل يزيد بن المهلب محبوسًا في سجن عمر بن عبدالعزيز حتى بلغه خبر مرضه فأخذ يعمل في الهرب من سجنه مخافة أن يتولى يزيد بن عبدالملك الخلافة، لما كان بينهما من العداء. فقد قام ابن المهلب بتعذيب آل أبي عقيل أصهار الخليفة يزيد بن عبدالملك، حيث كان متزوجًا من أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي، أخي الحجاج. وذلك زمن الخليفة سليمان بن عبدالملك، الذي طلب آل أبي عقيل فأخذهم وسلمهم إلى يزيد بن المهلب ليخلص أموالهم ويعذّبهم. وبعث ابن المهلب إلى البلقاء من أعمال دمشق وبها خزائن الحجاج وعياله فنقلهم وما معهم إليه، وكان فيمن أتى به منهم أم الحجاج زوجة يزيد بن عبدالملك، وقيل بل أخت لها، فأتى يزيد بن عبدالملك إلى ابن المهلب في منزله، فشفع فيها، فلم يقبل منه، وأراد احتمال ما قرر عليها، فأبى ابن المهلب، فقال يزيد بن عبدالملك متهددًا: أما والله لئن وليت من الأمر شيئًا لأقطعن منك عضوًا فرد عليه ابن المهلب: وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف، فحمل

---

(١) محمد علي نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموي، رسالة ماجستير لم تطبع، مقدمة لآداب بغداد، ١٩٧٤م، ص٣٥٦ - عماد الدين خليل: دراسة مقارنة في سياسة يزيد بن عبدالملك ١٠١ - ١٠٥هـ، بحث، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، العدد الرابع، ١٤٠١هـ، ص٢٩٦ - الطبري: تاريخ الأمم، ٥٥٧/٦ - ابن الأثير: الكامل، ١٥٧/٤ - ابن كثير: البداية، ط١، ٢١٠/٩.

(٢) كان لعمر رأي في يزيد، عبر عنه في مجلس الخليفة سليمان بن عبدالملك، على أثره اختصم الرجلان. عن ذلك (انظر: المؤرخ المجهول: العيون، ٤٨/٣) وهذا يعضد قولنا أن عزله كان لرأي عمر فيه، وأنه لا يلائم السياسة التي اعتزم انتهاجها. أما سجنه فكان لإنكاره أموال المسلمين، الثابتة عليه في كتابه إلى سليمان.

يزيد بن عبدالملك ما كان عليها وقدره مائة ألف دينار، وقيل بل أكثر من ذلك[1].

وفي القول تناقض، فكيف حمل عنها وقد أشار إلى أن ابن المهلب لم يقبل شفاعته فيها واحتماله ما عليها، وهذا بيت الداء وأساس العداء، فلو كان قد حمل فهـذا معناه قبول ابن المهلب شفاعة يزيد بن عبدالملك، فلماذا يعاديه إذاً، ولم كـان يخشاه ابـن المهلب.

والأصح أنه لم يقبل منه. ثقة في حظوته عند الخليفة سليمان، وأن غضب يزيد لن يؤثر عليه، واستبعادًا في ذلك اليوم أن يكون الأمر ليزيد بن عبدالملك على الأقل قريبًـا، فحملها عليه يزيد بن عبدالملك، وخشى ذلك ابن المهلب عندما علم بمـرض عمـر وأن الخلافة سائرة إلى يزيد بن عبدالملك.

ويضيف ابن أعثم سببًا آخر للعداء بين الرجلين، وهو أن ابن المهلب خـرج مـن الحمام يومًا في عهد سليمان وقد تضمخ بالغالية[2]، فمر على يزيد بن عبدالملك الجالس إلى جنب عمر بن عبدالعزيز، فقال يزيد: قبح الله هذه الدنيا وما فيها! لوددت أن مثقـال غالية بألف دينار فلا ينالها إلا كل شريف. فسمعه ابن المهلب، وقال: وددت أن الغاليـة لا توجد إلا في جبهة الأسد فلا ينالها إلا مثلي. فقال يزيد: والله إن وليت هذا الأمر يومًا من الأيام لأقطعن خير طابق في يدك، أو قال: لأقتلنك. فقال ابن المهلب: والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حي لأضربن وجهك بخمسين ألف سيف[3]. وليس لنـا أن نسـتبعد هـذا السبب أو ذاك، وإن كنا نستطيع أن نقول أن هذا السبب أن صـح فإنـه يعتبـر ثانويًـا وشخصيًا وقد أدى إلى إذكاء روح العداوة بين الرجلين والتي يرجع سببها الرئيسي إلى تعذيب ابن المهلب لأصهار الخليفة.

---

(1) عن سبب العداء بين يزيد بن عبدالملك ويزيد بن المهلب انظر/ (الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦٤ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٦٠ – ١٦١ – ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢١٤ – مجهول: العيون، ٣/٥٠ – ابن خلكان: وفيات، ٦/٣٠٠ – ابن خلدون: العبر، ٣/٧٦).

(2) الغالية: من الطيب، نوع مركب من مسك وعنبر وعود ودهن، وهي معروفة، يقال أن أول من سماها بذلك سليمان بن عبدالملك، والأصح أنها عرفت بهذا الاسم قبل ذلك. انظر: اللسان (غلا).

(3) الفتوح، م٤/٢٣٩ – ٢٤٠ – ابن الأثير: نفس المصدر، ٤/١٧٥.

وكأنما حكم على ابن المهلب أن يظل طريد السلطة وسجينها من عهد إلى آخر. لكن الكارثة كانت تتربص به على يد يزيد بن عبدالملك. فأدرك أنها النهاية القريبة، فلم يجد لنفسه سبيلاً غير الهرب[1].

هرب ابن المهلب من سجن عمر:

كتب ابن المهلب إلى مواليه الذين كانوا معه بالشام، أن يعدوا له أبلاً وخيلاً ليهرب عليها، وقد عين لهم مكاناً فاحتال لذلك، وقيل[2] بل رشا حرسه وعامل حلب. فخلى سبيله. فلما ثقل على عمر المرض، نزل يزيد من محبسه إلى المكان الذي واعد فيه مواليه. ومضى هارباً من هناك ومعه مواليه يؤم العراق، فلما قرب من العراق، كتب إلى عمر بن عبدالعزيز إني والله لو علمت انك تبقى ما خرجت من محبسي حتى تكون أنت الذي تخرجني، ولكني لم آمن يزيد لما قد علمت بيني وبينه فلا تظن بي غير ذلك والسلام[3].

---

(1) إبراهيم بيضون: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٣٣١.

(2) ابن قتيبة: المعارف ط٢. ص ٤٠٠ - ابن خلدون: العبر، ٧٦/٤ - ٧٧- نافع العبود: آل المهلب، ص٧٩. وعلق على ذلك بقوله: لماذا لم يحاول الهرب قبل مرض عمر مادام يستطيع ذلك بالرشوة، أو يدفعنا هذا إلى احتمال أن يكون الخليفة نفسه قد سهل إخراجه. واحتمال أن يكون أمير حلب كارهاً لمجيء يزيد بن عبدالملك إلى الخلافة، فأبدى تعاطفاً مع ابن المهلب، وأطلق سراحه.

إلا أننا نرد قوله ونقول: لم يهرب ابن المهلب قبل مرض عمر، لأنه لم يكن يخشاه، وكان يأمل العفو. أما أن يكون عمر سهل أمر إخراجه، فهذا ما تبطله النصوص التي سنشير إليها مبينة موقفه من هربه (انظر نفس الصفحة هـ٣) كما نستبعد تعاون أمير حلب وتعريضه نفسه للخطر، ولكن لا نستبعد تواطؤ حرسه، الذين قد يكونون من اليمنية، فأثرت عليهم روح العصبية، وحلاوة المادة. مما سهل على مواليه وعترته أمر التفاهم معهم ومساعدته.

(3) عن هرب ابن المهلب: انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٥٦٤/٦ - ٥٦٥ - ابن أعثم: الفتوح، م٤/ ٢٤٠ - مجهول: العيون، ٥٠/٣ - ابن الأثير: الكامل، ١٦٠/٤ - ١٦١ - ابن خلكان: وفيات، ٣٠٠/٦ - ابن كثير: البداية، ط١، ص٢١٤، ٢١٠ (وقال: علم أنه يموت في مرضه ذلك، وبذلك كتب إليه، وأظنه كان عالماً أن عمر قد سقى سماً، وقضية سم عمر أمر مختلف عليه، والأقرب أنه ما خرج من سجنه بعد احتياله على ذلك، إلا بعد أن علم بثقل المرض على عمر.

ولعل نص هذا الكتاب يعضد قولنا في الرد على العبود الذي احتمل أن يكون الخليفة عمر سهل هروب ابن المهلب من سجنه، والراجح أنه كان يتأمل العفو منه، ولا يخشى شره. وكان هروبه هذا قبل موت عمر بليلتين[1]. فلما بلغ ذلك عمر بن عبدالعزيز قال: اللهم أن كان يريد بهذه الأمة سوءًا فأكفهم شره، وأردد كيده في نحره[2]. ولم يقف الخليفة عند قوله هذا، بل وجه في أثره رسلاً فلم يلحقوا به[3]. إلا أن ابن خلكان ينقل عن الواقدي زعمه: أن هرب ابن المهلب كان بعد موت عمر وذلك في رجب (سنة ١٠١هـ). ورد عليه بقوله: «وجدت في مسودة تاريخ القاضي كمال الدين بن العديم الحلبي أن عمر حبس يزيد بن المهلب وابنه معاوية بحلب، وهربا منها – أي في حياته – والله أعلم»[4].

موقف الخليفة يزيد بن عبدالملك من هربه:

أما يزيد بن عبدالملك فما أن تولى الخلافة بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز حتى بعث في طلب ابن المهلب الذي توجه إلى العراق فلم يقف له على خبر[5]. وليس هناك من تفسير لعدم تمكن رسل عمر ومن بعده يزيد في اللحاق بابن المهلب، إلا أنه اتخذ طريقًا غير المألوف، متواريًا عن العيون ومضللاً عمن قد يلحق به ويطلبه، خصوصًا إذا علمنا أنه هرب قبل موت عمر بليلتين، أي أن الخليفة عمر طلبه بعد هربه في اقل من ليلتين، وكان من الممكن اللحاق به، إذا ما استخدمت خيل البريد. فاتخذ الخليفة يزيد الخطوة الثانية في محاولة القبض على ابن المهلب، الذي يخشى خطره إن وصل إلى البصرة مكمن قوته وأرض عشيرته. راجيًا أن يستأصل الداء في مهده. فكتب إلى عبدالحميد بن

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣٠٨/٢.

(٢) ابن كثير: البداية، ط، ٢١٤/٩ – ابن خلدون: العبر، ٧٧/٣ – ابن خلكان: وفيات، ٣٠٠/٦.

(٣) اليعقوبي: نفس المصدر والمجلد والصفحة.

(٤) نفس المصدر والجزء، ص٣٠١ – الطبري: تاريخ الأمم، ٥٦٥/٦ – المسعودي: التنبيه، ٢٧٧ – اليافعي: مرآة ٢٤١/١ – الذهبي: دول الإسلام، ٥٣/١ (وأضاف: وسار على البريد) أي أنه سلك طريق البريد – المقدسي: البدء، ٤٧/٦ – ابن العماد: شذرات، ١٢٤/١.

(٥) مجهول: العيون، ٥١/٣.

عبدالرحمن[1] عامله على الكوفة، يخبره بهربه، ويأمر بطلبه، ليقطع الطريق عليه إلى البصرة، كما كتب إلى عدي بن أرطأة[2]، عامله على البصرة، يعلمه بهربه، آمرًا إياه أن يتهيأ لاستقباله، وأن يأخذ من كان بالبصرة من أهل بيته[3].

فقام عبدالحميد بالقبض على خالد بن يزيد بن المهلب وكان بالكوفة، وعلى حمال بن زحر الجعفي، لصلته بالمهالبة، فبعث بهما إلى الخليفة يزيد بن عبدالملك. فسجنا حتى هلكا[4].

كما بعث هشام بن مساحق بن عبدالله القرشي على رأس قوة من الكوفة لاعتراض طريق ابن المهلب عند العذيب[5]، حيث ستكون طريقه من هناك، فنزل هشام العذيب ومر ابن المهلب بالقرب منهم، فاتقوا الإقدام عليه، وقيل بل ارتفع ابن المهلب على القطقطانة[6]، فأخبر هشام بمروره فركب إليه فحاد عنه، ومضى يزيد إلى البصرة،

---

(1) عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي، أبو عمر، أمير من أهل المدينة، ثقة في الحديث. استعمله عمر بن عبدالعزيز على الكوفة. وتوفي بحران في خلافة هشام سنة ١١٥هـ. (الزركلي: الإعلام، ٢٨٦/٣).

(2) عدي بن أرطأة الفزاري، أبوواثلة أمير من أهل دمشق كان من العقلاء الشجعان، ولاه عمر بن عبدالعزيز على البصرة سنة ٩٩هـ. فاستمر إلى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب، بواسط، في فتنة أبيه يزيد بالعراق (الزركلي: نفس المرجع، ٢١٩/٤).

(3) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٧٨/٦ - ابن الأثير: الكامل، ١٦٨/٤ - ابن أعثم: الفتوح، م٢٤٢/٤ (لم يشر إلى كتاب الخليفة إلى عبدالحميد) - مجهول: العيون، ٥١/٣.

(4) الطبري: نفس المصدر، ٥٨٥/٦ - ابن الأثير: الكامل، ١٦٩/٤ - ابن خلدون: العبر، ٧٧/٣ (إلا أنه أورد اسم جمال: حماد بن ذخر، تحريفًا).

(5) العذيب: هو الماء الطيب وهو ماء بين القادسية والمغيثة، وقيل هو واد لبني تميم، من منازل حاج الكوفة، وقيل هو حد السواد، وقيل: العذيب يخرج من قادسية الكوفة إليه. وهناك عذيب الهجانات، وهناك عذيب الهجانات، وعذيب القوادس. (ياقوت: معجم، ٩٢/٤). وأظن المقصود العذيب الذي يخرج من قادسية الكوفة إليه.

(6) القطقطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بألطف، تخرج منها إلى عين التمر، ثم ينحط حتى يقرب من الفيوم إلى هيت. (ياقوت: نفس المصدر، ٣٧٤/٤).

وانصرف هشام إلى عبدالحميد[١] وكان قد بلغه خبر وفاة الخليفة عمر وتولى يزيد بن عبدالملك الخلافة، وكتبه إلى أميري الكوفة والبصرة، وسجن أخوته ومواليهم، فاغتم لذلك ولم يكن معه آنذاك إلا أقل من مائة رجل ممن اتبعه من أهل الشام ومواليه وبني عمه[٢].

ويذكر المؤلف المجهول من كان معه بقوله: وما معه إلا برذون وعجلان وأبوفديك، ومولى له آخر ومن على ثقله[٣].

استيلاؤه على البصرة:

استجاب عدي بن أرطأة لأمر الخليفة فأخذ آل المهلب، وفيهم المفضل وحبيب ومروان بنو المهلب، فحبسهم[٤]. وكان قد أمن المفضل وعبدالملك. ثم بعث إلى أبي عيينة ومدرك، فصاروا ستة فقيدهم جميعًا وحبسهم[٥].

وقد أشار عليه وكيع بن الأسود بقتلهم أو هدم دورهم أو إعطاء الناس من بيت المال ليدافعوا عنه، فأباه[٦]. ثم جمع عدي إليه أهل البصرة، وخندق عليها، وبعث على خيلها المغيرة بن عبدالله بن أبي عقيل الثقفي في خمسمائة فارس كما بعث على كل

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٧٨/٦ - ٥٧٩ - ابن أعثم الفتوح، م٢٤٢/٤ (وأضاف لاسم هشام بعد عبدالله: بن مخرمة الكناني) - مجهول: العيون، ١/٣ - ٥٢ - ابن الأثير: الككامل، ١٦٩/٤ (وأضاف لنسبة العامري. ولا تناقض فالعامري قرشي والقرشي كناني) - ابن خلدون: العبر، ٧٧/٣.

(٢) ابن أعثم: نفس المصدر والمجلد والصفحة.

(٣) نفس المصدر، ٥٢/٣.

(٤) الطبري: نفس المصدر، ٥٧٨/٦ - ابن الأثير: نفس المصدر، ١٦٨/٤ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣٠٨/٢ - ابن خلدون: نفس المصدر و الجزء والصفحة.

(٥) مجهول: نفس المصدر والجزء، ص٥٣ - ٥٤ - الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ١٧٣/٢.

(٦) مجهول: نفس المصدر والجزء، ص٥١.

خمس من أخماسها رجلاً[١]. وتقدم في هذه الأثناء عبدالملك بن المهلب إلى عدي بن أرطأة، بأن يحبس ابنه حميدًا مكانه، ليتولى رد يزيد عن البصرة إلى فارس، حتى يطلب لنفسه الأمان، فلم يقبل عدي منه[٢]. وقد يكون ذلك من خشية عبدالملك على أخيه عندما رأى استعداد عدي وظنه قدرته في القبض على يزيد، أو على الأقل منعه من دخول البصرة، وهذا نفسه ما دعى عدي إلى رفض عرضه وطمعه في الغلبة. إلا أن تدخل محمد بن المهلب الذي لم يقع في يدي عدي، والذي جمع حوله قوة تمكن بها من مساعدة يزيد على الدخول إلى البصرة قلبت موازين القوى في صالح ابن المهلب.

ذلك أنه عندما أقبل يزيد ومن معه وجد البصرة محفوفة بالرجال، فجمع محمد بن المهلب – ولم يكن ممن حبسهم عدي – أهل بيته ورجالاً من مواليه وخرج لاستقبال يزيد، فأقبل في كتيبة تهول من رآها، ما مرت بخيل أو قبيلة إلا تنحوا له عن الطريق، ولم يعرضوا له. فتصدى له المغيرة الثقفي في الخيل، إلا أنه تراجع عندما حمل عليه محمد بن المهلب، وأفرج لهم الطريق دون قتال[٣]. بل أنه عندما مر بالحرس الذين صيرهم عدي في الأزد بقيادة بدل بن نعيم في رجال من بني تميم، رحبوا بابن المهلب ولم يفعلوا شيئاً[٤]. ويبدو أن مهمة هذه القوة كانت مكلفة بحراسة منزل الأزد في البصرة، لتمنع ابن المهلب من دخوله، لكنهم تخاذلوا كما يفيد النص فنزل يزيد دار المهلب[٥]. وقيل: نزل داره[٦]. وقد أشير على عدي بأخذ ابن المهلب بعد دخوله

---

(١) عن تهيؤ عدي لابن المهلب انظر/ الطبري: تاريخ الأمم، ٥٧٩/٦ – ٥٨٠ – مجهول: العيون، ٥٤/٣ – ابن الأثير: الكامل، ١٦٨/٤– ابن خلدون: العبر، ٧٧/٣ (ويلاحظ عليه هنا وفي كثير من المواضع تحريف الأسماء).

(٢) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٥٧٩.

(٣) ابن الأثير: نفس المصدر، ١٦٨/٤ – ابن خلدون: نفس المصدر، ٧٧/٣ – نافع العبود: آل المهلب، ص٧٩ – ٨٠.

(٤) مجهول: نفس المصدر، ٥٢/٣.

(٥) مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٦) الطبري: نفس المصدر، ٥٨٠/٦ – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة. وقد لا يكون هناك خلاف، على اعتبار أن دار أبوه المهلب قد تكون آلت إليه بعد ممات أبيه، فغدت دار له.

البصرة، قبل أن يعظم أمره، فأبى ذلك[1]. وكأنه لا يريد أن يبدأ الفتنة. وكان دخوله البصرة ليلة البدر من شهر رمضان سنة أحدى ومائة من الهجرة[2].

وباستقراء لموقف عبدالحميد بن عبدالرحمن أمير الكوفة، وعدي بن أرطأة أمير البصرة، يتبين لنا أنهما عجزا عن تحقيق هدف الخليفة بوأد الفتنة في مهدها عن طريق القبض على ابن المهلب ومنعه من الوصول إلى البصرة مكمن قوته وموطن عشيرته. فإن كان عبدالحميد بن عبدالرحمن قد قبض على بعض بني المهلب ومواليهم، إلا أن مبعوثه هشام بن مساحق لم ينجح في المهمة الموكلة إليه، وهي اعتراض طريق ابن المهلب والقبض عليه. ضعفا من ابن مساحق وسوء اختيار من عبدالحميد، وسوء تقدير، فما كان عليه لو خرج إلى ابن المهلب بنفسه.

ومع أن عديًا بن أرطأة، أمير البصرة، قد تأهب لذلك فخندق عليه في البصرة، وأعد جنده، إلا أن ابن المهلب تمكن من التغلب عليه، ودخل البصرة. وهذا يكشف لنا حال أهل البصرة وموقفها المبكر من الخليفة وعامله. إذ سرعان ما اتضح تخاذلهم، بإفساح المجال لابن المهلب قبيلة بعد أخرى دون أن يعرضوا له. بل أن المغيرة الثقفي الذي كان ينتظر منه موقف أشد حزمًا، لما بين آل أبي عقيل والمهالبة من عداء. نجده يتراجع أمام محمد بن المهلب، حتى دخل ابن المهلب البصرة دون قتال. أما عدي نفسه فإننا نستطيع أن نقول أن مواقفه تبين نوعية رجال عمر بن عبدالعزيز، لا يثاره العافية على القتال، وعدم التصرف فيما ليس من صلاحياته، مع أن خطورة الموقف وبعد المكان عن مركز الخلافة يتطلب اتخاذ الأسباب المناسبة لدرء الخطر وتحقيق الغاية في حدود الشرع ما أمكن فتوقف عند أمر الخليفة بالقبض على ابن المهلب، لذا لم يفسح المجال لعبدالملك ليرد أخاه عن البصرة إلى فارس، لكنه عجز عن تنفيذ الأمر. فما استطاعت قوته التي أعدها الوقوف في وجه ابن المهلب، كما أنه لم يسع إلى القبض

---

(١) مجهول: العيون، ٣/٥٢.

(٢) مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة. أي أنه قطع الطريق من حلب إلى البصرة في أكثر من شهر ونصف، وفي هذا ما يبطل القول بأنه سار على البريد، لإمكانية وصوله بأسرع من هذا الوقت بكثير فيما لو حدث ذلك، وهذا يسند قولنا بأنه أخذ طريقًا غير المألوف، أو أنه اختفى في مكان ما حتى خف عنه الطلب. انظر قبل: ص١٣٨.

عليه بعد نزله البصرة قبل استفحال خطره. ولعل قلة القوة الشامية في العراق منذ عهد عمر بن عبدالعزيز، جعل عدي يعتمد على عرب البصرة، الذين لم يكونوا ليقفوا إلى جانبه دون مقابل، وهو لم يدرك ذلك، إذ رفض نصيحة وكيع بن الأسود بتوزيع بعض المال على الناس ليدافعوا عنه. المهم أن يزيد بن المهلب نزل البصرة، فحل بين أهله وأتباعه وقبيلته الأزد وحلفائها من ربيعة، وهما أعز القوى بها وأكبرها. نجد ذلك على لسانه في إجابة منه على سؤال الخليفة سليمان له: فيمن العز بالبصرة؟ إذ يقول: «ففينا وفي حلفائنا من ربيعة»[١]. ولعل هذا مما ساعده على دخولها لمساندتها له وترحيبها به من ناحية، وتقدير القبائل الأخرى لهذه القوة، بل قد يكون ذلك ما منع عدي من أخذه بعد دخولها، لعلمه أن قومه لن يخلوا بينه وبين ابن المهلب.

ولا ننس ارتباط المهالبة مع البصرة وأهلها بعلاقات قديمة منذ زمن والده، حيث كون لهم ذلك أنصارًا. ففضلها على خراسان التي أشار بها عليه أخوه حبيب، لعلمه بإنهيار سمعة الخلافة الأموية في هذا الإقليم، وازدحامه بالقوى المعارضة[٢].

وكتب ابن المهلب من ليلته التي وصل فيها إلى يزيد بن عبدالملك يسأله الأمان، وبعث به مع حميد بن عبدالملك بن المهلب[٣]، وابنه خالد بن يزيد[٤]، فلما قدما على الخليفة يزيد استشار الناس في أمانه، فقالت المضرية لا تؤمنه، فإنه أحمق غدار، وقالت اليمانية تؤمنه فتحقن الدماء وتستصلح قومه. فأمر أن يكتب له أمانه ولأهل بيته، على أن يقيم «ببلده»[٥]. وأنفذ معهما خالد القسري وعمر الحكمي. فتقدم خالد إلى

---

(١) ناجي حس: القبائل، ص١٥٣ – نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٢٩٦.

(٢) إبراهيم بيضون: ملامح التيارات السياسية، ص٣٣١ – ٣٣٢.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٨٠/٦ – ابن الأثير: الكامل، ١٦٨/٤ – مجهول: العيون، ٥٢/٣ – ابن خلدون: العبر ٧٧/٣.

(٤) مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة. (لكننا نقف عند قوله هذا، فقد ذكر أن خالد بن يزيد قد قبض عليه عبدالحميد بن عبدالرحمن، وبعثه إلى الخليفة يزيد، وظل في سجنه حتى هلك. بل أننا لن نجد له ذكرًا في أحداث الفتن، مما يعضد الرواية الأولى، ويدفعنا إلى استبعاد قول المؤرخ المجهول، منفردًا بذلك ومخالفًا لمن هو أقدم منه). انظر قبل: ص٩٣.

(٥) يفهم من هذا النص أن أعطاه الأمان على أن يقيم ببلده (أي البصرة)، ولكن محقق كتاب العيون و الحدنق للمؤلف المجهول، أشار في هامش (٣)، ٦٧ أن المقصود ببلده هو بلد (كود) Cod، =

أبيه بالبشارة[1]. وفي طريقهما إلى ابن المهلب بأمانه، لقيا الحواري بن زياد بن عمرو العتكي هاربًا من يزيد بن المهلب يريد الخليفة، فأخبرهما بتغلب ابن المهلب على عدي وأشار عليهما بالرجوع، فأقبلاً عائدين إلى الخليفة ومعهما حميد، الذي ناشدهما إيصال الأمان لعمه فما سمعا منه، وفي الطريق سلماه إلى عبدالرحمن بن سليم الكلبي[2]، وكان يزيد قد بعثه عاملاً على خراسان، فلما بلغه خبر خلع ابن المهلب للخليفة، كتب إلى الخليفة أن يجعله ممن يجاهد عدوه، راغبًا عن ولاية خراسان، وبعث بحميد إلى الخليفة يزيد بن عبدالملك[3].

= وبالرجوع إلى معجم البلدان للحموي، وجدت تعريفًا لها في ٤٨٨/٤ قال فيه أن كود: بالضم هو كود أثال. وهو اسم موضع قتل فيه الصميل بن الأعور الضبابي. وقيل: ماء لبني جعفر وقيل: جبل. واثال: جبل لبني عبس بينه وبين الماء الذي ينزل عليه الناس إذا خرجوا من البصرة إلى المدينة ثلاثة أميال، وهو منزل لأهل البصرة بعد قو وقبل الناجية، وقيل مواضع أخرى. انظر نفس المصدر، ٨٩/١-٩٠. وقد ذكر «كي لسترنج» أن جبل كود يقع على بعد فرسخ عن مدينة بم الواقعة إلى الجنوب الشرقي من ماهان وفي شرق كرمان. انظر: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص٣٥٠.

كما ذكر في ص٣٧٧ من نفس المرجع «كودزره» وقال أنها عقيق ثاني لبحيرة زرة الواقعة جنوب عدوة نهر هيلمند الأسفل إلا أننا لم نعرف العلاقة بين كود والنص، عندما فسر المحقق أن كلمة (ببلدة) تعني كود. إذ لم نجد علاقة بين ابن المهلب وبين هذا الاسم، وأن المهالبة استوطنوه أو كان بلداً لهم.

(1) مجهول: العيون، ٦٦/٣ - ٦٧ - الطبري: تاريخ الأمم، ٥٨٠/٦ - ابن الأثير: الكامل، ١٦٨/٤. وقد أشار كالطبري إلى اسم والد الحكمي فقالا: عمر بن يزيد الحكمي.

(2) لم أعثر له على ترجمة. وقد ولاه مسلمة بن عبدالملك البصرة أثناء ولايته على العراق ثم عزله. انظر: الفصل الرابع المبحث الثالث، ص٣٧٧، ٣٨٠.

(3) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٥٨٤ - ٥٨٥ - مجهول: نفس المصدر و الجزء، ص٦٧. لكنه لم يشر إلى التقاء الوفد بالحواري، وقال: أن الوفد سار حتى وصل إلى المكان الذي به عبدالرحمن بن سليم بالقرب من الكوفة حيث أقام فيه عندما سمع بخلع ابن المهلب للخليفة، قال: فشد على حميد وأوثقه وبعث به إلى الخليفة - ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٦٩ وقد أورد اسم الحواري: المغيرة بن زياد، ولم يشر إلى تسليم حميد للكلبي، بل قال: ورجعا به - ابن خلدون: العبر، ٧٧/٣. و افق ابن الأثير في اسم الحواري، والخبر.

نرى مما تقدم أن ابن المهلب طلب الأمان من الخليفة يزيد بن عبدالملك حين وصوله البصرة، وهذا يبين أن ابن المهلب لم يكن في بادئ الأمر يفكر في الخروج على الخلافة، وإنما دفعه إلى الهرب خوفه من يزيد بن عبدالملك، فأراد أن يأخذ لنفسه الأمان، وهو في مأمن من شر خصمه. إلا أن حبس عدي لإخوته، أحرج موقفه فإن هو أمن على نفسه في البصرة أو في غيرها أن خرج منها، فإخوته في خطر، وكونه غير واثق من حصوله على أمان الخليفة، حدا به ذلك إلى مفاوضة عدي بأن يطلق إخوته مقابل خروجه وإياهم عن البصرة فلم يقبل منه[1].

فخشى أن يبقى على هذا الوضع ولا يعطيه الخليفة الأمان، ويبعث في طلبه فيكون هو وإخوته تحت رحمة الخليفة وأمير البصرة وفي متناول سلطته. وهذا ما دفعه إلى جمع الناس حوله ليستطيع الدفاع عن نفسه وقت الحاجة وإنقاذ إخوته، إلا أنه فيما يظهر بلغ أعوانه وأتباعه من العدد والقوة ما أوحى له بحرب عدي واستنقاذ آل المهلب من سجنه، ليكون هو وإخوته سواء أما في أمان الخليفة وعفوه، أو في مواجهته. لكن ظهوره على عدي على البصرة وما ولاها واستشعاره القوة سيدفعه إلى خلع الخليفة يزيد بن عبدالملك وروم الخلافة لنفسه.

أما الخليفة يزيد، فإن معالجته لحركة ابن المهلب من أولها تميزت باليقظة وإعطائها حقها من الاهتمام والسعي إلى إخمادها في مهدها، فمن البعث في طلبه عند هربه إلى إصدار الأوامر لأمراء العراق باستقباله والقبض على ذويه والجد في طلبه[2]. ونراه بعد أن وصله كتاب ابن المهلب الذي تمكن من دخول البصرة مركز عصبيته يطلب الأمان فيه، يتعامل مع الواقع بكل حكمة، فيستشير. ويرتفع بنفسه كخليفة عن التعامل مع الحدث تحت تأثير الهوى والتعصب، فينسى كراهيته لابن المهلب وحزازات

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٨٠/٦ – مجهول: العيون، ٥٢/٣ – ٥٣ – المسعودي: التنبيه، ص٢٧٧ – ابن الأثير: الكامل، ١٦٨/٤ – ابن أعثم: الفتوح، م٢٤٣/٤. إلا أنه يشير إلى أن مفاوضة ابن المهلب لعدي كانت قبل دخوله البصرة، وأنه نزل على مرحلة منها وبعث إلى عدي إلا أننا نرى صحة القول بحدوثها في البصرة، إذ لو تمت قبل ذلك، وأنه دخل البصرة مخالفاً لعدي محاربًا له، لما استأمن من الخليفة بعد ذلك.

(٢) انظر قبل: ص٩٢ – ٩٣.

الماضي، كما يرفض رأي المضرية عصبيته بعد إعطائه الأمان، ويأخذ برأي اليمانية الداعي لتأمينه، حقنًا للدماء واستصلاحًا لقومه. فيؤمنه. وبذلك يسمو فوق روح العصبية وإطارها الضيق، إلى مستوى المسئولية، وتعامل السلطة مع الحوادث بما يحقق المصلحة العامة، ويحفظ الأمن ويكفل استمرار السيادة.

لذا فإننا نخالف نافع العبود الذي يقول: «أعلن يزيد بن المهلب خلافه ليزيد بن عبدالملك على أثر وصوله البصرة ليلة القدر من شهر رمضان سنة ١٠١هـ / ٧١٩م»[١]. إذ رأينا مما تقدم أن ابن المهلب كاتب الخليفة وفاوض عدي بعد دخوله البصرة، وهذا يدل على أنه لم يعلن مخالفته إلا بعد أن تعذر عليه إخراج إخوته عن طريق المفاوضة مع عدي، واجتماع الناس حوله، مما أغراه بالخروج.

فقد بعث يزيد إلى الأزد وربيعة، فجاءت الأزد وأبطأت ربيعة، ثم جاءت وطلب مساندتها، ثم أمر العرفاء أن يفرضوا للناس، وجعل يعطيهم قطع الفضة، وأعطى قومًا من القراء والقصاص[٢]. فمال الناس إليه، ربيعة وبكر وبقية تميم وقيس وبعض الجند الشامي في العراق، بينما كان عدي لا يعطي إلا درهمين درهمين[٣]. والذي دفع ربيعة لمساندة الأزد ذلك الحلف القديم الذي وجد بين القبيلتين، إلا أن علينا ألا نغفل أثر المصلحة المادية إلى جانب ذلك، فعندما حشدت ربيعة أثناء الحركة استبطأته في أمر يتعلق بالعطاء، فشغبت عليه حتى أرضاها وهي بعملها هذا إنما تعرض الحركة للفشل[٤]. وكان ممن مال إليه عمران بن عامر بن مسمع الذي غضب عندما حول عدي

---

(١) آل المهلب، ص٨٠ (نقلاً عن ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص٣٤١). ونحن نرجع قول المؤرخ المجهول بأنه دخل البصرة ليلة البدر، أي ليلة النصف من رمضان. انظر قبل: ص١٤١. وبرجوعنا لابن خياط: تاريخ، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص٣٢٢. وجدناه ذكر دخوله ليلة البدر كما عند المؤرخ المجهول، لا ليلة القدر، وهذا يعني أن العبود وقع في خطأ في النقل، أو الطبع.

(٢) مجهول: العيون، ٣/٥٣.

(٣) محمد عبدالحي شعبان: الثورة العباسية، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي، رسالة دكتوراه مطبوعة، دار الدراسات الخليجية، أبوظبي، ١٩٧٧م، ص١٦١ – المسعودي: التنبيه، ص٢٧٧ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٦٨.

(٤) ناجي حسن: القبائل، ص١٥٤ – ١٥٥.

الراية عنه إلى ابن عمه نوح بن شيبان وعبدالملك ومالك ابنا مسمع[1].

وجعل سادات البصرة يخرجون إلى ابن المهلب، فيحسن إليهم ويمنيهم حتى صار في قريب من ثلاثة آلاف، وقعد عامة أهل البصرة في منازلهم ممن كان يهوى ابن المهلب[2].

كما انضم إليه جماعتان، أحدهما من الخوارج بقيادة السميدع[3]، والثانية من المرجئة[4] يقودها رؤبة[5][6].

ثم أرسل يزيد إلى الأسواق فحرفها أو أكثرها إلى الأزد واشترى السلاح، واعتزل، فنزل مقبرة بنى يشكر. وكانت اليمانية وربيعة تختلف إليه، ومضر تأتي عديًا[7]. فإن صح هذا النص إتضح لنا تعصب الرجل في حركته من أولها. إلا أنه كيف يخص بها الأزد، ويحرم ربيعة وهي الحليفة، وإن رضيت ربيعة، فهل ستسكت مضر، وما نصيب من انضم إليه منها على الأقل. وهذا ما يدعونا إلى استبعاده، كما أن قول كثير من

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٨٠ – مجهول: العيون، ٣/٥٤ – ٥٦.

(2) ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٤٣.

(3) السميدع: السميدع الكندي من بني مالك بن ربيعة من ساكني عمان، يرى رأي الخوارج، وقد خرج أثناء الفتنة بين عدي وابن المهلب، واعتزل مع طائفة من القراء، دعاه ابن المهلب إلى نفسه، فأجابه، واستعمله يزيد على الأبلة. (الطبري: نفس المرجع، ٦/٥٨٣).

(4) المرجئة: الإرجاء بمعنى التأخير، أي أمهله وأخره، أو أعطاه الرجاء. قيل: الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة. وقيل: الإرجاء تأخير على رضي الله عنه عن الدرجة الأولى إلى الرابعة.

والمرجئة أربعة أصناف: مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، و المرجئة الخالصة وقد قيل أن أول من قال بالإرجاء: الحسن بن محمد بن علي ابن أبي طالب. (الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل، طبعة دار الفكر، بيروت، لبنان، ص١٣٩ – ١٤٦).

(5) رؤبة: رأس طائفة المرجئة، ناصر ابن المهلب في حربه لبني أمية، هو وجماعة من أصحابه. (الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٥٩٣).

(6) محمد شعبان: الثورة، ص١٦١.

(7) مجهول: نفس المصدر، ٣/٥٣ وإن كان الأمر ليس على ما قال تمامًا، فمن مضر من انضم إلى يزيد، ومن اليمنية من ناصر عديًا.

النصوص بانضمام كثير من القبائل إليه أو بعضها، يبين أنه ليس من الحكمة أن يصنع ذلك، فهو أحرى أن يتألف الناس بالعدالة حتى يجمعهم حوله. وهناك نصوص تؤيد ما ذهبنا إليه وذلك بدعوته إلى جعل الأمر شورى، والعودة إلى سيرة العمرين وغيرها[1]. كما أنه ليس من الدقة أن نقول بانقسام أهل البصرة إلى قسمين، مضر مع عدي والأزد وربيعة مع ابن المهلب، إذ أشرنا إلى انضمام بعض المضرية إلى ابن المهلب واليمنية إلى عدي، لكن ذلك ينطبق على الأكثرية لا الكلية[2].

أما عدي بن أرطأة، فقد جمع أصحابه وأخبرهم أنه لا يستطيع أن يعطيهم من بيت المال شيئاً إلا بأمر الخليفة، وإذا فرغ من قتال يزيد أعطى كل قدر جهده، وقسم عليهم مالاً أصاب كل فرد درهمين، وفي ذلك يقول الفرزدق:

أظن رجال الدرهمين يقودهم إلى الموت آجال لهم ومصارع

وأكيسهم من قرَّ في قعر بيته وأيقن أن الموت لابد واقع[3]

ولعل هذا ما أدى إلى تفرق الناس من حوله، فنجد ابن أعثم يقول: حتى بقى عدي في أصحابه الذين قدموا معه من الشام ونفر يسير من قيس عيلان وتميم[4].

وهذا ليس من الدقة بمكان فقد جمع عدي حوله جند أهل الشام، وانضمت إليه بقايا قبائل البصرة ومن بينها الأزد، قبيلة ابن المهلب نفسه[5]. كما أيده بنو مجاشع الذين أثار حفيظتهم قتل الخيار بن سبرة المجاشعي على يد ابن المهلب، وكان أميرًا على عمان من قبل عدي، إلى جانب مناوئة زعمائهم لابن المهلب خشية من عزلهم عن زعامة أخماس البصرة[6].

---

(1) انظر بعد: ص١٠٧.

(2) انظر قبل: ص١٠٠ - ١٠١.

(3) ابن أعثم: الفتوح، م٤/ ٢٤٤ - مجهول: العيون، ٣/٥٤ قال: خطبهم وفرض لهم في كل يوم درهمين، وأخبرهم أنه كتب إلى الخليفة ليطلق يده في عطائهم - الطبري تاريخ الأمم، ٦/٥٨٠ - ٥٨١.

(4) ابن أعثم: نفس المصدر والمجلد، ص٢٤٣.

(5) محمد شعبان: الثورة، ص١٦١.

(6) ناجي حسن: القبائل، ص١٥٦.

وباستقراء الموقف نجد بعض الاضطراب في النصوص التاريخية، فبعضها يشير إلى مساندة الأزد ليزيد وأخرى تقول بولائها لعدي، وكذلك القبائل الأخرى. إلا أنه يظهر لنا أن الأزد خاصة وربيعة قد والت ابن المهلب، إلا بعض الأسر والرجال لعداء قديم أو مصالح رئاسية ظلوا على ولائهم لعدي وحاربوا يزيد، وكذلك القبائل الأخرى، نجد بعضها انضم ليزيد لمصالح مادية أو أهدافًا رئاسية أو خلافًا مع عدي إلا أنه فيما يظهر أن سواد البصرة الأعظم لم يشارك في ذلك الصراع بين ابن المهلب والأمير عدي بن أرطأة، على الأقل قبل غلبة الأول على البصرة وسجنه أميرها، وهذا ما نستشفه من عدد الذين انضموا إليه[1]، وعدد من قاتل بهم عدي بعد.

وبعد أن جمع عدي رجاله عزم على محاربة ابن المهلب[2]، فاستعد لحربه، ونظم ما بين دار الإمارة والمربد الخيل والرجال، وكتب إلى الخليفة يزيد بن عبدالملك يعلمه بخلع ابن المهلب له[3]. فكتب إليه الخليفة يأمره بأخذ ابن المهلب[4]. وكنا قد ذكرنا نزول ابن المهلب جبانة بني يشكر وهو المنتصف فيما بينه وبين القصر[5]. وكان بعد مسيره لحرب عدي قد أمر بتخريب ظلال السوق وهدم الدكاكين واستعد للحرب[6] فجاء عديا بنو تميم وقيس وأهل الشام[7]، وخرج على جمعهم هريم بن أبي طحمة[1] إلى

---

(1) كان عدد الذين انضموا إليه ثلاثة آلاف. (انظر قبل: ص١٤٨).

(2) ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٤٣.

(3) مجهول: العيون، ٣/٥٤ – ٥٦. لم يرد معنا ما يثبت خلع ابن المهلب للخليفة قبل حربه لعدي أو استيلائه على البصرة، إلا إذا كان عدي اعتبر استعداد ابن المهلب للحرب مخالفة للخليفة، وأرى المؤلف قد حمل النص أكثر من معناه. وهذا ما سيتضح من سياق الأحداث.

(4) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢/٣١٠ (ولعل الخليفة أراد تعطيل ابن المهلب بحرب عدي له حتى يعد جيش الشام ويرسله إليه).

(5) انظر قبل: ص١٠١.

(6) مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحات.

(7) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٨١ – ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٤٣ – ٢٤٦ (قال: خرج إليه عدي في أهل الشام ومن جاءه من أهل البصرة. والصحيح أن عديا لم يخرج إليه بنفسه بادئ الأمر، وإنما خرج بعد هزيمة أصحابه واقتراب يزيد من القصر، كما سنرى ذلك في الصفحات التالية) ابن الأثير: الكامل، ٤/١٦٨ (وذكر هو والطبري خروج بنو عمرو بن تميم من أصحاب عدي إلى =

المربد. فوقف في القلب في حنظلة وسعد[٢]. وكانت محاربة عدي لابن المهلب في شهر رمضان من نفس العام[٣]. وفي هذه الأثناء خرج السميدع الكندي وكان يرى رأي الخوارج، وأصحاب يزيد وعدي مصطفين للقتال، فاعتزل، ومعه ناس من القراء، فقالت طائفة منهم رضينا بحكم السميدع فدعاه يزيد إلى نفسه، فأجابه واستعمله على الأبله[٤]، فأقبل على النعيم[٥]. ولعل العداء للبيت الأموي قد جمع بينهما، كما أن في هذه إشارة إلى أن الخوارج كانوا ينشدون من وراء بعض حركاتهم الدنيا ونعيمها. وتدانى القوم، فبعث إليهم يزيد محمد بن المهلب وابن عمه المهلب بن العلاء بن أبي صفرة في ألف رجل[٦] وقيل بل محمد والمشمعل الشيباني ودارس من مولى حبيب بن المهلب[٧]، فاقتتلوا، وهزم أصحاب عدي، وكان قد مال إلى يزيد أثناء القتال بشر بن حاتم بن سويد بن منجوف وأصحابه، وأعان ابن المهلب، فشكر ووصل[٨]. وتعقب ابن المهلب القوم أثر انهزامهم حتى دنا من القصر، فخرج إليه عدي بنفسه، إلا أنه انهزم

= المربد، ولعلهم كانوا أول من نزل به قبل تكامل أصحاب عدي فيه مع هريم، فبعث إليهم ابن المهلب دارس مولى حبيب بن المهلب، فهزمهم).

(١) هريم بن عدي (أبي طحمة) بن حارثة بن الشريد بن مرة المجاشعي الدارمي التميمي، من فرسان تميم في العصر الأموي، قاتل الأزارقة مع المهلب، ثم كان مع عدي بن أرطأة في حرب ابن المهلب، وأخذ اللواء يوم سورا في حربه أيضاً، كان شجاعاً كيساً، عاش بعد ذلك وكبر، توفي سنة ١٢٠هـ. (الزركلي: الأعلام، ٨٣/٨).

(٢) مجهول: العيون، ٥٤/٣ – ٥٦.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٠/٢.

(٤) الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة وهي أقدم من البصرة. (ياقوت: معجم، ٧٧/١).

(٥) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٨٣/٦.

(٦) ابن أعثم: الفتوح، م٢٤٣/٤ – ٢٤٦.

(٧) مجهول: العيون، ٥٤/٣ – ٥٦.

(٨) عن حرب ابن المهلب لعدي انظر/ الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٥٨١ – ٥٨٢ – مجهول: نفس المصدر، ٥٦/٣ – ٥٧ ابن أعثم: نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن الأثير: الكامل، ١٦٩/٤.

وأصحابه[1]. وكان هذا النصر لابن المهلب في اليوم الثاني من القتال، بعد هزيمة رجال عدي الذين بعثهم عند مسجد الأنصار، وفي كل ناحية. وقد لجأ عدي بعد هزيمة أصحابه وهزيمته هو أمام القصر إلى دار الإمارة، فتسلقوا عليه الدار، وأخذوه، وأقبل ابن المهلب حتى وقف على باب الدار ولم يدخلها، وأخرج إليه إخوته الذين كانوا في سجن عدي، فأطلق قيودهم. وكان امتناعه عن دخول الدار، ليكون الأمر شورى على حد زعمه[2]، فنزل دار سلم بن زياد بن أبي سفيان[3]، المجاورة للقصر[4]. فأمر بسجن عدي وبعض من أخذ من أصحابه[5]، إلا أننا نجد من يقول بفرار عدي من ابن المهلب عندما توثب على البصرة[6]. لكنه خبر يبطله إجماع جل المصادر على سجنه وبقائه في الحبس حتى مقتله في واسط على يد معاوية بن يزيد في أعقاب هزيمة أبيه في العقر، ويزيد من ضعف الخبر وروده في ثلاثة من المصادر المتأخرة، يوهنها مخالفتها تسلسل

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٨٣/٦ – ابن الأثير: الكامل، ١٦٨/٤ – ١٦٩، ص١٦٨ – ١٦٩.

(2) مجهول: العيون، ٥٦/٣ – ٥٨ – الطبري: نفس المصدر، والجزء والصفحات – ابن أعثم: الفتوح، م٢٤٥/٤ – ابن الأثير: نفس المصدر و الجزء والصفحة – نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٣٠١ (لكنه يقدم خبرًا شاذًا، يشير فيه إلى حدوث مناوشات بين المهالبة المساجين وحرسهم، انتهت بتمكنهم من الإفلات والهرب من سجن عدي، فلم نجد لذلك أصلاً في المصادر التي أطلعنا عليها، والتي أجمعت على إخراجهم من السجن على يد أخيهم بعد تغلبه على عدي).

(3) قال ابن أعثم في كتابه الفتوح، م٢٤٥/٥٤ أنه نزل دار أم محمد بنت عبد الله بن عثمان الثقفي. وهذا تعارض إلا أنه قد لا يكون هناك تناقض، فقد تكون هذه المرأة، زوجه، أو أمه. لأن الرجل كانت إقامته في البصرة حتى وفاته بها (سنة ٧٣هـ. انظر ترجمته في (الزركلي: الأعلام، ١١٠/٣.

(4) الطبري: نفس المصدر، ٥٨١/٣ – ابن الأثير: نفس المصدر، ١٦٩/٤ (لكنه حرف سلم إلى سليمان) – ابن خلدون: العبر، ٧٧/٣ (وحرف اسم سلم إلى مسلم).

(5) الطبري: نفس المصدر، ٥٨٢/٦ – ٥٨٣ – المسعودي: التنبيه، ص ٢٧٧ – مجهول: نفس المصدر، ٥٨/٣ – ابن كثير البداية، ط١، ٢٤٤/١ – ٢٤٥ – أن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(6) الذهبي: العبر، ١٢٤/١ – اليافي: مرآة الجنان، ٢٤١/١ – ابن العماد: شذرات، ١٢٤/١.

الأحداث المؤيد لمن قال بسجنه. وقد تمكن سادات أهل البصرة من قيس وتميم ومالك بن المنذر، من الهرب، بعد ظهور ابن المهلب، فلحق بعضهم بالكوفة، والبعض الأخر بالشام[1].

وهكذا تم ليزيد بن المهلب في سنة ١٠١هـ الاستحواذ على البصرة، وأخذ عاملها أسيرًا بعد حصار وقتال طويل[2].

وإذا ما أردنا تفسيرًا لهزيمة عدي أمام ابن المهلب، لوجدنا في ثنايا أخبار القتال بين الرجلين بعض وجوهه، ولعل أولها تخاذل أهل البصرة عن نصرة أميرهم، فإن كان العدد الذي انضم إلى يزيد قليلاً إلا أن من اعتزل القتال هو سواد الناس، وكانت قلوب عامتهم خصوصًا من اليمن مع ابن المهلب. ومع ذلك فإنه يظهر أن ابن المهلب لم يكن مرغوبًا من الجميع، بالذات من العلماء وبعض الزعامات والمضرية، وذلك لمعرفتهم حقيقته وما عهد سليمان عنهم ببعيد، وإن كان قد استهوى بعض أهلها بالمال والسلطان[3].

أما لما تركوا عديًا إذاً، فلعل التزامه بالروح الإسلامية في سياسته المالية في مثل ذلك الظرف في عرب العراق، الذين لم يكن للمال بديلاً يجمعهم حول عدي[4]. فهم المناوئون لحكومة الشام تعصبًا للعراق ومجده المندثر، أو المحاربون لها باسم الأحزاب والقوى المعارضة التي كان العراق مسرحها، فلم يكن العراقيون يومًا مناصرين لبني أمية إلا لمصالح يضمنونها فما وجدوها عند عدي، أو تحت رهبة أمير قوي وجيش شامي يفرض سيادة الدولة والانقياد لطاعتها. فما كان عدي تلك الشخصية. كما أن أحداث الحركة قد بينت بجلاء قلة الجند الشامي. الذي قد يكون الخليفة عمر بن

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٨٣/٦ ابن الأثير: الكامل، ١٦٩/٤- مجهول: العيون، ٦٦/٣ - ابن خلدون: العبر، ١٢٤/١.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٠/٢ - ابن كثير: البداية، ٢٤٤/١ - ابن خلكان: وفيات ٣٠٣/٦.

(٣) نبيه عاقل: تاريخ خلافة بين أمية، ص٣٠١ - يوسف العش: الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان، ص٢٧٩.

(٤) يوسف العش: نفس المرجع، ص٢٨٠.

عبدالعزيز قد سحب جله[1]، لأنه وطد سلطانه بالعدل وكانت سياسة السلم شعار حكمه خارجيًا وداخليًا. وقد دعاهم إلى هذا الموقف خشيتهم من تعصب الخليفة لقيس، وعودة سياسة الحجاج من جراء ذلك، صاحب ذلك كره القراء للخليفة يزيد لما سمعوا عنه من سوء السيرة[2].

ومع ذلك لا نغفل العوامل الأخرى، فخيانة بعض رجاله أثناء القتال كابن المنجوف الذي مال هو وأصحابه إلى ابن المهلب فأعانه[3]، وخبرة يزيد العسكرية، ساعدت في النهاية على انتصار ابن المهلب، وسيطرته على البصرة.

خروج يزيد بن المهلب على الدولة وأخذ البيعة لنفسه:

بعد ظهور ابن المهلب أقام يومه ذاك، فلما أصبح نودي في الناس، فاجتمعوا في المسجد وخطبهم قائلاً: إنا غضبنا لكم فانظروا لأنفسكم رجلاً يحكم فيكم بالعدل والسوية، ويقيم فيكم الكتاب والسنة ويسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين[4]، وحثهم على الجهاد، زاعمًا أن جهاد أهل الشام أعظم ثوابًا من جهاد الترك والديلم[5]. وهكذا خرج على الخلافة، ودعا إلى التبرؤ من بني أمية[6]. وقيل دعاهم إلى سيرة عمر بن الخطاب[7] فبايع الناس يزيد بن المهلب على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[8]. وكانت بيعته: تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وعلى ألا تطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا، ولا يعاد علينا

---

(١) محمد شعبان: الثورة، ص١٥٣ - ١٥٤ - يوسف العش: الدولة الأموية، ص ٢٨٠.

(٢) يوسف العش: نفس المرجع، ص٢٧٩، ٢٨٠.

(٣) مجهول: العيون، ٥٦/٣ - ٥٧. وانظر قبل: ص١٠٤.

(٤) مجهول: نفس المصدر، ٥٨/٣ - ٥٩ - الطبري: تاريخ الأمم ٥٨٧/٦ - ابن الأثير: الكامل، ١٧٠/٤.

(٥) الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحة - ابن أعثم: الفتوح، م٢٤٦/٤ - ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٨٦/٤ - الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، تصحيح مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى، بغداد، ص٦٩ - المقدسي: البدء، ٤٧/٦.

(٧) الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص١٥٠ - والعبر، ١٢٤/١ - اليافعي: مرآة، ٢٤١/١ - ابن العماد: شذرات، ١٢٤/١.

(٨) ابن أعثم: نفس المصدر، م٤/ ٢٤٦ - مجهول: نفس المصدر، ٥٩/٣.

سيرة الفاسق الحجاج، فمن بايعنا على ذلك قبلنا منه، ومن أبى جاهدناه، وجعلنا الله بيننا وبينه، ثم يقول: تبايعون؟ فإذا قالوا نعم بايعهم[١].

وبتفحص هذه النصوص، نجد أن المهلب يعلن الخروج على الحكم الأموي، ومحاربة الوجود الشامي في العراق، وإقامة حكم إقليمي على أساس الشريعة الإسلامية، أيده من حضر بالبيعة له، لكن ذلك لم يتعد حتى الآن حدود ذلك، فلم يخلع الخليفة، ولم يتعرض لسيادة الدولة فيما عدا العراق كما أنه لم يرم الخلافة لنفسه، وهذا ما سنرى حدوثه مع تطور الفتنة وتنامى قوته.

يؤيد ما ذهبنا إليه ما أضافه ابن أعثم إلى خطبته في الناس حيث يقول: «ولست أقول إني خليفة»[٢].

لكن البيعة لم تكن عامة، فقد عارض البعض، كالحسن البصري[٣]، وكثير من أهل الشرف والسيادة، إذ حضر الحسن إلى المسجد وسمع ما يدعو إليه ابن المهلب، فأنكر قوله، وأشار إلى سوء سيرته عندما كان في خدمة بني أمية، مخذلاً الناس مع إبدائه عدم الرضى عن أهل الشام، لكن ابن المهلب لم يلتفت إليه، ولم يرد قوله الناس عن الالتفات حول يزيد[٤]. إذ أن بعضًا من القراء قد ناصر ابن المهلب، كالنضر بن أنس ابن

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٩٢/٦ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٦/٩.

(٢) الفتوح، ٢٤٦/٤.

(٣) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبوسعيد، مولى زيد بن ثابت الأنصار، وقيل في ولائه غير ذلك، تابعي كان سيد أهل زمانه علمًا وعملاً، وهو شيخ أهل البصرة، من رواة الحديث ومن القراء والمفسرين، وكان مجاهدًا كاتبًا، وكان عالمًا جامعًا رفيعًا، فقيهًا، ثقة حجة مأمونًا، عابدًا، ناسكًا، فصيحًا، نشأ بوادي القرى وسكن البصرة، لم يكن يخشى في الحق لومة لائم، تولى الكتابة والقضاء، وله أخبار وفضائل ومآثر، ولد سنة ٢١هـ، وتوفى بالبصرة سنة ١١٠هـ. (الذهبي: سير، ٥٦٣/٤ – ٥٨٨).

(٤) عن موقف الحسن هذا انظر/ الطبري: نفس المصدر، ٥٨٧/٦ – ٥٨٨ – مجهول: العيون، ٥٩/٣ – ابن أعثم: الفتوح، م٢٤٧/٤ (وقال: أن الحسن لم يبد رأيه في أهل الشام عندما سالوه، ودخل منزله، وكأنه يشير بذلك إلى اعتزاله الفتنة) – ابن الأثير: الكامل، ١٧٠/٤ – ابن خلكان: وفيات، ٣٠٤/٦ – الذهبي: نفس المصدر، ٥٠٦/٤.

مالك[١]، الذي أيد يزيد ودعا الناس إلى إجابته[٢].

بعدها خرج ابن المهلب من المسجد وبين يديه الأعلام وقد أحدق به الناس[٣]، فتحول إلى دار الإمارة[٤]، وكان الناس قد سلموا له بيت المال بعد أن بايعوه، فوجد فيه عشرة آلاف ألف درهم، فأخذها وفرقها في الناس[٥]، ثم خندق على البصرة[٦].

وهكذا تم له الاستيلاء على البصرة، بعد هزيمة أميرها وأسره، ونجاحه في جمع أهلها حوله.

استيلاء ابن المهلب على ما حول البصرة:

لما استوثق الأمر ليزيد في البصرة، بعث عماله على الأهواز وفارس وكرمان ومكران والسند والهند وما جاوره من بلاد فاحتوى عليها[٧]، فاستعمل زياد بن المهلب على عمان وأشعث بن عبدالله على البحرين، وهلال بن عياض على الأهواز ومحمد بن

---

(١) النضر بن أنس بن مالك الأنصاري، أبومالك البصري، تابعي ثقة له أحاديث، قيل كان فيمن خرج إلى الجماجم وذكر الطبري أنه فيمن خرج مع ابن المهلب أيام خروجه على يزيد بن عبدالملك، مات قبل أخيه موسى، والحسن البصري. (ابن حجر: تهذيب، ١٠/٣٨٩).

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٨٧ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٧٠، ابن أعثم: الفتوح، ٤/٢٤٦ – ٢٤٧ إلا أن ابن خلدون يشير إلى إنكار النضر كالحسن لما يدعو إليه ابن المهلب. ومتابعةَ الناس لهما في النكير (العبر، ٣/٧٨). لكننا لم نجد هذا القول عند غيره، وهو مخالف لمن سبقه، كما أن الأحداث لم تشر إلى إنكار الناس ومخالفتهم ابن المهلب بل اتبعه أكثرهم.

(٣) ابن أعثم: نفس المصدر والمجلد، ص٢٤٧. إلا أنه يشير في نصه إلى وجود الشاعر القطامي مع ابن المهلب وارتجازه أمامه بأبيات من الشعر إبان خروجه من المسجد لكننا نجد عند الطبري، ما يخالف ذلك، حيث يشير إلى أن القطامي كان ممن بعثهم الخليفة يزيد من الشام ليسكنوا أهل الكوفة، وأنه شارك في معركة العقر إلى جانب مسلمة بن عبدالملك ضد ابن المهلب. نفس المصدر والجزء، ص٥٨٥

(٤) مجهول: العيون، ٣/٥٩.

(٥) ابن أعثم: نفس المصدر، م٤/ ٢٤٦.

(٦) مجهول: نفس المصدر، ٣/٥٩.

(٧) ابن أعثم: نفس المصدر والجزء والصفحة.

المهلب على فارس، ووداع بن حميد على قندابيل[1]، والمنهال بن أبي عيينة على جزيرة بركوان[2][3].

كما بعث مدرك بن المهلب[4] إلى خراسان، وكان عليها عبدالرحمن بن نعيم الأزدي، فلما وصل إلى رأس المفازة، حرض ابن نعيم عليه تميمًا. فخرجوا يستقبلونه، فلحق بهم الأزد، ومنعوه منهم، إلا أنه مع ذلك لم يوافقوه على الدخول إلى خراسان ومساندته، بل أرادوا أن ينصرف حتى ينجلي أمر أخيه، فإن نصر كانوا أسرع الناس إليه، مبدين عواطفهم نحو آل المهلب. فرأى الانصراف عند ذلك، وترك خراسان[5]. إلا أن موقف عبدالرحمن بن نعيم الناتج من حرصه على مركزه، لا يمثل موقف أزد خراسان، اللذين أظهروا تأييدهم للحركة[6]. ومع ذلك فقد فسد تطلع ابن المهلب إلى

---

(1) قندابيل: مدينة بالسند، وهي قصبة لولاية الندهة. ياقوت: معجم، ٤٠٢/٤ – وقال لسترنج أنها من أعمال طوران وتعد قصبتها، ص٣٧٠.

(2) بركوان: بالفتح، والسكون، ناحية بفارس. (ياقوت: نفس المصدر، ٣٩٩/١). ولم يقل جزية كما ذكر صاحب العيون.

(3) مجهول: العيون، ٥٩/٣ – عبدالرحمن عبدالكريم العاني، عمان في العصور الإسلامية الأولى، ودورها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي وفي الملاحة والتجارة الإسلامية، رسالة دكتوراه، لم تطبع مقدمة إلى آداب جامعة بغداد، ١٩٧٥م، ص ١١٠ – ١١١ (أشار إلى ولاية زياد علي عمان، وأضاف أنه قتل الخيار بن سبرة المجاشعي عامل الحجاج وصلبه، وكان الخيار قد أضر بالأزد، ويرجع ذلك إلى الروابط التي تربط يزيد بأزد عمان، ولضرر الأمويين بهم، مما أوجد له سندًا شعبيًا، حتى القبائل الأخرى لم تعارضه، وقد يكون ذلك لمعاملته الطيبة لهم، أو لسيطرته على مناطق ذات ارتباط وثيق بعمان كالبصرة، ولأنه لا يحمل عقائد مذهبية، مما جعلهم يؤيدونه، أو على الأقل لم يعارضوه. إلا أن الأمويين أعادوا سيطرتهم على عمان بعد القضاء على ثورة ابن المهلب.

(4) مدرك بن المهلب بن أبي صفرة، قائد من الشجعان، ولد سنة ٥٣هـ. قال كعب بن معدان: لا يستحي الشجاع أن يفر من مدرك، له أخبار في حروب أبيه مع الأزارقة. توفى سنة ١٠٢هـ. (الزركلي: الأعلام، ١٩٧/٧).

(5) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٨٥/٦ – ٥٨٦ – ابن الأثير: الكامل، ١٧٠/٤ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٥/٩ – ابن خلدون: العبر، ٧٨/٣ – نافع العبود: آل المهلب ص٨٢.

(6) نافع العبود: نفس المرجع والصفحة.

خراسان، الذي كان في ضمه إليه ما يجعل من الجبهة الشرقية للدولة الإسلامية بما فيها من امكانيات القوة وحدة واحدة تحت سلطة ابن المهلب، يواجه بها سلطان الخلافة في الغرب. أفسد هذا التطلع موقف عرب خراسان والأزد خاصة، الذين وإن منعوا مدرك من تميم، وأبدوا تعاطفهم مع ثورة أخيه، إلا أنهم في النهاية لم ينصروا الحركة ولم ينضموا إليها، إذ أنهم بدلاً من أن يسهلوا طريق مدرك إلى خراسان، صدوه عنها، إن تقديم المصلحة والعافية على الانتصار للعصبية ظاهرة هامة في تاريخ تلك الفترة، كما أن انضمام فئة من الجيش الشامي إلى حركة يزيد، يعتبر ظاهرة مميزة لتلك الحقبة، وقد يكون عرب خراسان الذين أرضتهم سياسة عمر لم يجدوا مبررًا للحركة، خاصة أن الخليفة يزيد أقر لهم حتى ذلك الحين، الوالي الذي عينه عمر[1]. وقد يكون لسياسة ابن المهلب التي عرفوها ومقتوها أثناء ولايته على خراسان، زمن سليمان بن عبدالملك، والمتمثلة في إهمال رجال القبائل، والتصرف الحر المتعسف في أموال يعتبرونها حقًا لهم، إلى جانب تحيزه وتفضيله للجند الشامي[2]، دور كبير في عدم الاستجابة ليزيد، والبقاء على الولاء للبيت الأموي ممثلاً في عامله عبدالرحمن بن نعيم. أما الأزد خاصة فقد يكون لوقوف تميم ضدهم، حائلاً دون مناصرة الحركة، لأن الغلبة والكثرة في خراسان لتميم[3]، كما هي للأزد في البصرة، كما عرف الأزد بولائهم للخليفة الأموي، فإنهم من وقفوا في وجه قتيبة بن مسلم عندما أراد خلع الخليفة سليمان وألبوا عليه مضر[4].

وإن كنا قد وجدنا تفسيرًا لموقف عرب خراسان السلبي وأزدها خاصة نحو حركة يزيد بن المهلب، إلا أن جند الشام في موقفه من الحركة وانضواء فئة منه إلى ابن المهلب، يعد ظاهرة جديدة وخطيرة، إذ لم يعرف أهل الشام إلا عمادًا للبيت الأموي وسر سيادته، بولائهم التام، لخليفة دمشق أو ممثله في أي قطر وأمام أي خصم. ولعل اعتماد ابن المهلب أثناء ولايته على العراق وخراسان زمن الخليفة سليمان على الجند الشامي

---

(1) محمد شعبان: الثورة، ص١٦٣.

(2) محمد شعبان: نفس المرجع، ص١٤٥.

(3) ابن الأثير: الكامل، ٤/١٤٠.

(4) ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٣٩ – ١٤٠.

وتمييزه في توزيع الغنائم وغيرها[١]، جعل له في نفوسهم مكانة دفعتهم إلى الانضـواء تحت لوائه، ولما ستدره الحركة من مكتسبات في حالة نجاحها، خصوصًا بعد فقـدانهم خاصية التميز في ظل سياسة عمر الرامية إلى عدم الاعتماد على جند الشام فـي حكـم الدولة وفرض سيادتها على أقاليمها.

وقد ولى يزيد بن المهلب شرطته عثمان بن الحكم الأزدي[٢] وكان قد بسط العـدل في الناس، وبذل الأموال[٣]، ولعله أراد أن يقدم للعراقيين ما افتقدوه جل العصر الأموي، لعلهم إذا ما خشوا فقد هذه المكتسبات، وقفوا وراء من قدمها لهـم، وهكـذا تـألفهم، وهيأهم للذود عن حركته إلا أنه كما رفض هذه الحركة بعض رؤسـاء أهـل البصـرة، بالوقوف إلى جانب عدي في حرب ابن المهلب، والخروج منها بعد انهزامه[٤]، نجـد أن فئات ورجالاً من مجتمع البصرة، كبعض علمائها، ممثلين في شـيخ البصـرة آنـذاك، الحسن البصري، الذي كما رأينا إنكاره على ابن المهلب ما يدعوا إليه بعد ظهوره علـى عدي، واعتزاله الفتنة في بيته، فإننا نجده يدعو إلى ترك القتال معه باعتبـاره جـائرًا، وأن هدفه السلطة والمصلحة، كما أنه ليس القائد اللائـق للجبهـة المعارضـة للحكـم الأموي[٥]. ونحن نقول أن المصادر قد اتفقت على أن الحسن البصري قام بتخذيل الناس عن ابن المهلب، بل وخطب الناس وحط من شأنه[٦]. إلا أن مـن المؤكـد أن الحسـن البصري لم يكن يومًا ما في حزب معارضة حتى يرى بأن ابن المهلب غير لائق لقيـادة المعارضة أو كفؤًا لها وقد ساءت العلاقة بين الرجلين حتى هم يزيـد بضـرب الحسـن البصري حتى الموت، لولا خوفه من علو قدره في المصر وفضله[٧] وهذا ما دفعه إلـى منع أحد قومه من قتل الحسن، وقد غشوا مجلسه، الذي فيما يبدو أنه نال مـنهم فيـه،

---

(١) محمد شعبان: الثورة، ص ١٤٥.

(٢) مجهول: العيون، ٥٩/٣.

(٣) ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٤/٩.

(٤) انظر قبل: ص ١٥٤.

(٥) محمد نصر الله: تطور، ص٢٥٥ – ٢٥٦.

(٦) الذهبي: دول الإسلام، ٥٣/١.

(٧) مجهول: العيون، ٦٦/٣.

وذلك خوفًا من انقلاب الناس عليه[1]. لذا فإنه من الصعب تصديق القول باستعمال ابن المهلب الحسن البصري على قضاء البصرة[2]، إذ يشير وكيع[3] إلى القول بتوليته القضاء عند خروج ابن المهلب منها لقتال مسلمة، فقبلها الحسن، فقد لزم الحسن بيته بعد خروج يزيد، وأنكر بعض أهل العلم صحة ذلك الخبر.

وكان لقتادة الفقيه[4] موقف كموقف الحسن، فقد ذهب إلى تنقص ابن المهلب والنيل منه، فقيده، وبعث به إلى الأهواز فظل محبوسًا حتى قتل يزيد فأخرج[5].

إلا أن تلك المعارضة لا تقلل من الأهمية الكبيرة والخطورة السياسية والإدارية والقوة العسكرية التي تحققت لابن المهلب، باستيلائه على البصرة، والأقاليم المجاورة ذات الصلة بها. ولعله أول من أحس بذلك، مما قوى نفسه، فغدت تحدثه بالخلافة وأن يزيد بن عبدالملك ليس أحق بها منه[6].

خلع ابن المهلب للخليفة يزيد بن عبدالملك ورومه الخلافة:

أقدم يزيد بن المهلب على خلع الخليفة يزيد بن عبدالملك[7]، وكان ذلك عندما خرج إلى المصلى يوم عيد الفطر – سنة ١٠١هـ – وشتم بني مروان[8]، بل رام الخلافة

---

(١) محمد أمين صالح: العرب والإسلام من البعثة النبوية حتى نهاية الخلافة الأموية، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٣٦٨.

(٢) نافع العبود: آل المهلب، ص٨٦.

(٣) أخبار القضاة/ تصحيح عبدالعزيز المراغي، المكتبة التجارية، مصر، مطبعة الاستقامة، طبعة أولى، ١٣٦٦هـ، ٣٠٣/١ – ٣٠٨.

(٤) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبوالخطاب، السدوسي البصري، مفسر حافظ، ضرير أكمه، كان يرى القدر، مات بواسط في الطاعون (سة ١١٨هـ). (الزركلي الأعلام، ١٨٩/٥).

(٥) مجهول: العيون، ٦٦/٣.

(٦) مجهول: نفس المصدر، ٦٥/٣.

(٧) ثابت إسماعيل الراوي: العراقي في العصر الأموي، من الناحية السياسية والإدارية والاجتماعية، رسالة ماجستير مطبوعة، مكتبة الأندلس، بغداد، الطبعة الثانية، ص٢١٦ – الطبري: تاريخ الأمم، ٥٧٨/٦ – المسعودي: مروج، ٢١٠/٣ – المسعودي: التنبيه، ص٢٧٧.

(٨) نافع العبود: آل المهلب، ص٨٠.

لنفسه[1]، ونجد ذلك عند حاشيته، فحظية له تسلم عليه بامرة المؤمنين فينشدها:

رويدك حتى تنظري عم تنجلي   عماية هذا العارض المتـألق[2]

لكن الذهبي[3] ينقل لنا أن ابن المهلب، دعا إلى نفسه، وتسمى بالقحطاني، ونصب رايات سوداء. فكان ممن بويع له بالخلافة في أيام بني أمية[4]. بل أننا نجد أخبارًا من نوع آخر، فيذكر أنه دعا إلى الرضا من بني هاشم[5]، وأنه وجه إلى علي بن عبدالله بن عباس يدعوه إلى القيام بالأمر، وأن عليًا أجابه «أن رأيت ألا تذكر اسمي حتى إلى ما يصير إليه أمرك، فإن ظفرت صنعت ما تريد وإن كان غير ذلك لم تكن ذكرت اسمي». وقد شكك العبود[6] في هذه الرواية لكون الدعوة العباسية سرية تعتمد على كتمان اسم الإمام، إذ يرى أنه من المستبعد أن يضع على بن عبدالله يده في يد ابن المهلب، ويطلب إليه القيام بالأمر. ونحن نقول: أن ابن المهلب لو صحت هذه الرواية التي ندحضها، لبحث عن رجل علوي، إذ أن الناس في ذلك التاريخ لم يكونوا يشايعون إلا آل على دون العباسيين، الذين هم أنفسهم كانوا يدركون هذا ومن أجله عموا على الناس في دعوتهم

---

(1) الذهبي: أسماء الذين راموا الخلافة. نشر صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م، ص٩ – ١٠ – ابن خلكان: وفيات، ٦/٣٠٣.

(2) ناجي حسن: القبائل، هامش ٤، ص١٥٤. (وأشار أن ذلك كان من أحد الأزد، لاحظيته) – ابن خلكان: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(3) الذهبي: نفس المصدر والصفحة، وهامش (١). (كما أضاف قال قرة عن ابن سيرين قال: القحطاني حق، ولكنه من قريش. وروى ابن أبي ذيب عن المعدي، عن أبي هريرة مرفوعًا: لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس رجل من قحطان ويروي نحوه ثور بن زيد، عن أبي الغيث، عن أبي هريرة. وروى الزهري، عن محمد بن حيان وعبداله بن عمرو: سيملك رجل من قحطان) – اليافعي: مرآة، ١/٢٤١ – الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤/١٥٠ – ابن العماد: شذرات، ١/١٢٤.

(4) ابن العمراني: الأنباء، ص٥٥.

(5) نافع العبود: آل المهلب، ص٨٠ (قال لا نعلم علاقة بين يزيد وبني هاشم، ولعل ذلك دعاية لثورته وأغاضة لبني أمية بتلويحه لهم أنه سيحول الخلافة إلى ألد خصومهم) مجهول: العيون، ٣/٦٥ – ٦٦.

(6) نفس المرجع، ص٨٤.

السرية، بالدعوى للرضى من آل محمد[1]، كما أنه ليس من المنطق أن يقدم يزيد ثمرة جهده للعباسيين وليس لهم فيه أدنى جهد.

ويقال: أن يزيد دعا المفضل بن عبدالرحمن بن العباس ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب[2]، إلى متابعته، فتابعه، ثم توارى[3].

والدكتور محمد شعبان[4] ينكر محاولة ابن المهلب القضاء على الحكم الأموي ونقل الخلافة إلى بني هاشم، أو إدعاءه لقب القحطاني، ويقول أن هذه الأخبار مبالغات خيالية أضيفت مؤخرًا إلى حركة يزيد، ولم يقم الدليل على صحتها، ويعلل حركته بأنها محاولة لإيقاف سياسة الحجاج التوسعية التي يرى أن عصر يزيد سيكون استمرارًا لها، فلم يجد غير اللجوء إلى العنف وحمل السلاح لإيقافها.

ونحن إن كنا وافقناه في بطلان أخبار دعوته للرضى من بني هاشم، فإننا نقول أنه إن لم يدع أنه القحطاني، فقد تكون إشاعة فشت بين أتباعه، قد يكون مصدرها الأزد من قحطان، أو هو الذي أوحى بها، دعاية لحركته، وإضافة عامل معنوي يسندها. أما قوله بعدم رغبته الإطاحة بالحكم الأموي ورومه الخلافة، فليس له دليل على ذلك، ونرى النصوص التي قدمناها، وما سيأتي من نصوص على لسان الخليفة يزيد نفسه أو مسلمة بن عبدالملك، وحربهم له، دليلاً كافيًا على صحة ما تطلع إليه يزيد بن المهلب من عظيم الأمر. كما أن تعليله للحركة أبعد ما يكون عن الصحة، فابن المهلب ذاته كان يومًا يدًا للحجاج في خراسان، يمثل سياسته التوسعية. بل وبعد ذلك في عهد سليمان، الذي كان عصره استمرارًا لسياسة بني أمية التوسعية خارجيًا، وأن تميزت بالاتزان

---

(١) عن الدعوة العباسية انظر/ مجهول: أخبار العباس وولده - الدوري: أضواء جديدة على الدعوة العباسية مجلة آداب بغداد، عام ١٩٦٠م - الشيال: تاريخ تاريخ الدولة العباسية - فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية - شاكر مصطفى: دولة بني العباس.

(٢) لم أعثر له على ترجمة، ويبدو أنه المفضل بن عبدالرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب الذي شارك ابن الأشعث في حركته ضد الدولة الأموية، وكان له دور بارز فيها. (من اجل ذلك: انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٣٤٣/٦، ٣٧١-٣٧٣ وما بعدها).

(٣) مجهول: العيون، ٦٦/٣.

(٤) الثورة، ص١٦٢ - ١٦٣.

داخليًا، ولعل موقف عمر بن عبدالعزيز من ابن المهلب، وعزله، وسجنه، دليلاً على عدم صلاحه لسياسته يقول: هؤلاء - يعني المهالبة - جبابرة ولا أحب مثلهم[١]. فابن المهلب هرب من سجنه خائفًا على نفسه من يزيد بن عبدالملك ثم حارب عدي لينقذ أخوته من سجنه، ثم خالف يزيد كارهًا وطامعًا، وخلعه أخيرًا ورام الخلافة لنفسه بعد أن آنس القوة والقدرة. دعوة يميزها الاضطراب[٢]، وحركة تتنامى في مراحل يدفع صاحبها تعاظم شأنه واشتداد شوكته.

لذا جاء إعلان ابن المهلب الخروج على الحكم الأموي وخلع الخليفة يزيد بن عبدالملك بعد أن حشد له الأزد وغيرهم، وسيطر بهم على البصرة، وقد عظم أمره، واشتدت شوكته[٣]. ولعل الظروف التي أعلن فيها حركته تستلزم منه الدخول في تيار العصبية القبلية و الاعتماد على اليمنية، سيما أن التكتلات القبلية آنذاك أصبحت تتخذ هيئة أحزاب سياسية[٤].

ثم كتب يزيد بن المهلب إلى أخيه زياد عامله على عمان وأمره أن يعرض الناس، ففرض لثلاثة آلاف رجل واستعمل عليهم المشماس بن عمر الأزدي، فقدموا على يزيد بن المهلب[٥].

هكذا اشتملت الحركة في البصرة، فاليمانيون كانوا خائفين على أنفسهم حاقدين على الحجاج، وأهل البصرة كانوا يكرهون سياسة الحجاج. مع وجود من يدرك مقصد ابن المهلب من حركته كالحسن البصري، لكنهم لم يستطيعوا عمل شيء كبير[٦] وقد كان هذا الشعور كافيًا لقيام الحركة بينهم، وعدم المسارعة إلى إخمادها، فمع قلة من قام في

---

(١) أنظر قوله هذا في: ص٨٨.

(٢) عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) ناجي حسن: القبائل، ص١٥٣ (نقلاً عن المسعودي: مروج ٣/٢١٠) لكنه أرخ لثورته بعام ١٠٢هـ والأصح عام ١٠١هـ، والقضاء عليها سنة ١٠٢هـ (انظر قبل: ص١٥٦) وبالرجوع إلى كتاب مروج الذهب لم نجده أرخ بذلك - مجهول: العيون، ٣/٥٦.

(٤) نافع العبود: آل المهلب، ص٨٦.

(٥) مجهول: العيون، ٣/٦٦.

(٦) أنظر قبل: ص١٠٨، ١١٢ - ١١٣.

الحركة من شيعة ابن المهلب، تحقق لها النجاح في بادئ الأمر لعدم من يقف في وجهها[١]. كما أن كرههم لبقاء جند الشام مفروضين عليهم، يأكلون خراجهم، ويمتازون عليهم في العطاء، من أسباب سكوتهم عليها، وعدم مقاومتها[٢].

ولم تكن البصرة وحدها قد أعطت البيعة لابن المهلب، فقد كانت حركته فرصة للمتذمرين من أهل العراق، ومجالاً لمنازلة الدولة الأموية، فقد بايعه بعض زعماء الكوفة، وانضووا تحت لوائه، كما شملت حركته عمان و البحرين والجزيرة[٣]. بل نجد ناجي حسن يقول: «باندفاع قبائل الكوفة بأرباعها لتأييد ابن المهلب بكل ما تملك»[٤]. ومن الواضح أن انضمامهم إليه كان بعد خروجه من البصرة لحرب مسلمة والعباس، وهو الذي بعث الرجال على أرباعها، بل أنه سعى إلى أن تكون أرض المعركة بالقرب من الكوفة، حتى يتمكن الناقمون فيها على بني أمية من الإنضمام إليه، وهذا ما حدث بعد نزوله العقر. كما أن الأمر ليس بما يوحيه النص، فلم ينضم إليه كامل أهل الكوفة بل أناس من أرباعها. تسللوا إليه، فقد استطاع الأمويون منع ابن المهلب من الوصول إليها، وتمكنوا من بقائها بأيديهم، وقاتل بعض أهلها مع مسلمة[٥]. إذ أن حركته لم تلق تأييدًا جماعيًا من قبائل العراق، كالذي لقيته حركة ابن الأشعث لاختلاف دوافع الحركة في الحالين، إذ كانت حركة ابن الأشعث لاختلاف دوافع هذه الحركة لم تكن قبلية خالصة لذا كان معه نفر من مضر، كما وقفت طائفة من اليمانية في صفوف بني مروان كآل مخنف في الكوفة الذين عرفوا بولائهم للبيت الأموي[٦].

وقد يعود فشل ابن المهلب في استقطاب أهل الكوفة والبصرة وأشرافهما إليه، كما

---

(١) يوسف العش: الدولة الأموية، ص٢٧٩-٢٨٠.

(٢) نافع العبود: آل المهلب، ص٨١.

(٣) ثابت الراوي: العراق، ص٢١٧ (نقلاً عن الطبري/ تاريخ الأمم، ٨/١٥١ – وانظر بعد: ص١٨٠ لوجود ما يخالف ذلك).

(٤) القبائل، ص١٥٦ – ١٥٧ (وأضاف: كان لربيعة دور كبير في مساندة ثورة ابن المهلب).

(٥) أنظر ذلك فيما بعد، في ثنايا الأخبار التي تلت نزول ابن المهلب العقر.

(٦) إحسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م، ص٣١٨ – ٣١٩.

استطاع ابن الأشعث، إلى السياسة السليمة التي اتبعها ولاة عمر بن عبدالعزيز في تألف أهل العراق، لاسيما وأن الخليفة يزيد لم يعمد إلى عزل أميري الكوفة والبصرة[1].

كما أننا نجد أثر العصبية القبلية يحفز بعض الأزد للوقوف إلى جانب ابن المهلب في حركته بالبنان واللسان، كالشاعر ثابت قطنة[2]، فبعد وقوفه للدفاع عن مدرك بن المهلب حين قدم خراسان من قبل أخيه ليدفعها للحركة، وتصدت له تميم، فمنعه الأزد[3]. نجده يكتب إلى يزيد بن المهلب، يحرضه على بني أمية مؤيدًا خروجه كغيره ممن نفخوا فيه، وأثبت في أسفل الكتاب أبياتًا منها:

أن امرءًا حدبت ربيعة حوله	والحي من يمن وهاب كنودا
لضعيف ما ضمت جوانح صدره	إن لم يلف إلى الجنود جنودا
ليزيد كن في الحرب أن هيجتها	كأبيك لا رعشًا ولا رعديدا
شاورت أكرم من تناول ماجد	فرأيت همك في الهموم بعيدا
يا ليت أسرتك الذين تغيبوا	كانوا لأمرك في العراق شهودا
فترى مواطنهم إذا اختلف القنا	والمشرفية يوقدون وقودا

فلما وردت هذه الأبيات على يزيد هش لها ودعته نفسه إلى قتال بني أمية، وعزم

---

(١) نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام (من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية، دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية)، رسالة دكتوراه، نسخة غير مطبوعة. مقدمة لجامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، ص١٣٧.

(٢) ثابت بن كعب بن جابر العتكي، من الأزد، من شجعان العرب وأشرافهم في العصر المرواني، يكنى أبا العلاء له شعر جيد، جمعه ماجد بن أحمد السامرائي البغدادي. شهد الوقائع في خراسان سنة ١٠٢هـ، وأصيبت عينه فجعل عليها قطنة فعرف بها، كان له وقائع مع الترك وظفر بهم، واستمر معهم حتى قتلوه (الزركلي: الأعلام، ٢/٩٨).

(٣) الهادي حموده الغزى: الشعر الأموي في خراسان والبلاد الإيرانية، رسالة ماجستير، مطبوعة، الدار التونسية للنشر، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت. ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص١٦٨.

على ذلك[1].

ويلاحظ فيها التفاف ربيعة حوله، وأن يزيد استشاره فأشار إليه بالحرب.

والأبيات وردت مجزأة في المراجع، جمعنا منها ما فيه الدلالة على ما ذهبنا إليه، ويظهر أنها من قصيدة طويلة. وراح غيره من الشعراء يعضدون أمره، ويَعِدُونه بالتمكن من بني أمية وإزالة ملكهم. فيشير يزيد بن الحكم الثقفي إلى ذلك بقوله:

أبا خالد قد هجت حربًا مريرة   وقد شمرت حرب عوان فشمر

فإن بني مروان قد زال ملكهم   فإن كنت لم تشعر بذلك فأشعر

فمت ماجدًا أو عش كريمًا فإن تمت   وسيفك مشهور بكفك تعذر

كما ذهب الكهان إلى إنه سينقض دمشق حجرًا حجرًا، وإلى هذا أشار الفرزدق في قصيدته التي مدح بها مسلمة عندما حارب يزيد بن المهلب، فقال:

أتتك جنود الشام تخفق فوقها   لها خرق كالطير حين استقلت

تخبرك الكهان إنك ناقض   دمشق التي كانت إذا الحرب حرت[2]

وفي الخبر إشارة إلى انضمام بعض ثقيف إلى حركة ابن المهلب، مما يؤكد عدم حصر أسباب الحركة في عداء شخصي سببه تعذيب ابن المهلب لآل أبي عقيل من ثقيف، أو قيامها على أساس العصبية القبلية، إذا ما علمنا أن ثقيف تعد من قبائل قيس عيلان[3]. كما أن فيه ما يوحي بمدى القوة التي وصل إليها ابن المهلب، والحالة التي حازتها حركته.

---

(1) نافع العبود: آل المهلب، ص٨٢ – ٨٣ – الهادي الغزى: الشعر الأموي في خراسان، ص١٦٩ – ابن أعثم: الفتوح م٤/٢٤٨.

(2) نافع العبود: نفس المرجع، ص٨٣ – مجهول: العيون، ٣/٦٨، أورد البيت الأول متأخرًا، ومخالفًا له في صدره بقوله: أتتك جنود الشام تخطر بالقنا. كما أورد البيت الثاني، وخالفه في عجزه بقوله: دمشق التي قد كانت الجن جرت.

(3) نادية حسني صقر: الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، رسالة دكتوراه مطبوعة، دار الشروق، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص٦١ (نقلاً عن ابن قتيبة: المعارف، ط٢، ص٤١، ٤٧. ذكرت ذلك على خلاف، لمعرفة ذلك انظر كتب الأنساب).

القضاء على الحركة:

كان لخروج ابن المهلب في البصرة وإعلانه خلع الخليفة يزيد بن عبدالملك صدى و اسعًا في دمشق وأثرًا بليغًا في نفس الخليفة يزيد، غير أن أخاه مسلمة بن عبدالملك[1]، كان يشد من أزره ويهون الأمر عليه، فقد دخل مسلمة على أخيه يزيد، حين خلعه ابن المهلب، فرآه في ثوب مصبوغ، فقال له: أتلبس مثل هذا وأنت ممن قيل فيهم:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم   دون النساء ولو باتت بأطهار

فقال يزيد: ذا ونحن نحارب أكفاءنا من قريش، فأما أن ينعق ناعق مزونى[2]، فلا ولا كرامة. قال مسلمة: فشممت رائحة الفتح من هذه الكلمة[3]. على كل وإن كان في الرد عنجهية، إلا أنه يرمز إلى الثقة في النفس، وأن خالطها غرور لا يحمد في مثل هذه المواقف.

على أن الخليفة يزيد بن عبدالملك، أعطى الحركة ما تستحقه من الاهتمام، وهذا ما لمسناه في مواقفه منذ بدايتها. فقد جهز جيشًا كبيرًا من مقاتلة الشام و الجزيرة، بلغ

---

(١) مسلمة بن عبدالملك بن مروان بن الحكم، الأمير القائد الأموي، يلقب بالجرادة الصفراء، وله فتوحات مشهورة من أهمها مسيرة على رأس مئة وعشرين ألفًا لغزو القسطنطينية في دولة أخيه سليمان، وولاه أخوه يزيد أمرة العراقيين، ثم أرمينية، وغزا الترك سنة ١٠٩هـ قال الذهبي: كان أولى بالخلافة من سائر اخوته، ومات بالشام (سنة ١٢٠هـ). (الزركلي: الأعلام، ٢٢٤/٧).

(٢) المزون: عمان، وهو اسم من أسمائها، ومعناه أن أصل ابن المهلب من أزد عمان وقال أبو عبيدة أراد بالمزون الملاحين وكان أردشير بن بابك جعل الأزد ملاحين بشحر عمان قبل الإسلام بستمائة سنة. (ياقوت: معجم، ١٢٢/٥ مجهول: العيون، هامش ٦٨/٣).

(٣) عواد الأعظمي: مسلمة، ص٦٣، ١٨٥ (نقلاً عن/ مجهول: تاريخ الخلفاء، ص٣٨٢ - ابن خلكان: وفيات، ٣٠٩/٦ إلا أنه بمراجعتنا لكتاب الوفيات (نفس الطبعة) وجدناه قد ذكر أن الذي قال البيت يزيد وأن الذي رد عليه مسلمة، ولم يشر إلى قوله: فشممت رائحة النصر، لكنني لم أتمكن من الإطلاع على تاريخ الخلفاء لمجهول).

عددد ثمانين ألفًا[1]، وجعل قيادته لمسلمة بن عبدالملك[2]، وعلى مقدمته العباس بن الوليد[3]، وقيل جعله على جند دمشق خاصة[4]. وأمرهما بالمسير إلى ابن المهلب،

---

(1) اختلفت المصادر في عدد الجيش الموجه إلى ابن المهلب وتلك ظاهرة اعتدنا عليها في مصادرنا الإسلامية، وعند ذكر الأعداد، أيًا كان نوعها، فقيل سبعون، وقيل خمسون. وقدمنا ما أيده شعر الفرزدق، إذ يقول:

أتتك جنود الشام تخطر بالقنا	لها خرق كالطير لما استقلت
يقود نواصيها إليك مبارك	إذا ما تصدى للكتيبة ولت
من آل أبي العاص حول لوائه	ثمانون ألفًا كلها قد أطلت

(انظر/ ابن الأثير: الكامل، ١٦٩/٤ - ١٧٠ - مجهول: العيون، ٦٨/٣ - ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٤٨).

(2) كان اختيار الخليفة لمسلمة قائدًا لجيش الشام، اختيارًا موفقًا، لما يملكه من قدرة قتالية، وخبرة عسكرية. ولعل هنا سببًا آخر، فقد عرف الخليفة، رغبة مسلمة في التخلص من ابن المهلب، عندما أوفد إليه مروان بن عبدالملك يشير عليه بقتل يزيد بن المهلب. وقد يعزى ذلك إلى إطلاع مسلمة على تصرفاته التي حاسبه عليها الخليفة عمر، من خلال ملازمته له أثناء خلافته. انظر/ عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٨٧ - ١٨٨ وهامش (٦) الذي أورد فيه أن الخليفة سليمان كتب إلى مسلمة وهو محاصرًا القسطنطينية، يطلب شخوصه إليه ليوجهه إلى خراسان لمحاسبة ابن المهلب وأخذ الأموال منه. وإن كنا نستبعد خبر سليمان إذ ليس من المنطق أن يقوم سليمان بنزع مسلمة من قيادة الحملة التي أعطاها اهتمامه وكلفت الدولة الكثير من الأموال من أجل ذلك. كما أن ابن المهلب لم يضطر الخليفة سليمان لمحاسبته، فقد عرف بولائه له، وكتب إليه بالأموال وعزمه على إرسالها، وهذا ما دفع عمر إلى سجنه عندما أنكرها.

(3) العباس بن الوليد بن عبدالملك بن مروان الأموي، أمير من كبار القادة، كان يقال له: «فارس بني مروان». قاد الجيش مع عمه مسلمة بن عبدالملك إلى قتال يزيد بن المهلب، وقد افتتح مدنًا وحصونًا كثير من بلاد الروم، فقد ولاه أبوه المغازي أكثر من مرة، واستعمله على حمص، قال المرزباني: كان يتهم في دينه، وقد سجنه مروان بن محمد في حران فمات سجينًا (سنة ١٣١هـ). (الزركلي: الأعلام، ٢٦٨/٣).

(4) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٨٥/٦ - ابن كثير: البداية ط١، ٢٤٥/٩ - ابن أعثم: نفس المصدر والمجلد والصفحة، وفي هذا الخبر رد على الراوي الذي أشار في (ص٢١٧ من كتابه الموسوم: العراق في العصر الأموي نقلاً عن الطبري نفس المصدر، ١٥١/٨) أن حركة ابن المهلب شملت الجزيرة. فكيف يسير مقاتلتها مع الشاميين إليه وهي معه. وبرجوعنا (للطبري: نفس المصدر، =

للقضاء على حركته، فبعث الخليفة يزيد بن عبدالملك العباس بن الوليد على رأس أربعة آلاف فارس[1]، ليبادر إلى الحيرة قبل ابن المهلب، ليكونوا محاذين لأهل الكوفة. ثم أقبل مسلمة وجنود أهل الشام، آخذًا على الجزيرة وعلى شاطئ الفرات، حتى نزل الأنبـــار[2]، وقيل بل قدما الكوفة ونزلا بالنخيلة[3]. وقد يكون ذلك للراحة، ثم المسير من هناك نحــو العقر[4].

وأراد الخليفة أن يقسم الجبهة العراقية، ويفوت على ابن المهلب محاربـــة الدولـــة بأهل العراق جميعًا، فأرسل رجالاً من أهل الشام منهم القطامي بـــن الحصـــين[5]، إلـــى

= طبعة دار سويدان، لبنان، ١٣٨٤هـ، ٦/٥٨٥، ٥٨٨) لم نجد ذكرًا لذلك، بل وجدنا ما يدل على بقائها تحت سلطان بني أمية – عواد الأعظمي: نفس المرجع، ص١٨٧.

(١) وقيل بل سار في عشرين ألف فارس، وأقبل مسلمة في ثلاثين. انظر: ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٤٨. والأولى القول الأول. فغالبًا ما تكون المقدمة، وهي من الفرسان، قليلة العدد خصوصًا إذا كانت موجهة إلى المسارعة إلى شيء.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٨٥ – ابن أعثم: نفس المصدر والجزء والصفحة – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/٣١٠ – ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢٤٥ – اليافعي: مرآة، ١/٢٤١.

(٣) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام. (ياقوت: معجم. ٥/٢٧.

(٤) عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٨٩ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٦٩ – ١٧٠ (وفيه تفصيل أكثر) – ابن خلدون: العبر. ٣/٧٨ (والظاهر أن لا اختلاف بين القول بنزول مسلمة النخيلة أو الأنبار، فيبدو أنه نزل الخيلة في قدومه من الشام ثم سار منها إلى الأنبار عندما سمع بنزول ابن المهلب العقر، ومن الأنباء عقد جسرًا ونزل على يزيد بن المهلب بالعقر. (انظر بعد: ص١٨٧).
كما يبدو لنا أن مسلمة قد قضى على ثورة شونب الخارجي بعد نزوله النخيلة من أرض الكوفة، وقبل توجهه إلى ابن المهلب، حتى لا يترك عدوًا قد يطعنه في الظهر، ويضيع عليه النصر، إذ تشير المصادر إلى أن أهل الكوفة شكوا إلى مسلمة ما لقيوه من الخوارج. فبعث إليهم الحرشي فقضى عليهم، وكون مسلمة قد نزل الحيرة بعد قضائه على ثورة ابن المهلب ولم يرجع إلى الكوفة فإن في ذلك ما يؤيد ما ذهبنا إليه. انظر/ الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٥٧٧ – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٦٧ – ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٤٤ (قد جعل القضاء على شونب سنة ١٠١هـ وهذا يعضد قولنا، إذ أن القضاء على ابن المهلب تم سنة ١٠٢هـ).

(٥) قال الطبري: وهو أبوالشرقي واسم الشرقي الوليد. تاريخ الأمم، ٦/٥٨٥. وقد ترجم له الزركلي بقوله: الوليد (المعروف بشرقي) بن حصين (الملقب بالقطامي) ابن حبيب بن جمال، عالم =

الكوفة، يسكنون أهلها، ويثنون عليهم بطاعتهم، ويفرقون عليهم شيئًا من المال، ويمنونهم الزيادة[1]. وإن كان ما فعله الخليفة تجاه أهل الكوفة وإجراءات أميرها التي سنتحدث عنها فيما بعد لم تمنع بعض الكوفيين من الانضمام إلى ابن المهلب ومساندة حركته. إلا أنه فيما يبدو أن ابن المهلب قد ضيع من يده فرصة ضم الكوفة إليه، فلم يسارع بعد ظهوره على البصرة إلى الاستيلاء عليها، مع علمه بموقف الكوفة التاريخي من حكومة الشام الأموية، وضعف أميرها، الذي عجز عن الإمساك به وهو هارب في أقل من منة رجل[2]. ونتساءل لماذا أهمل شأن الكوفة خصوصًا إذا علمنا بأن أخاه حبيب قد أشار عليه بذلك بعد غلبته على البصرة، فلم يطعه[3]. وليس لنا أن نقول أن ذلك كان لخوفه أن لا يكون رأي أهلها معه، فقد ثبت انضمام أناس من أهلها إليه، وأن رأى بعض زعمائها معه وهذا ما نلمسه من مشورة أخيه حبيب وانضمام أرباعها إليه بعد خروجه لحرب مسلمة، وعلى كل فقد سهل ذلك من مهمة جيش الشام، وأضعف من قوة ابن المهلب وهون من شأنه.

وعندما بلغ يزيد بن المهلب خروج جيش الشام إليه، استخلف على البصرة مروان

= بالأدب والنسب، من أهل الكوفة، استقدمه المنصور ليعلم ولده المهدي الأدب، وكان صاحب سمر (ت نحو ١٥٥هـ). انظر: الأعلام، ١٢٠/٨ وعلى هذا يكون غير القطامي الشاعر عمير بن شييم. انظر ترجمة هذا بعد: الفصل السادس، المبحث الثاني ص٧١٦.

وكان قد ذكر أن القطامي كان مع ابن المهلب عقب انتصاره على أمير البصرة عدي بن أرطأة (انظر قبل: هامش ٤، ١٥٨)، وحيث أن القصيدة التي وردت على لسان القطامي في المصدرين واحدة، فالقائل واحد، فهل يكون القطامي ترك ابن المهلب وخرج إلى الشام، فبعثه الخليفة إلى أهل الكوفة، أو يكون ذلك لبسًا حصل على ابن أعثم، إذ أن القصيدة صالحة أن تقال لأحد اليزيديين، وهي إلى الخليفة أقرب والمصدر الأسبق هو الطبري، الذي أشار إلى أنها في الخليفة، وأن القطامي فيمن بعثه الخليفة إلى الكوفة لتسكين أهلها إذ كيف ينال رجل لابن المهلب ثقة الخليفة، وأن ترك صاحبه.

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٨٥/٦، مجهول: العيون، ٦٧/٣ - ابن الأثير: الكامل، ١٦٩/٤ - ابن خلدون: العبر، ٧٧/٣-٧٨ (ولم يذكر القطامي).

(٢) انظر قبل: ص٩٣.

(٣) الطبري: نفس المصدر، ٥٨٨/٦.

بن المهلب[1]، ثم خرج بأصحابه قاصداً الكوفة حتى نزل بنهر معقل ومعه الأموال والآلة والسلاح فعسكر هناك[2]. وقد استشار يزيد أصحابه حين توجه نحو واسط[3]، بعد خروجه من البصرة، فأشار عليه حبيب بن المهلب أن يأتي فارس فيتحصن بها، فيدنوا من خراسان، فإن حقق ما يريد وإلا أتى خراسان، فأبى ذلك، فأشار حبيب وكان قد دعاه بعد ظهوره على البصرة أن يأخذ الكوفة، فما أطاعه، أن يبعث خيلاً تبادر إلى الجزيرة، ثم يلحق بهم، فإن أهل الشام لن يسيروا إليه ويتركوا جنده في الجزيرة وراءهم، فيقيمون عليهم، فيأتيهم يزيد، الذي سيأتيه من بالموصل من قومه ويجتمع إليه أهل العراق والثغور، فيقاتلهم وقد جعل العراق وراء ظهره، لكنه كره أن يقطع جيشه[4]. فأشار عليه أخوه محمد أن يقاتل بأهل البصرة، لكن حبيب نصحه بعدم الركون إليهم، وأنهم غير مقاتلين معه، ثم نصحه بالخروج إلى الموصل ليدعو عشيرته التي بها،

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٨٥/٦- ابن أعثم: الفتوح، م٤/ ٢٤٩ - مجهول: العيون، ٦٩/٣ اليعقوبي تاريخ اليعقوبي، م٣١٠/٢ - ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٥/٩ - ابن خلكان: وفيات، ٣٠١/٦ (خالف ذلك، وقال استخلف على البصرة ولده معاوية بن يزيد، وهذا لبس واقع فيه، فاستخلافه لابنه معاوية كان على واسط وليس البصرة، وهذا ما سيأتي ذكره في الصفحات التالية).

(2) ابن أعثم: نفس المصدر والمجلد والصفحة - مجهول: نفس المصدر والمجلد والصفحة - اليعقوبي: نفس المصدر والمجلد والصفحة - المسعودي: مروج، ٢١٠/٣-٢١١- المسعودي: التنبيه، ص٢٧٧-٢٧٨.

(3) واسط: عدة مواضع، والمقصود هنا مدينة واسط التي بناها الحجاج، وقد سميت بذلك لتوسطها بين البصرة والكوفة والمدائن والأهواز، وقد بناها الحجاج زمن عبدالملك بن مروان، بين سنتي ٨٤ - ٨٦، وسماها واسطاً (ياقوت: معجم، ٣٤٧/٥ - ٣٤٨).

(4) الطبري: نفس المصدر، ٥٨٨/٦ - ٥٨٩ ابن الأثير: الكامل، ١٧٠/٤ - ١٧١ (وأورد اسم حبيب محرفاً ب «خبيب» مجهول: نفس المصدر، ٦٩/٣ - ابن أعثم: نفس المصدر، م٢٤٨/٤-٢٤٩ (إلا أنه أشار إلى أن هذه الاستشارة حدثت قبل خروجه من البصرة وسماعه بخروج مسلمة إليه). والحقيقة وأن كان قد خالف الإجماع، إلا أن مشورة إخوانه تدل على عدم علمهم بخروج جيش الشام. وأن حذر ابن المهلب كان من واقع الدراية والخبرة، وأهل الشام لم يتركوه حتى ذلك الوقت، فخشي المغامرة، وكان حذره في مكانه.

فرأى ذلك قربًا من العدو، الذي سيقاتله في بلاده، وأخيرًا ارتأى يزيد لنفسه أن يأتي واسطًا، ثم يقترب من الكوفة. فيرتاد مكانًا صالحًا للمعركة، راجيًا بذلك أن ينضم إليه من أهل الكوفة مثل من معه[1].

لم يكن ابن المهلب مخطئًا عندما رفض اللجوء لفارس، إذ لن يحقق ذلك أغراضه ومراميه الكبيرة، فهو ليس ثائرًا عاديًا يطمع في قليل من المال أو السلطان، أو النجاة بنفسه. كما أن حربه بأهل البصرة لا يكفي لمواجهة جيش قوي، خصوصًا إذا علمنا انقسام أهلها على طاعته وأن سكتوا عن حركته. ويبدو أن ابن المهلب قد رأى أن الوقت قد فات على الوصول إلى الجزيرة أو الموصل، وأن تقسيم جيشه مغامرة، قد تكون لصالح جيش الشام الذي قد اقترب من العراق، بل وعجل بمقدمته إلى الحيرة لقطع الطريق على ابن المهلب من الوصول إلى الكوفة فكيف بغيرها.

نزول ابن المهلب مدينة واسط:

لذا سار يزيد بمن معه حتى نزل واسطًا[2]، وقد قدم في عشرين ألفًا[3]. واحتمل معه عدي بن أرطأة ومن حبسه معه، فسجنهم بها[4]. وفي هذه الأثناء كان مروان بن المهلب يحث الناس في البصرة على حرب أهل الشام، ويسرحهم إلى يزيد، وكان الحسن البصري يردهم عن ذلك، درءًا للفتنة، ولئلا يتكرر ما حدث من قتال طويل أيام ابن الأشعث، أزهق فيه كثير من النفوس، فلما بلغ ذلك مروان، تهدد الحسن في خطبته، فغضب له أهل البصرة، وعزموا على منعه أن أراده مروان، بسوء فأبى عليهم الحسن، واشتد مروان عليهم، وأخذ أناسًا منهم، ثم خلاهم، وفرقهم، إلا أن الحسن لم

---

(1) مجهول: العيون، ٣/٦٩ – ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢٤٥ (لكنه ذكر أن هذه المشورة كانت بعد نزوله واسط، وأنه أشير عليه بالأهواز، أو الجزيرة).

(2) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٨٩ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٧٠-١٧١ – ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٠ – ابن كثير: نفس المصدر، ط١، ٩/٢٤٥ – ابن خلدون: العبر، ٣/٧٨.

(3) مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة، ٣/٦٩.

(4) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢/٣١٠ – مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة.

يدع كلامه وكف عنه مروان[1]. ولعل ذلك عندما أحس التفاف أهل القطر حوله، وغضبهم له.

أما يزيد فإنه لما بلغه إقبال مسلمة والعباس في جند الشام و الجزيرة، استقدم أخاه محمدًا من فارس فقدم عليه[2]، ولعل في انضمام جيش الجزيرة إلى جند الشام ما يفسر اختلاف بعض المصادر حول عدد جيش الدولة، فلعل بعضها ذكر عدد الجيش الشامي قبل انضمام جند الجزيرة والأخرى ذكرت العدد بعد انضمامه، ثم أخذ يزيد يعد جيشه معنويًا ويستثير فيهم النزعات التي دفعت كثيرًا منهم إلى قتال أهل الشام، فخطب فيهم في واسط، وقال: «يا أهل العراق يا أهل السبق والسباق ومحاسن الأخلاق، إن أهل الشام في أفواههم لقمة دسمة قد رتبت لها الأشداق وقاموا لها على ساق وهم غير تاركيها لكم بالمراء والجدال، فألبسوا لهم جلود النمور»[3]. إننا لن نجد عناء في فهم ما يرمي إليه ابن المهلب، إلا وهو استجاشة كره العراقيين وحسدهم للشاميين على السلطة التي تمتعوا بها والثروات التي أدرتها عليهم، بتمييزهم على من سواهم، باعتبارهم جند الدولة المخلص ويد سلطاتها بل أن في الخطبة ما يبين أهداف الحركة الحقيقية، والنزعة الإقليمية التي وراءها.

وهي في حقيقة الأمر تدل على ذكاء ابن المهلب حين شخص الداء ووصف له الدواء، فكان صداها باندفاع الناس إليه على مختلف مشاربهم، وهي محاولة من القبائل اليمنية للمحافظة على سيطرتها في المنطقة التي تمت بجهود آل المهلب، بعد أن لاحظت بوادر ذهابها لصالح المضرية على يد زعيمها المتطرف يزيد بن عبدالملك[4].

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٩٣/٦- ٥٩٤ - ابن الأثير الكامل، ١٧٢/٤ - ١٧٣، ابن أعثم: الفتوح، ٢٥٠/٤ - مجهول: العيون، ٦٩/٣ - ابن كثير: البداية، ٢٤٦/٩ - ابن خلدون: العبر، ٧٨/٣.

(2) مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(3) نافع العبود: آل المهلب، ص٨٩ - ثابت الراوي: العراق في العصر الأموي، ص٢١٧ - ٢١٨.

(4) ناجي حسن: القبائل، ص١٥٤.

إلا أننا نقف ضد تفسير الأحداث على أساس التعصب القبلي فإن كان يزيد قد اعتمد على الأزد وحليفتها ربيعة، إلا أن حركته شملت سائر القبائل بمشاربها المختلفة، ولعل هذه الخطبة تؤيد ما ذهبنا إليه، ويرد على تفسير ناجي حسن لها فهو ينادي أهل العراق يمنيهم ومضريهم، باسم الإقليمية والدوافع المادية، كما أن الخليفة يزيد بن عبدالملك حتى ذلك الحين لم يتبين اتجاهه وموقفه من العصبية القبلية.

اختيار العقر أرضًا للمعركة ونزوله فيه :

وفي فترة إقامة ابن المهلب في واسط، وجه إخوته يختارون له مكانًا للمعسكر، فاختاروا العقر[1].

وفي ذلك يقول الفرزدق:

هلا زجرت الطير لن كنت زاجـرًا   غداة نزلت العقر أنك تعقر[2]

وكان قد أقام في واسط أيامًا يسيرة حتى تكامل عسكره[3]. فلما عزم على الخروج

---

(1) العقر: عدة مواضع منها عقر بابل قرب كربلاء من الكوفة، قتل عنده يزيد بن المهلب في (سنة ١٠٢هـ) وكان خلع طاعة بني مروان، ودعا إلى نفسه، فندب له يزيد أخاه مسلمة، فوافقه بالعقر من أرض بابل، فأسفرت الحرب عن قتل ابن المهلب. (ياقوت: معجم، ١٣٦/٤). وعنه نضيف: ومنها العقر القرية بين تكريت والموصل، أو العقر القرية الواقعة على طريق بغداد إلى الدسكرة، أو العقر القلعة الحصينة في جبال الموصل، أو عقر السدن من قرى الشرطة بين واسط والبصرة. وهذا التعدد للأماكن المسماه بهذا الاسم، هو ما أوقع بعض المؤرخين في خطأ تحديد الموقع، خصوصًا أنها مختلفة المناطق وجلها في أرض العراق، مما أدى إلى اللبس على غير المدقق. وقد ذكر المؤرخ المجهول في كتابه العيون (٧٠/٣): أن العقر من أرض سور بين المدائن والكوفة. وحيث أن سورا: موضع بالعراق من أرض بابل وهي مدينة السريانيين، قريبة من الوقف والحلة المزيدية. (انظر: ياوقت: نفس المصدر، ٢٧٨/٣). وقد نقل فتحي عثمان عن نولدكه: أنها معقل قرب بابل القديمة. (انظر: الحدود الإسلامية البيزنطية، ص١٠٩ - ١١٠) فإننا نرجح أنها من بابل، إذ لا خلاف بين المصادر. فالعقر من أرض سورا، وسوراء من بابل، وهي من الكوفة، واقعة بين المدائن والكوفة.

(2) مجهول: العيون، ٧٠/٣.

(3) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٨٩/٦ - ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٠ - ابن الأثير: الكامل، ١٧١/٤ - ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٥/٩.

منها للقاء مسلمة والعباس، استخلف ابنه معاوية وترك عنده بيت المال والأسرى الذين أخذهم بالبصرة في حربه مع عدي بن أرطأة. ثم خرج بجيشه مطلع سنة ١٠٢هـ، وقدم بين يديه أخوه عبدالملك، ثم سار حتى مر بفم النيل، ومنه سار حتى نزل العقر من أرض بابل، وعزم على محاربة القوم[١]. والظاهر أن يزيد لم يرد أن يترك العراق أما جند الشام الذين تقدموا نحوها، وأراد أن يسبقهم إلى الكوفة قدر الإمكان، إلا أن قوات الدولة كانت قد سبقته فتوقف في آخر سنة ١٠١هـ عند عقر التي تواجه فارط قرب بابل القديمة[٢].

ونجد أن فتحي عثمان، ونافع العبود، ذهبا إلى أن ابن المهلب خرج من واسط قاصدًا الكوفة محاولاً أن يسبق أهل الشام إليها، فلما وجدهم سبقوه إليها، نزل العقر، ويبدو لنا أنه غاب عنهما تلك النصوص التي أشرنا إليها قبل والتي توضح أن ابن المهلب قد وضع خط مسيره من قبل دخول واسط، وأنه عزم أن يعسكر قرب الكوفة، عسى أن ينضم إليه بعض أهلها، وأنه بعث من واسط من يختار له أرضًا صالحة للمعركة، فوقع الاختيار على أرض العقر، وهذا يبطل ما ذهبا إليه، فقد كان نزوله العقر اختيارًا لا اضطرارًا، نعم لقد حاول يزيد بن المهلب بعد نزوله العقر ضم الكوفة إليه فلم يوفق وهذا ما سنطالعه في الصفحات التالية.

---

(١) نافع العبود: آل المهلب، ص٨٩ (وقد ذكر أنه كان قاصدًا الكوفة فوجد أهل الشام سبقوه إليها فنزل للعقر عند كربلاء). (نقلاً عن الطبري: تاريخ الأمم، ٥٩٠/٦ - ٥٩١ - مجهول: العيون، ٦٦/٣) - ابن أعثم: الفتوح، ٢٥٠/٤ - ابن كثير: البداية، ٢٤٥/٩.
وهو الوحيد الذي أرخ لمسيره.

(٢) فتحي عثمان: الحدود، ص١٠٩ - ١١٠ (خالف ابن كثير في تاريخه لمسير ابن المهلب إلى العقر ونزوله فيها، ونحن نرجح قول ابن كثير، إذ أن إقامة مسلمة ويزيد في العقر قبل المعركة، ثمانية أيام فقط، أي أن مسلمة وصل العقر قبل المعركة التي حدثت ١٣ صفر أو ١٥ صفر على خلاف بثمانية أيام. أي في خامس صفر أو سابعه وحيث أنه لم يسر إليها، إلا بعد علمه بنزول ابن المهلب فيها، وكان في النخيلة من أرض الكوفة والمسافة ليست بالبعيدة، فهذا يرجح أن يزيد نزل العقر في المحرم من سنة ١٠٢هـ (عن إقامة الفريقين قبل المعركة في العقر، انظر/ الطبري: المصدر السابق، ٥٩٥/٦ - ٥٩٧ - ابن الأثير: المصدر السابق، ١٧٣/٤ - ١٧٤).

وقعة سورا:

وبعد أن نزل ابن المهلب العقر، حاول الاستيلاء على الكوفة، فوجه أخاه عبدالملك إليها، فاستقبلهم العباس بن الوليد عند «سورا» ليصدهم عن الكوفة، وكان في أربعة آلاف سوى من انضم إليه من أهل البصرة وعلى رأسهم هريم بن أبي طحمة. وقد اضطرهم أصحاب عبدالملك إلى نهر سورا، فاستنجدوا بأهل الشام وسألوهم ألا يسلموهم، فكر الشاميون، وهزم أصحاب ابن المهلب، حتى انتهى بهم عبدالملك إلى أخيه في العقر[1]. وإن كانت معركة سورا[2] وقعة جانبية، إلا أن خسارتها تعني ضياع المحاولة الأولى لابن المهلب في الوصول إلى الكوفة، بينما أدت إلى ارتفاع الروح المعنوية لجيش الدولة، والشك في قدرة جيش ابن المهلب القتالية.

ثم عقد ابن المهلب لعبدالله بن حيان العبدي على أربعة آلاف وضم إليه فضيل بن هناد وسالم المنتوف في خيل فعبروا إلى جانب الصراة الأقصى، فعسكر في جمعه وخندق عليه فقطع إليهم مسلمة الماء وسعيد بن عمرو الحرشي، وقيل بل عبر إليهم الوضاح، فكانوا بازائهم[3]. إلا أن المؤرخ المجهول[4] قال: أن مسلمة وجه إليهم الحرشي، فاقتتلوا وقتل عبدالله بن حيان، وكان لأهل الشام كمين خرج عند جولة العراقيين فانهزموا، حتى أتوا يزيد بن المهلب في العقر، وهكذا كانت المناوشات الأولية في صالح الشاميين، وعلى أثرها تبدد أمل بن المهلب في الوصول إلى الكوفة، واتضح

---

(1) عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٩٠ (وقد ذكر مخطئاً أن العباس ابن عم مسلمة، والصحيح أنه ابن أخيه الوليد – مجهول: العيون، ٧٠/٣-٧١ (إلا أنه ذكر أن يزيد وجه أخاه محمداً وابنه المعارك، وليس عبدالملك، وذلك حين اقترب منه أهل الشام، ولم يقل نحو الكوفة، ووافق الأعظمي وابن الأثير في كون اللقاء حدث بسورا، وأحداثه) – ابن الأثير: الكامل، ١٧١/٤.

(2) اعتبر ابن كثير أن معركة سورا لقاء بين مقدمتي الجيشين، على أثره تم اللقاء الحاسم، لكن الواضح أنها معركة مستقلة حيث أن جيش ابن المهلب قد استقر في العقر، وما كان رجاله الذين خاضوا معركة سورا، إلا في حملة ذات هدف محدد وهو الاستيلاء على الكوفة، فصدت، وانتهى الأمر، وتمت المعركة الفاصلة في العقر بعيداً عنها بعد ذلك. (انظر: البداية، ط١، ٢٤٥/٩ – ٢٤٧).

(3) الطبري: تاريخ الأمم، ١٩١/٦ – مجهول: نفس المصدر والجزء، ص٧١.

(4) نفس المصدر والجزء والصفحة.

ضعف قوته.

ولكن أهل الكوفة التي لم يستطع ابن المهلب الوصول إلى مدينتهم، استطاعوا الوصول إليه، فقد اجتمع إليه كثير من الكوفيين وبعض زعمائهم، وانضم إليه ناس من الثغور، فبعث على أرباع أهل الكوفة الذين خرجوا إليه رجالاً، إذ جعل على ربع أهل المدينة عبدالله بن سفيان بن يزيد بن المغفل الأزدي، وبعث على ربع مذحج وأسد النعمان ابن إبراهيم بن الأشتر النخعي، وبعث على ربع كنده وربيعة محمد بن اسحق بن محمد بن الأشعث، وبعث على ربع تميم وهمدان حنظلة بن عتاب بن ورقاء التميمي، وجمعهم جميعًا مع المفضل بن المهلب[1]. وهذا يرد على من قال بعدم خروج أهل الكوفة لمساعدة ابن المهلب، وذلك لاختفاء الأثر الشيعي[2]. مع أن للرد عليه جانبًا آخر، وهو أن الكوفيين على رأس العراقيين الذين غالبًا ما حركتهم النزعة الإقليمية ضد الشاميين، والكراهية للأمويين، مع الأخذ في الاعتبار بالتأثيرات المادية والمطامح الشخصية والثأرات القديمة، وتلك كفيلة بانضمام أهل الكوفة إليه أو بعضهم. كما أننا قد رأينا من قال بدعوة ابن المهلب في حركته للرضى من بني هاشم[3]، وإن كنا قد استبعدنا مثل هذه المقولة. وقد يكون هذا التسلل الكوفي إلى ابن المهلب في العقر ما دعا أمير الكوفة عبدالحميد بن عبدالرحمن، أن يضع على الكوفة مناظر وأرصاد لتحبس أهل الكوفة عن الخروج إلى يزيد بن المهلب، بل وعسكر بالنخيلة. كما أغرق الأرض بالمياه بين الكوفة وابن المهلب، لئلا يصل إليها[4]. أما ابن المهلب فقد استمر توافد الناس إليه فانضم إليه عامر بن العميثل الأزدي في جمع

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ٦:٥٩١ = ٥٩٢ - ابن الأثير: الكامل، ١٧٢/٤ - ابن خلدون: العبر، ٧٨/٣ (إلا أنه لم يشر إلى ضمهم إلى المفضل. وأحداث المعركة تسند القول الأول).

(2) ثابت الراوي: العراق، ص٢١٨ (لنا أن نقول: أن شيعة الكوفة، قد ساندوا ابن الأشعث، ولم يكن في حركته الأثر الشيعي)، عن حركته وموقف الكوفة منه (انظر: الطبري: نفس المصدر، ٣٣٤/٦ وما بعدها).

(3) انظر قبل: ١١٤ - ١١٥.

(4) الطبري: المصدر السابق، ٥٩٢/٦ - ابن الأثير: المصدر السابق، ١٧٢/٤ - ابن خلدون: المصدر السابق، ٧٨/٣ - مجهول: العيون ٧٠/٣، لكنه لم يذكر المناظر والأرصاد.

وبايعه[1]. ولقد أحصى ديوان ابن المهلب مائة وعشرين ألفا، ألا أن ابن المهلب كان يري أن أكثرهم ليسوا من أهل القتال، فكان يتمنى أن يكون معه بدلاً منهم قومه الذين بخراسان[2]. وهذا ما لمسناه من أقوال الحسن البصري في البصرة، فإنه عندما لم يـر من يعرفهم فيمن انضم إلى ابن المهلب من أهل السيادة والشرف، قال هؤلاء والله الغثاء[3]. كما أتضح ذلك من نتائج المناوشات الأولية، وهذا ما سيؤكده انفضاضهم السريع وتخاذلهم عن ابن المهلب في العقر. وبلغ مسلمة بن عبدالملك نزول ابن المهلب العقر، فأقبل يسير على شاطئ الفرات حتى نزل الأنبار[4]، فعقد جسرًا على الفرات، فعبر من قبل قرية فارط، بجيش الدولة وقد خلف الأثقال، فأقبل حتى نزل على يزيد[5]. وعلم

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم ، ٥٩٢/٦.

(2) عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٩١. وقد همش معلقًا على ما دار من محاورة حول رأي ابن المهلب في جيشه مع بعض رجاله، بأنها تعطي انطباعًا بما يسود جيش ابن المهلب من تخوف وتردد وضعف الروح القتالية، والخوف من فشل الحركة كما فشل ابن الأشعث – ابن الأثير: الكامل، ١٧٢/٤ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٦/٩ – ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٠-٢٥١. مخالفًا العدد قال: دنت عساكر الشام في خمسين ألف، ويزيد يومئذ عن عشرين ألفا. ونحن لا نطمئن لمن قال أن جيشه يبلغ (١٢٠ ألف)، لكننا أيضًا لا نوافق ابن أعثم على العدد الذي أشار إليه. فقد ذكر المؤرخ المجهول: أن ابن المهلب قدم واسطا في عشرين ألفا. انظر: نفس المصدر، ٦٩/٣ وقد ثبت لنا انضمام كثير من أهل الكوفة إليه. وأناس من أهل الثغور. وبعض الأزد، وغيرهم، وذلك بعد نزوله العقر، إلى جانب من سار معه من واسط، وهذا يعني أن العدد قد زاد عن العشرين ألف بكثير، لكنه بالتأكيد لم يبلغ ١٢٠ ألفا.

(3) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٥٨٧.

(4) الأنبار: عدة مواضع – المقصود منها هنا – مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ. فتحت على يد خالد بن الوليد (سنة ١٢هـ) في زمن الخليفة أبي بكر الصديق، عمرها سابور بن هرمز، ثم جددها أبوالعباس السفاح. (ياقوت: معجم، ٢٥٧/١ – ٢٥٨).

(5) عواد الأعظمي: المرجع السابق، ص١٨٩. وقد أورد في الهامش تعليق فلها وزن على طريق مسلمة بقوله: ولما كانت الأنبار على الضفة الشرقية، فلابد أن يكون مسلمة قد سار أولاً من هناك من عند بلدة «القاراط» إلى الغرب، ثم قفل راجعًا إلى الضفة الشرقية، كما فعل قحطبة بن شبيب الطائي (نقلاً عن: فلها وزن: تاريخ الدولة العربية، ٣٠٧/١) – فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص١٠٩ – ١١٠ ابن الأثير: الكامل، ١٧١/٤-١٧٢- =

بذلك العباس، فأقبل من الحيرة حتى نزل على مسلمة[1]، الذي خندق عليه خندقين[2]، وجعل على الخندق حائط وضع عليه رجال من رماة النبل[3].

وخشى ابن المهلب أن يصل الشاميون بخندقهم إلى خندقه ورأى أن يبيتهم، أي أن يفاجئهم بالهجوم ليلاً، وذلك بمشورة بعض آله، إلا أن من كان معه من القراء، قالوا: لا يحل لنا ذلك حتى ندعوهم[4].

ثم دعا يزيد برؤوس أصحابه، وبين لهم راية في أن يبعث مع محمد بن المهلب أثنى عشر ألف رجل، يبيتوا مسلمة وجيشه، فيدفنون خندقهم، ويقاتلوهم بقية ليلتهم، بينما يزيد يمده بالرجال، فإذا أصبح نهض إليهم بالناس، فيناجزهم، راجيًا أن يكون في ذلك النصر. فقال السميدع: قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وقد زعموا قبوله، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر، ولا نريدهم بسوء، حتى يردوا علينا ما زعموا قبوله منا. فأيده أبورؤبة المرجئي، وحذرهم يزيد بأن ذلك دهاء من مسلمة حتى يمكر بهم، فأبوه[5]. وقد أمد عبدالحميد بن عبدالرحمن أمير الكوفة مسلمة ببعث من أهل الكوفة عليهم سيف بن هانئ الهمداني، فأثنى عليهم لطاعتهم، إلا أنه استقلهم، فبعث إليه عبدالحميد ببعث أكبر عليهم سبرة بن عبدالرحمن بن مخنف الأزدي، فضم إليه مسلمة من كان عنده من أهل الكوفة، لطاعة أهل بيته وولائهم للبيت الأموي[6]، ونلحظ هنا أن قيادة البعثين من الكوفة يمنية، مما يؤكد أن العصبية لم تكن المحرك الوحيد لمن انضم

= ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٠ – مجهول: العيون، ٧١/٣ – ابن خلدون: العبر ٧٨/٣ (وحرف كلمة الأنبار إلى «الأنهار»).

(١) ابن أعثم: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢) مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) الطبري، نفس المصدر والجزء، ص ٥٩٨.

(٤) مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٩٣ (وقد علق على ذلك أن وحدته) ابن أعثم: نفس المصدر، م٤/٢٥١(وقد أورد عدد الجند المقترح للخطة ثمانية آلاف) – ابن الأثير: نفس المصدر، ١٧٢/٤.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٩٢/٦ – ٥٩٣ – مجهول: نفس المصدر، ٧٠/٣ (وقد ذكر إمداده ببعث ذكر اسم أميره) – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة (لم يشر إلى بعث الهمداني) – ابن خلدون: نفس المصدر، ٧٨/٣ (أشار فقط إلى بعث سبرة، وحرفه بصبرة).

إلى ابن المهلب، أو خالف.

وفيما يبدو أن عدم سيطرة عبدالحميد بن عبدالرحمن على الكوفة، بعجزه عن منع أهلها من الانضمام إلى حركة أن المهلب، كما عجز من قبل من القبض على ابن المهلب نفسه عندما مر بالقرب من الكوفة، وتسيير عدد لا يتناسب مع عدد الكوفيين إلى مسلمة، قد دعا مسلمة إلى عزله وتولية محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة، ذو الشامة[١]، أميرا على الكوفة[٢].

أما الفريقان في العقر فقد أقاما ثلاثة أيام[٣] ليس بينهم حرب، ومسلمة بن عبدالملك يدعو ابن المهلب إلى حقن الدماء، والرجوع عما هو عليه، على أن يوليه وإخوته أي بلد شاءوا، ويزيد يأبى ذلك[٤]. بل أن مسلمة سعى من ناحية أخرى أن يثير البلبلة والشك في صفوف خصمه، بإبطال بعض ما أدعاه، فقد كتب مسلمة إليه: «إنك والله ما أنت بصاحب هذا الأمر، صاحب هذا الأمر مغمور موتور[٥]، وأنت مشهور غير موتور». فقال له رجل من الأزد قدم ابنك مخلد حتى يقتل فتصير موتورا[٦].

والظاهر أنه يعني إدعاءه أنه القحطاني المنتظر. هذا إذا ما صح هذا النص، الذي إذا ما ثبت، سيصدق تلك المقولة التي شككنا فيها، وإن كنا لم نستبعد تفشيها بين الناس، من قومه قحطان. لكن النص ذاته يحمل معلومة تشكك في صحته إذ أن مخلدًا كان قد توفى زمن عمر بن عبدالعزيز، بعد ما وفد عليه في أعقاب سجنه لأبيه[٧]. وإن كان ذلك لا يبطل الخبر فيمكن أن يكون قد قيل بتقديم أحد بنيه غير مخلد، فذكر المؤرخ

---

(١) ذو الشامة: لم أعثر على ترجمته.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٩٤ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٧٢ – ابن خلدون: العبر، ٣/٧٨ (قال: ابن عمر).

(٣) وردت عند الطبري ثمانية أيام. (انظر: نفس المصدر، ٣/ ٥٩٥).

(٤) ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥١.

(٥) الموتور: الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه، وفي قول محمد بن مسلمة: أنا الموتور الثائر، أي صاحب الوتر الطالب بالثأر. انظر: اللسان (وتر).

(٦) الجاحظ: البيان والتبيين، ط٤، ١/٢٤٠.

(٧) الطبري: نفس المصدر، ٦/٥٥٧ – ابن الأثير: نفس المصدر، ٤/١٥٧.

خطأ اسم مخلد لشهرته، وإن كنا نتساءل، كيف يستطيع ابن المهلب أن لا يكون مشهورًا، إذ قدر أن يكون موتورًا.

ومع ذلك فإن هذا النص في حال صحته، يكون تأكيدًا من مسلمة على يمنية ابن المهلب، ونفيًا للتهمة القائلة بفارسيته[1]. حيث أن بني أمية أحرص الناس على استغلال ذلك لو كان معروفًا. ومسلمة مع كل هذا واثق من النصر «يقول: ليت هذا المزوني لا يكلفنا اتباعه في هذا البرد[2].

أما أن المهلب الذي اضطرب عسكره عندما سمع بقدوم مسلمة والعباس في جيشهما الضخم من أهل الشام، خصوصًا عندما شارفاه، ونزلا عليه في العقر، فإنه سعى إلى التقليل من شأن خصمه وتهوين أمر قيادته، ساخرًا منهم، مشيرًا إلى ولاء جزء كبير من الجيش الشامي له، ليرفع من الروح المعنوية لجنده، حاثًا إياهم على الصدق والصبر، مؤكدًا عزمه على القتال حتى النصر أو الموت، وقد تمثل هذا في خطب ألقاها في جنده في العقر، كما فعل من قبل في واسط»[3].

وبصرف النظر عن مدى صحة ما تضمنته أقواله من ازدراء وتشنيع واتهام، فالهدف كان منها التحريض والتهوين وكفى. إذ لا يصدق ما قال عن الجيش الشامي المتمرس، وإن كان قد ظن أن اليمنية الشامية ستكون معه. فقد خاب ظنه، إذ سنرى صدق ولائهم لحكومة الشام، وأن قَتْلَهُ سيكون على يد أحدهم. و القضاء على أهل بيته بني المهلب، وتصفيتهم في قندابيل على أيديهم.

وأننا نستشف من أقواله حقيقة خلافه مع الأمويين، كما أبرزت منطقه الطبقي

---

(1) انظر ما كتبناه عن ذلك قبل: ص١٢١ -١٢٢.

(2) مجهول: العيون: ٣/٦٨.

(3) من أجل ذلك، انظر نافع العبود: آل المهلب، ص٧٩ (قال بأن خطبته كانت في واسط، ولعله يعني خطبته الأولى في واسط، وقد تبعها آخر في العقر) - محمد نصر الله: تطور، ص٢٥٦ - عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٩٢ - الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٩٢ - ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٠-٢٥١ - المسعودي: المروج، ٣/٢١٠-٢١١ وما بعدها (وانظر نص هذه الخطبة وشرح بعض ألفاظها، بعد: الفصل السادس، المبحث الثاني، ص٧٢٠-٧٢١).

العنصري في تلك الحركة[1].

لكن يزيد ابن المهلب ذاته وفي قرارة نفسه لم يكن واثقًا من النصر على الأمــويين وإزالة ملكهم، فقد أتاه يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي في واسط، قبل نزوله العقر فقال:

إن بني مروان قد باد ملكهم   فإن كنت لم تشعر بذلك فأشعر

قال يزيد: ما شعرت. فقال ابن الحكم الثقفي:

فعش ملكًا أو مت كريمًــا وإن تمــت   وسيفك مشهور بكفــك تعــذر

قال يزيد بن المهلب: أما هذا فعسى[2]. وما أظن الواقع خالف هذا، ولكــن رجــلاً كابن المهلب أبدى العداوة، وأظهر الخلاف، تأبى نفسه الكبيــرة، وتاريخــه العســكري الحافل، وعزة قومه أن يستسلم أو يجبن، ولكنها الحرب، على أمل يسير من النصــر أو الموت بكرامة في ساحة القتال.

معركة العقر:

أقام مسلمة بن عبدالملك يطاول يزيد بن المهلب في العقر ثمانية أيام، جرت بينهما أبان ذلك المراسلات والرسل لتحقق المصالحة بين الطرفين ورغبــة فــي حقــن دمــاء المسلمين وإنهاء الفتنة. فقد عرض مسلمة على ابن المهلب الأمان، داعيًا إياه للســلام، كما وعده وإخوته بالأمارة على أي البلاد شاؤا، فلم يجد أذنًا صاغية وباءت محاولاتــه بالفشل. وكان كل منهما أثناء ذلك يعد نفسه للحرب، فحصنا مواقعهما، وخندقا عليهمــا، وأعد كل قائد جيشه معنويًا وعسكريًا[3]، فلما يئس مسلمة من خصمه في أن يعود إلــى الرشد، ويجنب الناس ويلات الحرب وشر الفتنة، خرج إليه، يوم الجمعة لأربع عشــرة ليلة[4] خلت من صفر (سنة ١٠٢هـ)، أي يوم الرابع عشر، فكونها خلــت أي أصــبح

---

(١) محمد نصر الله: تطور، ص ٢٥٦.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٦٢/٦.

(٣) انظر ذلك في الصفحات السابقة بعد نزول الفريقين أرض العقر.

(٤) أرخ ابن خياط لذلك ب: يوم الجمعة لأثنتى عشرة خلت من صفر (انظر: تاريخه، ص٣٢٥)، كما أرخ لذلك ابن خلدون ب: الجمعة منتصف صفر (انظر: العبر، ٧٨/٣) ولعل ورد التاريخ =

الناس في نهارها، والعرب يقدمون الليل على النهار[1]، ولو لم يقل خلت، لقلنا: يوم الثالث عشر.

خرج إليه ليلتقيا في العقر[2]، والخروج هنا أراه من خندقه إلى أرض المعركة، وكان مسلمة قد عبأ جند الشام، فجعل على ميمنته جبلة بن مخرمة الكندي، وعلى ميسرته الهذيل بن زفر بن الحارث العامري، وجعل العباس على ميمنة سيف بن هانئ الهمداني وعلى ميسرته سويد بن القعقاع التميمي، ومسلمة على الناس. أما يزيد بن المهلب فقد جعل على ميمنته حبيب بن المهلب وعلى ميسرته المفضل بن المهلب وكان مما يلي العباس بن الوليد، ورايته مع المهلب بن العلاء، ومحمد بن المهلب ومعه أناس على حاميتهم.

وخرج ابن المهلب وقد دعا بدرعه وملابسه ووضع له كرسي على باب خندقه وكرسي آخر لمحمد بن المهلب، وذلك أنه قد أصاب يزيد بن المهلب قبل ذلك حمى فضعف[3]. وقيل بل كان مبطوناً شديد العلة[4]، فأمر الناس بالتقدم، ولحق بهم أخوه محمد. وزحف أهل الشام، فاقتتلوا وجالت الخيلان، وبدأت الحرب كالعادة بالمبارزة،

= بالليالي هو ما أوقع البعض في اللبس، والتاريخ الذي أثبتناه في المتن هو ما أجمعت عليه أكثر المصادر.

(1) قال هورنشو: «وكانوا (أي العرب) يبنون التاريخ على الليالي دون الأيام بخلاف العجم فانهم يبنون على الأيام دون الليالي». انظر: علم التاريخ، ترجمة وعلق عليه وأضاف إليه فصلاً في التاريخ عند العرب، عبدالحميد العبادي، سلسلة المعارف العامة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٤٤م، ص٣٤ – السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م، ص٢٤-٢٥.

(2) شذ عن هذا القول اليعقوبي، الذي قال بالتقائهما «بمسكن». انظر تاريخه، ٣١١/٢.
ومسكن: موضع قريب من أوانا على نهر وجيل عند دير الجثاليق به كانت الوقعة بين عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير (سنة ٧٢هـ). وذكر الحازمي أن مسكن بدجيل الأهواز حيث كانت وقعة الحجاج بابن الأشعث، وهذا غلط. (انظر: ياقوت: معجم، ١٢٧/٥ – ١٢٨). وهذا يبين لنا أن اليعقوبي وقع في خلط بين الوقعتين، وقعة عبدالملك ومصعب، ويزيد وابن المهلب.

(3) مجهول: العيون، ٧١/٣-٧٢.

(4) اليعقوبي: نفس المصدر والجزء والصفحة.

عندما تواجهت الجيوش، فبارز حبيب رجلاً من أهل الشام، وبرز محمد بن المهلب لرجل من أهل الشام دعا إلى المبارزة، أصاب محمد كفه، قيل أنه حيان النبطي. فلما نشبت الحرب ولم يشتد القتال، أمر مسلمة بن عبدالملك الوضاح مولى عبدالملك أن يخرج بالوضاحية[1]، ويحرق جسر الصراة والسفن التي في الصراة[2]. فأحرق الجسر وبعض السفن، فلما رأى أصحاب ابن المهلب الدخان قد علا، وعلموا أن الجسر الذي جاءوا عليه قد أحرق، لاذوا بالفرار وانهزموا من أرض المعركة، فلما رأى يزيد بن المهلب فرار أصحابه خرج في جمع من قومه ومواليه، ليردهم، فضربوا وجوه المنهزمين الذين استقبلوه مثل الجبال، وتكاثروا عليه، فلما يئس منهم أمر بتركهم، وثبت في عصابة من أصحابه، تسلل بعضهم، فبقي في شرذمة قليلة وقد استقبلته الهزيمة.

فقد فقئت عين المفضل، وجاء محمد وقد ضربه الحرشي بعمود على جبهته، ويزيد يتنقل على كرسيه من مكان إلى آخر وقد ثبت معه السميدع وأصحابه، وأبورؤبة

---

(1) الوضاحية: لم يكن يعتمد عسكريًا على موالي بني أمية حتى عهد مروان بن الحكم، ثم ازداد هذه الاهتمام تدريجيًا بهم منذ خلافة عبدالملك، عندما شكلوا جزءًا من الجيش الذي قضى به على ثورة الجراجمة في جبل اللكام. وفي عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك نرى ظهور فرقة عرفت بالوضاحية، لعبت دورها في القضاء على ثورة ابن المهلب، حيث كانت جزءًا من جيش الشام بقيادة رجل منها يسمى الوضاح، وهو مولى لبني أمية من البربر. وقد اعتمد على قول جرير:

لقد جاهد الوضاح بالحق معلنًا ... فأورث مجدًا باقيًا آل بربرا

لذا يمكننا القول أن الوضاحية فرقة من الموالي، لاسيما أننا نرى هذا البيت في قصيدة لجرير (ضاربوا هام الملوك) قالها في أواخر حياة الخليفة يزيد بن عبدالملك، حيث نراه يثني على الموالي، ويطيل في ربط العرب بالعجم بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فيقول:

وأبناء إسحق الليوث إذا ارتدوا ... محامل.... لابسين السنورا

لقد جاهد الوضاح بالحق معلنًا ... فأورث مجدًا باقيًا آل بربرا

أبونا أبو إسحق يجمع بيننا ... أب كان مهديًا نبيًا مطهرًا

وهو في هذه القصيدة يتراجع عن نظرة الاشمئزاز من الموالي، لاشتراكهم مع جيوش الخليفة في القضاء على ثورة ابن المهلب.

انظر: نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام، ص٢٩٩ – ٣٠٠. ويفهم من الشعر أنهم من بني إسحق، فهل الوضاحية البربر من بني إسحق؟!

(2) عند ابن الأثير: أمره أن يخرج بالسفن حتى يحرق الجسر ففعل. (انظر: الكامل، ٤/١٧٣).

المرجني ومن معه. فلما جاءه الخبر بموت حبيب، دعا بفرسه ولبس سلاحه، وأمر دارسًا مولى حبيب بن المهلب أن يكون قريبًا منه، ثم طاف على رايات أهل الشام، يسأل عنها ويقول: أيقاتلني بقومي من لا قوم له. فأخذ يتقدم وهو يزدلف، لا يمر بخيل إلا هزمهم، وأهل الشام يتجاوزون عنه يمنة ويسرة، فأشار عليه أبورؤبة وقيل رجل من بني عمه أن ينصرف إلى واسط ويخندق عليه حتى يأتيه المدد، فأبى الفرار، وقيل بل باشر الحرب قبل موت حبيب وأظنه بعد انهزام الناس، ودعا مسلمة للمبارزة، فأحجم، وقد أشار عليه بذلك رجل من أهل الشام ذاكرًا له شجاعة ابن المهلب، وأنه فارس العراق قاطبة. فلما علم بموت حبيب كره الحياة، وازداد غيظًا وحنقًا، فقصد على فرس له أشهب نحو مسلمة، لا يريد غيره، فحمل وحمل الناس معه، فاقتتلوا، فجعل يقاتل قتال رجل يئس من الحياة، حتى قتل من أهل الشام بشرًا كثيرًا، فلما واجه مسلمة، أدنى فرسه وركبه، فعطف بخيل الشام عليه وعلى أصحابه، وكان في أهل الشام رجل من كلب يدعى القحل بن عياش. لما نظر إلى يزيد عرفه وقال: يا أهل الشام، هذا والله يزيد، والله لأقتلنه أو ليقتلني، ودعا من يكفيه أصحاب يزيد ليصل إليه، فحمل عليه وحملوا معه، واضطربوا ساعة، انفرج بعدها الفريقان عن يزيد ابن المهلب قتيلاً. قتله القحل بن عياش[1] وقد صرعه يزيد فمات إلى جانبه، كل قتل صاحبه.

وقيل أن الذي قتله الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي[2]، ولم يحتز رأسه[3] أنفة. ويصف الذهبي مقتله بقوله: «قتل عن تسع وأربعين سنة، ولقد قاتل قتالاً عظيمًا، وتفللت جموعه، فمازال يحمل بنفسه في الألوف، لا لجهاد، بل شجاعة وحمية، حتى

---

(١) القحل بن عياش بن حسان بن سمير بن شراحيل بن عرين بن أبي جابر بن زهير بن خباب الكلبي. (المسعودي: التنبيه، ص٢٧٧ – ٢٧٨ – الطبري: تاريخ الأمم، ٥٧٩/٦).

(٢) الهذيل بن زفر بن الحارث بن عبد عمرو الكلابي، من الرؤساء الشجعان الفصحاء، في العصر المرواني، كان مع أبيه أيام قيامه في الجزيرة الفراتية في عهد مروان بن الحكم، ومات أبوه سنة ٧٥هـ، فعاد إلى ولائه لبني مروان، وفي حرب مسلمة لابن المهلب، كان على ميسرته في معركة العقر. قال ابن حزم: «والهذيل هو قاتل يزيد بن المهلب يوم العقر وقد قيل غير ذلك» (الزركلي: الأعلام، ٨٠/٨). وما أظن القول بقتل الهذيل إلا دعوى قيسية، للنيل من اليمنية وإغاظتهم.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ١٧٣/٤ – ١٧٤ – ابن خلدون: العبر ٧٨/٣ – ٧٩ (وقد أوردا اسم الحارث في نسب الهذيل «الحرث» تحريفًا). انظر صحة الاسم في الترجمة أعلاه.

ذاق حمامه، نعوذ بالله من هذه القتلة الجاهلية»[1].

وقد جاء برأسه إلى مسلمة مولى لبني مرة، لم يقتله، فلم يعرفه مسلمة. فغسل وعمم، فعرفه، وكان قد أصاب ابن المهلب ما ينيف على ثلاثين ضربة. وقتل من الفريقين ما يزيد على الثلاثة آلاف، بينهم حبيب وحماد ومدرك ومحمد أبناء المهلب، لذا يقول بعض آل المهلب:

سقى الله أجسادًا ببابل كسروا ... سيوفهم والأثرى المعضدا

حبيبا وحمادا وذو البأس والندا ... يزيدا وأسقى مدركا ومحمدا

كما قتل السميدع. وبقتل يزيد بن المهلب انهزم الناس إلا المفضل فقد ظل يقاتل أهل الشام، ما يدري بقتل يزيد ولا بهزيمتهم، وهو يغشى الناس ويكشفهم، وقد اجتمع أهل الكوفة حول عامر بن العميثل الأزدي، فاجتمع أصحاب المفضل ليكروا مع ربيعة الكوفة بعد انكشافها على القوم، إذ جاءه مقتل يزيد ومن قتل معه من إخوته، فتفرق من معه، وأخذ طريقه إلى واسط، وقيل[2] بل خدعه أخوه عبدالملك إذ أخبره أن يزيد انحدر إلى واسط، خوفًا من أن يستقتل ولا يترك أرض المعركة، فانهزم بمن بقي معه من الجنود وبنى إخوته إلى واسط. وهذا ما أغضبه على عبدالملك، فحلف ألا يكلمه أبدًا، فما كلمه حتى مات، وكان يقول: فضحني عبدالملك آخر الدهر، ألا صدقني، فقتلت كريمًا. وهذا القول هو الأقرب إلى طبائع بني المهلب.

وجاء أهل الشام على عسكر يزيد بن المهلب، فقاتلهم أبو رؤبة المرجئي وجماعته ساعة من النهار حتى ذهب عظمهم، فانصرفوا، فاستحوذ مسلمة على ما في معسكر ابن المهلب، وأسر من أصحابه نحو ثلاثمائة بعث بهم إلى الكوفة. ثم بعث مسلمة براس ابن المهلب مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، إلى الخليفة يزيد بن عبدالملك[3].

---

(1) سير، ٤/٥٠٦.

(2) مجهول: العيون، ٣/٧٣ - ٧٤ - ابن الأثير: الكامل، ٤/١٧٤.

(3) عن معركة العقر انظر المصادر التالية: الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٩٥ - ٥٩٨ - ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥١ - ٢٥٢ - مجهول: نفس المصدر، ٣/٧١ - ٧٤ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٤/١٧٣-١٧٤ - المسعودي: مروج، ٣/٢١٠ - ٢١١ (قال: فقتل يزيد، وصبروا أخوته أنفسهم فقتلوا جميعًا. وهذا خطأ، فإن من أخوته من انحدر إلى واسط وكان القضاء على بقيتهم في =

وقد توفى يزيد بن المهلب وله من العمر تسعًا وأربعين سنة[١]. كان فيها من النجباء الكرماء الفرسان، سيدًا ممدحًا كثير الغزو والفتوح. وهذا ليس غريبًا على سيد المهالبة، الذين كانوا في الدولة الأموية كالبرامكة في دولة بني العباس في الكرم[٢]. لذا كان لمقتل يزيد بن المهلب وجل آل بيته صدى في أقوال الناس كما سيكون في أحوالهم، قال محمد بن واسع لما جاء نعي يزيد: اشتهى باكية عمانية تندب لي قتلى آل المهلب. وقال عباد بن عباد: مكثنا نيفا وعشرين سنة بعد قتلى آل المهلب لا تولد فينا جارية ولا يموت منا غلام[٣]. كما نجد الندم عند أزد خراسان على عدم نصرة يزيد، وتمنى شهود وقعته، على لسان شاعرهم ثابت قطنة إذ يقول:

يا ليت أسرتك الذين تغيبوا   كانوا ليومك يا يزيد شهودا

وقد نقل هذا القول لمسلمة، فقال: وأنا والله لوددت أنهم كانوا شهودًا يومئذ فسقيتهم بكأسه. فقيل: كان مسلمة أحد من أجاب شعرًا بنثر فغلبه[٤].

كما نجده يرثي يزيد في قصيدة أخرى، معللاً هزيمته، بتخاذل جنده من اليمانية

= قنابيل) – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٥/٩ – ٢٤٧ – الذهبي: تاريخ الإسلام، ٨٦/٤ – الذهبي: العبر في خبر من غبر، ١٢٤/١ – أبوالفداء: المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠١/١ – ابن خلدون: العبر، ٧٨/٣ – ٧٩ – القلقشندي: مآثر الانافة، ١٤٨/١ – ابن الوردي: تتمة المختصر في تاريخ البشر، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م، ٢٧٥/١ – السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٤٧ – الزركلي: الأعلام، ١٨٩/٨ – ١٩٠ (قال: العقر بين واسط وبغداد والأصح: بين واسط والكوفة). وغيرها من المصادر القديمة والمراجع الحديثة.

(١) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣١٧ – ابن خلكان: وفيات، ٣٠٩/٦ – الزركلي: الأعلام، ١٨٩/٨ (إلا أننا نجده يقول في هامش (١)، ص١٩٠: «وفي أعمال الأعيان في يزد وزياد ومدرك بنو المهلب ابن أبي صفرة، ولدوا في سنة واحدة وقتلوا في سنة واحدة، وكلهم عاش ثمانيا وأربعين سنة». أي أن عمره اعتمادًا على هذا الخبر (٤٨ سنة)، ولكن وجود نصوص تخبرنا أن مولده كان (سنة ٥٣هـ)، انظر ذلك قبل: ص١٢٢) يؤيد الخبر الأول.

(٢) اليافعي: مرآة، ٢٤١/١ – ابن خلكان: نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن العماد: شذرات، ١٢٤/١.

(٣) ابن خلكان: نفس المصدر، ٣٠٨/٦.

(٤) عواد الأعظمي، مسلمة، ص٦٢ – ٦٣.

عنه وإسلامه عدوه، حين انفضوا من حوله ساعة الجد، خائنين عهدهم وبيعتهم له، فيقول:

شهدتك من يمن عصائب ضيعت ... ونأى الذين بهم يصاب الثأر
ولقد بسطت لهم يمينك بالندى ... مثل الفرات تمده الأنهار
حتى إذا شرق القنا وجعلتهم ... نصب الأسنة أسلموك وطاروا
أن يقتلوك فإن قتلك لم يكن ... عار عليك وبعض قتل عار[1]

إلا أننا نجد العكس في موقف الشعراء من غير اليمنية، فما بُشر الخليفة يزيد بن عبدالملك بمقتل ابن المهلب، حتى أخذ الشعراء يهجون آل المهلب، ماعدا كثيرًا، الذي امتنع ليمنيته، ومن ذلك قول جرير:

يارب قوم وقوم حاسدين لكم ... مافيهم بدل منكم ولا خلف
آل المهلب جز الله دابرهم ... أمسوا رمادًا فلا أصل ولا طرف
ما نالت الأزد من دعوى مضلهم ... إلا المعاصم والأعناق تختطف[2]

ونلحظ في شعره، دليلاً على إدعاء ابن المهلب أنه القحطاني، وطموحه إلى الخلافة، انظر في الأبيات قوله: «ما فيهم بدل منكم ولا خلف» و«دعوى مضلهم». بل نجد في شعره أيضًا إطلاق صفة الكفر على الحركة إذ يقول:

لقد تركت فلا نعدمك إذ كفروا ... لابن المهلب عظمًا غير مجبور
يابن المهلب أن الناس قد علموا ... أن الخلافة للشم المغاوير[3]

ولنا في بيته الأخير حجة جديدة من لسان شاعر معاصر على نشود ابن المهلب الخلافة.

أما مسلمة بن عبد الملك فإنه بعد أن أسر من أصحاب ابن المهلب ثلاثمائة، بعث بهم إلى واليه على الكوفة محمد بن عمرو بن الوليد «ذي الشامة» وكتب إلى الخليفة

---

(١) الهادي الغزي: الشعر الأموي في خراسان، ص١٧٢.

(٢) المسعودي: مروج، ٢١١/٣.

(٣) عون الشريف قاسم: شعر البصرة في العصر الأموي، دراسة في السياسة والاجتماع، طبعة دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م، ص١٥٩ - المسعودي: نفس المصدر، ٢١١/٣.

يزيد بن عبد الملك فيهم، فجاء أمره إلى محمد بن عمرو بقتلهم، فأمر محمد صاحب شرطته العريان بن الهيثم بضرب أعناقهم، فقتل ثلاثين رجلاً من تميم طلبوا قتلهم قبل أصحابهم، يقولون نحن انهزمنا بالناس، وكأنهم قد ندموا، إذ ظنوا أن سيثابون على فعلتهم، فلما وجدوا غير ذلك، تقدموا للقتل فعرض العريان أمرهم على أميره فأمر بهم فقتلوا، وكان قد أمر أن يقتل الأسارى عشرين عشرين، وثلاثين ثلاثين. فما فرغ منهم العريان حتى جاء أمر مسلمة بالنهي عن قتلهم[1]. وقيل بل أسر مسلمة في معركة العقر ألفين وثمانمائة، فبعث بهم إلى ذي الشامة فقتلهم[2]. وأقبل مسلمة بعد إنتصاره في العقر على ابن المهلب حتى نزل الحيرة، وقد أتى معه بخمسين أسيراً غير من بعث بهم إلى الكوفة، أراد قتلهم، فاستوهبهم الناس منه، فوهبهم لهم[3].

ويقول أن أعثم: أسر يوم العقر نيف على أربعمائة رجل، فأوقفوا بين يديه، فعزل منهم ثلاثين رجلاً من رؤسائهم ليحملهم إلى يزيد بن عبدالملك، وضرب أعناق الباقين. وقال الثلاثون: نحن الذين انهزمنا بالناس حتى ظفرتم بيزيد أهذا جزاؤنا، فلم يلتفت مسلمة إلى قولهم[4].

ونحن نجد في هذه النصوص خلط واضطراب، فنص يقول بقتل ثلاثين من تميم طلبوا تقديمهم على أصحابهم لأنهم انهزموا بالناس، فيقتلهم العريان، وهنا نجدهم وقد عزلهم مسلمة ليرسلهم إلى يزيد، فيبدون له دورهم في هزيمة ابن المهلب لعله يثبتهم،

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٩٨/٦-٥٩٩ - ابن الأثير: الكامل، ١٧٤/٤ - ابن كثير: البداية، ط ١، ٢٤٧/٩ - ابن خلدون: العبر، ٧٩/٣ (أورد اسم أبي ذي الشامة محرفاً بسقوط الواو قال: محمد بن عمر، ثم قال: وبدأ بثمانين، وأظنه خطأ في النقل فالإجماع على الثلاثين. ثم ذكر أن أمر إعفائهم جاء من يزيد وهذا خلط منه).

(2) مجهول: العيون، ٧٤/٣، لكن العدد الذي أشار إليه يعتبر نشازاً بين إجماع المصادر، وإن كان ابن أعثم قال: إنهم نيف على أربعمائة. فهو قريب من الإجماع، كما أننا قد رأينا أمر مسلمة بالنهي عن قتلهم. (أنظر الفتوح، م ٢٥٤/٤).

(3) الطبري: نفس المصدر، ٥٩٩/٦ - ابن أعثم: نفس المصدر، م٢٥٥/٤ (وأورد: أنه أمر بمن معه من الأسارى إلى الشام) - ابن الأثير: نفس المصدر، ١٧٤/٤ (فقط ذكر نزوله الحيرة) - وكذلك ابن كثير: نفس المصدر، ط١، ٢٤٧/٩.

(4) نفس المصدر والجزء، ص٢٥٤.

فلا يلتفت إليهم. ونص يقول بأنه وهب خمسين من الأسرى لمن استوهبهم، والنص الأخير يقول أنه قتل بقية الأساري.

والظاهر أن من قتل أولاً كان من قبل أمير الكوفة بأمر الخليفة يزيد، ثم أوقف الأمر من قبل مسلمة حتى يرى رأيه فيهم، ثم أخرج ثلاثين من رؤسائهم، ويظهر أنهم غير الثلاثين الذين قتلوا وإن كان قد جمع بينهم تساوى العدد وتسببهم في هزيمة ابن المهلب، فليس الذين قتلوا أولاً كل من انهزم بالناس، فقد يكون قتل منهم ثلاثين أولاً، فكما ورد كان الأمر أن يقتلوا عشرين عشرين، وثلاثين ثلاثين. فلما قتل الثلاثون الأولون، أوقف القتال، وهكذا بقي لهم بقية هم من عزلهم مسلمة، ولم يلتفت إليهم عندما حدثوه. أما قتله بقية الأسرى فأظن ذلك غير صحيح، بل عفى عنهم كما وهب بعضهم، واكتفى بمن أرسله من زعمائهم إلى الخليفة يرى فيهم رأيه. ثم جئ برأس يزيد ورؤوس أخوته بين يدي مسلمة فقال: أترى هؤلاء القوم خرجوا علينا كانوا يظنون أن الخلافة فيهم، لئن ظنوا ذلك فلقد ظنوا إفكًا وزورًا، فأنشد جرير:

آل المهلب جز الله دابرهم ... أضحوا رفاتًا فلا أصل ولا طرف

إن الخلافة لم تخلق ليملكها ... عبد لأزدية في خلقها عنف[1]

ونجد القول هنا على لسان مسلمة، في ظن المهالبة صيرورة الخلافة إليهم، وقول جرير حول ذلك.

ثم أمر مسلمة بصلب يزيد بن المهلب، فصلب بجسر بابل على دقل[2] سفينة منكسًا وعلق معه خنزير إلى جنبه سمكة وزق[3] خمر وقد علقا على قلس[4] من قلوس السفينة، لذا يقول رجل من أهل الشام:

---

(1) ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٥.

(2) دقل: الدقل والدوقل: خشبة طويلة تشد في وسط السفينة يمد عليها الشراع، وتسميه البحرية الصاري، وقيل الدقل سهم السفينة. أنظر: اللسان (دقل).

(3) الزق: الذي يسوى سقاء أو وطبا أو حميتا. والزق السقاء، وجمع القلة أزقاق. وهو من الأهب، كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه، وقيل: هو الذي ينقل فيه الخمر. انظر: اللسان (زقق).

(4) قلس: القلس: حبل ضخم من ليف أو خوص. وقيل: حبل غليظ من حبال السفن. انظر: اللسان (قلس).

لقد عجبت من الأزدي جاء به | يقوده للمنايا حين معزور
حتى رآه عباد الله في دقل | منكس الرأس مقرونًا بخنزير[1]

ومع ذلك فإن مسلمة كان يعرف قدر ابن المهلب، فقد نال منه رجل عند مسلمة بقوله: ما استرحنا من حائك كنده حتى جاءنا هذا المزوني! فقال مسلمة: أتقول هذا لرجل سار إليه قريعا قريش - يعني نفسه والعباس - أن يزيد حاول عظيمًا ومات كريمًا[2].

وبعث برأس يزيد ومن قتل معه من أهل بيته مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، إلى الخليفة يزيد بن عبدالملك. فأمر الخليفة أن يطاف بروؤسهم في أجناد الشام[3]. ثم أتى به بعد ذلك، فنصب على باب توما بدمشق، ونصبت رؤوس أخوته عن يمينه وشماله.

وفي ذلك يقول سالم بن وابصة الأسدي:

ألم تر أن الله أنزل نصره | علينا وأعطانا به أعظم الأجر
غداة بغى أهل العراق فشايعوا | لواء يزيد بن المهلب ذي الغدر
فجئنا به لا يسمع الصوت في الثرى | ولا يشتكي شكوى أنين ولا فقر
تعرف أهل الشام بالشام رأسه | به بدت الأحداث من حادث الدهر

كما أمر الخليفة بضرب رقاب الأسرى الذين بعث بهم مسلمة فما أبقى على أحد[4].

ومع هذا فإن الخليفة كان يعرف لابن المهلب قدره، وهذا ما أتضح من قوله لأحد

---

(1) نافع العبود: آل المهلب، ص٩٠، (علق على الخبر بقوله: أن هذا الأسلوب من التشهير يراد به أنه نجس كالخنزير، مرتكب للمعاصي كشرب الخمر، كما أن تعليقه على سفينة ومعه سمكة. إشارة إلى أنه من أزد عماد الذين اشتهروا بركوب البحر) - ابن حبيب: المحبر رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، عناية وتصحيح ايلزه ليختن شتيتر، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٦١هـ، ص٤٨٢ - ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٥.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين، ط٥، ٢/٩٩.

(3) مجهول: العيون، ٣/٧٤ - ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢٤٧ - ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، ص١١٥.

(4) ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٥ - ٢٥٦.

جلسائه عندما نال منه حين جيء برأسه، إذ قال: مه أن يزيد طلب جسيمًا، وركب عظيمًا، ومات كريمًا[1].

وبعد أن أتينا على النصوص التاريخية المتعلقة بوقعة العقر بين جيش الخلافة بقيادة مسلمة بن عبدالملك ويزيد بن المهلب الخارج على الخلافة، والتي تمثل ذروة الفتنة ومرحلة الحسم في حركة استهدفت تقويض أركان البيت الأموي الحاكم، فإنه يتبين للممحص أسباب تلك الهزيمة السريعة والشنيعة التي منى بها ابن المهلب في العقر، بعدما توفر لحركته من عوامل النجاح ما كان من شأنه تحقيق أهدافها.

ولعل السبب الأول في نجاح جيش الخلافة، إدراك الدولة ممثلة في شخص الخليفة حجم الحركة وخطورة قائدها، حيث اتخذ موقفًا حازمًا وسريعًا لإخمادها[2]. فقد قام بعد خطواته الأولى[3]، بإرسال جيش قوي اختيرت له القيادة الفذة[4]، وهو مسلمة بن عبدالملك، الذي كانت قيادته المحنكة للجيش، ولجوؤه إلى الحيلة من عوامل النصر الأولى في المعركة خصوصًا أمره بإحراق الجسر وما أثمر عنه من إرباك لجيش ابن المهلب، وفرار جله من أرض المعركة. كما أننا نجد الجيش الأموي داخل المعركة كجيشين. فمسلمة له ميمنة وميسرة، والعباس له ميمنة وميسرة[5]. والظاهر أن وراء ذلك خطة كانت تهدف إلى الأطباق على جيش ابن المهلب من جهتين، وجعله بين كماشتي مسلمة والعباس. كما أن الطاعة التي عرف بها الجندي الشامي لقيادته مكنت مسلمة من تهيئة جيشه الكبير صفا واحدة وكلمة واحدة. بل أنه سعى إلى المزيد فاستمد الرجال من الكوفة، وعزل أميرها عبدالحميد عندما استقل من بعثهم إليه. بل لعله رمى إلى أبعد من ذلك وهو تأمين ظهره وإيجاد رجل موال له، وحصن يلجأ إليه، إذا ما

---

(1) ابن عبدربه: العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، ٣٣٥/٢ - اليافعي: مرآة، ٢٤١/١ - ابن خلكان: وفيات، ٣٠٧/٦.

(2) نافع العبود: آل المهلب، ص٩٣ - ٩٦.

(3) انظر قبل: ص٩٢ - ٩٣.

(4) انظر قبل: ص ١٢٠ - ١٢١.

(5) انظر قبل: ص١٣٦.

سارت المعركة على غير ما يريد، فعين على الكوفة محمد بن عمرو.

والعكس نجده عند الفريق الآخر، فإن القيادة المحنكة التي توفرت في يزيد بن المهلب، وجيشه الكبير، لم يكتب لها النجاح، لاختلاف الأهواء، وتفرق الكلمة، مما أضعف قوته وقلل من شأنه. فابن المهلب الذي أراد أن يسبق مسلمة بالحيلة، ويضيع عليه فرصة التمكن، عندما أراد تبييته بعد نزوله العقر، ومفاجئته بهجوم ليلي، خالفه أصحابه من القراء وأصحاب الفرق[1]. وبعد أن احتدم القتال سرعان ما فتر حماس أصحابه، ووجد ابن المهلب نفسه في قلة أمام جيش الشام، حينما انفض من حوله جنده، وبالأخص قبيلة ربيعة التي كانت تنزل حوله[2]. وذلك عندما أشعل الوضاح بأمر مسلمة النار في الجسر، فلاذ جل جند ابن المهلب بالفرار[3]. ومما سبب الهزيمة قلة الخبرة في جيش ابن المهلب، وعدم الصدق في القتال والولاء. وهذا ما أتضح في أقواله وأقوال الحسن البصري[4]. بينما هم أمام جيش دولة يضرب بين المشارق والمغارب، فتحًا ودفاعًا، اكتسب من جراء ذلك فنون الحرب، وحسن التدريب والخبرة.

وإننا نلمس بين ثنايا الأخبار خيانة حدثت من قبيلة تميم في معركة العقر، إذ انهزموا بالناس، يريدون المثوبة من الدولة، فما كان جزاؤهم إلا الأسر والقتل[5]. ويظهر لنا عامل آخر ذلك هو مرض القائد يزيد بن المهلب نفسه[6]، مما أعجزه عن مباشرة القتال في أول المعركة، وساعد على تيسر قتله للقحل بن عياش. كل هذه العوامل كانت وراء هزيمة ابن المهلب في العقر، ولعل مما عجل بالنهاية السريعة لحركته، رفضه الهزيمة وامتناعه عن ترك أرض المعركة، استقتالاً منه، مع علمه أن النصر قد أصبح في يد مسلمة، حيث فضل الموت بكرامة على عار الفرار والهزيمة

---

(1) انظر قبل: ص١٣٢.
(2) نافع العبود: آل المهلب، ص٩٤.
(3) انظر قبل: ص١٣٧ - ١٣٨.
(4) انظر قبل: ص١٣١.
(5) انظر قبل: ص١٤٢.
(6) انظر قبل: ص١٣٦.

وهذا ما عقد العزم عليه قبل المعركة، وأبانه في خطبه وأقواله[1]. وقد كان من الممكن أن يطول أمد الفتنة، في حالة التجائه إلى مكان آخر والتحصن فيه، حتى يأتيه المدد ويعد نفسه للحرب من جديد، إلا أن نفسه الأبية أبت الفرار والهزيمة، لتنفذ المشيئة الإلهية بانتهاء الفتنة، واجتماع الكلمة.

تتبع آل المهلب بعد العقر وتصفيتهم:

كان يزيد بن المهلب قد استخلف ابنه معاوية على واسط وترك عنده الأموال والأسرى الذين أخذهم في حربه مع عدي بن أرطأة في البصرة[2]، ونساء آل المهلب وزراريهم فيما يبدو[3]. فلما جاء الخبر إلى معاوية بهزيمة أبيه ومقتله في العقر أخرج أثنين وثلاثين[4] أسيرًا كانوا في يده على رأسهم عدي بن أرطأة وابنه وابنّا مسمع وغيرهم، فقتلهم، إلا ربيع بن زياد بن الربيع، فإنه عفا عنه، لأنه من أشراف قومه[5]. بل أنه أرد قتل نساء آل المهلب خشية أن يقعن في الأسر، فغلقن عليهن الأبواب[6]. واحتمل معاوية بن يزيد الخزائن وسار بمن معه إلى البصرة، وقد اجتمع

---

(1) عن خطبه وأقواله، انظر/ الطبري: تاريخ الأمم، ٥٩٢/٦ - ٥٩٦ - ابن أعثم: الفتوح، م٢٥١/٤.

(2) انظر قبل: ص١٢٨.

(3) مجهول: العيون، ٧٤/٣.

(4) أورد ابن أعثم عددهم "ثلاثة وثمانون". انظر: نفس المصدر والجزء، ص٢٥٤ - إلا أن ابن كثير قال: نحواً من ثلاثين، وابن خلدون قال: في ثلاثين. (انظر: البداية، ط١، ٢٤٧/٩ - العبر، ٧٩/٣). وهذا يسند العدد الذي أوردناه في المتن ويقويه.

(5) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٥٩٩ - ٦٠٠ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١١/٢ - ابن الأثير: الكامل، ١٧٤/٤ - ابن كثير: نفس المصدر والجزء والصفحة. والثلاثة الأخيرون لم يذكروا استثناء ربيع بن زياد - وكذلك ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٥-٣٢٦ - اليافعي: مرآة ٢٤٢/١ - الذهبي: دول الإسلام، ٥٣/٥٢/١ (أخبر أنه قتلهم بالبصرة، والصحيح بالإجماع، في واسط).

(6) مجهول: العيون، ٧٤/٣ (قد أورد أن من جاء بالخبر إلى معاوية هو: خالد بن يزيد بن المهلب. إلا أن في الخبر غرابة، حيث أن خالد بن يزيد، ذكر أن عبدالحميد بن عبدالرحمن، أمير الكوفة، قبض عليه، حين هروب أبيه من السجن، وأمر الخليفة لأميري الكوفة والبصرة باستقباله، =

إليه عمه المفضل ومن انهزم معه من العقر من إخوته وبني إخوته، وممن بقى معهم من الجند[1]. وكانوا يتخوفون العاقبة، فأعدوا السفن وتجهزوا، معدين أنفسهم للهرب[2]، فجاءهم النذير بأمر الخليفة فيهم، وهو أنه كتب إلى مسلمة بطلب آل المهلب وقتلهم أينما كانوا[3].

خروج المهالبة إلى قندابيل:

فركبوا سفنهم، ومعهم الأموال والنساء والذرية، محتملين الدواب والسلاح، قاصدين قندابيل، وكان يزيد ابن المهلب قد بعث وداع بن حميد الأزدي أميرًا من قبله، على أن يكون ملجأ لأهله إن هُزم، يتحصنون عنده حتى يأخذوا لأنفسهم الأمان، وأخذ عليه الإيمان بالنصح لهم[4].

فركبوا البحر حتى مروا بهرم بن القرار العبدي، وكان يزيد قد استعمله على البحرين، فأشار عليهم بعدم النزول من السفن لئلا يتخطفهم الناس يتقربون بهم إلى بني مروان، فمضوا حتى حاذوا جبال كرمان، فخرجوا من سفنهم واحتملوا أهلهم وأموالهم وعتادهم على الدواب. وقد أراد معاوية بن يزيد أن يتأمر عليهم، ألا أنهم اجتمعوا على

= والقبض على آله. فأرسله عبدالحميد إلى الخليفة يزيد في الشام. فسجن هناك حتى هلك. (انظر ذلك في/ الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٨٥ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٦٩.

ولعله أراد ابنا آخر ليزيد، نجا من معركة العقر، فذكر اسم خالد بدلاً منه خطأ.

(١) الطبري: المصدر والجزء، ص٦٠٠ – ابن أعثم: الفتوح، م(٤/٢٥٤ – مجهول: العيون، ٣/٧٤ (لم يذكر إحتماله الأموال، وإجتماعه بالمفضل) – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٧٥ – ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢٤٧ – ابن خلدون: العبر، ٣/٧٩).

(٢) الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء والصفحة.

(٣) ابن أعثم: نفس المصدر والمجلد، ص٢٥٦ – ٢٥٧.

(٤) الطبري: نفس المصدر، ٦/٦٠٠ – ابن الأثير: نفس المصدر، ٤/١٧٥ – ابن أعثم: نفس المصدر، م٤/٢٥٤ (لكنه لم يقل بالإتفاق الذي تم بين يزيد بن المهلب ووداع الأزدي، على إلجاء أهله عنده ونصرتهم).

المفضل[1]، فهو أكبرهم وسيدهم. واجتمعت إليهم بكرمان فلول كثيرة[2].

معركة عقبة:

وكان مسلمة قد بلغه خبر القوم، فوجه في طلبهم وفي أثر الفل، مدرك بن ضب الكلبي، فأدركهم بفارس، فتبعهم حتى لقيهم في عقبة[3]، فقاتلوه واشتدوا عليه، وقد قتل ممن مع المفضل النعمان بن إبراهيم بن الأشتر، ومحمد بن إسحق ابن محمد بن الأشعث، وغيرهم، وأسر وفر آخرون، ورجع أناس من أصحاب ابن المهلب وطلبوا الأمان، فؤمنوا، منهم مالك ابن إبراهيم بن الأشتر، والورد بن عبدالله بن حبيب المسعدي، وهو ممن شهد مع ابن الأشعث مواطنه وأيامه، وسار آل المهلب ومن معهم من الفل حتى وصلوا قندابيل[4].

---

(1) المفضل بن المهلب بن أبي صفرة، الأزدي، أبوغسان. وال من أبطال العرب ووجوههم في عصره، كانت إقامته في البصرة، ولاة الحجاج خراسان، وولاه سليمان جند فلسطين، شارك مع أخيه حربه بني أمية، سار بعد هزيمة أخيه في العقر بمن معه إلى واسط ثم البصرة ومنها إلى قندابيل، فأدركه ابن أحوز، فقتل على أبوابها سنة ١٠٢هـ. (الزركلي: الأعلام، ٢٨٠/٧).

(2) الطبري: تاريخ الأمم، ٦٠٠/٦-٦٠٢ - ابن الأثير: الكامل، ١٧٥/٤ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١١/٢ (قال: وركب أي معاوية إلى قندابيل) وهذا يعني أن تأمير المفضل كان بعد نزولهم كرمان، وقد كان الأمر قبل ذلك لمعاوية بن يزيد - ابن أعثم: نفس المصدر، م٢٥٦/٤ - ٢٥٧ (لم يذكر مرورهم على العبدي، وقال: وافوا أرض فارس. فخرجوا منها إلى كرمان، ومن كرمان إلى قندابيل). والظاهر أن كلامه صحيح، إذ أننا سنرى أن مدرك الكلبي سيلحق بهم في عقبة وهي من أرض فارس، ثم سيكون القضاء عليهم في قندابيل - ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٧/٩ (ولم يذكر مرورهم بالعبدي) - ابن خلدون: العبر، ٧٩/٣.

(3) عقبة: موضع بفارس. (ياقوت: معجم، ١٣٤/٤).

(4) عواد الأعظمي: مسلمة، ص٣٠٤ (نقلاً عنا لطبري: تاريخ الأمم، ١٥٨/٨ - ابن خلكان: وفيات، ٣٠٧/٦). لكنه قال بقتل المفضل وبعض خواصه في وقعة عقبة. وحيث أن الصحيح أنه قتل في قندابيل. رجعنا إلى مصدري الأعظمي فوجدناه اعتمد على ابن خلكان، الذي ذكر ذلك، وقد يكون خطأ منه في فهم النص، إذ برجوعنا إلى مصدره الثاني. الطبري: نفس المصدر، الطبعة الثالثة، ٨٧هـ / ٦٧م، ٦٠٠/٦ - ٦٠٢. وجدناه قد ذكر القتال في عقبة ثم لحاق المهالبة بقندابيل، وقتل المفضل في قندابيل، ١٧٥/٤ - ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٧/٩ (التبس عليه أمر القيادتين =

مقتلة المهالبة في قندابيل:

بعث مسلمة إلى مدرك بن ضب فرده، وسرح هلال[1] بن أحوز التميمي للحاق بهم[2]، فلحقهم بقندابيل. وكان آل المهلب قد أرادوا الدخول إلى قندابيل، إلا أن أميرها وداع بن حميد أغلق أبوابها في وجوههم، ومنعهم من دخولها. فكاتبه هلال بن أحوز، إلا أنه لم يظهر مباينته لآل المهلب، إلا حين اصطفوا للقتال، فقد كان وداع على ميمنة آل المهلب، وعبدالملك بن هلال على ميسرتهم وكلاهما أزدي، فلما وقفوا للقتال رفع ابن أحوز راية الأمان، فمال إليه وداع وعبدالملك وانفض الناس من حول آل المهلب[3]. فما رأوا ذلك أراد مروان ابن المهلب قتل نسائهم لئلا يصلوا إليهن، فمنعه المفضل، وقاتلوا القوم، قتال من يئس، فقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، حتى قتلوا عن آخرهم إلا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل[4]، فإنهما نجوا ولحقا بخاقان ورتبيل، بعد أن لاذا بالهرب[5]. وكان ممن قتل بقندابيل مدرك بن

= فقال: وجه مسلمة هلال بن أحوز فأمروا عليهم مدرك بن ضب. كما أنه أشار إلى قتالهم آل المهلب في جبال كرمان، ولم يشر إلى معركتي عقبة وقندابيل).

(1) هلال بن أحوز بن أربد المازني المالكي التميمي، قائد من الشجعان القساة. عرفه ابن حزم: بقاتل آل المهلب في قندابيل، توفي سنة ١٠٢هـ. الزركلي: الأعلام، ٨/٩٠.

(2) أورد البلاذري والمسعودي أن من سرح هلال بن أحوز هو الخليفة يزيد، ولعل في ذلك تفسيراً لبعث قيادتين لقتال المهالبة من قبل مسلمة كما أشارت إلى ذلك بعض المصادر. إذ يبدو أن مسلمة بعث في أثر آل المهلب مدرك بن ضب الكلبي، وكان الخليفة قد وجه من قبل هلال ابن أحوز. فلما فشل مدرك الكلبي من القضاء عليهم في وقعة عقبة أمر مسلمة برده، ووجه إليهم القائد الذي بعثه الخليفة وهو هلال بن أحوز. انظر: فتوح البلدان، ص٤٢٩ – مروج، ٣/٢١١ – ٢١٢.

(3) يظهر من النص أن وداع أعتل بعذر ما لآل المهلب في عدم إدخالهم قندابيل، وتظاهر بنصرهم، حتى صفوا لقتال هلال، فمال إليه.

(4) أضاف ابن الأثير وابن خلدون إلى الناجين «عمر بن يزيد ابن المهلب». انظر: الكامل، ٤/١٧٥ – العبر، ٣/٧٩.

(5) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦٠٢ – اليعقوبي: تاريخ، ٢/٣١١ – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٦ – ٢٥٧ (أورد عدد الجند الشامي المطارد «عشرة =

المهلب[1] والمفضل وعبدالملك وزياد ومروان ومعاوية بني المهلب، كما قتل معاوية بن يزيد وآخرين[2].

وبعد نصر هلال بن أحوز على بني المهلب في قندابيل وقضائه عليهم، بعث بالأثقال والأموال والنساء والذرية، ورؤوس من قُتِل، إلى مسلمة بن عبدالملك[3]، بالحيرة[4].

وكان هلال بن أحوز قد قتل أناسًا من آل المهلب، فقد ذكر أن الخليفة أمره أن يقتل من بلغ الحلم منهم، فضرب عنق غلامين أدركا[5]. إلا أنه عامل النساء معاملة حسنة، فلم يفتشهن ولم يعرض لهن، وكان عدد من أُسر منهن في قندابيل خمسين امرأة، وتسعة من الفتية الأحداث[6].

موقف مسلمة والخليفة من أسرى قندابيل:

أما الرؤوس فقد بعثها مسلمة إلى يزيد بن عبدالملك، والأخير بعثها إلى العباس في حلب، حيث نصب رؤوسهم هناك[7]، وحلف مسلمة أن يبيع نساءهم وذراريهم، فقام

= آلاف». إلا أنه لم يميز بين الجيشين الذين بعثا لآل المهلب، كما لم يشر إلى وقعة عقبة وأورد قتلاها ضمن من قتل في قندابيل مما يدل على جهله بها) – ابن خلدون: العبر، ٧٩/٣.

(لكنه قال: بأن آل المهلب بعد افتراق الناس عنهم، استأمنوا، فؤمنوا، ثم قتلوا جميعًا، وهذا خبر شاذ لم أجده عند غيره من المؤرخين الذين اطلعت على مؤلفاتهم، مما يدعونا إلى إبطال الخبر).

(١) هذا خطأ، فمدرك بن المهلب قتل في معركة العقر: انظر ذلك قبل: ص١٩٦ – ١٩٧.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٢٩ – الزركلي: الأعلام، ٩٠/٨.

(٣) عند ابن خياط والمؤرخ المجهول، ثم بعثها إلى الخليفة يزيد. (انظر: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٦ – العيون، ٧٤/٣. والأظهر إلى مسلمة ومنه إلى يزيد. وقد يكونا قد عنيا بالنهاية إيجازًا.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم، ٦٠٢/٦ – ابن أعثم: الفتوح، م٢٥٧/٤ – ابن الأثير: الكامل، ١٧٥،٤، ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٧/٩.

(٥) ابن خياط: نفس المصدر والصفحة، ص٣٢٦ – المسعودي، مروج، ٢١١/٣ – ٢١٢ – مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة – الذهبي: تاريخ الإسلام، ٨٦/٤.

(٦) عواد الأعظمي: مسلمة، ص٢٠٥ – ٢٠٦ – ابن خياط، نفس المصدرة والصفحة – الذهبي: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم، ٦٠٢/٦ – ابن الأثير: الكامل، ٤م١٧٥ – ابن خلكان: وفيات، ٣٠٧/٦ (خالف غيره بقوله أنه بعثها إلى يزيد وكان على حلب، والصحيح ما قدمناه بمسند الأخبار التي =

الجراح الحكمي واشتراهم بمائة ألف درهم، ليبر يمين مسلمة، ولـيطلقهم فباعـه، ثـم استحى مسلمة أن يبيع قومًا أحرارًا، فطلب من الجراح أن يقيله من بيعته، فأقاله، فخلى سبيلهم مسلمة، وألحقهم بقومهم بالبصرة[1]، وقيل لم يطلب الإقالة من الجراح، لكنه لم يأخذ منه شيئًا، وخلى سبيلهم إلا تسعة فتية منهم أحداث. بعث بهم إلى الخليفة[2].

أما الخليفة يزيد بن عبدالملك فقد ظهر أن إصرار ابن المهلب على استمرار الفتنة، وعدم قبوله الأمان ودعوة السلام، فقد دعاه إلى القسوة على آل المهلـب خاصـة بعـد انتصار جيشه في العقر، فقد أمر بقتل أسرى العقر، وأمر مسلمة بتتبع من أنهزم من آل المهلب ومن معهم، وتصفيتهم. لذا فإن أسرى قندابيل لما قدموا عليه من عند مسـلمة، أمر بقتلهم، ولم تفلح قصيدة كثير عزة المتوسلة في العفو عنهم فقتلوا وكـانوا ثلاثـة عشر من ولد يزيد والمفضل وقبيصة بني المهلب[3]. وقيل بل كانوا نحواً مـن ثمـانين، دفعهم يزيد إلى من كان له قبل آل المهلب دم، فقتلوا جميعًا[4]. وذكر اليعقوبي[5] منفرداً

= سترد على موقف يزيد من الأسرى، وقتلهم في دمشق. إذ يتضح أن العباس ترك العراق بعد انتصارهم على ابن المهلب في العقر، واستقر في حلب، بينما بقى مسلمة في الحيرة أميرًا على العراق من قبل الخليفة، وتولى أمر تتبع آل المهلب، و القضاء عليهم) – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٧/٩ (قال: نصبت الروس في دمشق، ثم أرسلها الخليفة يزيد إلى حلب فنصبت هناك) وهذا يعزز ما ذهبنا إليه قبل.

[1] ابن أعثم: الفتوح، م٢٥٧/٤.

[2] الطبري: نفس المصدر و الجزء، ص٦٠٢ – ٦٠٣ – ابن الأثير نفس المصدر والجزء والصفحة (إلا أنه قال: أن عدد الفتية ثلاثة عشر) – أن بكثير: نفس المصدر والطبعة والجزء والصفحة (أورد أن مسلمة بعث الفتية مع الروؤس وكوننا عرفنا عن طريقه أنها نصبت في دمشق ثم حلب، فهذا يدل على أن يزيد كان في دمشق لا حلب) – أن خلدون العبر، ٧٩/٣.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر، ١٧٥/٤ – ١٧٦ (وقد أورد أسماء أحد عشر شخصاً بينما ذكر أنه قتل ثلاثة عشر) – اليعقوبي تاريخ اليعقوبي، ٣١١/٢ (ذكر أن عثمان بن المفضل ممن قتلهم يزيد من أسرى قندابيل في دمشق. وهذا خطأ إذ أنه كان قد نجا من معركة قندابيل في دمشق. وهذا خطأ، إذ أنه كان قد نجا من معركة قندابيل، والتجأ برتبيل حتى استأمن، فؤمن) انظر قبل: ص٢١٢ – ابن خلدون: نفس المصدر، ٧٩/٣ (ولم يذكر موقف كثير).

[4] ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٧ – الذهبي: تاريخ الإسلام، ٨٦/٤.

[5] نفس المصدر والمجلد، ص٣١٢.

أن النساء حملن إلى الخليفة فحبسهن في دمشق، والأرجح ما قدمناه، من تخلية سبيلهن من قبل مسلمة وعودتهن إلى البصرة بين قومهن، أما أبو عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل وعمر بن يزيد بن المهلب، الذين نجوا من معركة قندابيل، فإن هند بنت المهلب، قد استأمنت لأبي عيينة من الخليفة، فأمنه وظل عثمان وعمر حتى ولي أسد بن عبدالله القصري خراسان[١]، فكُتِبَ إليه بأمانهما، فأمنهما، وقدما خراسان[٢].

وقد ذكر اليعقوبي أن ابن هبيرة في طريقه إلى العراق عندما وليها من قبل الخليفة يزيد بن عبدالملك، لقي جماعة من آل المهلب في الحديد، قد وجه بهم مسلمة، فردهم وكتب إلى يزيد في العفو عنهم، فأنبه يزيد، فعاود الكتابة إليه بأن ذلك مصانعة لقومهم وتألفا لعشائرهم، فوافقه الخليفة[٣]. إلا أن هذا الخبر فيه غرابة، إذ أن إمارة ابن هبيرة على العراق جاءت بعد وقت طويل من مواقع مسلمة مع من المهالبة، فلا يصح أن يكونوا من أسرى العقر وقندابيل، فخبر هؤلاء تقدم. فإن صح الخبر، فإنه يعني أن مسلمة قام بعملية تصفية لأفراد الأسرة المهلبية وإن لم يكونوا ممن شاركوا يزيد في حركته. إلا أن هذا الخبر مشكوك فيه، فابن هبيرة كان قد لقي في طريقه مسلمة نفسه وهو متوجه إلى الخليفة في الشام[٤].

مصادرة أموال المهالبة:

ويبدو أن يزيد بن عبدالملك قد أدرك أثر الثراء المالي في المكانة التي وصلها أعداؤه المهالبة، وأنه في العوامل التي مكنتهم من جمع الناس حولهم، ووقوفهم في وجه الدولة. فسعى بعد إحراق منازلهم في البصرة عقب خروجهم إلى قندابيل[٥]. في محاولة منه لاجتذاذ جذورهم منها وهي موطنهم الرئيسي بين قومهم أزد عمان، ومبالغة منه في التنكيل بهم، سعى إلى سلبهم عنصر القوة لديهم وهو المال فعمد إلى

---

(١) كانت ولايته عليها (سنة ١٠٦هـ). انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٣٧/٧ - ابن الأثير: الكامل، ١٩٥/٤.

(٢) ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٧٥ - ١٧٦ - ابن خلدون: العبر، ٧٩/٣.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ٣١٢/٢ (وفي ذلك إشارة إلى رغبة الخليفة في تأليف العشائر اليمانية).

(٤) الطبري: نفس المصدر، ٦١٥/٦ - ٦١٦.

(٥) مجهول: العيون، ٧٤/٣.

مصادرة أموالهم وأملاكهم، إذ أصاب لهم أربعة آلاف جاموسة نقلها مع جماعة من الزط إلى المصيصة[1]، وصادر إقطاعات يزيد ابن المهلب التي منحه إياها الخليفة سليمان بن عبدالملك في البطيحة، وإقطاعات خيرة بنت ضمرة القشيرية (زوج المهلب) التي أقطعها إياها الحجاج[2]. فقد كان لابن المهلب إقطاعات في بطائح العراق[3]. إذ أقطعه سليمان ما اعتمل من البطيحة، فاعتمل الشرقي، والجبان، والخست، والريحيه، ومغيرتان، وغيرها، فصارت حوزا[4][5]. فيما يبدو أن هذه المصادرة تمت على يد ابن هبيرة أمير العراق من قبل يزيد بن عبدالملك، الذي كتب إليه: أن يستولي على أموال يزيد بن المهلب، وإخوته وولده[6]. وهذا العمل ليس بدعا من الخليفة يزيد، بل سبقه إليه غيره من الخلفاء والأمراء، فقد عرف نظام المصادرة في تاريخ صدر الإسلام قبله[7].

---

(1) المصيصة: مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام، بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. والمصيصة أيضًا قرية من قرى دمشق قرب بيت لهيا. (ياقوت: معجم، ٥/١٤٤ - ١٤٥).

(2) نافع العبود: آل المهلب، ص ٩٢ - البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٦٢ (قال: أقطعها الحجاج عباسان).

(3) البطيحة: أرض واسعة بين واسط والبصرة، وكانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة، ففاض دجلة والفرات، فتبطح الماء فيها، وطرد أهلها، فلما نقص أصبح صالحة للعمارة. (ياقوت: نفس المصدر، ١/٤٥٠).

(4) الحوز: من الأرض أن يتخذها الرجل ويبين حدودها فيستحقها، ولا يكون لأحد فيها حق معه. والحوز: الجمع وكل من ضم شيئًا إلى نفسه من مال وغيره. انظر: اللسان (حوز). والحوز: قرية من شرقي مدينة واسط قبالتها متصلة بالخرامين. (ياقوت: نفس المصدر، ٢/٣١٨).

(5) فرج الأهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٢٥٩ - عواد الأعظمي - مسلمة، ص٤٣ - البلاذري: نفس المصدر، ص٣٦٢.

(6) فرج الهوني: نفس المرجع و الصفحة.

(7) لقد شرعت في إعداد بحث عن المقاسمة والتغريم والمصادرة منذ قيام الدولة الإسلامية حتى نهاية العصر الأموي. وانظر بعض ذلك عند / الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦٤ - ابن الأثير: الكامل، ٤/٩٩، ١٦٠ - يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مراجعة محمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة -

أسباب فشل الحركة:

شاء الله لحركة ابن المهلب التي عاشت ما يقارب الخمسة أشهر، أن تنتهي بالفشل. والأسباب التي ساعدت على النصر الأموي في العقر على ابن المهلب[1]، يبرز في مقدمتها كون هذه الحركة لم تقم على مبادئ سامية[2]، ولا فكرة أو مذهب، بل جمع أنصارها، دوافع شخصية وقبلية، وثارات قديمة[3]. وعداء إقليمي تخالطه نزعة استقلالية[4]، وكره للبيت الأموي الحاكم كما افتقدت هذه الحركة مقومات التنظيم[5]، حيث لم يتوفر لصاحبها الوقت الكافي للإعداد الجيد، وقد كان نفسه يقول: «لا خراج حتى أحج وأحفظ القرآن، وتموت أمي»[6]. يضاف إلى ذلك ثبات القبائل اليمانية الشامية على ولائها لبني أمية، وعدم إنحيازها إلى ابن المهلب بدافع العصبية، وآصرة النسب[7].

كم أن غياب جزء كبير من قبيلته الأزد في خراسان، وهؤلاء لم يتمكنوا من الانضمام للحركة، ونصرة صاحبها، إيثارًا للعافية، وخشية من فشل الحركة، ولوقوف تميم في وجههم، وهي التي أخذت موقفًا مشابهًا في البصرة. ذلك عندما اجتمعت مع قيس على قتال ابن المهلب، إذ كانوا يرون أن نجاح الحركة يعني انتقال الخلافة وهي

= ١٣٨٨هـ/١٩٦٨، ٩٧/١ - نافع العبود: آل المهلب. ص٦٦ - ٦٩ - محمد أمين صالح: العرب والإسلام، ص٢٦٦ وغيرها.

(١) أنظر قبل: ص١٤٥ - ١٤٧.

(٢) عن أسباب فشل ثورة ابن المهلب، انظر: نافع العبود: آل المهلب، ص٩٤.

(٣) إذ شارك فيها بعض سلائل مالك الأشتر وابن الأشعث وغيرهم انظر قبل: ص٨٥ - وفتحي عثمان: الحدود، ص١٠٩ - ١١٠.

(٤) ثابت الراوي: العراق، ص٢١٨.

(٥) إبراهيم بيضون: ملامح التيارات السياسية، ص٣٣٢ - ٣٣٣. إلا أننا لا نوافقه بأنها حركة اضطرارية، خصوصا بعدما علمنا أن الخليفة أعطاه الأمان بعد هربه إلى البصرة، وفي العقر من مسلمة مرة أخرى. انظر قبل: ص١٤٤، ١٨٩.

نافع العبود: آل المهلب، ص٩٥.

(٦) نافع العبود: نفس المرجع، ص٩٣.

(٧) نافع العبود: نفس المرجع، ص٩٥.

عنوان سلطان مضر، إلى اليمانية وحلفائها من ربيعة، وكان خروجه من البصرة وواسط إلى الكوفة خطأ عسكريًا، إذ كان أهل الشام قد سبقوه إليها، مما اضطره إلى أن يعسكر في العقر بدون تحصينات[1].

كما أن حسد الحاسدين من قومه وحرصهم على المراكز التي تبوؤها، قد أضعف موقفه، وهذا ما تمثل في موقف أمير خراسان عبدالرحمن بن نعيم، الذي أغرى تميم بالوقوف في وجه مدرك بن المهلب عندما بعثه يزيد إلى خراسان[2].

أن هذه الأسباب مجتمعة، كانت وراء فشل الحركة المهلبية، وعجلت بنهايتها.

تفاعل فئات المجتمع مع الحركة ومواقفها منها:

إستجاب معظم العراقيون والمناطق المجاورة، لحركة يزيد بن المهلب، بدافع من التنافس الإقليمي الذي يهيجه نزعة إستقلالية وكره للبيت الأموي الحاكم[3] وحسد لأهل الشام على ما جنوه من مكتسبات الحكم تمكناً وثروة بحكم ولائهم للحكم الأموي وقيامه بينهم. حتى أن البصرة التي غلبت عليها الصفة التجارية، وقاومت كل حركة رمت إلى عرقلة نشاطها الاقتصادي[4]، غدت مسرحاً لحركة ابن المهلب، واعتمد ابن المهلب في

---

(1) نافع العبود: آل المهلب، ص٩٤ - ٩٦ (إلا أننا لا نوافقه على أن معسكره في العقر كان إضطرارياً، فقد خرج من واسط، بعد أن أختار العقر ميداناً للمعركة، وقد كان تقدمه إلى العقر، ليقترب من الكوفة، آملاً في انضمام أهله إليه. و إن كان قد حاول ضمها إليه بعد نزوله العقر، عن طريق حملات بعثها من هناك، لكن محاولاته باءت بالفشل). انظر ذلك قبل: ص١٧٨، ١٨١.

(2) ناجي حسن: القبائل، ص١٥٨.

(3) ظل شعور العداء لبني أمية عند العراقيين يتنامى منذ زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، حتى شمل ولاتهم وأهل الشام، و هو شعور لم يقتصر على فئة بعينها من أهل العراق بل الكل منهم حتى العلماء والزهاد. فقد قيل للحسن البصري وهو يخذل الناس عن ابن المهلب: (لكأنك والله يا أبا سعيد راض عن أهل الشام؟ قال: أنا راض عنهم قبحهم الله...). لذا عبروا عن هذه الروح بمحاولة التخلص من الحكم الأموي في كل مناسبة. انظر هذا الرأي/ ثابت الراوي: العراق ص١٦٠ - ١٦١.

(4) ثابت الراوي: العراق، ص١٣٧. لكنه أشار إلى أن ثورة ابن المهلب، كانت الثورة الوحيدة التي اشترك فيها أهل البصرة. وهذا قول غير دقيق، فقد شاركت بإيجابية في ثورة ابن الأشعث، وبايعه جميع أهلها من قرائها وكهولها. انظر ذلك في: الطبري: تاريخ الأمم، ٣٤١/٦ وما بعدها.

حركته على أهلها، أما الأقاليم المجاورة للعراق، فانضمت إليها بحكم ارتباطها بـالعراق إدارياً أو قبلياً أو بدافع الجوار والمصلحة. كما كادت الحركة أن تكسب أقـاليم كبيـرة كخراسان، التي أبدى أهلها من الأزد وحلفاؤها، تعاطفهم مع ابن المهلب، لـولا وقـوف مضر في وجهها.

ومن العلامات المميزة لهذه الحركة تأييد بعض الفرق لها، والإنضمام إليها. وعلى رأسها فرقة الخوارج، وقد تمثل ذلك في إنضمام السميدع الخارجي وأصحابه إلـى ابـن المهلب[1]، بل أننا نجد عوض خليفات يقدم أخباراً تفيد بمشـاركة بعـض أفـراد فرقـة الأباضية[2] الخارجية، في حركة ابن المهلب، فيقول: أن جابر بـن زيـد الأزدي إمـام الأباضية، بحكم انتمائه إلى قبيلة الأزد، استطاع إدخال عدد كبير من قبيلتـه الأزد فـي فرقته، وكان على رأس هؤلاء بعض أفراد الأسرة المهلبية، الذين أصبح بعضـهم مـن دعاة الفرقة وحماتها البارزين[3]، كعاتكة بنت المهلب[4]، وعبدالملك بن المهلـب الـذي كان على إتصال دائم مع جابر من خراسان، فقد أشارت المصادر إلى مراسلات متبادلـة بين الرجلين حول أمر الدعوة[5]. وقد ساعده على إنخراط الأزد في الحركـة الأباضـية، كراهية الأزد للحجاج بسبب سوء المعاملة التي وجدوها من عامله مجاعة المزني فـي أعقاب قضائه على حركة أزد عمان بقيادة ابني الجلندي، وموقفه من يزيد بن المهلـب

---

(1) انظر ذلك قبل: ص ١٠١.

(2) الأباضية: أحد فرق الخوارج، وهم أصحاب عبدالله بن أباض، الذي خرج في أيام مروان بن محمد. ولهم آراء ومعتقدات منها، أن من مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومناكحتهم جائزة، وموارثتهم حلال، وغنيمة السلاح والكراع عند الحرب حلال، وحرام قتلهم وسلبهم غيلة، إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجة، وأجمعوا أن مرتكب الكبيرة كفر كفر النعمة لا كفر الملة، وغيرها. وهم جماعة متفرقون في مذاهبهم. (الشهرستاني: الملل والنحل، ص١٣٤ - ١٣٥).

(3) نشأة الحركة الأباضية، طبعة عمان، ١٩٧٨م، ص٩٧ - ٩٨ (وقد أشار في هامش ٣٤، ص١١١، إلى عدم تطرق المصادر غير الأباضية للعلاقة بين المهالبة والأزد وبين الحركة الأباضية، معللاً بذلك بجهل هذه المصادر بطبيعة العلاقة بين الطرفين، وبالحركة الأباضية في تلك الفترة السرية من مراحل تطورها).

(4) عوض خليفات: نفس المرجع، ص١٠١ - ١٠٤.

(5) عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص٩٨.

وإخوته، وما لحقهم على يديه من سجن وتعذيب وهوان[1]. ومع أن الأباضية عاشت في سلام إبان عهد سليمان في ظل حماية آل المهلب الذين كانوا على علاقة وثيقة بالخليفة[2]، إلا أن التطورات السياسية بعده، وما أسفرت عنه من قيام ابن المهلب بحركته، وللارتباط بين الأسرة المهلبية وفرقة الأباضية لانتماء بعض أفرادها إليها، وكون جزء من أتباع الأباضية من الأزد، قبيلة يزيد بن المهلب، فإن من المؤكد اشتراك أفرادها في الحركة، بل أن عدداً ممن لقى مصرعه على يدى الأمويين من أتباع ابن المهلب، كانوا من الأباضية ومن بينهم عبدالملك ابن المهلب[3]. كما أدت المعاملة السيئة لبني المهلب قادة الأزد وزعمائهم وتصفيتهم إلى سخط الأزد على الحكم الأموي، ونقمة الأباضية عليه، مما جعل بعض مشايخهم يدعون إلى الانتقام وإعلان الحركة، ومن بين هؤلاء: الشيخ الأباضي أبونوح صالح الدهان، لكن الإمام أبا عبيدة كان يرى أن الوقت لم يحن لإعلان الحركة المسلحة، واستطاع مقاومة آراء أتباعه المنادين بالعصيان. وبقى الأباضية طيلة حكم الخليفة يزيد بن عبدالملك محافظين على سرية حركتهم[4]. وهذا يعني أن اشتراك الأباضية في الحركة كان سرياً. لأن الحركة في ذلك الوقت كانت تعيش مرحلتها السرية. كما أن انضمامهم إليها لكون بعض أفرادها من المهالبة، واستجابة لنزعة الكراهة والنسب.

والجدير بالذكر أيضا انضمام فرقة المرجئة إلى حركة ابن المهلب[5]، بعد ما كان الأمويون يتخذونهم سلاحاً ضد أعدائهم[6] فقد ناهضوا بهم الخوارج، حيث كانوا يرجئون الأمويين إلى يوم القيامة، ويرون شرعية حكومتهم، إذ أنهم يرون أن الإيمان هو المعرفة بالله ورسله وأداء الفرائض والكف عن الكبائر. فمن آمن بالله ورسله وترك

---

(1) عوض خليفات: نفس المرجع، ص١٠١.

(2) عوض خليفات: نفس المرجع، ص١٠٤.

(3) قتل عبدالملك بن المهلب على أبواب قندابيل عندما أدركهم هلال بن أحوز. (انظر قبل: ص١٥١).

(4) عوض خليفات: نفس المرجع، ص١١١.

(5) انظر ذلك قبل: ص١٠١.

(6) علي حسن الخربوطلي: الدولة العربية الإسلامية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م، ص٢٨٨.

الفرائض، وارتكب شيئاً من الكبائر، كان مؤمناً عند المرجئة، كافراً في نظر الخوارج[١].

لقد ترك المرجئة تأييدهم لبني أمية، وخرجوا مع ابن المهلب[٢] لقتال الأمويين وأهل الشام، ويبدوا أن جناحاً منهم غير موقفه. إذ لم يعد يحتمل كل ما جرى على يد الأمويين، ولعل عدم رضاهم عن يزيد بن عبدالملك دفعهم إلى مناصرة الداعي إلى الكتاب والسنة، بل لعل موقفهم حتى تلك الفترة، الذي كان موضع إتهام بالنسبة للمواقف الإيجابية للفرق الإسلامية الأخرى، قد جعلهم يجدون في الحركة فرصة سانحة للدفاع عن مبادئهم، فعمدوا إلى القوة لتقويض ملك بني أمية[٣].

كما دعم الفرس حركة يزيد بن المهلب[٤]. وإن كنا نرى ذلك أمراً طبيعيًا، خصوصًا أنه استطاع ضم فارس وكرمان وغيرها إلى حوزته[٥]، مع وجود كثير من الموالي بين العرب والعراق، اعتادوا الخروج إلى الحرب معهم.

إلا أننا لا نجد ذكرًا في المصادر لاشتراك أهل الذمة في هذه الحركة، أو الحركات التي قامت في العراق بشكل عام[٦]. بل أننا نجد المردة قد ساهموا في إخضاع هذه الفترة زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك[٧]. كما كانت فرقة الوضاحية جزءاً من الجيش

---

(١) علي الخربوطلي: نفس المرجع، ص٢٦٥.

(٢) سبق أن خرجت المرجئة على بني أمية قبل ابن المهلب، بخروجها مع ابن الأشعث. (انظر/ علي الخربوطلي: نفس المرجع، ص٢٨٨).

(٣) نافع العبود: آل المهلب، ص٨٨.

(٤) توفيق سلطان اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة، ص٣١٠ (نقلاً عن المسعودي: مروج، ٣/١٣٤. إلا أننا بالعودة إليه، طبعة دار الفكر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ٣/٢١٠ – ٢١٢ لم نجده قد نص على ما نقله اليوزبكي، لذا عللنا قوله في المتن، ونبهنا على ما نقل).

(٥) انظر قبل: ص١٥٩.

(٦) ثابت الراوي: العراق، ص١٣١ – ١٣٢.

(٧) فيليب حتى: تاريخ سورية، ١/٥٤، إذ أشار إلى انضمام جزء منهم إلى الجيش السوري، بعد أن تمكن مسلمة بن عبدالملك في عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك من القضاء على خطر المردة نهائيا، بتدمير عاصمتهم الجرجومة، فهلك بعضهم، وهاجر البعض إلى أناطوليا، بينما انضم من بقي إلى جش الإسلام.

الشامي الذي حقق النصر الأموي على ابن المهلب في العقر[1].

نتائج وآثار حركة ابن المهلب:

توفر لحركة ابن المهلب من أسباب القوة ما أكسبها هيّبة وخطرًا، إلا أنها قامت على أسس لم تكن معها مؤهلة للنجاح، ومع ذلك فقد كان لها خطير النتائج، فلئن كان المهالبة قبل الحركة على خصام مع الحجاج ومن ناصره، فهم بعدها ومن تبعهم من أزد عمان على حرب مع بني أمية عامة، وكان لابد لليمانية أن تقف إلى جانبهم. وهكذا فإن بني أمية خلفوا ضدهم منذ حركة ابن المهلب عدواً يتربص بهم[2]. إلا أنه ليس من الدقة إطلاق هذا القول بلا حدود، وتعميمه على القبائل اليمنية. كما أنه ليس من الصحة بمكان القول أن حرب الأمويين للمهالبة بمثابة حرب على قبتل اليمن.

وقد حاول فتحي عثمان تصحيح هذا القول، وتحديده، بقوله[3]: إلا أننا نستطيع أن نقصر ذلك على العراق، إذ انقلبت الحكومة الأموية فيه إلى حزب يحكم باسم قيس، أما في الشام فإن يزيد بن عبدالملك لم يُحابِ قيساً على قضاعة، التي كانت نواة الجيش الذي انتصر في العقر، فقد كان الذي قتل ابن المهلب رجلاً من كلب، كما كان الكلبيون هم الذين تعقبوا المهالبة الهاربين واستأصلوا شافتهم. وفي قوله شيء من الصحة، والأصح أن الحكومة لم تنقلب إلى حزب يحكم باسم قيس في العراق، ولكنها اعتمدت على القيسية بشكل أكبر.

وهكذا فقدت القبائل اليمنية سيطرتها على العراق، باستئصال وتنحية من يمت إلى المهالبة بصلة القربى أو الولاء من إدارة الدولة، بل تعداهم إلى بني تميم، الذين كانوا يتوقعون الاعتراف لهم بالجميل أثر إنهزامهم وتيسير النصر لأهل الشام[4]. لكن خيانتهم لابن المهلب لم تشفع لهم عند بني أمية، بعد انضمام الكثير منهم إلى الحركة أول الأمر.

ولقد أورثت مقتلة بني المهلب على يد بني أمية وما ترتب عليه بالنسبة لليمنية

---

(1) انظر دور الوضاحية قبل: ص١٩٤.

(2) يوسف العش: الدولة الأموية، ص ٢٨١.

(3) الحدود، ص١٠٩ – ١١٠.

(4) ناجي حسن: القبائل، ص١٥٩.

عصبية ابن المهلب وقومه من الآثار، وخصوصاً إبعادهم عن إدارة المشرق في زمن يزيد، وما لقيوه من عمال يزيد، أورثت حقداً وضغينة في نفوس بعض اليمنيين لم تمحه الأيام، حتى وجدوا الفرصة المناسبة لتفجيره، والانتقام من أعدائهم بني أمية، بمساندة خصومهم من آل البيت وتقويض سلطان البيت المرواني. فقد كان التمرد الذي قام به الكرماني[1] على نصر بن سيار أمير خراسان لغاية في نفسه عبر عنها بقوله: «كانت غايتي في طاعة بني مروان أن يقلد ولدي السيوف فأطلب بثأر بني المهلب»[2].

وكان آل البيت حريين بأن يستفيدوا من هذا العدو، فاستغل أبو مسلم الخراساني ذلك النزاع[3] ومال إلى ابن الكرماني حين أرسل إليه يستنصره على نصر بن سيار[4]. لذا نجد يوسف العش[5] يقول: «فعلينا أن نؤرخ بداية الدعوة العباسية من هذه الحركة - يعني حركة ابن المهلب - التي أمدت أهل البيت بعصبية يمانية كبيرة ضد البيت الأموي، وإن كنا لا نوافقه في هذه المبالغة، فالدعوة العباسية قامت على تنظيم تميز بالدقة والسرية وأمد طويل لغرس الفكرة وتهيئة البيئة لإقامة الدولة، صحيحٌ أنه بالإمكان أن نؤرخ للدعوة بالثورة لأن ابتداء الدعوة كان في نفس الفترة تقريباً نهاية

---

(1) الكرماني: هو جديع بن علي الأزدي المعني، شيخ خراسان وفارسها في عصره، وأحد الدهاة الرؤساء. ولد بكرمان، واليها نسبته، أقام في خراسان إلى أن وليها نصر بن سيار، فخاف الكرماني، فسجنه، فغضبت له الأزد، وفر الكرماني فاجتمعوا عليه، ثم خرج من جرجان وتغلب على مرو، فصفت له، وظهر أبومسلم الخراساني، فاتفق معه على قتال نصر، فكتب نصر إلى جديع يدعوه للصلح، فرضي به، وخرج في مئة فارس ليكتبا بينهما كتابا، فوجه إليه نصر ثلاث مئة فارس قتلوه في الرحبة. (الزركلي: الأعلام، ٨/١١٤).

(2) ثريا حافظ عرفة: الخراسانيون، ص٢٧ - ٢٨.

(3) عن الخلاف بين الكرماني ونصر (اليمانية والنزارية) في خراسان، (انظر/ الطبري: تاريخ الأمم، ٧/٢٨٥ وما بعدها).

(4) ثريا حافظ عرفة: نفس المرجع والصفحة.

(5) الدولة الأموية، ص٢٨١.

الأول ومطلع الثاني[1]. لكن الدعوة لم تقم على جهد اليمنية. واليمنية لم تساند الدعوة إلا في مرحلتها الأخيرة، بعد ظهور أبي مسلم الخراساني الذي تم على يديه إعلانها[2]. بل أن اليمنية عاشت بعد حركة ابن المهلب أياماً سعيدة، وعلاقات وطيدة مع الحكم الأموي في بعض فتراته، كعهد الخليفة هشام وبالذات إبان ولاية خالد القسري اليمني على العراق (١٠٦ - ١٢٠هـ).

وإن مما نستنتجه امتدادًا لذلك أن الانتماء الإقليمي والمصالح القبلية أصبحت تطغى على التعصب القبلي والتحالفات القبلية القديمة. وهذا ما لمسناه من تقديم يمن الشام ولاءهم لبني أمية رمز التفوق الإقليمي الشامي و التميز مكانة ومالاً، على آصرة النسب التي تربطهم بابن المهلب الأزدي اليمني، وهذا ما ينطبق على يمن خراسان، الذين وأن أبدوا تأييدهم للحركة، إلا أنهم آثروا العافية وتقديم المصلحة وأمن الإقليم. بل أن ربيعة العراق، لم يكن الحلف دافعها الوحيد إلى نصرة الحركة بل المصلحة ونزعة الإقليمية. ولذلك وجدناها لم تصدق القتال وسرعان ما انفضت من حول يزيد[3].

كما أن هذه الفتنة قد كلفت الدولة الكثير من الجهد والمال، وعرضت الجبهة الداخلية للانقسام، إذ أنها أخطر حدث داخلي في زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك، الذي شغلته هذه الفتنة عن توجيه إمكانيات الدولة إلى ميادينها الحقيقة في جبهات القتال، أمام الأعداء المتربصين، في الشرق والشمال والغرب، وإن كان قد نجح في القضاء عليها في وقت وجيز، استطاع بعدها أن يعيد للجبهة الداخلية وحدتها وتماسكها.

ونحن لا نستبعد أن انشغال الدولة بهذه الفتنة، وانشغال العرب في خراسان بأحداثها بعد أن أحيت فيهم روح العصبية القبلية ونعراتها، فقد زاد من اشتعال الحركات في ما وراء النهر، وتمادى العصاة في التمرد على سلطان المسلمين[4]، حتى تمكن

---

(١) قيل بعث محمد بن علي العباسي دعاته عام ١٠٠هـ (اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣٠٨/٢). وقيل سنة ١٠١هـ (انظر/ أبوحنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، دار السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٣٠هـ، ٣١٨/١ - ٣١٩).

(٢) انظر ظهور الدعوة العباسية على يد أبي مسلم في: (الطبري: تاريخ الأمم، ٣٥٣/٧ وما بعدها).

(٣) انظر قبل: ص١٤٦.

(٤) عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠٠.

أخيرًا سعيد الحرشي من إعادة النفوذ الإسلامي على تلك المناطق[1]. بل نعزو إليها أيضًا الهجوم الذي شنته الشعوب التركية و القوقازية على الحدود الأرمينية، والتي منى فيها الجيش الإسلامي بهزائم متكررة[2]، خصوصاً بعد عزل الخليفة يزيد بن عبدالملك لعمر بن هبيرة عن ولاية الجزيرة وتأميره على العراق[3]، في أعقاب عزل مسلمة عنها، وقد تمكن الخليفة يزيد من إعادة الهيبة الإسلامية هناك عندما بعث إليها الجراح الحكمي الذي أوقف تقدمهم وحقق النصر على جيوشهم.

لقد كانت حركة يزيد بن المهلب التي تمكن الخليفة يزيد بن عبدالملك من القضاء عليها (سنة ١٠٢هـ) على يد أخيه مسلمة بن عبدالملك، فتنة لأمة محمد، أهلك فيها ابن المهلب نفسه وأهله، وسفك الدماء، وفرق الجماعة، ونكث البيعة. وهي في الحقيقة حلقة في سلسلة من الحركات التي حدثت زمن يزيد بن عبدالملك، والتي تمكن من إخمادها، وحافظ طوال حكمه على سلامة البناء الداخلي للدولة، وأبقى على وحدة الأمة.

---

(١) عن فتوح سعيد الحرشي وحروبه في ما وراء النهر، (انظر الفصل الرابع، ص٣٢٧ وما بعدها).

(٢) سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام، منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص٢١٨ – ٢١٩.

(٣) كانت ولايته على العراق أواخر سنة ١٠٢هـ أو أوائل سنة ١٠٣هـ. (انظر بعد/ الفصل الخامس، ص٤٧٥ – ٤٧٦).

المبحث الثاني

حركـــات الخـــوارج

١) حركة شوذب

٢) حركة مسعود العبدي

٣) حركة مصعب الوالبي

٤) حركة عقفان

المبحث الثاني

حركات الخوارج

١) حركة شوذب والقضاء عليها:

ما أن تولى يزيد بن عبدالملك الخلافة حتى تجددت حركة شوذب الخارجي[١]، الذي كان قد خرج (سنة ١٠٠هـ) في خلافة عمر بن عبدالعزيز، ومخرجه بجوخي[٢] من أرض العراق[٣]، وأمير الكوفة يومئذ عبدالحميد بن عبدالرحمن. وقد بلغ أصحابه ثمانين فارسًا، أكثرهم من ربيعة[٤]، وقيل: مائتين[٥]، وقيل غير ذلك[٦].

---

[١] اسمه بسطام بن مرة من بني يشكر، ثائر جبار، خرج في أيام عمر بن عبدالعزيز بمكان قريب من الكوفة اسمه «جوخا» وكان أصحابه ثمانين، تريث عمر في قتالهم إلى أن مات. فلما ولي يزيد بن عبدالملك قاتلهم، وقد تم القضاء عليه عندما جهز مسلمة جيشاً من عشرة آلاف بقيادة سعيد الحرشي. فأحاطوا بشوذب وقتلوه (سنة ١٠١هـ).
الطبري: تاريخ الأمم، ٥٥/٦ - ابن الأثير: الكامل، ١٥٥/٤ - مجهول: العيون، ٤١/٣ - الزركلي: الأعلام، ٥١/٢.

[٢] جوخا: اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد، وهو بين خانقين وخوزستان. (ياقوت: معجم، ١٧٩/٢). وجوخي: هي الأرض التي تحف بجانبي نهر العزار وهو القسم الأسفل من مجرى دجلة الشرقي - وهي تمتد إلى الشمال الغربي حتى كسكر، كورة واسط. (كي لسترنج: بلدان، ص٦٣). وانظر عنها هامش (١) أعلاه.

[٣] ابن قتيبة: الإمامة، ٩/٢ - ١٠٠ - المسعودي: مروج، ٢٠٠/٣ - ٢٠٢ (قال الدينوري: كان خروجه بالحيرة، وقال المسعودي: بالجزيرة). ويبدو أن هذا اللبس حدث، لأن كثيرا من المؤرخين قالوا بخروج شوذب وحده على عمر، بينما خرجت الحرورية على عمر في أكثر من مكان، ولعل هذه الموطن أماكن للثورات الأخرى. وسنتعرض لذلك لاحقاً عند الرد على من ظن أن عمر سالم الخوارج ولم يحاربهم. حيث أن عمر سالم من كفته الكلمة وأقنعته الحجة كشوذب، وحارب من أعرض عن الحق وعاث فساداً.

[٤] الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحة - ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة - مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة - الأربلي: خلاصة، ص٢٥ (ولم يحدد مكان قيامها).

[٥] ابن خلدون: العبر، ١٦٢/٣ (كما لم يقل من ربيعة، وحرف جوخي بـ «خوخى»).

[٦] مجهول: نفس المصدر، ٤٧/٣ (قال: كان بسطام في ثلاثة ويقال في ستمائة).

فكتب عمر إلي عبدالحميد ألا يحاربهم إلا أن يفسدوا في الأرض، وأن يبعث بأزائهم رجلاً صلبًا في قوة، على أن يأتمر بما كتب إليه. فوجه إليهم عبدالحميد محمد بن جرير البجلي في ألفي رجل. كما بعث عمر من قبل هلال بن أحوز في ألف مقاتل، ووقف مع ابن جرير بإزاء الخوارج لا يقاتلونهم[1]. وسارت الرسل بين عمر والمحكمة، فبعثوا إليه من يناظره، فأخذا عليه: أنه تولى بدون مشورة، ودعوه إلى التبرئ من أهله ولعنهم ورد أحكامهم، واحتجوا على جعل الأمر ليزيد من بعده، فحاجهم في أقوالهم، وقال في صيرورة الأمر من بعده ليزيد، بان الذي ولاه غيره، والمسلمون أولى بمن كان فيهم بعده. فرضيا قوله، ورجع واحد منهما عن رأي الخوارج، وعاد الأخر بقول عمر إلى جماعته[2]. وقيل: بل استنظرهما في مسألة ترك الأمر ليزيد بعده ثلاثة أيام، فخاف بنو مروان أن يخلع يزيد، فدسوا من سقاه سماً، فما لبث بعد خروجهما من عنده ثلاثة أيام حتى مات[3].

وعطفا على الرواية الأولى، فإن الرجل الذي ناظر عمرا أخبرهم بما جرى بينه وبين الخليفة، فلما بلغهم حسن سيرته ورده المظالم، اجتمعوا على عدم مقاتلته، وقالوا: كفوا عنه ما تركك‍م. فقال رسول عمر: وهو يكف عنكم ما لم تفسدوا فنزل بسطام وأصحابه حزة[4] من الموصل، كما كتب عمر إلى عبدالحميد، بنتيجة المفاوضات، وأمره

---

(1) مجهول: العيون، ٣/٤٧.

(2) مجهول: نفس المصدر والجزء، ص٤٣ – ٤٦ – ابن قتيبة: الإمامة، ٢/٩٩ – ١٠٠ – المسعودي: مروج، ٣/٢٠٠ – ٢٠٢ (والأخيرين لما يشيرا إلى اعتراضهم على يزيد).

(3) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٥٥ – ٥٥٦ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٥٥ – ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢٠٩ – ٢١٠ (لكنه فيما يظهر قد خلط بين ثورة شوذب وغيرها، إذا أشار إلى الثورة في العراق ولم يحدد من قام بها، ثم محاربة عبدالحميد لهم وهزيمة جيشه، وقيام عمر بإرسال جيش بقيادة مسلمة قضى عليهم، ثم ذكر طلب عمر من بسطام مفاوضته. والذي يبدو لنا أن هذه حركة سبقت ثورة بسطام وقضي عليها عسكريا، بعد أن دعوا فلم يجيبوا ويؤيد ما ذهبنا إليه ورود النص بذلك عند: الطبري، نفس المصدر والجزء، ص٥٥ – ابن سعد الطبقات، ٥/٣٥٧ – ٣٥٨.

(4) حزة: بليدة قرب اربل من أرض الموصل، وقد كانت قصبة كورة إربل قبل. وقد بناها أردشير بن بابك، وقالوا حزة من أرض الموصل. (ياقوت: معجم، ٢/٢٥٦).

بالكف عنهم إلا أن يقاتلوه[1]. فظل محمد بن جرير البجلي وابن أحوز بإزائهم لم يقاتلوهم حتى مات عمر[2]. ولنا أن نستبعد القول بتفكير عمر في عزل يزيد، وسم بني أمية له. فما كان عمر لينكث بيعة شملت يزيد معه بعهد سليمان، بل نجده يوصي إلى ولي عهده في مرضه، بالنصح للأمة وتقوى الله، وهذا يبطل من ادعى سمه. لكن الغالب أنه قد نجح في إقناع مناظريه من الخوارج وكانت سيرته وعدالته شفيعًا له عند جماعتهم، فلم تقم حجتهم عليه، وبالتالي توقفوا عن حربه، فحمى الأمة والدولة من شر فتنة مستطيرة، ووفر كثيرًا من الجهد والمال لجند الدولة وبيت مالها.

تجدد الحركة في عهد يزيد بن عبدالملك:

نقف حائرين أمام الخلاف حول ما انتهت إليه المناظرة بين رسولي شوذب والخليفة عمر بن عبدالعزيز، حيث أن الخلاف سيستمر بين الطبري والمؤرخ المجهول في سبب تجدد الحركة زمن الخليفة يزيد وكيفيته[3]. فالطبري كمؤرخ له ميزة الأقدمية اتبعه آخرون كابن الأثير وابن خلدون ويظهر أنهما نقلاً عنه. لنا على روايته بعض المآخذ، كقوله أن عمر طلب من مناظريه أن يمهلاه ثلاثة أيام، ليبت في صيرورة الأمر من بعد ليزيد. وقد استبعدها عزم عمر على تحويلها عن يزيد[4]. كما أشار إلى سم بني أمية لعمر، وهذا ما لا نقره فهناك روايات أثبتت مرضه، كما أن بني أمية لم يكن ليعجزهم ذلك قبل إذا ما عزموا عليه. وسنرى الطبري كما سيتبين بعد يقول بمسارعة عبدالحميد بن عبدالرحمن إلى قتال شوذب تقربًا إلى يزيد، وهذا القول بعيد عن شخصية عبدالحميد التي عرفناها من مواقفه تجاه حركة ابن المهلب. والتي ظهر من خلالها تجنبه الفتنة وكرهه للقتال. وقد دعانا كل هذا إلى العودة إلى ترجمة معمر بن المثنى أبو عبيدة التيمي راوي هذا الخبر عند الطبري، فوجدناه مع سعة علمه خاصة في الأدب والنسب

---

(1) ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص٦٧ – مجهول العيون، ٣/٤٦ – ٤٧ – الأربلي: خلاصة، ص٢٠.

(2) مجهول: نفس المصدر والجزء، ص٤٧.

(3) انظر الخلاف بين الطبري و المؤرخ المجهول حول ذلك في الصفحة السابقة.

(4) انظر الصفحة قبل السابقة.

والأخبار، قد رمى برأي الخوارج[١]. وهذا يفسر جنوح الرواية إلى جانب الخوارج، بتوقف عمر عند رأيهم في يزيد، ومبادأة عبدالحميد لهم في القتال بعد وفاة عمر.

ومن هنا فإننا نقدم رواية المؤرخ المجهول، وإن تأخر زمنيًا عن الطبري، لقربها من المنطق وتناسبها مع الأحداث.

فقد روى أنه «لما مات عمر بن عبدالعزيز وولى يزيد ابن عبدالملك عادت الخوارج الذين كانوا مع بسطام فتجموا وطلبوا الفتنة، وكان يزيد بن عبدالملك قد أقر عبدالحميد على الكوفة فوجه عبدالحميد تميم بن الحباب في ألفين إلى بسطام»[٢]. وفيما يبدو أنه قد تعرض لهم قبل ذلك محمد بن جرير وهلال بن أحوز، فهزما، مما دعى الخليفة يزيد بن عبدالملك إلى التدخل بنفسه في الأمر، فأقر عبدالحميد على الكوفة وبعث من قبله[٣] تميم بن الحباب في ألفين للقضاء على شوذب، فحاربهم، فكان نصيبه القتل وهزم جيشه فلجأ بعضهم إلى الكوفة ورجع الآخرون إلى يزيد، فوجه جيشا آخر بقيادة نجدة بن الحكم الأزدي فقتلوه، وهزم أصحابه ثم بعث إليهم الشحاج بن وداع في ألفين، فم ليكن حظه أوفر ممن سبقه، حيث كان نصيبه القتل، وإن كان قد قتل من أصحاب شوذب في حربه بعض كبار أصحابه[٤]. وفي هذا القول ما يوضح ما وصلت إليه قوة شوذب. يصلبها صدق قتال الخوارج وإن قل عددهم.

---

(١) انظر ترجمته عند: ابن حجر: تهذيب، ١٠/٢٢١ – ٢٢٢ – ابن حجر: تقريب التهذيب، ص٥٤١.

(٢) العيون، ٣/٦٤ لكن الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٧٥ – ٥٧٦، أشار إلى مبادأة ابن جرير لهم بالقتال، بأمر عبدالحميد، فأقتتلوا، وكان النصر للخوارج على جند ابن جرير الذي عاد إلى الكوفة منهزما، وقد أصيب هو نفسه، كما قتل الكثير من جنده، وكان شوذب وأصحابه قد طاردوهم حتى الكوفة، ثم عاد إلى موضعه. وانظر ذلك أيضا عند / ابن الأثير: الكامل، ٤/١٦٦ – ابن خلدون: العبر، ٣/١٦٣. لكنه لم يذكر سبب حرب عبدالحميد لهم.

(٣) ذكر المؤرخ المجهول أن الجيوش قد وجهت من قبل عبدالحميد، كما أنه لم يذكر حملة نجدة الأزدي. انظر: العيون، ٣/٦٤ – ٦٥.

(٤) الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحات – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٦٦ – ١٦٧ – ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة.

القضاء على شوذب:

تم القضاء على شوذب وأصحابه على يد مسلمة بن عبدالملك أثناء مسيره للقضاء على حركة ابن المهلب. فإنه لما دخل الكوفة[1] شكا إليه أهلها ما لقيوه من شوذب، وخوفهم منه فجهز جيشًا من عشرة آلاف جعل قيادته لسعيد بن عمرو الحرشي[2]، ووجهه إليهم، فدارت سنة ١٠١هـ[3] الوقعة بين بسطام وجند الخلافة. استبسل فيها الخوارج وكشفوا جند الشام، فخشى الحرشى الفضيحة، واستحث جيشه، وحمل بهم على شوذب وأصحابه، فألحق الهزيمة بهم، حيث قتل شوذب، وكل أصحابه[4].

وبهذا النصر أراح مسلمة الدولة من ثائر كلفها الكثير من الجهد والمال والرجال، وأمن أهل الكوفة، وتخلص من عدو متربص، يخشى خطره، فلم يكن بوسع مسلمة أن يتجه إلى ابن المهلب ويترك الخوارج وراء ظهره، حتى لا يجد نفسه أمام جبهتين قتاليتين في آن واحد. فقد يشغله هؤلاء عن مهمته الرئيسية، ويستولي خطرهم على اهتمام جنده الكوفيين[5].

---

(١) لم نجد مسلمة قد دخل الكوفة أثناء مسيرة إلى ابن المهلب، وإنما عسكر في النخيلة من أرضها. (انظر ذلك قبل في مسيره أثناء عرضنا لأحداث ثورة ابن المهلب).

(٢) سعيد بن عمرو الحرشي، يعود نسبته إلى الحريش بن كعب بن ربيعة، قائد من الولاه الشجعان، كان تقيًا بطلاً، وصفه ابن هبيرة بفارس قيس. من أهل الشام، هو الذي قتل شوذب الخارجي، وفتك بمن معه سنة ١٠١هـ . وولاه بمكاتبته للخليفة وأنه لا يعترف بإمارته، ثم عاد إلى الشام بعد أن أخرجه خالد القسري، فولاه هشام سنة ١١٢هـ غزو الخزر، ثم أمره بالعودة من أرمينية، وله ولد بها. (الزركلي: الأعلام، ٣/٩٩).

(٣) أورد يحيى بن الحسين خطأ أن القضاء على شوذب كان سنة ١٠٤هـ. (انظر: غاية الاماني، ص١١٩).

(٤) ابن الأثير: الكامل، ١٦٧/٤ – مجهول: العيون، ٦٥/٣ قال: (أن يزيد أرسل مسلمة واليًا على العراق فوجه سعيدًا إلى الخوارج) – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٤/٩ – ابن خلدون: العبر، ١٦٣/٣ (وقد حرف نسبه من الحرشي إلى «الحريش») – ثابت الراوي: العراق، ص٢٣٩ (إلا أنه قال: أن القضاء عليها كان بعد قتل يزيد بن المهلب، كما أنه ذكر اسم قائد الجيش محرفًا «عمرو بن حريث» ولم يذكر مصدره).

(٥) عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٧٢ – ١٧٣.

٢) حركة مسعود العبدي في البحرين واليمامة:

لم تكن حركة شوذب هي الحركة الوحيدة للخوارج في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، فقد حفل عهده بعدد من الحركات، من أهمها حركة مسعود بن أبي زينب العبدي[١] في البحرين واليمامة.

إذ خرج مسعود بالبحرين على الأشعث بن عبدالله بن الجارود، فترك الأشعث البحرين وضبطها مسعود، ثم سار إلى اليمامة، وكان أميرها سفيان بن عمرو العقيلي، ولاه إياها عمر بن هبيرة. فخرج إليه سفيان في بني حنيفة بالخصرمة، حيث دارت بينهما معركة شديدة، انتهت بقتل مسعود بن أبي زينب. فتولى أمر الخوارج بعده هلال بن مدلج فقاتل سفيان بقية يومه، فقتل أناس من الخوارج منهم زينب أخت مسعود العبدي. وفي الليل تفرق عن هلال أصحابه وبقي في عدد قليل فتحصن بأحد القصور، فنصبوا عليه السلالم وصعدوا إليه فقتلوه، واستأمن أصحابه، فؤمنوا، وقيل أن مسعود غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سفيان بن عمرو العقيلي[٢].

وعلى قول من خبر أن القضاء عليها قد تم سنة ١٠٥هـ، فهذا يعني نشوءها (سنة ٨٦هـ). وقد كان أمير البحرين آنذاك قطن بن زياد بن الربيع الحارثي، وليس الأشعث[٣].

---

(١) مسعود بن أبي زينب العبدي، من بني عبد القيس، ثائر حروري، من الأمراء الشجعان، وثب في البحرين على الأشعث بن عبدالله بن الجارود، فخرج الأشعث منها، وسار مسعود إلى اليمامة فامتلكها، ثم قتله سفيان العقيلي، وقيل غلب عليهما تسع عشرة سنة. (الزركلي: الأعلام، ٢١٧/٧).

(٢) ابن الأثير: الكامل، ١٩٠/٤ – ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٦ – عبدالرحمن عبدالكريم النجم: البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، رسالة ماجستير، غير مطبوعة، مقدمة لكلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧١م، ص١٧٨ (نقلاً عن / ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٤٤ – أنساب الأشراف، ج٧، ورقة ٢٥أ – الكامل، ١١٨/٥ – ١١٩ – ياقوت: معجم، ٥٧٠/١ – ٥٧١ – ديوان الفرزدق، ١١٩/١ – ٢٢٦ قال: وفي الديوان قيل: مولى لعبدالقيس «يعني مسعود») – عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٢٩٧ – ٢٩٨.

(٣) من اجل ذلك: انظر/ ابن خياط: نفس المصدر، ص٣١٠.

ويبدو أن مقتلة الخوارج كانت في مكان يعرف «ببرقان»[1] نستدل على ذلك من قول الفرزدق في هذا اليوم مادحاً بني حنيفة:

أرين الحروريين يوم لقائهم ببرقان يومًا يجعل الموت أشقرا[2]

لكن مع اتفاق هذه المصادر على نهاية هذه الحركة على يد سفيان بن عمرو العقيلي، أمير اليمامة، المولى من قبل ابن هبيرة كما زعم، إلا أننا نجد اختلافًا على بداية الحركة فابن خياط[3] الذي نجده يقول بخروجه في ولاية ابن هبيرة - كانت ولايته على العراق من قبل يزيد سنة ١٠٢هـ حتى سنة ١٠٦هـ عندما عزل بخالد القسري من قبل هشام - نجده في مكان آخر من نفس المصدر[4]، يقول بخروج مسعود في البحرين على الأشعث بن عبدالله بن الجارود سنة ٩٦هـ عندما ولاه إياها يزيد بن المهلب أمير العراق من قبل سليمان. وحيث أن مصدرنا الرئيسي في تفصيلات القتال هو ابن الأثير، الذي لم يحدد زمن خروجه، ولكنه قال على الأشعث، وقد عرفنا تاريخ ولاية الأشعث وهي سنة ٩٦هـ. وهو لم يكن بعد ذلك أميرًا للبحرين في خلافة يزيد بن عبدالملك[5]. فأنا نستبعد على ضوء هذا القول استمرار حركته تسع عشرة سنة اعتمادًا على أنها بدأت سنة ٨٦هـ، لإجماع المصدرين الرئيسيين على حدوثها في إمارة الأشعث سنة ٩٦هـ، وهي على هذا الأساس يكون عمرها ما يقارب عشر سنوات فقط إذا ما صح القول بالقضاء عليها أواخر عهد يزيد. غير أننا لا نتوقع سكوت بني أمية على حركة خارجية هذه المدة الطويلة من الزمن، وهي فترة كان صدرها زمن سليمان ثم عمر، وقد امتازت بقوة الدولة وتمكنها من إخماد حركة كهذه بيسر. وعليه فإننا نجد

---

(١) برقان اليوم في جنوب الكويت، وهو من حقول الزيت المهمة. (انظر/ عبدالرحمن النجم: البحري، هامش ص١٧٨). وقال ياقوت: برقان موضع بالبحرين قتل فيه مسعود بن أبي زينب. (معجم، ٣٨٧/١).

(٢) ابن الأثير: الكامل، ١٩٠/٤.

(٣) نفس المصدر، ص٣٣٦.

(٤) ص٣١٣.

(٥) انظر ولاة البحرين في خلافة يزيد بن عبدالملك، بعد: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص٤٩٤ - ٤٩٥.

في رواية المؤرخ المجهول[1] مخرجا من هذا الاضطراب، إذ قال: أن الذي خرج بالبحرين هو أخو مسعود بعد قتل أخيه. ويبدو أن قوله أن مسعود هو الذي خرج على الأشعث سنة ٩٦هـ، بل أننا وجدنا أن سليمان قد ولى اليمامة سفيان العقيلي[2]، ويظهر أنه تولى مهمة القضاء على حركة مسعود عندما تقدم نحو اليمامة، وأن هذا قد تم زمن سليمان بن عبدالملك لا يزيد، وهو الأولى.

حيث أننا وجدنا أن يزيد بن عبدالملك قد رد على ولاية البحرين واليمامة إبراهيم بن العربي[3]، أي بعد القضاء على حركة ابن المهلب التي شملت سيادتها هذه المناطق وكان ابن المهلب قد ولى البحرين إبان حركته هرم بن القرار العبدي[4]. وهذا يعني أن الأشعث بن عبدالله الذي قامت عليه الحركة، وسفيان العقيلي الذي قضى عليها، كانا أميري البحرين واليمامة زمن سليمان، مما يؤكد قيامها والقضاء عليها في عهده، لا زمن يزيد بن عبدالملك. الذي فيما يظهر أن الحركة التي قامت زمنه كانت بقيادة أخ مسعود، فخلط بينهما المؤرخون، ووسموا الأخيرة بسمات الأولى وأحداثها. إلا أن المصدر الوحيد الذي وجدناه قد أشار إلى حركة أخي مسعود لم يقدم لنا معلومات عن أحداثها وكيف تم القضاء عليها[5].

---

(١) العيون، ٣/٧٥.

(٢) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣١٩.

(٣) ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٣٣. كان أميرها منذ خلافة عبدالملك، فلما أقره عليها الوليد. (انظر: ابن خياط نفس المصدر، ص٢٩٨ - ٣١١).

(٤) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦٠٠.

(٥) المصدر الوحيد الذي وجدناه أشار إليه هو: العيون والحدائق. للمؤرخ المجهول، ٣/٧٥.

٣) حركة مصعب الوالبي:

نجد عند ابن الأثير[١] والمؤرخ المجهول[٢] ذكرا لحركة حرورية جديدة، تزعمها رجل من رؤساء الخوارج، هو: مصعب بن محمد الوالبي[٣]، في العراق، على عمر بن هبيرة أمير العراق من قبل يزيد بن عبدالملك، والذي تسبب في قيامها كما يبدو لنا، أن مصعبًا كان من رؤساء الخوارج فطلبه ابن هبيرة وطلب معه مالك بن الصعب، وجابر بن سعد، فخرجوا واجتمعوا بالخورنق[٤]، وأمروا عليهم مصعب ومعه أخته آمنه، فساروا عن ابن هبيرة، فلما استعمل خالد القسري على العراق من قبل هشام بعد ابن هبيرة، بعث إليهم جيشًا، كانت قيادته لسيف بن هانئ، وكانوا قد صاروا بحزة من أعمال الموصل فالتقوا، واقتتلوا، فهزم الخوارج وقتل زعيمهم مصعب الوالبي. وقيل: كان قتلهم آخر أيام يزيد بن عبدالملك، لكننا لم نجد لهم خبرًا في و لاية القسري، مما يُرجح القضاء عليهم زمن يزيد، إذ كيف يتركهم ابن هبيرة وقد خرجوا على الإمام، وكان قد طلبهم قبل الخروج وإعلان الحركة.

---

(١) الكامل، ٤/١٩٠.

(٢) العيون، ٣/٧٥.

(٣) مصعب بن محمد الوالبي، أمير ثائر، كان له شأن في العصر المرواني، خرج على ابن هبيرة، فطلبه، وسار بمن معه إلى حزه بالموصل، حتى بعث خالد القسري، جيشًا، تمكن من القضاء على حركته وقتله. (الزركلي: الأعلام، ٧/٢٤٧ - ٢٤٨).

(٤) الخورنق: موضع بالكوفة، وقيل هو نهر، والذي عليه أهل الأخبار والأثر أنه قصر كان بظاهر الحيرة. (ياقوت معجم، ٢/٤٠١).

٤) حركة عقفان:

خرج عقفان الحروري[١] على يزيد بن عبدالملك، بناحية دمشق، وكان عدد أصحابه ثمانين رجلاً من الخوارج[٢].

ولقد كانت حركته تجربة ونهجًا جديدًا اتبعه الخليفة يزيد في مواجهة الخوارج والتعامل مع حركاتهم. حيث سلك الطريق السلمي في إخماد هذه الحركة.

فعندما أراد يزيد القضاء عليه عسكريًا، أشير عليه أن يبعث إلى كل رجل من أصحاب عقفان رجلاً من قومه يرده عن رأي الخوارج، على أن يؤمنهم الخليفة. فقد قالوا للخليفة: إن قتل بهذه البلاد اتخذها الخوارج دار هجرة[٣]. فوافقهم الخليفة على رأيهم. وسار إليهم أهلوهم، وقالوا لهم إنا نخاف أن نؤخذ بكم، وأمنوهم، فرجعوا عن رأيهم وانفضوا من حول زعيمهم عقفان، فبقى وحده، فأرسل إليه يزيد أخاه فاستعطفه وأمنه، فرده وقد ترك رأي الخوارج، بل أنه خدم الدولة فتولى زمن هشام أمر العصاة، ثم استعمل على الصدقة حتى توفى هشام[٤].

ولقد نهج هذا النهج، وأخمدت هذه الفتنة، دون عناء ويعلق عماد الدين خليل على نجاح سياسة يزيد السلمية إزاء عقفان بقوله: أن بمقدور يزيد أن يتأسى بسياسة سلفه إزاء هذه الكتلة بدل العنف وأراقة الدماء وما يجره ذلك على الدولة من خسائر في الأرواح والأموال، وتفتت الوحدة وتغلغل الحقد في النفوس. خصوصًا بعد نجاح تجربته

---

(١) عقفان الحروري: لم أعثر عليه على ترجمة.

(٢) مجهول: العيون، ٧٥/٣ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٩/٤ – ١٩٠ – عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٥٩٨.

(٣) لم تكن الشام مسرحًا لثورات الخوارج. حيث كان العراق مركزها، لذا خشى الشاميون أن يسقي الدم البذرة الخارجية في أرض الشام فتنموا بها، وتورث الأحقاد صراعًا حروريًا سنيًا لا ينتهي هنالك. فإن الخوارج إذا ما قامت ثورة لهم في مكان ما، إعتبروه دار هجرة وجب على من كان على رأيهم الهجرة إليه، بل أن الأزارقة، كفروا القعدة ولو كانوا على دينهم. (انظر: الشهرستاني: الملل، هامش ص١١٨ – ١١٩، ١٢١ – علي الغرابي: تاريخ الفرق الإسلامية، ص٢٢٧).

(٤) ابن الأثير: نفس المصدر، ١٨٩/٤ – ١٩٠ – مجهول: نفس المصدر، ٣م٧٥ – عماد الدين خليل: نفس المرجع ص٢٩٨.

مع عقفان. مما يعني أنه ليست أساليب عمر وحدها التي نجحت في هذا المجال[١]. وهو هنا يرمز إلى أسلوب عمر السلمي في معالجة حركة شوذب الخارجي[٢]. لكننا وإن وافقناه على نجاح عمر سلميًا في تعطيل حركة شوذب. ويزيد في إنهاء حركة عقفان، وأن الحل السلمي خير على الدولة والأمة. إلا أننا نخالفه فيما يرمي إليه من وراء قوله، وهو أنه كان على يزيد أن يُعالج الحركات الخارجية التي ظهرت في عهده سلميًا كما فعل عمر ونجح هو مع عقفان. فعمر لم ينجح في التعامل مع كل الحركات الخارجية التي قامت في عهده سلميًا، بل اضطر إلى إخماد بعضها عسكريًا عندما لم تستجب الحرورية إلى توجيهاته[٣]. وما كان يزيد ليسعى إلى الحرب مع إمكانية دك الفتنة سلميًا، خصوصًا وقد رأيناه قد عمل بذلك مع عقفان. ودعى ابن المهلب من قبل إلى السلم. وما أظن جنده قد قاتلوا خارجًا قبل أن يدعوه إلى الجماعة وترك الفرقة والخلاف. وهل ردت الدعوات السلمية من علي رضي الله عنه قبل فرقة المحكمية عن غيها.

إننا نرى يزيد بن عبدالملك قد تمكن من تتبع الخوارج وإخماد حركاتهم المتعددة. في شيء من السرعة واليقظة والقسوة. ولقد أدت هزائمهم المتلاحقة في عهده. إلى ضعف أمر الخوارج لسنوات لاحقة[٤].

---

(١) دراسة مقارنة، ص ٢٩٨.

(٢) انظر قبل: ص١٦٨ - ١٦٩.

(٣) خرجت الحرورية على عبدالحميد بن عبدالرحمن أمير الكوفة، زمن عمر، فلما دعاهم بأمر عمر، ولم يستجيبوا أمره عمر بقتالهم. فحاربهم وهزم جيشه. فبعث عمر إليهم جيشا من قبله بقيادة مسلمة بن عبدالملك فهزمهم. ويبدو أن هذه الخارجة سبقت شوذب في القيام على عبدالحميد في العراق. (انظر عن ذلك / ابن سعد: الطبقات، ٣٥٧/٥ - ٣٥٨ - الطبري: تاريخ الأمم، ٥٥/٦). كما خرجت خارجة أخرى في الموصل على يحيى الغساني عامل عمر بن عبدالعزيز على الموصل، فدعوا ولم يجيبوا، إذ لم تفلح معهم الطرق السلمية، ولم تقنعهم الحجة، وأبوا إلا القتال (انظر حركتهم عند / ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص٩٤ - ٩٦).

(٤) نايف محمد معروف: الخوارج في العصر الأموي، ص١٧٥.

• هذا وقد أورد المؤرخ المجهول صاحب العيون والحدائق، ٧٥/٣، أنه في عهد يزيد بن عبدالملك حدثت حركة أخرى، وبرجوعنا إلى المصادر السابقة والموثوق بها، أتضح لنا أن هذه الحركة =

المبحث الثالث

حركة شيريم اليهودي

نعم أهل الذمة برعاية الدولة الإسلامية والأمن في حماها وحسن المعاملة من المسلمين في ظل سماحة مبادئ الإسلام وإنسانية تعاليمه، كما تمتعوا بحريتهم الدينية التي تبيحها شريعة الإسلام لرعايا دولته. وهكذا تم التعايش السلمي بين الديانات تحت مظلة الدولة الإسلامية وشريعتها السمحة، إلا أن بقاء بعض الأفكار والمعتقدات عند غير المسلمين والتفكير في إحيائها، ولو كان ذلك مخالفًا لشرائع الإسلام أو سيادة دولته، أدى إلى قيام بعض الحركات التمردية، والصدام بين تلك الفئات غير المسلمة مع سلطان الدولة الإسلامية.

فإن الكنيس اليهودي[1] لم يحل في قلوب اليهود محل الهيكل[2] بكل معاني الحلول،

= إنما حدثت في عهد يزيد بن الوليد ابن عبدالملك (الناقص) سنة ١٢٦هـ. عن ذلك انظر/ ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٧١ وما بعدها – الطبري: تاريخ الأمم، ٣١٦/٧ وما بعدها – ابن الأثير: الكامل، ٢٨٩/٤ – ٢٩٠، ٢٩٥ – ٢٩٦. وقد ورد اسم هذا الخارج في المصدرين الأخيرين (سعيد بن بهدل)، ولعل ذلك تحريف لاسمه.

(١) الكنيس اليهودي: مكان يجتمع فيه اليهود للعبادة منذ أيام موسى عليه السلام، واستعملت الكلمة للدلالة على جماعة من اليهود يتلاقون لغرض ديني، وبعد هدم الهيكل لأول مرة، ازدادت أهمية الكنيس، وأصبح في القرون الوسطى المركز الاجتماعي والثقافي للحياة اليهودية، وكانت إقامة الطقوس و العبادات فيه بسيطة لا تحتاج إلى كاهن معين (رسمي)، أما الآن فيعين لكل كنيس كاهن يقوم بالشعائر الدينية فيه. (الموسوعة العربية الميسرة: تأليف مجموعة من الأساتذة المتخصصين برئاسة الأستاذ/ محمد شفيق غربال، دار نهضة لبنان للطبع و النشر، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ١٤٨٦/٢ – ١٤٨٧). وهو غير (الكنيست)، وهي كلمة عبرية تعني حرفيا (مكان الاجتماع)، ويسمى المعبد اليهودي «بيت هاكنيست» أي المكان الذي يجتمع فيه اليهود. وتستخدم هذه الكلمة الآن في إسرائيل للإشارة لمجلس البرلمان الإسرائيلي، وقد تم تكوينه لأول مرة في فبراير ١٩٤٩م، ويتكون من (١٢٠) عضوًا. (انظر/ عبدالوهاب المسيري: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٤م، ص٣١٤).

(٢) الهيكل: هو أهم مبنى للعبادة اليهودية في فلسطين شيده سليمان عليه اسلام، وهدمه البابليون عام ٥٨٦ ق.م، ثم أ عيد بناؤه عام ٢١٥ ق.م. وأدخل المكابيون والحشمونيون بعض =

فقد ظل أمل اليهودي أن يقدم القربان ليهوه[1]، في يوم من الأيام أمام قدس الأقداس على تل صهيون[2]، مما عرضه لخداع من أدعى أنه «المسيح المنتظر»[3] في كل الأوقات[4].

= التعديلات والتجديدات عليه، ثم قام هيرود بتوسيعه، وبنى حوله سوراً عاليًا ولكن الرومان حطموا الهيكل عام ٧٠م على أثر ثورة قام بها اليهود. (عبدالوهاب المسيري: موسوعة المفاهيم، ص٤٢٥). وأنظر بتوسع: حسن ظاظا: أبحاث في الفكر اليهودي، الطبعة الأولى، مطبوعات دار القلم، دمشق، ١٤٠٧هـ، ص٤٥، ٥٢، ٥٣.

(١) يهوه: اسم لله ورد في سفر الخروج، وهو لفظ عبري، معناه الموجود أو الكائن، أو الذي كان، وقد أطلقت اسم يهوه على الله في المواضع التي اعتبرته فيها اله اليهود وحدهم، وهو الذي أعلن نفسه بهذا الاسم لموسى النبي – عليه السلام- وكلفه أن يبلغه لليهود كي يعرفون بهذا الاسم، إذ جاء في سفر الخروج «فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم فما أقول لهم؟ فقال الله لموسى... هكذا تقول لبني إسرائيل، يهوه اله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم، هذا أسمي إلى الأبد (الخروج ١٣/٣ – ١٥). انظر/ زكي شنودة: اليهود نشأتهم وعقيدتهم ومجتمعهم، من واقع نصوص التوراة كتابهم المقدس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م، ص٢٩٢ – ٢٩٣. وأشار إلى ذلك (محمد خنيفة التونسي (مترجم): الخطر اليهودي (بروتوكلات حكماء صهيون)، الطبعة الرابعة، ص٢٦، ٦١).

(٢) صهيون: قيل هي: الروم، وقيل: البيت المقدس، قلت موضع معروف بالبيت المقدس، محلة فيها كنيسة صهيون. (ياقوت: معجم، ٤٣٦/٣). وقالت أبكار السقاف: هو آخر حصون كنعان. وقد امتلكه داود. انظر كتابها: إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، عالم الكتب، القاهرة. الطبعة الأولى، ١٩٦٧م، ص٣٦٦.

(٣) المسيح المنتظر: ينتظر اليهود مسيحًا يخلصهم من الخضوع للأميين على شرط ألا يكون في صورة قديس، كما ظهر عيسى بن مريم – عليه السلام – كي يخلصهم من الخطايا الخلقية، لذلك أنكروه، لكنهم يشترطون أن يكون في صورة ملك من نسل داود يعيد الملك إلى إسرائيل، ويخضع الممالك كلها لليهود، وذلك بالقضاء على السلطة في كل الأقطار الأممية، إذ يعتبرون السلطة على شعوب العالم من اختصاص اليهود، حسب وعد الله وتقديره. (محمد التونسي: نفس المرجع، ص٥٨). وأضافت أبكار السقاف: أن هذه الفكرة باستعادة الدولة الزائلة في الأرض الموعودة، على اعتبار أن فلسطين منحة من الرب يهوه لبني إسرائيل منذ عهد إبراهيم، تولدت عند اليهود في غضون الأسر البابلي، فتحولت إلى عقيدة. (انظر: نفس المرجع، ص٣٦٨ – ٣٧٤).

(٤) ديورانت: قصة الحضارة، ٧٦/١٤.

وهذا ما استغله بعض الدجالين اليهود. فقامت على أيديهم بعض الحركات اليهودية، من ذلك ما حدث عام (١٠١ - ١٠٢هـ / ٧٢٠م) حين أعلن شيريم[١] (Sereme) وهو يهودي سوري أنه المسيح المنتظر، و المنقذ لليهود، وسير حملة لانتزاع فلسطين من المسلمين. فغادر يهود بابل وأسبانيا مواطنهم ليشتركوا في هذه المغامرة[٢]. بل قيل: أنه لما سمع بخبره عرب الأندلس، وكان بعضهم من أهل الشام، صدقوا مقالته. فعادوا إلى سوريا وقد تركوا الغنائم التي غنموها، والمساكن التي ارتضوها، فضبط عنبسة بن سحيم الكلبي (أمير الأندلس ١٠٣ - ١٠٧هـ). الأملاك التي تركوها، وحولها لبيت المال[٣].

إلا أن القائم بها أسر، وعرضه الخليفة يزيد بن عبدالملك على الناس على أنه مهرج دجال[٤]. ثم أمر به فقتل[٥].

ويغلب على الظن أن هذه الحركة، لم تصل إلى مرحلة التنفيذ. فيبدو أنه قد تم اكتشاف أمر شيريم وهو لا يزال يدعو إلى حركته، ويعد نفسه للقيام بحملته. واليهود أجدر الناس بإبرام المؤامرات وتدبير الدسائس في سرية تامة وتنظيم دقيق. نقول هذا

---

(١) أورد شكيب أرسلان اسم هذا الدعي «زوناريا». حيث قال «خرج في سورية نبي كذاب اسمه زوناريا». انظر: غزوات العرب، ص١١٢ - ١١٣).

(٢) ديورانت: نفس المرجع، ١٤/ ٧٦ - ٧٧ - توفيق اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق. ص٣٠٩ (نقلا عن : ديورانت: قصة الحضارة، ١٤ / ٧٧ - ٧٨) إلا أنه حرف النص فقال: أن شيريم أعلن أنه سيسير باليهود ويحملهم على انتزاع فلسطين من المسلمين، ولم يقل سير حملة. كما أنه أشار إلى أن يهود فارس تبعوه ويهود العراق والأندلس. وأخيرا، قال: بأن القائم بها قبض عليه، ولم يقل أسر. كما نص على ذلك ديورانت. وهذا يعني أنه أراد أن يقول أن شيريم أعلن عن عزمه، لكنه قبض عليه قبل تسيير الحملة. وهذا يخالف ما نص عليه ديورانت. الذي أخبر بتسيير الحملة، وأسر صاحبها. وهذا ما جعلنا نقف عند قول اليوزبكي إذ أن مصدره الوحيد ديورانت، فلم نجد مبررا لتحريفه، وأضافته).

(٣) شكيب أرسلان: نفس المرجع، ص١١٢ - ١١٣.

(٤) هو في الحقيقة دجال، لأنه أدعى ما ليس حقا، ففكرة المسيح المنتظر، دعوى يهودية باطلة. (انظر/ قبل: هامش ٣ الصفحة السابقة).

(٥) ديورانت: نفس المرجع، ١٤/٧٦ - ٧٧.

مع أن ديورانت[1] قد نص على تسييره الحملة لإنتزاع فلسطين، ووقوع القائم بها في الأسر. وهذا يعني مواجهة الدولة في عهد الخليفة يزيد لهذه الحركة، وإخمادها. لكن إغفال المصادر الإسلامية لهذه الحركة اليهودية، دعانا إلى القول باحتمال انكشاف أمر القائم عليها، وأن حركته لازالت في مرحلتها السرية، وأن قيامها - إن صح ذلك - كانت نتيجة لعقائد يهودية باطلة، رجى أصحابها أن تتحقق، فكانوا ضحية الأدعياء منهم.

---

(1) قصة الحضارة ٧٦/١٤ - ٧٧.

المبحث الرابع

حركة بلاي

لم يعد المشرق الإسلامي وحده موطنًا للحركات التمردية، فإن توسع رقعة الدولة الإسلامية، وما انضوى تحت لوائها من أجناس وقوى، لم تدخل في دين الإسلام، ولم يجد الولاء لحكومته طريقًا إلى نفوس بعض أهلها، جعلها حربًا على الإسلام ودولته. ومن تلك القوى، بقايا القوط في الأندلس، الذين التفوا حول رجل منهم يدعى بلاي، خرج بهم على سلطان المسلمين في الأندلس، وقاد حركة المقاومة النصرانية هناك.

منشأ الحركة:

تختلف المصادر العربية وغير العربية على منشأ حركة بلاي من حيث التأريخ والكيفية، بل وتقدم لنا روايات متضاربة عن أحداث هذه الحركة، نموها وموقف المسلمين منها، حتى تعذر على المؤرخ الوصول إلى الحقيقة التي لا شك فيها، بل وقلما يتفق مؤرخان على شيء منها، وإن حدث فالاختلاف وارد على غيره.

فتختلف المراجع على بلاي وكيفية قيامه بالأمر، فمنها ما يذهب إلى أنه كان حامل سيف لذريق (آخر حكام القوط الذي تم الفتح في زمنه، بعد أن قضى عليه المسلمون سنة ٩٢هـ) وأنه هرب مع الفل إلى جليقيه، فجمع الناس حوله، وحارب بهم المسلمين. ومنها ما يشير إلى أنه كان منفيًا من طليطلة بسبب خلاف حدث بينه وبين غيطشة وقيل مع لذريق، ففر إلى كنتبريه أو اشتريس فلما لجأ الفل إلى هذه النواحي دعاهم إلى حرب الفاتحين، فولوه أمرهم.

وبعض المصادر، كالمقري[1] يشير إلى أن بلاي من أهل اشتوريش من جليقية، كان رهينة عن طاعة أهل بلده، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد عبدالرحمن (سنة

---

(١) نفخ الطيب في غصن الأندلس الطريب، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، والمجلد الأول، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ٣٥٠/٤.

٩٨هـ)، وثار النصارى معه على نائب الحر، فطردوه، و ملكوا البلاد[١].

وبلاي كما يذكر حسين مؤنس[٢] ابنا لفافيلا دوق كنتبريه، وأن فافيلا كان قد استقر في تودة عاصمة كنتبريه في ذلك الحين، بعيدًا عن البلاط القوطي في طليطلة، على أثـر نزاع قام بينه وبين الملك «أجيكا»، وفي تجدد النزاع بعده مع خلفــه الملــك غيشــطة، لطمع غيشطة في زوجه «أم بلاي» أو لسبب آخر، ففر مرة أخرى إلى كنتبريه، حيـث مات هناك مخلفًا ابنه بلاي، الذي انضم إلى لذريق[٣] وأعانه عندما وثب على غيشــطة، فلما أدرك العرش، كافأ بلاي بأن جعله «حامل سيف» واستمر علــى هــذا حتـى فـتح المسلمين لشبه الجزيرة الأيبيرية.

وأيًا كان بلاي وقصته حتى تزعم المقاومة ضد المسلمين، فإنــه ظهــر كمنــاوئ للسيادة الإسلامية على أسبانيا في ولاية الحر بن عبدالرحمن[٤] على الأندلس، إذ يخبرنا المقري: أن أول من جمع فل النصارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم شخص يدعى بلاي من أهل اشتوريش من جليقية، كان رهينة عن طاعة أهل بلده، فهرب من قرطبــة أيــام

---

(١) جمع هذه الروايات المتناقضة حسين مؤنس في كتابه: فجر الأنــدلس، ص٣١٤، ٣١٨ – ٣٢٠. وقد حاول التوفيق بينها والوصول إلى تسلسل منطقي للأحداث. انظر: نفس المرجع، ص٣٣٣ – ٣٣٥. ورأيه اجتهادًا منه خالفه فيه أو في بعضه، بعض المؤرخين كخليــل الســامرائي. (انظـر كتابه: الثغر الأعلى، ص١٠٨).

(٢) نفس المرجع، ص٣٣٣ – ٣٣٤ – وخليل السامرائي: نفس المرجع، ص١٠٢ – ١٠٣.

(٣) هناك رواية تذكر أنه كان عل خلاف مع لذريق فنفاه عن طليطلة، فأقام نفسه أميرًا على اشتريس. انظر ذلك عند: حسين مؤنس: نفس المرجع، ص٣١٨.

(٤) الحر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان الثقفي، أمير الأندلس لسليمان بن عبدالملك. وليها بعد مقتل عبدالعزيز بن موسى بن نصير، وكانت الأندلس في أيامه تابعة لوالي إفريقية. (الزركلــي: الأعلام، ٢/١٧٢). لكنه أخطأ عندما قال باستمراره إلى سنة ١٠٦هـ وعزل بعنبسة بن سحيم. إذ الصحيح أنه عزل من قبل عمر بن عبدالعزيز بالسماح بن مالك سنة ١٠٠هــــ. (انظــر / ابــن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان، أ. ليفي بروفنســال، ج١ دار الثقافة ببروت، ج٢ ليدن هلوندا، مطبوعات ا. ج. بريل ١٩٥١م، ٢/٢٦ – محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، من الفتح إلى بداية عهد الناصر – العصر الأول – القسم الأول، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٩هـ، ص٧٤.

الحر بن عبدالرحمن، سنة ٩٨هـ. وخرج معه النصارى على نائب الحر فطردوه، وملكوا البلاد[١]. كما نجد شكيب أرسلان يشير إلى قيامه على الحكم الإسلامي زمن الحر وأنه أول ملك للأسبان بعد دخول العرب للأندلس[٢]. لكن الأمر على ما يبدو لم يصل إلى إخراج حاكم الإقليم المسلم من خيخون مركز الناحية. وإنما كان إعلاناً للتمرد، أدى في الغالب إلى مناوشات بين نائب الحر والمتمردين، إلا أن عزل الحر وتولية السمح الأندلس، لم يمكن السلف من مباشرة الأمر بنفسه، وتولى السمح هذه المهمة، فبعد أن اطمأن على استقرار الأمور داخليًا، وأعد جيشه لخوض غمار الحروب، توجه إلى المناطق الشمالية من الأندلس، فحارب عصاة المسيحيين، وهزمهم، وأجبرهم على اللجوء إلى المعاقل الجبلية في الاستيرياس[٣]. غير أن هزيمة المسلمين واستشهاد قائدهم السمح بن مالك في معركة طولوشة في بلاد الغال، قد أوجد الفرصة للمتمردين بقيادة بلاي من معاودة نشاطهم ضد المسلمين. لكن عبدالرحمن الغافقي[٤] – الذي أرتد بالجند بعد الانكسار في معركة طولوشة إلى الأندلس فولاه أهلها أمرهم حتى قدوم الوالي الجديد – تمكن من إخماد بوادر الخروج التي ظهرت في الولايات الجبلية الشمالية[٥].

---

(١) نفح الطيب، ٤/٠ ٣٥ – خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص١٠٣.

(٢) غزوات العرب، ص٦٧.

(٣) محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة، القاهرة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص١٩٧.

(٤) عبدالرحمن بن عبدالله بن بشر بن الصارم الغافقي، أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان، أصله من غافق من قبيلة عك باليمن، رحل إلى إفريقية، كثرت جموعه بعد مقتل السمح سنة ١٠٢هـ. فانتقل إلى أربونة، فانتخب أميرا من المسلمين، وأقره والي إفريقية. فنشأ خلاف بينه وبين عنبسة بن سحيم (أحد القادة) فعزل عبدالرحمن وولى عنبسة مكانه، ثم ولاه هشام إمارة الأندلس سنة ١١٢هـ. فخرج لفتح بلاد الغال وتوغل فيها، إلا أنه استشهد في معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ. وذكر في حاشيته أن من المؤرخين من أرخ لوفاته سنة ١١٥هـ و١٢٢هـ والأصح ما قدمناه (الزركلي: الأعلام، ٣/٣١٢ – ٣١٣). وترجم له في إيجاز ابن حجر. (انظر: تهذيب، ٦/١٩٧).

(٥) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، ص٨١ – ٨٢.

قيام بلاي أبان ولاية عنبسة الكلبي:

أخذت حركة بلاي في ولاية عنبسة بن سحيم (١٠٣ - ١٠٧هـ) بعداً أكبر، إذ تشير مجموعة من المصادر والمراجع إلى أن بلاي قام بجليقية في ولاية عنبسة - أمير الأندلس زمن يزيد بن عبدالملك - فحرض أهل البلاد، ودعاهم إلى حرب المسلمين، ودافع عن أرضه[١]، فأخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقى بيديهم من أرضهم، وكانوا لا يطمعون في ذلك[٢]. ويفهم من هذا القول أن بلاي يعتبر منشئ حركة المقاومة النصرانية، ومجدد دولة النصرانية في الأندلس، وأن نهوضه بها كان الحجر الأول في بنائها الجديد[٣]. وأن زمن عنبسة كان بدايتها عندما استجاب أهل جليقية لبلاي وعملوا على حرب المسلمين ومدافعتهم عن أرضهم. وإن كان نجاحهم قد تحقق بعد ذلك.

وبطبيعة الحال تصدت لهذه الحركة القوة الإسلامية المتواجدة في المنطقة الشمالية، فقد سكن المسلمون تلك المناطق، وتركوا بعد الفتح حامية في خيخون، ونائب يحكم المنطقة تحت أمره الوالي. إلا أنه ليس لدينا تفصيلات عن القوات التي تولت إخماد الحركة، غير أن القول بمدافعته عن أرضه ومدافعة النصارى المسلمين عما بأيديهم، يعني مقاومة الجيش الإسلامي الذي حاول القضاء على الحركة[٤]. ويشير منطق الأحداث إلى فشل الحامية الإسلامية وحاكم الإقليم في التصدي للمتمردين، وإخماد حركتهم. فصارت الأمور في صالح بلاي، الذي بادر إلى إخراج المسلمين. إذ نجد حسين مؤنس[٥] يشير إلى قيام بلاي على الحاكم المسلم، الذي يملك أطراف جهته. فنفاهم عنها، أي أخرج المسلمين عنها. ونحن نعلم أن حاكم الإقليم كان مركزه خيخون، وهذا

---

(١) في هذا القول إشارة إلى أن بلاي كان مستقلاً بناحيته، وله أرضه التي فيما يبدو أنها الصخرة وما حولها.

(٢) حسين مؤنس: فجر الإسلام، ص٣٢٤ - ٣٢٥، ٣٢٧ - المقري: نفح الطيب، ٣/١٧، ٤/١٥ - ١٦، ٣٥٠ - ٣٥١ - خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ٤/١٥ - ١٦.

(٣) حسين مؤنس: نفس المرجع، ص٣٢٤.

(٤) خليل السامرائي: نفس المرجع، ص١٠٥.

(٥) نفس المرجع، ص٣٢٧.

يعني إخراج بلاي للمسلمين من خيخون واستيلائه عليها. يعزز ما ذهبنا إليه رواية تقول أن العرب استولوا على خيخون مدة قصيرة من (سنة ٩٥هـ / ٧١٥م - ١٠٣هـ / ٧٢٢م) لأن الأمير بلاي أول أمير أسباني مستقل بعد مجيء العرب، استرجعها وصارت مركزًا لملوك اشترويش[١]. وهذه السنة التي استعاد فيها بلاي خيخون كما تشير الرواية، هي أول حكم عنبسة في الأندلس (سنة ١٠٣هـ). مما يعني أنه استولى عليها فعلاً عندما قام على نائب عنبسة وهذا ما دفع عنبسة الكلبي أن يقوم بنفسه إلى بلاي لإخماد حركته وإعادة السيادة الإسلامية على تلك الأنحاء، إذ يُذكر أن عنبسة توجه على رأس قوة عسكرية إلى منطقة جليقية، فقام بتوطيد سلطة الدولة وقضى على مظاهر المقاومة فيها، عدا بلاي ومن التف حوله، فقد لجأوا إلى الجبال وأبوا أن يلقوا السلاح، فتركهم المسلمون[٢]. وهذا يعني دحر بلاي ومن معه إلى المناطق الجبلية، واستعادة خيخون وفرض السيطرة الإسلامية على جليقية من جديد، مع بقاء المقاومة تتربص بالمسلمين، منتظرة الوقت المناسب للانقضاض عليهم.

الحركة بعد عهد يزيد بن عبدالملك:

ظل بلاي فيما يبدو يرقب الأوضاع، فعندما رأى اضطراب المسلمين بعد انكسارهم في بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ، قوى أمره مرة أخرى، لكن عقبة بن الحجاج السلولي والي الأندلس (١١٦ - ١٢٣هـ) تمكن من رد بلاي إلى الصخرة، وعمت فتوحاته جليقية كلها[٣]. إلا أنه في أعقاب فترة هذا الوالي، واضطراب أمر الأندلس، بفتنة أبي الخطار وثوابه[٤]، وحركات البربر في شمال إفريقية[١]، استفاد بلاي من هذه الظروف،

---

(١) شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٥٥هـ، ٥٨/٢.

(٢) خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس. الفتح وعصر الولاة (٩٢ - ١٣٨هـ / ٧١١ - ٧٥٦م)، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، ببنغازي، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، دار النجاح، بيروت، ص٢٢٠ - ٢٢١.

(٣) خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص١٠٨.

(٤) انظر أخبار هذه الفتنة التي قامت على أساس العصبية بين المضرية واليمنية، عند / أحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ص٩٤ - ٩٥.

فأخرج المسلمين من اشتريس، ويبدو أن أهل استورقه من المسلمين حاربوه، لكنه هزمهم، إذ تشير المصادر إلى معركة تسمى «كوفا دونجا»[٢] لقي فيها المسلمون الهزيمة، واستطاع بلاي على أثرها إخراج المسلمين من جليقية كلها، وتنصر كل مذبذب في دينه[٣]. ويرجع حسين مؤنس أن هذه المعركة حدثت سنة ١٣٣هـ أو ما بعدها. وأن وفاة بلاي كانت بعد ذلك بقليل من نفس السنة[٤]. لقد كانت هذه الواقعة حاسمة، فقد مهدت لدولة اشتريس، فثبتت قواعدها، على نحو لم يستطع المسلمون إزالتها بعد ذلك، وبذلك كانت حركة بلاي حادثًا فاصلاً في التاريخ الأسباني إذ أنها كانت البداية الحقيقية لحركة لمقاومة النصرانية ضد المسلمين في الأندلس[٥].

---

(١) عن ثورات البربر العامة سنة ١٢٢هـ. بزعامة ميسرة المطغري، ومن خلفه. (انظر/ أحمد العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، ص٩٠ - ٩٣).

(٢) انظر أخبارها عند/ حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٣٢١ - ٣٢٢ - خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص١٠٥ - ١٠٦.

(٣) حسين مؤنس: نفس المرجع، ص٣٢٦ - خليل السامرائي: نفس المرجع، ص١٠٩.

(٤) نفس المرجع، ص٣٣٠ - ٣٣١ - وقد وافقه خليل السامرائي إلى أن هذه المعركة حدثت في أيام عنبسة الكلبي. (انظر هذا القول عند/ حسين مؤنس: نفس المرجع، ص٣٢٩). لكننا نذهب إلى ما وصل إليه حسين مؤنس في التأريخ لهذه المعركة، وأن بلاي وأن قام على عنبسة، إلا أن معركةكوفادونجا لم تحدث في زمنه، لأنها كانت تعني نجاح حركة المقاومة، وتأسيس دولتها النصرانية وهذا لم يحدث إلا بعد عهد عنبسة الكلبي.

(٥) حسين مؤنس: نفس المرجع، ص٣٣٦ - ٣٣٧ - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٦٩.

المبحث الخامس

حركة أخيلا

خروجه على السمح بن مالك في الأندلس والقضاء على حركته:

لم يكن بلاي الرجل الوحيد الذي سعى إلى إعادة الحكم القوطي في أسبانيا، بل أن هناك من شاركه هذا لأمر، وهو أخيلا بن غيطشة[1]، الذي تعاون مع المسلمين الفاتحين ظنًا منه أنهم سيكتفون بالغنائم، ويتركون له البلاد، فلما تبين له هدفهم، وأن الفتح للفتح والدعوة للإسلام، مما يعني البقاء والاستقرار، تمرد عليهم، وخرج على سلطانهم.

وقد كان أخيلا يقيم في مدينة طركونة[2] الأندلسية، عندما استولى عليها المسلمون على يد الحر بن عبدالرحمن الثقفي[3]، ضمن النواحي التي استكمل المسلمون فتحها بعد حركة الفتح الأولى للأندلس[4]. وقد ظن أخيلا أن المسلمين سيتركون ناحية طركونة له، كما ظن غيره من آل غطيشة أن المسلمين يتركون البلاد لهم، فلما وجد أخيلا المسلمين مقيمين في البلاد وإنه لن يصل إلى العرش على أيديهم، خرج عليهم في طركونة، فسار

---

(1) كان غيطشة ملكًا على أسبانيا من سنة (٨١ – ٩٠هـ ٧٠٠ – ٧٠٩م) وقد قام ببعض الأعمال التي أثارت عليه نقمة أهل البلاد، حيث عمل على تولية إبنه الطفل «أخيلا» حاكمًا على ولايتي أربونة وطركونة، تحت وصاية عمه رخشندش، فلما توفى غيشطة، تولت زوجته تدبير ملكه طليطلة فتغلب عليها لذريق، فلجأ آل غيطشة إلى جليقية، وحاولوا استرداد عرشهم، لكنهم هزموا أمام لذريق، ويبدو أن أخيلا هرب إلى افريقيا وأقام عند يوليان حاكم سبتة، ودعا المسلمين إلى فتح أسبانيا. وكان أبناء غيطشة يأملون من وراء تعاونهم مع المسلمين أن يعود إليهم ملك أبيهم، وأن المسلمين سيكتفون بالغنائم ويتركون البلاد لهم. وقد كان لأخوي أخيلا وهما بالمندو وأرطباس دور في هزيمة لذريق أمام المسلمين في معركة وادي بكة (سنة ٩٢هـ)، إذ كانا معه فخذلاه وتعاونا مع المسلمين. (خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص٣٨٢ – ٣٨٥).

(2) طركونة: بلدة بالأندلس، متصلة بأعمال طرطوشة، وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر، وهي بين طرطوشة وبرشلونة، بينها وبين كل واحدة منهما سبعة عشر فرسخًا. (ياقوت: معجم، ٣٢/٤).

(3) كانت ولاية الحر بن عبدالرحمن على الأندلس بين عامي (٩٧ – ١٠٠هـ). (انظر/ أحمد العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، ص٨٦).

(4) عن فتح الأندلس، (انظر/ أحمد العبادي: نفس المرجع، ص ٥١ – ٧٨).

إليه السمح بن مالك الخولاني[1] (١٠٠ - ١٠٢هـ). وأخضع البلد وأخمد التمرد[2]. ومن المحتمل أن السمح قضى على هذه الحركة وهو في طريقه إلى بلاد الغال (فرنسا) غازيًا (سنة ١٠١هـ) ومواصلاً فتوحات المسلمين فيها[3].

وهذا يدفعنا إلى التأريخ لعمل السمح هذا بأواخر عهد عمر بن عبدالعزيز، أو مطلع زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك، وهذا ما نقدمه، لارتباط هذا العمل بخروج السمح إلى بلاد الغال. والذي فيما يبدو أنه حدث مطلع زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك[4].

وبالنظر في هذه الأقوال يتضح أن هذه الحركة لم تقم لإخراج المسلمين من الأندلس، فقد تبين لأبناء غيطشة، عزم المسلمين على الاستقرار، وإنهم لم يأتوا ليعيدوا إليهم ملك أبيهم. وقد أتضح هذا بجلاء في أعقاب الفتح الأول. عندما أسرع طارق بن زياد إلى طليطلة، ليمنع محاولة أخيلا نفسه الذي ما أن تحقق النصر للمسلمين على لذريق في معركة وادي البرباط (سنة ٩٢هـ)، حتى عجل إلى طليطلة لاسترجاع ملك أبيه، فوصلها طارق قبل أن يوافق مجمع طليطلة الديني على قرار تعيينه ملكًا على

---

(١) السمح بن مالك الخولاني، أمير من بني خولان من قضاعة. استعمله عمر بن عبدالعزيز على الأندلس. وأمره أن يميز أرضها، ويخرج ما كان فتحه عنوة فيأخذ منه الخمس وأن يكتب إليه بصفة الأندلس. فقدمها سنة ١٠٠هـ، وفعل ما أمر به عمر. واستشهد غازيا بأرض الفرنجة. وكانت قرطبة عاصمته، وهو الذي بنى قنطرتها (ت ١٠٢هـ). (الزركلي: الأعلام. ٣/١٣٩).

(٢) حسين مؤنس: فجر الأندلس. ص٥٠٦ - ٥٠٧ (نقلاً عن ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس. ص٥ - سيمونيت. ص ١٧٠ - ١٧١). لكنه أشار إلى إنزال السمح شيئا من التخريب بطركونة. كما سنجده بعد ذلك يقول بنهب عنبسة لها عند حديثه عن قضائه على نفس الحركة بعد تجددها في ولايته. وهذا القول، لا يتناسب مع شخصية السمح التي عرفت بحسن السيرة والتدين. بل أنه يظهر أن المؤلف استقاها من المراجع الأجنبية والتي ما انفكت تسعى إلى تشويه التاريخ الإسلامي، وأعمال قادته وفتوحاتهم المجيدة، وهم براء من ذلك. فقد اتهمت بعض المراجع الغربية السمح بالقسوة وتهديم الاديرة والكنائس في الغال كذلك. وهذا ما سنناقشه لاحقا أثناء الحديث عن فتوحاته - خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص٣٨٥ - ٥٨٦. ولم يشر إلى ما يسيء لطبيعة الفتح من تخريب ونهب.

(٣) خليل السامرائي: نفس المرجع والصفحة.

(٤) سنبين ذلك أثناء حديثنا عن حملة السمح على بلاد الغال محاولين الوصول إلى التأريخ الصحيح لخروج الحملة.

أسبانية، ليتأكد أخيلا وأخوته، أن هدف المسلمين هو البقاء، والعمل على نشر الإسلام في أسبانية وما وراءها، فرضوا على مضض بالضياع التي كانت لأبيهم وحصلوا على عهد بذلك من المسلمين[1]. لكن أخيلا فيما يبدو كان يطمع أن يترك له المسلمون له ناحيته وهي طركونة فلما وجدهم جاءوا لفتحها واستولوا عليها، تمرد عليهم، ساعده على ذلك مكانته بين أهلها منذ عهد أبيه[2]، بل وربما يكون لوجود كنيسة جامعة على رأسها مطران[3]، في هذه المدينة أثر في دفع أهلها إلى هذه الحركة وتحريضهم على المسلمين، ويبدو أن القضاء على هذه الحركة لم يكلف السمح كبير عناء إذ كان يقود حملة أعدت لما هو أعظم من هذا التمرد، فلم يزد على إخمادها، بل ظهر تسامحه مع الخارجين، إذ عفا عن أخيلا، وتركه على حاله فيها، وهاذ ما سيؤدي إلى تجدد حركته بعد ذلك.

تجدد الحركة في ولاية عنبسة بن سحيم وقضائه عليها :

يبدو أن أخيلا بين غيطشة حاول استغلال هزيمة المسلمين في بلاد الغال في معركة طولوشة سنة ١٠٢هـ[4]. واضطراب أمر الولاية بعد استشهاد أميرها السمح بن مالك في هذه المعركة فأعلن التمرد من جديد[5]، وانتقض أهالي طركونة على عنبسة بن سحيم الكلبي[6]، لكن الأمير الجديد لم يكن أقل همة من سلفه فقد سارع إلى اخماد

---

(١) خيل السامرائي: الثغر الأعلى، ص٣٨٢ – ٣٨٥.

(٢) انظر قبل: ص١٨٨، هامش (١).

(٣) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٥٠٦ – ٥٠٧.

(٤) انظر هذه المعركة: أحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، ص٨٧. وسنعرض لهذه الموقعة بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا البحث، في ثنايا الحديث عن فتوحات المسلمين في بلاد الغال.

(٥) حسين مؤنس: نفس المرجع، ص٥٠٦ – ٥٠٧ – خليل السامرائي: نفس المرجع، ص٣٨٥ – ٣٨٦.

(٦) عنبسة بن سحيم الكلبي، فاتح من الغزاة الشجعان، كان عامل على الأندلس، وليها سنة ١٠٣هـ، وأوغل في غزو الفرنج، يرى ايزيدور اسقف باجه في ذلك العصر، أن فتوحات عنبسة كانت فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة، وتضاعف خراج بلاد الغال في أيامه، وقد =

حركتهم، حيث زحف إليهم، فدك حصونهم واقتص من زعمائهم، وقد استسلم أخيلا، وانتقل إلى طليطلة فأقام فيها. ولم يحاول الخروج على المسلمين بعد ذلك[1]. ويظهر أن عنبسة أخرجه من طركونة لالتفاف أهلها حوله، فأزال رأس الفتنة لئلا تظهر من جديد، كما فرض على أهل طركونة غرامة مضاعفة[2]. وأظنه يقصد الجزية أو ما صولحوا عليه. فاستقرت بذلك البلاد داخليًا واستتب الأمن فيها، وساد النظام والعدل ربوعها[3].

أما أخيلا، فقد استعرب أبناؤه من بعده، إذ نجد في أحد النصوص اسم أحد أحفاده وهو حفص بن البر قاضي العجم[4].

إن تجاوز المسلمين جبال البرتات إلى بلاد الغال، وقد خلفوا وراءهم بعض الخصوم. أوجد مجالاً لهؤلاء المتربصين، في تنظيم حركاتهم، والخروج على سلطان الفاتحين. فإن المسلمين وإن تمكنوا من القضاء على حركات بعض هؤلاء، كتمرد أهل طركونة بقيادة أخيلا، إلا أن غيرها تمكن من الثبات في ظل غياب قوة المسلمين. واحتقار شأن المتمردين، وقد تمثل هذا في حركة بلاي، التي استغلت كثيرًا من العوامل لتصبح نواة المقاومة المسيحية للوجود الإسلامي في الأندلس.

= افتتح قرقشونة صلحا، وأوغل في بلاد فرنسا فعبر نهر الرون إلى الشرق، أصيب في بعض الوقائع فمات شهيدا سنة ١٠٧م. (الزركلي: الأعلام، ٥/٩١).

لكنه قال: كان عاملاً على الأندلس من قبل هشام، والأصح تولاها من قبل يزيد، ثم أقر زمن هشام حتى استشهد. (انظر/ أحمد العبادي: نفس المرجع والصفحة).

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٥٠٦ - ٥٠٧ - خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص٣٨٥ - ٣٨٦ - شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص٨٥ - محمد محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة، القاهرة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص٢٠٠.

(٢) شكيب أرسلان: نفس المرجع والصفحة.

(٣) محمد زيتون: نفس المرجع والصفحة.

(٤) حسين مؤنس: نفس المرجع والصفحة.

الفصل الثالث

مَرسوم الخَليفة يزيد بن عَبدالملك بتكسير الأصنام والتماثيل والصلبان وإزالة الصّور وَهَدم الكنائس المستحدثة

الفصل الثالث

مَرسوم الخَليفة يزيد بن عَبدالملك
بتكسير الأصنام والتماثيل والصلبان
وإزالة الصّور وَهَدم الكنائس المستحدثة

كان للخليفة يزيد بن عبدالملك سياسته الإدارية والمالية تجاه أهل الذمة، والتي اتسمت بشيء من التشدد والعسف في النواحي المالية[١]. وإن كانت تلك السمة لم تقتصر على أهل الذمة بل شملت جميع رعايا دولته.

ومن أهم تلك الإجراءات التي اتخذها الخليفة يزيد حيال النصارى، المرسوم أو القرار الذي أصدره بخصوص النصارى ومعابدهم وبعض مظاهر عبادتهم. والذي يؤسف له أنه لم يصل إلينا نصه، لا في المصادر العربية ولا غير العربية من يونانية، ولاتينية، وسريانية، وأرمينية.

لكنا عرفنا بهذا المرسوم مما ذكر عنه في عدد من المصادر العربية الخاصة بمصر الإسلامية، أربعة منها مصادر إسلامية، ومصدر واحد قبطي كتب باللغة العربية، وهي:

ابن عبدالحكم (ت ٢٥٧هـ): فتوح مصر، والكندي (ت ٣٥٠هـ): كتاب الولاة وكتاب القضاة، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ): الخطط المقريزية، وابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) النجوم الزاهرة، والمصدر القبطي: ساويرس بن المقفع (عاش في القرن الرابع الهجري): سير الآباء البطاركة[٢].

ونستعرض الآن ما أورده كل مؤرخ من هؤلاء المؤرخين الخمسة حول هذا المرسوم، لنصل إلى صيغة ذلك القرار وما تضمنه، ولنناقشه في ضوء ما ذكر عنه في

---

(١) أوردنا سياسته الإدارية والمالية، نحو أهل الذمة في ثنايا حديثنا عن مجمل سياسته الإدارية والمالية، (انظر: الفصل الخامس).

(٢) تجدر الإشارة إلى اقتصار ذكر هذا المرسوم في المصادر العربية الإسلامية والمسيحية على المصادر الخمسة المشار إليها أعلاه، والخاصة بمصر الإسلامية. إلى جانب ما ذكر عنه في المصادر الأجنبية، التي تبين صداه وأهميته فيها أكثر من المصادر العربية. والحق إننا لم نعثر له على ذكر في مصادر التاريخ الإسلامي العام أو غيرها من المصادر العربية، ولا نعلم لذلك سببًا.

المصادر والمراجع الأجنبية القديمة والحديثة.

أولاً : نص ابن عبدالحكم[1]، قال خلال حديثه عن حَمَّام زبان: «وكان فيه صنم من رخام على خلقة المرأة عجب من العجب حتى كسر في السنة التي أمر يزيد بن عبدالملك فيها بكسر الأصنام، وكان أمر بكسرها في سنة اثنتين ومائة»[2].

ثانياً : نص الكندي[3]، قال: «وكتب يزيد بن عبدالملك في سنة أربع ومائة يأمر بكسر الأصنام فكسرت كلها، ومحيت التماثيل، وكسر فيها صنم حمام زبان بن عبدالعزيز الذي يقال له حمام أبي مرة وله يقول كريب بن مخلد الجيشاني:

من كان في نفسه للبيض منزلة ... فليأت أبيض في حمام زبان

عبل[4] لطيف هضيم الكشح[5] معتدل ... على ترائبه[6] في الصدر ثديان

ثالثًا : نص المقريزي(٧) فقوله: «ثم هدمت الكنائس وكسرت الصلبان ومحيت التماثيل وكسرت الأصنام بأجمعها وكانت كثيرة في سنة أربع ومائة والخليفة يومئذ يزيد بن عبدالملك».

رابعًا : نص ابن تغري بردي(٨) الذي قال: وخرج - يعني حنظلة بن صفوان عامل

---

(١) فتوح مصر، طبعة ليدن، ١٩٢٠م، ص١١٣ - ١١٤.

(٢) ما أورده ابن عبدالحكم عن هذا المرسوم جاء عرضًا، عند ذكره لحمام زبان، فلم يقدم معلومات وافية عنه.

(٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة، تهذيب وتصحيح رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص٧١ - ٧٢.

(٤) عبل: ضخم، وامرأة عبلة، أي تامة الخلق، والأعبل حجارة بيض. انظر: اللسان (عبل).

(٥) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي، وهو من لدن السر إلى المتن، وقيل جانبا السبطن، وقيل الخصر، وهضيم الكشح أي دقيق الخصرين. انظر: اللسان، (كشح).

(٦) الترائب: موضع القلادة من الصدر، وقيل ما بين الترقوة إلى الثندوة، وقيل عظام الصدر، وقيل ما ولي الترقوتين منه، وقيل ما بين الثديين والترقوتين. انظر: اللسان (ترب).

(٧) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، ٤٩٣/٢.

(٨) النجوم، ٢٥٠/١.

يزيد بن عبدالملك على مصر (١٠٢ - ١٠٥هـ) - سنة ثلاث ومئة إلى الإسكندرية واستخلف على مصر عقبة بن مسلم التجيبي، «ثم ورد عليه كتاب الخليفة يزيد بن عبدالملك بن مروان بكسر الأصنام والتماثيل، فكسرت كلها ومحيت التماثيل من ديار مصر وغيرها في أيامه».

خامسًا : المصدر القبطي للمؤرخ ساويرس بن المقفع[1] فنصه «ثم تولى بعده - يعني بعد عمر بن عبدالعزيز - يزيد وما نحسن بشرح ما جرى في أيامه ولا نذكره من السوء والبلاء لأنه أعاد الخراج الذي كان عمر قد رفعه عن البيع والأساقفة سنة واحدة وحمل على الناس ثقلاً عظيمًا حتى ضاق كل من في بلاده، ولم يكتف بهذا فقط حتى أمر بكسر الصلبان في كل مكان وكشط الصور الذي في البيع لأنه كان قد أمر بذلك، لكن السيد المسيح أهلكه لأجل ذلك وأخذ نفسه بعد أن ناله قبل موته بلايا كثيرة وكان مدة مقامه في الملك سنتين وأربعة شهور».

ومن هذه النصوص نستخلص أن المرسوم تناول المسائل الآتية الخاصة بالنصارى وعبادتهم:

أولاً : الأمر بتكسير الأصنام، ذكر ذلك ابن عبدالحكم والكندي والمقريزي وابن تغري بردي، ولم يذكره ساويرس ابن المقفع. ويتضح من هذا أن البلاد المفتوحة كان بها بقايا من آثار الوثنية القديمة، ممثلة في بقاء نماذج من الأصنام كصنم حمام زبان الذي ورد في نص ابن عبدالحكم والكندي، وهو عبارة عن تمثال لجسد امرأة حسناء[2]. ويتبين أن الخليفة يزيد أراد بذلك تطهير الدولة الإسلامية من بقايا الوثنية ومظاهرها، وصبغ مظاهر الحياة في دولته بالسمة الإسلامية.

---

(١) كتاب سير الآباء البطاركة، باريس، ١٩٠٣م، ١/١٥٣، (وتجدر الإشارة إلى خطأ مدة خلافة يزيد التي ذكرها، والصحيح أنها أربع سنوات وشهر).

(٢) انظر وصف هذا التمثال شعرًا في نص الكندي، قبل: ص٢٦٧.

ثانيا : وتضمن المرسوم محو[١] التماثيل، أورد ذلك الكندي والمقريزي وابن تغري بردي.

ويرجح أن المقصود بمحو التماثيل، هو محو الصور[٢]. وإزالة التماثيل الدينية، وبخاصة ما وجد منها داخل الكنائس. وليس المقصود من ذلك فيما يبدو تكسير الأصنام، لأن النصوص فصلت في ذلك وقالت بكسر الأصنام ومحو التماثيل، كما أن ساويرس بن المقفع أفصح عن المقصود بذلك، فلم يقل بمحو التماثيل، وقال: «وكشط الصور»[٣].

والصور المستهدفة بهذا المرسوم هي عموم الصور لكل ذي روح، يتضح ذلك من عمومية اللفظ في النصوص الواردة حول المرسوم، وما أوردته المصادرة من أن تنفيذ المرسوم شمل فيه التحطيم عموم الصور بناء على أمر الخليفة[٤]. وقد جاء هذا التعميم لأن الإسلام يحرم التصوير وصور وتماثيل كل ذي روح، وإن كان بعض المؤرخين الأجانب أشاروا إلى أسباب أخرى وراء إصدار المرسوم بمحو الصور والتماثيل[٥].

وقد جاء تحريم الصور والتماثيل في ديننا الحنيف لحكمة بالغة، هي البعد عن

---

(١) محا: محا الشيء يمحوه ويمحاه محوًا ومحيًا. اذهب أثره والمحو لكل شيء يذهب أثره، ومحا لوحه يمحوه محوا، فهو محو. والماحي من أسماء الرسول ﷺ محا الله به الكفر وآثاره. انظر: اللسان (محا).

(٢) ورد لفظ التماثيل بمعنى الصور في عدد من الأحاديث النبوية المحرمة للتصوير، منها: ما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي النبي ﷺ وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل. فلما رآه هتكه وتلون وجهه وقال: «يا عائشة أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله» قالت عائشة فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين. رواه مسلم. (انظر هذا الحديث وأحاديث أخرى أوردت لفظ التماثيل بمعنى الصور عند/ الشيخ عبدالعزيز بن باز: الجواب المفيد في حكم التصوير، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد، إدارة الطبع والترجمة، المطابع الأهلية للأوفست، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ، ص٥ وما بعدها).

(٣) انظر كامل النص في الصفحة قبل السابقة.

(٤) انظر ما سنكتبه عن تنفيذ مرسوم يزيد، وما تم على أثر تنفيذه، بعد: ص٢١٠ وما بعدها.

(٥) سنشير إلى المصادر الأجنبية التي أشارت إلى هذا المرسوم وما أوردته من أسباب إصداره، انظر بعد: ص٢١١ وما بعدها.

مظاهر الوثنية وحماية العقيدة من الشرك وعبادة الأصنام، فنهى القرآن عن عبادة الأصنام وشنع على من كان يعكف عليها وندد بمن يتخذ الأصنام والأوثان آلهة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1]. وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. وأيضا قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾[2] وقوله: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ...﴾[3].

كما نهت السنة النبوية المطهرة عن اتخاذ الصور والتنفير منها[4]. ومعلوم أن عبادة غير الله شرك، وعبادة الاصنام والتماثيل والصور شرك، وقد بين عز وجل حكم من أشرك به فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[5].

أما فيما يخص حكم التصوير و الصور وما هي فيه، فيقول الشيخ عبدالعزيز بن باز[6]: «جاءت الأحاديث الكثير عن النبي ﷺ في الصحاح و المسانيد والسنن دالة على تحريم تصويل كل ذي روح آدميا كان أو غيره، وهتك الستور التي فيها الصور، والأمر بطمس الصور ولعن المصورين وبيان أنهم أشد الناس عذاباً يوم القيامة». ثم ذكر جملة من الأحاديث الصحيحة الواردة في هذا الباب، سنوردها نحن بألفاظ النصوص التي

---

(١) الصافات: ٩٥، ٩٦.

(٢) نوح: ٢٣، ٢٤.

(٣) العنكبوت: ١٧.

(٤) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، دار وهدان للطباعة والنشر، ص١١٠ - ١١١ وهامش (١٦) منها.

(٥) النساء: ١١٦.

(٦) الجواب المفيد في حكم التصوير، ص٣.

خرجناها، ومنها: ما رواه البخاري بسنده عن الأعمش عن مسلم قال: «كنا مع مسروق في دار يسار بن نمير، فرأى في صفّتة تماثيل فقال: سمعت عبدالله قال سمعت النبي ﷺ يقول: عن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون»[١].

وما رواه البخاري بسنده عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله ﷺ، قام على الباب فلم يدخل، فعرفت في وجهه الكراهة، فقالت يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله، ماذا أذنبت؟ فقال رسول الله ﷺ: ما بال هذه النمرقة؟ قالت فقلت اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها، فقال رسول الله ﷺ: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم أحيوا ما خلقتم، وقال: إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة»[٢].

وما رواه مسلم عن سعيد بن أبي الحسن قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني رجل أصور هذه الصور، فافتني فيها، فقال له: إدن مني، فدنا منه، ثم قال إدن مني فدنا حتى وضع يده على رأسه. فقال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار ويجعل له بكل صورة صورها نفسًا فتعذبه في جهنم»[٣].

وما رواه أبوداود بسنده عن جابر رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ أمر عمر بن الخطاب زمن الفتح وهو بالبطحاء أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها، فلم يدخلها النبي ﷺ حتى محيت كل صورة فيها»[٤].

وما رواه مسلم بسنده إلى أبي الهياج الأسدي قال: «قال لي علي بن أبي طالب ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ، أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا

---

(١) البخاري مع فتح الباري، ٣٩٦/١٠، ٤٠٠ - صحيح مسلم، ١٦٧٠/٣ - مسند الإمام أحمد، ٣٧٥/١، ٤٢٦، ٢٦/٢، ٥٥.

(٢) البخاري مع فتح الباري، ٣٩٥/٦، ١٧/٩، ١٥٧/٩، ٣٩٦/١٠، ٤٠٢، ٤٠٦ - صحيح مسلم، ١٦٦٩/٣.

(٣) صحيح مسلم، ١٦٧٠/٣ - مسند الإمام أحمد، ٣٠٨/١.

(٤) سنن أبي داود بشرح عون المعبود، ٢١٢/١١ - مسند الإمام أحمد، ٣٣٥/٣، ٣٨٣، ٣٩٦.

إلا سويته». وروى عن أبي بكر بالإسناد المتقدم بلفظ «ولا صورة إلا طمستها»[(١)].

ومن ذلك أيضاً، ما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه يقول: سمعت أباطلحة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة ولا تماثيل»[(٢)]. وغيرها من الأحاديث الكثيرة في هذا الباب[(٣)].

وعلى أساس هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ، نجد أن الإسلام حرم التصوير والصور والتماثيل، وتبين أن التحريم للتصوير جاء على العموم لكل ذي روح، وأن ذلك من كبائر الذنوب المتوعد عليها بالنار، وهي حرمة عامة لأنواع التصوير، سواء كان للصورة ظل أم لا، وسواء أكان التصوير في حائط أو ستر أو قميص أو قرطاس أو مرآة أو غير ذلك، واستعمال ما هي فيه ودخول البيت الذي هي فيه، إلا إذا كانت فيما يمتهن أو قطع رأس المصوَّر، ولا يجوز تعليقها أو نصبها في أي مكان، لأن ذلك وسيلة للشرك بالله ولأن في ذلك مضاهاة لخلق الله

---

(١) صحيح مسلم، ٦٦٦/٢ - النسائي، ٨٨/٤ - مسند الإمام أحمد، ٧٨/١، ١٣٨ - سنن البيهقي، ٣/٤ بدون لفظ «ولا صورة إلا طمستها» - جامع الترمذي، ١٥٠/٤ وقال حديث علـى حـديث حسن والعمل على هذا عند بعض أهل العلم. وقال الألباني في هذا الإسناد علة وهي عنعنة حبيب فقد كان مدلساً ولم يصرح بالتحديث في شيء من هذه الطرق إليه، لكن الحديث صحيح فإن لـه طرقا أخرى يتقوى بها (إرواء الغليل، ٢٠٩/٣).

(٢) البخاري مع فتح الباري، ٣٥٩/٦، ٤١٤، ٤٤٦، ٣٦٧/٧، ١٥٧/٩ - صحيح مسـلم، ١٦٦٥/٣ - ١٦٦٦ - سنن أبي داود بشرح عون المعبود، ٢٠٧/١١، ٢١٠ - جامع الترمذي بشرح تحفة الأحـوذي، ٨٨/٨ - ٨٩، ١٠٧، ١٣٩، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٠، ٢٧٧، ٩٠/٣، ٢٨/٤، ٢٩، ٣٠، ١٤٣/٦، ٢٤٦، ٣٣٠.

(٣) لمزيد من هذه الأحاديث في هذا الباب، انظر كتب الحديث بـاب الصـور والتصـوير، وكـذلك: عبدالعزيز بن باز: الجواب المفيد في حكم التصوير، ص ٤ - ١٠ - وكذلك كتابه الفتاوي، كتاب الدعوة، سلسلة نصف سنوية تصدر عن مؤسسة الدعوة الإسلامية الصحفية، المملكـة العربيـة السعودية، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ، ١٩/١ - ٢٠. وهناك أحاديث أخرى عنده، وانظر أيضا / أحمد تيمور: التصوير عند العرب، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات، زكـي محمد حسن، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٢م، ص١١٩.

وتشبهًا بأعداء الله[1].

ونقل الشيخ عبدالعزيز بن باز[2] قول النووي في شرح مسلم في باب تحريم التصوير قوله: قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم، وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث، وسواء صنعه بما يمتهن أو بغيره، فصنعته حرام وأما تصوير ما ليس فيه روح كالشجر فليس بحرام. هذا حكم التصوير، أما اتخاذ المُصَوَّر فيه صورة حيوان فإنه أن كان معلقًا على حائطًا أو ثوبًا ملبوسًا أو عمامة أو نحو ذلك، مما لا يعد ممتهنًا، فهو حرام، وإن كان في بساط يداس ومخدة ونحوهما مما يمتهن فليس بحرام، ولا فرق في هذا بين ماله ظل وما لا ظل له. وقال: أن هذا تلخيص مذهبنا وبمعناه قال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو مذهب الثوري ومالك وأبي حنيفة وغيرهم[3].

---

(1) عما كتبناه أعلاه وتفاصيل أوفى وأشمل: انظر: الشيخ عبدالعزيز بن باز: الجواب المفيد في حكم التصوير، ص١٠ - ١٣ - وله أيضًا: الفتاوي، ١٨/١ - ٢٠ - أحمد تيمور: التصوير عند العرب، ص١٢٠ - زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ص١٦٣ - ١٦٤.

(2) الجواب المفيد في حكم التصوير، ص١٣ - ١٤، ولمزيد من الفائدة حول هذا الموضوع انظر كامل الكتيب.

(3) تجدر الإشارة إلى أن من الدارسين المحدثين من يرى أنه لا يراد تعميم تحريم التصوير في كل زمان ومكان، خصوصًا إذا أمن جانب العبادة والتعظيم، وذلك لما في التصوير من فوائد، ويرى بعضهم أن حكم التصوير الكراهة في زمن الرسول ﷺ لا التحريم، ومن المستشرقين من قال: أن القرآن لم ينه عن عمل الصور والتماثيل، وأن النبي ﷺ لم ينه عن ذلك، وأن هذه الكراهة نشأت بين الفقهاء في القرن الثاني الهجري، وأن الأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ حول ذلك موضوعة.

ونحن نشير إلى هذه الآراء، للعلم والإحاطة لا تصديقًا لها أو تسليمًا بها، بل ندفعها وندحضها، لثبوت تحريم التصوير والتماثيل، بما ورد من آيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة ثابتة، ذكرنا بعضًا منها في الصفحات السابقة.

من اجل هذه الآراء الآنفة الذكر، (انظر/ أحمد تيمور: التصوير عند العرب، ص١١٩، ١٢١ - ١٢٢، ١٢٨ - ١٢٩ - زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ص١٦٣ - ١٦٤، ٦٧٠ - ٦٧١.

وانظر أيضًا في هذا الصدد بحث كريزول: =

وليس ثمة شك في أن تحريم الإسلام للصور والتماثيل - بناء على ما ورد بشأنه في القرآن والسنة - كان هو الدافع وراء قرار الخليفة يزيد بن عبدالملك بتكسير الأصنام ومحو الصور والتماثيل(١).

ثالثًا : وتضمن المرسوم أيضًا الأمر بهدم الكنائس. وقد انفرد بذكر ذلك من المصادر العربية المقريزي(٢). والبين أن المقصود بقوله هدم الكنائس المستحدثة، التي بناها المسيحيون بعد الفتح الإسلامي. حيث أن الصلح جرى بين المسلمين وأهل الذمة على أن لا تهدم بيعهم ولا كنائسهم، وإلا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة، فإن فعلوا شيئًا من ذلك عوقبوا وأخذ منهم(٣).

ونستعرض الآن مقتطفات من عهود الصلح التي أبرمها المسلمون مع أهالي البلاد المفتوحة فيما يخص إعطاءهم الأمان على ما بأيديهم من الكنائس وعدم إستحداث غيرها.

فقد ذكر أبويوسف أن خالد بن الوليد صالح أهل الحيرة على أن لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة، وبقراءة الكتاب الذي كتب بينهم - وكان قد أورده - وجدناه لم ينص على ذلك. كما صالح أهل عانات وقرقيساء وغيرها على ذلك(٤). ومن نصوص الصلح التي حفظتها لنا المصادر، كتاب الأمان الذي أعطاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل لد وسائر كورها وقد جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا مللها، ولا من صلبهم، ولا....»(٥).

= Creswell, K. A. C: The Law Fulness of Painting in Early Islam, in Ars Islamica, XI – XII, 1946).

(١) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص١١.

(٢) انظر النص الذي أورده قبل: ص١٩٦.

(٣) أبو يوسف: الخراج، تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار الإصلاح للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص٢٨١ - ٢٨٢.

(٤) نفس المصدر، ص٢٨٩، ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم، ٣/٦٠٩.

وورد في صلح أهل مدينة دمشق: «بسم الله الرحمن الرحيم، وهذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها، أمانًا على أنفسهم وأموالهم، وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم، ...»[١].

كما ورد في كتاب الأمان الذي أعطى لنصارى أهل الشام ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم...، وعلى ألا نمنع أحدًا من المسلمين أن ينزل كنائسنا في الليل والنهار، ونضيفهم فيها ثلاثًا، ونطعمهم من الطعام، ونوسع لهم أبوابها، ولا نضرب فيها بالنواقيس إلا ضربًا خفيًا، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة، ولا نؤوي فيها ولا في شيء من منازلنا جاسوسًا لعدوكم، ولا نحدث كنيسة، ولا صومعة، ولا قلاية، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نقصد الاجتماع فيما كان منها من خطط المسلمين وبين ظهرانيهم، ولا نظهر شركًا، ولا ندعو إليه، ولا نظهر صليبًا على كنائسنا، ولا في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم، ولا...، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، فإن خالفناه، فلا ذمة لنا ولا عهد، وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل الشقاق و المعاندة»[٢].

وقد ورد في كتاب صلح أهل إيلياء الذي يعتبر الأساس في كتب الصلح والأمان لأهل الشام ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبدالله أمير المؤمنين أهل أيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ...»[٣].

أما صلح أهل مصر فقد ورد فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ...»[٤].

---

[١] ثريا حافظ عرفة: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي، رسالة دكتوراه، مقدمة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، بكلية الشريعة، جامعة أم القرى، بمكة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، غير مطبوعة، ص٥٥.

[٢] ثريا عرفة: نفس المرجع، ص٥٦ – ٥٧.

[٣] الطبري: نفس المصدر، ٦٠٩/٣.

[٤] الطبري: تاريخ الأمم، ١٠٩/٤.

ويتبين أن من أهم بنود عهود الصلح التي أبرمها المسلمون مع أهل الذمة، أن يحترموا الشعائر الدينية للمسلمين، ولا يظهروا من طقوسهم ما يؤذي مشاعر المسلمين، وأن يؤمنوا أهل الذمة على كنائسهم التي جرى عليها الصلح، وألا يحدثوا أي كنائس أو دور عبادة غيرها[1].

وعلى هذا الأساس تركت البيع والكنائس القديمة، فلم تهدم، ولذلك قال أبويوسف[2]: «ولست أرى أن يهدم شيء مما جرى عليه الصلح، ولا يحول، ويمضي الأمر على ما أمضاه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم[3]، فإنهم لم يهدموا شيئًا مما كان الصلح جرى عليه، فأما ما أحدث من بناء بيعة أو كنيسة فإن ذلك يهدم»[4].

ونقل أبويوسف[5] أن ابن عباس سئل عن العجم ألهم أن يحدثوا بيعة أو كنيسة في أمصار المسلمين؟ فقال: «أما مصر مصرته العرب فليس لهم أن يحدثوا فيه بيعة أو كنيسة، ولا يضربوا ناقوسًا، ولا يتخذوا فيه خنزيرًا، وكل مصر كانت العجم مصرته ففتحه الله على العرب، فنزلوا على حكمهم، فللعجم ما في عهدهم، وعلى العرب أن يفوا لهم بذلك».

إلا أن بعض الأمراء الأمويين تسامحوا مع أهل الذمة، فتركوا لهم الفرصة في

---

(1) ثريا عرفة: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص٥٩.

(2) الخراج، ص٢٩٤ - ٢٩٥.

(3) جعل رسول الله ﷺ قبل خلفائه ذمته لنصارى نجران على بيعهم. (انظر: توفيق اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق، ص١٠٠).

(4) وانظر أيضًا على إعطاء المسلمين العهد لأهل الذمة بالإبقاء على بيعهم وكنائسهم، على ألا يستحدثوا غيرها وما قيل حول ذلك / الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الفكر، ص، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، ص ١٢٧ - المقريزي: خطط، ٤٩٢/٢ - توفيق اليوزبكي: نفس المرجع، ص١٠٠ - ١٠٣ - ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ص٩، ٣٩، ٤١.

(5) نفس المصدر، ص٢٩٦ - ٢٩٧.

استحداثها، والسماح بتجديد بعض ما خرب منها، والإعانة على ذلك أحيانًا وإقـــراره[1]، من ذلك أمر معاوية رضي الله عنه بتجديد بيعة الرها الكبرى عقب زلزال هـــدم بعـــض أجزائها. وموافقة عبدالعزيز بن مروان حين بنى مدينة حلوان بمصر، علـــى اســتحداث كنيسة لخادمين ملكانيين عرفت بكنيسة الفراشين. ولكاتبه اثناسيوس، ببناء كنيسة فـــي قصر الشمع، فلم يكتف اثناسيوس بواحدة، بل شيد اثنتين هما كنيســـة مـــار جـــرجس، وكنيسة أبي قير داخل قصر الشمع، وأقام ثالثة بالرها. وما ذكر من قيام خالد القســـري أمير العراق في عهد هشام ببناء كنيسة لأمه – وكانت نصرانية – في ظهـــر المســـجد الجامع بالكوفة، وأنه سمح للنصارى بوجه عام ببناء كنائس أخرى[2].

ويبدو أن المسيحين، بالغوا في استغلال هذا التسامح وتمادوا في إســتحداث كثيـــر من الكنائس والبيع. لذلك نجد سلف يزيد وهو الخليفة عمر بن عبدالعزيز يـــأمر بهـــدم الكنائس المستحدثة، كما أكد على ألا يحدث كنيسة ولا بيت نار بينما أمر بألا تهـــدم دور العبادة من بيع وكنائس وبيوت نار التي كان قد صولح عليها أهلها[3].

ومن هنا فيما يبدو جاء مرسوم الخليفة يزيد بن عبدالملك متضـــمنًا الأمـــر بهـــدم

---

(1) عن تسامح بني أمية مع أهل الذمة في تجديد الكنائس واستحداثها. (انظـــر/ صـــالح الحمارنـــة: المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الإسلامي، بحث ضمن مجموعة أعمال المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام (من القرن ٦ – ١٧م)، المنعقد في الجامعة الأردنية، نشر الدار المتحـــدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م، ص٥٥٦ – سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلـــى قيام الدولة الطولونية، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م، ص١٩٠ – ١٩١ – ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ص٤٤ – ٤٥، ٥٣ – ٥٤ – توماس أرنولـــد: الـــدعوة إلـــى الإسلام، ترجمة وتعليق حسن إبراهيم حسن، وعبدالمجيد عابدين، وإسماعيل النجراوي، مكتبـــة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٠م، ص٨٤ – ٨٥).

(2) ثريا عرفة: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص٦٧ – ٦٨.

(3) من أجل سياسة عمر بن عبدالعزيز تجاه هذا التجاوز وتطبيق ما تضمنته مواثيق الصلح. (انظر/ أبويوسف: الخراج، ص٢٦٢ – نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام، ص٩٩ – ناديـــة صـــقر: سياسة عمر بن عبدالعزيز تجاه أهل الذمة، ص٧١ – ٧٢ – ثريا عرفة: نفس المرجع، ص٦٧ – فيليب حتي: تاريخ العرب (مطول)، تحقيق ادورد جرجي وجبرائيل جبور، دار الكشـــاف للنشـــر والطباعة والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٩٦١م، ٣٠٢/١ – ٣٠٣).

الكنائس المستحدثة. بل يتضح أنه أخذ سياسة متشددة نحو أهل الذمة في هذا الشأن. فلقد ذكر أنه أمر بإعادة بعض الكنائس التي أقطعها بعض أسلافه من الخلفاء الأمويين لأشراف من العرب، إلى من أقطعت لهم بعد أن ردها عمر بن عبدالعزيز إلى النصارى[١].

رابعًا: الأمر بكسر الصلبان، نص على ذلك المقريزي وساويرس بن المقفع.

وكان المسلمون قد منعوا أهل الذمة واشترطوا عليهم في الصلح معهم من إخراج صلبانهم إلا في يوم عيدهم الأكبر[٢]، خارج المدينة بلا رايات ولا بنود، وألا يظهروا صلبانهم داخل بيوت المسلمين ومساجدهم[٣]. يقول أبويوسف[٤]: «حدثني بعض أهل العلم عن مكحول الشامي: أن أبا عبيدة بن الجراح صالحهم بالشام واشترط عليهم حين دخلها على أن يترك كنائسهم وبيعهم، على أن لا يحدث بناء بيعة ولا كنيسة، ....، ولا يرفعوا في نادي أهل الإسلام صليبًا، .....، ولا يخرجوا الرايات في يوم عيد، ....، فإن فعلوا شيئًا من ذلك عوقبوا وأخذ منهم».

وقال في موضع آخر ينقل أمر عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة رضي الله عنهما ورأيه فيما أعطاه أهل الذمة من العهد: «وأما إخراج الصلبان في يوم عيدهم فلا تمنعهم من ذلك خارج المدينة بلا رايات ولا بنود على ما طلبوا منك يومًا في السنة. فأما داخل بيوت المسلمين ومساجدهم فلا تظهر الصلبان». فأذن لهم أبوعبيدة في يوم من السنة، هو يوم عيدهم الذي فيه صومهم، وأما غير ذلك فلم يكونوا يخرجون صلبانهم[٥].

---

(١) عن تلك الكنائس التي أعادها يزيد إلى من أقطعت لهم. (انظر ما ذكرنا عنها بعد: الفصل الخامس، المبحث الثاني، ص٦٠٨).

(٢) عيدهم الأكبر: عيد الفصح. وهو يوم الفطر من صومهم الأكبر وفيه – كما يزعمون – قام المسيح بنفسه بعد الصلبوت بثلاثة أيام، وخلص آدم من الجحيم وأقام في الأرض أربعين يومًا آخرها يوم الخميس ثم صعد إلى السماء، وفي الفصح يوقدون المشاعل، ويدعون أيضًا الفصح بالقيامة، لتذكار قيامة المسيح من الموت يوم الفصح. (توفيق اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق ص٢٩٠ – ٢٩١).

(٣) من أجل ذلك انظر/ أبويوسف: الخراج، ص٢٨١ – ٢٨٢، ٢٨٥ – ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٤.

(٤) نفس المصدر، ص٢٨١ – ٢٨٢.

(٥) أبو يوسف: نفس المصدر، ص٢٨٥ – ٢٨٦.

وقد نص على عدم إظهارهم للصلبان أمان المسلمين لنصارى الشام حيث ورد فيه ما نصه: «... ولا نظهر صليبًا على كنائسنا، ولا في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم، ...»[١].

وهناك ما يدل على تجاوز المسيحيين لشروط الصلح وإظهارهم لصلبانهم، فيذكر ترتون[٢]: أن عبدالعزيز بن مروان أمير مصر (٦٥ - ٨٦هـ)، أمر بتحطيم جميع الصلبان الموجودة بمصر. كما ذكر أبويوسف[٣] أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز كتب إلى أحد عماله يأمره بقوله: «أما بعد، فلا تدعن صليبًا ظاهرًا إلا كسر ومحق...» مما يشير إلى وجود تجاوز أدى إلى فعل عبدالعزيز وأمر ابنه عمر.

ولعل هذا ما دعى الخليفة يزيد بن عبدالملك إلى أن يضمن مرسومه الأمر بكسر تلك الصلبان[٤].

خامسًا : عموم أمر الخليفة وسريان تنفيذه على سائر الأقطار الإسلامية، مصر وغيرها، أشار إلى ذلك بوضوح ابن تغري بردي في نصه حيث قال: «... فكسرت كلها - أي الأصنام ومحيت التماثيل من ديار مصر وغيرها في أيامه»[٥].

---

(١) ثريا عرفة: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص٥٧.

(٢) أهل الذمة في الإسلام، ص١٠٩.

(٣) الخراج، ص٢٦٢.

(٤) مما تجدر الإشارة إليه، وقوع الاختلاف بين عهود الأمان التي أعطيت لأهل الذمة في الأقطار المختلفة، إجمالاً وتفصيلاً، فنجد من الشروط في عهد بلد ما لا نجده في عهد آخر. وإني لأرى أن ذلك راجع لشخص القائد وظروف الفتح والتفاوض. مع التسليم بأن هناك أشياء تعتبر من الثوابت والمسلمات، لا يعني عدم ذكرها في شروط الصلح عدم تطبيقها على أهله. خصوصًا فيما يتعلق باحترام أهل الذمة للمسلمين وشعائرهم الدينية، وحدود الحرية لأهل الذمة. فعلى سبيل المثال، إذا لم يذكر في شروط صلح النص على عدم إستحداث الكنائس أو رفع الصلبان. فإن ذلك لا يعني الإباحة لهم، باعتبار ذلك منهج إسلامي يطبق على الكل وإن لم يذكر. أما ما يسلم به من الاختلاف والالتزام بحرفيته فقد يكون ذلك في النواحي المالية التي راعى فيها الفاتحون اختلاف ظروف البلاد وأهلها.

(٥) انظر كامل النص قبل: ص ١٩٧.

وكذلك ساويريس بن المقفع الذي أورد في نصه: «.... ولم يكتف بهذا فقط حتى أمر بكسر الصلبان في كل مكان، ...»[1].

كما أشارت إلى عمومية مرسوم الخليفة وتنفيذه في جميع الولايات الإسلامية، عدد من المصادر والمراجع المسيحية القديمة والحديثة[2].

سادسًا : أن تأريخ صدور هذا المرسوم كما ورد في المصادر العربية، مختلف فيه، فابن عبد الحكم يؤرخ له بـ (سنة ١٠٢هـ/ ١٢ يوليه ٧٢٠م – ٢ يونية ٧٢١م). بينما يؤرخ له كل من الكندي والمقريزي بـ (سنة ١٠٤هـ / ٢١ يونية ٧٢٢م – ١٢ مايو ٧٢٣م). أما ابن تغري بردي فقد قال: أن كتاب الخليفة يزيد وصل إلى عامله على مصر بعد خروجه إلى الإسكندرية (سنة ١٠٣هـ / ١ يوليه ٧٢١م – ٢٢ مايو ٧٢٢م). إلا أن ساويرس بن المقفع أرخ له بأوائل خلافة يزيد التي بدأت في (رجب سنة ١٠١هـ / ١٧ يناير ٧٢٠م). لكنه لم يحدد. ويفهم من قوله أن صدور هذا المرسوم تم في أواخر سنة ١٠١هـ أو سنة ١٠٢هـ / ١ يوليه ٧٢١م. فيكون بذلك تأريخ ابن عبدالحكم وساويرس بن المقفع للمرسوم متقاربًا أن لم يكن متوافقًا، إذا كان ساويرس عنى بأول خلافته، صدر خلافته، لا أول شهر منها أو نحوه على وجه الدقة، واللفظ يحتمل أن يكون أولها في حدود العام من البداية، خصوصًا إذا كنا نعلم أن يزيد شغل منذ تولي الخلافة بحركة ابن المهلب والتي لم تنته إلا في صفر سنة ١٠٢هـ، فيكون المرجح أنه أصدر أمره بعد فراغه من تلك الحركة، يسند ذلك أن هناك روايات[3] أشارت إلى إشراف أخيه مسلمة بن عبدالملك على تنفيذ مرسومه في العراق، ومسلمة هو الذي تولى إخماد حركة ابن المهلب، مما يعني أن صدور المرسوم كان بعد القضاء على ابن المهلب، أي فيما بعد (صفر سنة ١٠٢هـ). كما أرى أن تأريخ ابن تغري بردي

---

(١) انظر كامل النص قبل: ص ١٩٧.

(٢) سنستعرض ما ورد في تلك المصادر والمراجع حول هذا المرسوم في الصفحات التالية، وسيكون لنا تعليق على عمومية أمره، واتضاحه وظهور أثره في بعض البلدان الإسلامية دون الأخرى.

(٣) انظر الصفحة التالية.

للمرسوم لا يخالف تأريخ ابن عبدالحكم وساويرس، بل أراه يوافقهما، إذ أنه أخبر أن أمر يزيد ورد على عامله بمصر (سنة ١٠٣هـ)، ولم يقل أصدر أمره (سنة ١٠٣هـ)، فلا خلاف صريح بينهما، فلعل يزيد أصدر أمره أواخر سنة ١٠٢هـ كما أخبر ابن عبدالحكم، وورد أمره على عامل مصر أوائل (سنة ١٠٣هـ).

وحيث أنا سنستعرض روايات أجنبية أرخت لهذا المرسوم، فإنا نترك أمر الوصول إلى التاريخ المرجع إلى ما بعد ذكرها[1].

هكذا كان مرسوم الخليفة يزيد في مصادر مصر الإسلامية والقبطية، وقد قام على تنفيذ مرسومه في مصر عامل الخراج عليها في زمنه أسامة بن زيد الذي قام بمهاجمة الأديرة، وهدم الكنائس، وكسر الأصنام والصلبان والتماثيل ومحو الصور، ولم تنج خلال هذه الحركة بعض الآثار الفرعونية القديمة من الهدم والتخريب[2].

كما قام مسلمة بن عبدالملك أمير العراق (سنة ١٠٢هـ) من قبل الخليفة يزيد، بتنفيذ مرسومه فأمر بمحو الصور جميعها سواء ما كان منها في الكنائس، أو على الجدران أو في البيوت والكتب، كما قام بتحطيم جميع الأصنام والتماثيل سواء أكانت من الحجر أم العاج[3].

---

(١) انظر ما كتب عن هذا المرسوم في المصادر الأجنبية، بعد في الصفحات التالية.

(٢) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص١٨٠ - ١٨١ - ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ص٤٥ - ٤٦، ١١١.

(٣) ترتون: نفس المرجع،، ص١١ (نقلاً عن: Anonymous: Syrenc chronicle, 1p ٣٠٨).
لكن الجدير بالإشارة أن إصدار مرسوم الخليفة يزيد قد جاء بعد عزل مسلمة عن إمارة العراق (آخر سنة ١٠٢ أو أوائل سنة ١٠٣هـ)، إذا كان اعتمادنا على تاريخ صدور المرسوم عند المؤرخين المسلمين الذين أرخوا له بسنة ١٠٤هـ. أما ما رجحه المؤرخ فازيليف من التواريخ المختلفة لصدور هذا القرار، وهو (شهر يولي سنة ١٩٧١م، أي الموافق المحرم من سنة ١٠٣هـ) فيمكن أن يكون موافقًا لأواخر ولاية مسلمة على العراق، فأشرف على تنفيذ المرسوم هناك في الشهور الأخيرة من ولايته، هذا إذا كان عزله تم في سنة ١٠٣هـ، وذلك لوجود الاختلاف في سنة عزله، ولعدم تحديد الشهر الذي عزل فيه. (عن تاريخ عزل مسلمة انظر بعد: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص٤٧٤ - ٤٧٥). =

ومن الواضح أن المنية أدركت الخليفة يزيد بن عبدالملك، والذي لم تطل مدة خلافته قبل أن يتم تنفيذه أمره[١].

ويخص المؤرخ (فازيليف A. A. Vasiliev)[٢] مرسوم الخليفة يزيد ببحث جمع فيه ما أوردته المصادر المصرية الإسلامية والقبطية والأجنبية حول هذا المرسوم، أسبابًا، وتاريخًا، ومضمونًا، ونتائج. وسنعرض الآن لأهم ما ورد فيه:

لقد ذكر أولاً أربعة من المصادر العربية التي تحدثت عن المرسوم وهي الكندي، المقريزي، ابن تغري بردي، ساويرس ابن المقفع، أي ثلاثة إسلامية، وواحد قبطي، والتي ناقشنا نصوصها في الصفحات السابقة، بينما لم يشر إلى ما أورده ابن عبدالحكم عن هذا المرسوم[٣].

ثم ذكر أن أول إشارة إلى هذا المرسوم وردت في المصادر الإغريقية، وجاء ذلك في الخطاب الذي ألقاه بطريرك القدس حنا، والذي كان من قبل بطريركا لأنطاكية، وكان يمثل بطارقة الروم، في مجمع نيقية المسكوني المنعقد (١٧٠هـ - رجب ١٧١هـ / ٧٨٧م)[٤] وذلك بقصد إيضاح تأثر الامبراطور البيزنطي ليو الأيسوري في سياسته

= وفي قول ترتون أن صح قرينة على صحة أو مقارنة الصحة في التاريخ الذي توصل إليه فازيليف لهذا المرسوم، (انظر ما توصل إليه بعد: ص٢٩٤). وسنناقش هذا التاريخ نحن، وسيكون لنا فيه رأيا. (أنظر بعد: ص٢٩٥).

(١) انظر: ترتون: نفس المرجع، ص٤٥ - ٤٦.

(٢) The Iconoclastice Edict of the Caliph Yazid II, A. D. ٧٢١.

(٣) أوردنا ما ذكره ابن عبدالحكم عن هذا المرسوم وناقشناه مع ما ورد في المصادر العربية الأخرى. (انظر قبل: ص١٩٦ وما بعدها).

(٤) عقد مجمع نيقية المسكوني، سنة (١٧٠ - ١٧١هـ / ٧٨٧م) بأمر الامبراطورة إيريني، وأصدر أعضاؤه القرار بتقديس صور المسيح والقديسين وتعليقها في كل مكان، لا لعبادتها. وقد جاء هذا المجمع ردًا على المجمع الذي انعقد (١٣٦ - ١٣٧هـ / ٧٥٤م) بأمر الامبراطور قسطنطين الخامس وقرر تحريم اتخاذ الصور والتماثيل في العبادة (انظر/ محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء و الدعوة والإرشاد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ، ص١٧٦ - ١٧٧).

الخاصة بتحريم الصور بما حدث في الدولة الإسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك[1].

وفي هذا الخطاب أشار حنا إلى أن يزيد بن عبدالملك كان مدفوعًا في سياسته تلك بساحر يهودي كان يعيش في طبرية[2] اسمه (Tessarakontapechys)[3]، كان من ألد أعداء المسيحية، وكان الخليفة يزيد قد قربه إليه بعد أن تنبأ له، بأنه أن استمع إلى نصيحته سيحكم ثلاثين سنة، ونصيحته أن أراد الخليفة أن يحكم هذه المدة الطويلة أن يصدر مرسومًا ينفذ في جميع بلاد الدولة الإسلامية ويقضي بتدمير وإزالة كل التصاوير سواء أكانت على الموائد أو من الفسيفساء على الجدران، أو على الأواني المعدنية، أو مطرزة على الأغطية التي تغطى الهيكل المقدس، وعلى مثل هذه الأشياء التي توجد عادة في الكنائس المسيحية. وقد استمع الخليفة إلى نصيحته وأرسل مبعوثين من قبله إلى كافة الولايات الإسلامية قاموا بتحطيم الصور التي كانت في الكنائس وأحرقوها.

وأضاف: ولم يعمر الخليفة يزيد بعد أن أمر بذلك إلا سنتين ونصف. كما ذكر أن ابن الخليفة يزيد وهو الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالملك، أمر بقتل هذا الساحر اليهودي الذي سيطر على أبيه ودفعه إلى هذه السياسة، ولم تتحقق تنبؤاته[4].

---

(١) أورد وسام عبدالعزيز فرج نص الوثيقة التي قدمت إلى مجمع نيقية المسكوني المنعقد سنة (١٧٠ – ١٧١هـ / ٧٨٧م) حول مرسوم الخليفة يزيد، لكنه لم ينص على أنها خطاب حنا بطريرك القدس، أو غيره، وقد وافقت هذه الوثيقة تقريبًا ما جاء في خطاب حنا الذي ذكر مضمونه فلزيليف، لذا يظن أن تكون هذه الوثيقة هي نص خطابه في هذا الشأن. (انظر نص الوثيقة في كتابه: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية، (١) الامبراطورية البيزنطية من (٣٢٤ – ١٠٢٥م)، مطبعة مصنع اسكندرية الكراس، ١٩٨٢م، ص ١٨٠ – ١٨١).

(٢) طبرية: بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، يطل عليها جبل الطور، تقع في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، (ياقوت: معجم، ١٧/٤).

(٣) قال وسام فرج أنه أحد زعماء اليهود السحرة، وأنه كان يسمى ذو الأربعين ذراعًا (طولاً). (نفس المرجع، ص١٧٩).

(٤) A. A. Vasiliev: op. cit, p 28 – 30.

وأشار إلى هذا المرسوم أيضًا بطريرك القسطنطينية نقفور (١٨٩ – ٢٠١هـ / ٨٠٥ – ٨١٦م) ذاكرًا تأثير ذلك اليهودي على يزيد بن عبدالملك، وأنه استطاع التأثير عليه. لأن الخليفة كان يعاني من المرض، فأعطاه الأمل بأنه أن نفذ وصيته سيشفى من مرضه وينعم بحياته ويعيش سعيدًا، وردد كلام بطريرك القدس حنا – الذي أشرنا إليه في الصفحتين السابقتين – لكنه أضاف، انتقال عدوى هذه السياسة الخاصة بتحريم الصور إلى الإمبراطورية البيزنطية، وتأثر الإمبراطور ليو بهذه السياسة. وقد ذكر نفقور أن الخليفة يزيد توفى بعد سنتين وخمسة أشهر من إصدار هذا المرسوم[١].

كما أشار إلى هذا المرسوم في المصادر الإغريقية أيضًا المؤرخ (جيورجيوس مرناخوس Georgius Mrnachus)، وردد كامل التفاصيل[٢].

ووردت الإشارة كذلك إلى هذا المرسوم في الخطاب الذي ألقاه في نفس الانعقاد السابق لمجمع نيقية (سنة ١٧٠ – ١٧١هـ / ٧٨٧م) أسقف مدينة ميسيتا والذي قال فيه: كنت طفلاً في الشام عندما أمر خليفة المسلمين بتحطيم الصور[٣].

وممن أشار إلى مرسوم الخليفة يزيد بن عبدالملك المؤرخ ثيوفانوس الذي كتب تاريخه في بداية القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري، لكنه ذكر أن ذلك الساحر من (اللاذقية[٤]/ لاوديكيا Laodicea)، وأنه أمَّل الخليفة يزيد بالحكم أربعين سنة.

كما ذكر أن الخليفة يزيد بن عبدالملك صمم أن يفعل ما نصحه به الساحر اليهودي

= ويضيف وسام فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص١٨٠ – ١٨١ أن الولاة والأمراء أذاعوا ونشروا مرسوم الخليفة يزيد، فقام العرب واليهود بإحراق الأيقونات المقدسة، وطلاء حيطان بعض الكنائس، بينما كشطوا حيطان البعض الأخر، كما أشار إلى مشاركة بعض المسيحيين في تنفيذ أمر الخليفة عندما سمعوا به، كأسقف ناكوليا Nacolea وأتباعه، ويبدو أنهم ممن يحرم عبادة الصور وتقديسها.

(١) A. A. Vasiliev: op. cit, p 31 -33.

(٢) A. A. Vasiliev: op. cit, p 31

(٣) A. A. Vasiliev: op. cit, p 30.

(٤) اللاذقية: ميناء مشهور على ساحل بلاد الشام. (ياقوت معجم، ٥/٥).

من تحطيم للصور المقدسة، لكنه توفى في نفس العام. وقد عرفت الناس بعزمه[١]، كما عرف بذلك الإمبراطور البيزنطي ليو الأيسوري عن طريق أحد المسيحيين ويدعى (باسر Bseor)، والذي كان يعيش في ذلك الوقت في سورية، وكان – على حد زعمه –[٢] قد أرغم على اعتناق الإسلام، إلا أنه نجح في الفرار إلى القسطنطينة، وفي القسطنطينية نجح باسر الذي عاد إلى المسيحية أن يكسب ود الإمبراطور ليو الايسوري، فنقل إليه ما شاع في سورية عن تحريم عبادة الصور وعيل فازيليف إلى أن باسر هذا هو اليهودي الذي ورد اسمه في خطاب البطريرك حنا[٣].

كما تكررت الإشارة إلى مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك في المصادر الاغريقية، في الخطاب الذي وجهه البطارقة الثلاثة المكانيين إلى الإمبراطور ثيوفيل (٢٢١ – ٢٢٢هـ / ٨٣٦م)، والخاص بعبادة الصور، والذي نشر أولاً في القرن السابع عشر الميلادي ثم أعيد نشره فيما بعد سنة ١٩١٢ – ١٩١٣م، ورددوا نفس الأقوال الخاصة بهذا اليهودي وتأثيره على الخليفة يزيد، وأن يزيد مات بعد سنة من إصدار هذا المرسوم[٤].

كما أشارت المصادر السريانية إلى مرسوم الخليفة يزيد بن عبدالملك، وذكرت أن الخليفة عهد إلى أخيه مسلمة بتنفيذ مرسومة الخاص بإزالة الصور من الكنائس وغيرها. كما أشارت إلى أن الإمبراطور ليو الايسوري في حملته ضد عبادة الصور كان متأثرًا في ذلك بسياسة يزيد بن عبدالملك في هذا الصدد.

وتفصح الرواية السريانية المعروفة باسم (بسيودو ديونيسوس pseudo Dionys)

---

(١) أجمعت المصادر والمراجع على أن يزيد أصدر مرسومه ونفذ ذلك المرسوم، وأشارت بعض المصادر والمراجع إلى ما أزيل وحطم بمقتضاه وبقيء أثره إلى عهد قريب. يتبين ذلك من مجمل الروايات العربية والأجنبية التي ذكرناها، مما يثبت تنفيذه لا العزم عليه كما يقول المؤرخ ثيوفانس أعلاه.

(٢) لم يعرف التاريخ إرغام المسلمين للناس على الإسلام، اعتمادًا على قوله تعالى: (لا إكراه في الدين).

(٣) A. A. Vasiliev: op. cit, p 30 -31.

(٤) A. A. Vasiliev: op. cit, p 34 – 35.

أنه في (سنة ١٠٣٥ من العصر السلوقي / الموافق ١٠٤ - ١٠٥هـ أي ٧٢٣ - ٧٢٤م) أمر الخليفة يزيد بإزالة جميع الصور أينما وجدت سواء في الكنائس، أو المعابد، أو في المنازل)[١].

كما ذكر ذلك المرسوم في القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري، ميخائيل السرياني، وأوضح أنه نص فيه على إزالة صور الكائنات الحية، من المعابد والكنائس والمباني والجدران والحجارة، بل وإزالة الصور الموجودة في الكتب، كما ربط بين سياسة يزيد والإمبراطور ليو الثالث الإيسوري في ذلك[٢].

كما ذكره في القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري، المؤرخ السوري اليعقوبي جريجوري أبوالفرج، وأبان تأثر الإمبراطور ليو الثالث بيزيد في هذا الصدد[٣].

كما كتب مؤرخ مجهول كان يعيش في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري، والذي كتب تاريخ الخليقة والمسيحية حتى (سنة ١٢٣٤م). أنه في (سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠ - ٧٢١م) قام مسلمة بن عبدالملك بتكليف من أخيه يزيد بإزالة الصور حيثما وجدت سواء في المعابد أو على الجدران، أو في المنازل، وكذلك الصور التي في الكتب، كما قام بتكسير التماثيل، سواء أكانت على الخشب أو العاج، أو الأبنوس[٤].

هذه الروايات السريانية والمسيحية لم تحدد أي البلاد كلف مسلمة بن عبدالملك من قبل أخيه الخليفة بتنفيذ المرسوم فيها، وكنا قد أوردنا خبرًا عن ترتون[٥]، يذكر فيه أن مسلمة أشرف على تنفيذه في العراق والمشرق، فلعل هذه الروايات السريانية والمسيحية تقصد إشرافه على تنفيذ هذا المرسوم في العراق.

أما المصادر اللاتينية، فإنها تنقل ما ذكرته المصادر الإغريقية عن مرسوم الخليفة

---

(١) A. A. Vasiliev: op. cit, p 37.

(٢) A. A. Vasiliev: op. cit, p 38.

(٣) A. A. Vasiliev: op. cit, p 38.

(٤) A. A. Vasiliev: op. cit, p 39.

(٥) انظر قوله قبل: ص ٢١٠.

يزيد بن عبدالملك، مثال ذلك أن (انستاسيوس بيلوتيكاريوس Anastasius Binliothecarius) والذي كان يعيش في القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري، ينقل ما ذكره المؤرخ الإغريقي ثيوفانوس.

كما نقل عن ثيوفانس في هذا الصدد أيضًا، المؤرخ الروماني (لاندولفوس ساجاكس Landulfus Sagax) الذي كان معاصرًا للإمبراطور البيزنيطي باسيلي الثاني (٣٦٥ – ٤١٥هـ / ٩٧٦ – ١٠٢٥م) والإمبراطور البيزنطي قنسطين الثامن (٤١٥ – ٤١٨هـ / ١٠٢٥ – ١٠٢٨م) وقد ورد ذلك في تاريخه المعروف باسم تاريخ ميسلا Historid Miscella[١].

كما كان اعتماد المجمع الديني الذي عقد في باريس في نوفمبر (٢٠٩ – ٢١٠هـ / ٨٢٥م) لبحث قضية تقديس الصور في مناقشته هذه القضية منذ أثارها الإمبراطور البيزنطي ليو الأيسوري، على التقرير الذي قدمه بطريرك القدس حنا إلى مجمع نيقيه المسكوني الذي انعقد (١٧٠ – ١٧١هـ / ٢٨٢م)، والذي أشار فيه إلى مرسوم الخليفة يزيد[٢].

كما أشارت المصادر الأرمينية لمرسوم الخليفة يزيد. أشار إلى ذلك المؤرخ الأرمني (جيفوند Ghevond) في كتابه «تاريخ حروب وفتوح العرب في أرمينية». وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، وأوائل القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري، فروى ما أمر به يزيد في هذا الشأن ذاكرًا أن يزيد حكم ست سنوات[٣]، وأنه كان ميالاً لسفك الدماء[٤].

أما بخصوص ما ورد عن هذا المرسوم في المراجع الحديثة فإن فازيليف ينقل عن عن المستشرق (فلهوزن Wellhausen) في كتابه الدولة العربية أنه يشك في وجود

---

(١) A. A. Vasiliev: op. cit, p 35.

(٢) A. A. Vasiliev: op. cit, p 36 - 37.

(٣) الصحيح أن مدته خلافته أربع سنوات وشهر واحد.

(٤) A. A. Vasiliev: op. cit, p 43 - 44.

مرسوم ليزيد بن عبدالملك في هذا الصدد[1].

لكن فازيليف ينقل لنا عن مؤرخين محدثين ما يدحض قول فلهوزن فينقل عن المؤرخ (كروفوت I. Crowfoot) الذي كتب في (سنة ١٩٣٨م) في كتابه عن (الكنائس المسيحية في جرس) The Chritsian Churches at Gerasa, ed. 1938. أن آثار مرسوم يزيد شوهدت في أماكن كثيرة، في فلسطين، وشرق الأردن، ومصر. وأن هذا المرسوم طبق في جرش (شرق الأردن) في قسوة شديدة، فالنقوش، والزخارف. والصور التي كانت توجد في الكنائس والمنازل نزعت، بل أن كل ما يتعلق بصور الكائنات الحية قد حُطمت وأزيلت وأن آثار ذلك التحطيم كانت لا تزال معالمها واضحة حتى صدور كتابه هذا عنها في الكنائس المسيحية في جرش[2].

كما ينقل فازيليف عن الأثري (كريزويل J. E. Quibell) الذي قام بحفائر (سنة ١٩٠٨ - ١٩١٠م) في دير الأنبا جريمياس Jeremias في سقارة في مصر. ما شاهده في هذا الدير من تشويه ما كان به من صور، وما ذكره من أنه يعزو ذلك إلى مرسوم الخليفة يزيد بن عبدالملك[3].

وأخيرًا استعرض فازيليف التأريخ الذي أورده المؤرخون لهذا المرسوم، فرأى أن أصحها (محرم ١٠٣هـ / يولي ٧٢١م). اعتمادًا على ما ذكره بطريرك القدس حنا عن مرسوم يزيد وتأريخه في التقرير الذي قدمه لمجمع نيقية (١٧٠ - ١٧١هـ ٧٨٧م). أي بعد صدور المرسوم ب (٦٦ عامًا). وقد قال حنا: أن الخليفة لم يعمر بعد أمره بذلك إلا سنتين ونصف. إلى جانب بعض الروايات المدعمة له، خصوصًا رواية نقفور بطريرك القسطنطينية (١٨٩ - ٢٠١هـ / ٨٠٥ - ٨١٦م) الذي قال: أن يزيد توفى بعد سنتين وخمسة أشهر من إصدار هذا المرسوم. لأن هاتين الروايتين اليونانيتين هما أقدم ما ذكر في هذا الشأن واعتمادًا في ذلك أيضًا على ما أورده المؤرخ القبطي ساويرس ابن المقفع، وقد أرخ له بأوائل خلاف يزيد، والمؤرخ السرياني المجهول الذي

---

(١) A. A. Vasiliev: op. cit, p 45.

(٢) A. A. Vasiliev: op. cit, p 45.

(٣) A. A. Vasiliev: op. cit, p 45.

أرخ له ب (١٠٢هـ / ٧٢٠ - ٧٢١م)[١]. وهو بذلك يستبعد تأريخ كل من الكندي والمقريزي اللذين أرخا له ب (سنة ١٠٤هـ / ٧٢٢ ، ٧٢٣م).

فنرى أن المؤرخ فازيليف قد قارب الصواب إن لم يكن أصابه. فقد أرخ له ب (يوليو ٧٢١م / الموافق محرم ١٠٣هـ).

ونحن، اعتمادًا على تأريخ ابن عبدالحكم وهو أقدم مؤرخ مسلم تحدث عن هذا المرسوم (ت ٢٥٧هـ / ٨٧٠ - ٨٧١م)، وساويرس ابن المقفع، وابن تغري بردي، وكذلك رواية المؤرخ السرياني المجهول الذي أرخ لهذا المرسوم ب (١٠٢هـ / ٧٢٠ - ٧٢١م)، نُرجح أن يكون الخليفة يزيد قد أصدر أمره فيما بعد (شهر صفر سنة ١٠٢هـ)، والتي تنتهي بذي الحجة، الموافق ٢ يونية ٧٢١م، أي الشهر الذي يسبق الشهر الذي حدده فازيليف لصدور هذا المرسوم وهو يوليه ٧٢١م / محرم ١٠٣هـ.

وكان فازيليف قد التزم بحرفية رواية بطريرك القدس حنا الذي قال: أن يزيد قد توفى بعد إصدار المرسوم بسنتين ونصف.

وحيث أنا لاحظنا أن فازيليف لم يشر إلى تأريخ ابن عبدالحكم لهذا المرسوم، الذي خفي عليه فيما يبدو، وهو أقدم المؤرخين المسلمين، فلعله كان يغير ما توصل إليه في حالة إطلاعه على خبره.

وبناء على ما تقدم يكون الخليفة يزيد بن عبدالملك قد أصدر مرسومه هذا في (أواخر سنة ١٠٢هـ / ٧٢١م)، على أساس ما توصلنا إليه، أو (المحرم سنة ١٠٣هـ / ٧٢١م) على ما رجحه فازيليف، وعلى كل حال، فإنه ليس لدينا ما يتوقف الحكم عليه بتحديد التاريخ لمرسوم الخليفة يزيد، ولكن في هذه المناقشة شيء من جدية البحث، وعدم التسليم بما عند الغير، ورغبة في الوصول إلى الحقيقة، ولعل قادم الأيام يخرج من الأحداث ما يترتب على هذا التأريخ.

ونخلص من هذه الروايات التي أوردها فازيليف في بحثه أن الخليفة يزيد بن عبدالملك كما ذكرت المصادر الإغريقية واللاتينية كان مدفوعًا في هذا القرار من قبل

---

(١) A. A. Vasiliev: op. cit, p 46.

ساحر يهودي[1]، زين له إزالة الصور والتماثيل عموما بشتى أنواعها وأينما وجدت، وعلى أي شيء صورت، إلا أن بعض الروايات قالت أن الأمر اختص بإزالة صور الكائنات الحية[2]. وقد شمل هذا القرار كافة أقاليم الدولة الإسلامية، ولم يقتصر على مصر، الذي اقتصر ذكر المرسوم على مصادرها، ودل على ذلك عمومية الأمر كما أشارت إليه بعض المصادر الإسلامية والقبطية[3]، وكذلك الأجنبية، حيث ورد ذلك على لسان بطريرك القدس حنا في خطابه الذي ألقاه في مجمع نيقيه السابق، فقد أخبر أن الخليفة يزيد، أصدر أمره وأرسل مبعوثين من قبله إلى كافة الولايات الإسلامية، قاموا بتحطيم الصور في الكنائس وأحرقوها[4]. وكذلك ما أوردته المصادر السريانية حول إشراف مسلمة بن عبدالملك على تنفيذ مرسوم أخيه الخليفة في العراق والمشرق[5]، وما أثبتته الدراسات الأثرية والحفائر، من وجود آثار هذا المرسوم بوضوح في فلسطين وشرق الأردن ومصر، وبخاصة في جرش بالأردن، وسقارة بمصر[6].

واتضح من خلال هذه الروايات أن الصور والتماثيل التي بالكنائس قد تعرضت للإزالة والتحطيم، محوًا أو كشطًا أو إحراقًا أو طلاء، ومن هنا جاء قول بعضهم، أن المقصود من هذا المرسوم هو إزالة الصور و التماثيل المقدسة التي في الكنائس، وأن تعميم المرسوم على كافة أنواع الصور ما جاء إلا بنصيحة من الساحر اليهودي، مكيدة خبيثة منه لئلا يشك الخليفة في نواياه الحقيقية كعدو للمسيحيين[7].

والحق أن في الروايات الواردة في هذا الصدد ما يشكك فيها، فهي تختلف على اسم الساحر اليهودي، كما أنها تختلف على المدينة التي كان يسكن بها. كما أختلفت في

---

(1) لم يرد القول بهذا السبب في الروايات الإسلامية والقبطية والسريانية والأرمنية، (انظر ذلك في الصفحات السابقة).

(2) انظر: A. A. Vasliliev: op. cit, p 38.

(3) انظر ما كتبناه عن ذلك، قبل ص٢٠٨ - ٢٠٩.

(4) انظر روايته قبل: ص٢١١ - ٢١٢.

(5) انظر ما أوردته حول ذلك قبل: ص ٢١٠.

(6) انظر نتائج تلك الدراسات، قبل: ص ٢١٧.

(7) وسام فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية ص١٧٩ - ١٨١.

المدة التي منى الساحر الخليفة يزيد أن يحكمها، إذا فعل ما نصحه به، من إصدار هذا القرار، وبعد ذلك فإن الخليفة لم يحكم تلك المدة وتوفى بعد صدور قراره بمدة وجيزة[١].

أما القول، بأن المرسوم خص به صور الكائنات الحية، فلعل المسلمين في تنفيذه عنوا بإزالة صورة الكائنات الحية أكثر من غيرها، لأن الصورة المحرمة في الإسلام، هي صور ذات الأرواح دون غيرها[٢].

أما القول بان المرسوم استهدف الصور المقدسة عند النصارى، فإن التعرض لها لم يكن إلا لأن المرسوم كان يتضمن إزالة الصور كلها وأينما وجدت، كما أن الصور المقدسة عند النصارى كانت هي الصور الشائعة عندهم سواء في كنائسهم وأديرتهم وبيعهم وبيوتهم.

وثمة سبب آخر، وهو الأهم، وهو أن الصور المقدسة عند المسيحيين لم تكن مجرد صور تقام أو تعلق للزينة أو الذكرى وإنما أصبحت تعبد وتقدس، وهو ما عرف عندهم بعبادة الأيقونات، أي عبادة الصور[٣]. وذلك مظهر من مظاهر الوثنية ليس له

---

(١) انظر ذلك في ثنايا الروايات التي عرضناها في الصفحات السابقة، وكذلك: وسام فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية، ص١٨١ – ١٨٢.

(٢) انظر عن ذلك: قبل: ص٢٠١. وكذلك: أحمد تيمور: التصوير عند العرب، ص١٠٠ – ١٠١. وقد أورد حديثًا عن ابن عباس ينهي ويحذر من تصوير ذوات الأرواح، لكنه يبيح تصوير ما ليس فيه روح.

(٣) لم تكن عبادة الأيقونات جديدة على النصارى، فترجع بدايتها إلى القرن الرابع الميلادي عندما تم الاعتراف بالمسيحية وبدأ المسيحيون يزينون الكنائس بصور المسيح والعذراء والقديسين والتماثيل الدينية، مما يدل على ذلك أن المجلس الذي عقد في مدينة الفيرا باسبانيا في بداية القرن الرابع الميلادي حرم إقامة الصور في الكنائس، وأنها بدعة. والأصل أن المسيحية تنهى عن الصور والتماثيل، لكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين وما كان للبيئة والتقاليد اليونانية من أثر أدى إلى دخول بعض المظاهر الوثنية القديمة على الكنيسة، فزينوا كنائسهم بالصور والتماثيل، وقد اعتبر بعضهم ذلك مظهرًا من مظاهر الوثنية، فنقده بعض المؤرخين وبعض القديسين، كما قامت حركة في أنطاكية في القرن السادس الميلادي ضد عبادة الصور، إلى جانب بعض حوادث الهجوم على الصور وتحطيمها في القرن السابع الميلادي، ومع ذلك فقد اعترف =

أصل في المسيحية. ولعل هذا ما حدا بالخليفة يزيد بن عبدالملك إلى إصدار مرسومه لأن الإسلام يحرم التصوير، وصور ذات الأرواح، كما يحرم أي مظهر من مظاهر الوثنية والشرك.

وعبادة الصور والتماثيل شرك بالله، وقد نصت بعض عهود الصلح بعدم إظهار أهل الذمة للشرك و الدعوة إليه، وإلا برئت منهم الذمة، وحل عليهم ما يحل على أهل الشقاق والمعاندة. من ذلك ما نص عليه صلح نصارى أهل الشام[1].

ويتضح من خلال الروايات الأجنبية التي عرضت لهذا المرسوم أنه تم على أثره محو الصور من الكنائس، والمنازل وكل مكان، ما كان منها على جدار أو قماش أو ألواح أو آنية أو كتب، في جميع أقطار الدولة الإسلامية، وفي هذا دلالة واضحة على تفشي التصوير وانتشار الصور وخاصة المقدسة. وحيث أن النصارى يعيشون رعايا أهل ذمة بين المسلمين وفي ديارهم فقد خشى الخليفة يزيد بن عبدالملك إفتتان المسلمين بذلك ومحاكاة النصارى في عمل الصور واتخاذها وتقديسها خصوصًا أنهم

= بشرعية الاستخدام الصحيح للأيقونات في مجمع عقد في القرن السابع الميلادي، ثم حرمت في مجمع عقد في العقد الأخير من ذلك القرن كما حرم اتخاذ الصور والتماثيل في العبادة في مجمع عقد بأمر قسطنطين الخامس (سنة ٧٥٤م)، لكن الملكة إيريني أمرت بعقد مجمع نيقيه (سنة ٧٨٧م) الذي قرر تقديس صور المسيح والقديسين لا عبادتها. ومع ذلك انتشرت الصور المقدسة في كل مكان، وتحول الأمر، من تعليقها للزينة والذكرى. إلى عبادة تلك الصور والسجود لها والتماس البركة وتحقيق المعجزات منها. حتى اتكل عليها في دفع الأخطار، وغدت الصور انجيل الأمي يفهم منها ما لا يقرأه من الكتاب المقدس. وفي القرنين الثامن والتاسع الميلاديين أدرك المسيحيون حاجة الكنيسة إلى الإصلاح والتطهير، فعملوا على تحريم عبادة الأيقونات.

عن ذلك انظر: حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٠٩ – هسي: العالم البيزنطي، ترجمة وتعليق رأفت عبدالحميد، مكتبة سعيد رأفت، مؤسسة الوفاء للطباعة، القاهرة، ص١٣٣ – ١٣٤، وهامش (١) ص١٣٣ – محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص١٧٦ – ١٧٧ – وانظر عن الأيقونات أيضًا: أسد رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، منشورات المكتبة البولسية، لبنان، بيروت، طبعة ١٩٨٨م، ٧٩/٢ – ٩٧. وقد تحدث خلال حديثه عن الأيقونات، عن مرسوم الخليفة يزيد تجاهها، وأن ليو الثالث ماثلة في ذلك، ولم يضف جديدًا.

(١) انظر نص ذلك الصلح قبل: ص ٢٠٧.

كانوا قريبي عهد بالجاهلية ومظاهر وثنيتها، فلعله رأى من الحكمة استئصال ذلك الداء قبل استفحاله.

كما نخلص من دراسة هذه الروايات إلى أمر غاية في الأهمية، وهو القول بأن الإمبراطور ليو الثالث الايسوري تأثر بسياسة الخليفة يزيد بن عبدالملك في إزالة الصور المحرمة[1].

فقد أصدر الإمبراطور ليو الثلاث الايسوري سنة (١٠٧ – ١٠٨هـ – ٧٢٦م)[2]، وبموافقة الأساقفة، وأعضاء مجلس الشيوخ، مرسومًا يقضي بإزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس، وأمر أن يغطي بالجص ما على جدران الكنائس من صور وذلك في كافة ولايات الدولة البيزنطية.

وقد اتخذ ليو الثالث الإيسوري سياسته هذه بشيء من الحذر والتمس لها الأسباب، وسعى لتنفيذها بشكل تدريجي، لكن ثورة الجماهير والرهبان في وجه سياسته، ومنع جنوده من تنفيذها، بل وقتلهم القائد المكلف بتنفيذها وبعض معاونيه، كان مما دعا الإمبراطور إلى الاستعانة بالقوة العسكرية في تنفيذ أمره، والقيام بسلسلة من أعمال القتل والنفي ضد المعارضين لسياسته. ويقال أن أوامره في هذا الصدد لم تقتصر على إزالة الأيقونات المعلقة في الكنائس بل شملت كافة أنواع الصور سواء المرسومة على جدران الكنائس، أو تلك المطرزة على النسيج الذي يغطي الهياكل المقدسة، كما أحرقت آثار القديسيين، وأزيلت جميع التماثيل والصور المقامة خارج الكنائس[3].

---

(١) قال بهذا التأثر أيضا/ سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص١٨٠ – ١٨١ – حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص١١٠ – هسي: العالم البيزنطي، ص١٣٥ – أحمد تيمور: التصوير عند العرب، ص١٣٠ – إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص٢٩٣ – ٢٩٤ – السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م، ص٢٠١.

(٢) أي بعد مرسوم الخليفة يزيد بن عبدالملك بنحو خمس سنوات.

(٣) عن أمر ليو الثالث بتحريم الصور وإزالتها. (انظر/ عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ١٩٧٧م، ص١١٣ – ١١٤ – أومان: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب مصطفى طه بدر، الناشر دار الفكر العربي، ١٩٥٣م، ص ١٥٢ (لكنه أرخ لأمر ليو هذا بسنة ٧٢٥م / ١٠٦ – ١٠٧هـ) – وسام فرج: دراسات في تاريخ =

ولعل هذا ما أدى إلى تساؤل وسام فرج[1]، لماذا تبنى الإمبراطور البيزنطي الحركة اللأيقونية (أي تحريم عبادة الصور) في القرن الثامن الميلادي بالذات، بينما كان التيار المعادي لعبادة الأيقونات موجوداً منذ عدة قرون؟

وجوابه على ذلك هو تأثر الإمبراطور ليو الثالث الايسوري والامبراطورية البيزنطية بقرار الخليفة يزيد بن عبدالملك، وبمؤثرات أخرى.

وهنا يظهر سؤال جديد، كيف تأثر الإمبراطور، وما هي المؤثرات الأخرى؟

يقال أن أصل ليو الثالث من أسباب تأثره بسياسة الخليفة يزيد تجاه الصور، فيذكر في هذا الصدد أن ليو من مواليد مرعش[2]، وأن أصله في الواقع من أيسوريا[3]، في إقليم قليقية، ولد من أبوين أرمنيين، ثم انتقل مع أبيه إلى تراقيه[4]، ثم انخرط في سلك العسكرية حتى أصبح قائد فيلق الأناضول[5]. وقيل أن أصله سوري وكان مولى للخليفة – ولم يحدد المرجع أي خليفة – يجيد التحدث بالعربية واليونانية[6]. بل قيل أن الخليفة يزيد أدخله الإسلام سراً[7]. وقيل أيضًا أن سياسته اللاأيقونية لم تكن إلا تزلفاً للمسلمين ومجاملة لهم ذلك لا يعقل فموافقة العسكرية وحروبه ضد المسلمين تدل على عكس

= وحضارة الدولة البيزنطية، ص١٨٤ – ١٨٥ – هسي: العالم البيزنيطي، ص١٣٥. وهامش (١) منها – محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٠١ – ١٠٢.

(١) نفس المرجع، ص١٧٦.

(٢) مرعش: مدينة في الثغور بني الشام وبلاد الروم. (ياقوت: معجم، ١٠٧/٥).

(٣) ايسوريا: أو (ايزوريه)، إمارة في داخل آسيا الصغرى على حدود منطقة الثغور اليونانية القديمة. (كي لتسرنج: بلدان، ص١٧٦).

(٤) تراقية أو تراقيا: ولاية بيزنطية تطل على بحر مرمرة من جهة أوروبا.

(٥) محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص٩٣ – عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٠٤.

(٦) عمر كمال توفيق: نفس المصدر والصفحة – فيليب حتي: تاريخ سورية، ٢م٥٠.

(٧) أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص١٥٢.

ذلك[١].

والحق أن من أهم المؤثرات التي أدت إلى احتكاك ليو بالمسلمين والتأثر بفكرهم، ما ثبت من مرافقته لهم وإختلاطه بهم إبان حملتهم الشهيرة على القسطنطينية (سنة ٩٨هـ) في خلافة سيلمان بن عبدالملك، فقد ورد في عدد من المصادر والمراجع، أن ليو الايسوري، الذي كان قائدًا لفيلق الأناضول، سار مع الجيش الإسلامي بقيادة مسلمة بن عبدالملك ليكون دليلاً يهديهم الطريق إلى القسنطينية، حتى وصلوا إليها. مشيرة إلى قيامه بالتفاوض مع مسلمة على أساس تسهيل دخول المسلمين إليها وتسليمها صلحًا، وأنه نجح في مخادعة مسلمة واستغل الثورة التي قامت في القسطنطينية وقت حصار المسلمين لها، وتمكن من أن يسيطر على الموقف، ثم بعد أن نصبه البيزنطيون إمبراطورًا عليهم، تصدى للمسلمين وصمد أمام حصارهم، حتى تكالبت عليهم الظروف وأمر عمر بن عبدالعزيز خليفة سليمان بفك الحصار وانسحاب المسلمين سنة ٩٩هـ[٢]. وبلاشك فإن اختلاط ليو بالمسلمين خلال مسيرهم إلى القسطنطينية. كان فرصة لإطلاعه على الفكر الإسلامي، ومبادئ الدين الحنيف، وبخاصة صفاء العقيدة، ومحاربة الشركيات. ولعل ذلك من أهم أسباب تأثره بمرسوم الخليفة يزيد. ومن هنا جاء القول أن ليو الايسوري كان ذا عقلية إسلامية[٣].

ويذكر وسام فرج[٤] في هذا الصدد أيضًا أن الإمبراطور ليو تأثر بجماعة من رجال الدين في الأقاليم الشرقية، منهم قسطنطين أسقف ناكوليا في فيرجيا بآسيا الصغرى،

---

(١) عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، ص١١١ - ١١٢ - فيليب حتي: تاريخ سورية والجزء، ص١١٧.

(٢) عن قيام ليو الايسوري بدور الدليل لهذه الحملة وتفاوضه مع المسلمين، ووصوله إلى كرسي الإمبراطورية وتصديه لمسلمة وجيشه، (انظر/ نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٢٤٧ - ٢٥٠ - يوسف العش: الدولة الأموية، ص٢٥٦ - ٢٥٧ - محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص٩٤ - ٩٨).

(٣) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص١١٢.

(٤) دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص١٧١ - ١٧٢، ١٧٧، ١٨١، وهوامشها.

وهذا الأسقف تأثر بكفر المسلمين[1]، واليهود، ثم نقل ذلك إلى الإمبراطورية البيزنطية، وقام بدور الدعوة إلى تحريم الصور داخلها، وكذلك توماس أسقف كلاوديوبولس، وكانا قد أقاما لبعض الوقت في العاصمة البيزنطية (١٠٧ – ١٠٨هـ ٧٢٦م)، وأن كان هناك من يرى أن ليو هو العقل والمفكر الرنيسي وراء سياسته.

ولعل قيام الإمبراطور ليو بذلك كان هدفه إصلاح الكنيسة وفي نفس الوقت لا يمكننا إغفال الأسباب السياسية التي دعته إلى ذلك، فليس لنا أن نتجاهل مراعاة مصلحة الإمبراطورية من وراء هذا القرار، فقد أدى انتشار الاديرة إلى نقصان موارد الدولة، لإعفائها من الضرائب، وجذبها لأعداد كبيرة من الناس كان من الممكن أن يقوموا بدور كبير في خدمة الدولة، إلى جانب تزايد نفوذ الرهبان حتى أصبحوا مصدر خطر على السلطة، وكل ذلك بلا شك من الأسباب التي كانت وراء الحركة اللايقونية[2].

ويبدو أن التأثر بسياسة الخليفة يزيد لم يقتصر على الإمبراطور ليو الثالث، فقد أدى اتصال أهالي الولايات الأسيوية في الإمبراطورية البيزنطية بالإسلام وأهله، لعدد من العقود قبل تلك الحركة، إلى معرفة موقف الإسلام من تحريم الصور والتماثيل. إذ لم يحمل المسلمون معهم إلى آسيا الصغرى أثناء فتوحهم إبان تلك الفترة فكرة الجهاد فقط، بل نقلوا عقيدتهم وثقافتهم وحضارتهم، ومنها تحريم الصور والتماثيل وبالأخص ما قدس منها. فلم يكن التحدي الإسلامي البيزنطي عسكريًا فحسب، وإنما فكريًا وحضاريًا، أثر في العقيدة نفسها، وأثار أزمة حول الصور المقدسة عند المسيحيين[3].

وفي هذا الصدد يشير أومان[4]، إلى أن المثقفين العلمانيين البيزنطيين كانوا

---

[1] نقل وسام فرج عن وثيقة رسمية قدمت للمجمع المسكوني المنعقد (سنة ٧٨٧م): أن أسقف ناكوليا عندما سمع بمرسوم الخليفة يزيد، قام هو وأتباعه، بإزالة الصور والتماثيل من الكنائس، شأنهم شأن المسلمين واليهود الذين شاركوا أيضًا في هذه المهمة بالدولة الإسلامية. (انظر: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص١٨١).

[2] عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، ص١١١ – ١١٢.

[3] أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص١٥١ – حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص١١١ – ١١٢.

[4] نفس المرجع، ص١٥١ – ١٥٢.

ينكرون عبادة الصور وازدادت كراهيتهم لذلك بتأثير الدين الإسلامي على عقولهم، فحدث رد فعل قوي على تلك العقائد الفاسدة بين هذه الفئة، كما جاء التأثر بالعقيدة الإسلامية والحضارة الإسلامية في آسيا الصغرى بحكم قربها من بلاد الإسلام، أكثر منه في أوروبا، فازدادت الحركة ضد عبادة الصور هناك. ففي آسيا الصغرى نشأ البيزنطيون اللاأيقونيون، فكان ليو من آسيا الصغرى، وكان معظم جنده من هذه المنطقة التي تأثرت بعقيدة الإسلام وبحضارته، لذلك ناصر هذا الجيش سياسة ليو اللاأيقونية، بينما تمثلت قوة المعارضة لهذه السياسة في الأساقفة ورجال الخدمة المدنية في أوروبا(١).

وقد عزا بعض المؤرخين سياسة ليو اللايقونية إلى مؤثرات يهودية إلى جانب المؤثرات الإسلامية، فقالوا: أنهم شروا موافقته على تحطيم التماثيل بالمال، وأنه حاول إرضاءهم، ولعل هذا القول قد جاء لأن اليهودية تحرم عبادة الصور(٢).

ونحن لا نستبعد أن يكون لليهودية دور في ذلك، بل إن المسيحية نفسها تحرم الصور، لكن الواقع يقول أن عبادة الصورة قد عاشت مع وجود هذه المؤثرات، وهذا ما يدفعنا لإعادة القول، لماذا قامت حركة تحريم عبادة الصور على يد الإمبراطور في القرن الثامن بالذات؟ أنه بلاشك المؤثر المباشر الذي حدث في هذا القرن، إلا وهو مرسوم الخليفة يزيد.

إن الأهمية الكبرى لا تكمن في إصدار الإمبراطور ليو قراره بتحريم عبادة الصور تأسيًا بالخليفة يزيد بن عبدالملك، بل فيما نتج عن هذا التأثر، فقد عاشت الدولة البيزنطية حروبًا داخلية خطيرة بسبب الحركة اللاأيقونية بين المؤيدين والمعارضين مدة

---

(١) عن التأثر بالإسلام وتأثير ذلك على الحركة اللايقونية في الدولة البيزنطية، (انظر/ مجهول: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، الدار القومية للطباعة والنشر، ص ١١٤ – عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية، ص١١١ – السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص٢٠١ – أحمد تيمور: التصوير عند العرب، ص١٣٠)

(٢) عن القول بتأثير اليهودية أيضا على الحركة اللايقونية، (انظر/ عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، ص١١١ – ١١٢ – أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص١٥٢ – حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص١١٠ – هسي: العالم البيزنطي، ص١٣٥).

تزيد على قرن من الزمان[١]، فعمت بلاد اليونان وإيطاليا عدد من الثورات التي تصدت لسياسة الإمبراطور، ووضع البابوات أنفسهم على رأس المعارضة، لذلك حالفوا اللمبارد، وطلبوا العون من الحكام الفرنجة، فانتقم ليو بفصل مناطق جنوب إيطاليا عن السيادة البابوية، وقد ساعد ذلك حكام الفرنجة على التدخل، وجعل شارل العظيم نفسه حاميًا للأرثوذكسية، فبدأت دولة الفرنجة في الظهور كإمبراطورية منافسة لبيزنطة، فترتب على هذه الأحداث، انسحاب روما من الشرق، وخروج بيزنطة من الغرب اللاتيني، فانهارت بذلك فكرة الوحدة التي تمسكت بها كل من الإمبراطورية البيزنطية والبابوية[٢].

هكذا كانت الحركة المعادية لعبادة الصور في بيزنطة بتأثير مرسوم الخليفة يزيد بن عبدالملك، إلا أنه بالرغم من أن أول قرار ضد عبادة الصور لم يصدر في القسطنطينية بل في دمشق عاصمة الخلافة في خلافة يزيد بن عبدالملك، فإن المسلمين في تنفيذهم لمرسوم الخليفة يزيد. اقتصروا على إزالة الصور والتماثيل وتحطيمها أو محوها، بينما الإمبراطور ليو وابنه قسطنطين ورجاله تعدوا ذلك إلى اضطهاد الرهبان وقتلهم وتعذيبهم[٣].

ومن علامات سياسة المسلمين الحكيمة في هذا الصدد إعطاؤهم حرية الرأي للرعايا المسيحيين في التعبير عن رأيهم في هذه الحركة، تمثل ذلك في إفساح المجال

---

(١) السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص١٩٩ – ٢٠٠، وما يستحب الإشارة إليه هنا أن الحركة اللايقونية قد أوقفت تمامًا، وأعيدت عبادة الصور في المجمع المسكوني الذي عقد سنة ٨٤٣م بدعوة من الامبراطورة تيودورا التي تولت بعد زوجها تيوفيلوس (توفيل)، الذي أصدر قراراته بإعادة قوانين مجمع نيقية (سنة ٧٨٧م)، القاضي بتقديس الصور. (عن هذا، انظر/ هسي: العالم البيزنطي، ص١٣٦ وهامش (٢) منها – أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص١٦٥ – فازيليف: العرب والروم، ترجمة محد عبدالهادي شعيرة، مراجعة فؤاد حسن علي، دار الفكر العربي، ص٣٦٥ – ٣٦٨).

(٢) عن هذه النتائج الخطيرة للحركة اللايقونية في الدولة البيزنطية، (انظر/ أومان: نفس المرجع، ص١٥٢ – ١٥٣ – هسي: نفس المرجع، ص١٣٥ – ١٣٦، ١٣٨ – السيد الباز العريني: نفس المرجع، ص٢٠٨).

(٣) نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام، ص٩٥.

للقديس يوحنا الدمشقي في الدفاع عن استخدام الصور كوسيلة للعبادة، حيث قدم عددًا من الرسائل الشهيرة صاغ منها الأدلة اللاهوتية لاستخدام الصور، فغدت سلاحًا ماضيًا بيد مؤيدي عبادتها، كما قام بجولة واسعة في سورية داعيًا إلى مقاومة مبطلي اللاأيقونات، فاعتبر الزعيم الأساسي المدافع عن الأيقونات. كل ذلك فعله وهو داخل الدولة الإسلامية، التي لا تقر عبادة الصور وأمرت بإزالتها من أراضيها[1].

وقد ذكر فيليب حتى[2]، أن يوحنا هذا، قد خلف أباه سرجون في استلام الإدارة المالية في الدولة الإسلامية، ولم يزل مشرفًا عليها حتى أوائل خلافة هشام، حينما اعتزل الإدارة وانصرف إلى حياة الزهد والتعبد وأقام في دير القديس سابا بالقرب من بيت المقدس حيث قضى نحبه. ولعل تركه العمل في إدارة الدولة الإسلامية، وانصرافه للتعبد والزهد، أن صحت هذه الرواية، بسبب مرسوم الخليفة يزيد، لما علمنا عن الدور الذي قام به في الدفاع عن عبادة الصور والتصدي للحركة اللايقونية التي تزعمها الإمبراطور ليو.

إلا أن من الواجب الإشارة إلى، أننا لم نجد ليوحنا بن سرجون بن منصور الرومي دورًا في الإدارة المالية في الفترة السابقة لهشام، منذ أن عُربت الدواوين في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان. كما أن عبدالملك عزل سرجون والد منصور ولم يول ابنه يوحنا بن سرجون، بل ولاها سليمان بن سعد الخشني، وقيل بل ظل سرجون على الدواوين حتى عزله عمر بن عبدالعزيز عندما وجد عليه شيئًا[3].

---

(١) عن يوحنا الدمشقي، وتصديه لسياسة ليو الثالث اللايقونية، ودفاعه عن الأيقونات من داخل الدولة الإسلامية، (انظر/ أسد رستم: كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ص٦٣ – ٧٨ –إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص٢٩٣ – ٢٩٤ – فيليب حتى: تاريخ سورية، ١١٧/٢ – هسى: العالم البيزنطي، ص١٣٧).

(٢) تاريخ العرب (م)، ٣١٤/١ – وتاريخ سورية، ١١٦/٢.

(٣) عن تولية سرجون بن منصور، وعزله على اثر تعريب الدواوين. (انظر/ فرج الهوني: النظم الإدارية، ص١٩٦، ٢٠٥، ٢٠٩ – ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٢٢٨، ٢٢٩، والصفحات التي أورد فيها ذكر عمال الخلفاء بعده.

ويؤيد أسد رستم خبر عزل يوحنا الدمشقي عن العمل في إدارة الدولة الإسلامية، من قبل عمر بن عبدالعزيز بعد أن كشف خيانته، وقد ذكر أن ذلك كان بفعل حيلة لجأ إليها الإمبراطور البيزنطي =

ويتبين أن سياسة تحريم عبادة الصور والأمر بإزالتها يخالف معتقد مسيحي الشام، وتجلى هذا في موقف يوحنا الدمشقي الذي أشرنا إليه، وكذلك في موقف مسيحي مصر، حيث قام بطريرك اليعاقبة في مصر المدعو قسيما بمناظرة الإمبراطور تيوفيل (٢١٤هـ / ٨٢٩م – ٢٢٨هـ / ٨٤٢م) في سياسته المعادية لعبادة الصور[١].

ومعنى هذا أن مرسوم الخليفة يزيد وما ترتب عليه، قد ساء المسيحيين، من رعايا الدولة الإسلامية، لكنهم فيما يبدو لم يستطيعوا عمل شيء يذكر للتصدي لسياسة الخليفة يزيد داخل الدولة الإسلامية في عهده.

ومع ذلك فمن المرجح أن مرسوم يزيد إلى جانب سياساته المالية المتشددة مع أهل الذمة[٢]، وخاصة بمصر، كان من الأسباب التي أدت إلى ثورة أقباط مصر على

= ليو الثالث، أظهر فيها للخليفة عمر خيانة يوحنا للمسلمين وأنه كتب إليه يشكو ما يلاقيه النصارى من ذل في دولة الإسلام، مشيرًا أن هدفه من هذه الحيلة إغضاب الخليفة عليه، للتخلص منه بعد أن تصدى لسياسته اللايقونية في الدولة البيزنطية (كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ص٧٠ – ٧١). وهذا الخبر من أساسه يكون باطلاً، لأن ليو الثالث لم يتخذ سياسته اللايقونية إلا سنة (٧٢٦م / ١٠٧ – ١٠٨هـ)، وعلى اثر مرسوم الخليفة يزيد، أي أن ذلك تم بعد عهد عمر بل وبعد عهد خليفته يزيد. فكيف يكيد الإمبراطور ليو الثالث عند عمر ليوحنا لكونه تصدى لسياسته اللايقونية، وهو لم يشرع في هذه السياسة بعد.

(١) سيدة كاشف: مصر في جر الإسلام، ص١٨٠ – ١٨١ – المقريزي: الخطط، ٢/٤٩٤.

(٢) لم يكن يزيد متشددًا مع أهل الذمة في كل شيء، فيذكر أن يزيد بن عبدالملك إذن في أول سنة من حكمه، للبطريرك الملكاني مارالياس، بدخول أنطاكية، في موكب حافل من الرهبان والأتباع، بعد مضي مائتين وثلاث سنوات، من خروج ساويرس رأس المسيحيين الملكانيين الأرثوذكس في أنطاكية، والتي لم يسمح لهم فيها بتنصيب بطريرك منهم. وصارت البطريركية في هذه المدة لليعاقبة (البلديين)، فنالوا الحظوة عند حكام المسلمين.

(انظر: نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام، ص٩٦ – ٩٧). ومثل هذا إذن الخليفة هشام سنة ١٠٧هـ بإقامة بطرك ملكاني على الإسكندرية، بعث من قبل ملك الروم، وذلك بعد أن نزعت البطركية من الملكانيين في مصر وصارت لليعاقبة منذ زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فبقيت في أيديهم سبعًا وسبعين علمًا. (انظر/ المقريزي: نفس المصدر ٢/٤٩٣).

ولعل هذا حدث بعد أن أمن الخلفاء الأمويون، تحزب الملكانيين للبيزنطيين، خصوصًا بعد الحركة اللايقونية وانقسامهم على أنفسهم. (نجدة خماش: نفس المرجع، ص٩٥). =

الحكم الإسلامي (سنة ١٠٧هـ) في أوائل خلافة أخيه هشام بن عبدالملك، والتي تعددت واستمرت حتى أخمدت نهائيًا (سنة ٢١٦هـ) في خلافة المأمون العباسي[1].

- ويبدو لي أن هناك سببًا آخر دعا هشام بن عبدالملك إلى ذلك، وهو غضبه على أقباط مصر، إذ قاموا (١٠٧هـ - ٧٢٦م) بثورات ضد الحكم الإسلامي. فكان نزع بطريركية الإسكندرية منهم، وإعطاؤها للملكانيين، عقابًا على موقفهم. ولعله كذلك نوعًا من التقارب مع الحكومة البيزنطية، التي اتخذ امبراطورها في السنة نفسها السياسة اللاأيقونية، كما تم في عهد الخليفة يزيد بالدولة الإسلامية قبل ذلك. لكنا لا نعرف سببًا محددًا لسماح الخليفة يزيد بدخول البطريرك الملكاني أنطاكية في أول سنة من حكمه وربما يكون قد فعل ذلك عقابًا لليعاقبة بعد أن لمس منهم منذ أن تولى الخلافة ما يدعو للغضب عليهم، فأذن للبطريرك الملكاني بدخول أنطاكية ثم أصدر مرسومه، ولعل ما تضمنه المرسوم، كان ظواهر استشرت بين المسيحيين اليعاقبة، فاستثارت غضب الخليفة، ودعته لهذه السياسة، إذ رآهم خرجوا عن حدود ما كان لهم في عهود صلحهم.

(1) عن ثورات القبط في مصر، (انظر/ المقريزي: خطط ٤٩٣/٢ - ٤٩٤ - الكندي: الولاة والقضاة ص٧٣ - ٧٤، ١٩٠ - ١٩٢ - ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطاركة، ١٥٤/١ - ١٥٥).

الفصل الرابع

الفتوحَات الإسلامية في عَهد الخليفة يزيد بنَ عَبدالمِلكِ

المبحث الأول: الفتوح في بلاد ما وراء النهر.

المبحث الثاني: الفتوح في أرمينية.

المبحث الثالث: الفتوح في أرض الروم.

المبحث الرابع: الفتح في بلاد الغال.

الفصل الرابع

الفتوحات الإسلامية في عهد

الخليفة يزيد بن عبدالملك

نشطت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، بعد حالة الفتور التي عاشتها أيام سلفه الخليفة عمر بن عبدالعزيز، والذي لجأ لذلك في شيء من التوازن من أجل التفرغ لحركة الإصلاح الكبرى التي شهدها عهده.

وقد عاود الجيش الإسلامي نشاطه العسكري في زمن الخليفة يزيد، مدفوعًا بثلاثة عوامل: إما لإخماد بعض الحركات التمردية في أقاليم الأطراف، وإعادة نفوذ الدولة على تلك الأقاليم، ويتمثل ذلك في الجهود العسكرية التي وجهت لإخماد تمرد الصغد في بلاد ما وراء النهر.

وإما لصد العدوان الخارجي على الممالك الإسلامية، كالتصدي لهجوم الخزر على أرمينية، أو للإبقاء على زمام المبادرة العسكرية بأيدي المسلمين، خصوصًا مع عدوهم اللدود، وخصمهم العنيد، الدولة البيزنطية، وذلك بالاستمرار في غزو أراضيها برًا وبحرًا.

أو استمرارًا في حركة الفتوحات، ومواصلة الجهاد، ونشر الدعوة في البلاد التي لم تطأها أقدام الفاتحين من قبل، كحملاتهم في بلاد الغال.

وسنعرض في هذا الفصل للجهود الإسلامية زمن يزيد في الجبهات الأربع التي أشرنا إليها، وما أسفرت عنه تلك الجهود.

المبحث الأول

الفتوح في بلاد ما وراء النهر

توقفت الفتوحات الإسلامية الكبرى في بلاد ما وراء النهر[1] بمقتل قتيبة بن مسلم الباهلي (سنة ٩٦هـ)، على يد جنده من القبائل العربية، عندما أراد مخالفة الخليفة سليمان بن عبدالملك[2]. ذلك القائد الذي يعود له الفضل في إتمام الفتح الإسلامي لذلك الإقليم، وفرض السيادة الإسلامية عليه وضمه إلى دولة الإسلام[3].

لكن شكري فيصل[4] يقول: أن مقتله لم يكن مجرد توقف للفتوح الإسلامية في آسيا الوسطى حتى ولاية نصر بن سيار - ما بين ١٢٠ و١٣١هـ - بل كان بداية انحسار وتراجع للنفوذ الإسلامي هناك[5].

إذ يبدو أن الولاة الذين جاءوا بعده، لم يكونوا على استعداد للاضطلاع بمهمة الفتح وما أخذ به نفسه، ففقدوا سيطرتهم على ولايات حوض سيحون في العام التالي

---

(١) ما وراء النهر: اسم أطلقه العرب على المنطقة المتحضرة الواقعة في حوض نهري أموديا (جيحون) وسيردريا (سيحون). (بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، أشرف على طبعه قسم التراث العربي بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص١٤٥) ويعتبر نهر جيجون الحد الفاصل بين الأقوام المتحدثة بالفارسية والمتحدثة بالتركية، كما أنه الحد الفاصل بين مناطق إيران وتوران، والعرب أول من سمى المناطق الواقعة وراءه «بما وراء النهر» أو بلاد الهياطلة. (ناجي حسن: القبائل، ص٢٠٧ - وانظر أيضًا: كي لسترنج: بلدان، ص٤٧٦).

(٢) عن مقتله، انظر/ نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص ٢٤٠ - راضي عبدالله عبدالحليم: تاريخ خراسان، ص٤٣ - ٤٤.

(٣) انظر قبل: التمهيد، ص١٣.

(٤) حركة الفتح، ص٢١٨ (وسيكون لنصر بن سيار دور مميز، انظر إشارتنا له بعد: ص٢٥٨).

(٥) سنعرف من خلال هذا البحث في الصفحات التالية، دورًا بارزًا لسعيد الحرشي عامل الخليفة يزيد بن عبدالملك على خراسان، في إعادة الفتح والسيادة السلامية على بلاد ما وراء النهر.

لمصرعه، وتحولوا من دور الهجوم إلى دور الدفاع[1].

وإذا ما تجاوزنا عهد سليمان بن عبدالملك[2]، لنرقب الموقف الحربي في ما وراء النهر زمن عمر بن عبدالعزيز، سلف الخليفة يزيد، لتبين أن سياسة عمر بن عبدالعزيز الحربية[3]، وبخاصة فميا رواء النهر، حينما أمر بإيقاف الغزو والاكتفاء بما فتح، بل ومحاولته إجلاء المسلمين من تلك البلاد إلى خراسان، كما نص على ذلك الطبري[4]، بقوله: «وكتب عمر إلى عبدالرحمن بن نعيم – عامله على خراسان – يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم، قال: فأبوا وقالوا: لا يسعنا مرو[5]. فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: اللهم إني قضيت الذي علي، فلا تغز بالمسلمين، فحسبهم الذي فتح الله عليهم».

وإن كان مبعث هذه السياسة هو الخشية على المسلمين، من راع يرى مسئوليته عن رعيته، إلى جانب تغليب طريق نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، على الجهاد الحربي، وذلك عن طريق دعوة ملوك ما وراء النهر إلى الإسلام[6]، والصبر على أهل الفتن، ومعالجة الأمور بالعدل، ثقة في ظاهر إسلامهم، وتألفا لهم، وهذا ما دفعه إلى عزل الجراح الحكمي عامله على خراسان، الذي أراد استخدام أسلوب العنف والشدة للضرب على يد أهل الفتن، واختبار صحة إسلام من أظهر اعتناق الإسلام، وتولية عبدالرحمن بن نعيم، لما عرف عنه من لين وإيثار للعافية[7]. ومع ما لهذه السياسية من إيجابيات، كإسلام بعض ملوك وآهلي هذه المناطق، تبين أنها أطمعت

---

(1) بارتولد: تركستان، ص٣٠٤ – الهادي الغزي: الشعر الأموي في خراسان، ص٣٣.

(2) تجاوزناه لأن عامله على خراسان يزيد بن المهلب، كان قد وجه فتوحاته إلى جرجان وطبرستان ودهستان. (انظر راضي عبدالله عبدالحليم: تاريخ خراسان، ص٤٥ – ٤٩).

(3) انظر حديثنا عن مجمل سياسته الحربية قبل: التمهيد، ص٣٢ – ٣٥.

(4) تاريخ الأمم، ٥٦٨/٦.

(5) مرو: وهي مرو الشاهجان، أو مرو العظمى، أشهر مدن خراسان وعاصمتها. (ياقوت: معجم، ١١٢/٥ – ١١٦).

(6) انظر حديثنا عن ذلك قبل: التمهيد، ص٣٣.

(7) انظر ذلك في / الطبري: نفس المصدر، ٥٥٨/٦ – ٥٦٢ – ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٠ – البلاذري: فتوح البلدان، ص٤١٥ – ابن الأثير: الكامل، ١٥٧/٤ – ١٥٩.

آخرين في المسلمين، وحفزتهم إلى التمرد وشق عصا الطاعة[١].

فقد تمرد الصغد[٢] على سلطان المسلمين، وهاجم الترك تلك البلاد وعاونوا الصغد في حربهم المسلمين، خلال ولاية عبدالرحمن بن نعيم الغامدي (١٠٠ - ١٠٢هـ)[٣] وظلت مستعرة الأوار حتى ولاية سعيد بن عبدالعزيز[٤] (١٠٢ - ١٠٣هـ)، الذي تولى خراسان بعده من قبل الخليفة يزيد بن عبدالملك[٥]، الذي كان عليه إخماد ذلك التمرد.

سعيد بن عبدالعزيز وسياسة المسالمة تجاه الصغد:

استمرت ولاية عبدالرحمن بن نعيم على خراسان منذ سنة ١٠٠هـ في خلافة عمر بن عبدالعزيز، حتى سنة ١٠٢هـ زمن يزيد بن عبدالملك، حيث دامت نحو ستة عشر شهرًا[٦]. واستمرت مع ولايته الاضطرابات التي عمت مناطق الصغد منذ أيام عمر، ولم يكن مقدم أمير خراسان الجديد زمن يزيد بن عبدالملك، وهو سعيد بن عبدالعزيز (١٠٢ - ١٠٣هـ)، نهاية لتلك الاضطرابات، بل ظل الصغد بالتعاون مع الترك على تمردهم و مخالفة المسلمين، رغم ما بذله الوالي الجديد من جهد في استمالة دهاقنتها وتسكين

---

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي، ص٢١٨.

(٢) الصغد: كورة قصبتها سمرقند، وهما صغدان، صغد سمرقند وصغد بخارى. ذكر أن مساحته ستة وثلاثين فرسخًا في ستة وأربعين. ومنبرها الأجل سمرقند ثم كش ثم نسف ثم كشانية، وقيل قصبته اشتيخن، والبعض يجعل بخارى من الصغد. (ياقوت: معجم، ٣/٤٠٩ - ٤١٠).
ويذكر كي لسترنج: أن الصغد (صغديانا القديمة) كان يشمل الأراضي الواقعة بين سيحون وجيجون، والتي يسقيها نهري زرفشان، وعليه تقوم بخاري وسمرقند، والنهر حيال مدينتي كش ونسف. إلا أنه قال: من الأوجه أن يعد الصغد اسما للرساتيق المحيطة بسمرقند. فإن بخاري وكش نسف، كانت كل واحدة منها تعد كورة بذاتها. (انظر / بلدان الخلافة الشرقية، ص٥٠٣).
والصغد أهل هذه البلاد.

(٣) لم أعثر على ترجمة له.

(٤) سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص الأموي، ختن مسلمة بن عبدالملك. (الطبري: تاريخ الأمم، ٦٠٥/٦). ولم أعثر على ترجمة له.

(٥) بارتولد: تركستان، ص٣٠٨ - وانظر ما سنكتبه عن تمرد الصغد منذ زمن عمر، و القضاء على ذلك زمن يزيد في الصفحات التالية.

(٦) الطبري: نفس المصدر، ٦٢/٥.

أهلها، وإتباع سياسة المسالمة تجاههم، لدرجة وسم معها بالضعف وثقل على الناس[1].

لقد تمسك أهل المدن الكبرى في ما وراء النهر بموقفهم وهو عدم دفع الضرائب، والامتناع عن تنفيذ أوامر الحكومة الإسلامية، ومقاومة جيوشها[2]. ويبدو أن من هذه الضرائب، الجزية التي أعاد الخليفة يزيد فرضها على من أسلم بعد أن أسقطها عنهم عمر بن عبدالعزيز[3]. وعمل عماله على جبايتها بالعنف والقوة، فادى ذلك إلى نقض أغلب ممالك ما وراء النهر كالصغد وفرغانة وكش ونسف عهدها مع المسلمين، بل وأرتد كثير من الأهالي عن الإسلام.

ولعل مما ساعد على استفحال الفتنة، إنشغال المسلمين بحركة ابن المهلب، وما

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والجزء، ص٦١٢ - ٦١٤ - بارتولد: تركستان، ص٣١٨ (وقد أشار إلى ضعف سعيد بن عبدالعزيز، وقال من أجل ذلك لقبوا سعيد ب "خذينة". والصحيح إنما لقب بذلك كما يقول الطبري: أنه كان رجلاً ليناً سهلاً منعماً، دخل عليه ملك أبغر عندما قدم خراسان، فوجده في ثياب مصبغة، وحوله مرافق مصبغة، فلما خرج، سألوه عن الأمير؟ فقال: خذينية لمته سكينية، فلقب خذينة. وتعني عندهم الدهقانة، ربة البيت. (انظر: نفس المصدر. ٦/٦٠٥)، ويشير البلاذري أن سعيد بن عبدالعزيز دافع عن نفسه، وبين أسباب هذا اللقب، بقوله: سميت خذينة لأني لم أطاوع على قتل اليمانية، فضعفوني. (انظر: أنساب الأشراف، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٣٦م، ٥/١٦١ - ١٦٢). وفي قوله هذا إشارة إلى سياسة الدولة نحو القبائل اليمنية. وعدم ملاحقتهم بعد القضاء على حركة ابن المهلب اليمني، وتلك رغبة القبائل المضرية هناك. كما يبدو، وإن صح هذا الخبر، فإن الذي أطلق عليه اللقب هم العرب لا ملك أبغر.

(٢) عبدالله مهدي الخطيب: الحكم الأموي في خراسان، رسالة جامعية مطبوعة، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، دار التربية، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ص ١٢٤. لكنه أشار إلى انضمام المزارعين العرب إلى أهل البلاد في مقاومة الحكومة، وهذا ما تخطئه دلائل الأحداث، إذ نجد الترك والصغد قد حصروا العرب في قصر الباهلي (انظر/ الطبري: نفس المصدر، ٦/٦٠٨) وهذا يعني حربهم للمسلمين الذين لديهم، لا مقاومة جيوش الخلافة فحسب مما ينفي هذا التحالف.

(٣) عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠٠ - ٣٠١ (نقلاً عن: فلهاوزن: الدولة العربية، ص٣١٢ - ماجدة: التاريخ السياسي، ٢/٢٧٨ - الطبري: نفس المصدر، ٦/٦٠٥ - ٦٠٧ - ابن الأثير: الكامل، ٥/٩٢)، وسنناقش القول بإعادة يزيد فرض الجزية على من أسلم. انظر ذلك بعد: الفصل الخامس، المبحث الثاني.

أورثته من نزاع قبلي، واضطراب داخلي. إلى جانب اضطراب سياسة بني أمية وترددها بين اللين والقوة[1].

لكن فيما يبدو أن بارتولد[2] التبس عليه الأمر، حين قال باستمرار التمرد في ما وراء النهر منذ قيامه خلال ولاية عبدالرحمن بن نعيم، حتى ولاية خلفه سعيد بن عبدالعزيز أمير خراسان، من قبل الخليفة يزيد بن عبدالملك، إذ تشير بعض المصادر[3] إلى أن أهل الصغد عادوا إلى الصلح في ولاية عبدالرحمن الغامدي بعد انتقاضهم عليه. والأظهر، أنهم انتقضوا مرة أخرى في ولاية سعيد بن عبدالعزيز، و تحالفوا مع الترك على حرب المسلمين، إذ يشير الطبري[4] أن دهاقين الصغد بايعوا الترك على حرب المسلمين ما عدا ملك قي.

ونجد أن علاقة خذينة مع الصغد كانت في بدايتها في منتهى الوفاق، فقد ولى شعبة بن ظهير عاملاً عليهم بمشورة الدهاقين، لكون أبيه أحد أصدقائه الصغد القدامى، فاستطاع معالجة الموقف هناك[5]. غير أن أمير الصغد شعبة، شكى ضمن مجموعة من الأمراء، لا تهامهم بممالأة أهل البلاد، فعزل عنها وولى عثمان بن عبدالله بن مطرف بن الشخير مكانه[6]. ويتبادر إلى الذهن أن الوالي الجديد سعى إلى تنفيذ سياسات الخليفة يزيد بن عبدالملك وخاصة المالية منها. وكان الناس قد ضعفوا سعيد بن عبدالعزيز، فطمع فيه الترك، وجمع خاقانهم جيشاً، وجهه إلى الممالك الإسلامية فيما وراء النهر بقيادة كورصول، فانضم إليهم الصغد وبايعوهم على حرب المسلمين، فسار بهم حتى

---

(١) عماد الدين خليل، نفس المرجع، ص٣٣ – الهادي الغزي: الشعر الأموي في خراسان، ص٣٣.

(٢) انظر قوله في الصفحة قبل السابقة.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦٠٥ – ٦٠٦ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٧٧ – ابن خلدون: العبر، ٣/٨٠.

(٤) نفس المصدر والجزء، ص٦٠٨.

(٥) محمد شعبان: الثورة، ص١٧٠ – ١٧١.

(٦) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٦٠٧.

نزل على قصر الباهلي وحاصر المسلمين فيه[1].

موقعة قصر الباهلي (سنة ١٠٢هـ):

كنا قد ذكرنا بأن الترك والصغد قد حاصروا المسلمين في قصر الباهلي، وقد أشارت بعض المصادر[2] إلى سبب آخر غير استغلال الترك لضعف أمير خراسان وعزل عامله على الصغد شعبة بن ظهير. وهو أن أحد الدهاقين أراد أن يتزوج امرأة من باهلة، كانت في قصر الباهلي، فأبت، فاستجاش الترك، راجيًا أن يسبوا من في القصر، فيأخذ المرأة وإن كنا لا نستطيع أن نعمد إلى هذا السبب، فليس من المنطق أن يبعث خاقان الترك جيشًا لحرب المسلمين من أجل أن ينال دهقان من الصغد امرأة مسلمة، وإن صح هذا السبب فيكون على الأكثر عاملاً مساعدًا دفع إلى تحالف هذا الدهقان وقومه مع الترك. أما بقية أهل الصغد وتمردهم فإن وراءه من الأسباب السياسية والمالية ما كنا قد أشرنا إليه[3].

وكان في قصر الباهلي مائة أهل بيت من المسلمين بزراريهم، وأمير سمرقند آنذاك عثمان بن عبدالله، ويظهر أن المسافة بين القصر وسمرقند كانت بعيدة، فخشي المحصورون أن يبطئ عليهم المدد، فصالحوا الترك على أربعين ألف، وأعطوهم سبعة عشر رجلاً رهينة حتى يأخذوا صلحهم، فبعث إليهم أمير سمرقند المسيب بن بشر الرياحي، في أربعة آلاف لمساعدة من بقصر الباهلي من المسلمين وإنقاذهم، فانصرف عنه أثناء الطريق جل الجند حتى لم يبق منهم معه وقد أصبح على بعد فرسخين من قصر الباهلي، إلا سبعمائة، إذ كان يخطبهم كلما نزل منزلاً، ينوه فيهم بشأن العدو قوة وكثرة، وكأنه لا يريد أن يسير معه إلا من عزم على الغزو وصدق النية والصبر. وقد لقيه في الطريق ترك خاقان ملك في ثلاثمائة من قومه، فأخبره بانتقاض كافة الصغد ما عداه ومبايعتهم الترك، وأن الترك المحاصرين قد قتلوا الرهائن عندما علموا بمقدمه من

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ٦٠٧/٦ – ٦٠٨ – ابن الأثير: الكامل، ١٧٨/٤ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٨/٩ – ابن خلدون: العبر، ٨٠/٣.

(2) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٦٠٧ – ٦١٠ – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص ١٧٨ – ١٧٩.

(3) انظر ذلك في الصفحتين السابقتين.

قبل أمير سمرقند، فبعث المسيب رجلان يستطلعان خبر القوم، فوجد الترك قد أجروا المياه حول القصر لتمنع الوصول إليه، وتمكنا من محادثة أحد المسلمين المحصورين، فوجدهم قد اعتزموا الخروج من الغد، وتقديم النساء للموت قبلهم حتى لا يبقى منهم أحد، فأخبراهم بمقدم النجدة، وحث القوم على الصبر حتى وصولها.

أما المسيب فقد اعتزم المسير وبايعه من معه على الموت، وكانت خطته أن يبيت القوم، فحث رجاله على الصدق والصبر، وجعل على ميمنته كثير بن الدبوسي، وعلى ميسرته ثابت قطنة، وهاجم القوم، فصبر لهم الترك، وانهزم المسلمون إلى المسيب، فترجل أناس من المسلمين وثبتوا، فانهزم المشركين ولاذوا بالفرار، فأمر المسيب رجاله بقصد القصر، وحمل المال[1]، ومن لا يقدر على المشي من الشيوخ والنساء والصبيان، أما حسبة أو بأجر[2]، واحتمال أهل العهد[3]، فاحتملوهم، وأنزلوهم قصر ترك خاقان ملك الذي بقى على ولائه للمسلمين. وعاد البعث إلى سمرقند، فرجع الترك من الغد، فلم يجدوا في القصر أحداً، ولم يعثروا على اثر للمسلمين[4].

وينجلي لنا من هذا الخبر عن وقعة قصر الباهلي تعرض الديار الإسلامية للغزو الخارجي من قبل الترك وتمرد أهل الصغد في الداخل، وتحالفهم مع العدو ضد المسلمين. ومع تحقيق المسلمين للنصر في الميدان العسكري في هذه الواقعة، إلا أنها مع ذلك قد أسفرت عن جلاء المسلمين عن قصر الباهلي[5]، إذ أن القوة الإسلامية كانت

---

(١) قال ابن الأثير: «حمل الماء» والأصح ما قدمناه، فليس أكثر من مياه الصغد وأنهارها. انظر: الكامل،، ١٧٨/٤ – ١٧٩.

(٢) حدد الأجر: أربعون ألف درهم. انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٦١٠/٦ – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحات.

(٣) هنا إشارة إلى وفاء المسلمين بعهدهم لأهله، ووجوب منعهم لقاء الجزية، والمساواة في أحلك الظروف.

(٤) عن وقعة قصر الباهلي: (انظر/ الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٦٠٧ – ٦١٠ – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٨/٩ (في شي من الاختصار) – ابن خلدون: العبر، ٨٠/٣.

(٥) الهادي العزى: نفس المرجع، ص٢٨.

نجدة أنقذت المسلمين كأفراد، ثم ارتدت إلى مركزها سمرقند. بل أن عودة الترك في اليوم الثاني يعني بقاء القوة المعادية في الديار الإسلامية والاستيلاء على بعضها مما أوجب على المسلمين وأمير خراسان خاصة، طرد الأعداء وحماية الثغور، وإعادة السيادة الإسلامية على الصغد والقضاء على تمرد أهله.

غزو سعيد بن عبدالعزيز الصغد وحربه الترك:

عبر سعيد بن عبدالعزيز (سنة ١٠٢هـ)، نهر جيحون غازيًا الصغد، ومحاربًا الترك، فقد غزا الترك بلاد الصغد وفرغانة، وتكررت هجماتهم، وقد أعانهم الصغد في حربهم للمسلمين، ويذكر أن سعيد بن عبدالعزيز عبر النهر مرتين[١]، كانت الثانية منها سنة ١٠٣هـ[٢]، لكنه في كلتيهما لم يتعد مدينة سمرقند[٣]. واكتفى بالنصر الذي حققه على الترك في معاركه، ولم يتكلف تتبعهم وإخراجهم من البلاد، وإعادة سلطان المسلمين عليها.

والمصادر لا تميز بوضوح بين غزوتيه، وإن كانت قد اتفقت على آخر نقطة وصل إليها (وهي سمرقند) ونتائج غزوه، فيصف لنا الطبري وغيره إحدى غزوتيه فيقول: أن الناس استحثت سعيد بن عبدالعزيز على الغزو بعد أن رأوا غزو الترك لبلادهم فيما وراء النهر وأعانه أهل الصغد لهم. فقطع النهر إلى الصغد، وهناك التقى مع الترك وطائفة من الصغد، فهزمهم المسلمون، إلا أن سعيدًا منع المسلمين من تتبعهم، محتجًا بان الصغد بستان أمير المؤمنين، وأنه لا يريد بوارهم، فلما رأت الترك مسير المسلمين عنهم، كروا عليهم وقد جعلوا لهم كمينًا، فقاتلوهم، وانحازوا حتى جازوا الكمين فخرج على المسلمين، فانهزموا، وتبعهم الترك، فثبت المسلمون، حتى انكشف عنهم العدو، فلم

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦١٢ – ٦١٤.

(٢) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٧.

(٣) الهادي الغزي: نفس المرجع، ص٢٨ (لكن قوله ليس من الدقة بمكان فكما سنرى أنه سيصل إلى اشتيخة شمال سمرقند، ويبعث سرية إلى ورغسر شرق سمرقند أيضًا. انظر الصفحات التالية).

يتبعوهم أيضًا وقد انهزموا، ومن الغد خرجت مسلحة[1] للمسلمين عليها شعبة بن ظهير، فخرج عليهم الترك فجأة، فهزم المسلمون وقتل منهم نحو خمسين على رأسهم شعبة بن ظهير، فخرجت لإغاثة المسلحة جماعة من تميم بقيادة الخليل بن أوس العبشمي، فكفوا الترك عن الناس، حتى جاء الأمير، فانهزم العدو[2].

والخبر السابق ينقصه مكان القتال وعلى ماذا تقاتل الفريقان وهذا ما نجده عند البلاذري[3] الذي و إن خالف لفظ الطبري، فإنه أتم هذا النقص، ووافقه في سمة الحادث العامة. إذ يخبرنا: أن سعيد لما عزم على الغزو قدم سورة بن الحر الحنظلي[4]، فتوجه إلى ما وراء النهر، فنزل اشتيخن[5] وقد صارت الترك إليها فحاربهم، وهزمهم، ومنع الناس من طلبهم، خشية أن تكون منهم كره ثم لقي الترك بعد ذلك، فهزموه، وأكثروا القتل في أصحابه، وأظنه قصد بذلك الهزيمة التي لحقت بالمسلحة التي أشار إليها الطبري قبل.

أما الغزوة الثانية، فإن المصادر لا تميزها، لكننا نجد عند الطبري[6] إشارة إليها، إذ يخبر أن سعيدًا نزل بإزاء العدو، فقيل له: ناجز أهل الصفد فأبى، فرأى دخانًا سال

---

(١) مسلحة: مسلحة الجند خطاطيف لهم بين أيديهم، ينفضون لهم الطريق ويتحسسون خبر العدو، ويعلمون لهم علمهم، لئلا يهجم عليهم، ولا يدعون أحدًا من العدو يدخل بلاد المسلمين، وينذرون المسلمين بتقدم الجيوش نحوهم، (ياقوت: معجم، ١٢٨/٥ - ١٢٩).

(٢) تاريخ الأمم، ٦٢١/٦ - ٦١٢ - ابن الأثير: الكامل، ١٧٩/٤ - ١٨٠ - ابن خلدون: العبر، ٨١/٣.

(٣) فتوح البلدان، ص٤١٦ - انساب الأشراف، ص١٦١ - ١٦٢.

(٤) أورد البلاذري اسمه في فتوح البلدان: سورة بن الحر، وفي الأنساب: سورة بن أبجر. ووجدناه عند الزركلي: كما جاء في فتوح البلدان، وقد قال عنه أيضًا: أمير سمرقند وأحد رؤساء تميم، انتدبه الجنيد لنجدته وهو يقاتل الترك، فجاءه من سمرقند باثنى عشر ألف، فاعترضوها لترك، فقاتلهم حتى كشفهم وكانوا قد أوقدوا نارًا خلفهم، فلما أغار سوره وأصحابه سقطوا في اللهيب، فقتل مع أكثرهم. (انظر: الأعلام، ١٤٥/٣)،

(٥) اشتيخن: مدينة تقع على بعد سبعة فراسخ شمال سمرقند نعتها الاصطخري بقلب السعد لخصبها. (كي لسترنج: بلدان، ص٥٠٩).

(٦) نفس المصدر، ٦١٣/٦ - ٦١٤.

عنه، فأخبر أنهم متمردي الصغد ومعهم بعض الترك، فقاتلهم حتى النصر. إلا أنه منع طلبهم وتتبعهم.

وفي العام التالي لغزوة سعيد الأولى، بعث سرية من بني تميم إلى ورغسر[١]، وكانوا يأملون لقاء العدو، ليطاردوه، إذ كان سعيد بن عبدالعزيز يمنعهم من تتبعه، وإذا ما وجد السرية قد أصابت وغنمت وسبت، رد ذراري السبى وعاقب السرية[٢].

ومن عرضنا لجهود سعيد بن عبدالعزيز العسكرية في بلاد الصغد، تبين أنه عمل على طرد الترك مما وراء النهر، واتباعه سياسة اللين التودد مع الصغد، آملاً عودتهم للطاعة دون تعريضهم للبوار والإبادة، كما حرص عل تجنيب بلادهم الحرب، لئلا تكن ميدان قتال، فيلحق بها الخراب والتدمير. إذ يشير عبدالله الخطيب[٣] إلى وجود منشآت إروائية، تتمثل في قنوات مائية يروي منها الفلاحون الصغار مزارعهم وتعود ملكيتها للحكومة أو الإقطاعي الكبير أو إلى المشاعة، وقد كان الفلاحون يعملون مجاناً في أوقات معينة من السنة لصيانة هذه المنشآت، وأن الأمير سعيد كان إلى جانب خوفه على الأراضي الزراعية العائدة للخليفة[٤] أو لأمراء العرب وأشرافهم[٥]، يسعى إلى تجنب توتر العلاقات مع الخانات الحاكمين.

ونخلص أن سياسة اللين التي اتبعها سعيد بن عبدالعزيز مع الصغد وغزواته التي

---

(١) ورغسر: قرية كبير، خصبة تسقيها أنهار تأخذ من نهر الصغد، وتقع بين مدينتي سمرقند وبنجيكث، الواقعة على بعد تسعة فراسخ شرق سمرقند. (كي لسترنج: بلدان ص٥٠٨ – ٥٠٩).

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦١٤ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨٠ – ابن خلدون: العبر، ٣/٨١.

(٣) الحكم الأموي في خراسان، ص١٢٢ – ١٢٣.

(٤) لم تشر المصادر إلى وجود ملكيات خاصة للخلفاء فيما وراء النهر، ويبدو أنه يقصد الأراضي العائدة للحكومة وهي أرض الخراج والصوافي.

(٥) نجح بعض الأثرياء في شراء بعض الأراضي الخراجية في العصر الأموي، وتحولت إلى عشرية، حتى منع ذلك الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وسار على نهجه خليفته يزيد ثم هشام، وإن كان الأمر لم يتوقف نهائيا، ففرض الخراج على الأرض الخراجية وأن ابتاعها المسلم. (انظر عبدالعزيز الدوري: العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، من القرن السادس إلى القرن السابع عشر، المنعقد في الجامعة الأردنية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م، ص٢٩).

كانت تهدف إلى محاولة كسبهم وإرجاعهم إلى حظيرة الإسلام، لم تفلح في إعادة الصغد إلى الطاعة، حيث ظلوا على حلفهم مع الترك، واستمر عصيانهم على المسلمين، كما ازداد الوجود التركي في الإقليم، وضاعت هيبة المسلمين بانتصار العدو أحيانًا، وإحجام المسلمين عن طرده، فقد أجلوا المسلمين عن قصر الباهلي، وتقدموا نحو اشتيخن، في محاولة منهم لإخراج المسلمين وتقليص النفوذ الإسلامي وراء النهر، ويظهر أن تمرد الصغد والوجود التركي كان واضحًا شرق وشمال شرق ما وراء النهر، وانحصر حكم المسلمين في غرب الصغد وجنوبه، خصوصًا في المدن الكبرى مثل سمرقند وبخارا واشتيخن وغيرها. كل ذلك أدى إلى شكوى العرب أميرهم سعيد بن عبدالعزيز إلى أمير العراق، الذي عزله عن ولاية خراسان ووجه سعيد بن عمرو الحرشي[1] أميرًا عليها (سنة ١٠٣هـ)، لعله يسيطر على الموقف المتردي فيما وراء النهر.

القضاء على تمرد الصغد وإعادة سلطان المسلمين على ما وراء النهر:

محاولات سعيد بن عمرو الحرشي السلمية وارتحال الصغد عن بلادهم:

يظهر أن الخلافة قد وضعت ثقتها في شخص القائد سعيد بن عمرو الحرشي، عندما حملته مسئولية إعادة الصغد إلى الطاعة، وفرض السيادة الإسلامية على بلاد ما وراء النهر من جديد. حيث نجد أن ولاية الأمير الجديد (سنة ١٠٣ - ١٠٤هـ) قد جاءت بأمر من الخليفة يزيد بن عبدالملك نفسه[2]، وقد ضم إليه جيشًا سار به إلى خراسان[3]. ويبدو أنه بلغ من القوة ما جعل أهل الصغد يتركون بلادهم ويفرون من

---

(١) سعيد بن عمرو بن الأسود بن مالك بن كعب بن وقدان بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وقائد من الولاة الشجعان، من أهل الشام، تولى القضاء على شوذب الخارجي سنة ١٠١هـ، وولاه ابن هبيرة سنة ١٠٣هـ خراسان ثم بلغ ابن هبيرة أنه يكاتب الخليفة ولا يعترف بإمارته، فعزله وسجنه، ثم أخرجه خالد القسري، وولاه هشام غزو الخزر (سنة ١١٢هـ)، وكان تقيًا بطلاً، وصفه ابن هبيرة بفارس قيس: (الزركلي: الأعلام، ٣/٢٩٩) وأشار إلى نسبه الطبري. (انظر: تاريخ الأمم، ٦/٦١٩).

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦٢٠ - ٦٢١ - ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢٤٩.

(٣) ابن أعثم: الفتوح، ٤ / ٢٥٨.

وجه الحرشي عندما أقبل عليهم[1].

وتشير المصادر إلى أن الحكومة الإسلامية ممثلة في أمير العراق عمر بن هبيـرة (نة ١٠٢ - ١٠٥هـ)، والوالي الجديد لخراسان سعيد الحرشي لم يسعيا للحـرب، بل حرصا بادئ الأمر على تصحيح الأوضاع سلميًا، فيذكر الطبري[2] أن ابن هبيرة، بعث إلى الصغد قبل أن يخرجوا من بلادهم، يدعوهم إلى البقاء، وانه سيستعمل علـيهم مـن أحبوا، فما قبلوا منه، وخرجوا عن بلادهم.

كما وجه الحرشي إلى الصغد من يدعوهم إلى الطاعة، والمراجعـة، فعـادت إليـه رسله، بإقامتهم على الخلاف، والعصيان[3]. وكان قد كف عن التعرض لهـم وإثـارتهم حتى جاءه خبرهم[4].

وخشي الصغد سعيدًا الحرشي، وكان قد وجه مقدمته، وعليهـا عبـدالرحمن بـن عبدالله القشيري، في حماة أصحابه، فأجمعوا على الخروج عن بلادهم، إلى خجنـدة[5]، والاستجارة بملكها، حتى يستصفحوا أميرهم، ويضمنوا عفوه عنهم، وقد أشـار علـيهم عظيم لهم، بالبقاء، على أن يحملوا إليه خراج ما مضى، ويضمنوا له خراج مـا أقبـل، وعمارة الأرض، والغزو معه أن أراد، مع الاعتذار عما كان مـنهم، وإعطائـه رهـائن تضمن وفاءهم. لكنهم خشوا ألا يرضى، وفضلوا الخروج. وفي قوله دلالة على امتنـاع الصغد عن دفع الخراج، وزراعة الأرض الخراجية إبان انتفاضهم، وهذا نقـض لعهـود

---

(١) الطبري: نفس المصدر، ٦/٦٢١ - ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٨.

(٢) نفس المصدر والجزء، ص٦٢١ - ٦٢٢.

(٣) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمـد حسـين الزبيـدي، الجمهوريـة العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م، ص٤١٠. البلاذري: فتوح البلدان، ص٤١٦.

(٤) البلاذري: نفس المصدر، ص٤١٦.

(٥) خجندة: أول مدن فرغانة من الغرب، إذا جئت من سمرقند، تقوم على ضفة سيحون اليسرى، ولها قلعة قوية فيها السجن، جامعها في المدينة، ودار الإمارة في الميدان بالربض، وهي مدينة نزهة. (كي لسترنج: بلدان، ص٥٢٢ - ٥٢٣).

الصلح، وخروج على الطاعة. فخرجوا إلى خجندة، وأرسلوا إلى ملك فرغانة[١] يسألونه أن يمنعهم وينزلهم مدينته، فامتنع عن المدينة، لكنه أعطاهم شعب عصام بن عبدالله الباهلي[٢]، على أن يؤجلوه أربعين يومًا، حتى يفرغه لهم، وليس لهم عقد ولا جوار ولا منعة، أن أتاهم العرب قبل أن يدخلوه، فقبلوا ذلك، وفرغ لهم الشعب، وكان قد ارتحل أهل اشتيخن، وأهل قيء وأهل بياركت، وأهل سسكت، ودهاقين بزماجن، إلى خجنده، بينما ارتحل الديواشني بأهل بنجيكت إلى حصن أبغر[٣].

ومن الغريب أن الصغد لم يرحلوا إلى بلاد الترك، ولم يطلبوا مساعدتهم، بل أن الترك لم يظهر لهم أثر في بلاد ما وراء النهر طيلة إمارة الحرشي، تاركين الصغد تحت رحمة العرب، ويبدو أن الترك لم يكن لديهم من القوة ما يمكنهم من مواجهة الحرشي وقوته. ومن المحتمل أن أهل الصغد عندما لجأوا إلى خجندة، أرادوا نقل مركز تجارتهم إلى الشرق، ليبعدوا عن العرب، ويتجنبوا سيطرة الترك عليهم. ويتضح أنهم لم يشكوا في قبول ملك فرغانة لهم، لكنه في الواقع لم يكن قادرًا على محاربة المسلمين، فتظاهر بمساعدة الصغد، بينما كان على اتصال بالمسلمين ضدهم[٤].

---

(١) إقليم فرغانة كان إلى وقت قريب يعرف بخانية خوقند، وقد أعادت له الحكومة الروسية اسمه القديم، وقصبته في أوائل العصور الوسطى مدينة «اخسيكث»، وسماها ابن خرداذبه وغيره مدينة فرغانة. وتقوم على ضفة نهر سيحون الشمالية، وهي مدينة واسعة، ذات مياه وزروع وأسواق، على ربضها سور، ولها خمسة أبواب، بها جامع ودار إمارة وحبس، ويبدو أنه قد استولى عليها الخراب. (كي لسترنج: بلدان، ص٥٢٠ - ٥٢١).

(٢) يقع هذا الشعب في رستاق أسفره، القريب من مدينة سوخ، وينسب هذا الشعب إلى الوالي الذي أرسله قتيبة بن مسلم إلى تلك الأصقاع، غير أن قرائن الأحوال تشير إلى أن العرب اضطروا إلى إخلائه عقب وفاة قتيبة، أو أنهم أبيدوا عن آخرهم في فترة الاضطرابات التي أعقبته، فرجعت الأرض إلى مالكها السابق أمير فرغانة. (بارتولد: تركستان، ص٣٠٤ - ٣٠٥، ٢٧٢ - ٢٧٣).

(٣) عن ارتحل الصغد عن بلادهم انظر/ الطبري: تاريخ الأمم، ٦٢١/٦ - ٦٢٢ - ابن الأثير: الكامل، ١٨٤/٤ - أن خلدون: العبر، ٨٢/٣. وهذه المدن تقع شرق وشمال سمرقند فيما وراء النهر. (انظر / كي لسترنج: نفس المرجع، ص٥٠٣ - ٥١٦).

(٤) محمد شعبان: الثورة، ص١٧٢ - ١٧٣.

غزو سعيد بن عمرو الحرشي الصغد وإخضاعهم:

الإيقاع بهم في خجنده:

لم يكن هناك بد من زحف الحرشي على الصغد، بعد أن أعيته الوسيلة السلمية، في إعادة أهلها إلى الطاعة، إذ خرجوا من بلادهم إلى خجندة وأبغر، وإن كان البلاذري[1] قد أورد، أن عشرة آلاف منهم قد مالوا إلى الطاعة، و انقطعوا عن عظيمهم.

فقام سعيد الحرشي (سنة ١٠٤هـ) بغزو الصغد، فعبر النهر، وعرض الناس، ثم نزل «قصر الريح»[2] على فرسخين من «الدبوسية»[3]، فارتحل ولم يجتمع له الجند، ويبدو أن الهزائم التي لحقت بالمسلمين أيام الأمير السابق قد أضعفت عزيمة المسلمين في حرب الصغد وحلفائهم الترك. فَانْتُقِد تقدمه في أرض الحرب قبل اكتمال جنده، وأُشِير عليه بالنزول حتى يجتمعوا إليه. فنزل «مغون»[4]. وفيها جاءه النيلان ابن عم ملك فرغانة، رسولاً من الملك، يخبره بنزول الصغد خجندة، ويحثه معاجلتهم قبل أن يسيروا إلى شعب عصام، فليس لهم عند الملك جوار قبل نزولهم فيه وانقضاء الأجل الذي حدده لتفريغ الشعب لهم. فوجه الحرشي عبدالرحمن القشيري، وزياد بن عبدالرحمن القشيري، في جماعة مع النيلان. إلا أنه سرعان ما ارتحل في أثرهم، خشية أن يكون الأمر خدعة، فنزل على أشروسنة[5]، فصالحهم بشيء يسير. ثم سار حتى لحق بالقشيري بعد ثلاث ليال، وواصل حتى انتهى إلى خجندة، فنزل، ورفع الأبنية، وتأهب للحرب على أناة، مما جعل من كان يرى معاجلة العدو من جنده، يسمه بالجبن، وقالوا:

---

(١) فتوح البلدان، ص٤١٦.

(٢) مرحلة عرفها العرب باسم قصر الريح، وهي نقطة انقسام طريق خراسان العظيم، جنوب شرقي نيسابور. (كي لسترنج بلدان، ص٤٢٩).

(٣) الدبوسية: مدينة كبيرة بين بخاري وسمرقند، في ضفة الصغد الجنوبية، تقع على مرحلة بريد شرق كرمينية، وهي مدينة قليلة القرى ولا أعمال لها. (كي لسترنج: بلدان، ص٥١١).

(٤) مغون: قرية من قرى بشت من نواحي نيسابور، (ياقوت: معجم، ١٦٢/٥).

(٥) أشروسنة: إقليم يقع شرق سمرقند بين الرساتيق الممتدة في محاذاة يمين نهر الصغد، والرساتيق التي في يسار نهر سيجونن والنهران ليسا منه، وحده الشرقي (الغامر) وقصبة الإقليم مدينة أشروسنه، ويقال لها أيضا بونجكت. (كي لسترنج: نفس المرجع، ص٥١٧ - ٥١٨).

«كان هذا يذكر بأسه بالعراق[1] ورأيه فلما صار بخراسان ماق» أي حمق. وكان يرى أن يجعل خلفه مرتكزًا يأوي إليه، ويداوي فيه المصاب، ويحمل إليه القتيل.

وكان الصغد قد اعتصموا بمدينة خجندة وقفلوا عليهم بابها، واحتفروا خلف الباب خندقًا غطوه بالقصب وعلوه بالتراب، مكيدة منهم، عسى إذا ما انهزموا أمام المسلمين عرفوا طريقهم وسقط فيه المسلمون. وتمكن أحد العرب من ضرب باب المدينة بعمود ففتحه، فخرجوا إلى المسلمين، وقاتلوهم، فانهزموا، ولاذوا بالمدينة، إلا أنهم أخطأوا الطريق فسقط بعضهم في الخندق الذي حفروه، فأخرج منه المسلمون أربعين رجلاً، كان على الواحد منهم درعان، ويظهر أنهم تمكنوا من إغلاق المدينة عليهم والاعتصام من جديد مما اضطر الحرشي إلى حصارهم، ونصب المجانيق عليهم، فأرسلوا أثناء الحصار إلى ملك فرغانة يلومونه على الغدر، ويسألونه النصر، فقال لم أغدر، إذ لستم في جواري فقد جاؤكم قبل انقضاء الأجل، كما امتنع عن نصرهم، فلما يئسوا من نصره، طلبوا من المسلمين الصلح، وسألوا الحرشى الأمان، وأن يردهم الىالصغد، فأعطاهم ذلك، على أن يردوا من في أيديهم من نساء العرب وذراريهم، وأن يؤدوا الخراج الذي منعوه في الأعوام الماضية، وألا يغتالوا أحدًا، ولا يتخلف منهم بخجندة أحد، فإن أحدثوا حلت دماؤهم، فأخرج الملوك والتجار من الباب الشرقي، وترك أهل خجندة على حالهم، ونزل عظماؤهم على معارفهم من الجند في المعسكر الإسلامي، وكان ممن نزل كارزنج وهو من عظمائهم، على أيوب بن أبي حسان.

لكن ثابت الاشتيخني وهو من عظماء الصغد كان قد قتل امرأة عربية من النساء اللاتي كن في أيديهم، ودفنها تحت حائط بخجندة، فبلغ ذلك الحرشي، فدعا بثابت، ولما تبين له صحة الأمر، قتله. إلا أن كارزنج خاف أن يقتلهم الحرشي فسأل مضيفه أيوب بن أبي حسان أن يبعث غلامه إلى جلنج ابن أخيه وكان داخل خجنده، ليجيئه بسراويل[2] جديد، يقتل فيه، وكانت إشارة بينهما تعني أنه متعرض للقتل، وكان لجنج

---

[1] يعنون ما أبداه من ضروب الشجاعة وكقيادة بارزة في حرب شونب الخارجي، ويزيد بن المهلب عندما خرجا بالعراق على الخليفة يزيد بن عبدالملك. (انظر ذلك في الفصل الثاني).

[2] السراويل: أعجمية أعربت، تؤنث وتذكر، والجمع سراويلات، وقيل سراويل، جمع وأحدثه سروالة. انظر: اللسان (سرل).

بالمدينة فبعث بالسراويل، وخرج بشاكريته[1]، فهاجم المسلمين على غرة في معسكرهم، فقتل أناسًا، وأضر بالمسلمين، وضعضع عسكرهم، حتى تمكن ثابت بن عثمان بن مسعود قتله. وتمادى الصغد فقتلوا مائة وخمسين أسيرًا من المسلمين كانوا بأيديهم، وقيل أربعين، أفلت غلام منهم فأخبر الحرشي بمقتل الإسراء، فلما تحقق من الأمر، وهو يعني عدم التزام الصغد بشروط الصلح والأمان، وغدرهم بالمسلمين، إذ كان قتل الحرشي لثابت الأشتيخني قصاصًا لقتله المرأة، لا يبرر لكازرنج وابن أخيه جلنج الاتفاق على الغدر بالمسلمين ومهاجمة معسكرهم، كما أن قتل الأسرى، يعني عدم الالتزام بما جاء في شروط الصلح، وإلغاء للأمان.

فعزل الحرشي تجار الصغد وعددهم أربعمائة، كانوا قد قدموا بمال عظيم من الصين، ولم يكونوا ممن قاتلوا، وأمر بقتل الصغد. فامتنعوا وقاتلوا المسلمين بالخشب[2]. فقتلوا عن آخرهم، كما دعا بالحرائين في اليوم التالي فقتلوا كأصحابهم، وكانوا ثلاثة آلاف وقيل سبعة.

ثم أحصى أموال التجار، واصطفى أموال الصغد وذراريهم فأخذ منه ما أعجبه، وأظنه لا يعني أخذه لنفسه بل قد يكون اصطفى بعد الأشياء الثمينة والنادرة، فجعلها من الخمس، وبعث بها إلى الخليفة، بعد إذن جنده. ثم ولى عبيد الله بن زهير العدوي المقسم، فأخرج الخمس وقسم الأموال، ثم كتب بهذا النصر إلى خليفة المسلمين يزيد بن عبدالملك[3]. وقد علق محمد شعبان[1]، على عزل التجار وعدم قتلهم بقوله: أن إعادة

---

(1) شاكريته: خدمه وإجراؤه، قال في القاموس (شكر): «والشاكري الأجير والمستخدم، معرب جاكر». وانظر التاج.

(2) يظهر أن الصغد قد جردوا من السلاح في أعقاب هجوم جلنج على المسلمين وغدره بهم.

(3) عن مسير الحرشي وإيقاعه بالصغد في خجندة، (انظر/ الطبري: تاريخ الأمم، ٧/ ٧ - ١٠ - ابن الأثير: الكامل، م٤ ١٨٤ - ١٨٦ - ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٨ - ابن كثير: البداية، ط١، ٩/ ٢٥٦ - ابن خلدون، العبر، ٣/ ٨٢ - ٨٣ (وقد حرف في الأسماء) - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٣١١. إلا أنه التبس عليه، فجعل الغازي سعيد بن عبدالعزيز، والأصح الحرشي، كما ذكر أن من جاء بخبر الصغد ملكة فرغانة. وفرغانة كما علمنا لها ملك اسماه الطبري (الطار)، وأن رسوله إلى الحرشي بخبر الصغد كان ابن عمه النيلان. كما اورد اسم قائد المقدمة التي =

التجار موطنهم، من أجل ألا تفلت تجارة الصغد من السيطرة العربية. ولكننا نرى أن العرب لم يكونوا ينظرون بهذه النظرة المادية البحتة في تلك الفترة، فيبدو في الخلد أن الحرشي أخذ بعين الاعتبار أن هؤلاء لم يكونوا ممن خرجوا من بلادهم عصياناً، ولم يحاربوا المسلمين. فقد كانوا قادمين بتجارتهم من الصين. أما عزلهم فيبدو أنه كان لتمييز أموالهم، لئلا تدخل في الغنيمة، والطبري يشير إلى هذا التمييز بقوله: «فأحصوا أموال التجار»[2]، ثم يضيف واصطفى أموال الصغد وذراريهم[3].

لقد كان النصر في خجندة على الصغد مبيناً، وسنجد أثره في قلوب أهل تلك البلاد، عندما يتسارعون إلى مصالحة الحرشي، والخضوع لسلطان المسلمين من جديد. كما قرت عيون المسلمين بهذا النصر، وذكروه في أشعارهم، فهذا ثابت قطنة يقول فيه:

أقر العين مصرع كارزنج ... وكشين وما لاقى بيار

وديواشني وما لاقى جلنج ... بحصن خجند دمروا فباروا[4]

إخضاع مناطق الصغد:

القضاء على متمردي الصغد في حصن أبغر:

رأينا أن الصغد عندما خرجوا من بلادهم، تمردا على سلطان المسلمين وعصياناً لهم، انقسموا إلى قسمين، لجأ أكثرهم إلى خجندة، واعتصمت بقيتهم بقيادة الديواشني[5] بحصن أبغر[6].

= وجهها الحرشي إلى خجنده، سورة بن الحرب الدرامي، وليس عبدالرحمن القشيري. وقد انفرد بهذه المخالفات، فلم نعتمد على قوله وإن كان قد وافق الآخرين في صفة القتال ونتيجته بإجمال).

(1) الثورة، ص١٧٣.

(2) تاريخ الأمم، ١٠/٧.

(3) الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحة - ابن الأثير: الكامل، ١٨٥/٤.

(4) الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(5) أشار الطبري أن اسمه ديواشنج، فعربوه ديواشني، وقيل أنه دهقان سمرقند. (انظر: نفس المصدر، ١٠/٧).

(6) أبغر: أحد رساتيق سمرقند، ويقع منفرداً كآخر الرساتيق في جنوب سمرقند ونهر الصغد. (كي لسترنج: بلدان، ص٥٠٩).

فما أن فرغ الحرشي من القضاء على قوة الصغد الرئيسية في خجندة، حتى جرد جيشاً لإخضاع الديواشني ومن معه في حصن أبغر، وجعل قيادته لسليمان بن أبي السرى[١]، ويبدو أن من بقى على الطاعة من الصغد وخضعوا لسلطان المسلمين. سعوا لإثبات ولائهم للقائد سعيد الحرشي، الذي أراد أن يمتحن صدق نواياهم باشراكهم معه في بقية غزواته، لذلك بعث مع ابن أبي السرى بعض ملوكهم وعظمائهم مثل صاحب أخرون وشومان[٢]. ثم وجه سليمان بن أبي السرى على مقدمته، المسيب بن بشر الرياحي، فخرج إليهم الصغد، ولقيوهم عند قرية كوم على بعد فرسخ من الحصن، فهزمهم المسلمون بقيادة المسيب، حتى ردهم إلى القلعة، فحاصرهم سليمان، ويبدو أن الحصار قد طال، فكتب إليه الحرشي، يسأله إن كان في حاجة إلى المدد إلا أن ابن أبي السرى، أخبره أن لا حاجة به لذلك، لأن الحصن ليس له إلا وجه واحد على وادي الصغد. حيث يظهر أن الجبال تحيط به من الجهات الأخرى. مما ساعد ابن أبي السرى إلى اكتفائه بجنده ذاك في أحكام الحصار على المعتصمين. فبعث سليمان إلى أميره سعيد الحرشي، أن سر إلى كش[٣]، ويظهر أن الحرشي كان قد وضع خطة شاملة لإعادة السيادة الإسلامية، والقضاء على بقية جيوب المقاومة في بلاد الصغد، وذلك في أعقاب انتصاره في خجندة، ويتضح أنها انطوت على تقسيم جيشه، وتوجيه بعض القيادات إلى مراكز المقاومة، ويبدو أنه حدد وجهته إلى كش، لكنه كان ينتظر ما تصير إليه الأمور مع قائده ابن أبي السرى، لحساسية وجهته. إذ كان الديواشني ومن معه يمثلون الشطر الثاني ممن جاهر بالعصيان من أهل الصغد وخرجوا من بلادهم، فلما اطمأن القائد ابن أبي السرى إلى تمكنه فيما وجه إليه، أبلغ أميره بذلك، موعزًا إليه بالسير إلى الوجهة التي رسمها لنفسه.

ويتراءى لنا أن الحال قد ساء بالمحصورين في حصن أبغر مما حدا بزعيمهم

---

(١) سليمان بن أبي السرى: لم أعثر على ترجمة له.

(٢) الشومان: قلعة في أعالي نهر القباذيان وغرب قنطرة الحجارة، قال ياقوت: في أهلها قوة وامتناع عن السلطان. (كي لسترنج: بلدان، ص٤٨٣). ولم نجد تعريفًا لأخرون.

(٣) مدينة تقع على كشكه دويا الموازي لنهر السغد من جنوبه، وتسمى ب كش أو كس، وتعرف الآن باسم سبز. (كي لسترنج: بلدان، ص٥١٢ - ٥١٣).

الديواشني أن يطلب من ابن أبي السرى أن يقبل نزوله على حكم الحرشى، شريطة أن يبعثه مع المسيب بن بشر إليه، فأعطاه ذلك وبعث به إلى الأمير، فألطفه الحرشى مكيدة منه لما كان له من المكانة في قومه، وخشية الحرشى صمود من وراءه أن علموا بمقتله، أو حدوث معارك انتقامية، لذا أجل أمر التخلص منه. أما المحصورين في الحصن، فقد طلبوا الصلح بعد مسير الديواشني عنهم، عارضين على ابن أبي السرى تسليم المدينة بما فيها، شريطة أن لا يعرض المسلمون للأهالي، فوافقهم على الصلح، وبعث إلى الحرشى بذلك ليرسل من يقوم بقبض ما في الحصن، فقبض ما فيه، وبيع مزايدة، فأخرج منه الخمس، وقسم الباقي بين الجند، هكذا تم الاستيلاء على حسن أبغر صلحا، وقضى على فتنة من لجأ إليه، أما زعيمهم الديواشني، فقد أورد الطبري، أن سعيدًا الحرشي بعد أن صالح كش، وخرج إلى ربنجن[1]، أمر بقتله، وصلبه، وبعث برأسه إلى العراق[2]، ولعل ذلك كان بعد تسليم قومه الذي بحصن أبغر، ومصالحتهم لسليمان بن ابن السري.

مصالحة كش:

توجه الحرشى بجيشه إلى كش، بعد المراسلات التي دارت بينه وبين قائد ابن أبي السرى المحاصر لأبغر، والتي عرف من خلالها تمكن المسلمين هناك من عدوهم. ويبدو أن الضربة القاصمة للصغد في خجندة قد أورثت الجزع في قلوب أهل الإقليم حتى أن

---

(١) ربنجن: مدينة كبيرة بين سمرقند وبخاري، تقع على مرحلة بريد من شرق الدبوسية. (كي لسترنج: بلدان، ص٥١١ – ٥١٢). وانظر قول الطبري عن مقتل الديوانشي في كتابه: تاريخ الأمم، ١١/٧، إلا أن ابن الأثير خالفه في ذلك وقال: قتله في زرنج. انظر: الكامل، ١٨٦/٤ وبالرجوع إلى كتاب بلدان الخلافة الشرقية، ص٣٧٣، لكي لسترنج، وجدنا أن زرنج، قاعدة إقليم سجستان. وحيث أن ميدان الأعمال العسكرية التي قام بها الحرشى هو إقليم ما وراء النهر لاسجستان، فإن كون مدينة ربنجن هي مكان مقتل الديواشني هو الاصح. فهي في ميدان القتال والأقرب إلى مدينة كش التي خرج منها الحرشي، والواقعة أيضا فيما وراء النهر. (انظر: الهامش السابق).

(٢) انظر عن إخضاع أبغر، والقضاء على الديواشني: الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن خلدون: العبر، ٨٣/٣.

دهقان كش خرج إلى الحرشي يدعوه للصلح، علـى أن يعطـوه عشـرة آلاف رأس[1]، وقيل: ستة آلاف رأس، يقدمونـها خلال أربعين يومًا. فقبل منهم ذلك، وولى نصـر بـن سيار قبض صلحهم. ثم سار من هناك نحو رنبجن[2].

غزو طخارستان:

ويغلب على الظن أن الحرشي سير قائده سليمان بن أبي السرى بعد انتهائـه مـن أبغر إلى طخرستان[3]، إذ يشير الطبري[4] أن الحرشي عندما قتل الديواشني في ربـنجن بعث بيده اليسرى إلى سليمان بن أبي السرى في طخارستان، وكنا قد تركناه محاصـرًا لحصن أبغر، وليس هناك مكان للقول، بأن وجوده هناك كان كوال. إذ يشـير الطبـري نفسه إلى استعمال الحرشي لابن أبي السرى على كش ونسف[5]. وقد تم هذا غالبًا بعـد غزو طخارستان، الذي لا تسعفنا المصادر بأكثر من ذلك عنه.

مصالحة خزار:

كانت خزار[6] من المنعة بمكان، وهذا ما دفع الحرشي إلى قبول نصيحة من أشـار عليه بأن يوجه إليها المسربل بن الخريت بن راشد الناجي، لما كان بينه وبـين ملكهـا سبغرى من الصداقة، عسى أن ينجح في فتحها صلحًا وبلا كبيـر عنـاء. فصـار إلـى فتحها، وفاوض الملك سبغري، ذاكرًا له فعل الحرشي بأهـل خجنـدة وخوفـه عاقبـه

---

(1) لا أعلم من أي شيء، فقد يكون من الناس، ليكونوا في خدمة الجيش الإسلامي، أو من البهـائم، أن كانوا رعاة.

(2) انظر مصالحته لأهل كش في / الطبري: تاريخ الأمم، ١١/٧ - ابن الأثير: الكامـل، ١٨٦/٤. إلا أنه قال: وسار منها إلى زرنـج، والأصح ما ذكره الطبري، إذ أن زرنـج في سجستان، وهو في ما وراء النهر. انظر هامش (١) الصفحة السابقة.

(3) طخارستان: ناحية عظيمة في شرق بلخ، تمتد بحذاء الضفة الجنوبية لنهر جيحون حتـى حـدود بدخشان، تحتوي على عدد من المدن، (كي لسترنج: بلدان، ص٤٦٩).

(4) نفس المصدر، والجزء والصفحة.

(5) نفس المصدر، والجزء والصفحة.

(6) خزار: موضع بغرب دخش من نواحي بلخ، وقيل: خزار موضع بقرب نسـف بمـا وراء النهـر. ياقوت: معجم، ٣٦٤/٢. والقول الأخير الأقرب، لقربه من المكان الذي وصله الحرشي في طريق غزوه، إذ كان خارجً من كش (القريبة من نسف) إلى ربنجن.

العصيان، فصالح المسلمين، وأعطى أمانًا له ولبلاده[1].

ويتضح أن الحرشى سعى إلى ضمان الولاء، وعدم رجوع الصغد إلى العصيان، فسير عظماءهم في جيوشه، واصطحب بعضهم. لذلك نجده قد أخذ سبغري معه، فلما نزل أسنان[2]، قتل سبقرى وصلبه ومعه أمانه، ويقال: كان هذا دهقان ابن ماجر قدم على ابن هبيرة، فأخذ أمانًا لأهل الصغد، فحبسه الحرشى في قهندز مرو، فلما قدم مرو، دعا به، وقتله وصلبه في الميدان[3].

وقد استغل هذا الخبر عبدالله الخطيب[4] فقال: «كان الحرشي سيء السمعة في إقليم خراسان، وكان لا يلتزم بشروط المعاهدات ولا يحترم الالتزامات التي كان يعقدها مع دهاقين الترك خلافًا للأخلاق الإسلامية وقوانين الحرب التي كان العرب الأوائل يتبعونها في فتوحاتهم الأولى في الشرق أو في الغرب كان الحرشي يقتل من يعقد معه معاهدة أو أمان أو بعد أن يعطى الأمان الشخصي لهم كما فعل - بملك خزار - وكان اسمه سبقري، صلبه ومعه أمانة». فكان لزامًا علينا تجاه هذا القول أن نعيد النظر في موقف الحرشى من الصغد، للتحقق من صحة القول، أو إجحافه. فالحرشى عندما أمر بقتل الصغد في خجندة بعد عقد الصلح والأمان، لم يكن غدرًا منه، كما قال بارتولد[5]، الذي اتبعه الخطيب في النيل من قادة المسلمين وسمو تعاملهم. فالصغد هم الذين نقضوا الصلح ولم يلتزموا بشروطه، عندما قتلوا امرأة عربية غيلة، ودفنوها تحت أحد الحيطان، فاكتفى الحرشى بقتل القاتل. وكان قد جاز له حرب الصغد جميعًا بعد نقضهم

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ١١/٧ – ١٢ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٦/٤ – ابن خلدون: العبر، ٨٣/٣ (وقد أشار إلى ذلك بدون تفصيل).

(2) أسنان: من قرى هراة. (ياقوت: معجم، ١٨٩/١).

(3) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص١٢ – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصحفة (أشار إلى مقتله، ولم يحدد مكان ذلك) – ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة (أورد اسمه قشقرين وقال قتله في مرو، ولم يشر إلى ابن ماجر).

(4) الحكم الأموي في خراسان، ص١٢٦ (نقلاً عن / الشيباني: شرح كتاب السير الكبير، ٣٥٨/١ – الطبري: نفس المصدر، ١٢/٧ – نفس المصدر: ١١٠/٥).

(5) تركستان، ص٣٠٨ (نقلاً عن / الطبري: القسم الثاني، ص١٤٣٩ – ١٤٤٩ – البلاذري: فتوح، ص٢٢٧).

ما صولحوا عليه، ثم غدر الصغد بالمسلمين وهاجموا عسكرهم، وقتلوا من بأيديهم من الأسرى، تماديًا في الباطل ونقضًا للعهد. فحاربهم دفاعًا عن النفس، وردعًا للناكثين، ومع ذلك نجد من يعتبر قتاله للغادرين غدرًا. أما قتله الديواشني وهذا حربًا على المسلمين، فنزل على حكم الحرشي، وكان حكمه فيه القتل، وليس في ذلك مخالفة. أما المثال الذي ضربه الخطيب لغدر الحرشي، وهو مقتل سبغرى، فقد وجدنا الطبري[١] وهو المصدر الأقدم قد أشار إلى ذلك بخبر يكتنفه الشك إذ قال ما نصه: «ورجع الحرشي إلى مرو ومعه سبقرى، فلما نزل أسنان وقدم مهاجر بن يزيد الحرشي، ولمره أن يوافيه ببرذون بن كشاينشاه قتل سبقري وطلبه ومعه أمانة، ويقال: كان هذا دهقان ابن ماجر قدم على ابن هبيرة فأخذ أمانًا لأهل الصغد، فحبسه الحرشي في قهندز مرو، فلما قدم مرو دعا به، وقتله وصلبه في الميدان».

فليس من المؤكد إذا قتل سبقرى، وعطفًا على ما ذكرناه من سلامة سيرة الحرشي، فإن الأظهر أن يكون المقتول ابن ماجر وليس سبقري، وإذا ما قال قائل: والأخير أيضًا كان لديه أمان من ابن هبيرة، نقول : الأمير في خراسان هو الحرشي، والأعلم بما يستحقه أهل خراسان، فقد يكون ابن هبيرة أعطى ابن ماجر الأمان قبل ارتحال الصغد عن بلادهم عصيانًا[٢]. فلما وصل خراسان، كان الصغد قد خرجوا إلى خجندة وأبغر، بعد أن رفضوا دعوة الحرشي لهم بالبقاء، والعودة إلى الطاعة[٣]، فرأى وجوب حربهم.

ولنا أن نتساءل عند من كان الحرشي سيء السمعة، وقد قال من معه فيه: «كان يذكر بشجاعة وديانة، فلما صار بالعراق[٤] ماق»[٥]. وما قالوا ذلك عنه إلا لأنه لم يكن مسارعًا لحرب الصغد، فجبنوه.

---

(١) تاريخ الأمم، ١٢/٧.

(٢) انظر عن محاولة ابن هبيرة، ثني الصغد عن الخروج، قبل: ص٢٢٨.

(٣) انظر قبل: ص٢٤٥.

(٤) في الطبري «بخراسان». (انظر: نفس المصدر، ٨/٧).

(٥) ابن الأثير: الكامل، ١٨٥/٤ (قال: وماق. أي تأخر).

وقبل أن نصل إلى عودة الحرشي إلى مرو، نجد خبرًا ينفرد به فامبري[1]، إذ يشير إلى أن فرغانة نقضت عنها حكم العرب، إبان الاضطرابات التي أعقبت مقتل قتيبة بن مسلم (سنة ٩٦هـ) وعزل يزيد بن المهلب (سنة ٩٩هـ)، فلما كانت ولاية الحرشي سير الجند لحرب أميرها خلج، وظلت الحرب سجالاً بعض الوقت حتى قضوا عليه أخيرًا، ثم عادوا إلى بخارى بغنائم وفيرة. ونحن لا نعلم من أين استقى فامبرى معلوماته هذه إذ أن المصادر الإسلامية التي اعتمدنا عليها في فتوحات سعيد الحرشي في ما وراء النهر، أظهرت تعاون ملك فرغانة مع المسلمين، وامتناعه عن مساعدة الصغد عندما لجأوا إليه، بل ظهر واضحًا أن خجندة كانت آخر نقطة وصل إليها الحرشي ثم عاد إلى مناطق الصغد وراءه لإخضاعها من جديد. وهذه قرائن كافية لإثبات ولاء أهل فرغانة وبقائهم على الطاعة. وإن كنا نجد ابن أعثم[2] يذهب إلى محاربة الحرشي لملك فرغانة في خجندة، لكن ذلك من باب اللبس فهو يشير إلى حادثة إيقاع الحرشي بالصغد، ولكنه جعلها مع ملك فرغانة خطأ.

ورجع الحرشي إلى مرو، وقد افتتح عامة حصون الصغد[3]، وأعادهم إلى الطاعة صلحًا أو عنوة. بعد سلسلة من المعارك التي خاضها إبان حملته على ما وراء النهر ما بين عامي (١٠٣ – ١٠٤هـ) وبذلك أعاد المسلمون سيطرتهم التامة على تلك المنطقة من جديد[4]. وقضى الحرشي على أعنف انتفاضة قامت بها شعوب ما وراء النهر، مكنه من ذلك سياسة الخليفة يزيد بن عبدالملك المسندة من ملاك الأرض الكبار والعسكريين العرب، والدهاقين[5]. فقد شارك الموالي في جيش الحرشي بقيادة سليمان بن أبي السري، كما نجد ذكرًا للمجندين من أهل بخارى وخوارزم وشومان[6]. إلى جانب تأييد

---

(١) تاريخ بخارى، ص٧٥.

(٢) الفتوح، م٤/٢٥٨ – ٢٥٩.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤١٦ – قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص٤١٠.

(٤) محمد شعبان: الثورة، ص١٧٣ – بارتولد: تركستان، ص٣٠٨.

(٥) عبدالله الخطيب: الحكم الأموي في خراسان، ص١٢٥.

(٦) محمد شعبان: نفس المرجع والصفحة.

غورك أمير سمرقند بصورة ظاهرة[1].

ونحن إن كان لنا من كلمة أخيرة عن حملة الحرشي فإننا نؤكد أن النصر الذي حققه المسلمون، كان بفضل من الله ثم توفر القيادة الجادة والقديرة ممثلة في شخص سعيد الحرشي، وجنده من المسلمين الذين استشعروا خطر هذه الانتفاضة، وآلمهم ضياع مكتسبات الفاتحين السابقين، ليعيد الحرشي حكم العرب على ما وراء النهر، ويبسط السيادة الإسلامية على تلك المنطقة، مخلدًا اسمه بين مشاهير الفاتحين في هذا الميدان.

التحول من دور الهجوم إلى الدفاع:

لم يدم للمسلمين ما حققه سعيد الحرشي من تمكن وسيادة في ما وراء النهر، فقد تحول المسلمون من دور الهجوم إلى الدفاع في ولاية خلفه على إمارة خراسان مسلم بن سعيد الكلابي (١٠٤ - ١٠٦هـ). فقد غزا الأخير الترك فيما وراء النهر (سنة ١٠٥هـ)، فلم يفتح شيئًا، وعاد أدراجه، بل أن الترك تعقبوه، فلحقوا به وهو يعبر نهر جيحون بجنده، فأتم ذلك في حماية الساقة[2].

وقد كانت هذه الحملة آخر الغزو في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، وهي في ظاهرها حملة ناجحة، وإن لم تحقق مكتسبات جديدة. إلا أن لحاق الترك بمسلم وتعقبه، كان فيه دلالة على طمع الترك به، وبداية لضعف سيطرة المسلمين على ما وراء النهر، وعودة الاضطراب إليها. إلا أنه قام في آخر العام نفسه، صدر خلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) بغزوة ناجحة على إفشين[3]،[4]. لكن الأمر تطور بسرعة نحو الأسوأ، عندما فشلت حملة قام بها مسلم بن سعيد (سنة ١٠٦هـ) على ما وراء النهر، عرفت بيوم العطش، حيث بلغ فرغانة، وفي طريق عودته نال منه الترك، فانصرف

---

(١) محمد شعبان: الثورة، ص١٧٠ - ١٧١. (أظنه يعني أميرهم الوطني، لا أمير من قبل المسلمين).

(٢) عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠١ - ابن الأثير: الكامل، ١٩٣/٤.

(٣) أفشين: ثاني أكبر مدينتين في غرجستان قريبًا من الضفة الشرقية لأعلى نهر مرغاب، وعلى أربع مراحل فوق مرو الروذ. (كي لسترنج: بلدان، ص٤٥٨).

(٤) الطبري: تاريخ الأمم، ٢١/٧ - ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة - ابن كثير: البداية، ط١، ٢٥٩/٩.

متقهقرًا إلى سمرقند[1].

وقد كانت هذه المعركة آخر معركة توسعية فيما وراء النهر[2] خلال الخمسة عشر عامًا التالية، وتحول المسلمون إلى دور الدفاع، وظلوا يتراجعون فيما وراء النهر، ويخسرون مكتسبات فتوحاتهم المجيدة. فلم يبق في أيديهم سنة (١١١هـ / ٧٢٩م) من بلاد ما وراء النهر، سوى سمرقند وبخارى وما حولها[3] وظل الوضع على هذا الحال حتى تولى نصر بن سيار خراسان (١٢٠ - ١٣١هـ)، وبذل جهدًا كبيرًا في إعادة النفوذ الإسلامي إلى هذه البلاد[4].

---

(١) محمد شعبان: الثورة، ص١٧٩ - بارتولد: تركستان، ص٣٠٨ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٢/٢.

(٢) محمد شعبان: نفس المرجع، ص١٧٩.

(٣) بارتولد: نفس المرجع، ص٣٠٩ - ٣١٠.

(٤) عن جهود نصر بن سيار في إعادة النفوذ الإسلامي في بلاد ما وراء النهر وأهم أعماله هناك، انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ١٥٤/٧ وما بعدها - ابن الأثير: الكامل، ٣٨/٤ وما بعدها- راضي عبدالله عبدالحليم: دراسات في تاريخ خراسان، ص٧٨ - ٩٣.

المبحث الثاني

الفتوح في أرمينية

كُنّا قد أشرنا[١] إلى سمة الفتح الإسلامي في أرمينية[٢]، والتي ظلت طوال العصر الأموي ميدان قتال من جراء ثورات الأرمن وتمردهم المستمر على الحكم الإسلامي، وكذلك تدخل البيزنطيين والخزر[٣] في شئون ذلك الإقليم. أما بغزوه، أو بالتحالف مع أهله ضد المسلمين، أو بتحالف البيزنطيين و الخزر ضد المسلمين أو الأرمن[٤]. وكان آخر أمثلة ذلك الصراع تعرض أرمينية وآذربيجان[٥] (٩٩هـ)، لغزو الخزر، الذين

---

(١) انظر قبل: التمهيد، ص ١٣ - ١٤.

(٢) يقصد بإقليم أرمينية، المنطقة الجبلية الوسطى العالية في غرب آسيا، ويحد هذه المنطقة من الغرب آسيا الصغرى وهضبة أذربيجان والشاطئ الجنوبي لبحر قزوين من الشرق والجنوب الشرقي، وساحل البحر الأسود والقوقاز من الشمال الشرقي، ومن الجنوب الركن الشمالي الغربي من أرض الجزيرة. (إبراهيم العدوى: الامويون والبيزنطيون، ص١٢١ - ٢٢).
ويقول كي لسترنج: كانت أرمينية الكبرى تنقسم إلى أرمينية الداخلة وأرمينية الخارجة، وكانت قصبة أرمينية الإسلامية في الأزمنة الأولى «دبيل» وتسمى أيضا دوين أو توين. (انظر: بلدان الخلافة الشرقية، ص٢١٦) ويذكر صابر دياب: أن أول حملات المسلمين على أرمينية كانت بقيادة عياض بن غنم سنة ١٩هـ، وأن أشهر الحملات الإسلامية التي فتح على أثرها أهم مدن ومناطق ذلك الإقليم، هي حملة سليمان بن ربيعة الباهلي وحبيب بن مسلمة الفهري (٢٤ -٢٥هـ). مشيرًا إلى اختلاف المصادر الإسلامية والأرمينية على سير الفتح وحملات وزمنه. (انظر: أرمينية من الفتح الإسلامي إلى مستهل القرن الخامس الهجري، ص١٩ - ٣٦).

(٣) الخزر: من أصل جرماني (هوني). فيليب حتي: تاريخ سورية، ٢/٦٩. ويضيف هاشم إسماعيل الجاسم: أنهم قوم استقروا في منطقة القوقاز تقريبًا، لكن نفوذهم يتسع وينكمش حسب التطورات السياسية، وقد عرفوا بتحالفهم مع البيزنطيين، فاستخدمتهم الدول البيزنطية أثناء حروبها مع الأمويين. (انظر: دراسة تاريخية عسكرية عن الثغور البيزنطية العربية، هامش (١)، ص٩٦ - وانظر أيضًا: كي لسترنج: نفس المرجع، ص٢١٥).

(٤) عن أرمينية في العصر الأموي، انظر: صابر دياب: نفس المرجع، ص٤٠ - ٦٠.

(٥) أذربيجان: عرف قديما باسم «أتروباتين»، ويحده من أعلاه نهر أرس، ومن أسفله النهر الأبيض، وكلاهما يصب في بحر قزوين، وأبرز العوارض الطبيعية في هذا الإقليم بحيرة أرمية الملحة، وبقربها تبريز ومراغة قاعدتا الإقليم، وإلى شرقها اردبيل، وهي من كبار مدنه وأقربها إلى =

هاجموا المسلمين على غرة، وأصابوا جماعة منهم، لكن أمير أرمينية عبدالعزيز بن حاتم الباهلي[1]، تصدى لذلك الغزو وألحق بالخزر هزيمة منكرة، حتى لم ينج منهم إلا القليل وقدم على الخليفة عمر بن عبدالعزيز بخمسين أسيرًا منهم[2].

ويظهر أن الضربة التي تلقاها الخزر على يد عبدالعزيز بن حاتم، كَفَّتهم عن العودة إلى مهاجمة هذه المناطق طوال عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز، والشطر الأول من خلافة يزيد بن عبدالملك.

نظام الصوائف والشواتي في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك:

استؤنفت الحملات العسكرية المنظمة إلى الثغور[3]، وهو ما عرف بنظام الصوائف والشواتي[4]، بعد وفاة الخليفة عمر بن عبدالعزيز، فقد ظل نظامًا معمول به طوال

= بحر قزوين. قيل: أن به سبعين لسانًا، يتكلم بها أهله، وليس بين مدنه مدينة عظيمة الكبر. (كي لسترنج: نفس المرجع، ص١٨، ١٩٣ - ١٩٤. وقال ياقوت: أن قصبته أردبيل ثم تبريز. معجم، ١/١٢٨ - ١٢٩).

(١) عبدالعزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي، قائد من الأمراء، كان عامل عمر بن عبدالعزيز على الجزيرة، (ت ١٠٣هـ)، (الزركلي: الأعلام، ٤/١٦). وكان على أرمينية زمن الوليد بن عبدالملك، وهو الذي بنى مدينة برذعة بأرمينية. أو أبيه، زمن عبدالملك بن مروان. (انظر: صابر دياب: أرمينية من الفتح الإسلامي إلى مستهل القرن الخامس الهجري، ص٤٢، ٤٩).

(٢) عن هجوم الخزر هذا، وتصدى عبدالعزيز بن حاتم له. انظر/ ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٠ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢/٣٠٢ - الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٥٣ - ٥٥٤ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ٣/٣٣٣.

(٣) الثغر: كل مكان قريب من أرض العدو من ناحية البر أو البحر، سواء كان مدينة أو حصنًا، واتخذ كقاعدة عسكرية، وظيفتها التصدي لهجمات العدو، والدفاع عن المدن الداخلية، وانطلاق الهجمات الإسلامية منها إلى ديار الأعداء، برًا كان ذلك أو بحرًا. (هاشم الجاسم: دراسات تاريخية عسكرية، ص٧٤ - ٧٤.

(٤) الصوائف والشواتي: اسم للجيش الإسلامي الذي يجمع مرة في الصيف ومرة في الشتاء، ويجهز، ويخرج للإغارة على مواقع العدو، ومقاتلته في أرضه. وتخرج الحملة الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار «مايو» بعد أن يكون الناس قد ربعوا دوابهم، وحسنت أحوال خيلهم، فيقيمون ثلاثين يومًا، ثم يقفلون، فيقيمون خمسة وعشرين، حتى يقوى ويسمن الظهر، ويجتمع الناس لغزو الصائفة، ثم يغزون لعشر من تموز «يولية» فيقيمون لوقت قفولهم ستين يومًا، ولا يقدم عليها =

العصر الأموي[1]. إلا أن تغييرًا في ذلك التنظيم قد حدث. إذ نجد ظهور نوعين من الصوائف، هما: الصائفة اليمنى. والصائفة اليسرى، واستقلال كل واحدة منهما في الغزو والقتال[2].

فقد كانت هذه الحملات توجه من ثغور الشام ومن ثغور الجزيرة، وأصبح لكل جبهة نشاطها المستقل، فتركز نشاط الثغور الجزرية حول البند الأرمني، لمراقبة الحدود الغربية الأرمينية، وجرى على هذا التنظيم الخليفة يزيد بن عبدالملك وخليفته هشام بن عبدالملك[3]. لقد شغلت أرمينية الأمويين المتأخرين، لمحاولة الروم الاستفادة من غارات الخزر، والمنافسات الداخلية بين الأسر الارمينية، فقد كان منها ما يوالي المسلمين مثل (Bamikonian)، ولهؤلاء خصوم يحقدون عليهم ويتعرضون لاضطهادهم، مثل (Mamikonian)[4]. لذا حاول ليو الايسوري (إمبراطور الروم) أن يفيد من هذه الأوضاع، مستغلاً حسن علاقته بجيرانه من الخزر، فسعى إلى تعزيزها، بتزويج ابنه قسطنطين الخامس من إبنة خان الخزر[5] فكان لزامًا على الخليفة يزيد بن عبدالملك أن يحول دون استغلال بيزنطة لمتاعب المسلمين الداخلية في أرمينية، فكان هدفه إزعاج البند الأرمني ومراقبته بتيقظ[6]. بل أن تغيير نظام إخراج الحملات الثغرية الموسمية (الصوائف والشواتي). كان فيما يبدو لإشغال كل من الروم والخزر، وتفويت فرصة

= إلا وقت الضرورة. (انظر: هاشم الجاسم: نفس المرجع، ص١٠٢ عمر سليمان العقيلي: خلافة معاوية ابن أبي سفيان، جامعة الملك سعود، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص٩٧ - ٩٨).

(١) وفيق الدقدوقي: الجندية في عهد الدولة الأموية، ص٢٠٩.

(٢) عواد الأعظمي: مسلمة، ص٢٣١ (وقد أورد في هامش (٣)، (٤) من نفس الصفحة، تفسيرًا للصائفة اليمنى واليسرى فقال: أصبحت الصائفة اليمنى تعني الغزو من نحو الثغور الجزرية باتجاه نواحي أرمينية وأذربيجان والخزر، واليسرى: تعني الغزو من ناحية الثغور الشامية، باتجاه أرض الروم).

(٣) فتحي عثمان: الحدود، ص٩٨.

(٤) فتحي عثمان: نفس المرجع، ص٩٩.

(٥) هسي: العالم البيزنطي، ص١٣٠.

(٦) فتحي عثمان: نفس المرجع والصفحة.

التحالف بينهما والتعاون في حرب المسلمين، وسنرى من العرض التاريخي للجهود العسكرية في عهد الخليفة يزيد، تمكنه من صد الخزر، واستمرارية الغزو والبقاء في آسيا الصغرى.

غزو معلق بن صفار الخزر سنة ١٠٣هـ:

يشير الطبري وغيره[١] إلى إغارة قام بها الترك[٢] (سنة ١٠٣هـ)، على اللان[٣]، ومنها يتبين عودة الخزر إلى التحرش بالمسلمين ومهاجمة ممالكهم في أرمينية. وهذا ما دفع أمير أرمينية آنذاك معلق بن صفار البهراني[٤] إلى القيام بحملة على الخزر، فلقيهم بمرج الحجارة، في شهر رمضان في نفس العام، وقد كلب الشتاء. فدارت المعركة، وهزم المسلمون وقتل جماعة منهم، واستولى الخزر على عسكرهم وغنموا ما فيه[٥] لكن ابن أعثم[٦]، يورد اسم القائد ثبيت النهراني[٧]، من أهل حمص، ويوافقه على هذا الاسم ابن الأثير[٨]، الذي أرخ للمعركة ب (سنة ١٠٤هـ) وأشار إلى تحالف حدث

---

(١) تاريخ الأمم، ٦١٩/٦ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٥/٢ - ابن الأثير: الكامل، ١٨٤/٤.

(٢) يبدو أنه يعني الخزر (انظر التعريف بهم قبل: ص٢٥٩.

(٣) اللان: بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورة للخزر. (ياقوت: معجم، ٨/٥). ويقول عنها كي لسترنج: أنها إحدى الولايتين اللتين تكونان بلاد الخزر، إذ تتألف بلاد الخزر من أبخار واللان. (انظر: بلدان الخلافة الشرقية، ص٢١٣).

(٤) معلق بن صفار بن فلحس بن جنب الجمار بن موقد النار البهرائي، من أهل حمص، ولاه يزيد بن عبدالملك أرمينية سنة ١٠٣هـ ثم عزله سنة ١٠٤هـ. (ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٣).

(٥) ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٢٨.

(٦) الفتوح، م٤/٢٦٠، ٢٥٨ (وقد ذكر أن عدد الخزر في هذه المعركة ثلاثين ألفا، ولم يشر إلى تحالفهم مع الترك).

(٧) ثبيت النهراني: لم أعثر على ترجمة له. كما لم يرد ذكره بين عمال يزيد بن عبدالملك على أرمينية وأذربيجان والجزيرة (انظر بعد: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص٤٩٦ وما بعدها)، حيث وجدنا أن عامل يزيد (سنة ١٠٣هـ) هو معلق بن صفار البهراني الحمصي، وهذا ما يقوى اعتقادنا بوروده عند ابن أعثم وابن الأثير محرفا، والصحيح ما قدمناه.

(٨) نفس المصدر والجزء، ص١٨٦.

بين الخزر والقفجاق[1]، وغيرهم من أنواع الترك، ضد المسلمين. ويتضح أن ابن الأثير ذكر هذا الاسم نقلاً عن ابن أعثم المتقدم عليه، حيث يتفقان في تقديم معلومات عما آل إليه أمر المسلمين بعد إنكسارهم أمام الخزر وحلفاتهم، فيذكر أن المنهزمين لاذوا بالشام، وعلى رأسهم قائدهم، فلما مثلوا بين يدي الخليفة لامهم ووبخهم على انهزامهم، فكان عذر قائدهم، يا أمير المؤمنين ما جبنت ولا نكبت عن لقاء العدو، ولقد ألصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل، ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي، وضاربت حتى انقطع سيفي، غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد.

إذاً فما أسباب هذه الهزيمة، وقد علمنا صدق المسلمين في القتال؟

أن المتفحص لخبر هذه الغزوة قد يجد في ثناياه بعض العوامل التي لم تكن في صالح المسلمين، وعلى رأسها يأتي تحالف الخزر مع القفجاق وغيرهم من الأقوام التركية، إلى جانب حدوث المعركة في فصل الشتاء وبرده القارس الذي يصعب على العرب تحمله والقتال فيه، كما أن حدوثها في شهر رمضان، ودخول بعض الجند أو الكل المعركة وهم صيام، قد أثر على قدرتهم القتالية، لذلك كنا نجد الكثير من القادة ينصحون جنودهم بالإفطار إبان الحرب.

أما الاختلاف على قائد هذه الحملة، فأمر أورثه اختلاف المصادر على ولاة أرمينية[2]. وهو اختلاف انحصر في قائد الحملة وسنة حدوثها، أما الغزوة وأحداثها فقد اتفقت عليها تلك المصادر، فيما عدا بعض التفاصيل. وقد أخذنا بقول أقدمها.

غزوة الحارث بن عمرو الطائي:

ينفرد البلاذري[3] بالإشارة إلى غزوة قام بها الحارث بن عمرو الطائي[1]، والي

---

(1) القفجاق: هم سكان قوقاسية. (انظر/ سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلوم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م، ص١٣٣ - ١٣٤). في المنطقة التي تقع بين شمال بحر قزوين والبحر الأسود، وهم من الترك.

(2) سنعرض لهذا الاختلاف حول أرمينية إبان خلافة يزيد بن عبدالملك، عند دراستنا لسياسة يزيد بن عبدالملك الإدارية في الفصل الخامس.

(3) فتوح البلدان، ص٢٠٨.

أرمينية بعد معلق بن صفار على حد قوله فيذكر: أنه غزا أهل اللكز[٢] ففتح رستاق حسدان[٣].

ويتجلى لنا محدودية هذه الحملة، وأثر قائدها، ولعل ذلك ما دفع الخليفة يزيد بن عبدالملك إلى عزله وإسناد ولاية أرمينية وأمر الخزر إلى رجل ذي قدرة وتجربة. لكن ولاية الحارث أرمينية من قبل يزيد بن عبدالملك، وقيامه بهذه الجهود الحربية، موضع شك للاختلاف على ولايته أرمينية زمن يزيد، ولقول ابن خياط، أن ذلك قد حدث زمن هشام بن عبدالملك[٤]، فإن صح ذلك، كان قوله أرجح، لتقدمه على البلاذري.

فتوحات الجراح الحكمي في أرمينية:

أطمعت الهزيمة التي تلقاها المسلمون سنة ١٠٣هـ على يد الخزر في أرمينية، الأقوام القوقازية والتركية في المسلمين، فاندفعوا نحو الحدود الأرمينية، وشنوا غاراتهم وتوغلوا في البلاد[٥]. مما دعى الخليفة يزيد بن عبدالملك إلى استعمال الجراح بن عبدالله الحكمي[٦]، على أرمينية وأذربيجان (سنة ١٠٤هـ)[١]، وأسند إليه مهمة صد

---

(١) الحارث بن عمرو الطائي، وال من القادة، ولي إمرة البلقاء لعمر بن عبدالعزيز، وأرمينية سنة ١٠٧هـ، وأذربيجان سنة ١٠٨هـ، وصد الترك سنة ١١١هـ وهزمهم واستباح عسكرهم، وقد كان حيا سنة ١١٢هـ. (الزركلي: الأعلام، ٢/١٥٦). وهو في هذه الترجمة لم يشر إلى ولايته أرمينية زمن يزيد بن عبدالملك، وعند النظر في هامشه وجدناه لم يعتمد على المصدر الذي اعتمدنا عليه في هذا الخبر، وقد أشرنا إلى تفرده بذلك من خلال ما أطلعنا عليه من مصادر.

(٢) لكز: بليدة خلف الدربند تتاخم خزران، سميت باسم بانيها، وقيل: لكز والكز والخزر وصقلب وبلنجر بنو يافث بن نوح عليه السلام، عمر كل واحد منهم مكانًا عرف باسمه. (ياقوت: معجم، ٥/٢٢).

(٣) رستاق حسدان: لم أجد له تعريفًا.

(٤) انظر ما كتبناه عن هذا الاختلاف، وما أورده ابن خياط، بعد: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص٤٩٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨٦ – ١٨٧ – سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام، ص٢١٨ – ٢١٩.

(٦) الجراح بن عبدالله الحكمي، دمشقي الأصل، من الأشراف الشجعان، ولي البصرة للحجاج، ثم خراسان وسجستان لعمر بن عبدالعزيز، ثم ولاه يزيد بن عبدالملك أرمينية وأذربيجان، غزا الخزر وافتتح بعض حصونهم، أقره هشام، ثم عزله (سنة ١٠٨هـ)، وأعاده (سنة ١١١هـ). =

الخزر وأمر حربهم، وأمده بجيش كبير، وأمره بحرب الأعداء، وقصد بلادهم[٢]. وفي ذلك دلالة على جدية الخليفة في مواجهة الموقف بالجبهة الأرمينية، فقد اختار القيادة القديرة، وزودها بالجيش الكافي لتحقيق الأهداف، ولم يكن همه تطهير البلاد الإسلامية من وجود الغزاة، بل مهاجمتهم في بلادهم ردعًا لهم، وإحياء لهيبة المسلمين في نفوسهم، حتى لا يعودوا لحربهم مرة أخرى. فسار الجراح بجيشه حتى وصل أرمينية، فنزل برذعة[٣]، ليعطي جنده قليلاً من الراحة، بعد عناء السفر من دمشق الشامية حتى برذعة في الديار الأرمينية، وليعد نفسه وينظم صفوفه، لمواجهة الخزر، الذين ما أن سمعوا بمقدم الجراح في جيشه ذاك[٤]، حتى ارتدوا عن البلاد الإسلامية التي كانوا قد

= فاستشهد فاتحًا في حروبه مع الخزر (سنة ١١٢هـ) قال الواقدي: كان البلاء بمقتل الجراح على المسلمين عظيمًا فبكوا عنيه في كل جند. (الزركلي: الأعلام، ٢/١١٥)، وانظر بعد: ص ٤٧٩.

(١) جعل المؤرخ المجهول، غزو الجراح (سنة ١٠٢هـ)، وأشار إلى فتوحه بإجمال موجز فحسب. (انظر: العيون، ص٧٥). إلا أن هذا التاريخ لا يتناسب مع منطق الأحداث التي قدمنا ذكرها، ويخالف إجماع المصادر الإسلامية على كون (سنة ١٠٤هـ). هي عام ولاية الجراح، وغزوة الخزر.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨٦ – ١٨٧ – ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٦٠ – ابن خلدون: العبر، ٣/٨٣ – صابر دياب: أرمينية من الفتح الإسلامي حتى مستهل القرن الخامس الهجري، ص٥٠.

(٣) برذعة: قصبة (مركز) إقليم الران، الواقع بين نهري الكر والرس عند التقائهما، وتقع على بعد ثلاثة فراسخ من نهر الكر، قائمة على أحد روافده، وكان بيت المال زمن بني أمية في هذه المدينة. (كي لسترنج: بلدان، ص٢١١ – ٢١٢)، وقد كانت برذعة دار الإمارة والجند في ولايتي أرمينية وأذربيجان. (أديب السيد: أرمينية في التاريخ العربي، المطبعة الحديثة، حلب الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، ص٩٥).

(٤) لم تشر المصادر إلى عدد الجيش الذي سيره الخليفة يزيد بقيادة الجراح، لكن ابن أعثم، يورد أن عدد جند الجراح في معركة الران مع الخزر كان (٢٥) ألفا. وهذا يعني أن من سار بهم من دمشق كان اقل من هذا العدد، باعتبار أنه قد انضم إليه من كان قبله في أرمينية. (انظر: الفتوح، م٤ / ٢٦٠).

استولوا عليها، وانسحبوا عائدين حتى نزلوا مدينة الباب والأبواب[١](٢).

وبعد أن أخذ الجراح وجنده قسطًا من الراحة، توجه نحو الخزر في عامه ذاك (١٠٤هـ)، فعبر نهر الكر[٣]، واجتاز إقليم شروان[٤]، حتى قطع نهر السمور[٥] متجهًا صوب مدينة باب الأبواب[٦].

ويبدو أن الجراح الحكمي لم يجد مقاومة تذكر من أهالي اقليمي الران وشروان، بعد انسحاب الخزر وارتدادهم إلى باب الأبواب على بحر قزوين، ومع ذلك فإن الجراح عمل على تسيير بعض أهل الجبال في جيشه، للتثبت من ولائهم، وتأمينًا لنفسه من أن يقطعوا الطريق عليه، تعاونًا مع الخزر أو من تلقاء أنفسهم. حيث أن غالبية أهل تلك المناطق بقيوا على نصرانيتهم، بعد الفتح الإسلامي وفي ظل سيادة الدولة الإسلامية إلى أعقاب الفتح المغولي واستقرار الترك هناك. فصار الدين السائد هو الإسلام، وهذا في الغالب ما سهل للخزر أمر التوغل في البلاد إبان غياب القوة الإسلامية. وابن الأثير[٧]

---

(١) باب الأبواب: مدينة في أقصى الشمال لبلاد شروان، وهي أجمل موانئ بحر قزوين، يقول كي لسترنج: أن هذه التسمية من العرب لمدينة دربند، مدينة كبيرة حصينة من ثغور الإسلام. (انظر: بلدان الخلافة الشرقية، ص٢١٤ - ٢١٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل، ١٨٦/٤ - ١٨٧ - ابن أعثم: الفتوح، ٢٦٠/٤ - ٢٦٢، ص٢٦٠ - ٢٦٢ - ابن خلدون: العبر، ٣م٨٣ - كما أشار ابن قدامة إلى نزوله برذعة. (انظر: الخراج وصناعة الكتابة، ص٣٣٠).

(٣) نهر الكر: مخرجه من الجبال غرب تفليس ببلاد جورجيا، أي بلاد الخزر، يمر بتفليس وشمكور، ثم يلتقي بنهر الرس أسفل من برذعة بقليل، بعدها يصب في بحر قزوين بولاية كشتاسفي. (كي لسترنج: نفس المرجع، ص٢١٣).

(٤) شروان: إقليم يلي نهر الكر على بحر قزوين، فيه تنتهي جبال القفقاس، قصبته الشماخية (شماخى). (كي لسترنج: نفس المرجع، ص٢١٤).

(٥) نهر السمور: نهر يصب في بحر قزوين على شيء يسير جنوب دربند، ويسمى أيضًا (نهر الملك). (كي لسترنج: نفس المرجع، ص٢١٥).

(٦) ابن قدامة: نفس المصدر، ص٣٣٠ - البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٠٨ - ابن أعثم: الفتوح، م٤/ ٢٦٠ - ابن الأثير: الكامل، ١٨٧/٤.

(٧) نفس الكامل ١٨٦/٤ - ١٨٧ - ابن أعثم: الفتوح، م٢٦١/٤ (أخبر أن الذي كتب هو ملك بلاد الكر ويسمى أربيس بن بسباس).

يخبرنا بأن و احدًا من أهل الجبال، الذين ساروا في ركاب الجراح قد كاتب ملك الخـزر بمسير الجراح إليه، مما اضطر القائد إلى التوقف بعد عبوره نهر الكر، إذ أنه كان يأمل أن يلقى العدو على غرة، فخدع ذلك الرجل وكاتب الخزر بتوقف الجراح وإقامته، فلمـا لبث الجراح أن عاود المسير من ليله ذاك، وسار مجدًا إلى باب الأبواب، فوجدها خالية، بعد أن تركها الخزر[١]، الذين علموا بمقدمه فيما يبدو. فلحقوا ببلادهم[٢]. وخرج الجراح من مدينة باب الأبواب وعسكر عند عين باب الجهاد، على بعد نصف فرسـخ منهـا[٣] فلبث الجراح سراياه على ما يجاوره من البلاد، فنصروا وغنموا[٤]. ويحدد ابن أعـثم[٥] وجهة أحد هذه السرايا، وهي أرض حيداق[٦] حيث يذكر أن الجراح وجد أحد قادته على رأس ثلاثة آلاف فارس إليها، فكان غنمها كبيرًا.

معركة الران:

وكان الجراح قد ارتحل في عشرين ألفًا من جنده، بعد أن بعث سراياه، فنزل علـى نهر الران على ستة فراسخ من مدينة باب الأبواب، واجتمع إليه جند السـرايا بعـد أن أدوا الهدف الذي وجهوا من أجله. فأصبح في خمسة وعشرين ألفًا من المسلمين[٧].

ويظهر أن تلك الإغارات الإسلامية وما حققته من نصر ومغانم قد أثـارت الخـزر، ولعل ذلك ما كان يبغيه قائد المسلمين، فتوجهوا إليه في أربعين ألفًا بقيادة ابـن ملكهـم

---

(١) ابن أعثم: الفتوح، م٤/ ٢٦٠ – ٢٦١ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٧/٤ – لكن صابر دياب الـذي أشار إلى غزو الجراح في إيجاز، قال: «ودخل على الخزر ليلاً – يعني في مدينة باب الأبـواب – وهزمهم، وقتل منهم الكثير بسيوف المسلمين» وذكر أن عدد المسلمين نحو بضع وثلاثين ألفـًا. (انظر: أرمينية من الفتح الإسلامي حتى مستهل القرن الخامس الهجري، ص٥٠).

(٢) ابن أعثم: نفس المصدر والمجلد والصفحات.

(٣) ابن أعثم: نفس المصدر والمجلد، ص٢٦١.

(٤) ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) نفس المصدر والمجلد، ص٢٦١.

(٦) لم نجد لها ذكر بهذا الاسم عند ياقوت وكي لسترنج، ولكنا وجدنا «حيزان»: من مـدن أرمينيـة قريبة من شروان. (انظر: ياقوت: معجم، ٣٣١/٢)، فنظنها هي لوجودها في نفس المنطقة. وقد يكون حدوث الاختلاف تحريفًا، أو خطأ في النقل.

(٧) ابن أعثم: نفس المصدر والمجلد، ص٢٦١.

ويدعى نارستيك بن خاقان. ونزلوا معه على نهر الران[١][٢]. فدارت بين الفريقين (سنة ١٠٤هـ) معركة عظيمة نصر الله فيها المسلمين وهزم الخزر، وقتل الكثير منهم وأسر، وغنم المسلمون جميع ما معهم. بل قيل: وغرق الترك وعامة ذراريهم في الماء[٣]. ويفهم من هذا القول أن الخزر عبروا النهر إلى المسلمين، فلما هزموا لم يتمكنوا من العبور إما لقطع الجسر أو لحيلولة المسلمين بينهم وبين الفرار، فسقط الكثير منهم في النهر، هروبًا من هول الهزيمة وخشية القتل، وتبع المسلمون من فر.

فتوح الجراح بعد معركة الران:

سهل النصر الذي حققه المسلمون في معركة الران، مهمة الجراح، في إخضاع تلك المناطق لحكم المسلمين وسيادتهم، وذلك في أعقاب التخلص من القوة الرئيسية للخزر، التي لم تعد قادرة على مواجهة المسلمين ذلك الحين على الأقل. فجرد الجراح جيشه لفتح مدن وحصون الخزر هناك. إلا أن المصادر الإسلامية تقدم لنا معلومات مضطربة عن تلك الجهود، ترتيبًا وزيادة ونقصًا، ولعل ما أصاب الأسماء من تحريف وتصحيف هو ما أورثنا ذلك الخلل.

وقد لجأ الجراح في حروبه مع الخزر إلى سياسة التهجير لأهل تلك المناطق والحصون، ردعًا لهم، وأضعافًا لقوتهم بتحويلهم عن مكامن القوة والاعتصام في بلادهم، إلى مناطق أخرى، ليضمن دوام ولائهم وطاعتهم، فيقول الطبري: ففتح - يعني

---

(١) لم نجد تعريفًا بنهر الران عند ياقوت وكي لسترنج.

(٢) ابن أعثم: الفتوح، م٤/ ٢٦١ - ابن الأثير: الكامل، ١٨٧/٤.

(٣) عن معركة الران انظر: ابن أعثم: نفس المصدر والمجلد، ص٢٦١ - ٢٦٢ - ابن خياط/ تاريخ ابن خياط، ص٣٢٩ - ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة - البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٠٨ (لم يحدد مكان المعركة) - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٣/٢ - الطبري: تاريخ الأمم، ١٤/٧ - ١٥ (ذكر اللقاء ولم يذكر مكانه) - ابن كثير: البداية، ط١، ٢٥٧/٩ - الذهبي العبر في خبر من غبر، ١٢٦/١ (لكنه أسمى المعركة «بهرازن» وجعلها مع الخاقان) - الذهبي: تاريخ الإسلام، ٨٧/٤ - ابن خلدون: العبر، ٨٣/٣ - ابن العماد: شذرات، ١٢٦/١ - الذهبي: دول الإسلام، ٥٢/١ (جعلها في رمضان سنة ١٠٥هـ، ويبدو أنه خلط بينهما وبين نصر المسلمين عليهم سنة ١٠٥هـ، عندما هاجموا أرمينية بقيادة الخاقان. انظر ذلك بعد: ص٣٦٦ - ٣٦٧).

الجراح – الحصون التي تلي بلنجر وجلا عامة أهلها[١]. وهذا أسلوب دفاعي لجأ إليه الجراح سنلاحظه في ثنايا حديثنا عن فتوحاته المقبلة. فبعد انتصار المسلمين في الران تتبعوا المنهزمين، حتى وصلوا إلى حصن يعرف بـ «الحصين»[٢] نزل أهله على الأمان مقابل مال يؤدونه، فأعطاهم ذلك، ونقلهم عنها إلى حيزان[٣].

إلا أننا نجد شيئًا من اللبس عندما يورد ابن قدامة[٤] نصًا يوافقه، فهذا البلاذري[٥]، يشير إلى مقاتلة الجراح لأهل بلاد حمزين[٦]، ومصالحتهم على أن ينقلهم إلى رستاق خيزإن[٧]، حيث جعل لهم منه قريتين. وحيث أنا لم نعثر على تعريفات بهذه المواضع سوى حيزان، فيغلب على الظن أن الحصين هو حمزين وخيزان هو حيزان، فيكون الخبر الذي أورده ابن أعثم وابن الأثير وابن خلدون[٨]. هو الذي ورد عند من سبقهم كابن قدامة والبلاذري، وجاء ذلك التحريف في الأسماء أثر النقل أو سوء الخط.

إلا أن خليفة بن خياط في سياق حديثه عن فتح حصن بلنجر يورد أن أهله حولوا إلى رستاق حيزان[٩]، وقد يؤدي هذا إلى الشك في أن حصن حمزين هو حصن بلنجر الذي سنتحدث بعد قليل عن فتحه، إلا أن اختلاف الأحداث في فتح كلاً الحصنين، وما ترتب عليها من نتائج، حيث أن أهل حمزين (الحصين) انتهى الأمر معهم صلحًا، بينما تم فتح بلنجر عنوة، يدل على لبس وقع فيه مؤرخنا ابن خياط. إذ أن أهل بلنجر لم يحولوا عن حصنهم، وهذا ما سنراه أثناء تحدثنا عن فتحه.

---

(١) تاريخ الأمم، ٧/ ١٤ – ١٥ – ابن كثير: البداية، ط١، ٩/ ٢٥٧.

(٢) لم أجد له تعريفًا.

(٣) ابن أعثم: الفتوح، م٤/ ٢٦٢ – ابن الأثير: الكامل، ٤/ ١٨٧ (لكنه لم يحدد المكان الذي نقلهم إليه) – ابن خلدون: العبر، ٣/ ٨٣ (وهو كذلك لم يذكر المكان – الذي نقلوا إليه).

(٤) الخراج وصناعة الكتابة، ص٣٣٠ – ٣٣١.

(٥) فتوح البلدان، ص٢٠٨.

(٦) لم أعثر لها على تعريف.

(٧) لم أعثر على تعريف له بهذا اللفظ، وقلنا أن الظاهر أنه يعني حيزان، فجاء بزيادة نقطة على الحاء.

(٨) انظر الخبر في الصفحة السابقة.

(٩) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٩.

فتح رستاق يزعوا:

بعد مصالحة أهل حمزين (الحصين)، سار الجراح الحكمي إلى رستاق «يزعوا»[1]، فحاصر مدينة يزعوا ستة أيام، فلما وجد أهلها جدية الحكمي في قتاله، طلبوا الصلح، فأعطاهم ذلك وأمنهم، على أن يحولهم إلى رستاق «قبلة»[2]، فتسلم حصنهم، وأنزلهم بقرية الغانية في رستاق قبلة[3]. ونحن في هذا الخبر نقف حائرين أمام مشكلة التصحيف، فابن خياط المؤرخ الأقدم يورد اسم الرستاق يزعوا، بالزاي، بينما نجد الاسم مصحفًا عند ابن الأثير حيث يورده «يرغوا» بالراء. لكن ابن الأعثم يقدمه لنا «برعوفا». وحيث أنا لم نعثر على تعريف لأي من تلك الألفاظ، لم يكن لنا بد من تقديم اللفظ الذي ورد عند ابن خياط، المؤرخ الأسبق. أما المكان الذي نقلوا إليه، فأخذنا بلفظ ابن أعثم وهو «قبلة» لوجود تعريف لهذا اللفظ عما عداه، مما يعني صحته. وليس هنا مكان للقول أنها ألفاظ لأماكن متعددة، فصفة الحدث ونتائجه لا تختلف في كل هذه المصادر.

فتح حصن بلنجر (سنة ١٠٤هـ):

تجعل بعض المصادر[4] فتح حصن بلنجر[5] قبل معركة الران، إلا أن غالبيتها،

---

(١) لم نعثر له على تعريف.

(٢) قبلة: قلعة في الجبال القريبة من دربند من أرض شروان. (كي نسترنج: بلدان. ص٢١٥)، ويبدو أن القلعة قصبة الرستاق، فلا يصح أن ينقل الجراح هؤلاء المحاربين إلى حصن يعتصمون به، ويفسر ابن أعثم في خبره ما ذهبنا إليه، إذ يقول: أنزلهم بقرية تسمى الغانية في رستاق قبلة.

(٣) انظر عن فتح يزعوا/ ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٩ (وقد ورد اسم الرستاق عنده «يزعوا» - ابن ابن أعثم: الفتوح، م٢٦٢/٤ (وورد اسم المدينة عنده برعوفا) - ابن الأثير: الكامل، ١٥٧/٤ (ورد عنده اسم المدينة يرغوا).

(٤) ورد ذلك عند / اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٣/٢ - الطبري: تاريخ الأمم، ١٤/٧ - ١٥ - ابن كثير: البداية ط١، ٢٥٧/٩.

(٥) بلنجر: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، قيل: كان فتحها على يد عبدالرحمن بن ربيعة، وقيل: سلمان بن ربيعة الباهلي. (ياقوت: معجم، ٤٨٩/١). وهذا يعني أن تلك المناطق كان قد تم فتحها من قبل، لكن السلطة الإسلامية لم تكن ثابتة فيها، وتعرضت للزوال، بفعل انتقاض أهلها كل ما آنسوا من المسلمين ضعفًا.

تسوق ذلك بعد تلك المعركة، كما أوردناه نحن في سياق الفتوح التي قام بها الجراح بن عبدالله.

فبعد أن خلص الجراح من فتح يزعوا، توجه بجنده إلى حصن بلنجر، وكان مشهورًا بين حصونهم، فحاصره، إلا أن جيش الجراح الذي كان عدده بضعة وثلاثين ألفًا، صعب عليه فتح ذلك الحصن، حيث لجأ أهله إلى طريقة دفاعية تمثلت في شد ثلاثمائة عجلة، بعضها إلى بعض، وأحاطوا بها حصنهم، لتمنع المسلمين من الوصول إليه، فازداد حصنهم بها حصانة وازدادوا بها منعة.

فما كان من المسلمين، إلا أن وهب جماعة منهم أنفسهم لله، وتبايعوا على الموت، وكسروا جفون سيوفهم، فحملوا على الحصن، ولم يثنهم عن الوصول إلى ذلك العجل، وحله، ما قذفوا به من السهام وما لقيوه من القتال، فتمكنوا من الوصول إليه، وقطعوا الحبل الذي شد به العجل، وجذبوها، فانحدرت جميعًا، وهنا دار القتال، والتحم الفريقان في معركة عظم فيها الأمر على الجميع، حتى كان النصر حليف المسلمين على أعدائهم الخزر، فاستولى المسلمون على حصنهم عنوة، وغنموا ما فيه. وكانت غنائم عظيمة، أصاب الفارس منها ثلاثمائة دينار، وكان ذلك الفتح يوم الأحد الثالث من ربيع الأول سنة ١٠٤هـ.

أما صاحب بلنجر، فقد تمكن من الفرار في خمسين من قومه، فشرى الجراح زوجته وأولاده وخدمه، وبعث إليه بالأمان، فرد إليه حصنه وأهله وأمواله، ليكون صنيعة للمسلمين وعينًا لهم على أعدائهم[1].

فكان فتح البلنجر، فتحًا مبينًا، كما كان موقف الجراح الحكمي من صاحبه بعد نظر، سنرى نتائجه الخيرة في سياق الأحداث التالية، وذلك عندما يخبر المسلمين باتفاق الخزر واجتماعهم على قطع الطريق على المسلمين، فينقذ المسلمين بذلك من كارثة كادت أن تحل بهم.

---

(١) عن فتح الجراح الحكمي لحصن بلنجر، انظر: ابن خياط: ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٩ – ٣٣٠ – ابن أعثم: الفتوح، م٢٦٢/٤ – ٢٦٣ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٧/٤ – ابن خلدون: العبر، ٨٤/٣ (ذكر ذلك بشيء من الإيجاز).

مصالحة أهل حصن الوبندر (سنة ١٠٤هـ):

واصل الجراح الحكمي فتوحاته، فبعد أن فرع من أمر بلنجر، توجه إلى حصن الوبندر[١]، وكان به نحو أربعين ألف بيت من الترك، وقال ابن خياط[٢]: أربعين بيتًا، فحاصرهم، حتى عظم الأمر عليهم، فسألوه الصلح، على مال يؤدونه فقبل منهم[٣]. وقيل: بل صالحوه على أن يكونوا معه على الخزر[٤]. فعزم بعد ذلك على المسير إلى سمندر[٥].

ارتداد المسلمين إلى شكى:

كان الجراح قد اعتزم التوجه إلى سمندر[٦] بعد فتح حصن الوبندر، إلا أن صاحب بلنجر، قد كتب إليه يخبره باجتماع الخزر لحربه، وانتقاض أهل البلاد التي سار عنها، وعزمهم على قطع الطريق على المسلمين، وينصحه بالإسراع في العودة قبل أن يتم لهم الأمر، فعاد الجراح مجدًا بجنده، إلا أنه فيما يبدو قد أوقع في طريقه بأهل منطقة تسمى «غوميك»[٧]، فنصر وغنم وسبى[٨]. وواصل ارتداده حتى نزل شكى[٩]، وكان

---

(١) لم أعثر له على تعريف.

(٢) تاريخ ابن خياط، ص٣٣٠ (لكنه لم يصرح باسم الحصن).

(٣) عن فتح الوبندر. (انظر / ابن أعثم: الفتوح ٢٦٣/٤ - ابن الأثير: الكامل، ١٨٧/٤ لكنه حرف الاسم فأورده «الوبيد»).

(٤) ابن خياط: نفس المصدر والصفحة.

(٥) ابن أعثم: نفس المصدر والمجلد والصفحة.

(٦) سمندر: مدينة خلف باب الأبواب، بأرض الخزر، تبعد عن الباب مسيرة ثمانية أيام، كانت دار مملكة الخزر فانتقلت مملكتهم إلى «أتل» بعد فتح المسلمين لها أول مرة، التي تقع على مسيرة ثمانية أيام وقيل سبعة، بعد سمندر. (ياقوت: معجم، ٢٥٣/٣).

(٧) لم أعثر على تعريف لها.

(٨) ابن قدامة: الخراج وصناعة الكتابة، ص٣٣٠ - ٣٣١ - البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٠٨. وقد أشار الطبري إلى فتح الحصون التي تلي بلنجر وإجلاء أهلها. (انظر: تاريخ الأمم، ١٥/٧).

(٩) شكى: ولاية بأرمينية، على نهر الكر قرب تفليس. ياقوت: نفس المصدر، ٣٥٧/٣.

الشتاء قد حل، فأقام المسلمون بها[1]. وقيل[2]: بل قفل إلى شكى، وشتى جنده ببرذعة والبيلقان[3]. وهذا الارتداد، لا يعني للمؤرخ، إلا أن المسلمين خسروا ما وطئته أقدامهم من البلاد وراء مدينة شكى، ولعل المكسب الوحيد هو الغنم الذي أصابوه، وإن كنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا أن انتصارات الجراح قد أحيت الهيبة الإسلامية في نفوس الخزر وحلفائهم من الأقوام التركية غرب بحر قزوين، كما أنها مهدت الطريق لفتوحات وانتصارات أخرى.

ولا يغيب عن عين المتفحص، أن هذه النتيجة تبين بجلاء، أن الفتوحات الإسلامية في هذه الجبهة، كانت تعني حربًا مع عالم كبير، وأقوام لم تقبل دين الإسلام، ولم يضبطها حكم المسلمين. فقد ظل جل أهلها على دياناتهم القديمة، ولم يكن خضوعهم للسلطان الإسلامي إلا ظاهريًا ومؤقتًا، فطالما انتكثوا على المسلمين، ونقضوا ولاءهم، بل وهاجموا الممالك الإسلامية، وحاولوا طرد الفاتحين منها، كلما تيسر لهم ذلك، وهكذا بقيت هذه الجبهة الأرمينية ومثيلتها بلاد ما وراء النهر، منطقة حرب لا تنقطع وصراع لا ينتهي، حتى غزا الإسلام قلوب أهلها، فثبت سلطان أهله عليها.

وتشير المصادر إلى أن الجراح الحكمي بعد ارتداده ونزوله شكى، قد كتب إلى الخليفة يزيد بن عبدالملك بما فتح الله على يديه، ذاكرًا له اجتماع الخزر لحربه، كما سأله المدد. فوعده الخليفة بذلك، إلا أن الأجل قد أدركه قبل إنفاذ المدد إليه[4]. ويظهر

---

(1) ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٦٣ – ٢٦٤ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٧/٤ (وقد أورد اسمها «ملسى». فلم نجد له تعريفًا) – ابن خلدون: العبر، ٣م٨٤ (أورد الاسم «سبى» تحريفًا).

(2) ابن قدامة: الخراج وصناعة الكتابة، ص٣٣١ فتوح البلدان، ص٢٠٨– البلاذري: نفس المصدر والصفحة – وينفرد ابن خياط بالقول: أن الجراح عاد إلى ورثان. (انظر: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٠).

(3) البيلقان: قصبة إقليم الران بعد خراب برذعة، تقع إلى جنوب برذعة وشمال نهر الرس. وهي مدينة عظيمة، طيبة. (كي لسترنج: بلدان، ص٢١٢).

(4) ابن الأثير: نفس المصدر، ١٨٧/٤ – ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٦٣ – ٢٦٤ – ابن خلدون: نفس المصدر، ٨٤/٣ – صابر دياب أرمينية من الفتح الإسلامي حتى مستهل القرن الخامس الهجري، ص٥٠ – ٥١ (وقد ذكر عظمة الغنائم التي حصل عليها المسلمون، حتى أصاب كل =

أن الموقف على الجبهة لم يكن مطمئنًا، وأن الخطر كان كبيرًا باجتماع الخزر على حرب المسلمين، وانقضاض أهل البلاد عليهم، مما دفع بالجراح إلى الانسحاب، وطلب العون من الخليفة، ويبدو أن الخليفة قد أدرك ذلك، وهو الذي رأيناه جادًا في السيطرة على الموقف في أرمينية، عندما بعث جيشًا كان هدفه تطهير أرمينية من وجود الأعداء، ومهاجمتهم في بلادهم. لذلك بعث إلى قائده يعده بالمدد ويقويه.

الموقف في الجبهة الأرمينية بعد يزيد بن عبدالملك:

حرص الخليفة هشام بن عبدالملك على إكمال ما بدأه سلفه، فأقر الجراح على ولاية أرمينية، وأمد بما يمكنه من صيانة الثغور، ودفع الأعداء عن ديار الإسلام[1].

ونحن بعد ذلك نقف أمام غزو آخر، قام به الجراح الحكمي (سنة ١٠٥هـ)، على اللان، حتى تجاوز بلنجر، ففتح كثيرًا من المدن والحصون وراءه، وأجلى أهل بعضها، فنصر وغنم[2]. لكن هذه المصادر لا تحدد الشهر الذي حدثت فيه هذه الغزوة، مما يحيرنا، أتمت هذه الغزوة في عهد الخليفة يزيد، أم في زمن خليفته هشام بن عبدالملك، إلا أن أخبار بعض المصادر[3]، عن هجوم قام به الخزر بقيادة ملكهم جابان، (سنة ١٠٥هـ) على أرمينية، وانتصار الجراح عليهم، في معركة حدثت في الزم[4] بين نهري الكر والرس، وذلك في شهر رمضان من هذا العام، يجعلنا نقدم احتمال قيام الجراح بغزوه لبلاد اللان، بعد هجوم الخزر على أرمينية، أي بعد شهر رمضان (سنة ١٠٥هـ)، إبان خلافة هشام بن عبدالملك، حين كانت وفاة الخليفة يزيد بن عبدالملك في شهر شعبان سنة ١٠٥هـ، فنرى أنه بعد ارتداد الجراح إلى شكى، في أعقاب

= منهم ثلاثة آلاف دينار، كما ذكر أن الخليفة يزيد بن عبدالملك، قد أمد الجراح بما طلب. نقلاً عن ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة أعلاه، لكن ابن الأثير قال: وعده فقط).

(1) أديب السيد: أرمينية في التاريخ العربي، ص٩١ – ٩٢.

(2) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣١ – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م٢ / ٣١٥ – الطبري: تاريخ الأمم، ٢١/٧ – ابن الأثير: الكامل، ١٩٣/٤ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٥٩/٩.

(3) ابن خياط: نفس المصدر والصفحة – ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٥٧ – الذهبي: تاريخ الإسلام، ٨٨/٤ – الذهبي: العبر في خبر من غبر، ١٢٨/١.

(4) لم أعثر لها على تعريف.

غزوته التي تمت (سنة ١٠٤هـ)، قام الخزر الذين اجتمعوا لحربه، بالهجوم على المسلمين في أرمينية، فهزموا في الزم، وعلى أثر هزيمتهم هناك في شهر رمضان (سنة ١٠٥هـ)، خرج الجراح في حملة تأديبية رادعة، وتتبع الخزر، وأعاد فتح كثير من البلدان فيما وراء باب الأبواب وبلنجر في أواخر عام ١٠٥هـ. فتكون بذلك غزوة الخزر للديار الإسلامية، وغزو الجراح لبلادهم مرة ثانية، واللتان تمتا (سنة ١٠٥هـ) في خلافة هشام لا يزيد بن عبد الملك.

المبحث الثالث

الفتوح في أرض الروم

أبنا إلى أي مدى وصلت الفتوحات في العصر الأموي حتى نهاية عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وأهم منجزات تلك الحقبة، بما فيها حروبهم مع الدولة البيزنطية، والفتوحات التي تحققت لهم في أراضيها[1].

ولقد تمثلت الجهود العسكرية التي تمت في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، ضد الروم، في تحصين الثغور وشحنها، وصيانة الحدود والدفاع عنها، والفتح برًا عن طريق الصوائف والشواتي، وما تم خلال ذلك من فتوحات في آسيا الصغرى، والغزو بحرًا لجزر الحوض الأوسط والغربي من البحر المتوسط عن طريق أفريقية، وهذا ما سنبينه أثناء عرضنا لتلك الجهود والتي سيتضح على ضوئها أن عهد الخليفة يزيد، كان خاليًا من الحملات العسكرية الكبرى ضد البيزنطيين، وفي معاودة التفكير في فتح القسطنطينية عاصمتهم العتيقة، وإن كانت الصوائف والشواتي التي وجهت لآسيا الصغرى، قد حفلت بكثير من الانتصارات وفتح كثير من المدن والمواقع الرومية، ولعل السبب وراء عدم التفكير زمنه في محاولة فتح القسطنطينية يعود إلى كون عهده لم يكن ببعيد عن آخر محاولة لفتحها، وهي تلك المحاولة التي تمت في خلافة سليمان بن عبدالملك، وقد كلفت الدولة الكثير من الرجال والمال. ولم يكن في إمكان الدولة أن تتحمل تكاليف الإنفاق على حملة مثل تلك الحملة، وبعد فترة قصيرة من حدوثها[2]. والتي من المحتمل أن الدولة في عهده كانت لا تزال مشغولة بتعويض ما استنزفته من أموال. خصوصًا أن بيت مال الدولة كان مثقلاً بتحمل الإنفاق على الأعمال العسكرية التي زخر بها عهده، سواء في مجال القضاء على الفتن الداخلية، أو الفتوح الخارجية.،

---

(١) انظر ذلك قبل: التمهيد، ص ١٤ - ١٥.

(٢) عن الحملة التي وجهها سليمان بن عبدالملك لفتح القسطنطينية، انظر: هاشم الجاسم: دراسات تاريخية عسكرية، ص١٣٨ - ١٤٠.

ولقد كان بين المحاولة الثانية (٥٤ - ٦٠) زمن معاوية، والثالثة التي تمت زمن سليمان (٩٨هـ) ثمان وثلاثون عاما تقريبا.

هذا فضلا عن أن الحملات الثلاث التي وجهت إلى القسطنطينية قد انتهت بثبوت استحالة قيام البحرية الإسلامية التي لا تزال وليدة ناشئة، بفتح القسطنطينية وهي على ما هي عليه من حصانة الموقع، وقوة التحصين، بالإضافة إلى أن الدولة البيزنطية لم تكن قد دخلت بعد فترة الضعف والتدهور، وظلت قائمة بعد ذلك فترة زمنية طويلة، ولعل ذلك الرأي الذي تقول به بعض المصادر الإسلامية من أن المسلمين اتجهوا إلى محاولة فتح القسطنطينية برًا عن طريق الالتفاف إليها من جنوب أوروبا[1]، هو ما يفسر إنطلاق الفتوحات الإسلامية أول القرن الثاني الهجري إلى أوروبا عبر جبال البرتات. أما خلو عهده من الحملات الكبرى ضد الروم، فيبدو أن وراء ذلك تغير نظام الصوائف والشواتي[2]، وجعلها على قسمين صائفة يمنى وأخرى يسرى[3]. واستنزاف التحرك الخزري على الحدود الأرمينية في زمنه، جل جهده في الميدان الشمالي. إلى جانب ما تطلبه انتفاض الصغد فيما وراء النهر، واضطراب الأحوال الداخلية من توزيع الجهد والاهتمام. وعطفًا على ما ذكرناه فليس من الصواب في شيء القول بتوقف الحملات الإسلامية في عهده على المواقع البيزنطية[4]، أو إهمال تلك الجبهة[5]، وانشغال الخلافة بالفتن الداخلية حتى كادت جهود الدولة أن تتوقف تمامًا ضد الروم[6]، أو ما غالى فيه فتحي عثمان[7] عندما

---

(1) انظر ما كتبناه قبل عن تفكير المسلمين في فتح القسطنطينية من الغرب عن طريق أوروبا: التمهيد، ص١٥.

(2) انظر ما طرأ على ذلك التنظيم من تغيير قبل: الفصل الرابع، المبحث الرابع، ص٣٤٩ - ٣٥٠.

(3) يظهر أن حدوث هذا التغيير وجعل الصائفة على قسمين يمني ويسري، قد بدأ منذ زمن الخليفة عمر بن عبدالعزيز إذ يقول ابن خياط أثناء حديثه عن الصائفة في عهده: «فرقها - يعني عمر - بين الوليد بن هشام وبين عمرو بن قيس السكوني». (انظر: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٤). ومثل هذا التقسيم لا نجده عند من سبقه، بينما نرى استمراريته ووضوحه عند من خلفه.

(4) قال ذلك نبيه عاقل في كتابه: تاريخ خلافة بني أمية، ص٣١٨.

(5) سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام، ص٢١٩.

(6) فتحي عثمان: الحدود، ص٩٩.

(7) نفس المرجع، ص٥.

قال: «ففي عهد الخلفاء الأمويين الأقوياء توغل العرب داخل كليلكيا وكبادوكيا[1]. ولكن الدولة البيزنطية في عهد يزيد الثاني وخلفائه الضعاف استردت المدن التي كان في قد احتلها المسلمون». ولا ندري على أي شيء اعتمد فتحي عثمان في قوله، إذ لا تزودنا المصادر والمراجع التي أطلعنا عليها بمعلومات عما قال، بل تشير إلى فتوحات وانتصارات إسلامية. منها ما يصفه ويؤكده وسام فرج[2] بقوله: «إذا كانت القسطنطينية قد تم إنقاذها بفضل الإمبراطور ليو الثالث الأيسوري فإن أجزاء كثيرة من آسيا الصغرى كانت لا تزال تحت رحمة إغارت العرب كل عام، ففي سنة (١٠٤هـ / ٧٢٣م) استولى العرب على حصن كماخة[3] وعلى بلدة أيكونيون»[4].

والغزو الوحيد للروم على الديار الإسلامية زمن يزيد بن عبدالملك، ما ذكر من مهاجمة الروم الساحل المصري، ونزولهم تنيس[5] في رمضان (سنة ١٠١هـ) في

---

(١) كليكيا وكبادوكيا، من مناطق الثغور البيزنطية في آسيا الصغرى، وهي مناطق كبرى تحتوي على عدد من المدن والحصون، ومرت هاتين المنطقتين الثغريتين كغيرها من المناطق الثغرية البيزنطية في آسيا الصغرى بشيء من التنظيم والتغيير عبر عصورها المختلفة. ولمعلومات أوفى حول ذلك. (أنظر/ هاشم الجاسم: دراسات تاريخية عسكرية، ص١٤ - ٥٧).

(٢) دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص١٧٨.

(٣) كماخة: عند ياقوت وكي لسترنج (كمخ): مدينة بالروم على الفرات الغربي في يساره، على مسيرة يوم أسفل أرزنجان، وهي قلعة عظيمة، في أسفلها مدينة على ضفة النهر، ومن أعمالها كثير من القرى الخصبة، وتلفظ عند الروم كماخ، أو كمخا. (انظر: معجم البلدان، ٤/٤٧٩، وبلدان الخلافة الشرقية، ص١٥١).

(٤) أيكونيون أو ايكونيوم: هي مدينة قونية، وقد عرفت بهذا الاسم بعد فتح السلاجقة لها، واتخاذها عاصمة لهم (كي لسترنج: نفس المرجع، ص١٧٢ - ١٨١).

(٥) تنيس: جزيرة في بحر مصر وبلدة من أجل بلدان مصر، سميت نسبة إلى تنيس بن حام بن نوح، تقع على مقربة من البر بين الفرما ودمياط، وهي جزيرة في وسط بحيرة يفصلها شريط بري عن البحر المتوسط، تتصل بحيرتها بالبحر عن طريق فوهتين. (ياقوت: معجم، ٢/٥١ - ٥٤ المقريزي: خطط، ١/١٧٦ - ١٨٢. وقد أشار الأخير للحملة عليها زمن يزيد بإيجاز).

ولاية بشر بن صفوان الكلبي[1] (١٠١ - ١٠٢هـ)، حيث قتل أميرها مزاحم بن مسلمة المرادي[2] في جماعة من الموالي[3][4]. ويفيد الخبر إلى اشتراك القبط مع المسلمين في الدفاع عن بلدهم، كما يفيد أن تلك الحملة وإن حققت بعض النجاح إلا أنها لم تكن إلا مجرد غارة خاطفة، ونوعًا من أعمال القرصنة، أو ردة فعل لهجمات المسلمين الدائمة على ثغور بيزنطة البرية والبحرية. فالواقع أن مصر بعد فتح المسلمين الإسكندرية للمرة الثانية (سنة ٢٥هـ)، استمرت بصفة دائمة تحت الحكم الإسلامي[5]. لكن الروم لم يسلموا بضياع مصر، فحاولوا استعادتها، وكانت معركة ذات الصواري (٣٤هـ)، المحاولة الأولى والأكبر لتحقيق ذلك، لكنها باءت بالفشل[6]، ومهم أن نعرف أن من نتائجها، أنها كانت حدًا فاصلاً في سياسة الروم تجاه المسلمين، وأفاقت الإمبراطورية البيزنطية على حقيقة أن أي حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام. يعتبر مجهود ضائع ومحاولات فات أوانها[7].

ومع ذلك لم تنقطع الغزوات البحرية الرومية على سواحل مصر والشام، لكن الطابع الغالب على تلك الهجمات، طابع القرصنة ورد فعل على الغارات الإسلامية الموجهة إلى الممالك الرومية[8]. وما كانت الغارة على تنيس زمن يزيد إلا واحدة منها.

---

(١) بشر بن صفوان الكلبي: أمير مصر والمغرب، وأحد الشجعان ذوي الرأي والحزم. ولي مصر ليزيد بن عبدالملك (سنة ١٠١هـ)، ثم وجهه إلى إمارة إفريقية (سنة ١٠٢هـ)، فخرج إليها، وأقام في القيروان (سنة ١٠٩هـ). (الزركلي: الأعلام، ٢/٥٤).

(٢) أورد الكندي اسمه: «ابن احمر بن مسلمة المرادي». (انظر: كتاب الولاة، ص٧٠).

(٣) الموالي: يقصد بهم أهل البلد من القبط.

(٤) سيدة إسماعيل كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٧٧ - علية عبدالسميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص٤٩ - ٥٠.

(٥) علية عبدالسميع الجنزوري: نفس المرجع، ص٣٦.

(٦) عن معركة ذات الصواري، انظر: علية الجنزوري: نفس المرجع، ص٣٧ - ٤٤ - عمر العقيلي: خلافة معاوية بن أبي سفيان، ص١٠٢ - ١٠٦.

(٧) علية الجنزوري: نفس المرجع، ص٣٤.

(٨) علية الجنزوري نفس المرجع. ص٤٤.

و الراجح أن هذه الحملة، و الحملة التي سبقتها على اللاذقية سنة ١٠٠هـ أيام عمر بن عبدالعزيز، كانت رد فعل لغزو المسلمين القسطنطينية زمن سليمان بن عبدالملك[١].

اهتمامه بالثغور:

كان عمر بن عبدالعزيز قد أمر ببناء اللاذقية التي هدمها الروم إبان إغارتهم عليها (سنة ١٠٠هـ)، لكنه توفى قبل أن يتم ذلك، فأتم بناءها وشحنها الخليفة يزيد بن عبد الملك[٢]. وإن كان البلاذري[٣] يؤكد اتمام عمر لها، وأن جهد الخليفة يزيد، اقتصر على ترميمها وزيادة في شحنها. وليس من المنطق ترميم ما تم انشاؤه حديثًا. والأولى أن الخليفة يزيد أتم ما شرع عمر فيه من بناء اللاذقية وشحنها. ولا نعثر للخليفة يزيد في مجال التحصين على عمل آخر، مما يبين أنه قد اقتصر على إصلاح ما تهدم، ولعل الموقف في الجبهة وكون المسلمين في دور المهاجم، وخلو فترته من تحرك بيزنطي على الثغور البرية، هو ما صرفه عن ذلك. إلا أننا نجد له جهدًا آخر في ميدان الثغور، وهو تأمين دروب الفاتحين، فقد كان الطريق بين أنطاكية والمصيصة[٤] مسبعة[٥]، يعترض الناس فيها الأسد، فلما صادر الخليفة يزيد بن عبدالملك أموال بني المهلب بعد القضاء على يزيد بن المهلب الذي خلع الخليفة وخرج على سلطان الدولة، كان مما أصابه ضمنها، أربعة آلاف جاموسة كانت بكور دجلة وكسكر. فأمر الخليفة يزيد بنقلها

---

(١) أشارت عليه الجنزوري إلى مثل هذا القول. (انظر: هجمات الروم البحرية على شواطيء مصر الإسلامية. هامش ١٤، ص٤٩ – ٥٠).

(٢) فتحي عثمان: الحدود، ص٩٧ – وإن كان هاشم إسماعيل الجاسم يقول: أن يزيد هو الذي أعاد بناءها. (انظر كتابه: دراسات تاريخية عسكرية، ص٩٨. نقلاً عن: شعيرة: المرابطون في الثغور البرية الرومية، بحث في كتاب: إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين).

(٣) فتوح البلدان، ص١٣٩.

(٤) المصيصة: مدينة تقع على نهر جيحان (نهر بيرامس)، فتحها عبدالله بن عبدالملك بن مروان، وبنى حصنها وأسكنها بعض الجند من ذوي البأس والنخوة، وبنى لها مسجدًا، ثم عمرها أبو جعفر المنصور، وأسماها المعمورة. (كي لسترنج: بلدان، ص ١٦٢ – ١٦٣). وأضاف ياقوت: أنها من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم بالقرب من طرسوس. (انظر: معجم البلدان، ٥/١٤٤ – ١٤٥).

(٥) مسبعة: أي تكثر فيها السباع.

إلى المصيصة مع زطها[1][2].

الحملات البرية ضد الروم:

سنعرض الآن لما تحقق من فتوحات إسلامية زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك في الأراضي الرومية، عن طريق الغزو برًا بقيادة أمراء الصوائف و الشواتي.

ففي (سنة ١٠٢هـ) غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية أرمينية، فانتصر عليهم، وأسر منهم سبعمائة أسير، وكان آنذاك أميرًا على الجزيرة، قبل أن يلي العراق[3]. ويبدو أن هذه الغزوة تمثل الصائفة اليمنى، إذ نجد غزوة أخرى قامت في نفس العام بقيادة الوليد بن هشام[4]، إلى أرض الروم، فنزل على المخاضة عند أنطاكية[5][6]. ويظهر أن ههذ الحملة تمثل الصائفة اليسرى عن طريق الثغور الشامية. لكن المصدر الوحيد الذي أشار إليها لم يقدم لنا معلومات عن نتائجها.

وتشير بعض المصادر إلى حملة أخرى قام بها العباس بن الوليد على أرض الروم، سنة ١٠٢هـ، أيضًا، فافتتح مدينة «دبسة»[7][1]. إلا أن فتحي عثمان[2] ينقل لنا ترجيح

---

[1] الزط: جيل اسود من السند، إليه تنسب الثياب الزطية وقيل: الزط اعراب جت بالهندية، وقيل جيل من أهل الهند، وقيل: الزط السبابجة قوم بالبصرة. يقول الشاعر:

فجئنا بحيي وائل وبلفها — وجاءت تميم زطها والأساور

انظر: اللسان (زطط).

[2] البلاذري: فتوح البلدان، ص١٧٢.

[3] الطبري: تاريخ الأمم، ٦١٦/٦ – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٤/٢ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٢/٤ (قال وأسر منهم خلقًا كثيرًا وقتل سبعمائة أسير). ويبدو أنه خطأ في النقل، فالطبري قال: وأسر منهم بشرًا كثيرًا قيل سبعمائة فقلبت القيل قتل. مجهول، العيون ص٧٥ – فتحي عثمان: الحدود، ص٩٩ – ١٠٠.

[4] الوليد بن هشام بن معاوية بن هشام بن عقبة بن أبي معيط الأموي، كان عامل عمر بن عبدالعزيز على قنسرين وعاش إلى دولة مروان بن محمد. (ابن حجر: تهذيب، ١٣٧/١١).

[5] لم أعثر على تعريف للمخاضة، وأنطاكية: مدينة على نهر أورنطس، وهي قصبة الثغور الشامية، بينها وبين حلب يوم وليلة. (ياقوت: معجم، ٢٦٦/١ – ٢٧٠).

[6] اليعقوبي: نفس المصدر والجزء والصفحة.

[7] لم أعثر لها على تعريف.

الدكتور شعير أن هذه الحملة كانت سنة ١٠٣هـ / ٧٢١م بحجة أن العباس كان مشاركًا في إخماد فتنة ابن المهلب. إلا أن القضاء على ابن المهلب كان في صفر (سنة ١٠٢هـ)، وتشير بعض الروايات إلى وجود العباس بن الوليد في حلب في أعقاب ذلك[٣]، فلا يستبعد أن يكون قد خرج غازيًا إلى أرض الروم في أواخر ذلك العام خصوصًا أن المصادر التي أشارت إلى غزوته سنة ١٠٢هـ، أشارت أيضًا إلى غزوة أخرى له سنة ١٠٣هـ. أما هدف الحملة فيُرجح أنه لا ريسا، ويقال سزا[٤].

واستمر إنفاذ الصوائف، فكان على الصائفة الكبرى (سنة ١٠٣هـ)، محمد بن مروان[٥]، وعلى الصغرى عثمان بن حيان[٦][٧]. ولا يضيف المصدر شيئًا عن تلك الصائفتين، من حيث الوجهة والنتيجة. ويبدو أن المقصود بالصائفة الكبرى، والصائفة اليمنى، وهي التي تخرج من الجزيرة، والصائفة الصغرى أي اليسرى، وهي التي تخرج

---

(١) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٧ - ابن الأثير: الكامل، ١٨٢/٤ (وأورد اسم المدينة «دلسه»).

(٢) نفس المرجع والصفحات.

(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٦٠٢/٦ - ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٧٥.

(٤) فتحي عثمان: الحدود، ص٩٩ - ١٠٠. ويتضح أن خلو المعاجم من تعريفات لكثير من المواضع في آسيا الصغرى يعود إلى إيراد المصادر القديمة لأسماء تلك المدن والمواقع بصورتها المعربة، بينما انتهت إلينا معظم هذه الأسماء بعد الفتح التركي على غير هذه الصورة. إلى جانب قلة معرفة المصنفين العرب القدماء بجغرافية آسيا الصغرى، ومخالفة كثير مما ذكروه للواقع. (انظر هذا القول عند / كي لسترنج: بلدان. ص ١٦٨).

(٥) قال: محمد بن مروان، والأصح ابنه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي، إذ كانت وفاة محمد بن مروان سنة ١٠١هـ. (انظر: الزركلي: الأعلام، ٩٥/٧). أما مروان بن محمد. فهو آخر خلفاء بني أمية، ولد بالجزيرة وتولى إمارتها مع أذربيجان وأرمينية، فغزا وفتح، استولى على الخلافة سنة ١٢٧هـ، وسقطت الدولة الأموية في زمنه على يد العباسيين (سنة ١٣٢هـ)، وقتل في بوصير بمصر. (الزركلي: نفس المرجع والمجلد، ص ٢٠٨).

(٦) عثمان بن حيان بن معبد المرى، وال من الغزاة، دمشقي، استعمله الوليد بن عبدالملك على المدينة، وعزله سليمان، تولى الصائفة (سنة ١٠٣هـ)، وغزا قيصرة (سنة ١٠٤هـ). ثقة عند أهل الحديث. (الزركلي: نفس المرجع، ٢٠٥/٤).

(٧) ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٢٨.

من الثغور الشامية، حيث أن محمد أميرًا على الجزيرة، وفي وصف اليمنى بالكبرى إشارة إلى ما اكتسبته الجبهة الأرمينية من أهمية في خلافة يزيد بن عبدالملك، على اثر التحرك الخزري ومحاولة الروم استغلال ذلك.

كما غزا العباس بن الوليد في سنة ١٠٣هـ أيضًا أرض الروم، وابن خياط واليعقوبي[١] لم يحددا وجهة الغزوة، أو ما نتج عنها، وإن كان اليعقوبي قد أشار إلى إصابة الناس في السرايا، وفي ذلك قرينة على فشلها، وأنه تمكن من فتحها[٢]. ويتضح أن هؤلاء المؤرخين خلطوا بين حملته على دبسه أو رسله (سنة ١٠٢هـ) والحملة التي قام بها سنة ١٠٣هـ، والتي لم يحدد هدفها.

ومن المرجح أن غزوة العباس كانت الشاتية، لخروج الصائفة تحت أمرة محمد بن مروان وعثمان بن حيان. مما يدل على أن الخليفة يزيد قد عكف على إخراج أكثر من حملة في العام الواحد وفي نفس الاتجاه، ليشغل عدوه بالدفاع عن نفسه، وليبقى زمام المبادرة بيد المسلمين، ويمنع الروم من الاستفادة من تحرك الخزر أو التحالف معهم ضد المسلمين وكان قد أعطاهم كثيرًا من اهتمامه كما رأينا أثناء عرضنا للفتوحات في أرمينية.

أما (سنة ١٠٤هـ) فقد تمكن عبدالرحمن بن سليم الكلبي قائد الصائفة اليمنى، وعثمان بن حيان أمير الصائفة اليسرى من فتح مدينة «سسرة»[٣][٤]. ويتضح من هذه الحملة، التنسيق القائم بني الصائفتين، واجتماعهما على هدف واحد، إذا ما دعت الحاجة. لذا فمن الغالب على الظن أن هذه المدينة كانت من الحصانة والمنعة بمكان، مما دفع القائدين إلى التعاون على فتحها. ويتضح أن عثمان بن حيان بعد أن فرغ من

---

(١) تاريخ ابن خياط، ص٣٢٨ – تاريخ اليعقوبي، ٣١٤/٢.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ٦١٩/٦ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٤/٤ – ابن خلدون: العبر، ١٣٣/٣.

(٣) لم أعثر لها على تعريف.

(٤) ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٣٠ – اليعقوبي: نفس المصدر ٣١٥/٢ (أورد اسم الكلبي، عبدالرحمن بن سليمان).

فتح سسرة اتجه بجنده إلى مدينة قيصرة[١] وهي حصن من حصون الروم، فتمكن من فتحها في نفس العام[٢].

وفي (سنة ١٠٥هـ)، آخر خلافة يزيد بن عبدالملك. قامت ثلاث حملات، وفتحت مدينتي قونية، وكمخ. فقد غزا مروان بن محمد على الصائفة اليمني، وافتتح مدينة قونية من أرض الروم، وكمخ[٣]. وحيث أن المسافة بين المدينتين بعيدة، كما أنهما ليسا في اتجاه واحد، فكمخ في الشمال بالنسبة للجزيرة، وقونية في الغرب منها في قلب آسيا الصغرى إلى الجنوب منه، على الطريق إلى عمورية. مما يجعلنا نشك في قيامه بفتحها في حملة واحدة، فقد يكون خرج من الجزيرة إلى كل منهما على حدة في نفس العام. أو أن نأخذ بما أورده المؤرخ الأقدم وهو ابن خياط[٤]، الذي أشار إلى الغزوة، لكنه ذكر فتح مروان لمدينة واحدة من أرض الروم، لم يسمها، وقال: ناحية عنج[٥].

وحيث أنا لم نعثر على تعريف لعنج، فقد يكون يعني كمخ مما يعني أنه فتح قونية تم في غزوة أخرى سابقة لها أو لاحقة من نفس العام (أي ١٠٥هـ).

وقد أوردنا[٦] لوسام عبدالعزيز فرج خبرًا يشير فيه إلى فتح كمخ أو كماخة سنة ١٠٤هـ، لا ١٠٥هـ، مما يزيل الشك إن صحت روايته. مع أنه ليس من المستبعد أن يكون المسلمون قد فتحوها سنة ١٠٤هـ. ثم عادوا لفتحها في السنة التالية، لعودة الروم إليها بعد فتحها الأول.

---

(١) هي المعروفة بقيصرية. (انظر هامش ٤، ص٣٣٠ من تاريخ ابن خياط). وهي من مدن الروم في آسيا الصغرى. (كي لسترنج: بلدان، ص١٦٨). وتسمى قيسارية أيضا، وهي مدينة عظيمة كبيرة، كانت كرسي ملوك بني سلجوق، (ياقوت: معجم، ٤٢١/٤).

(٢) ابن خياط: نفس المصدر،، ص٣٣٠ – الزركلي: الأعلام، ٢٠٥/٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ١٩٣/٤.

(٤) نفس المصدر، ص٣٣١ – ووافق ابن خياط في افتتاح مروان لمدينة واحدة، ابن خلدون في كتابه: العبر، ١٣٣/٣، لم يسمها، وقال: قريبة من أرض الزوكخ. وهذه لم نعثر لها على تعريف.

(٥) عنج: لم نعثر لها على تعريف.

(٦) انظر قوله قبل: ص٢٧٨.

كما غزا عثمان بن حيان المرى، بلاد الروم، سنة ١٠٥هـ أيضاً[١]. لكن المصادر التي أشارت إلى هذه الغزوة لم تبين هدفها، وما حققته من نتائج. وإن كنا نرى أنها الصائفة اليسرى، وذلك عطفاً على ما علمناه من إمرته على تلك الصائفة في السنتين السابقتين.

وتشير مجموعة من المصادر[٢] إلى غزوة قام بها سعيد بن عبدالملك على أرض الروم، في العام نفسه، فبعث سرية من ألف مقاتل، فأصيبوا جميعًا، وينفرد اليعقوبي[٣]، الذي لم يذكر شأن السرية وإصابتها، بتحويل القائد سعيد بن عبدالملك لاتجاهه من أرض الروم إلى ناحية الترك، حتى بلغ قصر قطن[٤]. ويبدو أن غزوة سعيد بن عبدالملك كانت الشاتية فقد سبقه إلى الغزو مروان بن محمد وعثمان بن حيان ومعروف أن الأول على الصائفة اليمنى، والثاني على اليسرى، مما يدفعنا إلى ترجيح كونه خرج بالشاتية من الثغور الشامية. ويتضح أنه قد سار حتى نزل بأحد الثغور الشامية، فبعث سرية إلى اتجاه لم تحدده لنا المصادر، فأصيبوا، فحول اتجاهه إلى ناحية الترك. مما يدفعنا إلى الشك أن أسباب تلك الهزيمة وما حدث لتلك السرية، قد حصل بفعل برودة الشتاء. أو تدخل الترك وتعاونهم مع الروم مما جعل سعيد بن عبدالملك، يتتبعهم في بلادهم، وإن كنا لا نعلم ماذا فعل في غزاته هناك، وإن كان لنا أن نشير أن هذه الغزوات التي تمت (سنة ١٠٥هـ) لم تحدد المصادر الشهر الذي خرجت فيه مما يجعل من المتعذر التأكيد على حدوثها زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك المتوفى في شعبان سنة ١٠٥هـ. أو زمن خلفه هشام بن عبدالملك.

---

(١) الذهبي: العبر، ١٢٨/١ – الذهبي تاريخ الإسلام، ١٤٩/٤ (لكنه صحف نسبه من المرى إلى المزني) – ابن العماد: شذرات، ١٢٨/١ (وورد نسبه مصحفاً كما في تاريخ الإسلام، والأصح المرى).

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ٢١/٧ – ابن الأثير: الكامل ١٩٣/٤ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٥٩/٩ – ابن خلدون: نفس المصدر، ١٣٣/٣.

(٣) سعيد بن عبدالملك بن مروان: أمير أموي، كان حسن السيرة متعبداً، كان يقال له سعيد الخير، ولى الغزو لهشام بن عبدالملك، وتولى فلسطين للوليد، وكان عامل للموصل، وقد قتل يوم نهر أبي فطرس سنة ١٣٢هـ. (الزركلي: الأعلام، ٩٨/٣).

(٤) قصر قطن: لم أجد له تعريفا.

وقد أورد ابن خياط[1] أن عبدالرحمن بن سليم الكلبي. كان على الصائفة حتى مات يزيد بن عبدالملك.

وفي ضوء معرفتنا بتولي عدد من القادة ومنهم الرحمن بن سليم، الخروج على رأس حملات الصوائف والشواتي في عهد الخليفة يزيد، فإننا نرى أنه كان أمير الصائفة العام. أو أمير الثغور الشمالية الذي يشرف على إنفاذ الصوائف والشواتي، ويقود بعضها بنفسه.

الجهاد في البحر الأبيض المتوسط زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك:

اعتمد المسلمون في إفريقية في غزواتهم البحرية للجزر البيزنطية في وسط وغرب البحر المتوسط، قبل إنشاء دار لصناعة السفن في تونس - على يد حسان بن النعمان ٧٤ - ٨٥هـ - على الأسطول المصري، الذي كان يقوم بغزو تلك الجزر والعودة إلى قواعده في مصر[2].

وبعد أن أصبح لإفريقية أسطولها الخاص[3]، اتجه المسلمون إلى اتخاذ سياسة بحرية من أهدافها السيطرة على جزر البحر المتوسط الغربي وعلى رأسها صقلية. واتخاذها قواعد بحرية أمامية تحمي الساحل الإفريقي من هجمات الروم، وتنطلق منها الغزوات المنتظمة على الأندلس وغالة[4].

وقد تابع ولاة أفريقية من قبل الخليفة يزيد بن عبدالملك. جهود من سبقهم من الأمراء بعد موسى بن نصير- الذي وجه أول غزوة للأسطول الأفريقي سنة ٨٥هـ - في غزو الجزر البيزنطية. فقد قام يزيد أبي مسلم[5]، أمير افريقية (١٠١ - ١٠٢هـ)

---

(١) تاريخ ابن خياط، ص٣٣٥.

(٢) أحمد مختار العبادي، والسيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، الناشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢/٢٨ - ٣٤.

(٣) عن بناء دار صناعة السفن في تونس، ونشأة الأسطول الإسلامي الإفريقي، (انظر: أحمد العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع والجزء والصفحات).

(٤) أحمد العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع والجزء، ص٣٥.

(٥) يزيد بن دينار الثقفي، بالولاء، وال من الدهاة في العصر الأموي، جعله الحجاج كاتبًا له، واستخلفه على الخراج عند وفاته لما ظهر من مزاياه، فأقره الوليد، فعزله سليمان، وطلبه =

بغزو جزيرة صقلية (سنة ١٠١هـ / ٧١٩م)[١].

كما وجه من قبله (سنة ١٠٢هـ) القائد محمد بن أوس الأنصاري[٢]، في غزوة بحرية إلى صقلية أيضًا، فعادت الحملة سالمة غانمة[٣]. وكان محمد بن أوس أمير بحر تونس تلك السنة وقد مات يزيد بن أبي مسلم عامل الخليفة يزيد على إفريقية آنذاك، وابن أوس غازيًا في البحر الغزوة المذكورة آنفًا. ولم تكن إمارة ابن أوس للبحر سنة ١٠٢هـ، وقيادته هذه الحملة هي الأولى، فقد ولي بحر افريقية قبل ذلك (سنة ٩٣هـ)، وشارك في غزو المغرب والأندلس مع موسى بن نصير[٤].

وإن كنا لم نعلم بنتيجة الحملة الأولى التي قادها يزيد بن أبي مسلم بنفسه، فإن خروج الحملة الثانية ونجاحها يدل على نجاح الأولى، أما تركيز أمير إفريقية على جزيرة صقلية فيعود لأهميتها بالنسبة للروم، وهي محاولات منه لضرب تلك القاعدة

= فأعجبه، واستبقاه عنده، ثم تولى إمارة افريقية (سنة ١٠١هـ) من قبل الخليفة يزيد بن عبدالملك، فقتله أهلها سنة ١٠٢ هـ. (الزركلي: الأعلام، ١٨٢/٨).

(١) محمود إسماعيل عبدالرزاق: الخوارج في بلاد المغرب، حتى منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه، رسالة دكتوراه، مطبوعة، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م، ص٣٣.

(٢) محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري: من التابعين أهل الفضل والدين والفقه، يروي عن أبي هريرة، قيل ولي افريقية (سنة ٧٣هـ)، وقيل بل دخلها (سنة ٩٣هـ). وغزا المغرب والاندلس مع موسى بن نصير، وهو ممن دخل الأندلس للجهاد والرباط، وكان على بحر تونس (سنة ١٠٢هـ). وقد وافته المنية في نفس السنة. (انظر الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، علمائها وأمرائها وشعرائها وذوي النباهة فيها ممن دخل إليها وخرج عنها، طبع بمطابع روخس، مدينة مجريط، ١٨٨٤م، ص٥١ - المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم ممدوح حقي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص٢٦ - الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٨م، ١٩٦/١ - ١٩٧.

(٣) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٦ - فوزية محمد بن الحميد نوح: البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦)، رسالة ماجستير، لم تطبع، مقدمة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ١٤٠٤ - ١٤٠٥هـ، ص٤٨.

(٤) أحمد العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ٣٦/٢، ٣٠.

البيزنطية الهامة، وتهديدًا للأعداء وإشغالهم عن مهاجمة الساحل الإفريقي.

وفي سنة (١٠٢هـ / ٧٢٠م)، اشترك محمد بن يزيد القرشي[١]، في غزوة أخرى لصقلية[٢].

والقول باشتراكه في غزوه أخرى، يعني أنه كان في الأولى. والذي كان قائدًا للأولى من قبل ابن أبي مسلم هو محمد بن أوس، لذا فإن الأرجح لدينا، أن محمد بن أوس هو الذي خرج مرة ثانية، لغزو صقلية لا محمد بن يزيد، إذ يروي[٣] أن محمد بن يزيد كان في سجن يزيد بن أبي مسلم عندما قتل وأن محمد بن أوس كان غازيًا لصقلية، فلما عاد ولي أمرة افريقية بعد ابن أبي مسلم[٤]، وإن كانت الروايات قد اضطربت حول ذلك، فمنها من قال أن الغازي الذي تولى بعد ابن أبي مسلم هو محمد بن أوس وأخرى تقول محمد بن يزيد، وثالثة تقول: إسماعيل بن عبدالله[٥]، والأول الأرجح، لورود الخبر بسجن محمد بن يزيد، وكون محمد بن أوس هو أمير البحر أنذاك[٦].

أما ولاية بشر بن صفوان على افريقية (١٠٢ - ١٠٩هـ) فقد كانت حافلة بالغزوات البحرية، على جزر سردانية وكورسيكا وصقلية، وربما يعود ذلك لوصول قائد

---

(١) محمد بن يزيد القرشي، بالولاء، أمير افريقيا من قبل سليمان بن عبدالملك، عزله عمر، وقيل تولاها بعد مقتل يزيد بن أبي مسلم سنة ١٠٢هـ، أعاده إليها أهلها، وأقره الخليفة يزيد بن عبدالملك، وكان عندهم وقيل: كان غازيًا بصقلية وقدم. ثم عزل ببشر بن صفوان، ت بعد سنة ١٠١هـ. (الزركلي: الأعلام، ٧/١٤٣).

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م، ٢/٢٩٥ (نقلاً عن ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨٢ - السلاوي، الاستقصاء، ص١٠٣) - فوزية نوح: البحرية الإسلامية، ص ٣٨، (نقلاً عن السيد عبدالعزيز سالم وأحمد العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ٣٨).

(٣) انظر تلك الرواية عند/ ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٦ - ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص٢٤٣ - السيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع والجزء، ص٢٩٤.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ١/٤٨ - ٤٩ - حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٥٩.

(٥) انظر مناقشتنا لذلك بعد: الفصل الخامس، ص٥١٦ - ٥١٩.

(٦) الضبي: بغية الملتمس، ص٥١ - الدباغ: معالم الأيمان، ١/١٨٩.

الأسطول الإسلامي في افريقية. محمد بن أوس الأنصاري، إلى منصب ولاية افريقية، عندما اختاره أهل الحل والعقد هناك عقب مقتل ابن أبي مسلم أميرًا عليهم (سنة ١٠٢هـ) قبل أن يوليها الخليفة يزيد بن عبدالملك بشر بن صفوان. وولايته هذه تعتبر علامة مميزة في تاريخ البحرية الإسلامية الناشئة في افريقية، إذ وصلت تحت أمرته لها مع مطلع القرن الثاني الهجري، إلى مرحلة الفتوة، وذلك بعد استيلاء المسلمين على السواحل البحرية الشرقية في أسبانية، وكانت غزواته سنوية تقريبًا، ألح بها على قواعد الروم القريبة، لإرهابهم، وإشغالهم عن مهاجمة سواحل المغرب[١].

ومن غزواته في خلافة يزيد بن عبدالملك، الحملة التي وجهها بقيادة يزيد بن مسروق اليحصبي[٢]، إلى جزيرة سردانية، وذلك في المحرم من (سنة ١٠٣هـ)، فكان نصيبها النجاح، حيث غنم المسلمون وسلموا[٣].

كما وجه (سنة ١٠٤هـ) القائد عمرو بن فاتك الكلبي[٤] لغزو البحر، فغنم وسلم[٥]. وتقول فوزية نوح[٦]: أن هذه الحملة لا نعرف وجهتها، وربما يكون الأسطول قد غزا فيهما سردانية وكورسيكا، هذا إذا لم يكن قد عرج كذلك في طريقه على صقلية.

---

(١) فوزية نوح: البحرية الإسلامية، ص٤٨ – ٤٩.

(٢) يزيد بن مسروق اليحصبي: لم أعثر له على ترجمة.

(٣) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٨ – فوزية نوح: نفس المرجع، ص٤٩.

(٤) لم أعثر على ترجمته.

(٥) فوزية نوح: نفس المرجع والصفحة – ابن خياط: نفس المرجع، ص٣٣٠.

(٦) نفس المرجع والصفحة.

المبحث الرابع

الفتوح في بلاد الغال

تكررت فتوحات المسلمين في بلاد الغال[1]، منذ اجتاز موسى بن نصير جبال البرتات[2]، لأول مرة[3].

وقد شهد عصر الخليفة يزيد بن عبدالملك، حملة من أهم الحملات التي قام بها المسلمون لفتح بلاد الغال عن طريق الأندلس، وهي الغزوة التي قادها السمح بن مالك الخولاني (١٠١ – ١٠٢هـ)، إلى تلك الأصقاع.

---

(١) بلاد الغال (الأرض الكبيرة، غالة، فرنسا): تعني عند العرب الأرض الواقعة بين جبال البرتات (البرنية)، وبين جبال الألب والأوقيانوس، ونهر ألبا ومملكة الروم وهذا المفهوم ينطبق على فرنسا أيام شارلمان. وأممها تتحدث بعدة لغات. (شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص٥٠ – ٥١). ويقول السيد عبدالعزيز سالم: أن بلاد الغال انقسمت بعد سقوط الدولة الرومانية إلى عدة ولايات منها: سبتمانيا، واكيتانيا، وبروفانس، وبرغندية والدولة الميروفنجية شمال نهر اللوار. (انظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس. ص١٣٧). وكان الحكم فيها للدولة الميروفنجية، فلما ضعفت سيطر فرنج الجنوب على ملك اكيتانية، وسبتمانية، ودوقها «أود» وبقى بيدي القوط الغربيين قسم من مقاطعة لانغدوق وبروفانس. (شكيب أرسلان: نفس المرجع. ص٣٣، ٦٩).

(٢) يقول محمد عبدالله عنان: أن بعض الكتاب يسمي جبال البرنيه خطأً بجبال البرانس، حيث أن جبال البرنيه تسمى في الجغرافيا العربية بجبال البرت أو البرتات. تحريفاً عن الأسبانية (Puerta)، ومعناها الباب، وسميت هذه الجبال بهذا الاسم لأنها تحتوي على خمسة أبواب أو ممرات للعبور. أما جبال البرانس فهي سلسلة أخرى من الجبال الأسبانية تقع شرقي ماردة وجنوبي طليطلة، وسميت بذلك نسبة لقبيلة البرانس البربرية التي نزلت في الأندلس على مقربة من هذه الجبال، وتعرف في الجغرافيا الحديثة بجبال المعدن، لوقوعها بالقرب من مدينة المعدن. (انظر: دولة الإسلام، هامش (١)، ص٨٢، وهامش (١)، ص٥٣) – وانظر ما أورده عبدالرحمن علي الحجي، حول التعريف بها، وأسماء الممرات التي تخترقها، في كتابه: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢ – ٨٩٧هـ / ٧١١ – ١٤٩٢م)، دار القلم، دمشق، بيروت، دار القلم، الكويت، الرياض، ساعدت جامعة بغداد على نشره، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص٩٦ – ٩٨.

(٣) انظر إشارتنا إلى ما ذكر حول اجتياز موسى بن نصير إلى بلاد الغال فاتحا، وأهدافه، قبل: التمهيد، ص١٥.

كما تم الإعداد في عهده لحملة لا تقل أهمية عن سابقتها وهي التي قادها عنبسة بن سحيم الكلبي، إلى تلك الأقطار ولنفس الغرض.

فتوحات السمح بن مالك الخولاني في بلاد الغال:

من المتفق عليه أن ولاية السمح بن مالك (رمضان ١٠٠هـ ـ ذي الحجة ١٠٢هـ)، قد جاءت من قبل الخليفة عمر بن عبدالعزيز، واستمرت بإقرار الخليفة يزيد بن عبدالملك، منذ توليه في رجب (سنة ١٠١هـ)، حتى استشهاد السمح بن مالك في (ذي الحجة ١٠٢هـ)[١].

غير أن المختلف عليه والمشوب بالغموض هو تاريخ خروج السمح بن مالك بحملته وهل كان ذلك في خلافة عمر بن عبدالعزيز، أم كان في زمن خليفته يزيد بن عبدالملك. إذ لم تحدثنا المصادر والمراجع التي تمكنا من الإطلاع عليها بتاريخ دقيق لخروج هذه الحملة.

فمحمد عبدالله عنان[٢]، يؤرخ لزحف السمح على لانجدوك (سبتما نيا) بأواخر (سنة ٧١٩م) أي (أوائل سنة ١٠١هـ) وهذا يعني خروجها في أواخر خلافة عمر بن عبدالعزيز، بينما نجد شكيب أرسلان[٣] يؤرخ لخروج حملة السمح بن مالك الخولاني بقوله كان ذلك (سنة ٧٢١م) أي (١٠٢هـ)، في خلافة يزيد بن عبدالملك بعد أن مضى على فتح الأندلس إحدى عشرة سنة لاغير.

كما سنرى الاختلاف على التأريخ لفتح مدينة أربونة[٤]، وهي أول مدينة تواجه

---

(١) من أجل ولاية السمح بن مالك على الأندلس: انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/٢٦ - حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٣٥ - ١٤٠ - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٣٤ - ١٣٥ - محمد عنان: دولة الإسلام، ص٧٤ - محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٩٦.

(٢) نفس المرجع، ص٧٥ - ٧٦.

(٣) غزوات العرب، ص٨٥.

(٤) أربونة: كانت أهم حاضرة فرنسية جوار أسبانيا، وهي أول مدينة تستقبل الخارج من أسبانيا، تقع على ارتفاع عشرة أمتار من سطح البحر، وعلى مسافة ١٤ كم منه إلى الشرق، يمر بالقرب منها نهر الأود، ويمر بها جدول له اسمه «روبين». وأربونة من أقدم مدن الأرض، وقد تعاقب على =

الفاتحين بعد عبورهم جبال البرتات وأول مدينة فتحها السمح في حملته تلك بعد عبور البرتات. فقد كنا عولنا على تاريخ فتحها في حالة الإجماع عليه، للتأريخ لبداية الحملة.

وسعيًا منا للوصول إلى الحقيقة. عمدنا إلى تاريخ استشهاد السمح ونهاية حملته، وإلى تاريخ خلافة يزيد بن عبدالملك، ومنطق الأحداث وسمات الفترة، في محاولة لترجيح أصوب الآراء، والوصول إلى حقيقة ذلك التأريخ أو ما قارب الحقيقة على الأقل.

فإذا ما أخذنا في الاعتبار أن استشهاد السمح بن مالك ونهاية حملته كان في التاسع من ذي الحجة (سنة ١٠٢هـ)[١]. وإن قيامها كان في أواخر خلافة عمر، فهذا يعني أنها استغرقت ما ينيف على العام والنصف، وهي فترة زمنية كبيرة إذا ما قيست بالإنجازات التي تحققت إبانها مع عظمتها، خصوصًا إذا ما وجدنا من يقول أن السمح قد توجه نحو طولوشة التي استشهد بالقرب منها في ربيع سنة ١٠٢هـ[٢]، حيث أن ذلك يشككنا في أن يكون السمح قد قضى الوقت الذي سبق خروجه إلى طولوشة في فتح أربونة وما حولها. وتنظيم الأمر هناك.

كما أن الناظر إلى ما قام به السمح في بداية ولايته من تنظيمات إدارية ومالية[٣]،

= ملكها عدد من الأمم، من أسبقهم السليتون من القرن (١٢ ق.م)، وآخرهم قبل المسلمين القوط.) شكيب أرسلان: نفس المرجع، ص٨٦ – ٨٧).

وقال ياقوت: بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس، بينها بين قرطبة ألف ميل. (انظر: معجم، ١٤٠/١).

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢٦/٢ – حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ١٤٠ – خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص١٢٥.

(٢) حسين مؤنس: نفس المرجع، ص١٤٠.

(٣) قام السمح بأمر من الخليفة عمر بن عبدالعزيز بمسح الأندلس وإخراج الخمس، والكتابة إلى الخليفة بصفتها (انظر: ابن عذارى: نفس المصدر، ٢٦/٢ – ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص٣٨ – المقري: نفح، ١٣/٤ – ١٤ – السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٣٥.

ومنشآت عمرانية[1]، وإصلاحات داخلية[2]، وجهود عسكرية استهدفت القضاء على الفتن الداخلية كإخماده لحركة العصاة المسيحيين في المناطق الشمالية[3]. يراها كفيلة بشغل الفترة التي قضاها السمح كأمير للأندلس في أواخر خلافة عمر بن عبدالعزيز، خصوصًا أن معظم تلك الأعمال جاء الأمر بها من الخليفة عمر إلى السمح وبدأ في تنفيذها (سنة ١٠١هـ) [4]. بل قيل أن جابر مولى عمر والذي وكل بمهمة مسح الأندلس، جاءه الخبر بموت الخليفة عمر وهو لم يفرغ من تخميس أرض الأندلس[5].

أما منطق الأحداث، وسمة سياسية الخليفة عمر بن عبدالعزيز. فإنها تصوره غير راغب في التوسع، مقدمًا الإصلاح الداخلي، ونشر الإسلام بين رعايا الدولة، مع المحافظة على ديار الإسلام وعزة أهله، على ذلك. وعلى وجه الخصوص سياسته نحو الأندلس، فإن المصادر[6] تشير إلى تفكير الخليفة عمر في نقل المسلمين من الأندلس وإخراجهم منها، لبعدهم وانقطاعهم عن المسلمين، فعدل عن ذلك بعد علمه بقوتهم ومنعتهم فيها. فليس لنا بعد معرفة موقف عمر هذا، وسياسته الحربية المتمثلة في إيقاف الفتوح عند الحدود التي وصلت إليها مع المحافظة عليها. أن نقول بخروج

---

(١) من ذلك بناء قنطرة قرطبة، وسورها، ومقبرتها، وجامع سرقطسة، وغير ذلك. (انظر/ مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق إبراهيم الابياري، نشر دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص٣٠ - ٣١ (وقد أشار أن بناءها تم سنة ١٠١هـ، مما يقوي ما سنذهب إليه من القول أن حملة السمح كانت في خلافة يزيد لا عمر) - حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٣٩ - محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٩٧.)

(٢) المراكشي: المعجب، ص٢٤ - محمد زيتون: نفس المرجع، ص١٩٦ - ١٩٧ - خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس، ص٢٠٩.

(٣) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، ص٧٥ - ٧٦.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢٦/٢ - مجهول: أخبار مجموعة، ص٣٠ - ٣١.

(٥) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٨.

(٦) ابن عذارى: نفس المصدر والجزء والصفحة - ابن القوطية: نفس المصدر والصفحة (قال: أنه كتب بذلك إلى السمح، فأخبره بقوة المسلمين وكثرة مدائنهم، وشرف معاقلهم) - مجهول: نفس المصدر، ص٣٠ - المقري: نفح، ١٤/٤.

السمح بتلك الحملة الكبرى لفتح بلاد الغال في زمن الخليفة عمر بن عبدالعزيز، أو دون علمه وإذنه.

وهذا بالتالي يدفعنا إلى ترجيح قيام السمح بن مالك بحملته في بداية خلافة يزيد بن عبدالملك، الذي اتسم عهده بالعودة إلى سياسة التوسع وتجديد عملية الفتوح، ولا نستبعد أن يكون السمح قد بعث إلى الخليفة الجديد ببيعة أهل الأندلس، واستأذنه في استئناف الفتح في بلاد الغال، فأذن له، وكانت حملته الشهيرة التي استشهد على أثرها.

وعليه فمن المرجح أن يكون السمح قد قضى على حركة أخيلا بن غيطشة في طركونة[١]، وهو في طريقه إلى بلاد الغال، إبان خلافة يزيد بن عبدالملك، ويغلب أن يكون السمح قد قضى عليها بمن سار معه من قرطبة، وقبل الوصول إلى برشلونة، التي اتخذها قاعدة تجمع، اجتمع له فيها الجيش الإسلامي من نواحي الأندلس الأخرى، إذ أن طركونة تقع في طريق برشلونة للقادم من قرطبة.

وبعد هذه المناقشة لتحديد بداية الحملة التي قام بها السمح بن مالك لفتح بلاد الغال، نقوم بعرض لأهم أحداثها وما حققته من فتح ونتائج، ولعل في ذلك تفسيرًا أوضح لما ذهبنا إليه.

حملة السمح بن مالك على بلاد الغال:

مهد السمح بن مالك لغزوه ما وراء البرتات، بتوجيه البعوث والسرايا إلى بلاد الغال، خلال انشغاله بالتنظيمات التي قام بها في الأندلس[٢]. ويبدو أنه أراد بذلك تعيين معرفة أحوال تلك البلاد وقوة أهلها، إلى جانب إحياء روح الجهاد في نفوس الجند وجعلها ميدانًا لتدريبهم وإكسابهم الخبرة.

لقد كان السمح رجلاً قوي الإيمان جم النشاط، من خيار أهل زمانه ثقة وعدالة، توفرت فيه الحكمة والخبرة والعقل فاجتمع عليه الناس ورضوا به، مما ساعده على

---

(١) من أجل قضائه على حركة أخيلا في طركونة، (انظر ما كتبناه عن تلك الحركة قبل: الفصل الثاني، المبحث الخامس).

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٣٥.

القبض على زمام الأمور المالية والإدارية والعسكرية في ولايته[1].

وكانت ولايته تجديدًا للغزو واستئنافًا للفتح فيما وراء البرتات، فإنه ما كاد يخلص من مهمة التنظيم والإصلاح، حتى هب لتوطيد سلطان الخلافة في الولايات الشمالية[2]، وحرب الأعداء فيما وراء البرتات[3].

لقد اتخذ السمح بن مالك من مدينة برشلونة[4] قاعدة لتجمع الجيش الإسلامي، المتوجه لفتح بلاد الغال، وكان اختياره لها قاعدة لأعماله الحربية موفقًا، وذلك لموقعها البحري وصلاحية مينائها لرسو السفن، مما يسهل إرسال الإمدادات العسكرية منها عن طريق البحر إلى الساحل الجنوبي لبلاد الغال، وبالأخص مدينة أربونة التي ستكون بعد فتحها قاعدة إسلامية متقدمة فيما وراء البرتات، كما أن قربها من ممرات جبال البرتات، وخاصة ممر «باربينيان» الموصل بين برشلونة وأربونة، والذي سارت منه جيوش الإسلام الفاتحة إلى بلاد الغال، يدل على حسن اختياره وبعد نظره[5].

وفي أوائل خلافة يزيد بن عبدالملك زحف السمح بن مالك من برشلونة، في جيش كبير ضم جماعة من وجوه أهل الأندلس، قادة وزعماء، مخترقًا جبال البرتات من الشرق ناحية روسيون وعبر ممر باربينيان، حتى أشرف على سبتمانيا[6] من بلاد

---

(١) المراكشي: المعجب، ص٢٤ - حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٢٤٦ - ٢٤٧ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، ص٧٤ - خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس، ص٢٠٩.

(٢) محمد عنان: نفس المرجع، ص٧٥ - ٧٦. (وانظر جهوده في إخماد الحركات التمردية في الشمال، قبل: الفصل الثاني، المبحث الرابع، والمبحث الخامس.

(٣) حسين مؤنس: نفس المرجع والصفحة.

(٤) برشلونة: قال ياقوت «برشلونة» بلدة بالأندلس من أقاليم لبله (انظر: معجم البلدان، ١/٣٨٤). وهي مدينة على الساحل الشرقي للأندلس في الشمال منه بالقرب من جبال البرتات.

(٥) خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص١٢٥.

(٦) سبتمانيا: أقرب ولايات غالة ناحية الأندلس، وتشتمل على سبعة مدن هي: أربونة، ونيمه، وآجد، وبيزييه ولوديف، وقرقشونة، وماجلون، وأربونة عاصمتها، وقد كانت تابعة للقوط الغربيين. (السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٣٧).

الغال[1] وظل يتقدم بجيشه حتى وصل إلى مدينة أربونة، ففـرض عليهـا الحصـار[2]، وتمكن من فتحها بعد ثمانية وعشرين يومًا[3]. ويبدو أن الاستيلاء عليها كان عنـوه، إذ يقول شكيب أرسلان: فقتل - يعني السمح - رجالها وسبى نساءها وأطفالها[4].

ونظرًا لأهميتها المتمثلة في استراتيجية موقعها الجغرافي ومعاقبتها للبحـر، ممـا يسهل وصول الإمدادات إليها بحرًا من موانئ الأندلس الشـرقية، إلـى جانـب منعتهـا الطبيعية من جهة البر وقربها من الديار الإسلامية في الأندلس، اتخذها السمح بن مالك قاعدة (مسلحة) للمسلمين في بلاد الغال، فحصنها وشحنها بالميرة[5]، كما وضع حاميات إسلامية في المدن المجاورة لها، بعد فتحها[6]. وتمشيًا مع عادة المسـلمين فـي بنـاء الأبراج و الحصون على قمم الجبال، لاستخدامها في المراقبـة والإنـذار، حيـث كـان المسلمين توقد بها النيران ليلاً، إعلامًا بهجوم الأعداء، ووقوع الحرب، مما يترتب عليه جمع القوى وتوجيه الإمدادات، قام السمح بن مالك ببناء بعض الحصون والأبراج علـى الساحل الجنوبي لبلاد الغال[7].

---

(1) أرخ محمد عنان لزحف السمح على سبتمانيا ب (أواخر سنة ٧١٩م / أي أوائل سنة ١٠١هـ). انظر: دولة الإسلام، ص٧٥ - ٧٦. وعن التأريخ لبداية هذه الحملة. (انظر: قبل، ص٢٩٤).

(2) عن مسير السمح بجيشه حتى وصوله أربونة، (انظر: محمد عنان: دولة الإسلام، ص٧٥ - ٧٦ - خليل السامرائي، الثغر الأعلى، ص ١٢٥ - شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص٨٥ - محمـد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٩٧ - ١٩٨).

(3) لم نستطع الوصول إلى تأريخ محدد لخروج الحملة، أو وصولها أربونة. ولكننا رجحنا حدوث ذلك أوائل خلافة يزيد بن عبدالملك. (انظر مناقشتنا لذلك قبل: ص ٢٩١ - ٢٩٤).

(4) نفس المرجع، ص٨٥ - ٨٨.

(5) دلل شكيب أرسلان على منعة اربونة الإسلامية، بصمودها بعد فتحها وصيرورتها ثغرا إسـلاميا، أمام حصار شارل مارتل (سنة ٧٣٢م / ١١٣ - ١١٤هـ)، وحصار ببين القصير (سـنة ٧٥٢/ ١٣٤ - ١٣٥هـ). حتى تمكن شارلمان منها (سنة ٧٥٩هـ / ١٤١ - ١٤٢هـ) بعـد أن ثـار أهلها على الحامية الإسلامية لطول الحصار الذي استمر سبع سنوات. (انظر: غـزوات العـرب، ص٨٨). وفي ذلك إشارة على ما صنعه المسلمون فيها من تحصينات وترتيبات عسكرية.

(6) شكيب أرسلان: نفس المرجع، ص٨٥ - ٨٨.

(7) شكيب أرسلان: نفس المرجع، ص٢٩٧ - ٢٩٨.

وهكذا أصبحت برشلونة قاعدة جنوبية داخلية لتجمع القوات الإسلامية الآتية من سائر الأقاليم الأندلسية، ومنها تسير إلى القاعدة الشمالية أربونة، والتي أضحت بعد فتحها وتحصينها أقصى ثغور الإسلام، والقاعدة الإسلامية المتقدمة التي تخرج منها جيوش الإسلام الفاتحة، إلى أقاليم بلاد الغال المختلفة[١].

وبعد أن حصن السمح أربونة وشحنها، خرج بجنده فاتحًا لمدن وحصون إقليم سبتمانيا التابع للقوط الغربيين، فاستولى على قرقشونة[٢]. وما صادفه غيرها من مدن ذلك الإقليم وحصونه، مثل بيزي وماجلون[٣]، وقد عرفت الأخيرة باسم «ثغر المسلمين»[٤]. فيبدو أن المسلمين اتخذوها قاعدة فحصنوها وجعلوا بها قوة عسكرية، وقد تمكن السمح أثناء اجتياحه لجنوب بلاد الغال، من التغلب على كل القوى التي قاومته وتصدت لزحفه حتى أتم فتح جميع نواحي سبتمانيا[٥].

وقد أرخ محمد عنان[٦] لفتوح السمح في سبتمانية ب (سنة ١٠١هـ / ٧٢٠م). ويشير حسين مؤنس[٧] إلى قيام السمح بالزحف على إقليم بروفانس[١]. وإيغاله شرق

---

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٢٩٣ - ٢٩٤ - خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص١٢٥ - ١٢٦.

(٢) قرقشونة: مدينة في غاله على نهر الأود. (شكيب أرسلان غزوات العرب، ص٢٨ - ٢٩). ويقول ياقوت: أنها مدينة غزاها موسى بن نصير، حين افتتح الأندلس، وفيها الكنيسة العظيمة عندهم المسماة «شنت مارية». (انظر: معجم البلدان، ٤/٣٢٨).

(٣) بيزي وماجلون: من المدن السبتمانية، (انظر ذلك قبل: هامش ص٢٩٥).

(٤) يجعل بعض المؤرخين كإبراهيم علي طرخان فتح السمح لهذه المدن وهو في طريقه إلى طولوشة، وهذا يتنافى مع منطق الأحداث، إذ سنرى السمح ينظم أمور سبتمانية الإدارية والمالية ويجعل لها حكومة مقرها أربونة، قبل توجهه إلى طولوشة عاصمة اكيتانية، مما يعن أنه فتح سبتمانيا أولاً فنظم أمورها، ثم اتجه إلى اكيتانية. انظر: المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦م، ص١٠٢ - ١٠٣.

(٥) عن فتوح السمح في سبتمانية، (انظر: محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام، ص٧٥ - ٧٦ - حسين مؤنس: نفس المرجع، ص٢٤٦ - ٢٤٧، ٢٩٣ - ٢٩٤ - محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٩٧ - ١٩٨).

(٦) نفس المرجع والصفحات.

(٧) نفس المرجع، ص٢٩٣ - ٢٩٤ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ١/٣٢٠.

الردانة، بل ووصوله شمالاً إلى مدينة ليون عاصمة إقليم برغندية[٢].

ويبدو أن هذا الزحف على بروفنس وبرغنديا كان مجرد إغارات سريعة، هدفها التهديد، لئلا يفكر أهلها في الهجوم على المسلمين في سبتمانيا، أو التحالف مع أهل اكيتانية، والتي كان السمح يعتزم فتحها، وذلك إنا لم نجد أثرًا يدل على محاولة المسلمين تثبيت أقدامهم في هذين الإقليمين، سوى بعض الحصون الساحلية جنوب البروفانس، مما يدل على أن السمح استهدف من هذا الزحف تامين وجود المسلمين في سبتمانيا من الناحية الشرقية، بإقامة هذه الحصون وإرهاب من ورائها شرقًا وشمالاً.

ولاشك أن السمح قد فقد جزءًا من جنده إبان تلك الحروب كما ترك بعضًا منهم كحاميات إسلامية في المدن والحصول التي افتتحها، حفاظًا عليها وبقاء للسيادة الإسلامية فيها[٣]. ومن الواضح أن السمح بعد ذلك الجهد العسكري الكبير، قد عاد إلى أربونة لأخذ قسط من الراحة، وإعدادًا للجولة الثانية من فتوحه، كما كان عليه تنظيم أمر سبتمانية بعد أن أتم فتحه.

تنظيمات الفتح في سبتمانية:

عمل السمح بن مالك على تنظيم الأمور الإدارية والمالية لإقليم سبتمانية، فوزع الأراضي بين المسلمين وأهالي البلاد الأصليين[٤]، وفرض الجزية على النصارى، وترك لهم الحرية الدينية ، والاحتكام إلى شرائعهم. كما أقام بها حكومة إسلامية، تتولى

---

(١) بروفانس: إقليم يقع إلى الشمال الشرقي من سبتمانيا على وادي ردونه (نهر الرون)، وعاصمته مدينة «أبينيون». (السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٣٧).

(٢) برغندية: إقليم يقع غربي نهر الرون، وعاصمته مدينة لودون (ليون). (السيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع والصفحة).

(٣) محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٩٧ – ١٩٨.

(٤) تلك سياسة اتبعه الخليفة عمر بن عبدالعزيز في الأندلس، استهدفت تثبيت جذور المسلمين، وتعريب الأقاليم المفتوحة، وإيجاد مصالح للمسلمين فيه. (نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٢٩٠). ولا يتضح أن السمح الذي نفذها لعمر بن عبدالعزيز في الأندلس، عمل على تطبيقها في غالة في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك. (انظر: مناقشتنا لهذه السياسة في شيء من التوسع، بعد: الفصل الخامس، المبحث الثاني، ص ٤٤٥ وما بعدها).

شئونها وترعى مصالحها[1]. وهذه الإجراءات بينت بلاشك عزم المسلمين على البقاء، وأن فتوحهم لم تكن غارات خاطفة سرعان ما يعودون بعدها إلى الأندلس، بل فتح إسلامي منظم يستهدف فتح ديار الكفر وجعلها إسلامية، تعلو بها كلمة الله ويطبق بها شرعه. فالسمح أراد بذلك تثبيت أقدام الفاتحين في البلاد التي استولوا عليها، وإضفاء الصبغة الإسلامية عليها، إلى جانب اتخاذها قاعدة عسكرية ومرتكزًا يلجأ إليه بعد الله وقت الحاجة، مما يبين حنكة السمح وخبرته.

غزو السمح إقليم اكيتانية:

ما أن فرغ السمح بن مالك من فتح إقليم سبتمانية وتنظيم أموره، حتى اتجه بجيشه غربًا نحو مجرى نهر الجارون قاصدًا إقليم اكتيانية (أكوتين)، وبالذات عاصمتها مدينة طولوشة[2]. واتجاه السمح هذا يعني أن غزوة موجه إلى مملكة الفرنج، وإن كان الدوق «اودو»[3] أمير اكيتانية قد استقل بها عند ضعف الملوك الميروفنجيين[4]. وفي

---

(1) محمد عنان: دولة الإسلام، ص٨١ - عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص١٨٧.

(2) طولوشة: (وتنطق تولوشة، طونوزه، تولوز) أخذت شكلها كمدينة في عهد الرومان، ثم صارت قاعدة مملكة التكتوارجيين ومركز علم وصناعة، وبعد سقوط سلطنة روما صارت عاصمة لملوك القوط في القرن الخامس الميلادي، ثم أصبحت مركزًا لدوقية اكيتانية في القرن السابع والثامن، ثم صارت كونتية مستقلة، ولم تنضم إلى مملكة فرنسا إلا سنة ١٢٧١م. وقد كان غزو السمح لها لمضي أحد عشر سنة على دخول العرب الأندلس. (شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص٢٧ - ٢٨ - ٩٥).

لكن عبدالرحمن الحجي، يجعل عاصمة اكيتانية مدينة برنيل (بوردو). (انظر: التاريخ الأندلسي، ص٢٠٤ - ٢٠٥). إلا أن شكيب أرسلان يخالفه في ذلك، فيقول: أن مدينة بوردو التي يسميها العرب «بورديل» وهي مدينة غرب فرنسه، هي قاعدة مقاطعة «الجيروند» التي كان العرب يقولون لها «جيونده». (انظر: نفس المرجع، هامش ٣، ص١١٧ - ١١٨).

(3) أن «أودو» دوق اكيتانية، وأحد أفراد الأسرة الميروفنجية، أقوى أمراء الفرنج في غاليا وأشدهم بأسا، استقل باكيتانية أثناء الاضطراب الذي ساد مملكة الفرنج، وبسط حكمه على جميع بلاد الغال الجنوبية من اللوار إلى البرنات، والتف حوله الفرنج والبشكنس (النافاريون) وأخذ يعد نفسه لانتزاع ملك أسرته من شارل مارتل، المتغلب عليه. لكن غزو المسلمين شغله عن مشروعه، وانصرف لردهم عن أملاكه. (محمد عنان: نفس المرجع، ص٨٠ - ٨١).

(4) خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس، ص٢١٤.

طريقه تصدي لزحفه سكان تلك الأنحاء من البشكنس والفسقونيين، ولقي منهم أشد المقاومة، لكنه تمكن من تمزيق جموعهم والانتصار عليهم، فقصد طولوشة، وفي طريقه إليها فتح مدية طرسكونة[1]. ثم استمر في زحفه حتى نزل طولوشة فضرب السمح عليها الحصار، وجد في قتال أهلها، مستخدمًا المنجنيق وسائر آلات الحصار، حتى أوشك أهلها على التسليم، لكن الأمير أودو هب لإنقاذ المدينة، ففك المسلمون عنها الحصار[2] و التفتوا لقتال أودو وجيشه[3].

معركة طولوشة:

روعت فتوحات السمح بن مالك في سبتمانيا، الأمير أودو دوق اكيتانية، الذي كان متجنبًا مجابهة المسلمين مادامت غاراتهم بعيدة عن إمارته، لكن الأمر بدا له مخيفًا، فالقائد المسلم لم تكن فتوحاته غارات خاطفة تستهدف تهديد العدو وإضعاف قوته، أو لأهداف مادية، بل أن أودو وجد نفسه أمام قائد يوطد للمسلمين ما فتحه، وينظم ما استولى عليه. ويحمي مكتسباته بما يكفل ديمومة السلطان الإسلامي فيها، ويهيؤها لتكون مرتكزًا يلوذون به عند الحاجة، وقاعدة ينطلقون منها إلى ما وراءها. بل أن السمح اتبع سياسة توطين المسلمين في البلاد التي تم فتحها. فقد جاز بجنده جبال البرنات وقد احتملوا معهم نساءهم وأولادهم، مما يؤكد عزمهم على الاستقرار وضم تلك البلاد إلى دولة الإسلام[4].

---

(1) طرسكونة: لم أعثر لها على تعريف. ومن قول حسين مؤنس: يتضح أنها على مقربة من طولوشة، عند مصب نهر الرون. (انظر: فجر الأندلس، هامش ص٢٤٧).

(2) ينفرد أحمد العبادي بالقول: أن المسلمين فتحو مدينة طولوشة، ثم توغلوا بقيادة السمح في إقليم اكيتانية. (انظر: تاريخ المغرب والاندلس، ص٨٧).

(3) من أجل زحف السمح على اكيتانية، وفتحه طرسكونة، وحصاره طولوشة. (انظر/ حسين مؤنس: نفس المرجع، ص٢٤٧ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، ص٧٥ - ٧٦، ٨١ - شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص٩٥ - ٩٦ - إبراهيم طرخان: المسلمون في أوروبا، ص١٠٣ - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٣٧ - ١٣٨ - خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص١٢٧ - محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٩٨ - ١٩٩).

(4) شكيب أرسلان: نفس المرجع، ص٨٥.

وهذا ما ولد الخشية في نفس أودو الذي أظنه كان على يقين بأن السمح سيسعى لتأمين سبتمانيا، بعد أن نظم شئونها، وأقام بها حكومة إسلامية، باعتبارها قد أصبحت جزءًا من الممالك الإسلامية، وهذا ما يستلزم تأمينه، وذلك عن طريق التوسع فيما حوله. والمسلمون كما يقول هاشم الجاسم: اهتموا منذ اللحظة الأولى بتأمين ممتلكاتهم، وقد سعوا من أجل ذلك على قاعدة عامة تتمثل في أن كل توسع إسلامي يستدعي تأمينه فتحًا وتوسعًا جديدًا[1].

ونحن تأييدًا لرأيه نقول: إن كان موسى بن نصير قد جاز جبال البرتات على أمل فتح أوروبا من ناحية الغرب، والوصول إلى القسطنطينية وفتحها من ناحية البر الأوروبي[2]، فإن السمح بن مالك قد خرج إلى بلاد الغال فاتحًا ليعلي كلمة الله، وينشر دينه ما استطاع، وليؤمن فتوحات المسلمين في الأندلس[3]، بالتوسع فيما وراءها، وهذا ما دفع الأمير أودو إلى حشد الجند وتجهيز الجيش، تحسبًا لهجوم المسلمين المرتقب، واستعدادًا لصدهم عن ممتلكاته.

إلا أن الهجوم الإسلامي كان أسرع فيما يبدو مما توقع أودو، فما انتبه إلا وجند الإسلام يطوق طولوشة (طولوزه) بحصار محكم جاد. وعاصمة إمارته تئن من وقع ضربات المسلمين وصدق قتالهم، حتى كاد أهلها أن يسلموها. فهب لإنقاذ عاصمته، وسار بجيشه[4] حتى اقترب من طولوشة والمسلمون محاصرين لها، فلما علموا بمقدمه اضطروا لفك الحصار عن المدينة والتفتوا إليه. وكان جيشه من الكثرة ما جعل مؤرخو العرب يقولون: «أن العثير المتطاير من زحف أقدامهم كان يغطي عين الشمس من

---

(1) دراسات تاريخية عسكرية، ص٦٦. (وقد عنى باللحظة الأولى، فتوح المسلمين في الشام وما استلزمه الحفاظ على سيادة المسلمين فيها من فتح لمصر وإقليم الجزيرة).

(2) انظر ذلك قبل: ص١٥.

(3) إن لم يكتب النجاح لحملة السمح في اجتياح غالة، فإنه قد وفق في كسب ثغر إسلامي متقدم فيما وراء البرتات ألا وهي مدينة أربونة، وبعض حصون سبتمانية الجنوبية. التي غدت قاعدة انطلاق للفتوحات اللاحقة، ودرءًا للمسلمين في الأندلس في حالة الدفاع.

(4) لم تشر المصادر أين كان أودو عن عاصمته، ومن أين قدم على المسلمين بجيشه. والمتوقع أنه خرج يستنهض الناس لحرب المسلمين وصدهم عن بلاده، وقد يكون اتخذ منطقة لتجمع الجند، أو عسكر في موقع ظن أن المسلمين سيأتونه، ففوجئ بهم وقد حاصروا عاصمته، فاتجه إليهم.

كثرتهم»[١]. وقيل: أن عدده كان عشرة أضعاف عدد الجيش الاسلامي[٢]. ومع ذلك فإن المراجع لم تزودنا بعدد محدد لكلا الجيشين. فالتقى الجيشان بالقرب من طولوشة[٣] وقد أعد السمح جنده معنويًا وبث فيهم روح الجهاد الصادق، وقرأ عليهم بعض آيات النصر، ونشب القتال في معركة عنيفة غير متكافئة، صدق فيها المسلمون القتال، وبلغت من الهول ما لا يتصوره العقل، حتى خيل عند تلاقي الجمعين، أن الجبال تلاطمت. وظل القتال سجالاً بين الفريقين، وقد أبدى المسلمون فيه ضروب الشجاعة، وهم يقتدون بقائدهم، الذي كان يشد هم بقوله وفعله، ويجدونه في كل مكان يحمل على الأعداء فلا يقف في وجهه شيء. غير أن القائد المسلم أصيب برمح في رقبته خر على أثره صريعًا، ومات شهيدًا. فلما رأى المسلمون ما أصاب أميرهم، فت ذلك في أعضادهم وأثر في نفوسهم، فاختل نظام الجيش، وحينها ولوا عليهم أحد كبار الجند وهو عبدالرحمن الغافقي[٤] الذي تمكن من الانسحاب ببقية الجيش في مهارة حرمت الفرنج من تعقب المسلمين، وإصابتهم في حالة التقهقر، حتى وصل أربونة. وكان حدوث هذه المعركة واستشهاد السمح بن مالك الخولاني في (٩ ذي الحجة سنة ١٠٢هـ / ١٠ يونية سنة ٧٢١م)[٥]. كما استشهد فيها عدد كبير من المسلمين، حتى قيل مبالغة: أنهم

---

(١) شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص٩٥ – ٩٦.

(٢) محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٩٨ – ١٩٩.

(٣) يشير حسين مؤنس أن بعض المراجع تذكر أن حدوث هذه المعركة كان عند طرسونة. وقال: أن الأصح أن يقال أنها عند طرسكونة على مقربة من طولوشة عند مصب الرون (انظر: فجر الأندلس، ص٢٤٧). والصحيح أن طرسونة مدينة بالأندلس، من أعمال تطيلة. (ياقوت: معجم، ٤م٢٩). وهذا يسند قول حسين مؤنس ويقويه.

(٤) انظر ترجمته قبل: الفصل الثاني، المبحث الرابع، ص ١٨٤.

(٥) يشذ عن هذا التاريخ المجمع عليه في جل المصادر الإسلامية والأجنبية، الضبي في كتابه: بغية الملتمس، ص٣٠٣، والذهبي: تاريخ الإسلام، ٨٧/٤ وكوندي المشار إلى قوله في كتاب محمد عنان: دولة الإسلام، ص٨١. حيث أرخ هؤلاء لها ب (سنة ١٠٣هـ). كما خالفهم المقري، نفح الطيب، ١٤/٤ في اسم المعركة التي استشهد بها السمح بن مالك، فقال: قتل في وقعة البلاط (يعني بلاط الشهداء). وهذا لبس منه بين استشهاد السمح وعبد الرحمن الغافقي الذي استشهد في بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ، (انظر عن استشهاد الغافقي في بلاط الشهداء/ أحمد العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، ص٨٨). وهذا ما دفع حسين مؤنس إلى اتهام المقري بعدم الدقة –

قتلوا عن أخرهم[1].

ومن الواضح أن عبدالرحمن الغافقي، أبقى جزءًا من جيشه في أربونة يحرس فتوح المسلمين في سبتمانيا ويبقى على سيادة المسلمين هناك، ثم انصرف عائدًا إلى قرطبة بما تبقى معه من الجند، وظل يدير شئون المسلمين في الأندلس حتى قدوم الوالي الجديد عنبسة بن سحيم الكلبي[2]. وقد استطاع إبان هذه الفترة الوجيزة، أن يستبقى الجزية على أربونة وغيرها من قواعد سبتمانيا، وأن يخمد بوادر الخروج التي ظهرت في الولايات الجبلية الشمالية[3]. ويبدو أن خسارة المسلمين أمام أودو وجيشه، واستشهاد قائدهم السمح بن مالك الخولاني قد أطمع أهل المناطق التي تم فتحها في المسلمين، وحاولوا التمرد على سلطانهم، والخروج على طاعتهم. إذ يقول شكيب أرسلان[4]: أنه لما شاع خبر انكسار المسلمين في الوقعة التي حدثت بينهم وبين أودو دوق اكيتانية بالقرب من طولوشة، هب أهل اللانغدوق والبيرانة لخلع طاعة المسلمين،

= (انظر فجر الأندلس، ص٢٧٢)، كما أرخ لها كل من شكيب أرسلان غزوات العرب، ٢٩٦ - وسيد أمير على: مختصر تاريخ العرب، ص١٣١ - ١٣٢ - ب (شهر مايو / أيار سنة ٧٢١م / أي ذو القعدة سنة ١٠٢هـ) والأصح ما قدمناه في المتن. فشبه الإجماع بالنسبة للمصادر الإسلامية على ٩ ذي الحجة سنة ١٠٢هـ. وهذا يقابل ١٠ يونيه سنة ٧٢١م. (انظر للتأكد من هذه المقابلة: اللواء محمد باشا: التوفيقات الإلهامية، دراسة وتحقيق وتكملة محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ١/١٣٤).

(١) عن معركة طولوشة. (انظر: حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٤٦ - ٢٤٧، ١٤٠، ٢٧٢ - شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص٩٥ - ٩٦ - محمد عنان: دولة الإسلام، ص٨١ - محمد زيتون - المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٩٨ - ١٩٩ - خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص١٢٥، ١٢٧ - ١٢٨ - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٣٧ - ١٣٨ - سيد أمير علي: نفس المرجع، ص١٣١ - ١٣٢ - حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ١/٣٢٠.

(٢) عن عودة عبدالرحمن الغافقي إلى الأندلس بعد تراجعه إلى أربونة، (انظر: شكيب أرسلان: نفس المرجع والصفحة، حسين مؤنس: نفس المرجع، ص٢٤٧ - محمد زيتون: نفس المرجع، ص١٩٩).

(٣) محمد عنان: نفس المرجع، ص٨١ - ٨٢.

(٤) نفس المرجع، ص٩٦.

إلا أن المسلمين كانوا متمكنين في أربونة، وجاءت نجدات من الأندلس، فشنوا الغارات على أهل تلك البلاد، وأعادوهم إلى الطاعة.

وعليه نرجح أن يكون عبدالرحمن الغفقي قد باشر بعد تراجعه إلى أربونة، أمر تثبيت أقدام المسلمين فيها وإخماد هذا التمرد، ثم انصرف إلى الأندلس. ومن البديهي أنه قد استعمل على أربونة نائبًا عنه، ومن الأندلس قام بإرسال مدد للمرابطين في ثغر أربونة يتقوون به على عدوهم فتولى عامله فيها استكمال فرض السيادة الإسلامية على إقليم سبتمانية، وإعادة من تمرد إلى الطاعة.

وبوقفة نتقصى فيها أسباب خسارة المسلمين في طولوشة والتي كانت أول خسارة يتعرض لها السمح وجنده في بلاد الغال نجد أن السبب المباشر منها هو تفوق جيش العدو عددًا واستعدادًا، ومقتل قائد المسلمين في أرض المعركة، وهو أمر عظيم الأثر في نفوس المحاربين الأوائل، وغالبًا ما أدى إلى هزيمة الجيش الذي يسقط قائده في ساحة القتال[1].

وإن كان حسين مؤنس اعتمادًا على رواية أجنبية، يشير إلى علاقة مصاهرة وتحالف تمت بين مونوسه[2] وبين أودو دوق اكيتانية، فعمل على إيذاء العرب. وهذا ما

---

(1) من أمثلة ذلك في تاريخ الإسلام، خسارة المسلمين في موقعة مؤتة أمام الروم وحلفائهم من العرب (سنة ٨هـ) عندما استشهد قادة المسلمين الذين حددهم رسول الله ﷺ وهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة. فعاد بالجيش خالد بن الوليد إلى المدينة، وكذلك خسارة المسلمين في معركة (الجسر) سنة ١٣هـ، وكانت ضد الفرس. عندما استشهد قائدهم أبو عبيد الثقفي ومن أوصى به من القادة بعده وكانوا سبعة، فتراجع المثنى بن حارثة ببقية الجيش إلى الحيرة. (انظر عن ذلك: ابن الأثير: الكامل، ٢/١٥٨ – ١٦١، ٣٠١ – ٣٠٣).

(2) كان مونوسة على حد قوله: من الجنس البربري، وكان أميرًا من قبل أمير الأندلس على المنطقة الشمالية في الأندلس، وكان مركزه مدينة خيخون. (انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٣١٩، ٣٥١). لكن خليل السامرائي يشكك في هذه الرواية من الأصل، ويؤكد أن شخصية مونوسة منتحلة، وأنها من كيد الصليبية الغربية، التي تستهدف الطعن في الإسلام وتاريخه. معتمدًا في ذلك إلى خلو المصادر الإسلامية من هذا الخبر وبعض الدراسات الحديثة حول هذه التهمة. (انظر: الثغر الأعلى، ص١٠٧ – ١٠٨) – وكذلك عبدالرحمن الحجي: التاريخ الاندلسي، ص١٩٢ – ١٩٣.

جعل حسين مؤنس يظن أن يكون هذا التحالف أحد أسباب هزيمة المسلمين عن طولوشة[1].

ونحن لا نؤكد هذه الرواية، إذ لم نجد لها ذكرًا في المصادر الإسلامية، وعلى ذلك لا نستطيع موافقة حسين مؤنس في اتخاذ تلك العلاقة سببًا لخسارة المسلمين أمام أودو، لأن ذلك مجرد فرض ليس له قرينة تقوية، وقد اعتمد على رواية مطعون فيها. ونحن لا نستبعد أن يكون من الأسباب المباشرة التي أدت إلى خسارة المسلمين خروج أهل طولوشة بعد فك الحصار عنهم، ومشاركتهم في المعركة، فوقع المسلمون بين كماشتي جيش أودو من الأمام، وقوة المدينة من الخلف. ونؤيد حسين مؤنس فيما ذهب إليه، من أن اعتماد القادة في فتوحاتهم فيما رواء البرتات على البربر، كان من عوامل الضعف في الجيش الإسلامي. إذ لم يشترك من العرب إلا أعداد قليلة، حيث أن من عبر منهم إلى الأندلس، كان بالكاد يكفي لفرض السيادة على الأندلس، بعد استقرار العرب فيه، فكان غيابهم عن الفتوح في بلاد الغال وهم مادة الإسلام وأهل الخبرة، من أهم الأسباب التي أدت إلى فشل الحملات الإسلامية هناك. كما أن بعد المسلمين في الأندلس عن مركز الدولة، حرمهم من توجيه الحكومة وإمداداتها. كما ينفي حسين مؤنس إرجاع ذلك إلى الجشع في الغنائم، أو قوة الدولة الفرنجية[2].

٢) فتوحات عنبسة بن سحيم الكلبي من في بلاد الغال:

استمر عبدالرحمن الغافقي أميرًا للأندلس[3] بتقديم أهل الأندلس له منذ استشهاد أميرهم السمح بن مالك الخولاني تاسع ذي الحجة (سنة ١٠٢هـ)، حتى قدوم عنبسة بن سحيم الكلبي أميرًا للأندلس، من قبل بشر بن صفوان عامل الخليفة يزيد بن

---

(١) فجر الأندلس، ص٢٥١ – ٢٥٣.

(٢) نفس المرجع، ص٢٩٦ – ٢٩٧، وانظر مناقشتنا لما اتهم به الفاتحين المسلمين في بلاد الغال والرد عليه، بعد ص٤١٩ – ٤٢٠.

(٣) انظر ما سنذكره عن ولاية عبدالرحمن الغافقي الأولى أثناء حديثنا عن سياسة الخليفة يزيد بن عبدالملك الإدارية في: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص ٤٠٨ – ٤٠٩.

عبدالملك على إفريقية والمغرب، وذلك في (صفر سنة ١٠٣هـ)[1].

ومن هنا يأتي دور القائد الأمير عنبسة بن سحيم الكلبي في متابعة عمليات الفتح الإسلامي فيما وراء البرتات، ليصل براية التوحيد إلى أقصى حد وصلته الفتوح الإسلامية في وادي نهر الرون حتى ذلك الحين، ألا وهي مدينة سانس[2].

إذ كان عنبسة من طراز السمح بن مالك، رجلاً تقيًا وإداريًا بارعيًا، وعسكريًا فذًا، كان حريصًا على الإسلام وأمينًا على دولته[3]. فكان خير خلف لخير سلف.

لقد شغل الأمير الجديد صدر ولايته بضبط الأمور في الأندلس، وإخماد الفتن فيها، ومن ذلك توجهه إلى المنطقة الشمالية في الأندلس للقضاء على حركة بلاي، وإخماد التمرد الذي قام به أخيلا بن غيطشة في مدينة طركونة[4] حتى استقام له امرها[5]، ثم أعد نفسه للجهاد وباشر الفتح فيما وراء البرتات بنفسه.

لكننا نواجه هنا نفس المشكلة التي واجهناها أثناء دراستنا لحملة السمح بن مالك، وهي بداية خروج عنبسة بن سحيم بحملته إلى ما وراء البرتات. فغير واضح متى بدأ جهاده في بلاد الغال، وكم استغرق من الوقت، وهل خرج للجهاد مرة واحدة، أم سبق حملته التي استشهد فيها غزوات أخرى، وهل قادها بنفسه أم ولاها غيره من القادة، أو كانت بواسطة القوات الإسلامية المرابطة في ثغر أربونة[6].

---

(١) عن ولاية عنبسة بن سحيم على الأندلس، (انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ٢٧/٢ – ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص٨٢. وكذلك ما سنكتبه عنها خلال حديثنا عن سياسة الخليفة يزيد الإدارية في: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص ٤٠٩ وما بعده.

(٢) سانس: قصبة مقاطعة فرنسية تسمى «يوند». (انظر: شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص١٠٦، هامش (١) منها).

(٣) عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص١٩٠.

(٤) من أجل خروجه للقضاء على حركتي بلاي، وأخيلا، (انظر ما كتبناه عن الحركتين قبل: الفصل الثاني، المبحث الرابع، المبحث الخامس).

(٥) المقري، نفح، ١٥/٤ – الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولديه جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ١٠٣/١.

(٦) عبدالرحمن لحجي: نفس المرجع والصفحة.

ونحن لا نفتقد التاريخ لتلك الحملة، ولكننا نجد الاختلاف على تاريخ خروجها، فمن المصادر والمراجع ما يؤرخ لقيامها بـ (سنة ١٠٥هـ)[١]، وأخرى تجعلها (سنة ١٠٧هـ)[٢]. وحيث أنا لم نجد تأريخًا لما قام به من أعمال داخلية خصوصًا جهوده في إخماد فتنتي بلاي وأخيلا، لنقدر على ضوئها أنسب تلك التواريخ المشار إليها لخروجه، فإنا مجبرين على تقدير ذلك بالنظر إلى نهاية الحملة واستشهاد قائدها عنبسة بن سحيم وما تم على أثرها من فتوح، آخذين في الاعتبار ما قام به من أعمال قبل خروجه، مستنيرين بما قدره السابقون لنا من المؤرخين.

فبالنظر إلى ما قام به عنبسة من أعمال داخلية، خصوصًا جهوده في إخماد حركتي بلاي وأخيلا، وتنظيماته المالية والإدارية[٣]. نجد أنها ولابد قد أخذت منه وقتًا ليس بالقصير. وأيضًا نجد أن فتوحه التي تمت في هذه الحملة وما قام به أثناءها من تحصينات وتنظيمات، كانت كفيلة باستغراق وقت ليس بالقليل. على هذا فنحن نرجح التأريخ الأول لخروج هذه الحملة وهو (سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٣ - ٧٢٤م). وهو ما أخذ به أكثر المؤرخين الذين تعرضوا لدراستها، كابن عذارى[٤]، الذي يعد من المصادر القديمة المعتمد عليها في تاريخ المغرب. ونحن بذلك نستبعد قول من أرخ لخروج

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢٧/٢ - محمد عنان: دولة الإسلام، ص٨٢ (وقد حدد خروجها في أواخر سنة ١٠٥هـ / أوائل سنة ٧٢٤م) - محمد زيتون: المسلمون في المغرب. ص١٩٩ - ٢٠٠ (نقلاً عن: شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب، ص٨٥) - خليل السامرائي: الثغر. ص١٢٨ (نقلاً عن رينو: غزوات، ص١١٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل، ١٩٧/٤ - حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٢٤٦ - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٣٨ - عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث). ص٣٠٣.

(٣) كان لعنبسة دور في تنظيم الخراج وقسمة الأرض والعثور فيبدو أن السمح قد دفعه حب الجهاد إلى الخروج بجملته قبل أن يتم ما بدأه من تنظيمات مالية وإدارية، فعمل على إتمام ذلك عنبسة بن سحيم، كما طاف بمختلف المقاطعات الاندلسية ينظر في المظالم وينشر العدل بين الناس. (انظر في هذا الصدد ما أورده؛ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع والصفحة - محمد زيتون: نفس المرجع والصفحات).

(٤) البيان. المغرب، ٢٧/٢.

عنبسة بحملته ب (سنة ١٠٧هـ) وإن كان التاريخ الأخير قد ورد عند ابن الأثير[١]. إذ أن استشهاد عنبسة في (شعبان سنة ١٠٧هـ) جعل من المشكوك فيه أن يكون قد خرج بحملته في ذلك العام. وقد قام بكل تلك الفتوحات فيما سبق شعبان من تلك السنة.

ونحن لا نعرف على وجه التحديد الشهر الذي خرجت فيه حملة عنبسة إلى بلاد الغال من (سنة ١٠٥هـ)، إلا أن محمد عنان[٢] يقول بخروجها في (أواخر سنة ١٠٥هـ / أوائل سنة ٧٢٤م). وهذا ما يجعلنا نرجح خروجها في أوائل خلافة هشام بن عبدالملك (شعبان سنة ١٠٥هـ / ربيع الثاني سنة ١٢٥هـ)، أن لم يكن في أواخر خلافة يزيد بن عبدالملك.

وعطفاً على ما وصلنا إليه، يكون الإعداد والتجهيز لهذه الحملة قد تم في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، وقد يكون خروجها قد تم في أواخر زمنه أيضًا. أما ما تم على يد عنبسة من فتوحات في بلاد الغال فإن ذلك قد حدث في خلافة هشام بن عبدالملك[٣].

ومن هنا سنعرض في شيء من الإيجاز لما تم على يد هذا القائد فيما وراء البرتات من فتوحات، كونها خارج النطاق الزمني لبحثنا، إلا أن من المهم ذكر ذلك لتوضيح بعض ما ذهبنا إليه، ولتمام الفائدة.

فتوحات عنبسة بن سحيم فيما وراء البرتات:

صرف عنبسة بن سحيم اهتمامه صدر ولايته إلى تنظيم أمر الأندلس، وإخماد الفتن. فلما تم له ذلك، واستقرت الأحوال في ولايته، وكان قد أعد نفسه وجهز جيشه، نهض للجهاد، والاستمرار في الفتح فيما وراء البرتات، سيرًا منه على خطى سلفه السمح بن مالك ومن سبقهما من الأمراء المجاهدين[٤].

---

(١) الكامل، ٤/١٩٧.

(٢) دولة الإسلام، ص٨٢.

(٣) ذهب لمثل هذا القول عماد خليل في بحثه: دراسة مقارنة، ص٣٠٣.

(٤) إلى مثل هذا القول ذهب حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٢٤٦ – خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص١٢٨ – السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٣٨.

وقد اتخذ عنبسة مدينة برشلونة قاعدة تجمع للجيش الإسلامي من مقاطعات الأندلس المختلفة، ثم توجه (سنة ١٠٥هـ) على رأس جيشه إلى بلاد الغال. مخترقًا جبال البرتات عبر ممر باربينيان، حتى وصل إلى أربونة، فاستقر فيها، وعمل على دعم خط الدفاع الأمامي لها[١]. ونحن هنا نلحظ أن عنبسة اتبع نفس الخطوات التي سار عليها سلفه السمح بن مالك، وسار في نفس الطريق، وذلك أمر طبيعي، باعتبار أن برشلونة بموقعها القريب من جبال البرتات ناحية ممر باربينيان، جعلها قاعدة حربية داخلية، يتجمع فيها الجيش الإسلامي من مدن الأندلس المختلفة، ثم يسير برًا أو ينقل بحرًا إلى أربونة، الثغر الإسلامي المتقدم وراء البرتات. والتي عمل السمح على تحصينها، وتحصين ما حولها من المدن السبتمانية، لتكن تلك الحصون خطًا دفاعيًا يصد عن أربونة ويحميها[٢].

وبعد أن عزز عنبسة تحصينات أربونة وقوى الخط الأمامي لها، ابتدأ سلسلة فتوحاته، بإعادة السيادة الإسلامية على سبتمانية، فيبدو أن المسلمين قد خسروا بعض فتوحاتهم بعد استشهاد السمح ولم يتمكنوا من استعادتها حتى وصلها عنبسة. ومن تلك المدن قرقشونة، لذا سارع عنبسة إلى فتحها؛ فاستولى عليها عنوة[٣]. لكنه بعد ذلك لم يسر في نفس الاتجاه الذي سلكه السمح، وهو التوغل شمالاً نحو إقليم اكيتانية. بل سار نحو الشرق مع ساحل البحر. وفي طريقه أعاد فتح مدينة نيم[٤]، دون مقاومة، وأخذ من أهلها رهائن أرسلهم إلى برشلونة[٥]. ويبدو أنه اتخذ هذه الخطوة مع أهل نيم ليضمن ولاءهم، وعدم انتقاضهم على المسلمين، وأن ذلك من شروط الصلح معهم. وبعد أن فتح إقليم سبتمانية، واصل زحفه شرقًا نحو إقليم بروفانس، حتى وصل إلى

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/٢٧ - المقري: نفح، ٤/١٥ - خليل السامرائي: نفس المرجع، ص١٢٨.

(٢) انظر ترتيبات السمح العسكرية في أربونة وما حولها قبل: ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) خليل السامرائي: نفس المرجع، ص١٢٨ - شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص٩٨. لكن المؤرخين من قال أن فتحها تم صلحا. (انظر: ابن الأثير: الكامل، ٤/١٩٧ خليل السامرائي: نفس المرجع والصفحة في رواية أخرى).

(٤) انظر تعريفنا لإقليم سبتمانيةومدنه قبل: ص ٢٩٥.

(٥) شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص ٩٨ - خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص ١٢٨.

نهر الرون، ففتح بروفانس، ثم اتجه شمالاً مع نهر الرون حتى وصل مدينة ليون، ففتحها، وتوغل في إقليم برغندية (برجانديا) فاستولى على مدينة ماسون وشالون ومنها وجه جيشه على قسمين، الأول سار إلى ديجون ولانكر، والآخر سار حتى بلغ مدينة أوتون[١]، في أعالي الرون[٢]. بل قيل أن: عنبسة بلغ مدينة سانس شمال أوتون[٣]، والتي تولى أسقفها الدفاع عنها، ساعده على ذلك وعورة المنطقة التي تحيط بها، فأدرك عنبسة أن طول البقاء أمام هذه المدينة قد يعرض جيشه للإبادة، إذا ما تهيأ للعدو فرصة الهجوم، فقرر العودة، وقد صدق ظنه، إذ هاجمه الأعداء خلال عودته فأصيب بجروح توفى على أثرها[٤]، وذلك في (شعبان سنة ١٠٧هـ / ديسمبر - يناير ٧٢٥ - ٧٢٦م)[٥]. ومن المؤرخين من يعزو عودة عنبسة إلى اضطراب الأحوال في الأندلس. وما من شك أن التمادي في الإيغال دون التوطيد لسلطان المسلمين، وتأمين ظهورهم، فيما تم فتحه من مدن، ساعد الأعداء على التجمع، وقطع الطريق على

---

(١) أوتون: مدينة على مسافة (١٠٦كم) إلى الشمال الغربي من ماسون. (انظر: شكيب أرسلان: نفس المرجع، ص١٠٤ وهامش (٥) فيها).

(٢) انظر عن فتوح عنبسة في بروفانس وبرجنديا حتى أوتون، (أحمد العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، ص٨٧ - خليل السامرائي: نفس المرجع، ص١٢٨ - ١٣٠ - إبراهيم بيضون: ملامح التيارات السياسية، ص٣٠٨ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ١/٣٢٠).

(٣) عبدالرحمن الحجي: التاريخ الاندلسي، ص١٩٠ - ١٩١ - شكيب أرسلان: نفس المرجع والصفحة - خليل السامرائي: نفس المرجع والصفحة.

(٤) ليس هناك مكان محدد لهذه الموقعة، التي استشهد فيها عنبسة، كما أن تاريخ استشهاده مختلف عليه. (انظر بعد: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص ٤١٣).

(٥) خليل السامرائي: نفس المرجع، ص١٢ - ١٣٠ (نقلاً عن/ علي المياح: العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوح في فرنسه (بحث)، ص١١٦) - ابن الأثير: الكامل، ٤/١٩٧ - ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/٢٧ أحمد العبادي: نفس المرجع، ص٨٧ - عبدالرحمن الحجي: نفس المرجع والصفحة - حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع والجزء والصفحة - إبراهيم بيضون: نفس المرجع والصفحة (لكن عزى نهايته الغامضة لأسباب لا ترتبط بحملته العسكرية، وإنما بظروف داخلية في قرطبة).

وهو بذلك يشير إلى أنه عاد إلى قرطبة وهذا يخالف إجماع جمهور المؤرخين باستشهاده في بلاد الغال.

المسلمين أثناء عودتهم، فخسروا بذلك جل ما فتح على أيديهم فولى المسلمين بعد استشهاد عنبسة عذرة بن عبدالله الفهري، الذي تراجع بهم إلى أربونة[1]. فجاءه المدد من الأندلس، وشن المسلمون غاراتهم من جديد في كل جهة، وبكل قوة، حتى أعادوا هيبتهم ولم يجدوا لهم مقاومًا[2]. إلا أن سلطان المسلمين فيما يبدو قد اقتصر على إقليم سبتمانيا وقاعدته مدينة أربونة.

ويرى بعض المؤرخين الغربيين أن فتوحات عنبسة، كانت فتوحات حذق ومهارة لا بطش وقوة[3]. والحقيقة أن المسلمين في فتوحاتهم لم يكونوا قط أهل بطش وقوة، إلا عندما يلقون من عدوهم المقاومة، أو نقض العهد. ولا يتعدى لجوؤهم إلى القوة، ما أباحه الشرع لهم، ممسكين عما لا يناسب مبادئ دينهم السامية وخلقهم الرفيع.

وهذا القول بالنسبة لفتوحات عنبسة، فيه إشارة إلى أن غالبية فتوحه تمت صلحًا. يؤكد ذلك قول خليل السامرائي «وسار عنبسة من نيم متبعًا مجرى نهر الرون حيث وجد الطريق أمامه خالية من أية مقاومة»[4]. وأنه استخدم الحنكة والحكمة في تحقيق أهدافه. قبل استخدام القوة العسكرية التي يقودها، ثم توقف الفتح الإسلامي في بلاد الغال ما يقارب الأربع سنوات[5] حتى تولى أمر الأندلس عبدالرحمن الغافقي، في ولايته الثانية (١١٢ - ١١٤هـ)، فكان على يديه تجديد الغزو ومواصلة الجهاد فيما وراء البرتات[6].

---

(١) إبراهيم طرخان: المسلمون في أوروبا، ص١٠٦ (نقلاً عن حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٢٤٧ - ٢٤٨).

(٢) عبدالرحمن الحجي: التاريخ الاندلسي، ص١٩١ - شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص٩٨ (أورد الاسم مفردًا ومحرفًا «حديرة») - إبراهيم طرخان: نفس المرجع، ص١٠٥ - ١٠٦.

(٣) الزركلي: الأعلام، ٩١/٥.

(٤) الثغر الأعلى، ص١٢٩.

(٥) عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص١٩١ - أحمد العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، ص٨٧ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ٣٢٠/١.

(٦) عن فتوحات عبدالرحمن الغافقي في بلاد الغال، (انظر أحمد السيد دراج: عبدالرحمن الغافقي، بحث، رسالة المسجد، العدد الرابع، سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص٨٠ - ٨٥ وغيرها من المصادر والمراجع الأندلسية).

٣) دراسة تحليلية لبعض النقاط الهامة في هاتين الحملتين:

ولاشك أن حملتي السمح وعنبسة من أهم الأعمال الحربية التي قامت في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، وخاصة، حملة السمح بن مالك التي تمت أحداثها في زمنه، وأوجدت للمسلمين ثغرًا إسلاميًا متقدمًا، وهو مدينة أربونة الذي ظل أكثر من نصف قرن رمزًا للوجود الإسلامي في أرض الفرنج، وقاعدة تنبعث منها جيوشهم الفاتحة فيما وراء البرتات. علاوة على ما حققته من فتوحات في تلك البلاد.

وليس لدينا نص يدل على إشراف الخليفة وتوجيهه لهذه الحملات، إلا أن ليس لدينا ما يثبت عكس ذلك. كما أن خروج عنبسة بحملته بعد استشهاد السمح وكثير من جيشه قرب طولوشة لا يمكن أن يتم دون أمر الخليفة أو عامله على افريقية والمغرب، بعد أن عادت الأندلس إلى التبعية الإدارية لإفريقية في عهد الخليفة عبدالملك[١]. ونحن لا نستبعد أن خروج عنبسة بحملته والإعداد لها جاء بتوجيه من الخليفة يزيد انتقامًا لمقتل السمح، وإحياء لهيبة الدولة، واستمرار في الفتح والجهاد في تلك البلاد. خصوصًا إذا عدنا بالذاكرة إلى ما حدث من الخليفة في المواقف المشابهة كتوجيه الجراح الحكمي على رأس جيش كبير إلى أرمينية، بعد الهزيمة التي تعرض لها أميرها من قبل الخزر. أو توجيه الحرشي لإعادة سلطان الدولة على ما وراء النهر، بعد أن فشلت محاولات أميرها السابق[٢].

وإذا ما تساءلنا عن العوامل التي وقفت في وجه نجاح الحملات الإسلامية في بلاد الغال، وفتح تلك البلاد، فلنا أن نضيف أن من الأسباب الرئيسية في فشل تلك الحملات، كون تلك الحملات خرجت بقيادة ولاة الأندلس ومعتمدة على إمكانيات الولاية وحدها، إلى جانب إتباعها أسلوب الهجوم السريع، وعدم تثبيت أقدام الفاتحين فيما استولوا عليه. فقد كان استشهاد القيادة في المعركة يؤدي إلى ارتداد الجند حتى نقطة البداية، وتوقف الفتح لسنوات. لأن تلك القيادة كانت تتمثل في شخص الأمير، فعندما يقتل، يتوقف الفتح حتى يأتي أمير جديد، رافعًا راية الجهاد، وقادرًا عليه. كما أن الاعتماد

---

(١) من أجل ذلك، انظر بعد: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص ٤٠٩.

(٢) من اجل ذلك، انظر قبل: المبحث الأول، ص ٢٤٤ وما بعدها.

على امكانيات ولاية الأندلس فحسب، جعل القوة الفاتحة محدودة القدرة مهما كبرت. فالفتح وراء البرتات كان يعني حرب عالم كبير، واسع المساحة، متعدد القوى، قوي الشأن. ولم يكن فتحه ممكنًا إلا بإشراف الدولة ودعمها وتوجيه القوى الكافية وعلى أكثر من محور حتى يشغل كل بما يواجه. فقد أدت قلة الجند بقيادة السمح إلى خسارته أمام جيوش أودو الجرارة، وساعد إيغال عنبسة فيما بعد، إلى قطع الطريق عليه، كما أدى تحالف شارل وأودو إلى كسر الجيش الذي قاده عبدالرحمن الغفقي بعد ذلك. أما أسلوب الهجوم السريع وعدم تأمين الفتح فقد وقع فيه أيضًا عنبسة ومن بعده عبدالرحمن الغافقي، فخسر المسلمون كل ما وصلوا إليه في حملتيهما. ولولا اهتمام السمح بن مالك بتحصين أربونة وبعض المدن والحصون في سبتمانيا، مدركًا ما كنا نقول، لما بقي للمسلمين موطئ قدم فميا وراء البرتات عند خسارتهم في كل مرة، وظلوا كما هم في حدود الأندلس.

والحق أن حملة السمح بن مالك، تمثل البداية الجدية لحركة الفتوح الإسلامية فيما وراء البرتات[1]، لا تسامها بالتنظيم والعمل على فتح ثابت لبلاد الغال، يهدف إلى نشر الإسلام وإدخال تلك البلاد في رحاب الدولة الإسلامية[2]. يؤكد ذلك ما أشرنا إليه[3] من أعمال السمح التنظيمية والعسكرية في إقليم سبتمانية، والتي استهدفت تثبيت أقدام الفاتحين في ذلك الإقليم وإعطاءه الصبغة الإسلامية وفرض سيادة المسلمين عليه، إلى جانب توطين جماعات من المسلمين في مدن سبتمانية كانوا قد خرجوا بأسرهم[4] كمرابطين في ذلك الثغر الجديد.

وهذا ما يدعو إلى القول أن فتوح المسلمين في بلاد الغال تعد من أمجد الجهود الإسلامية الحربية، بل أن تضحيات قادتها فاقت كثيرًا مما عداها، وعدت رجالاتها كالسمح وعنبسة والغافقي في طليعة قادة المسلمين العظام[5]. وهذا ما جعل ذكراها باقيا

---

(١) ابراهيم بيضون: ملامح التيارات السياسية، ص٣٠٧ – ٣٠٨.

(٢) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٢٩٧ – شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص٢٩٤.

(٣) انظر قبل: ص ٢٩٦ وما بعدها.

(٤) من أجل ذلك انظر قبل: ص ٢٩٨ – ٢٩٩.

(٥) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٢٩٧.

في الأذهان كأنه حديث عهد، لما فيها من المجد والعظمة. بينما تلاشى تذكار غزوات النورماندين وغيرهم ممن غزا تلك البلاد من الأذهان ولم يبق إلا في بطون التواريخ[١].

ومع ذلك فإن استجابة أهل غاليا للإسلام كانت محدودة[٢] ولعل مرد ذلك للنكسات السريعة التي تعرض لها الفاتحون وعدم البقاء بينهم مدة طويلة، حتى يتعرفوا على الإسلام ويلمسوا سموه وعظمة مبادئه، فقد اتصف دخول أهل المناطق التي يدين أهلها بدين سماوي في الإسلام بالبطء، لكننا نجدهم يدخلون فيه أفواجًا، عندما يعلمون حقيقته ويرون عدالة أهله[٣].

وكما عودنا مؤرخو الغرب، بالنيل من الإسلام وتشويه تاريخ المسلمين، نجدهم هنا يحاولون تهوين شأن جهود الفاتحين في غالة، قائلين أنها لم تسر وفق خطة مرسومة، وأنهم في البداية وجدوا مقاومة واهية[٤]. والحقيقة كما أسلفنا في الصفحات السابقة أن المسلمين خرجوا من أجل فتح منظم، ويكفينا للرد على ذلك ما أوجده السمح في سبتمانيا من تنظيمات وتحصينات لصبغها بالصبغة الإسلامية، واعتبارها ثغرًا إسلاميًا وراء البرتات. وإن كنا قد أشرنا إلى أن تلك الخطط العسكرية خصوصً فيما عدا حملة السمح لم تكن كافية، وتفتقد الإعداد الكافي والقوة الكاملة المدعمة بعون الدولة وإرشادها[٥].

أما المقاومة فلم تكن واهية، صحيح أن إقليم سبتمانيا اعتمد في الدفاع عن نفسه على قوته الذاتية لتبعيته للقوط الغربيين، الذين زال ملكهم في الأندلس أما بقية أقاليم بلاد الغال فقد أبدت من القوة وكان عندها من العدة ما يفوق المسلمين وكان كفيلاً بردهم، وهذا ما لمسناه في حملتي السمح وعنبسة. أو لم يخسر السمح عند طولوشة عندما واجهة جيش يضاعفه عشر مرات. والواقع أن ضعف الدولة الميروفنجية، كان

---

(١) شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص٣٠٢.

(٢) شكيب أرسلان: نفس المرجع، ص١٠٦ - ١٠٧.

(٣) مثال ذلك: تأخير قبط مصر في الدخول في الإسلام، وكذلك أهل الأندلس، وأهل أرمينية.

(٤) شكيب أرسلان: نفس المرجع، ص١٠٦ - ١٠٧.

(٥) انظر ذلك قبل: ص ٣١٢ - ٣١٣.

مناسبًا في حالة توفر الإمكانيات الإسلامية الكافية، إذ من المفيد استغلال انقسام بلاد الغال إلى أقاليم، بفتح كل إقليم على حدة وفي آن واحد، وذلك عن طريق توجيه عدد من الجيوش ضمن خطة شاملة. لاجتياح بلاد الغال وفتح أقاليمها، مما يفقد إمكانية تحالف قواها ومواجهة المسلمين سواء.

ويلاحظ الدارس تحالف أودو وشارل مارتل من أجل إيقاف الغافقي وصد جيشه، عندما عجزت قوة إقليم اكيتانية من الوقوف في وجهه.

ونسمع إتهامهم بالأغراض المادية على لسان فيليب حتى[1] الذي يقول: أن غزوات العرب في بلاد الغال كانت للاستيلاء على النفائس التي اشتهرت بها الأديرة والكنائس في تلك المنطقة. ونكتفي يقول شكيب أرسلان في الرد عليه إذ يقول: «ولما جاء المسلمين ودخلوا أرض فرنسه فاتحين لم يكن لهم مقصد سوى نشر دين الإسلام وإخضاع فرنسه وكل أوروبة لأحكام القرآن، ولكن فيما بعد ذلك دخل في تلك الغزوات مقاصد أخرى، كحب النهب أو الأخذ بالثأر، ومن هذا القبيل نزول العرب في أواخر القرن التاسع في أرض بروفنس»[2].

كما اتهموهم بتهديم بعض الأديرة في بلاد الغال، وإذا ما صح ذلك. فإن الرهبان قد اعتصموا مع بعض الناس في تلك الأديرة وقاوموا المسلمين منها، حتى فتحوها عنوة. فقاموا بهدمها حتى لا يتخذوها معاقل للمقاومة وحرب المسلمين. فلم يكن المسلمون ليهدموها لو سلموا دون مقاومة، وهذا ما يعترف به رينو عندما يقول: «وكان هؤلاء (يعني المسلمين) لا يسيئون معاملة الذين يدخلون في طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال[3]. وهذه الحقيقة هي ما يناسب موقف الإسلام والمسلمين من الأديان وأصحابها، المتمثل في إعطائهم الحرية الدينية، والإبقاء على دور عباداتهم.

والثابت عنهم كما يقول حسين مؤنس[4] أنهم لم يخربوا كنيسة أو يحرقوا ديرًا،

---

[1] تاريخ سورية، ٧٨/٢.

[2] غزوات العرب، ص٢٩٤.

[3] محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٩٨.

[4] فجر الأندلس، ص٢٥٨ - ٢٥٩، ٣٠٤.

وإذا ما قورنوا بالشعوب التي كانت تسود بلاد الغال في ذلك الحين، من فرنجة وقوط غربيين وشرقيين وبرغنديين لتبينا أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب، ومهما بحثنا في حوليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث في بلد الغال خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي (أي من ٨١هـ - ١٣٢هـ) رجالاً نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم أو عبدالرحمن الغافقي. الذين يعرفون عن المسيحية أكثر مما يعرفه أمراء الفرنج، كما أنهم رجال دولة ذات نظم وقوانين مقررة، في حين كانت نظم الدولة الفرنجية في طور التكوين، وكانت تعتمد على قوانين الجرمان الأولى، وهي شبيهة بقوانين العرب الجاهليين. فالحرب لم تكن بين الإسلام والنصرانية بقدر ما كانت صراعًا بين حضارة وجاهلية، وبين نظام وفوضى. وهي صراع بين الحق والباطل، والنور والظلام.

الفصل الخامس

السِّياسَة الإدارية والمالية للخليفة يزيد بن عَبدالملِكِ

المبحث الأول: سِيَاسة يزيد بن عبدالملك الإدارية.

- معالم سياسته العامة.
- رجال الحكومة في عاصمة الدولة دمشق.
- عماله في الحجاز.
- عماله على العراق والمشرق.
- عماله على أرمينية وأذربيجان والجزيرة الفراتية.
- عماله على مصر.
- عماله على المغرب.
- عماله على الأندلس.

المبحث الثاني: سيَاسة يزيد بن عبدالملك المالية.

- ما قيل عن سياسته المالية ومدى صحة ذلك.
- الجزية.
- الخراج ومسح السواد.
- الضرائب.
- العطاء.
- الإقطاع.
- تجويد العمْلة وضبط الموازين والمكاييل.
- السفاتج.

المبحث الأول

سّياسَة يزيد بن عبد الملك الإدارية

معالم سياسته العامة:

تولى يزيد بن عبدالملك أمر المسلمين بعد الخليفة عمر بن عبدالعزيز، فسار بسيرته برهة من الزمن، ثم ترك نهجه، واتخذ نهجًا آخر تابع فيه كثيرًا من سياسات أسلافه من بني أمية الإدارية والمالية. فلم يأت ببدعًا من الأمر، لكنه خالف عمر بن عبدالعزيز في بعض أعماله، وخاصة في المجال المالي[1].

لقد قدمنا بهذه المقولة عن سياسة الخليفة يزيد حتى لا يندفع دارس التاريخ مع بعض ما قيل عن يزيد من أنه أتى على إصلاحات عمر. فهدم كل ما بناه. وجر الدولة إلى هاوية الانهيار. ولوضوح الصورة لا بأس أن نعرض نماذج من أقوال بعض المؤرخين فيه، ثم نعرض لعموم سياسته داحضين بالحجة ما ورد في هذه المقولات من مغالاة.

يقول ابن الأثير: «عمد يزيد إلى كل ما صنعه عمر بن عبدالعزيز مما لم يوافق هواه فرده، ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثمًا عاجلاً»[2].ويقول اليعقوبي: «وعزل يزيد عمال عمر بن عبدالعزيز جميعًا»[3].

ومع أن عماد الدين خليل[4]، أدرك ما في مقولة ابن الأثير من المبالغة، وأراد أن يكون واقعيًا، فقال: سنجد أن يزيد لم يعمد إلى رد كل ما صنعه عمر. مما لم يوافق هواه، وإنما إلى بعضه فحسب. وبرر مقولة ابن الأثير وغيره ممن حذا حذوه. بأن قولهم جاء نتيجة خيبة الأمل التي أصيبوا بها من جراء ما آلت إليه التجربة الكبيرة

---

(١) عن مجمل سياسة عمر بن عبدالعزيز الإدارية والمالية، انظر قبل: التمهيد، ص٦٧ – ٦٩. وسنعرض لبعض تفاصيلها في ثنايا هذا الفصل وخصوصًا ما وافق يزيد عمر فيه، أو خالفه.

(٢) الكامل، ٤/١٦٦ – ووافقه ابن تغري بردي: النجوم، ١/٢٣٩.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ٢/٣١٠.

(٤) دراسة مقارنة (بحث)، ص٢٩٠.

التي نفذها عمر ابن عبدالعزيز من انتكاس. وواضح أن الذي قاد إلى الانتكاس حقًا، لم يكن هدم الخليفة يزيد لبعض جوانب سياسة عمر، بل فقدان الرؤية وضياع الاستراتيجية. والحقيقة أن في قوله بعض الحق، لكنه كغيره تابع قول اليعقوبي من أن يزيد عزل جميع عمال عمر[1]. وهذه المقولات اتخذها بعض المؤرخين دليلاً على عودة الدولة إلى سابق عهدها، وأن يزيد حاد عن طريق عمر وإصلاحاته. مستهدفًا بذلك أحكام قبضته على نواحي دولته وتنفيذ سياساته المتشددة[2].

ولكننا نجد بين الباحثين من أدرك ما في هذه المقولات من مبالغة، فعمل على إنصاف يزيد، يقول حسين عطوان[3] عن موقف يزيد من عمال عمر: «وأبقى يزيد عمال عمر بن عبدالعزيز في وظائفهم، وأمرهم أن يسيروا بسيرته، ولم يفصل أحد منهم في السنة الأولى من خلافته ولا في مطلع السنة الثانية منها» ثم يتابع قوله بما نتحفظ على بعضه فيقول: «حتى إذا ثار عليه يزيد بن المهلب بالبصرة وحبس واليها عدي بن ارطأة الفزاري، وقتله، وهدد الخلافة الأموية بعد انضمام القبائل اليمنية والربعية العراقية إليه، ومناداته بالرجوع إلى الكتاب والسنة، حينئذ سير يزيد بن عبدالملك إليه أخاه مسلمة بن عبدالملك، وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبدالملك، في جيش أهل الشام من قضاعة وكلب، وآزرتهما في النصرة القبائل المضرية من قيس وتميم، فقتلا يزيد بن المهلب بالعقر من أرض بابل، وتعقب جندهما وقادتهما فلول المهالبة بفارس وأبادوها، وكشف ثورة ابن المهلب عن خطر القبائل اليمنية العراقية على الخلافة الاموية، فأعاد يزيد بن عبدالملك النظر في سياسته الداخلية، وأحدث تغييرات شاملة في الوظائف الإدارية، فأقصى القبائل اليمنية وجفاها، واصطنع القبائل القيسية وانحاز إليها،

---

(1) عماد الدين خليل: دراسة مقارنة، ص٣٠٦ (وقد اعتبر هذا الإجراء خسارة كبرى منيت بها الإدارة الأموية).

(2) فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٢٥٧ – محمد كرد على: الإدارة الإسلامية في عز العرب، ص١١٤ – عبدالله الخطيب: الحكم الأموي في خراسان، ص١٢١ (ذكر أن سبب عزلهم، وعدم تعاونهم في تطبيق سياسته التي أراد من ورائها نسف كل المكاسب التي حصل عليها الموالي والضعفاء من الناس) – فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٥٨.

(3) سيرة الوليد، يزيد، ص١٦ – ١٧.

إذ عهد بولاية العراق إلى أخيه مسلمة، فعين على خراسان سعيد بن عبدالعزيز الأموي، ولم يلبث أن عزل أخاه مسلمة عن العراق وخراسان، لانكسار خراج العراق في أيامه وولى عليها عمر بن هبيرة، فصرف سعيد بن عبدالعزيز الأموي، عن خراسان وا ستعمل عليها سعيد بن عمرو الحرشي».

ثم يشير إلى تقدير الخليفة لدور يمنية الشام وولاتها فاحتفظ لها بمنزلة مرموقة، واختار منها كثير من موظفيه في دمشق، وعماله على الأمصار عدا المشرق[1]. كما ناقش بعض ما ورد حول سياسته المالية من نصوص[2].

ومع ما في قوله من الصحة، فإنه ليس دقيقًا، فقد عزل يزيد بعض عمال عمر منذ توليه، وقبل حدوث حركة ابن المهلب لكنه لم يعزل الجميع كما قال، فقد أبقى يزيد بعض عمال عمر وعزل آخرين، كما عاد فعين بعض من كان قد عمل في خلافة عمر، وسنبين ذلك عند مناقشتنا لهذه المقولات في الصفحات التالية، وذكرنا لعماله على الأقاليم ولاية وعزلاً.

ويهمنا في هذه الدراسة الوصول إلى حقيقة سياسته في ضوء هذه المقولات وما توفر لدينا من نصوص عن سياسته الإدارية وفي ضوء ذلك يتبين مدى صحة كل مقولة أو خطئها.

ولنبدأ بما أشارت إليه كثير من المصادر إلى عزم الخليفة يزيد التأسي بسلفه عمر، فسار على نهجه مدة من الزمن، لكن قرناء السوء والجهلاء لم يتركوه، فحسنوا له الظلم، حتى عدل عن نهج عمر[3].

والحقيقة أن يزيد لم يعدل إلى أمر لم يكن، بل عاد إلى نهج أسلافه من بني أمية قبل عمر، ويتضح هذا من خلال أوامره بالعودة إلى تطبيق بعض سياسات وإجراءات

---

(1) سيرة الوليد بن يزيد، ص١٨ - ١٩.

(2) انظر ذلك بعد: ص٤١٦ وما بعدها.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٢١٣/٤ - الذهبي: دول الإسلام ٥٥/١ - اليافعي: مرآة، ٢٥٣/١ - ابن كثير: البداية ط١، ٢٦٠/٩ - القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، طبعة بغداد، ص١٤٠ - وانظر ما أوردناه من أقوال المؤرخين في هذا الصدد، خلال دراستنا لسيرة يزيد بالفصل الأول.

أسلافه من بني أمية قبل عمر، وخصوصًا المالية منها[١]، ويؤيد ذلك ما نص عليه ابن قتيبة من عودة يزيد إلى سياسة أخيه الوليد بن عبدالملك ومنهجه[٢].

والصحيح أن يزيد راح ضحية قول ابن الأثير برده كل ما صنعه عمر، وما أورده اليعقوبي من عزله جميع عمال عمر، كما أن مجيئه عقب خلافة عمر جعله متواريًا في ضلالها لا يرى، وأن رؤى كان في صورة الخليفة اللاهي المنغمس في الملذات، قد شغله عشقه لجاريتيه حبابة وسلامة عن مباشرة أمور الدولة وشئون الحكم، وذلك كما صورته كثير من المصادر التي تناولت سيرته الذاتية، في شيء من المبالغة والتهويل[٣].

وبتفحص الروايات عن شخصية يزيد وسياسته، يتبين أن الاختلاف بين شخصيتي يزيد وسلفه عمر هو الذي كان وراء الاختلاف بين سياسة الرجلين، فقد غلب على عمر الوازع الديني، فاتسمت سياساته بالروح الإسلامية، مما دفعه إلى تطبيق السياسة الإسلامية على نظم الحكم، كما فاقه عمر من حيث القدرة والكفاءة الإدارية، والحضور الدائم، والإنصراف إلى العمل وتحمل المسئولية[٤].

والحق أن يزيد لم يدع الأمور تجري بلا ضابط أو لغيره، فلم يكن بالبعيد عن إدارة دفة الحكم، فسنجده وراء الكثير من الأحداث، يعالجها ويوجهها ويخطط لها. لكنه لم يعط كل جهده ووقته واهتمامه لشئون دولته كما كان يفعل سلفه عمر. ومع ذلك فقد حرص على بقاء دولته مهابة مصونة في الداخل والخارج، ونجح في ذلك بإخماد كل الحركات الداخلية التي حدثت في زمنه، وصد القوى الخارجية الطامعة في حدود دولته وإن كان قد اتخذ في سبيل تحقيق ذلك سياسات تخالف نهج سلفه عمر[٥].

---

(١) سيتضح ذلك من خلال حديثنا عن سياسة يزيد الإدارية والمالية في ثنايا هذا الفصل.

(٢) انظر قول ابن قتيبة بذلك قبل: الفصل الأول، ص ٤٦.

(٣) عما قيل حول سيرة يزيد الذاتية، وأثرها على تصوير شخصيته، وما توصلنا إليه حول ذلك، (انظر: الفصل الأول).

(٤) من اجل ذلك انظر ما كتبه عماد الدين خليل عن تميز شخصية عمر الإدارية في بحثه: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠٣ – ٣٠٤.

(٥) عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠٤.

وحقيقة سياسته أنه لم يحدث تغييرًا شاملاً منظمًا لسياسة سلفه عمر. وذلك لأنه أبقى على بعض ما صنعه عمر، وأعاد بعض ما كان عليه الحكم قبل عمر، واتخذ ما لم يفعله غيره. أي أن خروجه عن نهج عمر كان نسبيًا. وهذا ما ذهب إليه ابن تغري بردي[1]، الذي قال: «غير أنه لما ولي الخلافة بعد عمر ابن عبدالعزيز غير غالب ما كان قرره عمر». وقال: ثم عزل جماعة من العمال. فلم يقل غير كل ما قرره عمر أو عزل جميع عماله. ويبدو جليًا أن الخليفة يزيد لم يكن يملك الرؤية البعيدة، ولم يعمل وفق استراتيجية مرسومة[2]، كما يظهر أنه لم يحط بظروف دولته بعد حركة الفتوح الكبرى التي تمت في عهد أسلافه، وأهمية استيعاب الدولة للمتغيرات التي تعيشها، من جراء دخول أجناس ومذاهب مختلفة متباينة، كان على الدولة صهرها في جسم الأمة ونشر الدين الإسلامي بينها، وهذا ما لمسه عمر و سعى إليه، إلا أن الخليفة يزيد لم يدرك ذلك، فعاد إلى سياسة من سبق عمر من خلفاء بني أمية. وذلك عن طريق العودة إلى تنشيط حركة الفتوح، وضرب المعارضة بكل قوة، وإهمال الإصلاح الداخلي، وعدم الاهتمام بصهر القوى الجديدة في امة الإسلام، وتطبيق أحكام الإسلام السامية عليهم.

وللحق أن سياسة يزيد لم تكمن وراء الوهن الذي أصاب دولة بني أمية، لكنه بعدم إدراكه ما تحتاجه الدولة في تلك المرحلة من إصلاح وما تعيشه من متغيرات، استمر في سياسة أسلافه قبل عمر، وأدار ظهره للكثير مما صنعه عمر، فاستمر الوهن في عهده. وجرت بعض سياساته الدولة نحو هاوية الانهيار، وإن كان هذا الوهن والتدهور لم يظهر جليًا في زمنه، بل استطاع الإبقاء على حدود دولته مصونة، وكيانها موحدًا مهابًا، فظل ينخر في جسم الدولة متواريًا، حتى ظهر ذلك متأخرًا فيما بعد.

ولنأت الآن على الهيكل الإداري وأهم معالم سياسته ولنبدأ بشخص الخليفة، فنجده حريصًا على دولته، وكثيرًا ما نجده على رأس الأحداث، يباشرها بنفسه، مخططًا وموجهًا ومتابعًا، كمتابعته أحداثها وإصدار التوجيهات نحوها. وكذلك مباشرة بعض الحركات الخارجية، والسعي إلى إخمادها سلمًا، أو توجيه القوى إليها والقضاء عليها

---

(1) النجوم، ١/٢٣٨ – ٢٣٩.

(2) ذهب لمثل هذا القول عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٢٩٠.

حربًا. وكذلك مباشرته حركة شيريم اليهودي[١]. كما يتبين ذلك من مواجهة الأخطار على الحدود وتوجيه القيادات إليها وذلك كما حدث من توجيه الحرشي للقضاء على تمرد الصغد وصد الترك فيما وراء النهر، وتوجيه الجراح الحكمي في جيش إلى الخزر في أرمينية[٢]. ونراه وراء بعض الأوامر والقرارات الإدارية المالية، ومعاملة الموالي وأهل الذمة[٣]. ومع ذلك فهو لم ينذر نفسه وكل وقته وجهده لدولته وتحمل مسئولياتها، إذ نجد بين ثنايا المصادر بعض الروايات الدالة على إحتجابه عن الناس ومباشرة أمور الأمة، والانغماس في ألوان من اللهو والعبث[٤].

ولا نغمط الخليفة حقه كإداري، فقد تميزت شخصيته بالحزم والمرونة والواقعية، وهذا ما أتضح من مواقفه تجاه الأحداث، فقد تجلى حزمه في تعامله مع بعض الحركات الداخلية، ومواجهة الخطر الخارجي، كجديته وحزمه في إخماد حركة ابن المهلب ومواجهة خطر الترك والصغد فيما وراء النهر، والخزر في أرمينية. أما المرونة واللين فلاحظناها في تعامله مع حركة عقفان الحروري، عندما لجأ للطريق السلمي في إخمادها، فكان مـ ـفقًا، وكذلك ملاينته لأهل الكوفة إبان حركة ابن المهلب حتى يضمن لزومهم الحياد وعدم إنضمامهم لخصمه[٥].

أما واقعيته فلعلها تتجلى في إقرار تصرف البربر عندما قتلوا أميرهم يزيد بن أبي مسلم وولوا عليهم غيره[٦]. فجنب الدولة كثيرًا من المشاكل، ووفر عليها كثيرًا من الجهد والمال. وينطبق على ذلك عزله عبدالرحمن بن الضحاك عامله على المدينة ومكة، بعد أن آذى الأنصار و أغضب العلويين. فتدارك بهذه الواقعية الأمر قبل فوات

---

(١) من أجل دوره في هذه الحركات، انظر ما كتبناه عنها قبل: الفصل الثاني.

(٢) من اجل ذلك انظر ما كتبناه عن دوره في الفتوح وتوجيه القوى إلى الحدود: الفصل الرابع.

(٣) ستجد هذه الأوامر والقرارات بين ثنايا حديثنا في هذا الفصل.

(٤) انظر تلك الأقوال في ثنايا حديثنا عن سيرته بالفصل الأول.

(٥) انظر قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول والثاني، والفصل الرابع، المبحث الأول والثاني.

(٦) من أجل ذلك انظر بعد: ص ٢٩٣.

الاوان، مما ينبئ عن رغبة جادة في تصحيح الخطأ، وإطفاء النار قبل اشتعالها[١].

لكن بعض المؤرخين المحدثين[٢] يشيرون إلى أن الخليفة يزيد بن عبدالملك تميزت سياسته باللجوء إلى الشدة والعنف خصوصًا مع أهالي الأقاليم المفتوحة حديثًا، ومن ذلك سياسته التعسفية مع البربر، ويقولون أنه لم يقر سياسة عمر التسامحية، وأنه كان يرى أن سياسة الترهيب أجدى على الدولة، و اعتبروا استعماله ليزيد بن أبي مسلم دليلاً يوضح مرامي الخليفة يزيد. ونحن لا ننكر تشدد يزيد في الناحية المالية، وهذا ما سيتبين من دراستنا لسياسته المالية. لكنه كإداري لم يلجأ للعنف والترهيب، وقد أوردنا آنفًا أمثلة على مرونته وواقعيته، بل وتسامحه مع العراقيين بعد تصفية حركة ابن المهلب، ومع البربر بعد مقتل عامله يزيد بن أبي مسلم. وهذا يدل على مبالغة هؤلاء المؤرخين، الذين فيما يبدوا أن كراهيتهم لسياسة الحجاج، وكون ابن أبي مسلم من رجاله، وقد أراد السير على نهجه في إفريقية، جعلهم يتهمون الخليفة يزيد بالتعسف لاستعماله رجلاً يمثل سياسة الحجاج التعسفية. وهو في الحقيقة قد أنكر ما اعتزمه ابن أبي مسلم، ولم يحاسب أهل إفريقية على قتله، بل أن ابن أبي مسلم في حقيقة الأمر لم ينفذ ما اعتزمه من سياسات[٣].

وكان الخليفة يزيد محاربًا للفساد الإداري إذا ما ظهر له، فسنجده يعزل أخاه مسلمة بن عبدالملك عن إمارة المشرق، لعدم رفعه الخراج كما قالت بذلك بعض المصادر[٤]. كما عزل الوليد بن هشام الأموي عامله على قنسرين عندما تبين نفاقه.

---

(١) عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٢٩٨ – ٢٩٩. ومن أجل أسباب عزل ابن الضحاك، وموقف الخليفة، انظر بعد: ص ٣٤٢ – ٣٤٥.

(٢) فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في٧ عصر الولاة الأمويين، ص٥٨ – فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٢٥٨ – السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، ٢٩٣/٢ – ٢٩٤ – حورية عبده سلام: علاقات مصر ببلاد المغرب حتى قيام الدولة الفاطمية، رسالة دكتوراه، لم تطبع، مقدمة لقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٤م، ص١٨.

(٣) سنناقش سياسة ابن أبي مسلم مع البربر وموقف الخليفة في الصفحات القادمة

(٤) مجهول العيون: ٧٥/٣ – عبدالله الخطيب: الحكم الأموي في خراسان، ص١٢٣ – ١٢٤ (وأضاف: أن مسلمة انهمك في استصلاح الأراضي في العراق وضمها إلى أملاكه الواسعة)، ومثله قال ناجي حسن: القبائل، ص١٥٩.

وكان هذا عاملاً لعمر بن عبدالعزيز، أحب أن يرائي الخليفة عمر، فكتب إليه بزيادة رزقه عن نفقته وطلب إنقاص الفائض. فأدرك عمر مراميه، وأمر بإنقاص ما أشار إليه، وكتب إلى ولي عهده يزيده يخبره بذلك ويقسم عليه أن سأله الوليد شيئًا من ذلك بعد وفاته أن لا يعطيه. وما أن توفى الخليفة عمر حتى صدق حدسه، فقد كتب الوليد إلى الخليفة يزيد يدعي أن عمر نقصه رزقه وظلمه، فغضب يزيد، وأمر بعزله وتغريمه كل ما أجرى عليه من رواتب وأرزاق منذ ولايته، ولم يلي له عملاً بعد ذلك حتى وفاته[1]. وينطبق على ذلك أيضًا عزله عبدالرحمن بن الضحاك عامله على المدينة عندما أراد استغلال سلطاته في أغراضه الشخصية وذلك عندما أراد أن يرغم فاطمة بنت الحسين بالتزوج منه[2].

لكن عماد الدين خليل[3]، يتهم الخليفة يزيد بأن إقالته رجاله وتعيينهم لم يتم وفق برنامج عمل واضح وخطة ثابتة، لعدم صنعهم شيئًا ذي بال،كما أن اختياره لهم لم يكن على أساس القدرة والكفاءة، وإنما لعوامل غير موضوعية، وبخاصة الانتماء القبلي.

ويبدو أنه يرمز هنا لما ذهب إليه كثير من المؤرخين وهو تعصب يزيد للقيسية[4]. لكن هذا القول فيه كثير من عدم الدقة، فبمجرد النظر في قوائم عماله وتراجمهم يتضح أنه اعتمد على اليمينية في كثير من أعماله وولايات الدولة. وفي كفاءة رجاله وأن الكثير منهم من أهل الثقة.

---

(١) عماد الدين خليل: ملامح الانقلاب الإسلامي، ص١٧٥.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ١٢/٧/ ١٤ – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٢/٢ – ٣١٣ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٨/٤ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٥٧/٩ – الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٤٣/٤.

(٣) دراسة مقارنة (بحث). ص٣٠٤.

(٤) انظر ما كتب عن ميله إلى النزعة القيسية فيما كتبه: عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٥ – ناجي حسن: القبائل، ص٢٠٠ – ٢٠١ – عواد الأعظمي، مسلمة، ص١٤٩ – ١٥٠ – حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٤٢ – ١٤٣ – فرج الهوني: النظم الإدارية ص١٦٠ – ٢٦١ – إبراهيم بيضون: الدولة العربية في أسبانيا، ص١٠٠ – ١٠٢ – محمد شعبان: صدر الإسلام والدولة الأموية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٥٤.

ونحن لا ننفي حدوث بعض مظاهر الفساد الإداري في زمنه[1]، بل أنه من المفترض هنا الإشارة إلى أن الخليفة يزيد كان قليل الاهتمام بمراقبة عماله وتوجيههم، فقد افتقرت المصادر إلى أي إشارة لمثل هذا الاهتمام[2].

وقبل أن نخرج من الحديث عن شخصية يزيد الإدارية، نشير إلى تغير البطانة المحيطة بخليفة المسلمين ومجالس الحكم، فيتضح أن الخليفة يزيد أعاد بعض مظاهر الخلافة وأبهة السلطان[3]، كما ورد عدد من الإشارات إلى ميله للهو وسماع الغناء والمغنين، بل وانصرافه إلى ذلك عن شئون الحكم. وقد ناقشنا مدى صحةً هذا القول خلال حديثنا عن سيرة الخليفة يزيد[4]. ومع ذلك نجد ابن خلكان يشير إلى أن الخليفة يزيد كان يجلس للمظالم، فتعرض عليه مظالم الناس وحاجاتهم[5].

ويشير اليعقوبي[6]، إلى غلبة رجل يدعى سعيد بن خالد بن عمرو الأموي[7] على الخليفة يزيد. وهذا القول لليعقوبي لا نجد له مثيلاً في المصادر الأخرى، ولا تؤيده الأحداث. وبالنظر في ترجمة الرجل، يتبين أنه من المحدثين الثقات. وهذه الرواية إن صحت، فإنها حجة ليزيد لا حجة عليه، تدل على تقريبه أهل الصلاح والاستعانة بهم. مع تأكيدنا أن دلائل الأحداث لم تشر إلى نفوذ لهذا الرجل وتسلطه على شخص الخليفة.

---

(1) انظر ما كتبناه في الصفحة السابقة عن أسباب عزل مسلمة وانظر ما سنكتبه عن سياسة عماله في الولايات في الصفحات التالية، لترى بعض صور ذلك الفساد. وانظر/ عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠٤.

(2) عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣١٠.

(3) ترد الإشارات بين ثنايا الأخبار على تلقي الأخبار، أو أخذ المشورة من رجاله، وإصدار الأوامر، وتوجيه الجيوش، والاستماع إلى الشعراء في مجلسه.

(4) انظر ما ورد في ذلك قبل: الفصل الأول.

(5) وفيات، ٣/٤٧٢ – ٤٧٣.

(6) تاريخ اليعقوبي، ٢/٣١٤ – عماد الدين خليل: نفس المرجع والصفحة، (نقلاً عن اليعقوبي، ٥٨/٣)، لكنه أورد اسمه يزيد بن سعيد ابن خالد. وبالرجوع إلى اليعقوبي ذكره سعيداً بن خالد كما أثبتناه في المتن.

(7) سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي، محدث ثقة، كان قد سكن دمشق. (ابن حجر: تهذيب، ١٩/٤).

كما تشير بعض المصادر إلى غلبة حبابة جارية يزيد عليه، وتدخلها في استعمال الولاة وعزلهم[١].

ويذكر أن الخليفة يزيد لم يتنزه عن استغلال سلطاته وحقوق المسلمين في أغراضه الخاصة، من ذلك بطشه بخالد بن المطرف من آل عثمان بن عفان عندما ألزم الخليفة مهرًا باهظًا لأخته التي تقدم الخليفة للزواج منها[٢].

ومن ذلك أمره عامله على مكة أن يحمل رجلاً من آل أبي لهب على دواب البريد وأن يعطيه ألف دينار نفقة، ويبعث به إلى الشام من اجل أن يسمع منه شعرًا يحسن أداءه[٣]. ويزيد في هذا نقيض عمر في تنزهه عن حقوق المسلمين[٤].

أما سياسة يزيد في إدارة الولايات، فقد اتبع النهج الأموي في إطلاق يد العامل وجعل ولايته عامة[٥]. بل أنه عاد إلى ضم الولايات إلى بعض، فجمع العراقين لمسلمة بن عبدالملك ثم لعمر بن هبيرة وفوض لهما أمر المشرق كله[٦]، كما جمع لعبد الواحد النصرى[٧] المدينة ومكة والطائف[١]. وأعاد الأندلس تابعة إلى ولاية إفريقية[٢].

---

(١) اليعقوبي: مشاكلة الناس لزمانهم، ص٢٠ - ابن قتيبة المعارف، ط٤، ص٤١٨ . الأصفهاني: الأغاني، ١٥/ ١٢٧ - ١٢٨. وانظر ما أوردناه خلال الحديث عن سيرة يزيد في الفصل الأول من القول بذلك.

(٢) البلاذري: أنساب، ١١١/٥.

(٣) المسعودي: مروج، ٢٠٨/٣ - ٢٠٩.

(٤) يذكر أن عمر بن عبدالعزيز باع عسلاً وجعل ثمنه في بيت المال، عندما علم أن عامله الذي أرسله إليه قد حمله على دواب البريد، كما أنب عامله وهدده بعدم استعماله إن عاد إلى مثل ذلك. (انظر: ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص١٨٨).

(٥) محمد كرد علي: الإدارة الإسلامية في عز العرب، ص٩٥ - ٩٦.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم، ٦٠٤/٦ - ٦٠٥، ٦١٦ - ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٨ - ابن الأثير: الكامل ١٧٧/٤ - ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٨/٩. وانظر ما سنكتبه عن ذلك بالتفصيل في الصفحات التالية.

(٧) عبدالواحد بن عبدالله بن كعب النصرى الدمشقي، تابعي، من رواة الحديث الثقات. ولي المدينة ومكة والطائف (سنة ١٠٤هـ) فكان محمود الإمارة، لا يقطع أمرًا إلا استشار فيه القاسم بن محمد وسالم بن عبدالله، وذهب مذاهب الخير، لم يقدم عليهم وال أحب إليهم منه، وكان عفيفًا، =

إلا أنه لم يطبق السياسة الأموية في الفصل بين السلطة الإدارية والمالية. إلا في مصر، و المدينة. فقد أعاد أسامة بن زيد على خراج مصر[3]. أما بقية الأقاليم، فقد جمع لولاتها السلطات الإدارية والمالية، فلم نعثر على نص يدل على ذلك بل أننا نجد نصوصًا تدل على استعمال الأمراء، والقضاء. وعمال الخراج والصدقات والدواوين بشكل عام، ونوابهم على المناطق التابعة لهم، من قبلهم[4]. فأضحت الولاية وكأنها نيابة عامة عن الخليفة، يستمد الأمير فيها سلطاته من سلطة الخليفة. ومع ذلك فقد كان يتدخل إذا ما لزم الأمر واقتضت الحاجة والمصلحة، من ذلك أمره ابن هبيرة عامله على المشرق استعمال الحرشي على خراسان[5].

ولا بأس هنا أن نعرض للحديث عن عماله، ودحض القول بأنه عزل جميع ولاة عمر. وابتداء فإن الخليفة يزيد لم يتخذ قرارًا بهذا الشأن، بل أنه أصدر أمرًا إلى عمال عمر يدعوهم فيه إلى ترك سياسته المالية والعودة إلى سياسة أسلافه من بني أمية[6]. وفي ذلك دلالة على إقراره لهم، وأن عزله لبعضهم جاء بعد ذلك، وفي أوقات مختلفة.

= صالحًا. وقد كانت ولايته من قبل الخيفة يزيد بن عبدالملك، فبقي إلى أن عزله هشام (سنة ١٠٦هـ). ابن حجر: تهذيب، ٦/٣٨٧ - ٣٨٨ - أبو زرعة: تاريخ أبي زرعة، ١/١٩ - الزركلي: الأعلام، ٤/١٧٦) ويرد نسبه في المصادر: «البصري»، و«النضرى»، و«القسرى»، والأصح ما أثبتناه في المتن.

(١) من أجل ذلك، (انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٦/١٢ - ١٤ - وكيع: أخبار القضاة، ١/١٥٠ - ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨٨ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤/١٤٣ - ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢٥٧).

(٢) مجهول: أخبار مجموعة، ص٣١ - ٣١ - محمد عنان: دولة الإسلام، ص٨٢ (وأنظر ما سنكتبه عن ذلك في الصفحات التالية).

(٣) من اجل إعادة أسامة بن زيد إلى مصر، (انظر: ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، ص١١٩). وأنظر القول بفصل الأمويين بين السلطات الإدارية والمالية عند (فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص١٩١) وسيتضح تبعية صاحب خراج المدينة للخليفة يزيد مباشرة من قصة فاطمة بنت الحسين مع ابن الضحاك. (انظر بعد: ص ٣٤٤).

(٤) يتبين ذلك من دراستنا لعماله على الأقاليم وسياستهم الإدارية. (انظر الصفحات التالية - وانظر فرج الهوني، نفس المرجع، والصفحة).

(٥) انظر قبل: الفصل الرابع، المبحث الأول، ص ٣٦٦، ٣٦٧.

(٦) انظر نص أمره ذاك بعد: ص ٤١٦.

فلقد أقر يزيد من عمال الخليفة عمر بن عبدالعزيز، عبدالعزيز بن عبدالله بن أسيد[١] على مكة والطائف، ولم يعزله إلا (سنة ١٠٣هـ)[٢]. وعروة بن محمد[٣] على اليمن[٤]، وعبدالحميد بن عبدالرحمن على الكوفة[٥]، وعدي بن أرطأة على البصرة[٦]،وأيوب بن شرحبيل[٧] على مصر[٨]، والسمح بن مالك على الأندلس[١].

---

(١) عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي، أبوالحجاج. ثقة استعمله عبدالملك بن مروان على مكة، وقد ذكره ابن شاهين في الصحابة لحديث أرسله (ابن حجر: تهذيب، ٣٠٦/٦). لكننا بالعودة إلى تاريخ ابن خياط، وجدنا ولايته على مكة قد جاءت من قبل سليمان بن عبدالملك فأقره عمر، ثم يزيد حتى عزله. ولم يكن عليها من قبل عبدالملك بن مروان ولا إبنه الوليد (انظر: ص ٣٤٢).

(٢) لم يعزل عبدالعزيز بن أسيد عن مكة والطائف إلا سنة ١٠٣هـ (انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٦٢٠/٦ – ابن الأثير: الكامل، ١٤٨/٤ – وكذلك ما سنكتبه عن ذلك مفصلاً في الصفحات التالية).

(٣) عروة بن محمد بن عطية السعيد الجشمي، من رواة الحديث، وله صحبة. استعمله سليمان بن عبدالملك على اليمن وأقره عمر بن عبدالعزيز ثم أقره يزيد بن عبدالملك، فكان من صالح العمال، ويقال أن عروة ولي اليمن عشرين سنة، وقيل عزل عنها (سنة ١٠٣هـ) وأمر عليها مسعود بن غوث. وعروة من خيار الناس دخل اليمن براحلته، وخرج ما معه سوى السيف ومصحف. عاش إلى ما بعد المئة والثلاثين. (ابن حجر: تهذيب، ١٦٨/٧ – ١٦٩). والقول بعزله سنة ١٠٣هـ من خلافة يزيد هو الأولى، لما أشارت إليه المصادر من استعمال يزيد لغيره على اليمن وكذلك هشام. (انظر ما سنورده عن ذلك أثناء حديثنا عن عمال يزيد على اليمن في الصفحات التالية).

(٤) عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص١٠٥.

(٥) الطبري: نفس المصدر، ٥٧٦/٦.

(٦) ظل عدي على البصرة، حتى غلب عليها ابن المهلب، وقتل في فتنته. (انظر ذلك قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول: حركة ابن المهلب).

(٧) أيوب بن شرحبيل بن أبرهة الأصبحي، من بني الصباح أمير من النبلاء الصلحاء، ولي مصر لعمر بن عبدالعزيز (سنة ٩٨هـ)، وحسنت أحوالها في أيامه، واستمر بها إلى أن توفي فيها سنة ١٠١هـ. (الزركلي: الأعلام، ٣٨/٢). وقد كانت وفاته في رمضان من خلافة يزيد بن عبدالملك. (انظر ذلك فيما سنكتبه عن أخبار ولاة مصر في الصفحات التالية).

(٨) الكندي: الولاة، ص٦٩.

أما أشهر الولاة الذين استعملهم يزيد، فمسلمة بن عبدالملك على المشرق، ثم عزله وولى عمر بن هبيرة، والأخير كان عامل عمر بن عبدالعزيز على الجزيرة[2]. ويزيد بن أبي مسلم على افريقية، ثم ولاها بشر بن صفوان بعد مقتل الأول، وكان بشر بن صفوان أميرًا محمود السيرة[3].

كما ولى عبدالرحمن بن الضحاك[4] المدينة وجمع له مكة ثم عزله عندما أساء السيرة في أهل المدينة، وولى عبدالواحد النصرى، فسار فيهم بما يرضيهم، وكان أميرًا محمودًا.

وقد ولى الجراح الحكمي أرمينية، فأحسن السيرة ونجح في حرب الخزر، وهو من رجالات العصر المشهورين، وكان عاملاً لعمر بن عبدالعزيز على خراسان[5]، كما أمر الخليفة بتولية سعيد الحرشى على خراسان عندما عزل عاملها سعيد خذينة والذي فشل في ضبط الأمور في ما وراء النهر. فحقق أهداف الدولة، وأعاد السيطرة الإسلامية من جديد على ما وراء النهر[6].

ويبدو أن الخليفة يزيد بن عبدالملك وسع على عماله، حتى يحصنهم من الخيانة، ويجعلهم في كفاية تعينهم على التفرغ لمهام الإمارة وأمور المسلمين. فيروي أن عبدالواحد النصرى عامل الخليفة يزيد علي الحجاز، كان إذا أتى برزقه الشهري وقدره

---

(1) بقي السمح بن مالك أميرًا على الأندلس حتى استشهاده في بلاد الغال، في شهر ذي الحجة من سنة ١٠٢هـ في خلافة يزيد بن عبدالملك، (انظر ذلك في: الفصل الرابع، المبحث الرابع (حملة السمح بن مالك الخولاني)، وكذلك ما سنكتبه بعد في الصفحات التالية عن ولاة الأندلس).

(2) نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٢٥٦ - ابن الأثير: الكامل، ١٨١/٤.

(3) من أجل ذلك، (انظر: السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الإسلامي، ٢٩٥/٢ - فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦٨).

(4) لم أعثر له على ترجمة.

(5) كانت ولايته على خراسان (سنة ٩٩هـ). (انظر عن ولايته ابن الأثير: نفس المصدر، ١٥٥/٤ وما بعدها).

(6) انظر ما سنكتبه عن ولايته في هذا الباب، أثناء حديثنا عن عمال يزيد على خراسان.

ثلاث مائة دينار يقول: أن الذي يخون بعدك لخائن[1]. وفي قوله هذا دلالة على ضخامة هذا المبلغ آنذاك وكفايته التامة لصاحبه.

وإجمالاً فإن الخليفة يزيد قد أقر بعض عمال عمر، واستعلم بعض من كان عمر قد استعملهم، وولى آخرين، توفرت فيهم الكفاءة والقدرة، فأحسنوا السيرة وكانوا من أهل الثقة والدين، وقد عزل من خرج عن ذلك.

ومن سمات سياسته الإدارية، إتاحة الفرصة للموالي في إدارة الدولة وشغل بعض الأعمال الكبيرة[2].

وقد سار يزيد على نهج عمر في استعمال الموالي في وظيفة القضاء، فقد أقر على قضاء مصر عبدالله بن يزيد بن خذامر الصنعاني مولى سبأ[3]، وذلك خروجًا على عادة بني أمية في المحافظة على عروبة القاضي[4]. إلا أننا نجد النباهي الأندلسي[5] يشير إلى فتور الخليفة يزيد بن عبدالملك عن ملاحظة القضاة ويبدو أن ذلك راجع إلى ثقته فيهم

---

(1) ابن حجر: تهذيب، ٦/ هامش ٤، ص٣٨٧. وهذا نفس المبلغ الذي كان يأخذه أبوبكر بن محمد بن حزام أمير المدينة زمن عمر بن عبدالعزيز. (انظر: الذهبي، سيرة، ٥/٣١٤).

(2) كانت مشاركة الموالي في إدارة مرافق الدولة في عهد الخليفة يزيد واضحة للعيان، ومن أمثلة ذلك: استعمال يزيد بن أبي مسلم مولى ثقيف على إفريقية، وجبلة بن عبدالرحمن مولى باهلة على كرمان. (انظر ذكر استعمالهم خلال ذكرنا لعماله على الأقاليم في الصفحات القادمة). وكذلك عبدالرحمن بن هرمز على ديوان المدينة. (انظر: عبدالله السيف: الحياة الاقتصادية، ص١٧٥) وغيرهم.

(3) لم أعثر له على ترجمة، وقد ذكرت ماجدة فيصل زكريا: أن أصل والده من أبناء الفرس الذين وجهوا من قبل كسرى لقتال الأحباش في اليمن، وأنه حالف قومامن السبئيين، واشترك في مصر واختط بها. ولاه قضاء مصر عمر بن عبدالعزيز (سنة ١٠٠هـ) فكان أول من تولى قضاء مصر من غير العرب. وكان صرفه عنها في رمضان (سنة ١٠٥هـ) فكانت ولايته على القضاء خمس سنين وثلاثة أشهر. (انظر: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، ص٢٩١ - ٢٩٢). ويؤكد ذلك في قول أكثر تفصيلاً الكندي، فيشير إلى أن ولاية ابن خذامر مولى سبأ كانت من قبل عمر ويزيد بن عبدالملك. (انظر: الولاة، ص٣٣٧ - ٣٤٠).

(4) انظر ما ذكر ثابت الراوي عن هذه العادة في كتابه: العراق، ص٩٢.

(5) تاريخ قضاة الأندلس، وقد سماه مؤلفه: كتاب المرقبة العليا فمين يستحق القضاء والفتيا، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص٢٤.

ورضى الناس عنهم إن صحت هذه الرواية، فبالنظر إلى تراجم قضاته نجد أنهم من أهل الثقة والصلاح[1]. ويحسن بنا أن نشير إلى أن الخليفة يزيد قد ترك أمر تولية القضاة وعزلهم في الأمصار إلى عماله[2].

كما يبدو أن يزيد بن عبدالملك تابع الخليفة عمر بن عبدالعزيز في منع أهل الذمة من العمل في دواوين الدولة، إذ لم نلمس ما يشير إلى عملهم فيها. وإن كنا لا نملك نصًا يدل على متابعته في هذه السياسة.

هذه أهم معالم سياسة يزيد بن عبدالملك الإدارية، وللوصول إلى صورة أوضح، نعرض في الصفحات التالية لعماله على الأقاليم وأهم أعمالهم وسياسته فيها.

رجال الحكومة في عاصمة الدولة دمشق:

اعتاد الأمويون إحاطة أنفسهم برجال من أهل العلم والرأي، يستشيرونهم في شئون الحكم وتصريف الأمور. ويتضح أن الخليفة يزيد بن عبدالملك كان كذلك. وعلى رأس الرجال الذين وقفوا إلى جانبه يؤازرونه بالرأي والنصيحة والعمل، أخوة مسلمة بن عبدالملك، الذي قيل: أن عزله عن إمارة المشرق كان لحاجة الخليفة إليه[3]. وكذلك سعيد بن خالد الأموي، الذي قال اليعقوبي: أنه غلب على يزيد بن عبدالملك[4]. ولقد وجدنا في ترجمته[5] أنه من المحدثين الثقات، وقد سكن دمشق. وأمر السكنى هذا يدفعنا إلى قبول قول اليعقوبي أنه من رجال يزيد وأهل مشورته. لكننا قد أسلفنا إنكار هذه الغلبة. لأننا لم نجد من الحوادث ما يدل على ذلك وإن كان أهل العلم لا يرجى منهم إلا

---

(١) انظر تراجمهم في الصفحات التالية، أبان ذكر استعمالهم من قبل الخليفة يزيد أو عماله في الأمصار.

(٢) يتضح هذا من خلاف عرضنا لسياسة عماله في الأمصار وصيرورة صلاحية تولية وعزل القضاء إليهم. (انظر الصفحات التالية).

(٣) اختلف في أسباب عزل مسلمة، وهذا ما سنبينه عند ذكر ولايته على العراق بعد، ومما ذكر ما أوردناه أعلاه. (انظر: عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٤٤ [نقلاً عن: سيد علي المرصفي: كتاب رغبة الأمل في كتاب الكامل، ط/ الأولى، ١٦/٢ – ١٧]).

(٤) انظر قوله ومناقشتنا له قبل: ص ٣٢٧.

(٥) انظر ترجمته قبل: ص ٣٢٧.

كل خير إن كان له من الأمر شيء. وإلى جانبهما رجال حكومته في عاصمة الخلافة دمشق، ومن تضمهم مجالسه من علية القوم ووجهاء الناس[1].

أما رجال حكومته في دمشق، فقد كان حاجبه خالد مولاه[2] وقيل: سعيد[3] وقيل: غالب[4]. وهذا الاختلاف قد يكون تصحيفًا خصوصًا بين خالد وغالب، أو أنهم جميعًا تولوا الحجابة له واحد تلو الآخر.

كما كان على ديوان الخاتم والخزائن وبيوت الأموال، مطير مولاه[5]. وقيل كان على الخاتم أسامة بن زيد[6]. وعلى الخاتم الصغير بكير أبوالحجاج[7].

وكاتبه يزيد بن عبدالله[8] من قبل أن يلي الخلافة، فلما تولى الخلافة استكتب أسامة بن زيد السليحي[9].[10]ويفصل الجهشياري[1] القول: بأنه أسامة بن زيد صاحب خراج

---

(1) من تلك المجالس، ذلك المجلس الذي عرض فيه الخليفة يزيد طلب يزيد بن المهلب الأمان من الخليفة، واستشارة الناس في ذلك، واتخاذ الخليفة قرار إعطائه الأمان. (اظر ذلك قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص ٩٧).

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢/١١٤ – المسعودي: التنبيه، ص٢٧٧، مجهول: العيون، ص٨٠.

(3) المسعودي: نفس المصدر والصفحة – ابن حبيب: المحبر ص٢٥٩ – الاربلي: خلاصة، ص٢٦.

(4) ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عاشور، مراجعة أحمد السيد دراج، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م، ص٦٥ – ٧٦.

(5) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٥ – ابن عبد ربه: العقد. ٥/٧ (لكن ابن عبد ربه أشار أنه على خاتم الخلافة فقط، كما وصفه بالفسق، وقد أورد اسمه محرفا «مطر»).

(6) ابن خياط: نفس المصدر والصفحة.

(7) ابن عبد ربه: نفس المصدر، ٥/٨٧.

(8) لم تذكر المصادر بقية الاسم والنسب، فبحثنا في أسماء من هم على اسمه فلم نجد في تراجمهم ما يدل على علاقة لهم بالخليفة يزيد والكتابة له.

(9) لم أعثر له على ترجمة.

(10) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/١٨١ – الجهشياري: الوزراء ص٥٦ – المسعودي: نفس المصدر، ص٢٧٧ (ذكر استكتابهما بدون ترتيب، وأورد اسم يزيد بن عبدالله زيدًا) – مجهول: نفس المصدر، ص٨٠ (فقط ذكر استكتاب أسامة ولم يشر إلى ابن عبدالله) – الاربلي: نفس المصدر، ص٢٦ (لم يشر إلى يزيد بن عبدالله وذكر كتابة أسامة للخليفة يزيد).

مصر أيام الوليد بن عبدالملك، وأن الخليفة يزيد عندما أفضت إليه الخلافة طلبه. وأن سليمان الخشني صاحب الديوان، حذر يزيد بن عبدالله كاتب الخليفة يزيد من أسامة في أن يحل مكانه لكنه أخيرًا لم يصرح باستكتابه.

لكننا أمام نص عن ابن عبدالحكم يقول: أن الخليفة يزيد رد أسامة بن زيد على خراج مصر. وكان الخليفة عمر بن عبدالعزيز قد عزله عن خراجها، وكان قد تولاه للوليد وسليمان[٢]. وهذا يعني أن الخليفة يزيد استكتب أسامة بن زيد لفترة وجيزة ثم رده على خراج مصر. يسند قولنا ما أوردته المصادر من أسماء لكتاب آخرين استكتبهم الخليفة يزيد بن عبدالملك، إذ كتب له عمر بن هبيرة، ثم إبراهيم بن جبلة[٣]. ولعلهما قبل أسامة بن زيد، إذ أن الخبر الذي يشير إلى استكتابهما ينص بعد ذكرهما قوله: «ثم أسامة بن زيد»[٤]. ويبدو أن كتابة عمر بن هبيرة ليزيد كانت قبل استعماله على العراق. كما كتب له سعيد بن الوليد الأبرش[٥]،ثم عبدالله بن حارثة الأنصاري[٦][٧].

وينفرد عبداللطيف عبدالرزاق العاني[٨] بإضافة صالح بن جبير الغساني (وقيل: الطبراني)[٩] إلى كتاب يزيد. بينما نجده يناقض نفسه ويذكر أن هذا الرجل كان على ديوان الخراج[١٠] وكتب للخليفة يزيد بن عبدالملك عبدالحميد[١١]، ثم لم يزل كاتبًا لبني

---

(١) فتوح مصر.

(٢) ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، ص١١٩.

(٣) لم أعثر له على ترجمة.

(٤) مجهول: العيون، ص٨٠ – الأربلي: خلاصة، ص٢٦.

(٥) لم أعثر على ترجمته.

(٦) لم أعثر له على ترجمة.

(٧) بن دقماق: الجوهر، ص٧٥ – ٧٦.

(٨) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، رسالة ماجستير، غير مطبوعة، مقدمة لجامعة بغداد، جمادي الأولى، ١٣٨٨هـ / آب ١٩٦٨م، ص١٥٨.

(٩) صالح بن جبير الصدائي أبومحمد الطبراني، كان كاتب عمر بن عبدالعزيز على الخراج، من رواة الحديث الثقات. (انظر: ابن حجر: تهذيب، ٤/٣٣٥ – ٣٣٦).

(١٠) انظر نفس المرجع، ص١٧٨ – ١٧٩، ٢١٤ – ٢١٥.

(١١) يقصد عبدالحميد الكاتب.

أمية إلى أيام مروان بن محمد وإنقضاء دولتهم، وكان عبدالحميد كما يقول ابن عبدربه[1]: أول من فتق أكمام البلاغة، وسهل طرقها، وفك رقاب الشعر. وهذا التعدد ينبئ عن اختصاصات لكل كاتب، أو تكليفه بأعمال أخرى، تشغل البعض ويحضر البعض الآخر، فمن حضر منهم كتب.

ومن توقيعات الخليفة يزيد: توقيعه إلى صاحب خراسان «ولا يغرنك حسن رأي، فإنما تفسده عثرة». وإلى صاحب المدينة «عثرت فاستقل». وفي قصة متظلم شكا بعض أهل بيته: «ما كان عليك لو صفحت عنه واستوصلتني»[2]. وفي هذه التوقيعات للملاحظ دلالة تحذيره عماله ومحاسبتهم، وإلى حكمته وتوجيه عامة الناس إلى ما يزيد من تآلفهم وترابط المجتمع.

وكان نقش خاتمه: «قنى الحسب»[3]. وقيل: «قنى السيئات يا عزيز»[4].

وكان على حرسه مولاه غيلان أبوسعيد، ختن أبي معن[5]. وقيل: يزيد بن أبي كبشة السكسكي[6][7].

وبالنظر إلى ترجمة الأخير، وجدنا أن وفاته كانت في خلافة سليمان قبل سنة مئة من الهجرة. وهذا ما دفعنا إلى تقديم القول الأول.

---

(1) العقد، ٢٤٧/٤.

(2) ابن عبدر ربه: نفس المصدر، ٢٩١/٤.

(3) المسعودي: التنبيه، ص٢٧٧.

(4) مجهول: العيون، ٨٠/٣.

(5) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٥ - ابن عبد ربه: نفس المصدر، ١٨٧/٥.

(6) يزيد بن أبي كبشة البتلهي، واسم أبيه جبريل بن يسار عد في التابعين، وهو من كبار الأمراء. ومن رواة الحديث الثقات، كان مقدم السكاسك وصاحب شرطة عبدالملك، ولى على الغزاة، ثم ولى أمرة العراقين للوليد، ثم ولاه سليمان خراج السند. فأدركه الأجل بالسند قبل سنة مئة. (ابن حجر: تهذيب، ٣١٠/١١ - ٣١١ الذهبي: سير، ٤٤٣/٤ - ٤٤٤). ويقول الزركلي: أن سليمان ولاه إمارة السند فمات بعد وصوله إليها بثمانية عشر يوماً (الأعلام، ١٨٠/٨).

(7) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٤/٢ - ابن خياط: نفس المصدر والصفحة (قال: «وقال حاتم: على الحرس أبومالك السكسكي»).

أما شرطته فقد أعاد عليها كعب بن حامد العبسي[١]. وكان قد تولى ذلك لعبدالملك بن مروان ثم ولاه إياها الوليد على فترات حيث أغزاه مرتين، ثم أقره سليمان فأقره عمر ثم عزله. فأعاده الخليفة يزيد ثم أقره هشام ثلاث عشرة سنة فولاه بعد ذلك أرمينية[٢].

وتعلق نجدة خماش على ذلك: أن شخصًا يحتل هذا المنصب فترة طويلة كهذه ثم يعهد إليه بولاية أرمينية لابد أنه يتحلى بصفات تؤهله لذلك[٣]. وقيل: كان على شرطته روح بن يزيد (بن يعلي)[٤].

وكان على الخراج والجند والرسائل، صالح بن جبير الغداني، ثم عزله وولى أسامة بن زيد مولى كلب[٥]. ويذكر الجهشياري[٦] أن الخليفة يزيد أعاد سليمان بن سعد الخشني[٧] على ديوان الخراج، وكان الخليفة عمر قد عزله. ويضيف: أنه كان عفيفًا

---

(١) كعب بن حامد العنسي قائد من غزاة البحر، ولاه عبدالملك بن مروان شرطته، وأقره بعده الوليد، ثم أغزاه على البحر (الزركلي: الأعلام، ٥/٢٢٦). وقد لاحظنا اختلاف المصادر في إيراد اسمه. فيذكر ابن عامر وابن مالك وكذلك العبسي والعنسي. وقد أثبتنا ما وجدناه في أقدمها. (انظر: ابن خياط: نفس المصدر والصفحة).

(٢) عبداللطيف العاني: إدارة بلاد الشام، ص١١٩.

(٣) الشام في صدر الإسلام، ص٢٠٠.

(٤) ابن دقماق: الجوهر، ص٧٥ – ٧٦.

(٥) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٥ – ابن عبد ربه: العقد، ٥/١٨٨ – حسين عطوان: سيرة الوليد بن يزيد، ص١٩ (وأورد اسمه صالح بن عبدالرحمن، مشيرًا إلى الخلاف على الاسم، ولم يذكر عمله، والواضح أنه ظن أن صالح بن جبير هو صالح بن عبدالرحمن صاحب خراج العراق زمن سليمان، لكن هذا غيره).

(٦) الوزراء، ص٥٦ – عبداللطيف العاني: نفس المرجع، ص١٧٨ – ١٧٩، ٢١٤ – ٢١٥ (يذكر أن عبدالملك بن مروان قد ولى سليمان بن سعد على ديوان الخراج بعد أن عزل سرجون بن منصور، فبقى عليه حتى عزله عمر بن عبدالعزيز، وعين بدله صالح بن جبير الغساني (الطبراني) وبقى صالح على الديوان زمن يزيد بن عبدالملك ثم عزله وأعاد سليمان الخشني).

(٧) سليمان بن سعد الخشني بالولاء، أول من نقل الدواوين من الرومية إلى العربية، وأول مسلم ولى الدواوين كلها في العصر الأموي، وكانت النصارى تلي الدواوين قبله. أردني نزل دمشق، فولى =

عالمًا بصناعته. ويبدو أنه قد ولاه ذلك، بعد عزل مسلمة عن العراق، فقد كان سليمان بن سعد على خراج العراق في ولاية مسلمة عليه.

وكان على الخزائن وبيوت الأموال مطير مولاه[1]. وقد وافق ابن عبد ربه ابن خياط، وفي ولاية مطير ديوان الخاتم[2]، ولكنه خالفه فيمن كان على الخزائن وبيوت الأموال، فيقول أن الذي كان عليها هو: هشام بن مصاد[3]، ولعل مطير كان عليها جميعًا كما ذكر ابن خياط، ثم قصر عمله على ديوان الخاتم، وولى ابن مصاد الخزائن وبيوت الأموال.

ويبدو أن لا خلاف أيضًا فيمن تولى ديوان الخراج، فصالح بن جبير كان متوليها من قبل الخليفة[4] عمر، فأمره يزيد ثم عزله بأسامة بن زيد، وإن كان هذا هو صاحب خراج مصر المعروف - وقد أشرنا أن الخليفة أعاده على خراج مصر - يكون الخليفة قد أعاد سليمان الخشني على الدواوين بعده، أو أنه كان على شيء منها وسليمان على بعضها الآخر، إن كان المقصود رجلاً آخر يدعى أسامة، غير صاحب خراج مصر. فقد جعل الخليفة عمر بن عبدالعزيز لكل مورد مالي بيت مال خاص به، فللخمس بيت مال، وللصدقة بيت مال، وللفيء بيت مال كل على حده[5].

أما القضاء، فقد عمد خلفاء بني أمية إلى تعيين القضاة في الولايات من قبلهم، وأحيانًا يتركون ذلك لأمراء الأمصار[6].

أما ما يخص القضاء في عاصمة الدولة دمشق، فقد كان ذلك للخلفاء، وتطور الأمر، حتى أصبحنا نلاحظ في خلافة عمر بن عبدالعزيز وجود قاضيين أو أكثر في

= دواوين الشام لعبدالملك والوليد وسليمان، ثم عزله عمر لهفوة بدرت منه. توفى (نحو سنة ١٠٥هـ). (الزركلي: الأعلام، ١٢٦/٣).

(١) انظر ذلك قبل: ص ٣٣٤.

(٢) انظر نفس الصفحة.

(٣) ابن عبد ربه: العقد، ١٨٨/٥.

(٤) انظر الصفحة السابقة.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ٤٠٠/٥.

(٦) نجده خماش: الشام في صدر الإسلام، ص٢٠٦.

دمشق في نفس الوقت فنجد سليمان بن حبيب الداداني[١]، ومحمد بن مسلم الزهري[٢]، ومما يثير الانتباه وجود مسمى قاضي الخلفاء، فقد ورد في تاريخ داريا أن سليمان بن حبيب كان قاضي الخلفاء، وكذلك يرد في تاريخ دمشق لابن عساكر أن سليمان بن حبيب كان قاضي الخلفاء. بالرغم من وجود قضاة آخرين يرد ذكرهم إلى جانب هذين القاضيين. وهذه الأخبار تدفعنا للتساؤل فيما إذا كان هذا اللقب يعني رتبة رسمية أم كان هذا اللقب مسدى عليه من الناس كدليل على علو كعبه في العلم والقضاء[٣]. ولعل هذا اللقب جاء من توليه القضاء لأكثر من خليفة. وقد أعاد الخليفة يزيد سليمان الداراني على القضاء[٤]، وهو ممن تلقى العلم على أيدي الصحابة، فكان من كبار علماء التابعين[٥]. وقد تولى قضاء دمشق لعبدالملك والوليد وسليمان وعمر ويزيد وهشام، ثلاثين سنة[٦].

واستقضى الخليفة يزيد بن عبدالملك محمد الزهري، مع سليمان بن حبيب الدراداني لما علم عنه من العلم وسمو المكانة[٧]. وتورد المصادر أسماء لرجال آخرين

---

(١) سليمان بن حبيب المحاربي الدمشقي الداراني القاضي، من رواة الحديث الثقات، أماماً كبير القدر، من التابعين، قضى بدمشق أربعين سنة وقيل ثلاثين، وتوفى سنة ١٢٦هـ وقيل ١٢٥هـ وقيل ١١٥هـ. (انظر: ابن حجر تهذيب، ١٥٦/٤ – ١٥٧ – الذهبي: سير، ٣٠٩/٥).

(٢) عن استقضاء يزيد بن عبدالملك الزهري، انظر: الذهبي: سير، ٣٣١/٥.

(٣) نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام، ص٢٠٨.

(٤) ذكرت بعض المصادر أن يزيد أقر سليمان بن حبيب على القضاء، والصحيح كما يقول عبداللطيف العاني: أن الخليفة يزيد أعاده لأن الخليفة عمر كان قد عزله وعين على القضاء عبدالله بن سعد الأيلي. (انظر: إدارة بلاد الشام، ص١٣١ – أبوزرعة: تاريخ أبي زرعة، ٢٠٢/١، ٤١٣).

(٥) محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين، ص١٦٩.

(٦) محمد الخطيب: نفس المرجع و الصفحة – نجدة خماش: نفس المرجع، ص٢٠٨ – عبداللطيف العاني: نفس المرجع، ص١٣١.

(٧) ابن قتيبة: المعارف، ط٤، ص٤٧٢ – أبوزرعة: نفس المصدر، ٢٠٢/١، ٤١٣ – محمد الخطيب: نفس المرجع، ص٤٩٣ – عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، ص١٠٠ – كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي نقله إلى العربية عبدالحليم النجار، الثلاثة الأجزاء الأولى، والسيد يعقوب بكر ورمضان عبدالتواب الثلاثة الأجزاء الأخر، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، ٢٥٤/١.

استقضاهم الخليفة يزيد، هم: عبدالرحمن بن الخشخاش، وسعيد بن أبي وقاص[1]، وأبومسعود عبدالله[2]، ومحد بن صفوان الجمحي[3][4].

وما من شك في أن هذا التعدد ينبئ عن شيء من الاختصاص والتطور في مجال القضاء، كان قد حدث في عصر بني أمية، وبالأخص في ثلثه الأخير.

عماله على الحجاز:

لما تولى يزيد بن عبدالملك الخلافة عزل عن المدينة عامل عمر بن عبدالعزيز أبو بكر بن محمد بن حزم[5]، وولاها عبدالرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري[6]. فكان قدومه إليها يوم الأربعاء لليال بقين من شهر رمضان (سنة ١٠١هـ) [7]. فاستقضى من قبله سلمه بن عبدالله المخزومي[8]. وكان على ديوانها عبدالرحمن بن هرمز، وهو

---

(١) مجهول: العيون، ٣/٨٠ – الاربلي: الذهب، ص٢٦.

(٢) الاربلي: نفس المصدر والصفحة (والثلاثة هؤلاء لم أعثر لهم على ترجمة).

(٣) محمد بن صفوان الجمحي المدني قاضي المدينة أيام هشام من رواة الحديث الثقات. (انظر: ابن حجر: تهذيب، ٩/٢٠٥ – ٢٠٦).

(٤) ابن دقماق: الجوهر، ص٧٥ – ٧٦.

(٥) أبوبكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري المدني، يقال اسمه أبو بكر وقيل اسمه كنيته. من الأئمة الأثبات ورواة الحديث الثقفات، تولى قضاء المدينة، وكان أعلم أهل زمانه بالقضاء واستعمله سليمان على المدينة وأقره عمر بن عبدالعزيز. وقد أمره أن يكتب له من العالم من عند عمرة بنت عبدالرحمن والقاسم بن محمد، ولم يتول المدينة أمير أنصارى غيره. وقد كان ثقة عابدًا فقيهًا (ت ١٢٠هـ على خلاف) عن ٨٤ سنة. (انظر الذهبي: سير، ٥/٣١٣ – ٣١٤ – ابن حجر: نفس المصدر، ١٢/٤٠ – ٤٢ – ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣١٧ – ٣٢٣).

(٦) لم أعثر له على ترجمة.

(٧) بشأن عزل ابن حزم واستعمال عبدالرحمن بن الضحاك، (انظر: ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٣٢ – الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٥٧٥ – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢/٣٢ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٦٦ – وكيع: أخبار ١/١٤٢، ١٤٨ – ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢٤٤ – ابن خلدون: العبر، ٣/٧٦ لكنه ذكر خطأ أن ابن الضحاك أميرها من أيام عمر بن عبدالعزيز).

(٨) ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٣٤ (قال مسلمة المخزومي) الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحة – وكيع: نفس المصدر، ص١٤٨ (أورد الاسم سلمة بن عمر بن أبي سلمة ابن عبدالأسد المخزومي) – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة.

من حملة العلم من الموالي. وفي هذا رد على من قال: أن العرب ظلوا ولاة هذا الديوان حتى عصر هشام بن عبدالملك فولاه الموالي. وقد لاحظ هذا الخطأ وسبقنا إلى تصحيحه عبدالله السيف[١]، فقال: لقد تولى الموالي ديوان المدينة منذ عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك بولاية عبدالرحمن بن هرمز واستمر ذلك في عهدهشام بولاية ابن أبي عطاء عليه.

ويشير ابن حبيب[٢] إلى ولاية رجل يدعي ابن خارجة الأنصاري على ديوان المدينة منذ عهد عبدالملك بن مروان حتى عهد هشام. وليس لذلك من تفسير إن صحت هذه الرواية إلا أنه كان على فرع آخر لديوان المدينة، مما يعني وجود فروع متعددة بالأمصار الإسلامية للدواوين التي أنشئت واستحدثت في عاصمة الدولة دمشق[٣].

---

(١) الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الرياض، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص١٧٥ – ٢٤٧ – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٢/٢ – ٣١٣ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٨/٤ – الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٤٣/٤.

(٢) المحبر، ص٣٧٨.

(٣) كانت نشأة الدواوين الإسلامية، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد استحدث في عهده منها، ديوان الجند (العطاء)، وديوان بيت المال، وديوان الرسائل ثم أخذ الجهاز الإداري منذ أن وضع عمر لبنته الأولى ينمو شيئاً فشيئاً حتى أخذ صورته شبه النهائية في العصر العباسي، وفي العصر الأموي، بلغت الدولة الأموية أقصى اتساعها، وعاشت كثير من المتغيرات والمستجدات، مما أدى إلى تطوير الجهاز الإداري، ونمو الدواوين القديمة، وإنشاء دواوين جديدة وتعريب الدواوين، وقد استقر الأمر في العصر الأموي على ستة دواوين ثلاثة منها التي تم إنشاءها زمن عمر إضافة إلى ديوان الخاتم وديوان البريد، وديوان الخراج. وكانت هذه الدواوين المركزية في عاصمة الدولة، ولها فروع في الأمصار الإسلامية، وكانت تكتب في الأمصار بلغة الإقليم، حتى عربت الدواوين زمن عبدالملك بن مروان وأتمها ابنه الوليد. وكانت الدواوين المركزية في المدينة زمن الخلفاء الراشدين، ثم انتقلت إلى الكوفة في عهد أخرهم وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ثم استقرت في دمشق إبان العصر الأموي (عن الدواوين نشأتها وتطورها. انظر: أحمد السيد دراج: صناعة الكتابة وتطورها، ص٢٠ – ٤٣ – فرج محمد الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٨١ – ٩٦، ١٩٦ – ٢١٢ – عبدالعزيز عبدالله السلومي: ديوان الجند نشأته وتطوره في الدولة الإسلامية حتى عصر المأمون، رسالة ماجستير مطبوعة، مكتبة الطالب =

أما مكة والطائف فقد أقر الخليفة يزيد عامل عمر بن عبدالعزيز عليهما وهو عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد، وقد ظل عليها حتى (عزله سنة ١٠٣هـ)، وضمت مكة إلى عبدالرحمن بن الضحاك أمير المدينة.

واستعمل على الطائف عبدالواحد بن عبدالله النصرى[١].

وللأسف فإن المصادر لا تمدنا بأسباب عزله عبدالعزيز بن أسيد عن مكة.

وتشير المصادر إلى أن عبدالرحمن بن الضحاك قد أساء السيرة في أهل ولايته، فكان أميرًا مذمومًا سار فيهم بالظلم والعدوان، فكرهه الناس، ولم يقله الخليفة من عثرته فعزله وعاقبه. ويكفينا إيراد هذا النص على لسان الزهري ففيه صورة واضحة لسيرته. يقول الزهري: «قلت لعبدالرحمن بن الضحاك إنك تقدم على قومك وهم ينكرون كل شيء خالف فعلهم، فالزام ما أجمعوا عليه، وشاور القاسم بن محمد – يعني ابن أبي بكر، من سادات التابعين وأحد الفقهاء السبعة – وسالم بن عبدالله – يعني ابن عمر بن الخطاب، من كبار التابعين وأحد الفقهاء السبعة أيضًا[٢] – فإنهما لا يألونك رشدًا، قال الزهري: فلم يأخذ بشيء من ذلك، وعادى الأنصار طراً، وضرب أبابكر بن حزم ظلمًا وعدوانًا في باطل، فما بقي منهم شاعر إلا هجاه، ولا صالح إلا عابه وأتاه بالقبيح، فلما ولي هشام رأيته ذليلاً[٣]».

وكما لاحظنا أن الزهري ضرب مثالاً على ظلم ابن الضحاك، ضربه لابن حزم، وقصة ذلك: أن ابن الضحاك لما قدم المدينة أميرًا وقد عزل عنها ابن حزم، دخل عليه

= الجامعي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص٩٣ – ١١٦، ١٤٥ – ١٧١)، وانظر التمهيد، ص ١٧ – ١٩.

(١) عن عزل عبدالعزيز بن أسيد عن مكة والطائف وضم مكة إلى ابن الضحاك واستعمال عبدالواحد النصرى على الطائف. (انظر: ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٢ – الطبري: تاريخ الأمم، ٦٢٠/٦ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٤/٤ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٩/٩ – ابن خلدون: العبر، ١٣٩/٣ – القلقشندي: مآثر، ١٤٨/١.

(٢) انظر ترجمتيهما عند (ابن حجر: تهذيب، ٢٩٩/٨، ٣٧٨/٣).

(٣) الطبري: نفس المصدر، ١٠٤/٧. ويشير إلى هذه السيرة أيضا: ابن الأثير: نفس المصدر، ١٨٨/٤ – ابن كثير: نفس المصدر، ط١، ٢٥٧/٩ – ابن خلدون: نفس المصدر، ٨٤/٣.

الأخير مسلمًا فلم يقبل عليه ابن الضحاك فلزم بيته. وهذا ما جعل ابن الضحاك يظن بابن حزم الكبر ويتهمه بالخيانة، وحاول ابن حزم أن يوضح له الأمر، لكن الأمر ظل يتربى بين الرجلين، ابن حزم يخشى ظلمه، وابن الضحاك يتصيد الأسباب للنيل من ابن حزم، فأراد أن يستغل شكوى رجل من بني فهر يتظلم فيها من قضاء لابن حزم في أرض دفعها إلى خصمه، لكن ابن حزم أبدى حجته الشرعية فاقر بها الشاكي، فلم يجد ابن الضحاك طريقًا على ابن حزم وأخرج الخصوم وقد أسقط في يده.

وجاءت الفرصة لأن الضحاك للنيل من خصمه عندما طلب عثمان بن حيان[١] من الخليفة أن يقيده – أي يقتص له – من ابن حزم الذي ضربه حدين، فأبى الخليفة عليه ذلك، وعرض عليه إمارة المدينة، فأبى ابن حيان وقال: لو ضربته بسلطاني لم يكن لي قودًا، فكتب الخليفة إلى ابن الضحاك أمير المدينة: انظر فيما ضرب ابن حزم ابن حيان، فإن كان قد ضربه في أمر بين فلا تلتفت إليه، وإن كان في أمر يختلف فيه فلا تلتفت إليه، وإن كان ضربه في أمر غير ذلك فأقده منه. وكان ذلك من الخليفة بعد أن سأل ابن حيان حاجته عندما حمل إليه رأس يزيد بن المهلب، بعد القضاء عليه في العقر[٢].

ويبدو أن ابن حيان قد أظهر للخليفة أنه كان مظلومًا، لذلك كتب إلى عامله على المدينة، لكنه أمره بالتبين من ظلم ابن حزم له قبل أخذ القود منه.

وكان ابن الضحاك يعلم أن ليس له من طريق على خصمه من وراء كتاب الخليفة، وقد أخبر ابن حيان بذلك. لكنه أراد أن يحسن إلى ابن حيان، وينال من خصمه لما في نفسه من ضغينة عليه، فجمع (سنة ١٠٣هـ) بين عثمان بن حيان وابن حزم، فتحامل

---

(١) انظر ترجمته قبل: ص٣٤٦.

وكان سبب العداء بين ابن حيان وابن حزم أن ابن حيان كان أميرًا للمدينة، فعزله سليمان بن عبدالملك بابن حزم، فجلده الأمير الجديد حدين الأول في خمر وجد في بيته اعترف أنه شرب منه، والآخر في قوله لرجل يالوطي (انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٥٠٥/٦ – وكيع: أخبار القضاة، ١٤١/١ – ١٤٢).

(٢) هناك قول آخر بأن حامل رأس ابن المهلب إلى الخليفة رجل غير ابن حيان هو خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط. (انظر قبل: الفصل الأول، المبحث الأول، ص١٩٨ فقد يكون حمله معه، أو أنه سبق إلى الخليفة ببشارة النصر.

على الأخير، وجلده حدين في مقام واحد ظلمًا وعدوانًا. قودًا بعثمان بن حيان[1].

وينفرد الذهبي[2] بإيراد خبر يشير فيه إلى حسن سيرة ابن الضحاك فيقول: «عبدالرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري، أحد أشراف العرب، ولي أمرة المدينة فأحسن إلى أهلها».

ومن الصعب الالتفات إلى قول الذهبي لإجماع كثير من المصادر السابقة له على سوء سيرة ابن الضحاك.

ويؤكد ذلك محاولته استغلال سلطاته في مقاصده الشخصية من قصته مع فاطمة بنت الحسين[3] التي أدت إلى عزله ومعاقبته، ذلك أنه خطبها للزواج، فأبت لقعودها على بنيها، فألح عليها وتهددها بجلد أكبر أبنائها في الخمر إن لم تجبه، وكان على ديوان المدينة- ديوان الخراج - عبدالرحمن بن هرمز، وقد كتب إليه الخليفة يزيد، أن يقدم عليه للمحاسبة، فدخل على فاطمة يودعها، فطلبت منه أن يخبر الخليفة يزيد بما تلقي من ابن الضحاك، وبعثت رسولاً آخر بكتاب إلى الخليفة بذلك، فلما بلغه الخبر استشاط غضبًا ونزل عن فراشه وجعل يضرب بخيزران في يديه وهو يقول: «لقد اجترأ ابن الضحاك، هل من رجل يسمعني صوته في العذاب وأنا على فراشي». فقيل له عبدالواحد بن عبدالله النصرى. فكتب الخليفة أمره بعزل ابن الضحاك عن المدينة ومكة، وتولية أمير الطائف عبدالواحد النصرى المدينة ومكة أيضًا، كما كلفه بتغريم ابن الضحاك أربعين ألف دينار، وتعذيبه فعلم ذلك ابن الضحاك من صاحب البريد فارتحل إلى

---

(1) عن قصة ابن الضحاك وابن حزم، انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٥٧٤/٦ - ٥٧٥، ٦٢٠) - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٢/٢ - وكيع: أخبار القضاة، ١٤٢/١ أبو العرب: كتاب المحن، تحقيق يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص٣١٤ قال حمل رأس يزيد بن التيهان ولا نعرف هذا النسب لابن المهلب - ابن الأثير: الكامل، ١٦٦/٤ - ابن كثير: البداية، ط١، ٩م٢٤٤.

(2) تاريخ الإسلام، ١٤٣/٤.

(3) فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، تزوجت من ابن عمها حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب فخلف عليها بعد وفاته عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان فمات عنها فقعدت على بنيها. فكان من أمر الضحاك معها - ما أشرنا إليه أعلاه - روت الحديث، وقد ذكرها ابن حبان في الثقات (ابن سعد: الطبقات، ٤٧٣/٨ - ٤٧٤ - ابن حجر: تهذيب، ٤٦٩/١٢ - ٤٧٠).

الشام واستجار بمسلمة بن عبدالملك، الذي توجه إلى الخليفة يستعفيه، فما قبل منه، ورده إلى عبدالواحد النصرى في المدينة، فأجرى فيه حكم الخليفة، فأصبح يرى في المدينة عليه جبة من صوف وهو يسأل الناس[١].

وقد كان عزل ابن الضحاك في النصف من شهر ربيع الأول (سنة ١٠٤هـ). بعد ولاية دامت ما يقارب الثلاث سنين[٢]. وإذا صح أن ولايته في رمضان سنة ١٠١هـ، وعزله في ربيع الأول سنة ١٠٤هـ تكون ولايته سنتين ونصف تقريبًا. ويكفينا تعليقًا على موقف الخليفة من ابن الضحاك وعزله، قول عماد الدين خليل[٣] إذ يقول: «فها هو الخليفة يمتص بإجرائه الحاسم هذا غضب العلويين والأنصار ويوفر على الدولة جهدًا كبيرًا، وعلى وحدة المجتمع شرخًا محتملاً». إلى جانب ما في ذلك من المرونة وحسن التصريف وتدارك الأمور قبل تفاقمها.

والحق أن الخليفة قد أحسن الاختيار في خلف ابن الضحاك وهو عبدالواحد النصرى، الذي كان قدومه المدينة يوم السبت للنصف من شوال (سنة ١٠٤هـ)[٤]

---

(١) من أجل خبر ابن الضحاك وفاطمة بنت الحسين وموقف الخليفة وعزله غياه. (انظر: ابن سعد: الطبقات، ٤٧٤/٨ - الطبري: تاريخ الأمم، ٣١٣/٧ - ٣١٣ - ابن الأثير: الكامل، ١٨٨/٤ - ابن كثير: البداية، ط١، ٢٥٧/٩ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٤٣/٤ - ابن خلدون: العبر، ٨٤/٣ (وقد أشار إلى أن صاحب البريد كشف الخبر لابن الضحاك عن طريق رشوة قدرها (ألف دينار). وفي ذلك قرينة على وجود بعض ألوان الفساد الإداري في جهاز الدولة).

(٢) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص١٢ - وكيع: أخبار، ١٥٠/١ - ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٨٧ - ١٨٨ - ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء والصفحة (وقد جعل ولايته ثلاث سنين وأشهر) - القلقشندي: مآثر، ١٤٩/١ - ابن خلدون: نفس المصدر والجزء، ص١٣٩.

(٣) دراسة مقارنة (بحث)، ص٢٩٩.

(٤) عن ولاية عبدالواحد النصرى المدينة ومكة مع الطائف وقدومه المدينة، (انظر: ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص٣٣٢ - الطبري: نفس المصدر، ١٢/٧، ١٤ - ابن الأثير: نفس المصدر، ١٨٨/٤ - ابن كثير: نفس المصدر، ط١، ٢٥٧/٩ - ابن خلدون: نفس المصدر، ٨٤/٣، ١٣٩ - القلقشندي: نفس المصدر، ١٤٩/١).

فاستقضى سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف الزهري[١]، ثم سعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت[٢]، وقيل سعيد بن سليمان بن سعد بن إبراهيم[٣]. وقد كان عبدالواحد النصرى، رجلاً صالحًا، يتعفف في حالاته كلها ويذهب مذاهب الخير، لا يقطع أمرًا إلا استشار فيه القاسم وسالما. فلم يقدم على أهل المدينة أحب منه[٤]، واستمر فيهم حتى عزله هشام (سنة ١٠٦هـ)، بعد ولاية دامت سنة وثمانين أشهر[٥].

وقبل أن نترك إقليم الحجاز لا بأس من الإشارة إلى خبر ينفرد به ابن الجوزي[٦]، لا نجده عند غيره إذ يقول: «ومن أولاد عمر بن عبدالعزيز، عبدالعزيز ولي المدينة ومكة ليزيد بن عبدالملك». وأظنه وقع في لبس. فعبدالعزيز بن أسيد كان عاملاً لعمر بن عبدالعزيز على مكة ثم أقره يزيد ثم عزله. ولا أراه إلا وقع في لبس بينهما، إذ لم يرد ذلك عبدالعزيز بن عمر في عمال يزيد على المدينة أو غيرها.

وقد أقام الحج في خلافة يزيد بن عبدالملك، عبدالرحمن بن الضحاك (سنة ١٠١هـ، سنة ١٠٢هـ، وسنة ١٠٣هـ) كما أقامه عبدالواحد النصرى، (سنة

---

(١) سعيد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف بن الزهري، من رواة الحديث الثقات، كان من سادات قريش، دينًا عفيفًا، تولى قضاء المدينة، فكان يتقي بعد عزله كما كان يتقي وهو قاض. قيل: كانت وفاته سنة (١٢٦هـ على خلاف). (ابن حجر: تهذيب، ٣/٤٠٢ - ٤٠٤).

(٢) سعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت الأنصاري المدني، من رواة الحديث الثقات، كان فاضلاً عابدًا، أكره على القضاء، وقيل أن قضاءه كان لإبراهيم بن هشام المخزومي، ووفاته (سنة ١٣٢هـ). (ابن حجر: نفس المصدر، ٤/٣٨).

(٣) ابن خياط، تاريخ ابن خيط، ص٣٣٤ - وكيع: أخبار القضاة، ١/١٥٠ - ١٥١.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم، ٧/١٤ - ابن حجر: نفس المصدر، ٦/٣٨٧ - ٣٨٨ - ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨٨.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر والجزء، ص٣٨٨.

(٦) سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص٣١١. وقد ورد عند ابن حبيب في كتابه المحبر، ص٢٨، عند ذكره أمراء الحج زمن يزيد قال: ويقال أقامه - أي أقام الحج - سنة ١٠١هـ، عبدالعزيز بن عمر، لكنه لم يصرح بولايته.

١٠٤هـ)[1]. وفي هذا دلالة، على أن أمير المدينة في زمنه كانت له إمارة الحاج إذ أن إمارة مكة في (سنتي ١٠١هـ، ١٠٢هـ) لعبدالعزيز ابن أسيد، فلم يعهد إليه بذلك.

عماله على اليمن:

أقر الخليفة يزيد على اليمن عروة بن محمد السعدي[2]، وكان قد ولي عليها من قبل الخليفة سليمان بن عبدالملك، ثم أقره عمر بن عبدالعزيز، ومن بعده الخليفة يزيد، وقيل: بل كانت ولايته عليها من قبل عمر فأقره يزيد[3]. فظل عليها حتى عزله عنها (سنة ١٠٣هـ)، وقد كان في ولايته من صالح العمال، عفيفًا عن أموال المسلمين، خرج من اليمن وما معه سوى سيف ومصحف[4]. ومما يؤسف له أن المصادر لم تقدم لنا شيئًا عن أسباب عزله.

واستعمل الخليفة يزيد على اليمن بعده مسعود بن غوث الكلبي[5]، فبقي عليها حتى خلافة هشام بن عبدالملك[6]، ولا نعرف شيئًا عن السياسات التي اتبعاها، سوى بعض

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، طبعة دار بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ٢/٣١٤ - ابن حبيب: المحبر، ص٢٨ (وأضاف: وقيل أقام الحد سنة ١٠١هـ عبدالعزيز بن عمر). وهذا خبر غريب لعدم ورود بولاية هذا إمارة مكة أو المدينة زمن يزيد. إلا ما ذكره ابن الجوزي عن ذلك متفردًا به عن غيره، مما دفعنا إلى التشكيك فيه واعتباره من باب اللبس. (انظر أعلاه).

(٢) عروة بن محمد بن عطية السعدي الجشمي، من خيار الناس حليمًا، عفيفًا، وهو من رواة الحديث الثقات. عاش إلى ما بعد الثلاثين ومائة من الهجرة. (ابن حجر: تهذيب، ٧/١٦٨ - ١٦٩).

(٣) عن ولاية عروة بن محمد على اليمن، (انظر: ابن خياط، تاريخ ابن خياط، ص٣٣٢، ٣١٨، ٣٢٣ - ابن سعد: الطبقات ٥/٣١٤ - ابن حجر: نفس المصدر والجزء والصفحة - عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠٥).

(٤) ابن حجر: نفس المصدر والجزء، ص١٦٩.

(٥) لم أعثر على ترجمته.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر والجزء والصفحة - الكبسي: اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمانية، مخطوط مكتبة كورسني، ايطاليا، رقم ٣٦١، مكروفيلم، بمركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، رقم ١١٧٠، تاريخ، ورقة ٢ ب - يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ص١١٨ (والأخيران ذكرا ولاية مسعود ولم يشيرا إلى إقرار عروة بن محمد).

الإجراءات المالية[1].

لكن حسين عطوان[2]. يذكر أن عامل يزيد على اليمن وحضرموت، هو الضحاك بن زمل السكسكي[3]، من أهل بيت لهيا من قرى دمشق. وهو يخالف بذلك ما أوردناه عن عمال يزيد على اليمن، ولعل الضحاك إن صحت هذه الرواية، كان على حضرموت وعروة ثم مسعود اللذين قدمنا ذكرهما، كانا على اليمن.

عماله على العراق والمشرق:

أدت أحداث إقليم العراق إلى توجيه سياسة الخليفة يزيد بن عبدالملك نحو ذلك الإقليم، فيبدو أن قيام يزيد بن المهلب بحركته مستهل عهد الخليفة يزيد، في البصرة من أرض العراق، قد أدى إلى اتخاذ خطوات وسياسات إدارية وعسكرية فرضتها الظروف.

فابتداءً، أقر الخليفة يزيد أمير العراق من قبل الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وهما: عبدالحميد بن عبدالرحمن على الكوفة، وعدي بن أرطأة على البصرة[4]. وذلك في محاولة منه للاستفادة من استقرار الأوضاع في الإقليم، ورضا الناس عن سياسة سلفه عمر وعماله، في كبح جماح ابن المهلب ووأد حركته في مهدها.

إلا أن فشل عامليه على العراق في منع ابن المهلب من دخول العراق، والوقوف في وجه حركته، أدى إلى توجيه أخيه مسلمة بن عبدالملك وأن أخيه العباس بن الوليد على رأس جيش كبير إلى العراق، للقضاء على ابن المهلب[5]، ومن ثم تعيين مسلمة أميرًا للعراق والمشرق كله، كمكافأة له على انتصاره على يزيد بن المهلب، واستكمالاً لسحق جيوب المقاومة، وتتبع من فر من المهالبة نحو قندابيل من أرض السند. وإعادة

---

(1) سنشير إلى تلك الإجراءات، خلال دراستنا لسياسة الخليفة يزيد المالية (المبحث الثاني).

(2) سيرة الوليد بن يزيد، ص١٩.

(3) لم أعثر له على ترجمة.

(4) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٧٦/٦ – ٥٧٨ – ابن أعثم: الفتوح، م٢٤٢/٤ – مجهول: العيون، ٥١/٣ – ابن الأثير: الكامل، ١٦٨/٤. (وانظر ترجمتيهما قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص٩٣).

(5) من أجل توجيه مسلمة إلى العراق، ودوره في القضاء على حركة ابن المهلب، (انظر قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص١٢٠ وما بعدها).

الاستقرار والهدوء لذلك الإقليم الهام في الدولة الإسلامية[1].

فلقد فرضت خطورة الموقف، المتمثل في حركة ابن المهلب، إلى اختيار الخليفة لرجل من أكفأ رجال دولته، وهو أخوه مسلمة، لمواجهة ذلك الخطر الذي يتهدد كيان الدولة في العراق. وهذا ما لجأ إليه عبدالملك عندما اختار الحجاج بن يوسف الثقفي لإمارة العراق[2]. بل وسبقه إليه معاوية رضي الله عنه عندما استعمل عليه زياد بن أبيه.

وكما كانت ظروف العراق دافعًا لتعيين نوع معين من الولاة، فقد أدت أيضًا إلى توحيد العراقين تحت إمرة أمير واحد، بل وجعل لهم الإشراف على الشرق كله يولون العمال ويوجهون الفتوحات والسياسة فيه، ويكون هؤلاء العمال مسئولين أمامهم. وقليلاً ما ولى الخليفة أمراء المشرق من قبله، وأحيانًا يوصي أمير العراق بتعيينهم[3]. والغاية من ذلك أن يكون المصران خاضعين لمشيئة رجل واحد وسياسة واحدة لئلا تضطرب الأمور باختلاف النزعات لو استقل كل مصر عن الآخر[4]، ولما في ذلك من قوة للأمير تمكنه من مواجهة الفتن التي طالما كان ذلك الإقليم ميدانًا لها.

وتختلف المصادر على ولاية مسلمة بن عبدالملك أمر العراق والمشرق، فمنها[5] ما يجعل ذلك قبل القضاء على حركة يزيد بن المهلب فتقول: أن الخليفة يزيد جمع لمسلمة في (أواخر سنة ١٠١هـ) أمر العراق والمشرق، وأمره بمحاربة ابن المهلب.

---

(١) ذهب إلى مثل هذا القول، محمد عبدالحي شعبان: الثورة، ص١٦٤.

(٢) ثابت الراوي: العراق، ص٥٣.

(٣) حدث هذا في عصر يزيد عندما أمر عامله على العراق عمر ابن هبيرة بتوجيه سعيد بن عمرو الحرشي إلى ولاية خراسان. وهذا التدخل فرضته ظروف ذلك الإقليم المتمثلة في تمرد الصغد وهجمات الترك على الممالك الإسلامية فيما وراء النهر. (انظر ذلك بعد: ص٤٨٣ - ٤٨٤).

(٤) ثابت الراوي: نفس المرجع، ص٥٥، ٥٩.

(٥) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٥ـ ٣٢٨، الذهبي: دول الإسلام، ٢٣٩/١ - ٢٤٠ - ابن العماد شذرات، ١٢٢/١ - ابن العبري: مختصر، ص١١٥ - المقدسي: البدء، ٤٧/٦ (وقد أضاف إلى الاسم زيد فقال زيد بن مسلمة مخطئًا. والمقدسي وابن العبري ذكرا مخطئين: أن الخليفة يزيد ولى ابن هبيرة العراق والمشرق وبعث مسلمة لقتال ابن المهلب. وهذا خبر شاذ فولاية ابن هبيرة جاءت بعد عزل مسلمة بن عبدالملك).

ومن المصادر[1] ما يجعل ذلك بعد فراغ مسلمة من حرب ابن المهلب (أوائل سنة ١٠٢هـ). والقول الأخير هو ما نرجحه، إذ لم يقم الخليفة يزيد بعزل عاملي عمر على العراق، وظلا على ما هما عليه حتى غلب ابن المهلب على البصرة، فأسر وسجن أميرها عدي بن أرطأة وظل في سجن ابن المهلب، حتى قتله معاوية بن يزيد بن المهلب صبرًا بواسط، بعد هزيمة أبيه ومقتله في العقر[2].

وقد خضع لابن المهلب خلال حركته بعض الأقاليم القريبة من البصرة، ولى عليها رجالاً من قبله، فظلوا عليها حتى قضى عليه، فعزلهم مسلمة واستعمل غيرهم[3].

وبقى عبدالحميد بن عبدالرحمن على الكوفة، حتى نزل مسلمة أرض العقر للقاء ابن المهلب، فعزله مسلمة عن الكوفة، وولاها ذي الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عتبة ابن أبي معيط. وتعزو المصادر أسباب عزله إلى استقلال مسلمة عدد الرجال الذين بعثهم عبدالحميد كمدد لمسلمة من أهل الكوفة، ولعدم سيطرته على أهلها ومنعهم من الانضمام إلى ابن المهلب[4]. وإن كان في عزل عبدالحميد من قبل مسلمة إشارة لسلطان مسلمة على العراق، أو قرينة تؤيد القول بأن تولية مسلمة كان قبل حرب ابن

---

(١) عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٤١ (نقلاً عن الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦٠٤ – ابن خلكان: وفيات، ٦/٣٠٧). وقد ذهب إلى تقديم القول بولايته بعد حرب ابن المهلب، كما قلنا اعتمادًا على نص ابن خلكان بذلك – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٧٧ – ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢٤٨ – ابن خلدون: العبر، ٣/٨٠. وهناك مصادر لم تحدد متى كانت ولايته مشيرة إليها فحسب كابن قتيبة: المعارف، ط٤، ص٣٥٨ – البلاذري: فتوح البلدان، ص٤١٦ – أبوحنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، ص٣١٨.

(٢) من أجل تصدي عدي لحركة ابن المهلب في البصرة، وما آل إليه أمره، (انظر: قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص١٤٠ وما بعدها).

(٣) من الأقاليم والمدن التي استولى عليها ابن المهلب إبان حركته: البصرة، عمان، البحرين، الأهواز، فارس، كرمان، بكرمان، السند، الهند وغيرها. انظر أسماء من استعملهم عليها قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص١٥٩.

(٤) انظر دوره في مواجهة حركة ابن المهلب، حتى تم عزله من قبل مسلمة أوائل سنة ١٠٢هـ، انظر قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص١٣٨ – ١٣٩، ١٥ – ١٨٦، ١٨٨ – ١٨٩ وما بعدها.

المهلب. إلا أن هذا السلطان فيما يبدو كان سلطانًا عسكريًا. والعراق في ساعة فتنة، حق للقائد العام خلالها، اتخاذ التدابير الكفيلة بانتصاره.

وبعد أن فرغ مسلمة من أمر ابن المهلب، جاءته ولاية العراق والمشرق. فاتخذ من مدينة الحيرة مركزًا جديدًا لإدارة الأقاليم التابعة له، ولعل ذلك راجع لبعدها عن أحداث حركة ابن المهلب، وبقائها بمنأى عن العصبيات القبلية والأهواء السياسية، التي كانت تعج بها مدن العراق المهمة الكوفة وواسط والبصرة(١).

ومنها وجه عماله، فاستعمل على البصرة عبدالرحمن بن سليم الكلبي، وكان قد قام بأمرها بعد خروج آل المهلب منها شبيب بن الحارث المازني، تراضى عليه أهلها فضبطها. لكن مسلمة عزله وولى الكلبي، وعلى شرطتها وأحداثها عمر بن يزيد التميمي. فما لبث مسلمة أن عزل عبدالرحمن، عندما بلغه من عمر التميمي إرادته استعراض أهل البصرة، أو كما قال ابن خلدون(٢): قتل شيعة بني المهلب. فولى أمرها عبدالملك بن بشر بن مروان(٣)، وأقر عمر على الشرطة والأحداث فاستقضى عبدالملك بن بشر، النضر بن أنس بن مالك، ثم ولى مسلمة قضاءها موسى بن أنس بن مالك(٤) سنة ١٠٢هـ(٥). ولعل في عزل مسلمة عبدالرحمن الكلبي لعزمه قتل شيعة آل الهلب ردًا كافيًا على من قال بتعصب الحكومة لقيس وتحاملها على اليمنية.

---

(١) عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٥١ وهامش ٥٤.

(٢) العبر، ٣/٨٠.

(٣) لم أعثر على ترجمة له.

(٤) موسى بن انس بن مالك الأنصاري قاضي البصرة، تابعي من رواة الحديث الثقات. (ابن حجر: تهذيب، ١٠/٢٩٨ - ٢٩٩).

(٥) عن عمال مسلمة على البصرة، (انظر: ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٢ (لكنه لم يشر إلى عزل عبدالرحمن الكلبي بعبدالملك بن بشر فقال: «ثم قدم مسلمة بن عبدالملك وهو على العراق عبدالرحمن الكلبي مسلمة، ثم ولى مسلمة عبدالملك بشر بن مروان» - الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦٠٤ - ٦٠٥ - ابن الأثير: الكامل، ٤/١٧٧ (أورد الحارث في اسم شبيب بن الحارث الحرث، وكذلك أورد سليم في اسم عبدالرحمن ابن سليم، سليمان).

أما الكوفة فقد أشرنا إلى استعمال مسلمة لذي الشامة عليها، فظل عليها حتى عزله عنها عمر بن هبيرة (سنة ١٠٣هـ)[1]. وأقر على قضائها القاسم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود[2]. وقد كان على ذلك منذ عهد عمر[3].

وقد استكتب مسلمة في ولايته على العراق، سميع مولاه وجعل على ديوان الرسائل الليث بن أبي رقية مولى أم الحكم بنت أبي سفيان، وعلى ديوان الخراج سليمان بن سعد الخشني، وعلى ديوان الخاتم نعيم بن سلامة مولى لأهل اليمن من فلسطين[4]، وقيل بل رجاء بن حيوة الكندي[5][6].

وفي ذلك قرينة على الاعتماد على الصالحين من الناس كرجاء في حكومة يزيد بن عبدالملك، ودليلاً على الاعتماد على العنصر اليمني في إدارة العراق في زمن يزيد. مما يدفع القول بإبعادهم عن إدارة المشرق، وإن كانت المضرية قد اختصت بالولاية الكبرى في العراق بعد حركة ابن المهلب.

عماله على الأقاليم الشرقية:

كانت خراسان تحت أمرة عبدالرحمن بن نعيم الغامدي منذ عهد الخليفة عمر بن

---

(١) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٣.

(٢) القاسم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود الهذلي، الإمام المجتهد، قاضي الكوفة، ولد صدر خلافة معاوية، من رواة الحديث الثقات. كان لا يأخذ على قضائه شيئاً، فقد كان في كفاية. توفي (سنة ١٢٦هـ). (الذهبي: سير، ١٩٥،٥ - ١٩٦).

(٣) ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٣٤ - الطبري: تاريخ الأمم، ٦١٨/٨ - ابن الأثير: الكامل، ١٨٢/٤.

(٤) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص١٨٩.

(٥) رجاء بن حيوة بن جرول، أبونصر الكندي الأزدي، ويقال الفلسطيني، الإمام القدوة، العادل، الفقيه، من جلة التابعين، من رواة الحديث، وكان ثقة، عالماً فاضلاً، كثير العلم. وكان سيد أهل الشام في أنفسهم، عمل على عقد الخلافة لعمر بن عبدالعزيز بعد سليمان، وكان كبير المنزلة عند سليمان وعمر، ثم أخر بعد ذلك، فأقبل على شأنه. وكان يزيد بن عبدالملك يجري عليه ثلاثين دينار في كل شهر، فقطعها هشام ثم ردها. أدرك معاوية وتوفي سنة ١١٢هـ. (الذهبي: نفس المصدر، ٥٥٧/٤ - ٥٦١).

(٦) الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحة - عواد الأعظمي: مسلمة، ص٧٦.

عبدالعزيز، فلما قام ابن المهلب بحركته في العراق بعث إليها أخاه مدركًا بن المهلب في محاولة الاستيلاء عليها وضمها إليه، فمنعه من دخولها عبدالرحمن بن نعيم بمساعدة تميم[١].

وكان الخليفة يزيد قبل قيام ابن المهلب بحركته، قد وجه إلى خراسان عبدالرحمن بن سليم الكلبي عاملاً، فبلغه وهو في طريقه إليها خروج ابن المهلب، فكتب إلى الخليفة يزيد يفضل رغبته في حرب ابن المهلب على إمارة خراسان[٢]، فانضم لمسلمة قائد الجيوش الأموية الموجهة للقضاء على حركة ابن المهلب[٣].

ويبدو أن الخليفة قد علم بموقف عبدالرحمن بن نعيم من تلك الحركة، وثباته على الولاء لدولته من خلال تصديه لمدرك بن المهلب ومنعه من دخول خراسان فأره عليها ولم يبعث أحدًا بعد عبدالرحمن الكلبي، حيث امن انضمام خراسان لخصمه يزيد بن المهلب.

ولاية سعيد بن عبدالعزيز على خراسان (سنة ١٠٢هـ) :

وبعد أن جمعت إمارة خراسان مع العراق لمسلمة بن عبدالملك، استعمل على خراسان (سنة ١٠٢هـ) سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وقد قيل: ولاه لأنه ختنه، فهو زوج ابنة مسلمة[٤].

وبولاية سعيد على خراسان، عادت سيطرة مضر على الإدارة في خراسان، حيث

---

(١) انظر موقف عبدالرحمن بن نعيم قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص١١٠.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ٥٤٨/٦ – ٥٨٥ – وانظر قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص٩٨.

(٣) لعل في استعمال عبدالرحمن بن سليم الكلبي اليمني على خراسان قبل قيام ابن المهلب بحركته دليلاً على عدم تعصب الخليفة يزيد للقيسية، وأن موقفه من المهالبة، والاعتماد في إدارة الأقاليم الشرقية من الدولة على العنصر المضري، قد جاء على اثر تلك الحركة، فيما ظل الاعتماد على القيادات اليمنية في كثير مما عداها من أقاليم الدولة.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤١٦ – أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، ص٣١٨ – الطبري: نفس المصدر، ٦٠٥/٦ – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١١/٢ – ابن الأثير: الكامل، ١٧٧/٤ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٨/٩.

استعادت تميم بعض ماضيها الذي أخذ بالانهيار[1]. فقد سيطرت اليمنية على زمام الإدارة هناك إبان عهد سليمان وخلفه عمر. وكذلك شطرًا من زمن الخليفة يزيد[2]، وهي تلك الفترة التي استمر فيها عبدالرحمن بن نعيم اليمني عامل عمر في ولايتها حتى تم عزله بسعيد بن عبد العزيز، فإن خذينة لما ولى أمرها قدم إليها قبل مسيرة بشهر سورة بن الحر من بني دارم. فاستعمل هذا شعبة بن ظهير النهشلي على سمرقند[3][4]. إلا أن سعيدًا قام بعزله عن سمرقند في العام نفسه (١٠٢هـ) وولى حربها عثمان بن عبدالله بن مطرف بن الشخير، وولى الخراج سليمان بن أبي السرى مولى لبني عوانة[5]. كما استعمل على هراة معقل بن عروة القشيري[6].

وكل هؤلاء الذين ولاهم سعيد بن عبدالعزيز، من مضر.

وقد كان لأحوال الإقليم من جراء تمرد الصغد وتدخل الترك فيما وراء النهر، دور كبير في فشل سياسات سعيد بن عبدالعزيز، وانتهاء الأمر بعزله. فمع أنه كان حريصًا على سيادة المسلمين، محرضًا إياهم على الصبر والشجاعة[7]، لمواجهة الأخطار، إلا

---

(١) ذهب إلى مثل هذا القول، ناجي حسن: القبائل، ص٢٠٠.

(٢) كان سليمان قد ولى خراسان يزيد بن المهلب الأزدي وعزل عنها وكيع بن أبي الأسود الذي قام بأمرها بعد قيامه على قتيبة وقتله إياه. ثم ولاها عمر بن عبدالعزيز الجراح بن عبدالله الحكمي بعد عزله يزيد بن المهلب ثم من بعده عبدالرحمن بن نعيم الذي استمر حتى خلافة يزيد. وكل هؤلاء من اليمنية. (انظر: ابن الأثير: الكامل، ٤/١٤٤ - ١٤٥، ١٥٧ - ١٥٨).

(٣) كانت بلاد ما وراء النهر، ومدنها الشهيرة كبخاري وسمرقند وفرغانة، تخضع إداريا لحكومة خراسان التي كان مقرها مدينة مرو شاهجان. وكان يعين على بخارى أمير وعلى سمرقند أمير وهذان لهما سلطات محدودة ويخضعان لأمير خراسان. (فامبري: تاريخ بخاري، ص٧٣).

(٤) عن تقديم سورة بن الحر وولاية شعبة بن ظهير سمرقند. (انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦٠٥ - ٦٠٧ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٤/١٧٧ - ١٧٨ - ابن خلدون: العبر، ٣/٨٠). (والأخيران جعلا ولاية شعبة على سمرقند من قبل خذينة، والأصح من قبل سورة فعزله خذينة بعثمان).

(٥) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٦٠٧ - ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٧٨ - ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٦) الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٧) ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢٤٨.

أنه فيما يبدو كان مقدمًا للأسلوب السلمي مع المتمردين من الصغد والمحاربين من الترك فيما وراء النهر. حيث كان يكتفي بصدهم، والانتصار عليهم ساعة اللقاء، ويمنع بعد ذلك جنده من تتبعهم واللحاق بهم، مما أوقعه في مواقف حرجة، وأطمع فيه الأعداء مما دعاهم إلى معاودة قتاله والانتصار إليه أحيانًا(١). وكان إذا بعث سرية فأصابوا وغنموا وسبوا، رد السبى وعاقب السرية، فثقل على الناس، وضعفوه(٢). كما بالغ في المرونة ومحاولة إرضاء أهل خراسان، فإنه عندما وصلها، لم يكن له علم بأهلها فاستشار قومًا من الدهاقين، فيمن يولي على الكور، فأشاروا عليه بقوم من العرب فلما ولاهم، شكوا، فسأل عنهم الناس، فأخبره عبدالرحمن القشيري عامل عمر بن عبدالعزيز على خراج خراسان أنهم ممن لا يخالف المشركين وأشباههم، فاستبدلهم بآخرين(٣). كما أن اتسام شخصه باللين والتنعم والسهولة لدرجة لُقب معها بخذينة(٤)، لم يمكنه من السيطرة على الموقف في ذلك الإقليم المضطرب(٥).

والحقيقة أن خراسان تعتبر في ذلك الوقت جبهة قتالية فكان من الضرورة أن يتسم أميرها بالحزم والخشونة، وأن يكون جامعًا لصفات القائد العسكري، والإداري المحنك، للزوم قيامه بقيادة الجيوش الفاتحة والقوى المدافعة، إلى جانب دوره كرجل إدارة لذلك

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤١٦ - البلاذري: أنساب، ٥/١٦١ - ١٦٢ (وانظر ما كتبناه عن لينه وسعيه للمسالمة مع الأعداء قبل: الفصل الثاني، الفتوحات فيما وراء النهر).

(٢) ابن خلدون: العبر، ٣/٨١ - ٨١ (ويشير في قصة مقتل حيان النبطي وهو رجل من الموالي اشتهر في خراسان بعد مشاركته في مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي، إلى أن من الموالي من كان يرفض سياسة اللين التي اتبعها سعيد تجاه الصغد المتمردين، وأنه كان ممن يفضل تتبعهم واستئصال شأفتهم. ومن أجل ذلك حدث بينه وبين سورة بن الحر خصام لخروجه عن الالتزام بأوامر الوالي في عدم اللحاق بالأعداء. فشكاه سورة إلى سعيد وخوفه غدره وأنه عدو للعرب والوالي، فوضع له سعيد مسحوق ذهب في لبن وأسقاه، فمات) - وأورد هذه القصة أيضًا الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦١٤ - ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨٠.

(٣) عبدالله الخطيب: الحكم الأموي في خراسان، ص١٢١ - ١٢٢.

(٤) انظر ما كتباه عن هذا اللقب قبل: الفصل الرابع، المبحث الأول، ص ٢٣٧.

(٥) عبدالله الخطيب: نفس المرجع والصفحات.

الإقليم الكبير، يدير شئونه ويرعى أهله.

وقد اتخذ عبدالله الخطيب[1]، عدم نجاح سعيد بن عبدالعزيز في ضبط الأمور سببًا في لجوئه إلى سياسة العنف، وذلك بلجوئه إلى القيام ببعض الاعتقالات لعمال تولوا ليزيد وسليمان، وآخرين تولوا بعض الأعمال لعمر بن عبدالعزيز، مستعينًا بدهاقين خراسان. والصحيح أنه لا علاقة لتلك الاعتقالات بأحوال الأقاليم المضطربة.

ويذهب ناجي حسن[2] إلى تفسير اعتقال سعيد بن عبدالعزيز بعض رجالات الأزد بتهمة احتجان[3] فيء المسلمين، بأنه اتخذ مبررًا للتنكيل بهم، تنفيذًا للسياسة الجديدة التي تقضي بتصفية الأزد بشتى الطرق، وكأنه يشير إلى أن سياسة الخليفة يزيد تقضي بتصفية الأزد اليمنيين كونهم قبيلة خصمه يزيد بن المهلب.

ويقرر عبدالله الخطيب ما ذهب إليه ناجي حسن فيقول: «وقد لقيت قبائل الأزد اليمنية عنتًا على يديه – يعني يزيد بن عبدالملك – بوجه عام وخصوصًا في خراسان، فأبعدوا وأهينوا و عذب الموالون للمهالبة أو المتهمون بذلك وأخذت أموالهم»[4].

ويبدو أن قول هذين المؤرخين ليسا من الدقة بمكان. فلقد رفع إلى سعيد، أن ثمانية من عمال يزيد بن المهلب على رأسهم جهم بن زحر الجعفي[5]، اختانوا أموالاً من فئ المسلمين، فحبسهم وشدد عليهم ليقروا بما عندهم. فمات بعضهم في العذاب وأخرج من بقى منهم، وقد أبدى ندمه على من مات ولم يكن يريد

---

(1) الحكم الأموي في خراسان، ص١٢١ – ١٢٢.

(2) القبائل، ص٢٠٠.

(3) الحجنة: ما اختزنت من شيء و اختصصت به نفسك، ومن ذلك يقال للرجل إذا اختص بشيء لنفسه قد احتجنه لنفسه دون أصحابه، واحتجن الشيء: احتوى عليه. انظر: اللسان (حجن).

(4) نفس المرجع، ص١٢٤ (نقلاً عن: ولهوزن: الدولة العربية، ص٣١٠).

(5) جهم بن زحر الجعفي، والي جرجان، كان من الأشراف الشجعان، خرج مع يزيد بن المهلب بالعراق وولى له اعمالاً، قبض عليه في خراسان، فعذب ومات في العذاب، سنة ١٠٢هـ. (الزركلي: الأعلام، ٢/١٤١).

ذلك[١]. فالمسألة مالية بحتة، وهذا الاعتقال محاسبة على مال وتحقيق في تهمة.

ومما يبين أن سعيدًا لم يكن هدفه من وراء ذلك تتبع اليمنية والتنكيل بهم، ما كان منه من اعتقال لعمال بعدالرحمن بن عبدالله القشيري عامل خراسان زمن عمر بن عبدالعزيز، وحبسهم، بتهمة أن عندهم أموالاً من الخراج، فضمن عنهم القشيري سبعمائة ألف، ثم لم يأخذه بها[٢]. ونحن لا نعلم لما تركها، أذلك تهاونًا في أموال المسلمين، وهو تفسير لا يتفق مع تشدده في محاسبة من اتهموا بذلك، أم أتضح له براءتهم من التهمة التي ألصقت بهم فأطلقهم، وهذا أولى، وللعلم أن عبدالرحمن القشيري، مضري لا يمني، مما يدل على أن الأمر مالي، والمحاسبة شملت من اتهم سواء كان يمنيًا أو مضريًا. بل أن حرصه على أموال المسلمين ومحاسبته على من أختان شيئًا منها، لم يتوقف على عمال الولاة السابقين، فقد عمد سعيد إلى محاسبة أبي سعيد معاوية بن الحجاج الطائي، وهو أحد عماله، بعد أن أتضح أنه قد بقي عنده شيء من أموال المسلمين، فأخذ به، وسجن وأوكل به من يحاسبه ويستأديه، فضيق عليه، فاستشفع قبيلة قيس، وكان له دور محمود في حرب العدو بوقعة قصر الباهلي[٣] ويدا في استنقاذ القيسية، فتدخلوا في أمره، فخلا سبيله[٤].

ومما يقوي ما ذهبنا إليه، من أن سعيدا لم يعمل على تصفية الأزد، وأن سياسته كانت موجهة بوازع من العصبية، قوله عن نفسه: «سميت خذينة لأني لم أطاوع على قتل اليمانية فضعفوني»[٥]. وهذا ما يبين قصور نظر بعض المؤرخين الذي يعمدون إلى

---

(١) البلاذري: انساب، ١٦٢/٥ – الطبري: تاريخ الأمم، ٦٠٦/٦ – ٦٠٧ – ابن الأثير: الكامل، ١٧٧/٤ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٤٨/٩ (قال: أخذ منهم أموالاً جزيلة، وإنه صح قوله، ففيه إشارة إلى صحة التهمة) – ابن خلدون: العبر، ٨٠/٣.

(٢) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٦٠٦ – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة (ولم يذكر سبب أخذهم) – ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة (لكنه لم يذكر ضمان عبدالرحمن القشيري وتدخله).

(٣) انظر ما كتبناه عن هذه الوقعة قبل: الفصل الرابع، المبحث الأول، ص٢٣٩ وما بعدها.

(٤) الطبري: نفس المصدر، ٦١١/٦ – ٦١٢ – ابن الأثير: نفس المصدر، ١٧٩/٤.

(٥) البلاذري: أنساب، ١٦١/٥ – ١٦٢.

تفسير كثير من الحوادث في ضــوء روح العصـبية القبليـــة، أو النزعـة الشـعوبية، والاعتماد على بعض النصوص وترك نصوص أخرى، إذا ما فحصت قـد يكـون فيهـا تفسيرًا لكثير من المواقف ودفعًا لكثير من التهم.

ونحن لا ننفي وجود العصبية القبلية، بل أن قول سعيد خذينة السابق فيـه إشـارة إلى وجود تيار يدعو إلى حرب اليمنية، ولابد أنه من ناحية المضرية. لكن أمير خراسان الذي يمثل الدولة، كان يريد أن تظل الدولـة فـوق مسـتوى الأحـداث محتويـة لكـل الصراعات ومختلف النزعات، إلا أن سياسته وشخصيته لم تعجب الكثير ممـن حولـه، فسعوا في عزله عند أمير العراق[١].

ونجد أن مسلمة نفسه عمد إلى محاسبة عمال ابن المهلب ومن ذلـك مـا روى أن مسلمة[٢] استدعى صالح بن عبدالرحمن صاحب الخراج أيام ابن المهلب، وكان بالشـام عند أخيه يزيد بن عبدالملك. فاتهمه بأنه رفع إلى يزيد بن المهلب ستمائة ألف درهـم، دون أن يأخذ بها تأييدًا منه باستلامها، فعذبه حتى مات في سجنه[٣]. ومن الواضـح أن تلك التهم لم تأت من فراغ، وأن الخلفاء والولاة لم يعمدوا إلى محاسبة العمـال بـدون قرائن أو دلائل. وهذا يدل على أن اضطراب الأحوال في الشرق الأوسـط سـاعد علـى شيء من الفساد الإداري والمالي، وهذا ما دفع الدولة إلـى اتخـاذ الأسـاليب الكفيلـة باستئصاله. ويقال أن مسلمة عمل على سحق ما تبقى من مراكـز المقاومـة، وأخـرج أفراد اليمنية جميعًا من مناصبهم[٤].

---

(١) البلاذري: أنساب، ١٦٢/٥.

(٢) هناك رواية تقول بأن ذلك تم على يد عمر بن هبيرة أمير العراق بعد مسلمة، (انظر ذلـك بعـد: ص٣٦٦).

(٣) نافع العبود: آل المهلب، ص٩٢ – ٩٣ (نقلاً عن/ الجهشياري: الوزراء، ص٥٨).

(٤) محمد شعبان: صدر الإسلام، ص١٥٤ (نقلاً عن/ الطبري، ١٤١٦/٢ – ١٤١٨). ولن نجد نحـن في الطبعة التي بين أيدينا من تاريخ الأمم للطبري، شيئًا من هذا القبيل، وإن كان غالب العمال في هذا الإقليم بالذات كان من المضرية، ولا لسبب في ذلك حركة ابن المهلب، إذ نجد الاعتماد علـى اليمنية فيما عداه من الأقاليم، مما يبين أن الاعتماد على المضرية ليس تعقبًا من الحكومة لهـا، وإنما فرضت ظروف الإقليم هذا النهج لضبط الأمور وفرض السيادة.

ونحن في الحقيقة لا نجد بين النصوص ما يؤيد هذا القول وغاية ما عرفناه هو القضاء على ابن المهلب في العقر، وتتبع الفرار من أهله في قندابيل وتصفيتهم، ومصادر أموالهم وممتلكاتهم. ولم تعم الإجراءات التأديبية قبائل اليمن عامة، أو من شايع آل المهلب، إلا أن يكون قتيل معركة أو أسير حرب، أما الاعتماد على مضر في إدارة الشرق الإسلامي، فقد دعت إليه ضرورة الفتنة، وانضمام الأزد اليمنية إلى الخارج يزيد بن المهلب. وكان اعتمادًا نسبيًا لا كليًا.

ولاشك أن فتن إقليم العراق قد ساعدت على ظهور الفساد الإداري والمالي في حكومة ذلك الإقليم، فقد أدت تلك الاضطرابات والفتن، إلى منح الأموال لكسب ود المتنفذين واستمالتهم، كما أدى إلى غض الطرف عن تجاوز بعض العمال في الاستيلاء على أموال المسلمين وصرفها في وجوه غير مشروعة، من ذلك ما ذكر عن استيلاء مسلمة على خراج العراق، وعدم رفعه إلى الخليفة في الشام، فخجل من محاسبته، واكتفى بعزله[1].

كما يشير عبدالله الخطيب[2] إلى أمثلة أخرى لتجاوز مسلمة واستغلال سلطانه، فيذكر أنه انهمك في استصلاح الأراضي وضمها إلى أملاكه، مما ساعد على ظهور الملكيات الكبيرة.

وقد ارتأى الخليفة يزيد بن عبدالملك عزل أخيه مسلمة عن إمارة العراق والمشرق. فأمر بذلك (أواخر سنة ١٠٢هـ، أو أوائل ١٠٣هـ). بعد ولاية دامت ثمانية أشهر وقيل ستة[3].

والمصادر تختلف حول أسباب عزله، فمنها ما يشير إلى أن ذلك عائد إلى عدم رفعه لخراج العراق[4]. وقيل: لاستحواذه على كثير من الأراضي الخراجية[1]. وقيل:

---

(١) محمد علي نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي، ص١٩٧ – ١٩٩.

(٢) الحكم الأموي في خراسان، ص١٢٣.

(٣) من اجل تاريخ عزله ومدة ولايته، (انظر مناقشة عواد الأعظمي لذلك في كتابه: مسلمة، ص١٤١ – ١٤٢ – الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦١٥ – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢/٣١١ – ٣١٢).

(٤) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٦١٥ – ٦١٦ – مجهول: العيون، ٣/٧٥ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١١٧ – ابن خلدون: العبر، ٣/٨٠.

قدح فيه بأنه غير مستأمن على الخراج[2]. وأشارت بعض المصادر أن ذلك تم لحاجة الخليفة إلى قرب مسلمة وشوقه إليه[3].

ومنها ما يعزو ذلك إلى تعصب الدولة لقيس، فعزل مسلمة بابن هبيرة القيسي[4].

والحقيقة أن هذه الأسباب مجتمعة فيها شيء من الوجاهة وإن كنا نستبعد آخرها. فمسلمة مضري، ولو كانت الخلافة ما فكرت في عزل مسلمة إلا من أجل العصبية لقيس لكان مسلمة المضري قادرًا على القيام بهذا الدور. مع أن الشك يراودنا في احتجانه الخراج، حيث أن ولايته لم تبلغ العام، وإن كنا لا نستبعد تجاوزه في بعض الأحوال، بسبب فتنة ابن المهلب يسند قولنا هذا رواية للأصفهاني، تشير بوضوح إلى أنه قدح في مسلمة حسدًا، وخوفوا الخليفة من أن يقتطع الخراج، فلا يستطيع الخليفة محاسبته، لمكانته وسنه، كأخ كبير ذي يد على يزيد وحق[5]. مما يدل على أن الأمر كان خشية من أمر لم يقع. كما أن في الخبر بحاجة الخليفة إلى قرب مسلمة سببًا وجيهًا، خصوصًا وأن مسلمة قائد عسكري أكثر منه إداري.

وقد يكون لتحرك الخزر على الجبهة الأرمينية، ومقتل عامله على إفريقية يزيد بن أبي مسلم على يد البربر نذير خطر دعا الخليفة إلى استدعاء مسلمة، للاعتماد عليه إن دعت الحاجة. كما أن بقاء مسلمة إلى جوار أخيه وقربه طوال خلافته، مشيرًا وناصحًا ومعينًا، وهذا ما لمسناه من أخبار يزيد المتفرقة، يشير إلى أنه لا خلاف بين الأخوين، وأن ذلك العزل لم يثر حفيظة مسلمة، ولعله كان مقتنعًا بأسبابه.

---

(1) ناجي حسن: القبائل، ص١٥٩ (نقلاً عن: ابن الأثير: الكامل، ٥/٤٠. ولم نجد هذا القول في النسخة التي اعتمدنا عليها. ولعله أراد الاستحواذ على الخراج، فقال أراضي الخراج).

(2) عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٤٤ (نقلاً عن: مجهول: العيون، ص٧٥).

(3) مجهول: نفس المصدر والجزء والصفحة – عواد الأعظمي: نفس المرجع، والصفحة (نقلاً عن: سيد علي المرصفي: كتاب رغبة الأمل، ١٦/٢ – ١٧).

(4) عواد الأعظمي: نفس المرجع،، ص١٤٨.

(5) الأغاني، ١٢٧/٥ – ١٢٨.

ولاية عمر بن هبيرة على العراق والمشرق:

ولى الخليفة يزيد بن عبدالملك عمر بن هبيرة الفزاري[1] العراق وخراسان (سنة ١٠٢هـ وقيل أول سنة ١٠٣هـ)[2]، مكان مسلمة بن عبدالملك بعد عزله. وكان الخليفة قد استحيا أن يبعث إلى أخيه بعزله، فكتب إليه: أن استخلف وأقبل. فاستخلف عبدالرحمن بن سليم الكلبي[3]. وفي طريقه لقي عمر بن هبيرة، فلما سأله عن سبب مقدمه قال: وجهني الخليفة لحيازة أموال بني المهلب، وكان يزيد قد صرفه عن إمارة

---

(١) عمر بن هبيرة بن معاوية – وقيل معية – بن سكين، الفزاري، يكنى أبا المثنى، أمير شامي من الدهاة الشجعان، كان رجل أهل الشام وهو بدوي أمي، قدم من البادية من بني فزارة فافترض مع بعض ولاة الحرب، كان يمني نفسه بولاية العراق، غزا مع عمرو العقيلي الروم فأظهر بسالة ونجابة، ثم كان مع الحجاج يبعثه في البعوث، وقد سيره في الجيش الذي بعثه للقضاء على مطرف بن المغيرة بن شعبة، فجاء برأسه، وقيل هو الذي قتله، وكان هذا قد خرج على الدولة، فسيره الحجاج بالرأس إلى عبدالملك، فأقطعه، ثم سيره الحجاج إلى كردم الفزاري ليخلص مالاً فارتاب منه عمر، ولجأ إلى عبدالملك وأبدى خشيته من الحجاج لأنه قتل ابن عمه، فأجاره، ومنع الحجاج عنه، وعظم شأنه عند عبدالملك وبنوه. وقيل أنه عمل على بر ابنة للحجاج تزوجها أحد بني عبدالملك، فأخبرت أباها فرضى عنه وطلب أن ينزل إليه حاجاته، ثم استعمله عمر بن عبدالعزيز على الجزيرة، فغزا الروم ونصر، واستمر على الجزيرة إلى خلافة يزيد فعزله عنها، وجمع له العراق وخراسان (سنة ١٠٣هـ)، ثم عزله هشام (سنة ١٠٥هـ) بخالد القسري فسجنه، فاحتال على الهرب، واستجار بمسلمة بن عبدالملك، وأخذ له الأمان من هشام. وقد غزا البحر (سنة ١٠٧هـ)، ثم لم يلبث أن مات بالشام سنة ١٠٧هـ، وقيل نحو ١١٠هـ. (انظر: الذهبي: سير، ٥٦٢/٤ – الزركلي: الأعلام، ٦٨/٥ – ٦٩ – الطبري: تاريخ الأمم، ٦١٥/٦ – ٦١٦ ابن الأثير: الكامل، ١٨١/٤ – ابن خلدون: العبر، ٨٢/٣).

(٢) سبب الخلاف أنه لم يعرف الشهر الذي عزل فيه مسلمة أو ولى فيه ابن هبيرة (انظر التاريخ لولايته عند: ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٤ – الطبري: نفس المصدر والجزء، ص٦١٧ – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة – الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٧٧/٤).

(٣) عن استخلاف مسلمة له وهو راحل إلى الشام، (انظر/ ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٧٥، وقد أورد معلومات مضطربة عمن ولى من قبل مسلمة، ومن ولاهم يزيد على العراق وخراسان إبان فترة ولاية مسلمة وبعدها، فلم نعتمد عليه لمخالفته جمهور المؤرخين. انظر منه ص٢٥٩).

الجزيرة وأذربيجان[1]، وولاه العراق وخراسان[2].

وتشير بعض المصادر[3] إلى أن حبابة جارية يزيد كانت وراء استعماله على العراق. إلا أن الناظر إلى شخصية هذا الرجل من خلال ترجمته يجده من الرجال المؤهلين لإدارة هذا الإقليم.

كما أن بعض المؤرخين المحدثين[4] قالوا: بأن تولية ابن هبيرة أمر المشرق جاء لتنفيذ سياسة يزيد القائمة على ا ساس التعصب لقيس، والهادفة إلى إبعاد اليمنية والنيل منها. فيقول عماد الدين خليل[5]: أن تعيين الخليفة يزيد لابن هبيرة القيسي الدم، جاء من جراء التعصب القبلي، فكانت إدارته متمشية مع ذلك، ولقد لقيت قبائل الأزد بوجه عام، خصوصًا في خراسان، على يديه عنتًا كبيرًا، وعذب الموالون للمهالبة أو

---

(1) هنالك إشارات إلى كتابته للخليفة يزيد، (انظر قبل ص٤٤٢ - ابن خلدون: العبر، ٨٢/٣). ولعل هذا كان بعد عزله عن الجزيرة وقبيل توليته العراق وخراسان.

(2) من اجل استعمال ابن هبيرة على العراق، (انظر: ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٨، ٣٣٥ - الطبري: تاريخ الأمم، ص٦١٥ - ٦١٧ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١١/٢ - ٣١٢ - ابن قتيبة: المعارف، ط٤. ص٣٦٤ - مجهول: العيون، ٧٥/٣ - ابن الأثير: الكامل، ١٨١/٤ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٧٧/٤. ويشذ مخطئًا أبوحنيفة الدينوري بالقول: أن يزيد عزل مسلمة بن عبدالملك وولى مكانه خالد القسري (انظر: الأخبار الطوال ٣٢٠/١). والصحيح أن ولاية خالد جاءت بعد عزل ابن هبيرة من قبل هشام. كما ينقل البلاذري مخطئًا: أن ولاية عمر بن هبيرة على العراق جاءت بعد وفاة يزيد بن عبدالملك من قبل أخيه هشام. (انظر: فتوح البلدان ص٤١٦-٤١٧).

(3) ابن الأثير: نفس المصدر، ١٨١/٤ - الأصفهاني: الأغاني، ١٢٧/١٥ - ١٢٨ - ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(4) من المؤرخين الذين فسروا تعيين ابن هبيرة على أساس العصبية القبلية، (إحسان النص: العصبية، ص٢٦٤ - فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٢٥٩ - ٢٦٠ - نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٣٠٤ - عمر أبوالنصر: الأيام الأخيرة للدولة الأموية، المكتبة الأهلية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٢م، ص١٢٦ - ١٢٧ - إبراهيم بيضون: ملامح التيارات السياسية، ص٣٣٣ - عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٤٨).

(5) دراسة مقارنة (بحث)، ص٢٩٤.

المتهمون بذلك وأخذت أموالهم[١].

ويبدو أن هؤلاء المؤرخين قد اعتمدوا في تفسيرهم هذا على انتساب ابن هبيرة إلى قبيلة فزارة القيسية، وبعض الأحداث والأقوال التي لا يمكن الركون إليها، دون النظر في مجمل سياسته وسيرته.

لقد كان ابن هبيرة عاملاً لعمر بن عبدالعزيز على الجزيرة، فهو أحد عماله الذين كما يقول نبيه عاقل[٢] عنهم: لم يكن تعيين عمر لهؤلاء على أساس من عصبيتهم القبلية، بالمقدرة والتقوي. فابن هبيرة إذا من أهل التقوى والمقدرة اللذين وثق فيهم عمر بن عبدالعزيز واستعملهم. يدل على تقواه، ما روى من استشارته الحسن البصري وابن سيرين والشعبي في بعض أوامر الخليفة يزيد، التي يخشى من جراء تنفيذها على دينه، وفي عدم التنفيذ على نفسه، فنصحوه وصدقه الحسن النصيحة، فضاعف له العطية[٣].

ومن حسن سياسته اجتهاده في استعمال أهل الصلاح والمقدرة، من ذلك دعوته المسيب بن رافع الأسدي[٤] للقضاء، إلا أنه أبى[٥]. وكذلك استعماله إياس بن معاوية المزني[٦]، رغم تهربه من ذلك[٧]. ومن ذلك أيضًا نصيحته لعامله على خراسان مسلم

---

(١) الإشارات التي وردت في المصادر عن محاسبة بعض الأزد من عمال يزيد بن المهلب، ذكرت أن ذلك تم في ولاية سعيد بن عبدالعزيز على خراسان وكان ذلك إبان فترة إمارة مسلمة على العراق، قبل ابن هبيرة، وكنا قد وضحنا الأسباب الحقيقية لذلك، وأن ذلك قد تم بعيدًا عن روح العصبية القبلية. (انظر قبل: ص ٣٥٦ وما بعدها).

(٢) تاريخ خلافة بني أمية، ص٢٥٦.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ٣٤٣/٢ - ابن خلكان: وفيات، ٧١/٢.

(٤) المسيب بن رافع الأسدي، كوفي، تابعي، من رواة الحديث الثقات، أهل العلم والدين. (ابن حجر: تهذيب، ١٣٩/١٠).

(٥) ابن سعد: الطبقات، ٢٩٣/٦.

(٦) إياس بن معاوية المزني، البصري، قاضيها، من رواة الحديث الثقات، عاقلاً فطنًا، فقيهًا عفيفًا، مات سنة ١٢٢هـ. (ابن حجر: نفس المصدر، ٣٤١/١ - ٣٤٢).

(٧) انظر قصة استعماله عند: ابن قتيبة: نفس المصدر، ٢٨/١ - ابن عبد ربه: العقد، ٢١/١ - ٢٢.

بن سعيد، أن يستعين في عمله بأهل الصلاح والأمانة وأن يدع للناس اختيار عمالهم[1].

كما أن ابن هبيرة ومن جاء بعده من الولاه كخالد القسري، ويوسف بن عمر، اتبعوا سياسة معتدلة مع العراقيين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، وإن كانوا قد عادوا إلى سياسة الحجاج المالية[2].

وهناك جانب مهم ألا وهو موقف ابن هبيرة من عصبيته قيس وموقفهم منه، أكان منحاز لهم؟ وهل كانوا راضين عنه؟ لنتبين على ضوء ذلك صدق القول بتعصبه لقيس، وتحامله على اليمنية.

فيبدو أن تعيينه أميرًا للعراق لم يكن مقبولاً من بعض القبائل المضرية، فالفرزدق الشاعر يعز عليه عزل مسلمة واستعمال ابن هبيرة فيقول من شعر له متهكمًا:

راحت بمسلمة الركاب مودعًا ... فأرعى فزارة لا هناك المرتع

ولقد علمت لئن فزارة أمرت ... أن سوف تطمع في الإمارات أشجع

من خلق ربك ما هم ولمثلهم ... في مثل ما نالت فزارة يطمع[3]

ويظهر أن ابن هبيرة اتخذ سياسة متوازنة، ولم يمالئ قومه على حساب العصبيات الأخرى، مما أثار ضغينتهم عليه، إذ لم يرضوا منه بالقليل، ومن هنا جاء قول شاعرهم:

فمن مبلغ رأس العصا أن بيننا ... ضغائن لا تنسى وإن قدم الدهر

رضيت لقيس بالقليل ولم تكن ... أخا راضيًا لو أن نعلك زلت

والمقصود برأس العصا «عمر بن هبيرة» لصغر رأسه، وكانت العرب تطلق ذلك على صغير الرأس[4].

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ٧/٣٤ – ٣٥، وأنظر بعد: ص٤٨٩.

(2) ثابت الراوي: العراق، ص١٨٠.

(3) عواد الأعظمي: مسلمة، ص٧٢.

(4) الجاحظ: البيان والتبيين، ط٥، ٣/٤٠ – ٤١.

بل أن عصبية أن هبيرة. تعرضت لبعض العقوبات منه، كمنع العطاء والأرزاق. وهذه الأفعال وردودها نجدها في أشعار الفرزدق إذ يقول:

منعت عطاء من يد لم يكن لها | بثدي فزاري نصيب تواصله
فأصبحت مما قد منعت كقابض | على الماء لم تقبض عليه أنامله

ويشير إلى بعض هذه التدابير في قوله:

لو لم تكن غطفان لا ذنوب لها | إلا لام ذوو أحلامهم عمرا
مما تشجع بي حين هجهج بي | من بين مغربها و القرن إذ فطرا
أن تمنع التمر من رازان مائرنا | فلست مانع جل الحي من هجرا[1]

ونحن إن كنا لا نعلم أسباب هذه الإجراءات التي اتخذها عمر بن هبيرة ضد قومه، إلا أنها كفيلة بالرد على القول أن سياسته وسياسة الدولة في عهد يزيد بن عبدالملك موجهة على أساس العصبية المضرية.

ومما لا شك فيه أن مصلحة الدولة كانت فوق كل اعتبار، ومن هناك جاء عزل مسلمة بابن هبيرة، وعزل ابن هبيرة لعمال لمسلمة وعلى رأسهم عبدالملك بن بشر بن مروان وكان على البصرة، ومحمد بن عمر وكان على الكوفة، وسعيد بن عبدالعزيز وكان على خراسان[2]، وهؤلاء جميعًا مضرية، بل ومن البيت الأموي الحاكم.

وقد ولى ابن هبيرة الصقر بن عبدالله المزني على الكوفة[3]، واستقضى (سنة ١٠٣هـ) الحسين بن الحسن الكندي بعد أن عزل القاسم بن عبدالرحمن، فظل على قضائها مدة خلافة يزيد[4].

أما البصرة فولى أمرها سعيد الحرشي، ثم حسان بن عبدالرحمن بن مسعود

---

(١) عون الشريف قاسم: شعر البصرة، ص١٨٨ – ١٨٩.
(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦١٥ – ٦١٦ – ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨١.
(٣) ابن سعد: الطبقات، ٦/٢١١ – عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠٥ (وقد أورد اسمه «الصعر»).
(٤) ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٨٢، ١٨٩، ١٩٣.

الفزاري من أهل دمشق، ويبدو أن ذلك تم قبل استعمال الحرشي علـى خراسـان. ثـم استعمل بعد حسان فراس بن سمى الفزاري، وهو زوج أم عمر بن هبيرة[1]. واستقضى عبدالملك بن يعلي فظل عليها سنة ١٠٣هـ، ١٠٤هـ، فكان على قضائها بعده (سـنة ١٠٥هـ) موسى بن انس بن مالك[2].

وقد كان على الشرطة بواسط سويد المري، وحوثرة بن سـهيل البـاهلي، وعلـى شرطة الكوفة محمد بن منظور الأسدي، وعلى شرطة البصرة ابن رياط[3].

وكتب لابن هبيرة رجل من أهل الشام يدعى عثمان، وسعد بن عطية والأخير مـن تلامذة صالح بن عبدالرحمن[4][5].

ويذكر الجهشياري[6] أن ابن هبيرة عزم على الجباية، فخاف مكـان صـالح بـن عبدالرحمن عند الخليفة يزيد، فأراد التخلص منه لما يعرف من علمـه بـأمر العـراق وأمواله، فكتب إلى الخليفة يعلمه بحاجته إلى صالح، فبعثه إليه من الشام، فسجنه ابـن هبيرة وعذبه بتهمة الخيانة، إذ كان صالح قد رفع إلى يزيد بن المهلـب سـتمائة ألـف درهم ولم يأخذ بها براءة منه، فجاء لابن هبيرة من يضمن المال، فأصبح صـالح ميتًـا في سجنه.

ومن أهم انجازات عمر بن هبيرة وإصلاحاته المالية والعمرانية إبان ولايته علـى

---

(١) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٢ - ٣٣٣.

(٢) ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٣٤ - ابن الأثير: الكامل ٤/١٨٤.

(٣) ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٣٥.

(٤) صالح بن عبدالرحمن التميمي، بالولاء. هو أول من حول دواوين الخراج من الفارسية إلى العربية في العراق، ولاه الحجاج أمر الديوان فنقله إلى العربية (سنة ٧٨هـ)، ثم ولاه سـليمان خـراج العراق، فأقره عمر، ثم استعفى فأعفاه، وقيل: عزله. فكان في الشام عندما كتب عمر بن هبيـرة إلى الخليفة يزيد أن يبعثه إليه في العراق، ليسأله عن الخراج، فلما وصل إليه قتله. (الزركلـي: الأعلام، ٣/١٩٢).

(٥) ابن خياط: نفس المصدر والصفحة - فرج الهوني: النظم الإداريـة والماليـة، ص٢٠٩ (وأورد الاسم «سعيد بن عطية») (نقلاً عن الجهشياري: الوزراء، ص٣٩).

(٦) الوزراء، ص٥٨.

العراق، قيامه بمسح السواد بأمر من الخليفة يزيد بن عبدالملك[1]، وتنفيذ أمر الخليفة يزيد بن عبدالملك سنة ١٠٤هـ القاضي بتعبيد طريق الحاج العراقي من الكوفة إلى مكة، وإنشاء المحطات عليه، وحفر الآبار فيه. إذ أن حجاج الركب العراقي كانوا يجدون صعوبة في حصولهم على الماء، ولهذا يعتبر يزيد بن عبدالملك أو خليفة أموي يهتم بطريق الركب العراقي، فلم تذكر المصادر التاريخية أية خدمات أخرى كبيرة قدمت من قبل خلفاء الدولة الأموية في هذا الطريق[2].

ويضاف أن إنجازاته بناء قنطرة الكوفة، التي قيل: أنه أحدثها، ثم أصلحت بعد ذلك أكثر من مرة. وفي قول آخر أنها أول ما بنيت في الجاهلية، فكان ابن هبيرة، ممن أعاد بناءها[3].

ومما يذكر في ولاية ابن هبيرة على العراق، تنبأ رجلين ضبي يدعى الأخطل، وآخر من الموالين يقال له سعيد. فكتب عمر بن هبيرة بأمرهما إلى الخليفة يزيد، فأمره بقتلهما، فقتلهما[4].

ولاية سعيد الحرشي على خراسان (سنة ١٠٣هـ):

أما عمال ابن هبيرة على الأقاليم التابعة لإمارة العراق، فقد شكى إليه سعيد بن عمر بن عبدالعزيز عامله على خراسان، فعزله، وولاها بأمر من الخليفة يزيد سعيد بن عمرو الحرشي، من بني عامر بن صعصعة، من قيس.

ويبدو أن ظروف ذلك الإقليم المتمثلة في تمرد الصغد على سلطان المسلمين، وإعانة الترك لهم، وإتباع خذينة سياسة المسالمة التي لم تفلح في إعادة السيادة الإسلامية على منطقة ما وراء النهر، مما أطمع فيه الأعداء، وضعفه في نظر المسلمين، قد أدى إلى مسير بعض وجوه أهل خراسان إلى الخليفة رأى في شخص

---

(١) انظر تفصيل القول في ذلك بعد: ص٤٣٨ وما بعدها.

(٢) سليمان عبدالغني مالكي: مرافق الحج والخدمات المدنية في الأراضي الإسلامية المقدسة، راسلة ماجستير آداب القاهرة، تاريخ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، (الرسالة المخطوطة)، ص٦٢ – ٦٣.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٥.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، مخطوط، مكروفيلم، الجزء الثالث، تراجم رجال الحديث – تاريخ، أ – ت، رقم ١٨٥٨، ص١٣٦.

الحرشي الرجل المناسب لخراسان، التي تتطلب أميرًا عسكريًا أكثر منه مدنيًا، وكان سعيد الحرشي من الأبطال المشهورين[1]، وفارس قيس في زمانه[2].

وكان السبب في استعماله أن عمر بن هبيرة كتب إلى الخليفة بأسماء من أبلوا يوم العقر[3] ولم يذكر الحرشي، فقال الخليفة: لماذا لم يسم الحرشي - ولعل ابن هبيرة خشى مكانة الحرشى، فأراد إغفال ذكره - فكتب الخليفة إلى ابن هبيرة، ول الحرشى خراسان، فولاه، وضم إليه جيشًا، فقدم على مقدمته المجشر بن مزاحم السلمي، وكان ممن شكوا إلى ابن هبيرة سعيد بن عبدالعزيز، فقدمها (سنة ١٠٣هـ)[4].

ولم يعرض الحرشى لعمال خذينة[5]، وكان ممن استعمل على الأقاليم التابعة له، سليمان بن أبي السرى وهو رجل من الموالي، على كس[6] ونسف[7]. كما عزل سورة بن الحر واستعمل مكانه نصر بن سيار[8].

ومن الواضح أن انشغال الحرشى بالمهمات العسكرية، وضياع جل وقت ولايته في

---

(١) ابن كثير: البداية، ط١، ٩/٢٤٩.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ٧/١٦ - ١٧ - ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨٩.

(٣) يوم العقر، هو اليوم الذي كان فيه القضاء على يزيد ابن المهلب على يد مسلمة بن عبدالملك (سنة ١٠٢هـ). (انظر ما كتبناه عن ذلك قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص١٣٥ وما بعدها).

(٤) عن عزل سعيد بن عبدالعزيز عن خراسان، واستعمال سعيد الحرشى عليها، (انظر: ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٨ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢/٣١٢ - الطبري: نفس المصدر، ٦/٦١٩، ٦٢٠ - ٦٢١ - ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٨ - ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٨٣ - ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء والصفحة - ابن خلدون: العبر، ٣/٨٢.
ومن المصادر ما أشار إلى أن عزل خذينة واستعمال الحرشى كان من قبل مسلمة. (انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ص٤١٦ - أنساب، ٥/١٦٢) والأولى ما قدمناه.

(٥) الطبري: نفس المصدر، ٦/٦١٩ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٤/١٨٣ - ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٦) وتنطق «كش» أيضًا.

(٧) الطبري: نفس المصدر، ٧/١١ - ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص١٨٦ - ابن خلدون: نفس المصدر والجزء، ص٨٣.

(٨) الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحة (ولم يسم إمارته).

إخماد تمرد الصغد وإعادة السيادة الإسلامية على ما وراء النهر، وهذا ما نجح فيه وجعله من الفاتحين المعدودين في تاريخ الإسلام وبالذات في منطقة خراسان وما وراء النهر. أدى ذلك إلى ندرة الأخبار عن تنظيماته الإدارية والمالية.

ولقد جرت بين الحرشي وابن هبيرة أمور أدت إلى عزله عن خراسان، فيذكر أنه لما انتصر على الصغد، كتب بذلك إلى الخليفة ولم يكتب به إلى ابن هبيرة، مما أوغر صدره عليه[1]. إذ يعتبر أن ولايته جاءت من قبل الخليفة لا عمر بن هبيرة. كما خالف أمر ابن هبيرة القاضي بإطلاق الديواشني وهو أحد دهاقنة الصغد المتمردين، وكان قد نزل على حكم الحرشي، فقتله وصلبه[2]. ويروي أنه منع معقل بن عروة من تنفيذ أمر ولاه إياه ابن هبيرة في هراة، وجلده مئتين وحلقه[3]، لأنه نزل على هراة مباشرة قبل أن يأتي الحرشي أمير خراسان، بحجة أن ولايته من قبل أن هبيرة[4].

كما كان الحرشي يستخف بابن هبير عند ذكره إياه في مجالسه، فلا يقول الأمير، وإنما يقول: قال أبو المثني، ولكاتبه اكتب لأبي المثني وهكذا. فبلغ ذلك ابن هبيرة، فبعث من لدنه جميل بن عمران بحجة النظر في الدواوين ليستعلم أمره، فعندما علم الحرشي غايته، أعطاه طعامًا مسمومًا، إلا أنه عولج فنجا، فقال لابن هبيرة الأمر أعظم مما سمعت، ما يرى سعيد إلا انك عاملاً من عماله. فغضب عليه وعزله، وسجنه وعذبه حتى أدى ما عليه من الأموال[5].

ولعل في الخبر الأخير دلالة على أن هناك اسبابًا أخرى مالية، لعلها كانت السبب الرئيسي وراء عزله، ونستشف ذلك من قول ابن هبيرة معللاً عزله للحرشي وسجنه

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ٧/١٠ – ابن الأثير: نفس المصدر و الجزء، ص١٨٥.

(2) الطبري: نفس المصدر، ٦/١١ (ذكر قتله لكنه لم يشر إلى كتابة ابن هبيرة بإطلاقه) – ابن الأثير: نفس المصدر، ١٨٦/٤. وانظر قبل ٣٣٧ وما بعدها.

(3) حلقه: وسمه بحلقة في فخذه. (التعريف نقلاً عن/ الطبري: نفس المصدر والجزء، هامش ٣، ص١٦).

(4) الطبري: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(5) الطبري: نفس المصدر، ١٥/٧ – ١٦ – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص ١٨٨ ١٨٩ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٥٧/٩ – ابن خلدون: العبر، ٨٤/٣.

وتعذيبه إذ يقول «قدمت العراق فوليته – يعني الحرشي – البصرة، ثم وليته خراسان، فبعث إلى ببرذون حطم واستخف بأمرى، وخان فعزلته»[١]. وفي قوله دلالة على أنه استقل ما بعث به إليه الحرشى من غنائم المعارك التي خاضها، واتهامه بخيانة أموال المسلمين. ولعل في هذا الخبر شيء من الصحة، فإن هناك رواية تقول: أن الحرشى بعد نصره على الصغد اصطفى أموالهم، فأخذ منها ما أعجبه ثم دعا بمسلم بن بديل ليتولى المقسم، فأبى لما علم ما أخذ منها، فولاه غيره، فأخرج الخمس وقسم الأموال[٢]. ولعلها تلك الأموال التي أشار إليها الطبري[٣] عندما قال: أن الحرشي عندما استوذى تحت العذاب، أدى ما عليه من الأموال.

ويشير محمد شعبان[٤] إلى أن اقتصار الحرشى على إرسال خمس الغنائم فقط للحكومة المركزية، وإبقاء بقية الأموال في خراسان، تطبيقًا للمبدأ القديم المعمول به في خراسان، والذي أكده عمر بن عبدالعزيز، وهو أن تصرف أموال خراسان في خراسان، لم يرض عمر بن هبيرة، وأرسل إلى الحرشي يدعوه إلى بعث المزيد من الأموال، فأباه، فلما فشلت محاولاته في إقناعه، قام بعزله عن خراسان.

ولاية مسلم بن سعيد الكلابي على خراسان (سنة ١٠٤هـ):

كانت الأسباب التي أشرنا إليها مجتمعة وراء عزل سعيد بن عمرو الحرشى عن ولاية خراسان[٥]. وكان ذلك (سنة ١٠٤ هـ)، فولاها عمر بن هبيرة مسلم بن سعيد بن

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ١٧/٧.

(٢) الطبري: نفس المصدر، ١٠/٧ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٥/٤.

(٣) نفس المصدر والجزء، ص١٦ – وقال ابن كثير: وأخذ منه أموالاً كثيرة. (انظر: البداية، ط١، ٢٥٧/٩).

(٤) الثورةن ص١٧٤.

(٥) لم يكتف ابن هبيرة بعزل الحرشى، فقد أمر عامله الجديد أن يبعث به مع معقل بن عروة إلى العراق، وهناك أوكله أمر استبدائه الأموال، فعذب، وأمر بقتله، ثم عفا عنه، من قصة تشير إلى أن ابن هبيرة لما عزل، سجنه خالد القسري، فهرب من سجنه، فأرسل القسري سعيد الحرشي في طلبه، فلحقه، فلما تمكن منه تركه فنجا بنفسه، متأثرًا بآصرة النسب. (انظر من اجل ذلك: الطبري: نفس المصدر، ص١٦ – ١٧ – ابن الأثير: نفس المصدر، ١٨٩/٤).

أسلم بن زرعة الكلابي[١] من بعده[٢].

وفي ولاية هذا الأمير، عمل على دمج الإدارة المحلية في خراسان في الكيان الحكومي العربي، وذلك بتعيينه رجلاً إيرانيًا يدعى «بهرام سيس» مرزبانًا[٣] على مدينة مرو، وكان هذا التعيين الأول من نوعه في تاريخ الحكم الإسلامي، إذ لم يسبق للولاة العرب أن تدخلوا في اختيار الأشخاص وتعيينهم للمراكز البلدية، وكانوا يتركون ذلك للدهاقين ويكتفون بتعيين ممثلين شخصيين لهم للإشراف على شئون المناطق المختلفة، وبالأخص للإشراف على جمع الضرائب والخراج ثم قبضها.

لذلك فإن تعيين بهرام سيس على وظيفة المرزبان من قبل الوالي العربي، تعني أنه سيتولى حكم الإيرانيين باسم هذا الوالي وكان بهرام سيس ذي شعبية في قومه، فقبلوا ذلك التعيين، ونجحت التجربة[٤].

كما حرص مسلم بن سعيد على كسب ولاء الإيرانيين وإرضائهم، وذلك بتوجيه من أمير العراق عمر بن هبيرة الذي قال له حين ولاه: «ليكن حاجبك من صالح مواليك، فإنه لسانك والمعبر عنك، وحث صاحب شرطتك على الأمانة، وعليك بعمال العذر. قال: وما عمال العذر؟ قال: مر أهل كل بلد أن يختاروا لأنفسهم فإذا اختاروا رجلاً فوله، فإن

---

(١) لم أعثر على ترجمة له. وقال عنه الطبري: أنه لما قتل أبوه سعيد بن أسلم، ضم الحجاج ابنه مسلم بن سعيد مع ولده، فتأدب ونبل، ثم ولاه عدي بن أرطأة ولاية صغيرة، فضبطها وأحسن، ولما وقعت فتنة ابن المهلب، حمل الأموال التي تولاها إلى الشام، فلما ولى ابن هبيرة العراق، ولاه خراسان (انظر: تاريخ الأمم، ١٨/٧) وقال محمد شعبان: أن جده أسلم بن زرعة كان أحد زعماء القبائل العربية في خراسان. (انظر: الثورة، ص١٧٤).

(٢) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص١٥ – ١٧ – ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٩ (وقد قال: بأن العزل والولاية من قبل الخليفة يزيد بن عبدالملك) – ابن الأثير: الكامل، ١٨٨/٤ – ابن كثير: البداية، ط١، ٢٥٧/٩ – ابن خلدون: العبر، ٨٤/٣).

(٣) المرازبة من الفرس معرب، الواحد مرزبان، وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك. والمرزبان هو الرئيس من العجم على قومه، تقول: فلان على مرزبة كذا، وله مرزبة كذا، كما تقول: له دهقنة كذا. اللسان (رزب). ويفهم من هذا أن بهرام سيس عين رئيسًا مدنيًا على قومه العجم، من قبل عامل خراسان، وتابعًا له، وسائرًا بأمره.

(٤) محمد شعبان: نفس المرجع، ص١٧٦ – ١٧٧.

كان خيرًا كان لك، وإن كان شرًا كان لهم دونك، وكنت معذورً»[1].

فاهتم بوظيفة «الحاجب» وكان الفرس يسمونها «على الخاتم» و اختيار الرجل المناسب لها، وكان يشترط فيمن يتولى هذا المنصب أن يكون على علاقة طيبة بالسكان الأصليين ليؤدي دوره في توطيد العلاقة بين العرب وأهل البلاد الأصليين فعين لهذا المنصب توبة بن أبي أسيد وكان نفسه مولى لبني العنبر، وكان شخصًا معروفًا بالاستقامة والنزاهة والكفاءة، فظل على هذه الوظيفة فترة مسلم بن سعيد ثم أقره عليها أسد بن عبدالله القسري أمير خراسان بعد مسلم[2].

وكان توبة بالعراق، فبعث مسلم إلى ابن هبيرة في طلبه، فعندما رآه استحسن اختياره، فبعثه، فأعطى الخاتم وجعل له مسلم أن يعمل برأيه، فألان جانبه، وأحسن إلى الجند وأعطاهم أرزاقهم، وكان أسد قد أراد منه أن يحلف الناس بالطلاق ألا يتخلف أحد عن الغزو، ولا يدخل عنه بديلاً، فأباه: وعندما رأي من الناس بعد ذلك الحلف بالطلاق أبوا وقالوا: نحلف بأيمان توبة[3].

كما بعث مسلم على الكور رجالاً من قبله على حربها[4]، وكان ممن استعملهم نصر بن سيار، الذي ولاه طخارستان[5].

وبدت الأوضاع في خراسان هادئة عند تولي مسلم بن سعيد لها، بفضل جهود الحرشي، الذي تمكن من إخماد تمرد الصغد وصد الترك، وزوال عوامل السخط عند العرب، الذين أعادوا هيبتهم بانتصاراتهم مع الحرشي، وما تمتعوا به من وافر الغنائم، التي أبقاها الحرشي لهم ولم يبعث للعراق أو الشام سوى الخمس، كما أنه جامل العرب، فلم يحاسب العمال السابقين ولم يعرض لهم، وامتنع عن تنفيذ أمر ابن هبيرة باستيداء

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ٣٤/٧ – ٣٥.

(٢) محمد شعبان: الثورة، ص١٧٧ – ١٧٨. (وقد فهم محمد شعبان النص خطأ، وظن أن أمر ابن هبيرة يعني استحداث تلك الوظيفة والصحيح، أنها كانت معروفة وكان للولاة حجابًا كالخلفاء، ولكنه وجهه إلى اختيار الرجل المناسب الصالح).

(٣) الطبري: نفس المصدر، ٣٥/٧.

(٤) الطبري: نفس المصدر والجزء، ص١٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤١٦ – ٤١٧.

أموال منكسرة، اتهم بها بعض سادات العرب في خراسان[1]، كما ظهر الإيرانيون متعاونين، وقد زالت عوامل السخط والاستياء عنهم، منذ أن قتل رأسهم «حيان النبطي»[2][3].

لكن طمع الحكومة المركزية في أكثر من الخمس من خيرات خراسان، دفع ابن هبيرة كما يقول محمد شعبان[4]، إلى الأمر على مسلم بزيادة حصة الدولة، مع نصيحة مسلم لابن هبيرة بالاقتناع بالخمس كما كان حادثًا زمن الحرشي. وكان تنفيذ ذلك يعني خفض حصص عرب خراسان، ونقص أعطياتهم.

والواقع أنا لم نجد في المصادر ذكرًا لمثل هذا الأمر وتنفيذه، ولا نعلم من أين استقاه محمد شعبان؟ كما أن ابن هبيرة استطاع دفع مسلم إلى محاسبة أولئك الرجال من سادات العرب والذين اتهمهم قهرمان[5] ليزيد بن المهلب، لدى ابن هبيرة ببعض الأموال، أخذوها بغير حق، وكان الحرشي قد امتنع عن محاسبتهم، فلما عزم مسلم على استيدائها منهم، خوف عاقبة الأمر، وبين له حقيقة أمرهم، وأن فيما اتهموا به مبالغة وظلم فكتب بذلك إلى ابن هبيرة ووجه بوفد منهم إليه. فأوضح الوفد له الأمر، وأن في قوتهم نكاية بأعدائهم، وأخبروه بوافر من الأموال، اقتطعها الدهاقين من أهل البلاد من جراء ولايات ولوها هناك. فأصدره أمره إلى مسلم بجبايتها من أهل العهد. فكلف مسلم من يتولى محاسبتهم، فأخذها منهم[6].

ويبدو أن هذه الأساليب، قد أدت إلى شيء من التوتر، خالطه ضعف في سيطرة العرب على هذه النواحي، من جراء ندرة جهود مسلم بن سعيد العسكرية[7].

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ١٩/٧.

(2) انظر ما كتبناه عن مقتله قبل: ص٤٦٨.

(3) ذهب إلى شيء من هذا القول، محمد شعبان: الثورة، ص١٧٤.

(4) نفس المرجع والصفحة.

(5) قهرمان: فارسي معرب، وقيل: هو المسيطر الحفيظ على من تحت يديه، وهو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس. وفي قول: يعني الترجمان. اللسان (قهرم).

(6) الطبري: نفس المصدر، ١٩/٧ – ٢٠.

(7) عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠٠ – ٣٠١.

وقد أدى ذلك إلى طمع الأعداء فتحرك الترك وتدخلو في منطقة ما وراء النهر، كما تخاذل بعض الجند العربي عن المشاركة في الغزوات التي خرج مسلم بها في أواخر ولايته ليتصدى لخطر الترك، واضطر بعد أن فشلت محاولاته لإقناعهم وتهديدهم إلى حملهم على الاشتراك قسرًا، فبعث إليهم نصر بن سيار الذي اضطر إلى الاصطدام معهم في البروقان - قرية قرب بلخ اتخذ فيها المسلمون حامية لهم - وذلك سنة ١٠٦هـ في أول خلافة هشام بن عبدالملك، مما ساعد على تدهور الأوضاع[١].

عماله على سجستان وكرمان والسند:

ومن الأقاليم التابعة لإمارة العراق «سجستان»، وقد ولاها الخليفة يزيد بن عبدالملك القعقاع بن سويد من بني منقر بن عبيد[٢] التميمي[٣]، من أهل الكوفة، فعزله عمر بن هبيرة، وولى السيال بن المنذر بن عوف بن النعمان[٤].

أما كرمان فقد ضمها ابن المهلب إليه إبان حركته صدر خلافة يزيد بن عبدالملك، فلما ولى عمر بن هبيرة العراق، استعمل عليها جبلة بن عبدالرحمن[٥]، مولى لباهلة[٦].

أما السند، فقد كان عليها عمرو بن مسلم الباهلي من قبل عمر بن عبدالعزيز، فلما غلب يزيد بن المهلب على البصرة في خلافة يزيد بن عبدالملك ولاها رجل من بني شيبان ثم بعث عليها وداع بن حميد الأزدي، ثم تولاها هلال بن أحوز التميمي بعد إيقاعه بالمهالبة عند قندابيل، وذلك (سنة ١٠٢هـ) من قبل مسلمة بن عبدالملك. فلما ولى ابن هبيرة العراق، ولاها سنة ١٠٣هـ عبيدالله بن علي السلمي، ثم عزله، وولاها الجنيد بن عبدالرحمن المري من غطفان، وذلك (سنة ١٠٥هـ)، فظل عليها حتى وفاة

---

(١) محمد شعبان: الثورة، ص١٧٥ - ١٧٦.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

(٣) من اجل انتساب جده الأبعد منقر بن عبيد في بني تميم، (انظر: الزركلي: الأعلام، ٣٠٩/٧).

(٤) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٣.

(٥) لم أعثر له على ترجمة.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم، ١٨/٧.

الخليفة يزيد، فأقره عليها هشام بن عبدالملك[1].

ويبدو أن الأوضاع كانت مستقرة في ذلك الإقليم طوال عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز وخليفته يزيد بن عبدالملك وذلك من جراء استجابة ملوك السند لدعوة الخليفة عمر إياهم للإسلام، وذلك أنه كتب إليهم (سنة ١٠٠هـ) يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فأسلم جيشبه[2] بن داهر وباقي الملوك. وبقي ملوك السند مسلمين على بلادهم خلافة عمر ويزيد[3]. فلما كانت أيام هشام أرتدوا عن الإسلام، وحاربوا عامله على السند الجنيد بن عبدالرحمن المري، فانتصر عليهم، وأعاد سيطرة المسلمين على ذلك الإقليم، وقام بعدد من الغزوات في ذلك الثغر[4].

أما البحرين واليمامة:

فقد ولى ابن المهلب إبان حركته على البحرين هرم بن القرار العبدي[5]، فلما قضى

---

(١) من اجل عماله على السند، (انظر: ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٣ - ابن قدامة: الخراج وصناعة الكتابة ص٤٢١ - فوزي محمد عبده ساعاتي: انتشار الإسلام في بلاد السند والبنجاب، ص١٤٧ - ١٤٩ - (لكنه لم يشر إلى ولاية الشيباني، والسلمي) شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، نشأتها: مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، رسالة دكتوراه مطبوعة، مقدمة لكلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٣٧١هـ / ١٩٥١م، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م، ص٢١٧ - وفيق الدقدوقي: الجندي، ص١٠٤.

(٢) ينطبق أيضا جيسيه، حليشه، مكيشه، وجشه. وقد يكون ذلك عائدا لخطأ في النقل، والتعريب.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٢٨ - ٤٢٩ - ابن الأثير: الكامل، ٤/١٦٠ - حسن أحمد محمود، الإسلام في آسيا الوسطى (بين الفتحين العربي والتركي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م، ص٢٢٠، ٢٣٣ - شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، ص٢١٧ - وفيق الدقدوقي: الجندية، ص١٤٠.

(٤) البلاذري: نفس المصدر، ص٤٢٩ - ٤٣٠ - ابن الأثير:: نفس المصدر والجزء، ص١٩٧ (إلا أنه جعل ولاية الجنيد من قبل هشام (سنة ١٠٧هـ)، فمنعه جيشبه من دخول السند، فكانت الحرب بينهما) والأصح أن هشاما أقره، لكنه أمره بمكاتبة القسري، فأتى الديبل، فمنعه جيشبه بعد ذلك العبور إليه. (انظر عن إقراره على السند: ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٥٩).

(٥) الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦٠٠.

على حركته، رد الخليفة يزيد على البحرين واليمامة إبراهيم بن عربي[1]، وكان قد تولاها من قبل الخليفة عبدالملك بن مروان ثم أقره عليها الوليد بن عبدالملك[2].

وقد ذكر ابن الأثير[3] أثناء عرضه لحركة مسعود بن أبي زينب العبدي، أحد الخوارج، أن أمير اليمامة سفيان بن عمرو العقيلي من قبل ابن هبيرة، وقد صححنا هذا الخطأ[4].

كما أخطأ عبدالرحمن بن عبدالكريم النجم[5]، عندما ذكر أن ابن المهلب قد ولى على البحرين بعد استحواذه على البصرة، إبان حركته، الأشعث بن عبدالله بن الجارود، والصحيح أن ابن المهلب ولى البحرين ابن الجارود. ولكن ذلك ليس إبان حركته في خلافة يزيد بن عبدالملك وإنما أثناء ولايته على العراق في خلافة سليمان بن عبدالملك[6].

وقبل أن نترك العراق والمشرق الإسلامي لا بأس من ذكر ما أشار إليه القلقشندي[7] من ولاية عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز على العراقين، في خلافة يزيد بن عبدالملك، وهو خبر تفرد به مخطئًا. والصحيح أنه وليها في خلافة ابنه الوليد بن يزيد، فكان ذلك منه لبسًا[8]. فقد ظلت العراق تحت أمرة عمر بن هبيرة حتى عزله عنها الخليفة هشام بن عبدالملك في شوال (سنة ١٠٥هـ)[9].

---

(١) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٣.

(٢) ابن خياط: نفس المصدر، ص٢٩٨، ٣١١.

(٣) نفس المصدر والجزء، ص١٩٠.

(٤) انظر مناقشتنا لهذا الخطأ قبل: الفصل الثاني، المبحث الثاني، ص١٧٢ وما بعدها.

(٥) البحرين، هامش (٣)، ص١٩٨.

(٦) من أجل ذلك، (انظر/ ابن خياط: نفس المصدر، ص٣١٣، ٣١٨).

(٧) مآثر، ١٤٩/١.

(٨) انظر ذلك عند: ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٧٠.

(٩) الطبري: تاريخ الأمم، ٢٦/٧ – ابن الأثير: الكامل، ١٩٢/٤.

عماله على أرمينية وأذربيجان والجزيرة والموصل:

يقول صابر دياب[1]: «ومن الواضح أن العرب - في العصر الأموي - جعلوا من منطقة أرمينية وأذربيجان والموصل والجزيرة، ولاية واحدة». لكن استقصاءنا لعمال يزيد بن عبدالملك على الأقاليم في الدولة الإسلامية، بين عكس ذلك، حيث وجدناه قد بعث عمالاً من قبله على كل من أرمينية والموصل والجزيرة، ويشك في أنه قد فصل أذربيجان عن أرمينية أيضًا.

فقد ولى يزيد بن عبدالملك (سنة ١٠٣هـ)، معلق بن صفار البهراني الحمصي، أرمينية[2]، ولا نعلم من كان عليها قبله، أولى أحدًا فلم يرد ذكره في المصادر، أم أقر عامل عمر بن عبدالعزيز عليها[3]، حتى سنة ١٠٣هـ، ثم عزل معلقًا، فولاها الحارث بن عمرو الطائي[4]، الذي قام بجهود عسكرية محدودة[5]. إن صح القول بولايته أرمينية زمن يزيد، والأرجح عدم صحته[6]. ثم ولاها الجراح بن عبدالله الحكمي في (سنة ١٠٤هـ)[7]، وهو الذي تصدى للخزر زمن يزيد، وحقق انتصارات وغنائم عظيمة،

---

(١) أرمينية من الفتح الإسلامي إلى مستهل القرن الخامس الهجري، ص٥٥ - ٥٦.

(٢) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٣ - البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٠٨ - قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص٣٣٠.

(٣) كان عامل عمر عليها عبدالعزيز بن حاتم بن النعمان، ثم ولاها عدي بن عدي الكندي. (ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٢٣). لكن في ذلك شك واختلاف، من أجله انظر/ البلاذري: نفس المصدر والصفحة - ابن حجر: تهذيب. ١٥٢/٧.

(٤) البلاذري: نفس المصدر والصفحة - قدامة بن جعفر: نفس المصدر والصفحة.

(٥) من أجل جهوده العسكرية، انظر قبل: الفصل الرابع، المبحث الثاني، ص٢٦٣ - ٢٦٤.

(٦) انظر هامش الصفحة التالية.

(٧) البلاذري: نفس المصدر، ص٢١٨ - قدامة بن جعفر: نفس المصدر، ص٣٣٠ - لكن ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٢٩، ٣٣٣ - وابن الأثير: الكامل، ١٨٦/٤ -١٨٧ - وابن خلدون: العبر، ٨٣/٣، جعلوا ولاية الجراح الحكمي بعد معلق بن صفار، ولم يذكروا ولاية الحارث بن عمرو، كما أورد البلاذري وقدامة. ويبدو أن البلاذري قد اختلط عليه الأمر، وتبعه على ذلك قدامة الذي يتضح أنه قد نقل عنه ذلك، إذ يشير ابن خياط، إلى غزوة قام بها الحارث بن عمرو الطائي هذا من قبل مسلمة بن عبدالملك الذي تولى أرمينية بعد عزل الجراح الحكمي (سنة ١٠٧هـ)، بأمر الخليفة =

وظل عليها حتى وفاة الخليفة يزيد، فأقره هشام بن عبدالملك[1].

وقد كانت مدينة «برذعة» دار الإمارة والجند في ولايتي أرمينيـة وأذربيجـان[2]. وقيل هي عاصمة إقليم أران الأرمني[3]. أما صابر دياب[4] فيقول: أن مقـر الإدارة فـي أرمينية «مدينة دوين»[5] بها الوالي، ودار الإمارة، والحاميـة الإسـلامية، التـي كـان قوامها لا يقل عن خمسة آلاف جندي، ذاكرًا أنه قد كان بها أيضًا كرسـي البطريركيـة، لكن الأسقف دافيت الأول، الذي كان شغل كرسي البطريركية، ضاق بوجود المسـلمين، وانتقل إلى أرامونيك، لتفقد دوين أهميتها كمدينة بطريركية[6].

ولعل هذا التعدد ناتج عن حلول مدينة بعد أخرى كمركز للحكم الإسلامي، يفـرض ذلك عدم استقرار الفتح الإسلامي في أرمينية، وتعرض المسلمين لغـزو الخـزر، ممـا يفقدهم أحيانًا كثيرًا مما فتحوه. وقد يكون ذلك نتيجـة الفصـل بـين إمـارة أرمينيـة وأذربيجان، مما يدعو لوجود مركز لكل إقليم منهما.

وكان الحكم الأموي في أرمينية طيبًا، إذا مـا قـورن بـالحكم الأجنبـي، متميـزًا بالتسامح والدعوة إلى الإسلام بالحسنى[7]، وقد احترم المسلمون إلى حد مـا اسـتقلال الإمارات الأرمنية تحت سيطرتهم[8]، ومع إدراكهم لخطورة ذلك على سيادتهم وما عانوه من صراعات الأرمن وثوراتهم، إلا أنهم لمسوا قيمة بقاء القوة الأرمينية كحـاجز فـي

= هشام ذاكرًا نفس الجهود الحربية التي أورد البلاذري قيام الحارث بها زمن يزيد. (من أجل ذلك انظر: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٧).

(١) انظر قبل: الفصل الرابع، المبحث الثاني، ص ٢٦٤ وما بعدها.

(٢) أديب السيد: أرمينية في التاريخ العربي، ص٩٥.

(٣) صابر دياب: أرمينية من الفتح الإسلامي حتى مستهل القرن الخامس الهجري، ص٣١٠٤.

(٤) نفس المرجع، ص٦٤.

(٥) تسمى دبيل وتوين أيضًا، وهي قصبة أرمينية الإسلامية في الأزمنة الأولى، تقع إلى القـرب مـن نهر أرسو بجوار جبل أراط. (كي لسترنج: بلدان، ص٢١٦ - ٢١٧).

(٦) صابر دياب: نفس المرجع، ص٥٦.

(٧) صابر دياب: نفس المرجع، ص ٥٥، ٦٤.

(٨) نفس المرجع، ص٦٣.

وجه قوى ما وراء القوقاز[1].

وكان التواجد الإسلامي وسيطرة المسلمين جلية في وديان الأنهار الكبرى ومدنها، وذلك لسهولة الوصول إليها، وهناك أقام المسلمون موظفيهم وحامياتهم بالتدريج، فتمكنوا من السيطرة عليها وتمركزوا فيها، وفرضوا عليها أنظمتهم الإدارية والمالية[2]، وقد استعانوا بأمراء الأرمن في جباية الضرائب، وتولي الشئون العسكرية، وكانت العلاقة بين المسلمين والأرمن تتأثر بالموقف السياسي العام، وشخصية الوالي[3].

أما عماله على الجزيرة[4] والموصل[5]، فإن يزيد بن عبدالملك ولى عمر بن هبيرة الجزيرة، فلم تدم مدة ولايته، حيث عزله عنها (سنة ١٠٢هـ)، وسبب ذلك أن عمر غزا أرمينية، ففتح فتحًا عظيمًا، فوجه بالبشارة مع مروان بن محمد، فغضب بنو أمية، وقالت: فزارى يحمل البشارة والرسالة رجل منا؟ فعزله يزيد وولى مروان بن محمد مكانه الموصل[6]. وظل عليها حتى مات يزيد، حيث كان أميرها سنة ١٠٤، ١٠٥هـ.

---

(١) صابر دياب، أرمينية، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) نفس المرجع، ص٦٣.

(٣) نفس المرجع، ص٦٥.

(٤) الجزيرة: سمى العرب القسم الشمالي من البلاد الواقعة ما بين النهرين أي نهر دجلة والفرات بالجزيرة، ويفصلها عن العراق وهي القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين خط يتجه شمالاً من الأنبار على الفرات إلى تكريت على دجلة. وهاتين المدينتين تعدان من أعمال العراق، ذلك في عُرف البلدانيين العرب الأولين، أما البلدانيين الذين أعقبوهم، فجعلوا الخط يتجه من تكريت باتجاه الغرب تقريبًا، مدخلين في العراق كثيرًا من المدن التي على الفرات شمال الأنبار. وسميت تلك البلاد بالجزيرة، لأن مياه الفرات ودجلة تحيط بها. (كي لسترنج: بلدان، ص١٦ ١٧ -، ٤٠ - ٤١).

(٥) الموصل: تقع على ضفة دجلة الغربية، وهي قاعدة ديار ربيعة، وسميت بالموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل بين دجلة والفرات، وقيل غير ذلك، وهي إحدى قواعد الإسلام، منها يقصد لجميع البلدان، فهي باب العراق، ومفتاح خراسان، ومنها يقصد إلى أذربيجان. وقد علا شأنها زمن بني أمية، وصارت في عهد مروان الثاني قاعدة إقليم الجزيرة. (انظر ياقوت: معجم، ٥/٢٢٣ - ٢٢٥ - كي لسترنج: نفس المرجع ص١١٥ - ١١٨).

(٦) أبو زكريا الأزدي: تاريخ الموصل، ص١٦.

ويبدو أن الخليفة يزيد جمع له الموصل وأعمالها، والجزيرة بأجمعها في سنة ١٠٤هـ[١].

والظاهر أن يزيد بن عبدالملك عندما عزل ابن هبيرة عن الجزيرة والموصل، لم يول مروان إلا الموصل، أما الجزيرة فإننا نجد ليزيد عليها عمالاً آخرين تولوها بعد ابن هبيرة، فقد تعاقب على الجزيرة عمر بن هبيرة وفايد بن محمد الكندي، والعرس بن قيس بن شعبة بن الأرقم الكندي[٢].

وقد أورد ابن خلدون[٣]: أن محمد بن مروان هلك عن إمارة الجزيرة، وأذربيجان وأرمينية، فولى يزيد مكانه عمه مسلمة بن عبدالملك، وهذا خطأ بين، فلم يكن محمد بن مروان على تلك البلاد زمن عمر بن عبدالعزيز[٤]، ولم يول يزيد أخاه مسلمة وليس عمه كما قال، بل بعث مسلمة لقتال ابن المهلب، ثم ولاه العراق، كما بينا ذلك قبل.

عماله على مصر:

ولاية أيوب بن شرحبيل وبشر بن صفوان على مصر:

أما مصر فقد أقر عليها الخليفة يزيد بن عبدالملك واليها من قبل عمر بن عبدالعزيز أيوب بن شرحبيل الأصبحي[٥] على صلاتها، فظل عليها حتى توفي لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة إحدى ومائة من الهجرة[٦]. وفي رواية أنه نزع عنها لسبع عشرة ليلة من شهر رمضان[٧]. فأمر عليها الخليفة يزيد من بعده، بشر بن

---

(١) أبوزكريا الأزدي: تاريخ الموصل، ص١٦، ١٧، ١٨، ٢٢.

(٢) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٤ – عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠٥ (ولم نعثر على ترجمة لفايد بن محمد والعربي بن قيس).

(٣) العبر، ٣/٧٦.

(٤) ذكر ابن خياط عمال عمر بن عبدالعزيز على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان فقال: ولى عدي بن عدي، فاستخلف سوادة أبا الصباح بن سوادة الكندي على الجزيرة. (نفس المصدر، ص٣٢٣)

(٥) انظر ترجمته قبل: ص ٣٤٧.

(٦) الكندي: الولاة، ص٦٩ – ابن تغري بردي: النجوم، ١/٢٣٨ – ٢٣٩.

(٧) الكندي: نفس المصدر والصفحة، ابن تغري بردي: نفس المصدر والجزء والصفحات.

صفوان الكلبي[1]، فقدمها في نفس الشهر[2].

أما الخراج فجعل عليه الخليفة يزيد عاملاً من قبله، حيث رد على خراج مصر أسامة بن زيد التنوخي، وكان عليه من قبل، فعزله عمر بن عبدالعزيز وأمر بحبسه سنة في كل جند من الأجناد، عقابًا له لأنه كان ظلومًا غشومًا يعاقب بغير ما أنزل الله، فحبس بمصر ثم نقل إلى فلسطين، فمات عمر، وتولى يزيد الذي أمر برده على خراج مصر[3].

وقد جعل بشر بن صفوان على شرطته شعيب بن حميد بن أبي الزبداء البلوي، بالولاء[4]، ثم نزعه عن الشرطة بعد أيام، وولاه التابوت[5].

---

(١) انظر ترجمته قبل: الفصل الرابع، المبحث الثالث، ص٢٧٩.

(٢) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٤ – الكندي: الولاة، ص٧٠ – الأربلي: خلاصة، ص٢٦.

(٣) ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، ص١١٩ – الطبري: تاريخ الأمم، ٦١٨/٦ – ابن الأثير: الكامل، ١٨٢/٤ (والأخيران، لم يقولا برده على الخراج وإنما على مصر، والصحيح ما ذكرناه، يسنده بعض الروايات الدالة على عمله على خراج مصر، واستمرار الولاية الإدارية في غيره بإجماع المصادر).

(٤) الكندي نفس المصدر والصفحة.

(٥) وردت ولاية التابوت مقترنة بولاية الشرطة في حوادث سنة ١٥٢هـ، أيضًا. إذ يذكر الكندي (الولاة، ص١١٧) عن ولاية مصر، ما نصه: «ثم وليها (أي مصر) عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية بن حديج من قبل أمير المؤمنين أبي جعفر على صلاتها.. فلم يول على الشرطة أحدا، ولكن جعل على التابوت على بن زيدان التجيبي ثم عزله فولاه محمد بن يعفر المعافري ثم عزله، فولاه عمران بن سعيد الحجري ثم عزله، فولاه رجلاً من الموالي يكنى «أبا المحب». ويذكر الكندي أيضا (نفس المصدر، ص١١٨) أن عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية بن حديج توفى في مصر سنة ١٥٥هـ، وكانت ولايته عليها سنتين وشهرين، وهذا يعني أنه تولى على التابوت خلال ولايته على مصر، وهي سنتين وشهرين، أربعة ولاة، وفي هذا ما يشير إلى أهمية هذه الوظيفة.

فماذا تعني كلمة التابوت وما وظيفة متوليها؟ وبالرجوع إلى شرح المصطلحات التي وردت في كتاب الكندي، وجدنا أن روفن جشت محقق الكتاب اكتفى في شرحه لمصطلح التابوت، أنها تعني وظيفة ما كانت معروفة بهذا الاسم. (نفس المصدر، الدراسة، ص٦).

فلم يغننا شرحه شيئًا، وظل السؤال قائمًا، ما هو التابوت وما هي وظيفة متولية؟ =

- إن كلمة التابوت، كلمة مصرية قديمة، تعني الصندوق المصنوع من الخشب والمفتوح من أعلى، والذي كانت توضع فيه أجساد الموتى بعد تحنيطها في العصر الفرعوني، ولا تزال هذه الكلمة مستخدمة في مصر حتى الآن على هذه النوعية من الصناديق. وتطلق هذه الكلمة حتى الآن في الريف المصري على الساقية التي تستخدم وقت التحاريق (أي وقت القحط) لرفع المياه الجوفية من الآبار، عندما ينخفض منسوب المياه في الترع والقنوات في فصل الشتاء، لأن فيضان النيل يكون في فصل الصيف ولا يزال الفلاحون يطلقون على الساقية تجاوزًا، اسم التابوت. (وهذه المعلومات عن أستاذي، د. أحمد السيد دراج، مشافهة).

كما وردت كلمة التابوت أيضًا، في المصادر الخاصة بفنون القتال البحري عند المسلمين، ففي كل مركب من مراكب القتال يوجد برج أو صندوق، مفتوح من أعلاه، ومعلق في أعلى صواري السفن الكبيرة، يصعد إليه المقاتل قبل بدء القتال مع سفن العدو، فيقيم فيه للاستكشاف، فإذا ما حدث القتال احتمى بذلك الصندوق، وأخذ يرمي العدو في سفنه، ببعض أدوات القتال التي تكون معه في البرج أو الصندوق، فتارة يرميه بالحجارة، وأخرى بقوارير النفط لإحراق سفن العدو، أو يصب على سفن الأعداء الصابون السائل، لتنزلق أقدام المقاتلة منهم، وأحيانًا يستخدم مسحوق النورة يقذف به على الأعداء في مراكبهم، ليصل غبارة أعينهم فيصيبهم بالعمى والالتهاب. ويطلق على هذا البرج أو الصندوق اسم التابوت.

(من اجل ذلك، انظر: هشام سليم عبدالرحمن أبورميلة: نظم الحكم في الأندلس في عصر الخلافة، رسالة ماجستير، مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م، غير مطبوعة، ص٤٠٨ – ٤٠٩ – عبدالعزيز عبد الدايم: الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر، مع دراسة عن فن القتال البحري في عمر سلاطين المماليك، تحقيق ودراسة، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة القاهرة، غير مطبوعة ص٢٩ (للدراسة)، ص٢١ (المخطوطة). وكلمة تابوت فيما يبدو تطلق على كل صندوق أخذ صفة التابوت عند المصريين، وإن استخدم لأغراض أخرى، غير حفظ رفات الأموات، يفهم ذلك من خبر أورده المقريزي هذا نصه: «عن زيد بن أسلم قال: كان تابوت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده، فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد، فمن أسلم منهم أقامه، ومن أقام منهم قومه». (انظر: خطط، ١/٢٩٥).

وفي ضوء هذه المعاني لكلمة التابوت، يمكن أن يفسر ما أورده الكندي عن ولاية التابوت، أنها وظيفة تشرف على الري والزراعة في مصر الإسلامية، أو أنها وظيفة تختص بالإشراف على الأسطول المصري، أو أنها وظيفته تعني بحفظ الوثائق الرسمية المتعلقة بولاية مصر وأميرها.

ومن أهم الأعمال الإدارية التي تذكر لبشر في ولايته على مصر، وضعه التدوين الرابع لأهل مصر، وذلك أنه لما رأى افتراق قضاعة في القبائل، كتب إلى الخليفة يزيد يسأله الإذن في استخراجهم من القبائل وأفرادهم، فأذن له الخليفة فأخرج مهرة من كندة، وتنوخا من الأزد، وآل كعب بن عدي التنوخي من قريش، وجهينة من أهل الراية، وحسينا من لخم فجعلهم مع سائر قضاعة دعوة منفردة، وتدوين بشر هذا يعتبر التدوين الرابع، فقد كان الأول تدوين عمرو بن العاص، والثاني تدوين عمر بن عبدالعزيز بن مروان[1]، والثالث تدوين قرة بن شريك، ولم يكن بعد تدوين بشر شيء يذكر إلا ما كان من إلحاق قيس فيه زمن هشام، وأشياء أحدثها المُسَوِّدَةُ[2] من أرباعهم التي أحدثوها منه[3].

ويبدو أن هذا العمل استهدف ضبط الأمور المالية الخاصة بأهل الديوان. ولم يكن هذا العمل وحيدًا فقد قام عمال الخليفة بأهل مصر ببعض الأعمال والإجراءات المالية، الكفيلة بتخفيض المصروفات، وزيادة الواردات[4].

ولاية حنظلة بن صفوان:

في أواخر (سنة ١٠٢هـ) ورد كتاب الخليفة يزيد بن عبدالملك على أمير مصر بشر بن صفوان بتوليته على إفريقية، فخرج إليها في شوال من ذلك العام، وقد استخلف أخاه حنظلة ابن صفوان على مصر، فأقره الخليفة يزيد بن عبدالملك[5].

---

(١) أظنه يعني عبدالعزيز بن مروان. (انظر: الكندي: نفس المصدر، ص٤٩).

(٢) المسودة: يعني بهم العباسيين، لأنهم اتخذوا السواد شعارًا لهم.

(٣) عن التدوين الرابع زمن بشر بن صفوان، (انظر: الكندي: نفس المصدر، ص٧٠ - ٧١ - ابن تغري بردي: النجوم ٢٤٤/١ - سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٦٦ - ٦٧).

(٤) سنبين تلك الإجراءات، إبان دراستنا لسياسة الخليفة يزيد المالية في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٥) الكندي: نفس المصدر، ص٧١ - ابن تغري بردي: نفس المصدر، ٢٥٠/١ - القلقشندي: مآثر، ١٤٨/١ (قال: حنظلة أخو صفوان، خطأ).

وقد جعل حنظلة على شرطه محمد بن مطير البلوي ثم عزله (سنة ١٠٣هـ)، واستعمل بدلاً منه القاسم بن أبي القاسم بن زر السباني مولى منهم[١].

وفي سنة ١٠٣هـ خرج إلى الإسكندرية، واستخلف على مصر عقبة بن مسلم التجيبي. وكان قد مهد أمور مصر، وأحسن السيرة في سلطانه[٢].

وفي (سنة ١٠٤هـ) إبان ولاية حنظلة بن صفوان، أصدر الخليفة يزيد بن عبدالملك قراره بكسر الأصنام والصلبان ومحو الصور والتماثيل في كل مكان، فورد كتابه على أمير مصر بهذا الشأن، فكسرت الأصنام ومحيت التماثيل[٣].

أما قضاء مصر فقد أقر الخليفة يزيد قاضي عمر بن عبدالعزيز عليها وهو عبدالله بن يزيد بن عبدالله بن خذامر الصنعاني، أبوه من أبناء الفرس في اليمن، فكان أول قاض يتولى قضاءها من غير العرب. وقد ولاه عمر في رجب (سنة ١٠٠هـ)، فظل على قضائها حتى عزله هشام بن عبدالملك في رمضان (سنة ١٠٥هـ) بيحيى بن ميمون الحضرمي، فكانت ولايته من قبل عمر ويزيد بن عبدالملك، ودامت ما يقارب خمس سنين وثلاثة أشهر. وقد كان عبدالله بن يزيد، صالحًا عفيفًا، لم يقبض على عمله دينارًا ولا درهمًا[٤].

ومع استعمال الموالي وأهل الذمة، في كثير من الأعمال إبان العصر الأموي، فقد

---

(١) الكندي: الولاة، ص ٧١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ١/٢٥٠.

(٣) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص١٨٠.

وقد أفردنا فصلاً خاصًا لبحث مرسوم الخليفة يزيد بن عبدالملك القاضي بمحو الصور وكسر الأصنام والصلبان والتماثيل، لخطورة هذا القرار داخليًا، وأثر على علاقة الدولة الإسلامية برعاياها من أهل الذمة وصداه خارجيًا، وخاصة في الدولة البيزنطية، التي أتبع إمبراطورها ليو الأيسوري السياسية اللاأيقونية، محاكيًا سياسة الدولة الأموية وخليفتها يزيد بن عبدالملك. وقد توصلنا لتاريخ آخر لهذا المرسوم يخالف ما ذكر أعلاه. (انظر الفصل الثالث).

(٤) ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، ص٢٩١ – ٢٩٢ (نقلاً عن: الكندي، نفس المصدر، ص٣٣٢ – ٣٣٣، ٣٣٧ – ٣٤٠ – ابن حجر: رفع الاصر، ٢/٣٠٤ – ٣٠٥) لكن ابن عبدالحكم ذكر أن عزل ابن خذامر الصنعاني كان (سنة ١٠٢هـ)، (انظر: فتوح مصر، ص١٥٧).

ظلت وظيفة الوالي في مصر حكرًا على العنصر العربي حتى نهاية الدولة الأموية[1].

ولنا ملاحظة أخيرة على سياسة يزيد الإدارية في مصر، وهي عدم إطلاق يد العامل وذلك عن طريق الفصل بين الوظيفة الإدارية والمالية والقضائية. فقد عين الخليفة عاملاً على الخراج من قبله، كما كان أمر القاضي إلى الخليفة ولاية وعزلاً، وبذلك اقتصرت سلطات الأمير على الصلاة والحرب.

وقد ظل حنظلة واليًا على مصر حتى وفاة يزيد بن عبدالملك، حيث عزله هشام بأخيه محمد بن عبدالملك بن مروان[2].

عماله على المغرب:

لما أفضت الخلافة إلى يزيد بن عبدالملك عزل إسماعيل بن عبيدالله[3] عن ولاية إفريقية والمغرب[4]، وولاها يزيد بن أبي مسلم، مولى الحجاج بن يوسف الثقفي[5]، في ذي القعدة (سنة ١٠١هـ)[6]. وكان قدومه إليها سنة ١٠٢هـ[1].

---

(١) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٦٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ١/٥٢٠.

(٣) انظر ترجمته قبل: الفصل الأول، ص ٦٣.

ولعل عزل الخليفة يزيد لإسماعيل بن أبي المهاجر، مؤدبه سابقًا يدل على فتور العلاقة بين الخليفة ومؤدبه بينما تراه يستقضي الزهري مؤدبه ومعلمه الآخر، وهو لم يكن من رجال الدولة.

(٤) ذكر ابن أبي دينار أن عامل إفريقية الذي عزله الخليفة يزيد بابن أبي مسلم هو محمد بن يزيد الأنصاري كان عليها من قبل عمر بن عبدالعزيز. (انظر كتابه المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، نشرة المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثالثة، ص٣٩). والصحيح من قبل سليمان بن عبدالملك فعزله عمر بن عبدالعزيز بإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر. (انظر: ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣١٨، ٣٢٣).

(٥) انظر ترجمته قبل: ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٦) عن ولاية يزيد بن أبي مسلم، (انظر: ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٤٣ - ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٢٤ - البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٣ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢/٣١٣ - ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨٢ - ابن عذاري: البيان المغرب، ١/٤٨ - ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، ص٣٩ - ابن خلكان: وفيات، ٦/٣١١ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤/٢١٥ - الذهبي: دول الإسلام، ١/٥٣ - الناصري: الاستقصاء، ١/١٠١، وغيرهم).

وقدمها ومعه عبدالله بن موسى بن نصير[٢]. أصحبه إياه الخليفة يزيد، ولعل ذلك كما يقول حسين مؤنس[٣] ليكون عونًا له، لمعرفته بشئون المغرب وخبرته بالبلاد وعلمه بأهلها، فلما وصلاها، أمر ابن أبي مسلم عبدالله بن موسى أن يعد من ماله عطاء الجند وأرزاقهم خمس سنين، فقال لا أقدر، فحبسه بداره. وأخذ موالي موسى بن نصير من البربر فوسم أيديهم وردهم إلى الرق، فجعلهم أخماسًا وأحصى أموالهم وأولادهم، وجعل بعضهم حرسه وبطانته، في محاولة منه للقضاء على كل اثر لجاه بني نصير في أفريقية[٤]، وقد اعتبرت فاطمة رضوان[٥] أن هذا الإجراء تجاه عبدالله بن موسى ومواليه، بداية لسياسة ابن أبي مسلم الهادفة إلى تتبع أموال الولاة السابقين، لكننا لم نجد منه موقفًا تجاه غير آل موسى، ولم تمدنا المصادر بما يفيد محاسبته لغيرهم من الولاة. ويبدو أنه، كان يرى أن آل موسى اقتطعوا جزءًا من أموال المسلمين، إبان الفتوحات في المغرب والأندلس. لذلك أمر عبدالله بن موسى أن يقدم عطاء الجند لخمس سنين. أما موقفه من موالي آل موسى، فيبدو أنه اعتبرهم جزءًا من تلك الغنائم التي استحوذ عليها موسى وبنوه إبان تلك الفتوح، لذلك أعاد مواليهم إلى الرق، وخمسهم، فضم خمس الدولة أو بعضه إلى حرسه وبطانته. وكان هناك حرس للدولة، في خدمة أمير إفريقية، لا يولي بتوليه ولا يعزل بعزله، مما يدل على أن ولاية

---

(١) البلاذري: نفس المصدر والصفحة – ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢) عبدالله بن موسى بن نصير اللخمي، أمير من رجال الفتوح في المغرب، كان مع أبيه في أفريقية فاستخلفه على القيروان سنة ٩٣هـ، واستمر أميرًا عليها إلى أن عزله سليمان (سنة ٩٧هـ) بمحمد بن زيد ثم يختلف المؤرخون، فمنهم كابن عذارى وآخرون يذهبون إلى أن محمد سجن عبدالله وعذبه ثم قتله، وفريق آخر منهم ابن حبيب يقول: أن بشر بن صفوان لما ولى إفريقية سنة ١٠٢هـ، اتهم عبدالله بن موسى بقتل يزيد بن أبي مسلم أمير افريقيا، فقتله به، وبعث برأسه إلى الخليفة يزيد بن عبدالملك، فنصبه (الزركلي: الأعلام، ١٤٠/٤ – ١٤١).

(٣) فجر الأندلس، ص١٥٨.

(٤) عن استصحاب عبدالله بن موسى وموقف ابن أبي مسلم منه ومن مواليه، (انظر: ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٤٣ – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٣/٢ – حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٥٨).

(٥) المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦٠.

افريقية غدت ذات نظم مستقرة[1]. وكان هؤلاء الحرس من البربر البتر، ليس فيهم من البرانس[2] أحد. وكان الولاة السابقين ليزيد يقربون البتر ويميزونهم ويتخذون منهم بطانتهم، فلما جاء ابن أبي مسلم اتخذ تجاههم سياسات كان فيها شيء من الامتهان والإذلال، فخسر ولاء هذا الفريق القوي وهذا ما سيكون له عظيم الأثر في تطور الأحداث فيما بعد[3].

ويتضح أن يزيد بن أبى مسلم اعتزم اتخاذ بعض الإجراءات التنظيمية في جهاز الإدارة تنطوي على شيء من الدقة ومظاهر الأبهة، فرأى أن يميز الحرس عن سواهم، حتى لا يشتبه على الناس أمرهم إذا ما أوكلت إليهم المهمات، ويسارعون في الاستجابة لأمر الحاكم. فيروي ابن عذارى[4] أن ابن أبى مسلم خطبهم قائلاً: «إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها، فأرسم في يمين الرجل اسمه وفي يساره «حرسى»، ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس، فإذا وقفوا على أحد،

---

(1) فاطمة رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين ص ٦١.

(2) البتر والبرانس: هما الجذعان الرئيسان اللذان ينتمي إليهما البربر، وكل جذع ينقسم إلى عدد من القبائل، فالقبائل البترية،: لواتة، ونفوسه، ونفزاوة، ومغراوة، وزناتة، ومطغرة، ومغيلة، ومكناسة، ومديونة، وزواغة. أما القبائل البرنسية: صنهاجة، مصمودة، هسكورة، أوربة، كتامة، هوارة، غمارة، ازداجة، مسطاطة، جزولة. والبتر هم من عاشوا في مناطق السهول المتميزة بالمناخ المعتدل، بينما استقر البرانس في الجبال الباردة، ويعزى سبب تسمية البرانس بهذا الاسم للبسهم برنساً كاملاً بغطاء الرأس، أما البتر فلبسوا البرنس بدون غطاء الرأس، أي أبتر، فسموا بالبتر. (انظر عن ذلك: عبدالواحد ذنون طه: الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٢م، ص٥٣). ويضيف شكري فيصل: أن البرانس هم من خالط الروم على السواحل واكتسب منهم الحضارة، والبتر هم البدو يحيون عيشة القبائل في الداخل، وإن لم تنقطع بينهم الصلات. (انظر: حركة الفتح الإسلامي، ص١٨١).

(3) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٣ – فاطمة رضوان: نفس المرجع، ص٦١. (وعللت اعتماد الولاة على البتر، لأن الكثير من البربر البرانس كانوا قد انضموا إلى الجيش الإسلامي بعد مقتل الكاهنة في ولاية حسان بن النعمان) – حسين مؤنس: فجر الأندلس ص١٤٧ – ١٥٩.

(4) البيان المغرب، ٤٨/١.

أسرع لما أمرت به»[1].

بل أن البلاذري[2] أخبر بما يفيد أنه شرع في تنفيذ عزمه عندما قال: «كان حرسه من البربر فوسم كل امرئ منهم على يده حرسي».

وقد فات الأمير طبيعة القبائل البترية، وأنهم بحياتهم البدوية، اشبه بالعرب في أنفتهم، وعزة أنفسهم كما تجاهل أسبقيتهم إلى الدخول في الإسلام، وتقديم خالص العون لهم[3]. لذلك أنكروا عليه هذا التصرف لما فيه من الامتهان والاستخفاف، وكرهوا سيرته، وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى، فسعوا إلى بعض، واتفقوا على قتله[4]. وكان لعبدالله بن موسى بن نصير دور في تأليبهم وتحريضهم عليه[5].

وتشير بعض المصادر والمراجع إلى عوامل أخرى أدت إلى مقتل يزيد بن أبي مسلم، منها ما تشير إليه فاطمة رضوان[6]. من أن ابن أبى مسلم زعم أن بلاد المغرب فئ للأمويين ومغنم فتحوه عنوة بالسيف، فهو ملك للدولة، لها أن تقرر ما شاءت من الخراج على أراضيه.

وتذكر المصادر والمراجع[7]، أن ابن أبى مسلم عزم على أن يسير في أهل أفريقية

---

(1) ينطوي النص على اقتباس ابن أبى مسلم شيء من التنظيمات الرومية. وذلك الاقتباس كان ظاهرة معروفة في العصر الأموي بحكم وجود عاصمتهم دمشق في بلاد الشام التي كانت تابعة للروم قبل الفتح، ولاتخاذهم أبهة الملك في دولة توسعت وضمت مناطق كانت مهد حضارات قديمة، وأقوام من غير العرب كان لهم ثقافاتهم ونظمهم المتقدمة، فأوجبت الحاجة في دولة ناشئة مثل هذا الاقتباس والمحاكاة.

(2) فتوح البلدان، ص٢٣٢.

(3) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٥٩.

(4) البلاذري: نفس المصدر والصفحة - ابن عذاري: البيان المغرب، ٤٨/١ - حين مؤنس: نفس المرجع، ١٥٦.

(5) حسين مؤنس: نفس المرجع، ص١٥٩.

(6) المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦١.

(7) الطبري: تاريخ الأمم، ٦١٧/٦ (وقد أوردنا نص خبره في هذا الشأن بعد: المبحث الثاني، ص٥٥٩) - وكذلك ابن أبي دينار: المؤنس، ص٣٩ - ابن خلكان: وفيات، ٣١١/٦ - ابن تغري بردي: النجوم، ٢٤٥/١ - الناصري: الاستقصاء، ١٠٣/١ - السيد عبدالعزيز سالم: المغرب =

والمغرب بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل السلام الذين سكنوا الأمصار، ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق ممن ردهم إلى قراهم ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم، فلما عزم على ذلك، أجمعوا على قتله فقتلوه.

والحقيقة أن هذين الخبرين يفيدان ما اعتزمه ابن أبى مسلم وما كان يراه، إلا أنهما لا يشيران إلى تنفيذه هذه السياسة. ومن هنا فإن هذين العاملين كما يبدو قد ساعدا على وجوده الجفوة والفجوة بين أبى مسلم وأهالي المغرب إلا أن من الواضح أن السبب المباشر لمقتله هو موقفه من عبدالله بن موسى بن نصير ومواليه وحرسه، يؤكد ذلك اتهام عبدالله بقتل يزيد، وقتله قصاصًا بعد أن قامت عليه الحجة[1].

ونحن لا نجانب الواقع كثيرًا إذا قلنا بأن الصلة التي تربط يزيد بن أبى مسلم بالحجاج بن يوسف[2]، قد جنت عليه، وأكسبته كراهة الناس، وتحامل بعض المؤرخين، ظنًا انه على شاكلة سيده الحجاج وأنه لابد سائر على نهجه. إذ لا تمدنا المصادر بنصوص تثبت إتباعه نهج الحجاج، أو اتخاذ خطوات إدارية أو مالية فيها ظلم واعتداء غير ما أوردته من سياسته تجاه آل موسى ومواليهم وحرسه، وماعدا ذلك لا نجد سوى الظن والقول بأنه كان يرى أو انه اعتزم. فما نفذ ما كان يراه، وما فعل ما اعتزمه. وقد يكون ابن أبي مسلم كان يرى ذلك، لكنه أيضًا كان موقنًا من عدم إمكانية تنفيذ ما يراه، في قبائل البربر التي ألفت عدالة الإسلام، ونعمت بما أجراه عليها حسان بن النعمان الغساني، يساعدهم على ذلك قوة شوكتهم، ومنأى بلادهم عن دار الخلافة، وطبيعة

= الكبير، ٢/٢٩٤ - فاطمة رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٥٨ - حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٥٩.

(١) انظر اتهام عبدالله بن موسى بقتل ابن أبي مسلم، وقتله بعد قيام الحجة عليه، بعد: ص٥٢٨ - ٥٣١.

(٢) تتمثل هذه الصلة في كونه مولا للحجاج وكاتبًا له، كانت فيه كفاية ونهضة فقدمه الحجاج، واستخلفه على خراج العراق عند وفاته، فأقره الوليد وقال: «مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارًا». (انظر ضمن ترجمته عند ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٦/٣٠٩).

أرضهم القاسية[1].

ولقد قال كثير من المؤرخين بسوء سيرة يزيد بن أبي مسلم الثقفي، ومن هؤلاء المؤرخ والمحدث الثقة، الإمام الذهبي[2]، الذي قال عنه: «فبقي - يعني يزيد بن أبي مسلم على المغرب سنة وفتكوا به لأنه اساء السيرة وظلم فقتلوه وأراح الله منه في سنة اثنتين ومائة».

وإن كنا نجد ابن خلكان[3] في خبر عزاه إلى ابن عساكر، يشير إلى حسن سيرة ابن أبي مسلم، ولإنفراده بهذا الخبر، رجعنا إلى ابن عساكر[4]، فوجدنا الخبر الذي نقله عنه ابن خلكان، لكنه لم يذكر القول بحسن سيرته. وجاء عند ابن خلكان زيادة لا نعلم أهي عنه، أم من النساخ، وبلاشك فإن في موقف يزيد بن أبي مسلم من آل موسى، وما أراد إجراءه على حرسه من البربر، ظلمًا وسوء سيرة، إلا أن المصادر لا تمدنا بنصوص تدل على سياسات ظالمة طبقها على عموم البربر في افريقية. وهذا ما دفعنا إلى مناقشة ما ذكر حول سيرته في البربر، وتحديد ما ورد فيها من عموميات اللفظ والمعنى للوصول إلى حقيقة سيرته في ظل المقتضى الصحيح لتلك النصوص.

وكان حرس يزيد قد اتفقوا على قتله، فلما كان شهر رمضان من (سنة ١٠٢هـ)، وثبت عليه أحد جنده ويدعى «حريز»[5] فقتله في مصلاه. بعد أن صلى ركعة من صلاة

---

(١) من المعروف أن بلاد المغرب قد فتح بعضها صلحًا، والبعض الأخر عنوة، إلا أن الوالي حسان بن النعمان (٧٤ - ٨٥هـ) الذي نظم المغرب إداريًا لأول مرة، أجرى عليها حكم الأرض المفتوحة صلحًا. ووافقه في ذلك موسى بن نصير، ومن جاء بعده من الولاة، حتى ولاية يزيد ابن أبي مسلم. (انظر: فاطمة رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦١ - ٦٢، ٢٩ - ٣٠).

(٢) تاريخ الإسلام، ٢١٥/٤ - دول الإسلام، ٥٣/١ - وممن قال بظلمه وسوء سيرته ظنًا من خلال عتزامه إتباع نهج الحجاج في أهل السواد / الطبري: تاريخ الأمم، ٦١٧/٦ - ابن الأثير: الكامل، ١٨٢/٤ - ابن أبي دينار: المونس، ص٣٩ - الناصري: الاستقصاء، ١٠٣/١.

(٣) وفيات، ٣١١/٦.

(٤) تاريخ دمشق، المخطوط، ٣٨٩/١٨.

(٥) ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٤٣. وأورد اليعقوبي اسمه «جرير». (انظر: تاريخ اليعقوبي، ٣١٣/٢).

المغرب[1]. وقصة ذلك أن يزيد لما تولى المغرب، قبض على محمد بن يزيد الأنصاري، وعذبه حيث يروي أن عمر بن عبدالعزيز في مرض موته أمره بإطلاق المساجين، فأطلقهم جميعًا ما عدا ابن أبي مسلم، فنذر دمه إن تمكنه منه. فلما مات عمر ولاه الخليفة يزيد إفريقية، وكان محمد بها، فأخذه بذلك وسجنه وعذبه، وكان في يوم مقتله قد عزم على قتله فأمر بالنطع والسيف لقتله، إلا أن صلاة المغرب أقيمت، فقام لها، فوثب عليه جنده وقتلوه[2].

ويقال[3]: أن صاحب هذه القصة ليس محمد بن يزيد بل الوضاح بن أبي خيثمة[4] الذي كان حاجبًا لعمر، فأمره بإطلاق المساجين، فترك ابن أبي مسلم، ولما مات عمر هرب إلى افريقية، فجاءت ولاية ابن أبي مسلم عليها، فقبض عليه.

وهذا القول أولى، خصوصًا أن محمد بن يزيد كان عمر قد عزله عن إفريقية وولاها ابن أبي المهاجر[5]، فمن المشكوك فيه أن يوليه أمرًا له بعد عزله. لكن بالعودة إلى ابن خياط[6] أسبق من أشار إلى الرواية الأولى، وجدنا أن الوضاح بن خيثمة المذكور أحد رجال سند الرواية التي نقلنا قصة محمد بن يزيد مع بن أبي مسلم، كما

---

(1) عن مقتل يزيد بن أبي مسلم، (انظر: ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٦ – ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٤٣– البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٣ – ابن عذارى: البيان المغرب، ٤٨/١ – ابن عساكر: تاريخ دمشق (المخطوط)، ٣٨٩/١٨ – ابن خلكان: وفيات، ٣١١/٦ – ٣١٢ ابن أبي دينار: المؤنس، ص٣٩ – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٣/٢ (أشار أنه قتله وهو يأكل عنبًا في طعام له، ووافق على ذلك ابن عبدالحكم، نفس المصدر والصفحة).

(2) ذكره ابن خلكان في ترجمة يزيد بن أبي مسلم، وأورده قصته معه، ولم يفرد له ترجمة. (انظر: نفس المصدر، ٣١١/٦ – ٣١٢).

(3) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٦ – ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٤٣ (إلا أنه أشار أن سبب أن محمد ابن يزيد تولى عذابه زمن الحجاج. وذلك مستبعد فقد كان ابن أبي مسلم ثقة الحجاج وكاتبه).

(4) الجهشياري: الوزراء، ص٥٦ – ٥٧ – ابن خلكان: نفس المصدر والصفحة، الناصري: الاستقصا، ١٠٣/١.

(5) ابن خياط: نفس المصدر، ص٣٢٣.

(6) نفس المصدر، ص٣٢٦.

أننا وجدنا حجابة عمر بن عبدالعزيز لم تكن للوضاح بل حبيش مولاه[1].

مما يجعلنا أمام اضطراب لا مخرج منه، وأيًا كان صاحب القصة، فالمهم لدينا حدوث مقتل ابن أبي مسلم أثناءها.

وينفرد خالد الصوفي[2] بالقول: أن ابن أبي مسلم قتل بالسم، لكنه لم يشر إلى مصدر خبره، وهو بذلك خبر ضعيف لا يلتفت إليه، أمام إجماع المصادر على ما قدمناه.

كما نجد من يقول بقتل بن أبي مسلم على يد الخوارج، يقول الذهبي[3] في رواية له: «ثم أمره – أي ابن أبي مسلم – على إفريقية يزيد بن عبدالملك، فثارت عليه الخوارج ففتكوا به لظلمه، سنة اثنتين ومئة». وذكر هذا القول عوض خليفات[4]، واتخذ من ذلك دليلاً لدحض القول باعتناق ابن أبي مسلم لمذهب الخوارج الصفرية[5]، مفسرًا اتهام ابن أبي مسلم بأنه من الخوارج الصفرية، بوجود رابطة الصداقة التي كانت تربطه بجابر بن زيد[6].

وقد كان مقتله بعد ولاية دامت أقل من عام واحد، فقد تولاها في ذي القعدة سنة ١٠١هـ[7]، وقتل في رمضان (سنة ١٠٢هـ)[8]. وهذا قريب من قول الذهبي[1]: بأنه

---

(١) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٥.

(٢) تاريخ العرب في الأندلس، ص٢١٩.

(٣) سير، ٥٩٣/٤ – ٥٩٤ – وقال بقتله على يد أحد الخوارج، ابن أبي دينار: المونس، ص٣٩.

(٤) نشأة الحركة الأباضية، ص٣٧ (نقلاً عن: ابن خلدون: العبر، ٤٠٣/٤، ٢٢٠/٦ – ٢٢١).

(٥) ورد القول باعتناق ابن أبي مسلم مذهب الخوارج عند: ابن عساكر: تاريخ دمشق، المخطوط، م٣٦٨/١٨ – محمود إسماعيل عبدالرزاق: الخوارج في بلاد المغرب، ص٤٩ (نقلاً عن: ابن الأثير: الكامل، ٧٠/٥ – المبرد: الكامل، ٤٩٤/٣ – ٩٦٨).

(٦) جابر بن زيد الأزدي، أبو الشعثاء البصري، تابعي من رواة الحديث الثقات، كان عالم أهل البصرة في زمانه اتهم بالمذهب الأباضي الخارجي، فقال له رجل: إن هؤلاء الأباضية ينتحلونك، فقال: أبرأ إلى الله من ذلك. توفي سنة ٩٣هـ على خلاف. (ابن حجر: تهذيب، ٣٤/٢ – الذهبي: سير، ٤٨١/٤ – ٤٨٢ (لكنه لم يشر إلى اتهامه بالمذهب الأباضي).

(٧) انظر ما كتبناه عن ولايته قبل: ص ٣٨٥.

(٨) انظر تاريخ مقتله في الصفحة السابقة، وأيضًا: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٨٦/٤، والعبر في خبر من غبر ١٢٤/١ – اليافعي: مرآة، ٢٤١/١ – الناصري: الاستقصاء ١٠٣/١.

بقي على المغرب سنة. ونحن بهذا نرد قول من حدد ولايته بشهر واحد[2].

وتختلف المصادر على من تولى أمر إفريقية بعد يزيد بن أبي مسلم، فمنها ما يذكر أن أهل إفريقية ولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبله، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار، وكان عندهم غازيًا صقلية في جيش يزيد بن أبي مسلم[3] وكتبوا إلى الخليفة يزيد: «أنا لم نخلع أيدينا من الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا بما لا يرضى الله والمسلمون، فقتلناه، وأعدنا عاملك». فكتب إليهم الخليفة: «إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم، وأقر محمد بن يزيد على افريقية»[4].

ومن هذا القول يفهم أن عمل البربر لم يكن خلافًا على الدولة أو خروجًا عن الطاعة، وإنما رد فعل لما فعله الوالي بهم، فكتبوا إلى الخليفة معتذرين، مؤكدين بقاءهم على الطاعة والجماعة. كما يفهم منه، أن يزيد بن أبي مسلم قد أوقع على البربر شيئًا من الظلم والجور، لكنه لم يوضح في أي شيء كان، أذلك في النواحي المالية أم غيرها.

وقد كان الخليفة في هذا الموقف واقعيًا مرنًا، أبدى إنكاره لصنيع ابن أبي مسلم، وأقر الأمير الذي ولوه حتى بعث إليهم أميرًا آخر من قبله. وبلا شك فإن في ذلك دلالة

---

(1) تاريخ الإسلام، ٤/٢١٥.

(2) قال بذلك: السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، ٢/٢٩٤ - ٢٩٥ (نقلاً عن السلاوي: الاستقصا، ١/١٠٣) - فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦٦ (نقلاً عن: ابن عذارى: البيان المغرب، ص٤٨ - الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية، ص١٠٠ - محمد دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ٢/٢٠٤) - محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص٦٥.

(3) هناك رواية تقول أن محمد بن يزيد كان سجين ابن أبي مسلم عند مقتله. (انظر ذلك قبل: ص٥١٣).

(4) عن القول بتولية محمد يزيد، (انظر: الطبري: تاريخ الأمم، ٦/٦١٧ - ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٦ (أشار أن محمد بن يزيد كتب للخليفة بالخبر، فولى بشر بن صفوان، ولم يقل بولاية محمد بن يزيد) - الجهشياري: الوزراء، ص٥٧ - ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨٢ - ابن خلكان: وفيات، ٦/٣١١- ٣١٢ - ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/٢٧ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤/٢٠٢ - ودول الإسلام، ١/٥٣ (قال: أخرجوا محمد من سجنه وولوه) - القلقشندي: مآثر، ١/١٤٩ - ابن أبي دينار: المؤنس ص٣٩. (والمصدران الاخيران قالا: أنهم كتبوا إلى الخليفة بقتله، فرد على المغرب محمد بن يزيد، حتى صرفه ببشر بن صفوان).

على أن الكثير من تصرفات الولاة لم تكن بتوجيه من الخليفة أو تنفيذًا لسياسة الدولة. ويلاحظ من النص، أنهم ولوا الوالي الذي كان عليهم قبل ابن أبي مسلم. والصحيح أن عاملهم قبل ابن أبي مسلم لم يكن محمد بن يزيد بل إسماعيل بن أبي المهاجر الذي كان قد ولاه عمر بن عبدالعزيز على افريقية بعد أن عزل عنها عامل الخليفة سليمان وهو محمد بن يزيد.

وهذا فيما يبدو كان سببًا في اختلاف المؤرخين، فقد ذهب فريق منهم[١] إلى أن أهل افريقية ولو عليهم بعد مقتل يزيد بن أبي مسلم إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر.

كما نجد فريقًا ثالثًا[٢]، يقول بأن أهل افريقية بعد مقتل ابن أبي مسلم تراضوا على المغيرة بن أبي بردة[٣]، لكن ابنه عبدالله خوفه أن يتهم بقتل الأمير إن تولى الأمر، وارتأى هو وولده ترك الأمر، وتراضوا على محمد بن أوس الأنصاري[٤]، أمير البحر وكان غازيًا بصقلية فلم يلبث إلا يسيرا حتى قدم من غزوة غانمًا، فقلدوه أمرهم، فكتب بذلك مع خالد بن أبي عمران إلى الخليفة. فقبل منهم وعفا عن زلتهم، وكان قد سأل الرسول عن ابن أوس فقال: أنه من أهل الفضل والدين، ثم سأله: ألم يكن بها قرشي؟ فقال له: بلى، المغيرة بن أبي بردة، فقال له: لم لم يقم؟ قال خالد: أبى ذلك وأحب العزلة. فسكت الخليفة مقرًا لهم. فمن الذي تولى أمر افريقية بعد ابن أبي مسلم من هؤلاء الثلاثة؟ أن القول بولاية إسماعيل بن أبي المهاجر أو محمد بن أوس، أولى

---

(١) ابن خلكان: وفيات، ٣١١/٦ – ٣١٢ – الناصري: الاستقصاء ١٠٣/١ – ١٠٤.

(٢) ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٤٣ – ١٤٤ – ابن عذارى: البيان المغرب، ٤٨/١ – ٤٩ – الدباغ – معالم الإيمان، ١٩٦/١ – ١٩٧.

(٣) المغيرة بن أبي بردة الكناني بالحلف، من بني عبدالدار، كان ممن استوطن افريقية من جلة التابعين، وكان من وجوهها ذو فضل ودين كثير الصدقة، من رواة الحديث الثقات، غزا البحر لسليمان بن عبدالملك، والسالفة بالبعث من مصر إلى افريقية (سنة ١٠٠هـ)، كما غزا القسطنطينية وغزا مع موسى بن نصير المغرب والأندلس، ولما قتل ابن أبي مسلم ارتضاه الناس لأمرهم فأبى، رغبة في السلامة. (ابن حجر: تهذيب، ٢٢٩/١٠ – ٢٣٠ – الدباغ: نفس المصدر، ١٩٦/١ – ١٩٧).

(٤) سبقت ترجمته.

للنص على ولايتهما في بعض الروايات، كما بينا آنفًا، ولأن الناس إذا كان الاختيار من قبلهم، ولوا عليهم أحب الناس إليهم، ومن عرف عنه القدرة والصلاح. وتلك الصفات كانت متوفرة في إسماعيل بن عبيد الله، الذي كان من خيار من تولى افريقية، وقد أحسن السيرة في أهلها[1]، وكذلك محمد بن أوس، الذي كان من أهل الفضل والدين والفقه وصاحب أثر حسن في الغزو والجهاد[2].

أما محمد بن يزيد، فقد ذكر أنه كان عامل سوء يظهر التاله والنفاذ لكل ما أمر به السلطان، مما جل أو صغر وإن كان جورًا أو مخالفًا للحق، وكان في هذا يكثر الذكر والتسبيح، فيأمر بالقوم يعذبون بين يديه، وهو يقول: لا اله إلا الله والله أكبر، شد يا غلام موضع كذا وكذا، فكانت حالته شر الحالات، ولعل ذلك ما دعى عمر بن عبدالعزيز إلى عزله عندما تولى الخلافة[3]، وعطفًا على ذلك فإن تولية أمرهم لإسماعيل بن أبي المهاجر أو محمد بن أوس، أولى وأرجح من تولية محمد بن يزيد.

والحقيقة أن الخليفة يزيد لم يُقر البربر على قتل الأمير، وفي ذلك ما فيه من تجاوز على سلطان الدولة والشريعة. لكنه أراد تجاوز المحنة بحكمة وحنكة، فجنب الدولة مشاكل لا حصر لها إذا ما تورط في الاصطدام مع البربر وهم القوة القوية في المنطقة الوعرة النائية، والتي ما أظن أن الخليفة قد نسى كم كلف فتحها أسلافه، من الجهد و المال والأنفس و الزمن[4].

---

(١) وعن ولايته على افريقية وسيرته في أهلها، انظر: فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٤٣ – ٥٦.

(٢) انظر الإحالة إلى ترجمة في الصفحة السابقة.

(٣) ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، ص١٢٠ (نقلاً عن ابن عبدالحكم: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص٣٢ – ٣٣). هذا لا يعني سوء ولايته مطلقًا، فقد ذكر له جوانب مضيئة من السيرة، وبخاصة في نشر الإسلام، والرفق واللين بالبربر وتقريبهم. (انظر عن ذلك: فاطمة عبدالقادر رضون: نفس المرجع، ص٣٦ – ٣٧).

(٤) استغرق فتح المغرب مدة زمنية طويلة قياسًا بفترة باقي الفتوحات، وامتدت هذه الحقبة من عام ٢٢ – ٩٠ هـ وقد تعاقب خلال تلك الفترة عدد من القادة ابتداء من عمرو بن العاص، وانتهاء بموسى بن نصير. (يوسف أحمد حوالة: الحياة العلمية في افريقية، ص١٠٢).

فأقر الجميع على ما صنعوه واقتص ممن اتهم بقتل عامله، وثبتت عليه الحجة[1].

بعد أن عرضنا لولاية يزيد بن أبي مسلم أرى أن من الأهمية الإشارة إلى آراء بعض المؤرخين المحدثين حول أسباب ولايته وطبيعة سياسته إبانها وأثر تلك السياسة.

فيرى ثلة من المؤرخين أن استعمال الخليفة يزيد بن عبدالملك ليزيد بن أبي مسلم جاء لتعصب الخليفة للعنصر القيسي الذي عرف بتصلبه مع العناصر غير العربية، وأن الخليفة لم يكن يقر سياسة اللين والتسامح التي اتبعها سلفه الخليفة عمر بن عبدالعزيز، ويرى أن سياسة الترهيب والعنف أجدى على الدولة، وأنه كان يرى أن دخول البربر في الإسلام قد أدى إلى نقص مورد هام من موارد بيت المال وهو الجزية لذلك كان اختياره لابن أبي مسلم القيسي مولى الحجاج وكاتبه وتلميذه. والذي غير الملامح الأساسية لسياسة الولاة قبله، والتي اتسمت بمحاولة توطيد الأخوة والتعاون بين العرب والبربر وإدخالهم في الدين الإسلامي[2]، فنهج سيرة سيده الحجاج و اشتط على أهل البلاد من البربر، ففرض عليهم الجزية واستخف بهم وسبى نساءهم، واشتد في جمع أموالهم، بل أنه تفوق على الحجاج في مظاهر السلطان والترف والحاشيات الخاصة[3].

---

(1) عن مقتل عبدالله بن موسى بن نصير، على يد عامل يزيد الجديد بشر بن صفوان، (انظر بعد: ص٥٢٨).

(2) يقول صابر دياب عن سيرة المسلمين الحسنة في البربر: أنهم نشروا الإسلام فيهم وأشركوهم معهم في الجيوش الفاتحة، وسعيا وراء سياسة التآلف والتلاحم مع البربر، تمت المساواة بين الفريقين في الفئ والغنيمة والحقوق والواجبات، كما اعتبروا أرض المغرب أرضا مفتوحة صلحا لا عنوة. فأقروا أهلها على ما بيدهم من الأرض وتركوا لكل قبيلة أرضها، تصرف أمورها، وتؤدي خراجها، واعتبروهم أحرارا في بلادهم وهذا ما أدى إلى ولاء البربر للإسلام ودولته. (انظر: بلاد المغرب في القرن الأول الهجري، مكتبة السلام العالمية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤، ص١٥٩، ١٦١).

(3) انظر هذه الآراء عند: فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص١٩٢، ٢٥٨ - فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٥٨ - السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، ٢/٢٩٣ - ٢٩٤ - إبراهيم بيضون: ملامح التيارات السياسية، ص٣٥٠ - والدولة العربية في أسبانيا من الفتح إلى سقوط الخلافة (٩٢ - ٤٢٢هـ / ٧١١ - ١٠٣١م)، دار النهضة العربية =

والحق أنه ليس في هذه الأقوال إلا قليل من الحق، ولقد قدمنا الرد على من اتهم الخليفة يزيد بتعصبه للعنصر القيسي وميله للعنف والشدة[1]. كما أنه ليس من الثابت اتخاذ يزيد بن أبي مسلم سياسات مالية وإدارية متسلطة وظالمة، لخلو المصادر من نصوص تدل على ذلك، ماعدا سياسته تجاه موالي آل موسى بن نصير وحرسه، وكذلك ما أشارت إليه المصادر من اعتزامه إتباع نهج الحجاج[2]، مع أنه لم يثبت إتباعه لذلك النهج.

والحق أن في كتاب البربر إلى الخليفة يزيد[3]، ما يفيد تجاوز ابن أبي مسلم وظلمه، إلا أن ذلك الكتاب لا يصرح بنوع ذلك التجاوز والظلم. لذا فمن تشويه الحقائق القول بما لم يثبت، وذكر معلومات افتراضية، أو المبالغة في تصوير الأحداث. فلم أجد في أي من المصادر التي أطلعت عليها أن ابن أبي مسلم نفذ سياسات محددة وواضحة من سياسات الحجاج التي اعتزم تنفيذها، كفرض الجزية على من أسلم، أو فرض ضرائب إضافية، أو إعادة الموالي إلى مناطقهم الأصلية، أو حرمانهم من العطاء، وغير ذلك.

لقد ذكرنا قبل[4] أن سياسة يزيد بن أبي مسلم تجاه آل موسى ومواليهم، وما حاول القيام به من تنظيم لحرسه البربري البدوي، في صورة تنم عن الامتهان والضعة، كانت وراء التخلص منه، إذ دفعتهم أنفتهم بتحريض من عبدالله بن موسى بن نصير إلى قتله، وكأنهم أرادوا أن يخلصوا المغرب منه قبل أن ينفذ فيه سياسات سيده الحجاج. كما أن هذه السياسة لم تكن ترضي الخليفة يزيد بن عبدالملك، ولا تلك الأساليب التصفية تجاه البربر، لذلك جاء رده عليهم عندما كتبوا له بقتله وتولية عامله: إني لم أرض ما صنع

= للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٠١ – ١٠٢ – حورية عبده سلام: علاقات مصر ببلاد المغرب، ص١٨ – محمود إسماعيل عبدالرزاق: الخوارج في بلاد المغرب، ص٣٤.

(١) انظر ما كتبناه حول ذلك قبل: ص٣٢٥.

(٢) انظر قبل: ص ٣٨٨وما بعدها.

(٣) انظر نص الكتاب قبل: ص ٣٩٣.

(٤) انظر قبل: ص ٣٨٦ وما بعدها.

ابن أبي مسلم وأقر من ولوه أمرهم[١]، بل أن هذا الموقف من الخليفة دليل على اهتمامه ببلاد المغرب[٢].

وعليه لا يستحب قبول تلك الآراء التي تشوه سلامة موقف الخلافة، وأن موقفها من باب الاعتراف بالأمر الواقع، وأن الخليفة يزيد إنما قبل بما ليس منه بد[٣].

كما لا يجوز قبول القول بأن المسلمين أساءوا السيرة في بلاد المغرب، وأن غرض الحكم الإسلامي هناك إنما كان الاستبداد و العسف بالبربر، فمن الإنصاف القول أن بعض عمال الدولة هم الذين أساءوا السيرة، فغالوا في الاستبداد والسيطرة، ظنًا منهم أن مسلكهم هذا سيرضي الخلفاء عنهم. لقد كان البربر أنفسهم لا يشكون في نية الخلافة تجاههم، وكانوا يأملون منها الخير، لذلك كان سخطهم منصبًا على العمال، وكانوا يرددون «لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال»[٤].

ونجد بعض المؤرخين يجعلون من عهد يزيد بن أبي مسلم مقدمة لثورات البربر التي اجتاحت بلاد المغرب[٥]، وأن نفوس البربر وبلاد المغرب أضحت أرضًا خصبة

---

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٤٥ – ١٤٦.

(٢) صابر محمد دياب حسين: انتشار الإسلام وحركة الاندماج ببلاد المغرب في عصر الولاة، بحث، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي. العدد السادس، ١٤٠٣ – ١٤٠٤هـ. ص٢٨٧.

(٣) مثل تلك الآراء نجدها عند: فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦٧ – صابر دياب: نفس المرجع، ص٢٨٨.

(٤) صابر دياب: انتشار الإسلام وحركة الاندماج ببلاد المغرب في عصر الولاة، ص٢٩٠ – ٢٩١.

(٥) نعني بها ثورات البربر التي كان للخوارج الدور الأكبر في إشعالها والقيام عليها، والتي كان انفجارها بعد أن فشل وفد أهل افريقية بزعامة ميسرة المطغري السقاء الصفري من مقابلة الخليفة هشام بن عبدالملك، عندما ذهبوا إليه ليرفعوا شكواهم مما يجدونه من عماله عليهم، فتركوا شكواهم بيد الأبرش الذي كان بمثابة وزيره، وعادوا إلى المغرب، وهناك أظهروا الخروج على عامل عبيد الله بن الحبحاب في طنجة عمر بن عبيد الله المرادي (سنة ١٢٢هـ)، بقيادة ميسرة المطغري، فعمت بلاد المغرب والأندلس، وكانت فتنة أيما فتنة هزمت فيها جيوش الخلافة في أكثر من موقعة، وراح ضحيتها آلاف من المسلمين، وقد تولى التصدي لها ولاة المغرب ابن الحبحاب ثم كلثوم بن عياض و القائد بلج بن بشر وغيرهم من قادة وأمراء المدن والأقاليم، حتى كان إخمادها على يد حنظلة بن صفوان الكلبي في أواخر خلافة هشام (سنة ١٢٥هـ)، بعد =

صالحة لبث مبادئ الخوارج فيها، من جراء سياسته التعسفية هو وبعض الولاة الذين جاءوا بعده كعبيدة بن عبدالرحمن السلمي (١١٠ - ١١٥هـ)، وعبيد الله بن الحبحاب (١١٦ - ١٢٣هـ)، فوجد الخوارج أرضًا مناسبة لنشر مذاهبهم والثورة على حكامهم، لبعدها عن دار الخلافة، ولتهيؤ نفوس أهلها، تلك النفوس التي ضامها الظلم، فجنحت للعدل والمساواة التي نصت عليها مبادئ الدين الإسلامي، وألفتها النفوس منذ الفتح حتى تولى هؤلاء الأمراء المستبدين[١].

ولاية بشر بن صفوان الكلبي على افريقية والمغرب:

حينما بلغ الخليفة يزيد بن عبدالملك مقتل عامله على افريقية يزيد بن أبي مسلم، أقر لأهلها الأمير الذي ولوه أمرهم حتى يبعث عليهم عاملاً من قبله، فكتب إلى بشر بن صفوان الكلبي، عامله على مصر، بولايته على افريقية في (شوال سنة ١٠٢هـ)[٢]، فقدمها في الشهر والعام نفسه[٣]، وقيل: كانت ولايته (سنة ١٠٣هـ) وقدومه أيضًا[٤]. والأولى ما قدمناه، لوروده في أقدم المصادر، وتناسبه مع الحدث. فيبدو أن تعيينه جاء في أعقاب قتل ابن أبي مسلم مباشرة الذي كان مقتله في رمضان سنة ١٠٢هـ، لتثبت

= انتصاره الكبير عليهم في معركتي الأصنام والقرن. (انظر تفاصيل ذلك عند: فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص١٢٠ - ١٤٤).

(١) فاطمة عبدالقادر رضوان: نفس المرجع، ص٧٨، ١٠٥، ١١٥ - ١٢٠ - السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، ٢٩٧/٢ - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص٤٠ - صالح باجية: الأباضية بالجريدة في العصور الإسلامية الأولى، دراسة للحصول على شهادة الكفاءة للبحث العلمي، الجامعة التونسية، الكلية الزيتونية، الشريعة وأصول الدين، دار أبوسلامة للطباعة والنشر، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، ص٢٣، ٢٦.

(٢) الكندي: الولاة، ص٧١.

(٣) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٦ - ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٤٤ (ذكر سنة الولاية ولم يحدد الشهر) - ابن تغري بردي: النجوم، ٢٤٤/١.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢٧/٢، ٤٩ - الناصري: الاستقصا، ١٠٤/١ - القلقشندي: مآثر، ١٤٩/١ - وأنظر أيضًا عن ولاية بشر على افريقية: البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٣٣ - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٣/٢ - مجهول: أخبار مجموعة، ص٣١ - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٨.

الخلافة لأهل ذلك القطر أن إغماض العيون عن صنيعهم، وإقرارها من ولوه مؤقتًا، لا يعني عجزها عن السيطرة على الأقاليم، وترك الحرية للرعية في التطاول على سلطان الدولة، وتصحيح الأوضاع من عند أنفسهم.

فبعث إليهم بشرًا من قبله، وجعل من مهماته التحقيق في مقتل عامله السابق والاقتصاص من المتهم، والعمل على إعادة الأمن والاستقرار واستمالة البربر الإحسان إليهم والعدل فيهم. وكان بشر من الولاة الذين يعتمد عليهم في الإدارة والسياسة، لأنه كان عاقلاً رزينًا شجاعًا، محنكًا رؤوفًا بالرعية، فاصطنع مع البربر سياسة تقوم على المساواة بينهم وبين العرب، وعمل فيهم بالعدل والإحسان، تهدئة لخواطرهم، واستمالة لهم، فبادلوه الاحترام والتقدير، وسكنت إليه نفوسهم، ودانوا له بالطاعة والولاء، فتمكن بذلك من تسكين إرجاء المغرب، وساد البلاد في عهده السلم والهدوء[١].

وقد استغل بشر هدوء المغرب إبان ولايته، فعمر البلاد وسار بها في طريق التقدم و الرخاء[٢].

كما اقتفى أثر أميري المغرب محمد بن يزيد واسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر في نشر الدين والعلم، فاستمر الفقهاء والعلماء في عملهم وجهادهم، وكان من بينهم الواليان السابقان محمد بن يزيد وإسماعيل بن عبيدالله[٣]. فأدت هذه السياسة الطيبة في ظل الاستقرار والأمن، إلى إقبال البربر على مجالس العلم، في المساجد والمدارس حتى صار من البربر فيما بعد علماء أفذاذ وفقهاء في الشريعة[٤].

إلا أن حسين مؤنس يعزو سيطرة بشر على المغرب وتهدئة أمورها إلى إسرافه في استعمال القسوة المبالغة[٥]، وهذا خبر لا يتفق مع أعمال بشر وإصلاحاته التي ما

---

(١) فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦٨ - السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، ٢/٢٩٥ - فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٢٥٨.

(٢) فاطمة رضوان: نفس المرجع والصفحة.

(٣) فاطمة رضوان: نفس المرجع، ص٦٨.

(٤) فاطمة رضوان: نفس المرجع، ص٦٨ - ٦٩.

(٥) فجر الأندلس، ص١٦٠.

كانت تتم في جو نفسي مضطرب وقلوب حاقدة عليه.

وعلى أية حال فإن حسين مؤنس يمدنا بخبر آخر مفاده إسراف بشر في العصبية اليمنية. فيقول: «ولم يسرف أحد من عمال بني أمية الكلبيين في العصبية لقومه كما فعل بشر، فقد اشتد في ذلك شدة ملأت نفوس القيسيين عليه حقدًا، وغدوا يترقّبون موته بنافذ الصبر، وكان هو نفسه يشعر بذلك، ومن دلائل هذا ما يذكره المالكي من أن جارية من جواري بشر قالت وهو يعاني سكرات الموت: يا شماتة الأعداء! فقال لها قولي للأعداء لا يموت! حتى لا يستطيرهم الفرح، وكأن بشر خشى أن يقيم هشام على البلد رجلاً قيسيًا بعده فترك عليها العباس بن باضعة الكلبي واليًا ورجا أن يثبته هشام في الولاية، ولكن هشام انتهز فرصة وفاته ليولي مكانه قيسيًا هو عبيدة بن عبدالرحمن السلمي (١١٠ – ١١٥هـ) [١].

لكن إبراهيم بيضون يصف بشر بن صفوان بأنه من الرجال النفعيين، وأنه يقدم مصلحته على ولائه لقبيلته، فيقول: «ورغم تحدره – أي بشر – من قبيلة يمنية عريقة فإن بشر بن صفوان كان يتمتع بمقدرة على استغلال المواقف لمصلحته حيث كان ولاؤه الرئيسي لها. فهو قيسي المعتقد في عهد يزيد بن عبدالملك لا يخالف له أمرًا ولو كان على حساب قبيلته، ثم يعود إلى يمنيته في عهد هشام ذي الاتجاه اليمني»[٢].

ويستشهد على ذلك بقول دوزي حين قال: «إن بشرًا الكلبي خير من يمثل رجال هذا الفريق الحريصين على ما بيدهم من الوظائف مدفوعين إلى خدمة مولاهم – يمنيًا كان أم قيسيًا – فأخذ عددهم يزداد شيئًا فشيئًا كلما فسدت الأخلاق وكلما تغلب الطمع والرغبة في جمع المال على حب القبيلة في نفوسهم»[٣].

وبناء على هذا النص فإن وصف حسين مؤنس لبشر بتعصبه لليمن ينطبق عندما كان عاملاً لهشام لا ليزيد.

---

(١) فجر الأندلس، ص ١٦٠، (نقلاً عن / ابن عذارى: البيان المغرب، ٣٦/١ – ابن الأبار: الحلة السيراء، ص٤٧ – ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص٢١٧).

(٢) الدولة العربية في أسبانيا، ص١٠٢ – ١٠٣.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

وإن كنا نتحفظ على إطلاق هذين الرأيين فلم يكن الخليفة يزيد متعصبًا للقيسية في كل الأحوال وأقرب دليل على ذلك توليته لبشر الكلبي اليمني على افريقية وغيره من رجالات اليمن في مواطن أخرى. كما أن الخليفة هشام لم يكن ذي اتجاه يمني مطلق، وفي كلام حسين مؤنس نفسه دليل على بطلانه فقد ولى على افريقية بعد بشر اليمني عبيدة بن عبدالرحمن السلمي، كما عرف عنه اتخاذ سياسة تبديل الولاة في الإقليم الواحد من يمني إلى قيسي، ويمني بعد قيسي.

أما قول دوزي عن حرص بشر على مصلحته فنحن لا نملك دليلاً على ذلك، لكن البعيد عن الحق في قوله هو أن يؤخذ على أمثال بشر تقديم ولائهم لمولاهم أمير المؤمنين على حب القبيلة، وأن ذلك من فساد الأخلاق، فعندنا نحن المسلمون من فساد الخلق التعصب للقبيلة، الذي نهى الإسلام عنه، بقول رسول الله ﷺ: « ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[1]. وقال عليه السلام: «دعوها فإنها منتنة»[2].

بل ومن الحق أن يكون ولاء العامل لمولاه أمير المؤمنين مادام قائمًا بأمر الله، حارسًا لدينه، سائسًا للدنيا به، ليس في عمله معصية للخالق، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومما يذكر قيام بشر بن صفوان بقتل عبدالله بن موسى بن نصير لاتهامه بقتل يزيد بن أبي مسلم، فيشير ابن عبدالحكم[3]: إلى أن الناس اتهموا عبدالله بن موسى بن نصير أن يكون هو الذي عمل في قتل يزيد بن أبي مسلم، فلما دخل بشر ابن صفوان افريقية بلغه أن عبدالله هو الذي دس لقتل يزيد وشهد على ذلك خالد بن أبي حبيب القرشي وغيره.

فكتب بشر بذلك إلى الخليفة يزيد، فكتب إليه الخليفة يأمره بقتل عبدالله، وأراد بشر

---

(1) سنن أبي داود بشرح عون المعبود، ١٤/٢٦ – صحيح مسلم ٣/١٤٧٦ (بلفظ آخر) – سنن ابن ماجة، ٢/١٣٠٢ (بلفظه).

(2) البخاري مع فتح الباري، ٨/٥١٦، ٨/٥٢٠ – صحيح مسلم، ٤/١٩٩٨ – جامع الترمذي بشرح تحفة الأحوذي، ٩/٢١٨ – مسند الإمام أحمد، ٣/٣٣٨، ٣٨٥، ٣٩٣.

(3) فتوح مصر، ص١٤٤.

أن يؤخر قتله أيامًا، فقيل له عجل بقلته قبل أن يعفو عنه الخليفة، وكانت أم عبدالله زوجة للربيع صاحب خاتم الخليفة يزيد، فكلم الخليفة في عبدالله، فأمر بالعفو عنه، وجعلت أخته للرسول ثلاثة آلاف دينار إن هو أدركه، وأمر بشر بقتل عبد الله فقتل، فقدم الرسول بعافيته بعد مقتله ذلك اليوم، وبعث برأسه مع سليمان بن وعلة التميمي إلى الخليفة يزيد، فنصب رأسه[1].

ومن المراجع[2] ما يشير إلى مقتل عبدالله بن موسى على يد بشر بأمر من الخليفة يزيد بن عبدالملك، معتقدًا أنه وراء قتل يزيد بن أبي مسلم، لأن معظم الثائرين عليه من موالي موسى بن نصير، لذلك جاء أمره بقتل عميد آل موسى عبدالله بن موسى، ومصادرة أموالهم، وتعذيب أنصارهم. بل أن فاطمة رضوان[3] بالغت وقالت: قتل عبدالله وكثير من آله ومواليه. وقد علل هؤلاء المؤرخين مصادرة أموالهم بأنه من باب التعويض، لانقطاع مورد الجزية الذي توقف بمقتل ابن أبي مسلم[4].

وهم بذلك يشيرون إلى أمر الخليفة والمبالغة فيه، دون الإشارة إلى أسبابه وما أورده ابن عبدالحكم من قيام الحجة على عبدالله في اتهامه بتدبير مقتل عامل الخلافة. والواضح أن بشرا لم يتعرض من آل موسى ومواليهم إلا لعبدالله ومن كان قد أتهم من الموالي في القيام على يزيد وشارك في قتله. أما مصادرة الأموال فذلك أمر لا يستبعد فطالما وجدنا أمثلة مشابهة لذلك في عهد الخليفة يزيد وغيره من الخلفاء السابقين[5]. ويبدو لي أن اللجوء إلى هذا الأسلوب نوع من العقاب لرجال الدولة المخالفين، باعتبار أن هذه الأموال قد جنوها من جراء مركزهم الوظيفي أو دورهم القيادي الذي أتاحته

(1) وأنظر أيضًا عن مقتل عبدالله بن موسى: قدامة بن جعفر: الخراج، ص٣٤٦ – ابن حبيب: المحبر، ص٤٩٢ – البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٣.

(2) السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، ٢/٢٩٥ – ٢٩٦ – حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٦٠ (لكنه لم يشر إلى أن ما قام به بشر تجاه آل موسى بأمر من الخليفة).

(3) المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦٩.

(4) كنا قد بينا أن يزيد بن أبي مسلم اعتزم السير في البربرة بسيرة الحجاج بن يوسف، ومنها فرض الجزية على من أسلم، لكننا أوضحنا عدم ثبوت السير بها وإن ذلك مجرد اعتزام ونية. (انظر قبل: ص٥١١) وسنناقش سياسته المالية بعد في المبحث الثاني.

(5) انظر ما كتبناه عن مصادرة الأموال قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص ١٥٣ – ١٥٤.

الدولة لهم، وكأنهم يرون أنهم بعد مخالفتهم أو خروجهم، لا يستحقون تلك الأموال.

ومن هذه الأقوال السابقة يتضح أن مقتل عبدالله بن موسى قد تم على يد عامل أفريقية بشر بن صفوان زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك وبذلك يستبعد القول بقتله على يد محمد بن يزيد أمير افريقية لسليمان بن عبدالملك وبأمره[1]. إذ يروي أن سليمان لما ولي الخلافة عزل موسى بن نصير واستبدله بمحمد بن يزيد، وأمره بعزل ابنه عبدالله بن موسى عن افريقية وتعذيبه وسجنه ثم قتله نقمة على أبيه موسى، وحتى يؤدوا ثلاثمائة ألف دينار. فعمل محمد بن يزيد على تصفية نفوذ آل موسى واستولى على أموالهم، وأودع عبدالله السجن وفرض عليه من المغارم ما هو فوق طاقته، وعذبه حتى مات[2].

ويقول صابر دياب[3]: أن هذا الخبر يتناقض مع ما أورده ابن عذارى من أن موسى بن نصير افتدى نفسه من سليمان بن عبدالملك بألف دينار. ولذا يستبعد تعذيب آل موسى زمن سليمان، والراجح أن التعرض لعبدالله كان زمن الخليفة يزيد لما اتهم به من قتل يزيد بن أبي مسلم.

هذا ويذكر البعض أن سياسة بشر بن صفوان تجاه آل موسى اعتبرت حائلاً دون تغيير الوضعية العامة في بلاد المغرب، لما كان يكنه البربر من ود واحترام لآل موسى[4]. ولاشك أن في هذا القول شيء من المبالغة فلو سلمنا بمكانة آل موسى في نفوس مواليهم، فإن هؤلاء الموالي كانوا قلة قليلة في أهل افريقية الذين كان ولاؤهم

---

(1) السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، ٢/٢٨٩ – صابر دياب: انتشار الإسلام (بحث)، ص٢٨٨ (نقلاً عن: ابن عذارى: البيان المغرب، ١/٤٢ – ٤٤).

(2) محمود عبدالرزاق: الخوارج في بلاد المغرب، ص٣١ – ٣٢ (نقلاً عن: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣/٢٥٥ – ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/٤٧ – النويري: نهاية الأرب، ١٣/٢٢ مخطوط) – محمد أمين صالح: العرب والإسلام، ١٣/٢٢ مخطوط) – محمد أمين صالح: العرب والإسلام، ص٣٠٠ (نقلاً عن: ابن الأثير: الكامل، ٤/١٤٤).

(3) نفس المرجع، ص٢٨٨.

(4) فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص١١٥ (نقلاً عن: ابن عبدالحكم: فتوح مصر ص٢٩٠).

الأول للإسلام ودولته، وما كانوا ينشدون إلا تطبيق نهجه، وكان بشر قد أحسن السيرة ونشر العدل، ودعا إلى الإسلام وعلم الناس أموره، فكان عهده بلاشك فترة استقرار حسن فيها حال المغرب وزاد انصهار أهله في بوتقة الدين الجديد.

إلا أن مجيء عبيدة السلمي وعبيد الله بن الحبحاب بعد هذا الوالي، وما انتهجوه من سياسات تعسفية، وعدم استماع الخليفة هشام لشكاية البربر عندما جاءوه متذمرين في دمشق أقفل باب الإصلاح، وأجج نار الثورة، فكان قيام البربر بها في أواخر عهده.

أما بشر بن صفوان، فإنه بعد أن مهد المغرب وسكن أرجاءه، واستصفى أموال آل موسى. خرج في (أوائل سنة ١٠٥هـ) من افريقية وافدًا إلى الخليفة يزيد في الشام، حاملاً تلك الأموال وهدايا كان قد أعدها له، فوجده قد مات فقدم ما معه إلى الخليفة الجديد هشام بن عبدالملك، فأقره على ولاية افريقية، فعاد إليها[١]. وكان قد استخلف على افريقية عند خروجه للخليفة يحيى بن ماعصه الكلبي[٢].

إلا أن من المصادر[٣] ما يقول: بأن بشرا لما وصل مصر في طريقه إلى الشام بلغه خبر وفاة الخليفة يزيد، فرجع إلى افريقية.

والراجح ما قدمناه، فإن إقرار هشام لبشر دليل كما نرى على قدومه بتلك الأموال والهدايا والتحف، وأنها حازت على رضى الخليفة الجديد، فكان ثوابه أن أعاده على ولاية افريقية. وما أظن بشراً قد نسي موقف موسى بن نصير من سليمان عندما رفض أن يؤخر تقديم ما يحمله من أموال إلى الخليفة الوليد، فكان ذلك سبب غضبه عليه وعزله.

---

(١) عن خروج بشر إلى الخليفة يزيد، (انظر: ابن عبدالحكم: فتوح مصر، طبعة ليدن، ١٩٢٠م، ص٢١٥ - ابن عذارى: البيان المغرب، ١/٤٩ - الناصري: الاستقصا، ١/١٠٤ - فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦٩ - السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، ٢/٢٩٦).

(٢) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٣٤. وقد أخطأ حسين عطوان عندما أورد أن الخليفة يزيد بن عبدالملك، بعث على افريقية يحي بن ناعصة الكلبي (انظر قوله في كتابه: سيرة الوليد بن يزيد، ص١٩) والصحيح أنه استخلف عليها عند خروج بشر إلى الخليفة يزيد.

(٣) الكندي: الولاة، ص٧٢ - ابن عبدالحكم: نفس المصدر، ص١٤٤.

ومع ذلك فإننا نجد خبرًا عند بن عبدالحكم[1] مفاده أن بشرا نزع عن افريقية (سنة ١٠٥هـ)، ورد إليها في (سنة ١٠٦هـ). يسند ذلك ما أورده شكيب أرسلان[2]، من أن بشرا تولى افريقية مرتين وفي الثانية منها ولى على الأندلس عنبسة بن سحيم[3]. وأراهما قد ظنا أو اعتبرا خروجه من افريقية في أواخر خلافة يزيد عزلا، وإن إقراره وإعادته من قبل الخليفة هشام ولاية ثانية.

أما أن صحت روايتيهما يكون بشر قد عاد من مصر وهو في طريقه إلى الخليفة يزيد، فلما تولى هشام وعلم بذلك عزله ويبدو أنه غادر إلى دمشق فأحسن العذر والحجة، وقدم ما لديه، فأرضى الخليفة فأعادة إلى أفريقية، والأولى ما قدمناه.

وقد ظل بشر بن صفوان أميرًا على افريقية حتى وفاته في القيروان في شهر شوال (سنة ١٠٩هـ)، من خلافة هشام بن عبدالملك[4].

عماله على الأندلس:

كان السمح بن مالك الخولاني عاملاً على الأندلس من قبل الخليفة عمر بن عبدالعزيز[5]، عندما تولى الخلافة يزيد بن عبدالملك، فأقره عليها[6].

وقد أشرنا إلى أن السمح قد قضى صدر ولايته الكائنة في خلافة عمر في الاهتمام بأمر الأندلس وتنظيم شئونها الإدارية والمالية[7]، وصرف الجزء الثاني من ولايته الذي

---

(١) فتوح مصر، ص١٤٤.

(٢) غزوات العرب، ص٨٤.

(٣) هنا لبس فالثابت أن عنبسة قد ولى الأندلس من قبل بشر (سنة ١٠٣هـ) في خلافة يزيد بن عبدالملك، وأن مقتله كان في خلافة هشام، وولاية بشر غلى افريقية من قبله. (انظر ذلك في عمال يزيد على الأندلس، بعد).

(٤) فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦٩.

(٥) عن ولاية السمح من قبل الخليفة عمر وما قام به من ا عمال أبان خلافته، (انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس ص١٣٥ - ١٤٠ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، ص٧٤ وما بعدها - وكذلك ما أشرنا إليه قبل: الفصل الرابع، المبحث الرابع، ص ٢٩١ وما بعدها).

(٦) ليس هناك نص بإقرار الخليفة يزيد للسمح، ولكن بقاءه في ولايته زمن الخليفة يزيد قرابة سنة وخمسة أشهر دليل كاف على غقراره.

(٧) انظر قبل: الفصل الرابع، المبحث الرابع، ص ٢٩٢.

جاء في خلافة يزيد في الفتوح في بلاد الغال[١]، إلا ما كان منه من تنظيمات إدارية ومالية أشرف عليها إبان حملته تلك بعد فتوح أربونة حيث أشرف هناك على قيام حكومة إسلامية ونظم أحوالها متخذًا من مدينة أربونة عاصمة لها[٢].

فيذكر عبدالله عنان[٣]، أنه وزع الأراضي بين المسلمين والسكان، وفرض الجزية على النصارى، وترك لهم حرية الاحتكام إلى شرائعهم. ونحن لا نعلم على أي أساس وزع هذه الأراضي، والراجح أنه قد وزع على المسلمين ما عرف بأرض الصوافي، أما الأرض الخراجية فالمعروف أن المسلمين كانوا يدعونها بأيدي أصحابها، ويأخذون منهم الخراج عنها.

ومن صور الحكم الإسلامي في بلاد الغال، ما أورده شكيب أرسلان[٤]: من أن المسلمين تركوا للقوط في ولاية اللانغدوق أمراءهم وقوامسهم[٥] يلون أمورهم المدنية، وسلطات عسكرية محدودة، ليحفظوا لأنفسهم حق السيطرة على الحكومات المسيحية المحلية. وقد ترك المسلمون للنصارى حريتهم الدينية في بلاد الغال - كديدنهم في كل البلدان تنفيذًا لتشريعات دينهم السمح - فتركوا لهم كنائسهم وبيعهم. لذلك نجد أن السواد الأعظم من أهل أربونة بقوا على ديانتهم المسيحية، وكان عددهم كبيرًا. وكان المسلمون يتركون لهم كنائسهم القديمة على ألا يؤسسوا أخرى جديدة، وأن بنوا جديدًا فيكون في مكان القديم، وذهب بعض فقهاء المسلمين إلى أنه لا يجوز تجديد الكنيسة إلا بأحجار الكنيسة القديمة، ولم يكن للمسيحيين حق في الطواف في الأسواق بالصلبان والأعلام المسيحية، ولم يكن أيضًا للمسيحيين أن يعارضوا نصرانيًا يريد

---

(١) انظر ما كتبناه عن فتوحه في بلاد الغال قبل: الفصل الرابع، المبحث الرابع، ص٢٩١ وما بعدها.

(٢) عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص١٨٧، وانظر قبل: ص ٢٩٦.

(٣) نفس المرجع، ص٨١.

(٤) غزوات العرب، ص٢٨٨ - ٢٩٠.

(٥) قومس: لقب أو رتبة عسكرية، يطلق على قائد الفرقة المكونة من خمس فرق خماسية، تضم كل واحدة منها (٢٠٠) جندي، في قوة الثغر البيزنطي. (انظر: هاشم إسماعيل الجاسم: دراسة تاريخية عسكرية ص٢٤).
فلعل المقصود بالقوامس في المتن هم القادة أو الأمراء العسكريين، في بلاد الغال.

الدخول في الإسلام[١].

لقد استطاع السمح بن مالك أن يعمل بحرية تامة إداريًا وعسكريًا، فنظم الإدارة والملكية في الأندلس، ساعده على ذلك استقلاله بولايته عن افريقية، حيث جعله الخليفة عمر بن عبدالعزيز مرتبطًا به مباشرة، فكان أول وال يستقل بالأندلس عن افريقية رسميًا، وهذا من العوامل التي زادت من شهرته[٢].

وقد ظل السمح بن مالك واليًا على الأندلس حتى استشهاده إبان جهاد الفرنج في بلاد الغال، بالقرب من مدينة طولوشة في (٩ ذي الحجة سنة ١٠٢هـ / ١٠ يونية سنة ٧٢١م)[٣] بعد ولاية دامت نحو سنتين وثلاثة أشهر، إذ كانت ولايته في رمضان (سنة ١٠٠هـ)، ونهايتها (٩ ذي الحجة سنة ١٠٢هـ). وقد ذكر في ذلك أقوال اخرى[٤]. أدى إليها الاختلاف في تاريخ استشهاده[٥]، والأرجح ما قدمناه.

ولاية عبدالرحمن الغافقي الأولى على الأندلس:

كان الجند الإسلامي المشاركين في معركة طولوشة، قد ولوا على أنفسهم عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي، وذلك في أعقاب مقتل قائدهم وأمير الأندلس، السمح بن مالك الخولاني أثناء المعركة[٦]. فانصرف بهم عبدالرحمن إلى الأندلس، فدخلها في شهر ذي الحجة (سنة ١٠٢هـ)، فقدمه أهل الأندلس أميرًا عليهم، فبقي واليًا على الأندلس

---

(١) الواضح أن المسلمين قد طبقوا هناك تعاليم الدين الإسلامي في معاملة أهل الذمة. والسمح بن مالك من التابعين أهل الدين و التقوى، لا نشك في معاملته لهم بالحسنى وفق تعاليم الدين الحنيف. وما اتخذه السمح هناك من إجراءات، كان متبعا فيما فتح من البلاد على يد المسلمين، على أساس ما تبيحه الشريعة الإسلامية لرعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين، مع وجود بعض الاختلاف اليسير في شروط الصلح بين بلد وآخر، تبعًا لطبيعة الفتح، وموقف أهل البلد من الإسلام وأهله.

(٢) خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس، ص٢١١.

(٣) انظر ما كتبناه عن تاريخ استشهاده قبل: الفصل الرابع المبحث الرابع، ص ٣٠٢.

(٤) انظرها عند/ ابن عذارى: البيان المغرب، ٢٦/٢ - المقري: نفح، ١٤/٤.

(٥) أوردناه ذلك الاختلاف قبل، فيما أحلنا عليه في هامش (٢) أعلاه.

(٦) عن تقديم الجند لعبدالرحمن الغافقي، بعد هزيمة المسلمين في طولوشة، ومقتل السمح، وانسحابه إلى الأندلس، (انظر قبل: الفصل الرابع، المبحث الرابع ص ٣٠٢ - ٣٠٣).

ما يقارب الشهرين، حتى قدوم الوالي الجديد حينما عزله أمير افريقية بشر بن صفوان، وولى على الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي. وهذه هي الولاية الأولى لعبدالرحمن الغافقي على الأندلس، إذ وليها مرتين[1]، كانت الثانية ما بين (سنة ١١٢ - ١١٤هـ)، في خلافة هشام بن عبدالملك، وهي الأشهر والأهم[2].

وينقل ابن القوطية[3]، عن عبدالرحمن بن عبدالله حفيد الأمير عبدالرحمن الغافقي، أن ولاية جده عبدالرحمن الأولى على الأندلس كان من قبل الخليفة يزيد بن عبدالملك، وأن بأيديهم على ذلك ما يثبته. لكن قصر ولايته، وعزله من قبل أمير افريقية، الذي كانت الأندلس تابعة له، بعنبسة الكلبي، ما يرجح أن ولايته وتقديمه كان من أهل الأندلس، لا من الخليفة يزيد.

ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي على الأندلس:

كانت الأندلس تابعة لإمارة افريقية بادئ الأمر، إلا أنها لم تسر على قاعدة ثابتة،

---

(1) عن عبدالرحمن الغافقي وولايته على الأندلس، (انظر/ الضبي: بغية الملتمس، ص٣٥٢ - ٣٥٣ - حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٢٤٧ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، ص٨٢ - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٣٨ - شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص١٢٤ - ١٢٦ - خليل السامرائي: الثغر الأعلى، ص١٢٧ - ١٢٨). وقد خالف هؤلاء ابن عبدالحكم الذي جعل على الأندلس بعد السمح الحر بن عبدالرحمن، وأنه عزل من قبل بشر وولى عنبسة الكلبي مكانه (فتوح مصر، ص١٤٤) ووافقه على ذلك، عبدالواحد المراكشي: المعجب، ص٢٤. لكنه حرف الحرف فأورده الغمر)، وكذلك الحميدي في كتابه: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ص٢٠٣ - ٢٠٤)، كما قال بذلك حسين مؤنس: نفس المرجع، ص١٦٠ (نقلاً عن / ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/٢٦) ويبدو أن هؤلاء المؤرخين قد وقعوا في لبس، فقد كان الحر بن عبدالرحمن واليًا على الأندلس (٩٧ - ١٠٠هـ)، أتى قبل السمح لا بعده، حيث عزله عمر بالسمح بن مالك الخولاني. (عن ولاية الحر بن عبدالرحمن، انظر/ حسين مؤنس: نفس المرجع،، ص١٣٥ - السيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع،، ص١٣٤ - ١٣٥).

(2) عن ولاية عبدالرحمن الغافقي الثانية، (انظر: أحمد السيد دراج: عبدالرحمن الغافقي، بحث، رسالة المسجد، العدد الرابع، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص٨٠ - ٨٥ - حسين مؤنس: نفس المرجع، ص٢٦١ - ٢٧٦).

(3) تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٨ - ٣٩.

فنجدها بيد الخلافة المركزية حينًا. وبيد عمال افريقية حينًا آخر، وبيد مسلمي الأندلس أنفسهم في معظم الأحيان، وكان سلطان الوالي كبيرًا فيها، فهو الذي يولي القضاة، ومن يلي الخراج غالبًا. إلا أن سلطانه لم يمتد على مسلمي الأندلس أجمعين إلا نادرًا، فقد كان هناك جماعات خارج سلطانه، وقد انحصر سلطان الوالي في بعض الفترات على إقليم قرطبة فحسب كما حدث أيام يوسف الفهري[١].

وكما كانت الأندلس تابعة لافريقية بادئ الأمر، كانت افريقية تابعة لولاية مصر[٢]، وإن كان هذا قد اقتصر على الفترة الأولى، وقبيل خلافة يزيد بن عبدالملك، كان الخليفة عمر بن عبدالعزيز قد عزل ولاية الأندلس عن افريقية وجعل عليها السمح بن مالك، مستقلاً بها وتابعًا للخلافة في الشام مباشرة، اعتناء بأهلها واهتمامًا بشأنها[٣].

إلا أن ولاية الأندلس عادت تابعة لإفريقية في عهد خلفه يزيد بن عبدالملك، عندما قدم عنبسة بن سحيم الكلبي، أميرًا عليها من قبل عامل افريقية بشر بن صفوان[٤]، الذي أضحى يولي أمراء الأندلس دون أمر الخليفة إذ كره أهل الأندلس واليًا كتبوا إليه فعزله عنهم وولى من يرضون، وكذلك إذا مات[٥]. واستمر الأندلس تابعًا لافريقية بعد ذلك، إلا ما كان من استعمال الخليفة هشام ليحيى بن سلمة من قبله على الأندلس (آخر سنة ١٠٩هـ)[٦].

وقد جاءت ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي على الأندلس من قبل بشر بن صفوان عامل افريقية، (سنة ١٠٣هـ)[٧]، فدخلها في شهر صفر من تلك السنة[١]. وقد أورث

---

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٦١٠.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٤٧/١.

(٣) ابن عذارى: نفس المصدر، ص/٢٦.

(٤) محمد عنان: دولة الإسلام، ص٨٢ – محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٩٩.

(٥) مجهول: أخبار مجموعة، ص٣١ – ٣١.

(٦) محمد زيتون: نفس المرجع، ص١٩٥.

(٧) هناك من المؤرخين من جعل ولايته من قبل بشر بن صفوان في عهد الخليفة هشام (سنة ١٠٦هـ)، (انظر ذلك عند/ الحميدي: جذوة المقتبس، ص٣١٩ – الضبي: بغية الملتمس، ص٣٢٠) والأولى ما قدمناه.

الاضطراب في الروايات التاريخية حول من كان على الأندلس قبل عنبسة، ومن قبل من كانت ولايته، وتاريخها إلى وقوع بعض المؤرخين في الخطأ، فيذكر ابن عذارى[٢] أن ولاية عنبسة جاءت من قبل يزيد بن أبي مسلم، فأقره بشر بن صفوان. وهذا خطأ واضح، فولاية عنبسة بعد السمح بن مالك الذي استشهد في ذي الحجة (سنة ١٠٢هـ) فكيف يأتي استعماله من قبل بن أبي مسلم الذي قتل في رمضان (سنة ١٠٢هـ)، أي قبل استشهاد السمح بن مالك، كما قيل أن ولايته في قول من ذكر أن استعمال عنبسة جاء بعد عزل السمح بن مالك الخولاني[٣]. والصحيح أن السمح أمير الأندلس قد استشهد خلال عمليات الفتح التي قام بها في بلاد الغال[٤]، ولم يعزل.

وقد استقامت الأندلس لعنبسة وضبط أمرها[٥]. إذ قضى سنتين في مطلع ولايته – وهي الفترة التي كان فيها واليًا على الأندلس في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك قبل وفاته – في الإصلاح الداخلي، عنى فيها بتنظيم الخراج، وتقسيم الأراضي بين المسلمين[٦]، والنظر في المظالم، ونشر العدل بين الناس، ومن أجل ذلك طاف عنبسة

---

(١) عن ولاية عنبسة على الأندلس، (انظر/ ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٤٤ – ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٨ – ابن عذارى: البيان المغرب، ٧٢/٢ – المقري: نفح، ١٥/٤ – الناصري: الاستقصا، ١٠٣/١ – الحميدي: جذوة المقتبس، ص٣١٩ – الضبي: بغية الملتمس، ص٣٢٠.

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) ابن عبدالحكم: نفس المصدر، ص١٤٤ – عبدالواحد المراكشي: المعجب، ص٢٤ – حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٦٠ (نقلاً عن/ ابن عذارى: البيان المغرب، ٢٦/٢) وقد جاء هذا القول على أساس الرواية التي أشارت أن الحر بن عبدالرحمن تولى الأندلس بعد السمح بن مالك الخولاني، وهاذ ما بيناه قبل ورجحنا القول بولاية عبدالرحمن الغافقي بعد السمح بن مالك وأن ذكر هذه الرواية من باب اللبس لأن الحر كان واليًا على الأندلس قبل السمح لا بعده. (انظر: هامش (١)، ص٤٠٩).

(٤) مجهول: أخبار مجموعة، ص٣١.

(٥) انظر خبر استشهاده في بلاد الغال فاتحًا إبان ولايته سنة ١٠٢هـ قبل: الفصل الرابع، المبحث الرابع، ص٣٠٢.

(٦) سنفصل القول الذي ورد في ذلك إبان حديثنا عن سياسة يزيد المالية في المبحث الثاني من هذا الفصل.

مختلف المقاطعات في ولايته، عاملاً على استتاب الأمن واستقرار البلاد، والعدل بين رعاياه من مختلف الديانات بدون تمييز[1]. كما عمل على تنظيم ولايته إداريًا، وضبط نواحيها، وإصلاح الجيش وإعداده لغزوات جديدة[2].

وقد تمكن إبان ولايته من التصدي وإخماد بعض الحركات النصرانية في الأندلس ضد المسلمين، منها حركة بلاي التي تعد بداية المقاومة الأسبانية النصرانية ضد المسلمين وحكومتهم في الأندلس، وحركة أخيلا في طركونة[3].

ويشير حسين مؤنس[4] إلى إفراط عنبسة بن سحيم الكلبي لعصبيته اليمنية، فيذكر أنه أوغر ومن تلاه من عمال الأندلس اليمنية الذين تولوها إبان إمارة بشر بن صفوان على افريقية وهم عذره بن عبدالله الفهري (شعبان ١٠٧هـ - شوال ١٠٧هـ)، ويحيى بن سلامة العاملي (١٠٧هـ - ١١٠هـ)، صدور القيسية، وجيشوهم للثورة، وانتظار الفرصة المواتية للوثوب.

لكن هذا القول بعيد عن الصحة لعدم دقته، فعذرة فهري وبنو فهر من قبيلة قيس مضريون لا يمانيون، ومن مشاهيرهم الضحاك بن قيس الفهري، زعيم القيسسية في مرج راهط[5]. كما ذكر: أن تولي هؤلاء الولاة اليمنيين على الأندلس وظهور أصداء العصبية فيه، جاء كصدى لوجود يزيد بن أبي مسلم وبشر بن صفوان الكلبيان اليمنيان على إمارة افريقية فاستعملوا على الأندلس عمالاً كلبيين يمنيين[6]، وهذا قول غير صحيح، فإن كان بشر يمنيًا، فإن ابن أبي مسلم ثقفي قيسي بالولاء[7].

ويبدو أن الكثير من المؤرخين حملوا العصبية أكبر مما تحتمل، وبدأوا يفسرون الأحداث على أسماء الولاة والقادة، بعيدًا عن التمحيص والدقة وهذا ما نلمسه في كثير

---

(١) محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) محمد عنان: دولة الإسلام، ص٨٢.

(٣) عن جهوده في التصدي لهذه الحركات، (انظر الفصل الثاني، المبحث الرابع والخامس).

(٤) فجر الأندلس، ص١٥١.

(٥) المصعب الزبيري: كتاب نسب قريش، ص٤٤٣ - ٤٤٨.

(٦) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٥١.

(٧) انظر ترجمة يزيد بن أبي مسلم الثقفي بالولاء قبل: ص٢٨٦ - ٢٨٧.

من المراجع الحديثة.

كما ذكر أن عنبسة اشتد في جمع الأموال وعسف الناس على ذلك، فألزم النصارى في الأندلس بدفع جزية مضاعفة، وأن ذلك أدى إلى تغير نفوس أهل البلاد، وبدأ القلق يسودها من كل وجه[1]، لكن الصحيح أن مضاعفة الضريبة لم يكن على كل النصارى، وإنما ضاعفها عنبسة على أهالي طركونة بعد حركتهم ضد سلطان المسلمين إبان ولايته[2].

وقد ظل عنبسة واليًا على الأندلس بعد وفاة الخليفة يزيد بن عبدالملك، حتى استشهد وهو غازيًا الفرنجة في بلاد الغال في (شعبان سنة ١٠٧هـ) من خلافة هشام بن عبدالملك[3]. وقيل (سنة ١٠٩هـ)[4]، وما قدمناه أولى، بعد ولاية دامت ما يقارب أربع سنوات ونصف، حيث كانت ولايته في صفر سنة ١٠٢هـ واستشهاده في شعبان سنة ١٠٧هـ. وقيل أربع سنين وأربعة أشهر[5]. كما قيل: أربع سنين وثمانية أشهر، وقيل غير ذلك[6].

ويشير القيرواني والقلقشندي[7] إلى ولاية عقبة بن الحجاج الكلبي على الأندلس من قبل الخليفة يزيد بن عبدالملك، وهذا قول لا أصل له يدحضه إجماع المصادر على مخالفته وعدم ذكره. والصحيح أن ولايته على الأندلس (١١٦ - ١٢١هـ) جاءت من قبل عبيد الله بن الحبحاب زمن هشام بن عبدالملك[8].

---

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ١٥١.

(٢) انظر قبل: الفصل الثاني، المبحث الخامس، ص ١٩١.
وكذلك: شكيب أرسلان: غزوات العرب، ص١١٢.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٣١٩ - الضبي: بغية الملتمس، ص٣٢٠ - ابن عذارى: البيان المغرب، ٢٧/٢ - ابن الأثير: الكامل، ١٩٧/٤.

(٤) الحميدي: نفس المصدر والصفحة - الضبي: نفس المصدر والصفحة (في قول آخر).

(٥) ابن الأثير: الكامل، ١٩٧/٤.

(٦) ابن عذارى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٧) المؤنس، ص٣٩.

(٨) مآثر الأناقة ١٤٩/١.

أما قضاء الأندلس إبان خلافة يزيد بن عبدالملك فقد كان ليحيى بن يزيد التجيبي. وكان قد استقضاه الخليفة عمر بن عبدالعزيز على الأندلس، فظل على قضائها حتى دخول عبدالرحمن بن معاوية (الداخل)، فأثبته على القضاء ولم يعزله حتى مات، وكان يقال له وللقضاة قبله بقرطبة، قاضي الجند[1]، وفي بقاء التجيبي هذه الفترة الطويلة على القضاء دليل على أنه كان مرضيًا عنه، فأقر من أمراء المؤمنين الذين تولوا الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز، وأولهم خلفه الخليفة يزيد بن عبدالملك، وليس لدينا دليل على أن بقاءه وإقراره على القضاء جاء من قبل خلفاء عمر، فقد يكون استمراره جاء عن طريق ولاة الأندلس أنفسهم. كما أن هذا التعيين من قبل عمر خص به قاضي قرطبة مركز الولاية الأندلسية آنذاك، بيد أنه من المؤكد أن هناك رجالاً قاموا بأمر القضاء في غيرها من المدن والثغور، والغالب أن أمر تعيينهم كان لوالي الأندلس.

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة، ص٣٣ - حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١٦٢.

المبحث الثاني

سياسة يزيد بن عبدالملك المالية

حقيقة سياسته المالية في ضوءها قيل عنها:

الكتابة في النواحي المالية خلال العصر الأموي أمر بالغ الصعوبة، فليس من الممكن تقديم صورة واضحة لذلك الجانب المالي، أو إعطاء أحكام قطعية عنه، وذلك لتعذر الحصول على المعلومات الدقيقة من المصادر الإسلامية القديمة عن السياسة المالية في ذلك العصر. فكل ما نحصل عليه في هذا الصدد ليست إلا مجرد أخبار متفرقة تفتقر إلى الشمول والتكامل، مما يفقدنا القدرة على التصور الواضح وتبين الحقائق كما ينبغي بل أن الأمر يزداد غموضًا لعدم الدقة في إيراد تلك الأخبار، واضطرابها وتناقضها أحيانًا.

صحيح أن الأحكام الشرعية الإسلامية واضحة بينة، إلا أن المصادر الإسلامية تنقل لنا ما يشير إلى خروج بعض حكام بني أمية في شيء من سياساتهم المالية عن النهج الإسلامي، واتخاذ إجراءات قد يكون الدافع وراءها الرغبة في إغناء خزائن الدولة بالأموال الكفيلة بتحقيق أهداف الدولة المالية ودفع عجلة الفتوح، وتثبيت سلطان الدولة وهيمنتها.

وهذا ما سيدفعني في البحث إلى ابتغاء الحذر في شيء من الواقعية والدقة، متجنبًا التبعية والقول بالأحكام القطعية.

فسياسة الخليفة يزيد بن عبدالملك المالية بالذات جاءت بعد إصلاحات الخليفة عمر بن عبدالعزيز المالية، التي سعى من ورائها العودة إلى النهج الإسلامي وتطبيق أحكامه على المال والأعمال، وصحح بعض الإجراءات التي اتخذها بعض أسلافه. فما مدى خروج الخليفة يزيد عن نهج عمر، وما الذي صنعه؟

مما لا شك فيه أن الخليفة يزيد لم يتبع نهج الخليفة عمر في بعض سياسته المالية، فأحيا السياسات المالية لأسلافه من بني أمية قبل عمر، وأعاد تطبيقها، بينما

اتخذ سياسات أخرى، وتابع عمر في بعض ما اتخذه من سياسات في هذا المجال، وبالأخص ما كان ذا عائد على خزانة الدولة، وطبق إجراءاته تلك، في شيء في الدقة والضبط والتشدد.

قدمنا بهذا القول، لأننا سنجد كثيرًا من المؤرخين كما قال حسين عطوان[1]، وهم ابن عساكر، وابن كثير، واليافعي، والسيوطي، وابن العماد الحنبلي، ينقلون أن يزيد ألغى إصلاحات عمر بن عبدالعزيز، ويصفون سياسته المالية بالفساد والاضطراب، ويتهمونه بإرهاق أهل الأمصار بالضرائب، ولا شاهد لهم على ما وصفوا به سياسته المالية إلا خبر واحد رواه المدائني وهو قوله: «عمد يزيد بن عبدالملك إلى كل ما صنعه عمر بن عبدالعزيز مما لا يوافق هواه فرده، ولم يرهب فيه شفاعة عاجلة ولا إثمًا عاجلا. وخلف محمد بن يوسف أخو الحجاج على أهل اليمن وظيفة جعلها خراجًا عليهم، فكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عامله يأمره بإلغاء تلك الوظيفة، والاقتصار على العشر ونصف العشر، وقال: لأن يأتيني من اليمن حفنة كتم[2] أحب إلى من أن يقر هذه الوظيفة. فلما مات، وولى يزيد بن عبدالملك بعد عمر، أمر بردها، وكتب إلى عروة بن محمد عامله: أن عمر بن عبدالعزيز كان مغرورًا منك ومن أشباهك، فأعد على أهل اليمن الضريبة التي كان عمر أسقطها، ولو صاروا حرضا»[3].

وليس من الصحة قول حسن عطوان أن ليس من شاهد لهؤلاء المؤرخين في قولهم بإلغاء يزيد لإصلاحات عمر سوى هذا النص. فإن هناك نصوص أخرى تفيد بعض إجراءاته المالية، وفرضه بعض الضرائب غير الشرعية والتشدد فيها[4].

ويذكر حسين عطوان[5]. أن ابن عبد ربه قد أورد الخبر السابق دون إسناد،

---

(١) سيرة الوليد بن يزيد، ص٢٠ – ٢١.

(٢) كتم: نبات فيه حمرة، يخلط مع الوسمة للخضاب.
اللسان (كتم).

(٣) حسين عطوان: نفس المرجع، ص٢٠ – ٢١ (نقلاً عن: انساب الأشراف، مصورة الجامعة الأردنية، المجلد الثاني، ص١٨٠).

(٤) انظر بعض هذه النصوص بعد: ص٤١٧، ٤٢٩، ٤٣٨، ٤٤٣، ٤٥٠، ٤٥٣، ٤٥٨ وما بعدها.

(٥) نفس المرجع، ص٢١.

ومحرفًا تحريفًا ظاهرًا، إذ تحول عنده من رسالة وجهها الخليفة إلى عامله على اليمن. إلى رسالة بعث بها إلى عماله في كافة الأمصار، فجاء نصه عند ابن عبد ربه[1]: «أما بعد، فإن عمر كان مغرور، غررتموه انتم وأصحابكم وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا، والسلام»

ونحن لا نؤكد قول حسين عطوان أن نص ابن عبد ربه، تحريفًا للخبر الذي أورده ابن عساكر عن المدائني، فليس لدينا على ذلك دليل، وليس من المستبعد أن الخليفة الذي أمر بإعادة فرض الضريبة التي سنها مشابهة، والعدوة إلى ما كان الناس عليه قبل عمر، في بقية الأمصار.

المهم في الأمر أن كثيرًا من المؤرخين تلمس موقف يزيد من إصلاحات عمر المالية على أساس النصين السابقين.

ويتضح من النص الأول، أمر يزيد بإعادة الضريبة التي فرضها محمد بن يوسف على أهل اليمن دون غيرهم.

أما النص الذي أورده ابن عبد ربه، فيبين أن يزيد نكس عن نهج عمر المالي، وأعاد السياسات المالية لبني أمية قبل عمر، بدون النظر إلى حال الرعية، ومراعاة ظروفها. معللاً ذلك القرار بانكسار الخراج والضريبة[2]، حيث أتضح له ذلك من خلال إطلاعه على كتب كان ولاة عمر قد بعثوا بها إليه يشكون انكسار الخراج و الضريبة[3].

ومن خلال هذا الأمر، يبدو أن الخليفة يزيد كان يرى أن السياسة القديمة أصلح للدولة، وإن إصلاحات عمر المالية قد تسببت في تدهور الأوضاع المالية.

ونص ابن عبدربه السابق لم ينص صراحة على أي السياسات القديمة أعيد

---

(1) العقد، ١٨٨/٥.

(2) يبدو أن المقصود هنا بالضريبة: «الجزية».

(3) من تلك الكتب كتاب عامل عمر على مصر حيان بن شريح، الذي قال فيه: «أما بعد: فإن الإسلام قد أضر بالجزية، حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل». (أنظره وما دار بينه وبين عمر حول ذلك عند/ المقريزي: خطط، ٧٨/١).

تطبيقها على الناس، وإن كان ظاهره يدل على ترك كل سياسات الخليفة عمر المالية والعودة إلى السياسات السابقة له، كما أن خبر المدائني لم يبين ما تركه يزيد من سياسات عمر، وما أبطله من إصلاحاته، سوى حالة وهي إعادة الضريبة على أهل اليمن، كما لم يحدد السياسات التي أمر يزيد عماله بالتزامها في الأمصار الأخرى[1].

ومن خلال دراستنا الشاملة لعهد الخليفة يزيد واستقصاء إجرءاته المالية، وجدناه لم يطبق هذا الأمر بعموميته وما نص عليه كتابة إلى العمال، فقد ساير نهج عمر في بعض الإجراءات المالية وخاصة ما كان منها ذا عائد مالي على بيت المال كمنع بيع الأراضي الخراجية، كما أبقى على بعض الإصلاحات المالية الأخرى. بينما أمر صراحة بإلغاء بعض إجراءات عمر وإعادة بعث سياسات من كان قبله.

وليس هذا مكان للمقارنة بين سياسات الخليفة يزيد وسلفه عمر، ولا مكان لجمع مواضع الاتفاق والاختلاف، ولكننا أحببنا الإشارة إلى الخط العام لسياسته. ولن نرى بأسًا من ذكر بعض أوجه الاختلاف والاتفاق إذا كان في ذلك فائدة للبحث وإيضاحًا للصورة الحقيقية لسياسة الخليفة يزيد، وسيأتي ذكر ذلك في مكانه إبان عرضنا لتفاصيل سياسته المالية.

ويبدو أن عمومية أمر الخليفة الذي أورده ابن عبد ربه هو الذي حدا بمؤرخنا الكبير ابن الأثير[2]، أن يقول: أن يزيد بن عبدالملك قد عمد إلى كل ما صنعه عمر بن عبدالعزيز مما لم يوافق هواه فرده، ولم يخف شفاعة عاجلة ولا إثمًا عاجلاً[3].

وقد سبق أن تحفظنا على قول ابن الأثير وإطلاق حكمه بأن يزيد رد كل ما صنعه عمر مما لا يوافق هواه. ولكننا أحببنا إيراد هذا النص ونحن بصدد مناقشة سياسة يزيد المالية لمعرفة أهمية المقارنة بين سياسة يزيد وسلفه عمر في بعض النقاط، أو دراسة نهج يزيد في ضوء سياسة من كان قد سبقه.

---

(1) حسين عطوان: سيرة الوليد بن يزيد، ص٢١.

(2) الكامل، ٤/١٦٦ – وقال بذلك مع اختلاف يسير في اللفظ ابن خلدون: العبر، ٣/٧٦.

(3) كنا قد ناقشنا قول ابن الأثير هذا ورددنا على إطلاق حكمه. (انظر قبل: المبحث الأول، ص٣١٩ وما بعدها).

لقد عمل الخليفة يزيد بن عبدالملك على ضبط الأمور المالية، بما يكفل زيادة الواردات، ونقص المصروفات في شيء من الدقة والضبط، والتشدد والجور أحياناً.

والحق أنه لم ينقض إصلاحات عمر المالية، بل ظل يسترشد بها في بعض الجوانب، وإن خرج عنها في جوانب أخرى.

ولعل ظروف الدولة في زمنه، المتمثلة في خوض حروب خارجية في كل الجبهات، في الشرق مع الصغد والترك، وفي الشمال مع الأرمن والخزر والروم، وفي الغرب مع الفرنجة[١]، إلى جانب الحركات الداخلية كثورة ابن المهلب وغيرها[٢]، وما يستدعيه ذلك من مصروفات كبيرة، قد دفعه إلى تجاوز الحدود في جلب الأموال أحياناً.

كما أن يزيد لم يساير نهج عمر في التقشف على نفسه ورجاله، والعمل على ترشيد المصروفات، فنجده على سبيل المثال يأمر عامله على مكة أن يحمل أحد المغنين على البريد ويقدم له ألف دينار نفقة الطريق ليستمع منه أبياتاً من الشعر، بينما نرى عمر بن عبدالعزيز يؤنب ابن حزم عامله على المدينة على إسرافه في الورق والشمع ويؤنب عامله على اليمن على تضييعه دنانير من بيت المال[٣].

ولعل هذا إلى جانب إدراك الخليفة يزيد بأن إصلاحات عمر المالية، قد أضرت ببيت المال، وأدت إلى نقص الخراج والضريبة[٤]، جعلت الخليفة يزيد يتخذ إجراءات مالية متشددة كان هدفها سد هذا النقص الذي أحدثته سياسة عمر، وتوفير قدر كبير من الأموال في بيت المال يمكن الدولة من الإنفاق على جيوشها المحاربة في الداخل وعلى الحدود. وهذا ما يفسر إبقاء يزيد على بعض إجراءات عمر المالية التي تتمشى مع جوهر سياسته أي التي لها مردود مالي على بيت المال، وإلغاءه الكثير من إجراءات عمر التي تؤدي إلى نفس موارد بيت المال.

---

(١) انظر أعماله الحربية في الفصل الرابع.

(٢) انظر الحركات الداخلية في عهده قبل: الفصل الثاني.

(٣) عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠٨.

(٤) انظر كتابه إلى عمال عمر، القاضي بترك سياسة عمر بعد أن أطلع على كتبهم الدالة على نقص الخراج والضريبة، قبل: ص٤١٧.

ومما يذكر هنا من باب حرصه على الأموال ما رواه ابن كثير[1]، من أن عمر بن الوليد بن عبدالملك بن مروان قد اتهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز بأنه اختان من أموال المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس ودر ثمين، وأنه خبأها في بيتين في داره مملوئين، فبعث يزيد إلى أخته فاطمة زوجة عمر يسألها عن ذلك، فقالت: ما ترك سبد ولا لبد[2]. فسار بنفسه إلى دار عمر ودخل البيتين اللذين أشار إليهما عمر بن الوليد ليفتشهما، وفي صحبته عمر بن الوليد، فلما دخلهما وجدهما خاليين من الأموال، وقد هُيئتا للعبادة، حيث اتخذ عمر من أحداهما خلوة يخلو فيها بنفسه ويتدبر أمر دينه ودنياه، والأخرى مسجدًا يعبد الله فيه ليلاً، فبكى يزيد، وخرج عمر بن الوليد[3] مخذولاً.

الجزية:

وفي سبيل تحقيق السياسة المالية التي رسمها الخليفة يزيد بن عبدالملك، أشارت مجموعة من المراجع الحديثة إلى أنه كان يرى أن دخول الموالي في الإسلام قد أضر بدخل بيت المال فأعاد فرض الجزية[4] على من أسلم من أهل الذمة، وبخاصة على

---

(1) البداية، ط١، ٩/٢٤٠.

(2) أي ما ترك قليل ولا كثير. اللسان (لبد).

(3) لعل اتهام عمر بن الوليد بن عبدالملك لعمر بن عمر بن عبدالعزيز، لخلاف حدث بينهما في خلافة عمر، إذ يروي ابن الجوزي: أن عمر بن الوليد كتب إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز يلومه وينتقد ما أقدم عليه من رد المظالم من أهل بيته، فرد عليه عمر بكتاب أغلظ له فيه، انظر ما كتب به كل منهما للآخر في كتابه (سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز، ص١٣٣ – ١٣٦)، فيبدو أن عمر بن الوليد حمل ذلك على الخليفة عمر، فاتهمه عند يزيد.

(4) الجزية: هي الأموال المفروضة على رؤوس أهل الذمة، وتؤخذ ممن دخل الذمة من أهل الكتاب والمجوس لقاء الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين، وبالحماية محروسين، كما في قول النبي ﷺ: «احفظوني في ذمتي». (توفيق اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق، ص٧٥) ويضيف: أن من الحنفية من يقول: أن الجزية تؤخذ من كل كافر (انظر: نفس المرجع، ص٧٥ – ٧٦).
ويذكر الماوردي: أنها تؤخذ من آخرين غير من ذكروا أولاً هم: عبدة الأوثان من العجم، والصابئين، والسامرة إذا وافقوا اليهود والنصارى في أصل معتقدهم (انظر: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الفكر، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، ص١٢٥).

الصغد أهالي منطقة ما وراء النهر، اللذين كان عمر بن عبدالعزيز قد أسقطها عنهم بعد أن أعلنوا إسلامهم، واعتمد عماله هناك على العنف و الشدة إزاءهم، مما أدى إلى نقضهم العهد مع المسلمين والردة عن الإسلام. كما أتضح ذلك في افريقية عندما عزل عنها عامل عمر بن عبدالعزيز إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، وعين بدله عنه يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج، الذي سار في البربر سيرة الحجاج، واستبد بهم، وفرض عليهم الجزية، واشتد في جمع أموالهم، وكان ذلك لزيادة إيراد بيت المال، والتنصل من دفع مزيد من الأعطيات للجند المسلمين من الموالي[١].

والحق أن قول هؤلاء المؤرخين وغيرهم ممن حذا حذوهم بعيد عن الدقة مجانب للحقيقة، وهو كما يظهر قول اعتمد على الفرضية، والأخذ بظاهر بعض النصوص وعموم لفظها، دون النظر إلى النصوص الأخرى واستقصائها، وواقع الحال وما نفذ فيه من تلك السياسات التي أشارت إليها النصوص التاريخية.

فكما يبدو أن كثيرًا من هؤلاء المؤرخين اعتمدوا في قولهم هذا على ظاهر نص كتاب يزيد بن عبدالملك إلى عماله[٢] بترك ما كانوا عليه من سياسة الخليفة عمر، وإعادة تطبيق سياسات وإجراءات أسلافه من بني أمية. وسنجد من خلال دراستنا الممحصة لسياسته المالية في الصفحات التالية، خطأ من اعتمد على ظاهر نص هذا الكتاب، وافترض أن يزيد قد أعاد على أساسه كل السياسات السابقة ومنها إعادة فرض

---

(١) انظر ذلك عند: محمد النجار: الموالي، ص٥٧ - فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص١٩٥، ٢٥٨ - السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، ٢/٢٩٣ - ٢٩٤ - فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٥٧ - عماد الدين خليل: دراسة مقارنة (بحث)، ص٣٠٠ - نظير حسان سعداوي: الدولة العربية الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٩٣ - محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول ولاثاني بعد الهجرة، دار الفكر العربي، الطبعة الخامسة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص١٥٩ - ثابت الراوي: العراق، ص١٨٠ حورية عبده سلام: علاقات مصر ببلاد المغرب، ص١٨ - محمود إسماعيل عبدالرزاق: الخوارج في بلاد المغرب، ص٣٤ - فيليب حتي: تاريخ العرب، ١/٢٨٥.

(٢) انظر نص كتابه قبل: ص ٤١٧.

الجزية على من أسلم، التي كان عمر قد أمر برفعها عمن أسلم[1]، وقد كان بعض الحكام الأمويين وعمالهم قد أبقوا الجزية على من أسلم من أهل الذمة أو من في حكمهم منذ أن أعاد فرضها الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان[2].

وكذلك نتيجة للفهم الخاطئ لبعض النصوص، وإصدار أحكام واستنتاجات خاطئة، بناء على ذلك. وقد تجلى هذا فيما ذكره بعضهم، من أن يزيد بن أبي مسلم عامل الخليفة يزيد بن عبدالملك على افريقية قد فرض الجزية على من أسلم هناك اقتداء بالحجاج بن يوسف، معتمدين في ذلك القول على الخبر الذي نقله الطبري وغيره من المؤرخين[3]، إذن يزيد ابن أبي مسلم اعتزم أن يسير في البربر بسيرة الحجاج في أهل السواد، وهذا الخبر لا ينص على فرض ابن أبي مسلم الجزية وإنما اعتزامه ذلك، ولكنهم قالوا بفرضها من قبله على البربر، افتراضًا، على اعتبار أنه اعتزم محاكاة الحجاج الذي فعل ذلك، فقالوا: أنه فرضها.

والحقيقة التي يجب الإشارة إليها، أن المصادر الإسلامية القديمة التي تيسر لنا الإطلاع عليها في بحثنا هذا، لم تنص صراحة على فرض الخليفة يزيد بن عبدالملك أو أحد عماله الجزية على من أسلم، كما أننا لم نعثر على أية إشارة تدل على ذلك أثناء دراستنا لأحداث عصره.

بينما قدمت لنا هذه المصادر روايات صريحة عن سياسات يزيد المالية المستجدة، وما أعاده من سياسات أسلافه[4]، وهذا ما يدفعنا إلى الشك فيما نسب إلى الخليفة يزيد من أنه أعاد فرض الجزية على من أسلم.

ونحن في حقيقة الأمر لا ننفي أن الجزية كانت تؤخذ من بعض من أسلم من أهل

---

(1) عن أمر عمر بن عبدالعزيز برفع الجزية عمن أسلم، (انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ص٤١٥ – ابن قدامة: الخراج وصناعة الكتابة، ص٤٠٩ – ٤١٠ – أبو يوسف: الخراج، ص٢٦٩ – الطبري: تاريخ الأمم، ٥٥٩/٦ – المقريزي: خطط، ٧٧/١ – ٧٨ وغيرها).

(2) سنعرض لقيام الحجاج فرض الجزية على من أسلم في الصفحات التالية، ومدى صحة هذا القول، وحقيقته.

(3) انظر نص الخبر الذي أورده الطبري وغيره من المؤرخين عن سياسة يزيد بن أبي مسلم بعد: ص٥٥٩.

(4) ستجد هذه النصوص في ثنايا حديثنا عن سياسته المالية في الصفحات التالية.

الذمة أو من على حكمهم، في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، مع التأكيد على أننا لم نعثر على ما يدل صراحة أنه أمر بذلك، بينما أمر بالعودة إلى ما كان عليه أسلافه قبل عمر بن عبدالعزيز، ومما كان عليه بعض أسلافه قبل عمر، أخذ الجزية من بعض من أسلم.

فهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الجزية كانت تؤخذ من بعض من أسلم قبل عهد سلفه عمر الذي أمر برفعها عنهم[1]. من تلك الدلائل الخبر الذي أورده الطبري[2] من شكاية أحد موالي خراسان إلى عمر بن عبدالعزيز أن عشرين ألف مسلم من الموالي هناك يدفعون الجزية. ومثلهم يقاتلون مع المسلمين ولا يأخذون العطاء. وهذا ما حدا بعمر إلى توجيه أوامره إلى عماله برفع الجزية عمن أسلم[3]. بل أن أوامره الصريحة في هذا الشأن تبين وجود من كان يدفع الجزية بعد إسلامه.

وقد ذكر أن أول من اخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج ابن يوسف الثقفي. يقول ابن عبدالحكم[4]: «وكانت تؤخذ قبل ذلك – أي قبل أن يرفعها عمر بن عبدالعزيز – ممن أسلم. وأول من أخذ الجزية من أهل الذمة كما حدثنا عبدالملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن رزيق بن عبدالله المرادي الحجاج ابن يوسف».

ويقول المقريزي[5]: «وأول من اخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج بن

---

(١) هنا كتب وأوامر صريحة وجهها الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى عماله في الأقاليم الإسلامية برفع الجزية عمن أسلم ومنع من أراد من عماله أخذها من الموالي، من ذلك رفعها عمن أسلم في خراسان والكتابة إلى الجراح الحكمي عامله عليها بذلك. (انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ص٤١٥ – ابن قدامة: الخراج وصناعة الكتابة، ص٤٠٩ – ٤١٠ – الطبري: تاريخ الأمم، ٥٥٩/٦) وكذلك كتابه إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن عامله على الكوفة برفض استئذانه في أخذها ممن أسلم (انظر: أبو يوسف: الخراج، ص٢٦٩)، والأمر برفعها عمن أسلم في مصر وكتابه إلى حيان بن شريح عامله عليها في هذا الشأن (انظر/ ابن عبدالحكم: فتوح مصر، طبعة ليدن ١٩٢٠م ص١٥٥ – المقريزي: خطط، ٧٧/١ ٧٨).

(٢) نفس المصدر و الجزء والصفحة.

(٣) انظر هامش (١) أعلاه.

(٤) نفس المصدر والطبعة، ص١٥٦.

(٥) نفس المصدر، ٧٨/١ – وأنظر أيضًا: حسين محمد سليمان: رجال الإدارة في الدولة العربية الإسلامية، ١-١٣٢هـ، رسالة ماجستير، مطبوعة، دار الإصلاح، المملكة العربية السعودية، =

يوسف». الذي كان عاملاً لعبدالملك بن مروان على العراق.

ويبدو أن القول بذلك، جاء صدى لموقف الحجاج بن يوسف من الموالي الذين لحقوا بالأمصار وتركوا أرضهم، مما أدى إلى انكسار الخراج، فأمر بإخراجهم من الأمصار، وإعادتهم إلى قراهم.

وقد أورد الطبري خبر ذلك الموقف ونصه: «ذكر ضمرة بن ربيعة عن أبي شوذب: أن عمال الحجاج كتبوا إليه: أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية فليخرج إليها، فخرج الناس فعسكروا، فجعلوا يبكون وينادون: يا محمداه يا محمداه. وجعلوا لا يدرون أين يذهبون، فجعل قراء البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيبكون لما يسمعون منهم ويرون. قال: فقدم ابن الأشعث على تفيئة ذلك، واستبصر قراء البصرة في قتال الحجاج مع عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث»[1].

ونص هذا الخبر لا يشير إلى فرض الجزية على من أسلم ولكنه ألزمهم العودة إلى قراهم ورساتيقهم[2]، للعمل في الأرض وهذا يعني أنهم سيقومون بزراعة أراضيهم التي تركوها وبالتالي دفع الخراج عنها، لأن أراضي خراج الأجرة، لا يسقط الخراج عنها بإسلام صاحبها، وإنما تسقط عنه الجزية، أما الأرض التي أسلم صاحبها فإما أن تعود إلى الدولة إذا تركها فتدفعها لمن يقوم بزراعتها، أو أن يبقى فيها ويؤدى عنها الخراج،

= الدمام، ١٤٠٤هـ، ص١٢١ - محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية، عصر الولاة، الناشر مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م، ص٢٠.

(١) تاريخ الأمم، ٣٨١/٦ - ابن عبد ربه: العقد، ٣٦٤/٣ (مع تصرف قليل في اللفظ والمعنى).

(٢) يشير ابن عبد ربه: أن ذلك الموقف من الحجاج تجاه الموالي جاء بعد مشاركتهم في حركة ابن الأشعث وابن الجارود، فأراد أن يزيل ذلك الخطر، المتمثل في تجمع أعداد كبيرة من الموالي في الأمصار أصبحت تهدد الأمن ووحدة الدولة بمشاركتها في الحركات الخارجة على الأمن ووحدة الدولة بمشاركتها في الحركات الخارجة على الدولة. كما أن من خبره ما يفيد أنه رأي أن هؤلاء الموالي زراع أرض، وأن وجودهم في المدن سيؤدي إلى نوع من البطالة، لعدم إتقانهم الحرف الأخرى، إلى جانب ما أدى إليه تركهم أراضيهم من انكسار الخراج، فأمر بإعادتهم إلى قراهم للعمل في مهنتهم الرئيسية باسم المصلحة العامة لذلك جاء قوله: «أنتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم». (انظر: نفس المصدر والجزء والصفحة).

كما كان يفعل قبل إسلامه[1].

وحيث أن الخبر الذي أورده الطبري، ووافقه فيه ابن عبد ربه، لم ينص صراحة بإلزام الموالي بعد إعادتهم إلى قراهم، بدفع الجزية، فقد شككنا في صحة هذا الخبر، وإن كان روح النص تدل على ذلك. مع أن ابن الأثير[2] الذي أورد خبر الطبري، قد صرح بذلك بقوله: «وأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية». وقوله هذا زيادة على ما ورد عند الطبري، لعله استقاها من مصدر آخر.

غير أن تصريح الطبري نفسه أثناء حديثه عن اعتزام يزيد بن أبي مسلم عامل يزيد بن عبدالملك على افريقية السير على نهج الحجاج، بأن الحجاج فرض الجزية على من أسلم حيث قال: «وكان سبب ذلك - يعني مقتل ابن أبي مسلم - أنه كان عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار، ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة، فأسلم بالعراق ممن ردهم إلى قراهم ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم، فلما عزم على ذلك تآمروا في أمره، فأجمع رأيهم على قتله فقتلوه»[3].

وما ورد من نصوص أخرى تدل على أخذ الجزية من بعض من أسلم من أهل الذمة، بعد عهد الحجاج، وأوامر عمر بن عبدالعزيز الصريحة برفع الجزية عمن أسلم، في أقطار الدولة الإسلامية، وما ذكر من أن أشرس بن عبدالله السلمي عامل هشام بن عبدالملك على خراسان (١٠٩ - ١١١هـ)، فرض الجزية على من أسلم في ما وراء النهر بعد أن رفعها عنهم، عندما رأي إقبال الناس على الإسلام وكثر الداخلين فيه، وما

---

(١) محمد نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي، ص١٩٠ - نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٢٨٧.

(٢) الكامل، ٤/٧٩.

(٣) تاريخ الأمم، ٦/٦١٧ - كما ورد هذا الخبر عند: ابن الأثير: الكامل، ٤/١٨٢ - ابن أبي دينار: المؤنس، ص٣٩ - ابن خلكان: وفيات، ٦/٣١١ - الناصري: الاستقصاء، ١/١٠٣.

أدى إليه من انكسار الخراج[1]. وكذلك رفع نصر بن سيار عامل الخليفة هشام على خراسان (١٢٠ – ١٣١هـ) الجزية عمن أسلم في خراسان وما وراء النهر وقد وجدها تؤخذ من ثلاثين ألف مسلم[2].

كل ذلك جعلنا نتأكد من أن الجزية قد فرضت على بعض من أسلم من أهل الذمة، وأصبح الموالي يؤدونها بعد إسلامهم كما كانوا يؤدونها وهم على كفرهم.

وقد علل تجاوز بعض حكام بني أمية حكم الشرع في ذلك بمبررات متعددة، أهمها تأثر موارد الدولة بإسلام أهل الذمة من خلال سقوط الجزية عمن أسلم وانكسار الخراج، وظروف الدولة العسكرية ومستجداتها، كما ذكر أن بني أمية يعتبرون الجزية بمنزلة الضرائب على العبيد، فلا يسقط اسلام العبد عند ضريبته، وقد يكون لظنهم إنما إسلامهم فرار من الجزية، فأبقوها عليهم غيرة على الإسلام[3]. على أنه ينبغي الأخذ بالظاهر، ولو على اعتبار أنهم من المؤلفة قلوبهم. كما أن أخذها من الموالي مخالف لحكم الشريعة الذي يعفي من أسلم من أداء الجزية[4].

وللحقيقة، فإن من الواضح أن أخذ الجزية ممن أسلم، لم يكن أمرًا عامًا شمل كل من أسلم من أهل الذمة، أو عمم على أقطار الدولة الإسلامية وأقاليمها، فابن عبدالحكم[5] يذكر أن عبدالملك بن مروان كتب إلى أخيه عبدالعزيز عامله على مصر،

---

(١) يذكر الطبري أن أشرس أمر بدعوة أهل ما وراء النهر إلى الإسلام على أن ترفع عنهم الجزية، فأقبلوا على الإسلام فكتب إليه الدهاقين بانكسار الخراج، فأمر بإعادتها على من أسلم، مما أدى إلى ردة أهل الصغد وحربهم المسلمين. (انظر: تاريخ الأمم، ٧/٥٤ وما بعدها).

(٢) عن إصلاح نصر بن سيار المالي في خراسان، والحد من سلطان الدهاقين، ووضع كل شيء في موضعه، (انظر: الطبري: نفس المصدر والجزء، ص١٧٣ – ١٧٤).

(٣) انظر هذه الأسباب والمبررات عند: توفيق اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق، ص١٣٨ – ١٣٩ – ثابت الراوي العراق في العصر الأموي، ص٦٦ – فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٤١، ٥٩ – فالح حسين: الحياة الزراعية، ص١٢٥ – فيليب حتى: تاريخ العرب، ١/٢٨٤ – حسن أحمد محمود: الإسلام في آسيا الوسطى، ص٦١).

(٤) أبو يوسف: الخراج، ص٢٥٤ – نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٢٧١ – فالح حسين: نفس المرجع والصفحة.

(٥) فتوح مصر، طبعة ليدن، ١٩٢٠م، ص١٥٦ – وكذلك المقريزي: خطط، ١/٧٨.

بأخذ الجزية ممن أسلم من أهل مصر اقتداء بالحجاج، فهم بذلك، لكنه توقف عنه.

ومما يدل على عدم أخذها من البربر في افريقية حتى أواخر عهد هشام، أن الشكوى التي تقدم بها زعماء البربر إلى الخليفة هشام قبيل قيامهم بالثورة على عامله عليهم عبيد الله بن الحبحاب سنة ١٢٢هـ، والتي ذكروا فيها مظالمهم وما يجدونه من عسف وجور العمال، لم تتضمن أخذ الجزية ممن أسلم، مما يدل على عدم أخذها منهم، وإلا لكانت على رأس ما نقموا منه لأهميتها، فقد ذكروا ما هو أيسر من تلك(١).

ومما يدل على أنها لم تفرض عليهم قبل ذلك، قيام البربر سنة ١٠٢هـ بقتل يزيد بن أبي مسلم عامل الخليفة يزيد بن عبدالملك على افريقية، عندما أراد أن يسير فيهم بسيرة الحجاج، ومن ذلك أخذ الجزية ممن أسلم منهم(٢).

ويتضح جليًا أن اخذ الجزية ممن أسلم قد برز بشكل واضح في المشرق الإسلامي وخصوصًا في بلاد ما وراء النهر وخراسان والسواد. بل أن ذلك فيما يبدو قد اقتصر على أهل القرى والرساتيق، أما من أسلم والتحق بالمدن الكبرى، فإنه فيما يبدو لم يكن يؤدي الجزية بعد إسلامه، إلا أنه كان يشكو من عدم مساواته بالعرب، وخصوصًا حرمان بعضهم من العطاء(٣).

ويبدو أن وراء اخذ الجزية من بعض من أسلم سببًا آخر غير سياسة الحجاج، إلا وهي استغلال الدهاقين في هذه الأقاليم لسلطتهم في وضع الضرائب وجمعها، لصالح من بقي على دينه من جماعاتهم، على حساب الذين اسلموا، فيرفعون ويخففون عن

---

(١) انظر نص شكوى البربر التي رفوعها إلى الخليفة هشام وما تضمنته من مظالم في: الطبري: تاريخ الأمم، ٢٥٤/٤ – ٢٥٥.

(٢) عن أسباب قتل يزيد بن أبي مسلم، واعتزامه السير في البربر بسيرة الحجاج مما كان سببًا في قتله، (انظر قبل: المبحث الأول، ص ٣٨٥ وما بعدها).

(٣) تدل شكوى صالح بن طريف الملقب أبا الصيدا وهو أحد موالي خراسان، لعمر بن عبدالعزيز، على أن من أسلم من أهل خراسان والتحق بالجيش لم يكن يأخذ العطاء، وأن من أسلم وبقي على أرضه أخذت منه الجزية مع إسلامه (انظر ذلك عند: الطبري: نفس المصدر، ٥٥٩/٦)، بينما دلت شكاية بربر افريقية زمن هشام على حرماتهم من العطاء ولم تشر إلى فرض الجزية عليهم (انظر هامش (٢) الصفحة السابقة).

الكافرين، ويضعون ويثقلون على المسلمين[1].

إذ أن المسلمين قد تركوا أمر جباية الضرائب للرؤساء المحليين والدهاقنة[2]، بل أن صلح أهل مرو بالذات نص على أن مهمة الدهاقين قسمة المال وليس على المسلمين إلا قبض ذلك[3].

يدل على صحة هذا القول ما ذكر عن نصر بن سيار، أنه أراد إصلاح الأمور المالية في ولايته على خراسان إبان عهد الخليفة هشام بن عبدالملك، فولى ذلك رجلاً يدعى منصور بن عمر بن أبى الخرقاء، وخطب في الناس فأخبرهم بذلك ودعاهم إن من كان يؤخذ منه جزية رأس وهو مسلم، أو ثقل عليه في خراجه، فليرفع ذلك إلى منصور ليحوله عن المسلم إلى المشرك، فما كانت الجمعة الثانية حتى أتاه ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم وثمانون ألفا من المشركين قد ألقيت عنهم جزيتهم، فحول ذلك عليهم وألقاه عن المسلمين، ثم صنف الخراج حتى وضعه مواضعه[4].

ونخلص من هذا أن الخليفة يزيد بن عبدالملك لم يأمر صراحة بأخذ الجزية ممن أسلم، كما أن ليس لدينا أي قرينة أو دليل بأخذها ممن أسلم في عهده، لكننا لا نستطيع أن نجزم بعدم أخذها ممن أسلم في أيامه، خصوصًا بعد أمره العام بترك سياسة عمر والعودة إلى السياسات القديمة لأسلافه من بني أمية مما يدفعنا إلى ترجيح العودة إلى أخذها من بعض من أسلم، خاصة في مناطق المشرق الإسلامي، التي خضعت لذلك منذ عهد الحجاج، وخاصة في منطقة السواد وما وراء النهر. من أهل القرى والرساتيق الذي يعيشون خارج نطاق الأمصار، ولعل ذلك كان يحدث دون علم العمال المسلمين،

---

(1) محمد شعبان: الثورة، ص٢١٣.

(2) محمد شعبان: نفس المرجع، ص٨٠.

(3) كان في صلح أهل مرو: «أن يوسعوا للمسلمين في منازلهم وإن عليهم قسمة المال وليس على المسلمين إلا قبض ذلك». (انظر/ البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٩٦) بل أن أمر ترك جباية الأموال من أهل البلاد المفتوحة لأهلها، نهج اتبع منذ بداية الفتوح. فقد تضمن صلح خالد بن الويد – رضي الله عنه – لأهل الحيرة، الاشتراط عليهم جباية ما صولحوا عليه حتى يؤدوه إلى بيت مال المسلمين، إلا أن يطلبوا أعوانًا، فيعاونوا. (انظر: أبويوسف: الخراج، ص٢٩٠).

(4) محمد شعبان: نفس المرجع، ص١٥٧.

لترك أمر الجباية لزعماء أهالي تلك البلاد المشار إليها، وبعدها عن نظر الولاة، أو لاختلاط الأمر عليهم، لذوبان القلة من أهل تلك الأصقاع، في السواد الأعظم من أهلها الذين بقوا على دينهم بادئ الأمر.

وفي سبيل زيادة الموارد المالية، أعاد الخليفة يزيد بن عبدالملك فرض الجزية على الأساقفة والرهبان في مصر واشتد عليهم في ذلك وأثقل[1]، حتى قال عن سياسته المؤرخ القبطي ساويرس بن المقفع[2]: «ثم تولى بعده – أي بعد عمر بن عبدالعزيز – يزيد وما نحسن بشرح ما جرى في أيامه ولا نذكره من السوء والبلاء لأنه سلك في طريق الشيطان وحاد عن طريق الله وأول ما أخذ المملكة أعاد الخراج الذي كان عمر قد رفعه عن البيع و الأساقفة سنة واحدة وحمل على الناس ثقلاً عظيمًا حتى ضاق كل من في بلاده».

وقد تولى ذلك أسامة بن زيد التنوخي عامل الخراج بمصر للخليفة يزيد، حيث وسم الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه، وأمر بقطع يد من وجد بغير وسم وتغريم من لم يحمل منشور البراءة بدفع الجزية من النصارى عشرة دنانير، وقام بجولات تفتيشية مفاجئة على الأديرة، قبض فيها على عدد من الرهبان بدون وسم فقتل بعضهم ومات آخرون تحت العذاب[3].

وكان عمر بن عبدالعزيز قد ألغى الجزية عن رجال الكنيسة المصرية[4]، والتي فرضت عليهم لأول مرة من قبل أمير مصر عبدالعزيز بن مروان (٦٥ – ٨٦هـ) في عهد أخيه عبدالملك بن مروان، بل أنه ألزم الأساقفة بضريبة سنوية قدرها ألفي دينار إضافة إلى خراج أملاكهم، كما ألزم خلفه على ولاية مصر عبدالله بن عبدالملك البطاركة

---

(١) محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية، ص١٢٣ – سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٢٠٧ – صالح الحمارنه: المسيحية في أرض الشام (بحث)، ص٥٥٥ – ٥٥٦ – ترتون: أهل الذمة، ص٢٣٠ – ٢٣١.

(٢) سير الآباء البطاركة، ص١٥٣.

(٣) المقريزي: خطط، ٢/٤٩٢ – ٤٩٣ – صالح الحمارنة: نفس المرجع والصفحات.

(٤) نادية حسني صقر: سياسة عمر بن عبدالعزيز تجاه أهل الذمة، ص٥٣ – عماد الدين خليل: ملامح الانقلاب الإسلامي (بحث)، ص١٢٨.

بضريبة قدرها ثلاثة آلاف دينار سنويًا وإضافات أخرى، كما اشتد أسامة بن زيد عامل سليمان وعمل إحصاء ثابتًا للرهبان واستمر الحال حتى عهد الخليفة عمر الذي أمر برفع ذلك عنهم[١].

وبعد تحفظنا على لفظية الخبر[٢] الذي نقله ساويرس بن المقفع عن سياسة الخليفة يزيد المالية تجاه رجال الكنيسة القبطية وما فيه من التحامل الواضح، وإن كان غير مستعجب لوروده على لسان أحد رجال الكنيسة الذين لا تروق لهم مثل هذه الأوامر من الحكام المسلمين[٣].

فإنه يهمنا أن نشير أن هذا الخبر لا ينص صراحة على إعادة يزيد فرض الجزية على رجال الكنيسة، وإنما نص على إعادة الخراج الذي كان رفعه عمر عن البيع والأساقفة، والذي رفعه عمر كما أورده بن المقفع جاء بلفظ الخراج لا الجزية فهو لا ينص صراحة برفع الجزية إذ يقول: «وأمر – يعني عمر – أن لا يكون على أواسي[٤].

---

(١) عن أخذ عبدالعزيز بن مروان الجزية من رجال الكنيسة القبطية كأول جزية تؤخذ من الرهبان في تاريخ مصر الإسلامية، وما استحدث من ضرائب، واتباع هذه السياسة من قبل الولاة الذين جاءوا بعهده، وما اتبعوه من سياسات أخرى، وابتدعوه من ضرائب جديدة، تجاه نصارى مصر ورجال كنيستها، (انظر/ المقريزي: خطط، ٢/٤٩٢ – ٤٩٣ – محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية، ص١٩ – ٢٠، ٢١٣ – سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص١٧٩، ١٩٣، ٢٠٠ – ترتون أهل الذمة، ص٢٣٠ – ٢٣١).

(٢) انظره في الصفحة السابقة.

(٣) لا يستغرب ما نجده من تحامل على رجال الإسلام وقيادات المسلمين على لسان أعدائهم، فإن ساويرس بن المقفع لم يتورع عن النيل من الخليفة عمر بن عبدالعزيز، مع ما عرف عنه من عدالة وتسامح تجاه رعاياه وخاصة أهل الذمة الذين أوصى بالرفق بهم والعدل فيهم بما يمليه الشرع الحنيف، فيقول: «فكان هذا عمر بن عبدالعزيز يصنع خيرًا عظيمًا أمام الناس ويفعل السوء أمام الله» (انظر كتابة: سير الآباء البطاركة، ص١٥٢). وقد أوردنا قوله في عمر حتى لا يغر القارئ بقوله في يزيد.

(٤) أواسي: جميع أوسية وهي عند المصريين تعني الضيعة، فأواسي البيعة: تعني أملاك الكنيسة أو أراضي الكنيسة (عن أستاذي: أ. د. أحمد السيد دراج).

البيعة والأساقفة خراج وبدى أن جعل البيع بغير خراج والأساقفة وبطل الجبايات»[١].

ويبدو أن ذلك جاء من عدم التمييز في استعمال كلمة خراج وجزية، وإطلاق كلمة خراج على جزية الرؤوس، وهذا يعني أنه رفع خراج الرؤوس عن الأساقفة كما رفع الخراج عن أملاك الكنيسة. خصوصًا أن بعض المراجع الحديثة قالت بأنه رفع الجزية اعتمادًا على هذا النص مفسرين النص كما يبدو على ما ذهبنا إليه، إلى جانب صراحة اللفظ بوضع الجزية على الرهبان في الكنيسة المصرية قبل عمر منذ ولاية أبيه عبدالعزيز، فقد أورد المقريزي[٢] أن عبدالعزيز بن مروان أحصى الرهبان ووضع عليهم الجزية فقال: «وفي أيامه أمر عبدالعزيز بن مروان فأمر بإحصاء الرهبان فأحصوا وأخذت منهم الجزية عن كل راهب دينار، وهي أول جزية أخذت من الرهبان».

وحيث أن الأصل في حكم الجزية إعفاء الرهبان منها لفقرهم الناتج عن إنصرافهم عن الدنيا[٣]، بل أن الذميين كانوا يتحملون ضرائب من انخرط في سلك الرهبنة، فلا يدفع الرهبان شيئًا[٤].

لذلك فإن من المرجح أن يكون عمر قد رفع عنهم الجزية مع رفض ما فرض عليهم من ضرائب إضافية وخراج على أملاك الكنائس، وإن كان النص الذي أورده ساويرس ابن المقفع في هذا الشأن لا ينص على ذلك بالتحديد لا من قبل عمر ولا من قبل يزيد فلم ينص الخبر على رفع عمر الجزية وإنما قال «الخراج» ولم ينص الخبر الآخر بإعادة يزيد الجزية، وإنما الخراج الذي رفعه عمر.

---

(١) سير الآباء البطاركة، ١/١٥٢.

(٢) خطط، ٢/٤٩٢.

(٣) يقول أبويوسف في هذا الشأن: «وكذلك المترهبون الذين في الديارات إذ كان لهم يسار أخذ منهم، وإن كانوا إنما هم مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار لم يؤخذ منهم، وكذلك أصحاب الصوامع أن ذكر أن لهم غنى ويسار، وإن كانوا قد صيروا ما كان لهم لمن ينفقه على الديارات ومن فيها من المترهبين والقوام، أخذت الجزية منهم، ويؤخذ بها صاحب الدير، فإن أنكر صاحب الدير الذي ذلك الشيء في يده، وحلف على ذلك بالله وبما يحلف به مثله من أهل دينه ما في يده شيء من ذلك ترك ولم يؤخذ منه شيء». (انظر: الخراج، ص٢٥٣ - ٢٥٤) وكذلك ترتون: أهل الذمة، (ص٢٣٩ (عن: الصولي: ادب الكاتب، ص٢١٦ – الشافعي: الأم، ٤/٩٨).

(٤) ترتون: نفس المرجع والصفحة (عن ابن عبدالحكم: فتوح، ص١٥٦).

شأننا في هذا القول شأن ترتون[١] الذي شكك في دقة ما يعنيه نص الخبر القائل بفرض الجزية على الرهبان من قبل عبدالعزيز بن مروان، إذ قال: ولسنا نعرف على وجه التحقيق عما إذا كان ساويرس يقصد بذلك أنها أول جزية أو خراج يدفعه الرهبان.

إلا أن الخبر الذي يشير إلى وسم الرهبان على يد أسامة بن زيد عامل خراج مصر ليزيد وإعطاء كل فرد منهم منشور براءة[٢]، فيه دلالة واضحة على أن ذلك التنظيم المعني بالأفراد كان يخص الجزية ويعني بضبطها. إذ أن الضرائب التي فرضت على البطاركة والأساقفة وأملاك الكنائس، كان المسئول عن أدائها كبار رجال الكنيسة من بطارقة وأساقفة[٣]. كما أن عدم التمييز في إطلاق كلمة خراج وجزية، وإطلاق كلمة الخراج على جزية الرؤوس تجاوزًا، قرينة أخرى على ترجيح إعادة يزيد فرض الجزية على الرهبان بعد أن رفعه عنهم عمر.

لكن الملفت للنظر أن إعادة فرض الجزية والخراج والضرائب على رجال الكنيسة وأملاكها في مصر في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك اقتصر على مسيحي مصر[٤] عما

---

(١) أهل الذمة، ص٢٢٩ – ٢٣٠.

(٢) انظر الخبر المتضمن سياسة أسامة بن زيد هذه قبل: ص ٤٢٩.

(٣) انظر: محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية، ص١٩ – ٢٠.

(٤) يقول محمد أمين صالح: رغبة في تعويض النقص في الإيرادات الناتج عن نقص مورد الجزية بدخول الناس في الإسلام، وتحول كثير من الأراضي الخراجية إلى عشرية، فرضت الدولة الأموية منذ ولاية عبدالعزيز بن مروان سلسلة من المغارم والجبايات على مسيحي مصر، فأخذت الجزية من الرهبان، وفرضت ضرائب على الأساقفة والبطاركة إلى جانب خراج الكنائس وأملاكهم، كما ألزموا بأرزاق الوالي وعماله وحاشيته، واشتد عليهم في ذلك زمن عبدالله بن عبدالملك (٨٦ – ٩٠)، وقرة ابن شريك (٩٠ – ٩٦)، وأسامة بن زيد (٩٦ – ٩٩)، يضاف إلى ذلك أمر عمر بن عبدالعزيز بعدم استعمالهم في الإدارة وعدم تحول الأرض الخراجية إلى عشرية خصوصًا أنه يعتبر أرض مصر فتحت عنوة إلا ثلاثة بلدان منها. كل ذلك هيأ مسيحي مصر للثورة على المسلمين. وقد كانت سياسة عبيدالله بن الحبحاب عامل الخراج لهشام بن عبدالملك على مصر، المتمثلة في زيادة قيراط على كل دينار في خراج مصر، واشتداده في ذلك وظلمه، حيث قاس الأرض وأحصى الناس والبهائم ودونهم، وسخر المصريين في بناء الفسطاط، كل ذلك كا ن سببًا لثورات القبط المصريين التي قامت عليه سنة ١٠٧هـ واستمرت طوال العهد الأموي والعصر العباسي حتى عهد المأمون، مما يدل على أن تلك الثورات لم تكن ضد بني أمية وإنما ضد =

سواهم، فلو أن الأمر كان يخص أهل الذمة في الدولة الإسلامية عامة لأشارت إليه مصادر التاريخ الإسلامي العام ولم تقتصر على إيراده مصادر تاريخ مصر الإسلامية، فقد بأن ذميي مصر كانوا يتحملون ضريبة من ينخرط في سلك الرهبنة[1]. فما العلة وراء ذلك؟ يبدو أن السبب وراء ذلك، ما بلغته الكنيسة القبطية وأهلها من الثراء، فقد أطلع ترتون على أرقام عن البرديات اتضح له من خلالها غنى بعض الأديرة المصرية وما وصلت إليه من الثراء، حتى لقد كان لدير مريم الصحراوي ثمانية إقطاعيات في (سنة ٩٨هـ)، ولدير بربروس عشرة إقطاعيات[2].

وحيث أن الإسلام يجيز أخذ الجزية من المترهبين إذا كانوا أهل غنى ويسار[3]، قام المسلمون بأخذها منهم منذ عهد عبدالعزيز بن مروان، لسقوط علة إعفائهم منها وهي الفقر، ولعل هذا ما يبرر شرعية عمل الخليفة يزيد ومن سبقه من الخلفاء تجاه رجال الكنيسة القبطية، وهذا لا يتعارض مع عمل الخليفة عمر الذي رفعها عنهم، فإنه عاد إلى الأصل، ولعل تصرفه من باب التسامح وتأليف قلوبهم[4] رجاء إسلامهم.

والحق أن غموض بعض النصوص وعدم دقتها وشمولها، جعل القول في هذا الميدان لا يبلغ الحقيقة القطعية، ولعل قادم الأيام يكشف لنا من الوثائق ما يكون أكثر دقة ووضوحًا وشمولاً ليكون الحكم قطعيًا، وتثبت الحقيقة.

= السياسة التي اتخذها المسلمون تجاههم سواء في العهد الأموي أو العباسي. (انظر: دراسات اقتصادية، ص١٩ – ٢٣ – ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطاركة، ص١٥٤).

(١) ترتون: أهل الذمة، ص٢٣٩ (عن/ ابن عبدالحكم: فتوح، ص١٥٦). لكن الراجح أن ذميي مصر كانوا يتحملون ضريبة خراج الأرض عمن انخرط في سلك الرهبنة فقط، أما لكون ضريبة الخراج جماعية على أهل القرية أو لتحول أرضه الخراجية إلى أهل قريته فلزمهم أداء الخراج بدلاً عنه. أما ضريبة الجزية فإنهم لا يؤدونها عنه وإلا لما فرضت على المترهبين.

(٢) نفس المرجع، ص٢١٦.

(٣) انظر ما أوردناه عن ذلك في الصفحة قبل السابقة، وهامش (١) منها.

(٤) المؤلفة قلوبهم قسمان: كافر ومسلم، فالكافر ترجو من وراء حسن معاملته إسلامه، والمسلم ترجو من وراء التعاطف معه والإحسان إليه حسن إسلامه وزيادة إيمانه. (انظر/ ابن تيمية: السياسة الشرعية، ص٥٥).

ولم يكن الخليفة يزيد بن عبدالملك مخالفًا لعمر في كل أمر ولم يرد كل ما صنعه كما قال ابن الأثير[1]، فمن إتباعه فيما صنعه، موافقته وإقراره ما أسقطه عمر من صلح نصارى النجرانية. فقد صالح نصارى نجران رسول الله ﷺ على ألفي حلة سنويًا، فلما كان عهد عمر بن الخطاب أجلاهم، فتفرقوا واستقر بعضهم بالشام ونزل بعضهم «النجرانية» قرب الكوفة بالعراق وقد سميت باسمهم. ولما استخلف عثمان بن عفان رضي الله عنه شكوا إليه أمرهم وكان قد لحقهم بعض الضرر فوضع من جزيتهم مائتي حلة. فلما كان عهد معاوية رضي الله عنه أو ابنه يزيد، شكوا إليه تفرقهم وموت من مات وإسلام من أسلم منهم، وإزديادهم نقصًا وضعفًا، فوضع عنهم مائتي حلة، فلما تولى الحجاج اتهمهم بمناصرة ابن الأشعث فأعاد عليهم ما وضع عنهم في بداية العصر الأموي، ليدفعوا ألف وثمانمائة كما كان يدفعونها أيام عثمان بعدما أسقطه عنهم.

فلما ولي الخليفة عمر بن عبدالعزيز شكوا إليه نقصهم وظلم الحجاج إياهم، فأمر بإحصائهم فوجدهم عشر عدتهم الأولى، فلما رأى ذلك الصلح جزية رؤوس لا خراج أرض، أسقط عنهم جزية من مات أو أسلم، فألزمهم على ذلك مائتي حلة قيمتها ثمانية آلاف درهم، وهي عشر ما كان عليه صلحهم مع رسول الله ﷺ. فظلوا على ذلك حتى ولاية يوسف بن عمر الثقفي عامل الوليد بن يزيد على العراق، فردهم إلى أمرهم الأول عصبية للحجاج[2]. وهذا يعني أن الخليفة يزيد بن عبدالملك ومن بعده هشام قد أقر ما أسقطه عمر من نصارى النجرانية من جزيتهم، ومما اتبع عمر فيه موافقته في إسقاط ما زاده عبدالملك بن مروان في صلح أهل قبرص. فقد فتحت قبرص على يد معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وصالحهم على سبعة آلاف ومائتي دينار، ثم لم يزل المسلمون يغزونهم حتى صالحهم معاوية في أيامه صلحًا دائمًا على سبعة آلاف دينار، فلم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولى عبدالملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار، فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبدالعزيز فحطها عنهم،

---

(١) انظر قوله قبل: ص ٤١٥.

(٢) عن قصة النجرانية وتفاصيل أمرهم منذ عهد الرسول ﷺ والراشدين والأمويين وما آل إليه أمرهم زمن بني العباس، (انظر/ البلاذري: فتوح البلدان، ص٧٥ - ٧٩ - قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٧٢ - ٢٧٥).

ثم لما ولى هشام بن عبدالملك ردها فاستمر ذلك حتى خلافة أبي جعفر المنصور فـردهم إلى صلح معاوية[1]. وهذا يعني أن العمل بما صنعه عمر في هذا الصدد اسـتمر خـلال خلافة يزيد بن عبدالملك.

وشبيه بذلك، إنفاذ الجراح بن عبدالله الحكمي صلح حبيب بن مسـلمة مـع أهـل تفليس[2] وذلك بعد أن أعاد الجراح فتح ذلك الإقليم في أعقاب غـزو الخـزر أرمينيـة وإنضمام بعض أهل أرمينية إليهم ونقضهم العهود زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك[3].

كما سار سعيد الحرشي عامل الخليفة يزيد بن عبدالملك على خراسان في توزيـع الغنائم التي غنمها في حروبه مع الصغد فيما وراء النهر، على المبدأ المعمول به قديماً في خراسان والذي أكده الخليفة عمر بن عبدالعزيز[4]، والذي يقضي بأن تصرف أمـوال خراسان في خراسان، فقد أرسل الحرشي إلى بيت المال في دار الخلافة خمس ما غـنم وأبقى أربعة أخماس لأهل خراسان[5]. ولعل هم الخليفة الأول لم يكن المردود المالي من تلك الجهود العسكرية، بل هيمنة السلطان الأموي في تلك الأصـقاع، بعـد أن تعـرض الوجود الإسلامي فيها للخطر.

ويبدو أن اضطراب الأحوال على حدود الإسلامية في عهد الخليفة يزيد، قد أشـغله

---

(1) عن فتح قبرص والصلح مع أهلها وما كان من أمرها. (انظر: البلاذري، فتوح البلـدان، ص١٥٧ - ١٦٢).

(2) تفليس: بلد بأرمينية الأولى، وقيل: بأران، وهي قصبة ناحية جزران قرب باب الأبـواب، وهـي مدينة قديمة مدينة لا اسلام وراءها، يجري في وسطها نهر الكر، افتتحها المسلمون على يد حبيب بن مسلمة زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، صلحاً. (ياقوت: معجم ٢/٣٥ - ٣٧).

(3) انظر كتاب الجراح بن عبدالله الحكمي لأهل تفليس بإقرار صلح حبيب، عنـد: البلاذري: نفـس المصدر، ص٢٠٥.

(4) ظل أمر توزيع أموال خراسان بين مد وجزر بين مسلمي خراسان والحكومـة المركزيـة، وهـل تصرف أموال خراسان من غنيمة وفيء وضرائب فيه ويبعث لبيت المال المركزي الخمس فقط من ذلك كله أو من بعضه، أم يبعث وارد الإقليم إلى بيت المال وتصرف الحكومـة علـى الإقلـيم، أم تعطى الحكومة أكثر من الخمس. (انظر ما كتبه عن ذلك: محمد شعبان: الثـورة، ص١٤٤ ومـا بعدها).

(5) محمد شعبان: نفس المرجع، ص١٧٤.

عن إخضاع بعض القوى المعاهدة على أداء التزاماتها المالية تجاه الدولة الإسلامية.

فقد امتنع رتبيل ملك سجستان منذ عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز، عن أداء ما صالحه عليه الحجاج بن يوسف بعد ثورة ابن الأشعث، وقدره تسعمائة ألف درهم عروضًا، يؤديه للمسلمين كل عام. فلم يحمل رتبيل إلى عمال عمر شيئًا، ثم لم يعط عمال يزيد بن عبدالملك شيئًا، وسائر عمال بني أمية بعده، حتى قامت خلافة بني العباس فأعادوا إخضاع رتبيل ومازالوا يأخذون الإتاوة منه إلى ما بعد عهد المأمون حينًا من الزمن[1].

ومما تابعه فيه أيضًا، اتباعه في العمل بسنة رسول الله ﷺ في ألا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، وتلك سنة سار عليها الخلفاء الراشدون، فلما ولي معاوية رضي الله عنه الخلافة ورث المسلم من الكافر ولم يورث الكافر من المسلم، وأخذ بذلك الخلفاء من بعده، فلما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة راجع سنة الرسول ﷺ، وتبعه في ذلك يزيد بن عبدالملك، فلما قام هشام اخذ بفعل معاوية وخلفائه من بني أمية[2].

الخراج:

ويمثل الخراج[3] مع الجزية أكبر موردين لبيت مال المسلمين، خصوصًا بعد استقرار الدولة وتوقف حركة الفتوح تقريبًا، والتي كانت تدر على بيت المال في أوجها الكثير من الاموال.

ومن أجل ذلك عنى الخليفة يزيد بن عبدالملك بهذا المورد تنظيمًا وضبطًا، وتشددًا وعسفًا. ولعل ظروف الدولة[4] في أيامه دعته إلى مثل ذلك، كما أن هناك من الأمور ما حدث فيه التجاوز أو طال عهده بالتنظيم والمتابعة، فكان يحتاج إلى الإصلاح وإعادة

---

(1) كان أمر سجستان مضطربًا منذ فتحها في عهد الخليفة عثمان صلحا، فكثيرًا ما نكثوا ما عاهدوا عليه، وأعاد المسلمون إخضاعهم حتى عهد عمر بن عبدالعزيز، فامتنعوا بقية عهد بني أمية عن أمر سجستان فتحًا وصلحًا ونقضًا وإخضاعًا، (انظر/ قدامة بن جعفر،: الخراج وصناعة الكتابة، ص٣٩٢ – ٤٠٠ – البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٨٥ – ٣٩٣).

(2) ابن كثير: البداية، ط١، ٢٥٩/٩.

(3) الخراج: ما وضع على رقاب الارض من حقوق تؤدى عنها. (الماوردي: الأحكام، ص١٢٧).

(4) انظر إشارتنا إلى ظروفها قبل: ص ٤١٥.

التنظيم، وكان الخليفة عمر بن عبدالعزيز قد عمد إلى إصلاح كثير من الأمور وأقر يزيد بعض ما صنعه وأصلحه[1]، لكن العمر لم يطل به حتى يتم ما بدأه، ولعلــه كــان يقــوم ببعض ما فعله يزيد من بعده كمسح السواد[2]، وغير ذلك مما فيه ضبط وتنظيم لمــوارد بيت المال وأموال المسلمين.

إلا أن من الحق الإشارة إلى أن سياسة يزيد في هذا الصدد قــد شــابها الحــرص والرغبة في زيادة الموارد، فاشتد على الناس وأضر بأهل الخراج، ووضع الخراج على من لم يكن يؤديه، وسنرى ذلك في ثنايا سياسته الخراجية في الصفحات التالية.

مسح السواد:

كانت أرض السواد[3] في إقليم العراق موردًا خراجيًا متميــزًا، لخصــوبة أرضــه، وصلاحها للزراعة، وحسن استغلالها. إلى جانب أنه من أراضي خراج الأجرة، لأنه فتح عنوة فكان مما أفاء الله به على المسلمين، إلا الحيرة وعين التمر وأليس وبانقيا فإنهــا فتحت صلحًا[4].

لذا حظى السواد باهتمام الدولة أيام الخليفة يزيد بــن عبــدالملك، فيــذكر عــواد الأعظمي[5] أن مسلمة بن عبدالملك في ولايته للعراق زمن يزيد بــن عبــدالملك حــاول تنظيم الخراج وضبطه.

---

(1) من ذلك في أمر الجزية متابعته في نقصان صلح النجرانية وأهل قبرص وفي أمر الخراج موافقته في منع بيع الأرض الخراجية وغير ذلك، وسنبين ذلك في موضعه.

(2) أورد ياقوت قولاً لعمر بن عبدالعزيز يذكر فيه ما بلغه إيراد السواد في العهود الإسلامية المتقدمة، ونقده لسياسة الحجاج بنقص الإيراد في زمنه مع عسفه وظلمه مبديًا عزمه على زيادة إيــراده، مما يعني أنه نوى إصلاحه وضبطه. (انظر: المعجم، ٣/٢٧٤).

(3) السواد: يراد به هنا: رستاق العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطــاب رضي الله عنه، وسمي بذلك لسواده بالزروع والأشجار، حيث كان العرب إذا خرجوا مــن ارض الجزية، رأوا سواد النبات و الأشجار وهم يسمون الخضرة سوادا، فسموه سوادا لخضرته. وحد السواد من حديثة الموصل طولاً إلى عبادان، ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان عرضًا. (يــاقوت: نفس المصدر، ٣/٢٧٢).

(4) ثابت الراوي: العراق، ص٦٨ – ياقوت: نفس المصدر والجزء، ص٢٧٥.

(5) مسلمة، ص١١٢.

إلا أنه كما كانت الفتن والاضطرابات السياسية في إقليم العراق سببًا في فساد الإدارة المالية في ذلك الإقليم وتجاوز ولاته في أموال المسلمين لتقوية نفوسهم ضد خصومهم أو شراء ود المتنفذين هناك، فإن تولى مسلمة القضاء على حركة بن المهلب في العراق أدت إلى تجاوزه في أموال المسلمين، فاستحوذ على خراج العراق[1]، بل قيل أنه انهمك في استصلاح الأراضي في العراق وضمها إلى أملاكه، مما أدى إلى عزله عن ولاية العراق[2]. وولى يزيد بن عبدالملك خلفًا له على العراق عمر بن هبيرة، وأمره بمسح السواد.

ذلك أنه كتب إلى عمر بن هبيرة، يأمره أن يمسح السواد، فمسحه (سنة ١٠٥هـ)، فوضع على النخل و الشجر وأضر بأهل الخراج، ووضع على التانئة[3]، وأعاد عليهم بعض الضرائب التي رفعها عنهم عمر بن عبدالعزيز[4]. ولم يكن السواد قد مسح منذ مسحه عثمان بن حنيف في عهد الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه[5].

---

(١) محمد نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي، ص١٩٧ - ١٩٩.

(٢) عبدالله الخطيب: الحكم الأموي في خراسان، ص١٢٣ - ناجي حسن: القبائل، ص١٥٩ - محمد نصر الله: نفس المرجع، ١٩٩.

(٣) تنأ: أقام وقطن: وفي حديث ابن سيرين: ليس للتانئة شيء. يريد أن المقيمين في البلاد الذين لا ينفرون مع الغزاة ليس لهم في الفئ نصيب، ويريد بالتانئة الجماعة منهم. وتنأ فهم تانئ (انظر: اللسان: تنأ). وعلى ضوء هذا القول يبدو لنا أن الخليفة يزيد وضع ضريبة على مسلمي أهل السواد المقيمين والغير مشاركين في الغزو. وقد فسر ثابت الراوي التانئة بـ: الدهاقين. (انظر: العراق، ص١٣١ - ١٣٢).

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١٣/٢ - ثابت الراوي: نفس المرجع والصفحات - محمد نصر الله: نفس المرجع والصفحات - عمر أبوالنصر: الأيام الأخيرة، ص١٢٧ - ١٢٨.

(٥) اليعقوبي: نفس المصدر والجزء والصفحة. ولمعلومات أشمل عن مسح السواد لأول مرة على يد عثمان بن حنيف بعد أن تم فتحه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (انظر/ أبويوسف: الخراج، ص٨٦ - ٩١ - البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٢٦ - ٢٧٢). لكن هناك إشارات تدل على أنه قد جرت محاولات أخرى لمسح السواد بعد مسحه زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك في ولاية زياد بن أبيه على العراق وكذلك الحجاج بن يوسف. (انظر: محمد نصر الله: نفس المرجع، ص٢٣١ - حسين محمد سليمان: رجال الإدارة، ص٢٢٤ - ٢٢٥ - نادية حسني صقر: الطائف، ص١٥١).

ومن المراجع ما يلمح إلى أن من أسباب مسح السواد زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك، رغبته في الاستيلاء على فضول القطائع في العراق، يدل على ذلك ما كتبه الخليفة يزيد بن عبدالملك إلى عمر بن هبيرة أنه ليست لأمير المؤمنين بأرض العرب خرصه[1] فسر على القطائع فخذ فضولها لأمير المؤمنين، فأخذ عمر يأتي على القطيعة فيسأل عنها، ثم يمسحها، حتى ضج الناس، فأمسك عن ذلك[2].

وتصحيحًا لهذا الخبر، يقول حسين عطوان[3]: «وقرر يزيد أن يضبط سواد العراق وينظمه لأنه لم يمسح منذ مسحه عثمان ابن حنيف في زمن عمر بن الخطاب، لكن عباس بن هشام الكلبي يزعم انه إنما قرر ذلك ليستولى على الأرض التي لا اصحاب لها، ثم أورد الخبر الذي أورده البلاذري عن ابن هشام الكلبي، والذي يفيد أمر الخليفة لابن هبيرة بمسح السواد، وأخذ فضول القطائع لأمير المؤمنين. وعلق حسين عطوان[4] على راوي الخبر فقال: «كان هشام بن محمد الكلبي يمني الهوى وكان يميل إلى الشيعة، وكان غير موفق في رواية الأخبار».

وعلى افتراض صحة الخبر الذي رواه ابن هشام الكلبي، فالواقع أن رغبة الخليفة يزيد بن عبدالملك في الحصول على فضول القطائع في العراق، وأمره عمر بن هبيرة بأخذها، ليس سببًا كافيًا لمسح السواد مسحًا شاملاً ودقيقًا.

والغالب أن هناك سببًا أكبر وراء ذلك. فنرى أن التنظيم الأول لأرض السواد في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد اختل، فتذكر نجدة خماش[5] أن معاوية رضي

---

(1) خرصه: يتضح انه يقصد قطيعة مفرد قطائع، ويبدو أن هذا اللفظ جاء من الخرص، خرص ما يخرص من ارض وشجر.

(2) محمد نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي، ص٢٣١ - ٢٣٢ - نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام، ص٢٥٦ - ٢٥٧.

(3) سيرة الوليد بن يزيد - ص١٩ - ٢٠.

(4) نفس المرجع، هامش (٦٤)، ص١٩.

(5) نفس المرجع، ص٢٥٦ - ٢٥٧. يسند قولها ما أورده البلاذري، من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استصفى الصوافي عندما مسح السواد، ولم يزل ذلك ثابتًا حتى أحرق الناس الديوان أيام الحجاج بن يوسف، فأخذ كل قوم ما يليهم. (انظر: فتوح البلدان، ص٢٧٢).

الله عنه استصفى الصوافي في الشام والجزيرة والعراق وصيرها لنفسه وأقطعها أهل بيته وخاصته، فلم تعد تابعة لعامة المسلمين وإنما أصبحت تحت تصرف الخلافة، وصار واردها كل سنة يحمل إلى دمشق، ولعل هذا ما حدا بقبائل العراق إلى إحراق سجل الأراضي (الديوان) أثناء حركة ابن الأشعث في ولاية الحجاج ابن يوسف، وادعى كل قوم ملكية ما يليهم. كما أن ما تعرضت له الأرض الخراجية من بيع وشراء قد أخل بالمساحة الأولى، إذ كانت الأرض الخراجية إذا شراها مسلم تحولت إلى عشرية، وهذا مخالف لحكم الشرع فيها[1]، ومضر بالخراج، ومخل بالمساحة، وهذا ما دعا الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى الأمر بمنع بيع الأرض الخراجية، وتابعه في ذلك الخليفة يزيد[2]، فلما تفشى الأمر ولم يستطع الخلفاء إيقاف بيع الأرض الخراجية، أمروا بأخذ الخراج على رقبة الأرض بصرف النظر عن مالكها أكان ذميًا أو مسلمًا عكس ما كان عليه الأمر أولاً[3].

ولعل الخليفة يزيد أراد إصلاح ما اختل من مساحة السواد وتحديد الصوافي وتعيين الأراضي الخراجية والعشرية، حتى يمنع التلاعب ويكون ذلك عونًا على الضبط والدقة في جباية الأموال.

---

(1) هناك خبر يدل على عدم جواز بيع الأرض الخراجية، فيذكر أن رجلاً اشترى أرضًا من أرض الخراج ثم أتى عمر ابن الخطاب فأخبره بما فعل، فقال له عمر: ممن اشتريتها؟ قال: من أهلها، قال: فهؤلاء أهلها يعني المسلمين، وخاطب عمر الحاضرين من المسلمين: أبعتموه شيئًا؟! قالوا: لا، قال: فاذهب فاطلب مالك حيث وضعته. (نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية [نقلاً عن: يحيى بن آدم: الخراج، ص٣٩]). ويذكر فالح حسين: أن يحي بن آدم ذكر أن لا بأس في شراء أرض الخراج، بينما أورد الطبري عن الأوزاعي أن أئمة المسلمين لم يزالوا يكرهون شراء الأرض الخراج. (انظر: الحياة الزراعية، ص٤٧). وحيث أن السواد مما أفاء به الله على المسلمين وأوقفه عمر، فلا يجوز بيع أرضه اعتبارًا لحكم الوقوف. (انظر/ الماوردي: الأحكام، ص١٢٨).

(2) عن أمر الخليفة عمر بمنع بيع الأرض الخراجية ومتابعة يزيد إياه في ذلك، (انظر بعد: الصفحتين التاليتين).

(3) عن تحول الأرض الخراجية إلى عشرية أول الأمر، وتطور الأمر في ذلك. (انظر: فالح حسين: نفس المرجع ص١٢٦ - ١٢٧ - ابن عساكر: تاريخ دمشق، م١/٥٨٧ - ٥٨٨).

كما أن ياقوت الحموي[1] وهو يُعَرِّف بالسواد، أشار إلى قول لعمر بن عبدالعزيز، يذكر فيه نقص إيراد خراج السواد وخرابه، وعزمه على زيادة إيراده. وما أظنه عزم إلا على استصلاحه وأعماره وضبطه بمسح أو بغيره. ولاشك أن هذا النقص وذلك الخراب من الأسباب الرئيسية التي دعت الخليفة يزيد إلى الاهتمام بالسواد ومسحه.

ولاشك أن مساحة السواد في عهد الخليفة يزيد قد تمت بشكل دقيق وشامل، يدل على ذلك تحسن وارد بيت المال من خراج السواد إذ بلغ في عهده مائة ألف سوى طعام الجند وأرزاق المقاتلة[2]. ومما يدل على نجاح هذا المسح استمراره حتى زمن المؤرخ اليعقوبي الذي مات (سنة ٢٨٤هـ)، إذ يقول «والمساحة التي يؤخذ بها مساحة بن هبيرة»[3].

وأما قول اليعقوبي[4]: أنه أضر بأهل الخراج، فلم نجد ما يبرره من خلال ما ذكره عن مساحة ابن هبيرة سوى وضع الخراج على النخل والشجر[5]. وهذا في حد ذاته قد لا يكون ضررًا وقد يكون بن هبيرة وجد أن أهل السواد عنوا بالنخيل والشجر لإعفائهم من خراجها وجعلها عونًا لهم[6]، وأهملوا المزروعات التي فرض عليها الخراج. مع أن أبا يوسف يورد روايات متعددة[7] تنص بأن عمر بن الخطاب وضع على النخل والشجر خراجًا.

فلم يزد الخليفة يزيد عليهم في الخراج، إلا أن يكون قد اشتد في جبايته، أو أن اليعقوبي أراد بذلك الضرر ما أعاده الخليفة يزيد عليهم من ضرائب غير شرعية دفعها

---

(1) معجم، ٣/٢٧٤.

(2) الماوردي: الأحكام، ص١٥١.

(3) تاريخ اليعقوبي، ٢/٣١٣ - محمد نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي، ص٢٣١ - ٢٣٢.

(4) نفس المصدر والطبعة والجزء والصفحة - محمد نصر الله نفس المرجع والصفحات.

(5) انظر قول اليعقوبي عن مسح السواد في عهد الخليفة يزيد وما لحق أهل الخراج عن ضرر على أثره، قبل: ص ٤٣٨.

(6) ذكر أبويوسف أن عمر ألقى عن أهل السواد النخل عونًا لهم، (انظر: الخراج، ص٩١).

(7) انظر تلك الروايات في كتاب الخراج لأبي يوسف، ص٨٧ - ٩١.

عنهم سلفه عمر، فذلك أمر آخر سنشير إليه بعد[1].

وفي سبيل الحفاظ على ثبات مورد الخراج المالي، أمضى الخليفة يزيد بن عبدالملك قرار الخليفة عمر بن عبدالعزيز القاضي بمنع بيع الأراضي الخراجية واعتبار عام ١٠٠هـ عام المدة، فقد أذن لمن كان اشترى قبل ذلك التاريخ بما شراه وليس فيها خراجًا، وإنما عليها العشر، لاختلاط أمرها عليه بما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون فلم يقدر على تخليصه ولا معرفة ذلك، وأمر أن من اشترى شيئًا بعد هذه السنة فإن بيعه مردود، فأمضى ذلك بقية ولايته. ثم أمضاه بعده يزيد وهشام[2]. وكان قد وضع عقابًا رادعًا فوق رد الأرض إلى صاحبها وهو قبض الثمن من المسلم وإيداعه بيت المال[3].

ومع التزام خلفاء عمر بهذا القرار، إلا أن ذلك لم يمنع من استمرار بيع الأرض الخراجية التي كان أول من سمح بشرائها عبدالملك بن مروان، مما أدى إلى فرض الخراج على الأرض الخراجية بصرف النظر عن المالك[4].

ويبدو أن الخليفة يزيد، قد أمضى سياسة عمر في منع بيع الأراضي الخراجية، لما في ذلك من حماية لموارد بيت المال، يدل على ذلك أنه التزم بالشطر الثاني من الأمر وهو منع البيع بعد (سنة ١٠٠هـ)، ولم يلتزم بشطر القرار الأول وهو الإذن لمن اشترى قبل (سنة ١٠٠هـ) وهي الأراضي التي تجاوز عنها عمر لاختلاط أمرها خشية

---

(١) انظر بعد: ص٤٤٨ وما بعدها.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، م١/٥٩٦ – فالح حسين: الحياة الزراعية، ص٤٨.

(٣) عصام الدين عبدالرؤوف: الحواضر الإسلامية الكبرى، ص٨١.

(٤) عبدالعزيز الدوري: العرب والأرض (بحث)، ص٢٩ – فالح حسين: نفس المرجع، ص٤٩، ٥٩ – نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام، ص٢٨٤ – ٢٨٥. والأصل منع بيع الأراضي الخراجية، وعمر في قراره ويزيد ثم هشام في موافقته متبعين لا مبتدعين. انظر ما أوردناه عن رد عمر بن الخطاب شراء أرض خراجية. وحيث أن الحكام لم يتمكنوا من تطبيق الأصل وهو منع البيع، حرصوا على أخذ الخراج في رقبة هذه الأرض وإن تحولت بالشراء إلى مسلم لأنها في الأصل خراجية لا عشرية. وقد فرض الخلفاء ذلك في أواخر العصر الأموي (انظر: فالح حسين: نفس المرجع، ص١٢٧). لكن هناك خبرًا أن سياسة فرض الخراج على الأرض الخراجية إذا شراها المسلم تمت منذ زمن الحجاج (فيليب حتي: تاريخ العرب، ١/٢٨٤ – ٢٨٥).

الوقوع في الخطأ وظلم الناس.

فقد أورد البلاذري[1]: أن بالفرات أرضون أسلم عليها أهلها حين دخلها المسلمون وأرضون خرجت من أيدي أهلها إلى قوم مسلمين بهبات وغير ذلك من أسباب الملك، فصيرت عشرية وكانت خراجية فردها الحجاج إلى الخراج، ثم ردها عمر بن عبدالعزيز إلى الصدقة، ثم ردها عمر بن هبيرة إلى الخراج فلما ولى هشام بن عبدالملك رد بعضها إلى الصدقة، ثم أن المهدي العباسي جعلها كلها من أراضي الصدقة.

ورد الأرض الخراجية إلى أصلها بعد أن صارت عشرية حق وهذا ما أمر به عمر بن عبدالعزيز إلا أن رد عمر بن هبيرة لهذه الأراضي الخراجية إلى أصلها وقد طال الامد عليها و هي بيد ملاكها الجدد من المسلمين وقد دخل عليها ما دخل من رهن أو هبة أو مواريث أو حقوق أخرى، سيؤدي بلا شك إلى وقوع في الظلم وسلب بعض الناس حقوقهم وكان الأولى إتباع ما أمر به عمر.

ولا تمدنا المصادر عن شيء من أمر الخراج والجزية في الأقاليم الشرقية للدولة الإسلامية وجبايتها في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك ويبدو أنه لم يحدث فيها جديد.

إلا أن التمرد الذي قام به الصغد فيما وراء النهر[2] أدى بلا شك إلى اضطراب الأمور المالية هناك، فقد امتنع أهل الصغد عن أداء ما عليهم من الضرائب جزية وخراجها وجاهروا بالعصيان، كما أن ارتحالهم عن ديارهم إلى خجندة. أدت إلى تعطيل إنتاج أراضيهم في تلك الفترة. فانكسر الخراج وخسرت خزانة خراسان ودار الخلافة كثيرا من الأموال[3].

وكما أثر التمرد في ما وراء النهر على وارد بيت المال فإن التحرك الخزري على

---

(١) انظر كتابه: فتوح البلدان، ص٣٦١.

(٢) عن تمرد الصغد في ما وراء النهر وقضاء المسلمين عليه وما ترتب على ذلك من أحداث ونتائج، (انظر قبل: الفصل الرابع، المبحث الأول، ص ٢٣٤وما بعدها).

(٣) عن تضرر موارد الدولة المالية بالاضطرابات في ما وراء النهر وارتحال الصغد، (انظر: عبدالله الخطيب: الحكم الأموي في خراسان، ص١٢٤ - ١٢٥).

الجبهة الأرمينية وغزوهم أملاك المسلمين، وقيام المسلمين بمواجهتهم[1] جعل أرمينية ميدانًا عسكريًا، وأضر بالزراعة وأدى بلاشك إلى انكسار الخراج واضطراب الأمور المالية.

ورغبة في زيادة دخل الخراج، أمر الخليفة يزيد بن عبدالملك - كما سبق أن ذكرنا[2] - بإعادة فرض ضريبة الخراج التي رفعها عمر بن عبدالعزيز عن الكنائس والأساقفة في مصر وقد باشر هذه السياسة في مصر أسامة بن زيد عامل خراج مصر للخليفة يزيد، فاشتد على النصارى وأوقع بهم. وهذا الأسلوب المتعسف لأسامة بن زيد ليس غريبًا ولا جديدًا، فقد كان عامل الخراج لسليمان بن عبدالملك في مصر، حيث عرف عنه الاشتطاط في معاملة أهل الذمة، والشدة في جباية الخراج والجزية، وهذا ما دفع عمر بن عبدالعزيز إلى عزله عندما تولى الخلافة، وعاقبه بالسجن والترحيل من جند إلى جند تشهير به[3].

ويبدو أن سياسة الخليفة يزيد بن عبدالملك في ضبط الأمور المالية، وإعادة تنظيمها، والحرص على زيادة موارد بيت المال، قد شملت أقطار الدولة الإسلامية كلها.

فتشير فاطمة عبدالقادر رضوان[4] أن يزيد بن أبى مسلم عامل الخليفة يزيد على افريقية زعم أن بلاد المغرب فئ للأمويين ومغنم فتحوه عنوة بالسيف، فهو ملك للدولة، لها أن تقرر ما شاءت من الخراج على أراضيه، فعاملهم معاملة غير المسلمين البتة، ففرض الجزية على رؤوسهم والخراج على أراضيهم[5]. وكان حسان بن النعمان أمير

---

(1) عن غزو الخزر أرمينية وصدهم وأحداث ذلك، (انظر قبل الفصل الرابع، المبحث الأول، ص٢٥٩ وما بعدها).

(2) أوردنا النصوص التي تخبر بإعادة يزيد الخراج على الكنائس والأساقفة في مصر بعد أن رفعها عنهم، واقتصار هذه الإجراءات على قبط مصر ومناقشتنا لذلك، (انظر قبل: ص٤٢٩ وما بعدها).

(3) فرج الهوني: النظم الادارية والمالية، ص٢٤٨ - ماجدة زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، ص١١٩.

(4) المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦١، ٦٥ - ٦٦ (نقلاً عن: محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ٢/٢٠١).

(5) عن سياسة يزيد بن أبى مسلم في المغرب، (انظر قبل: ص٣٨٥ وما بعدها).

افريقية (٧٤ – ٨٥هـ)، اعتبر أرضهم مفتوحة صلحًا لا عنوة وأجرى عليها حكم ذلك[١]. وظل الأمر على ذلك حتى ولى افريقية يزيد بن أبى مسلم[٢].

والحق أننا لم نعثر في المصادر التي أطلعنا عليها على ما يشير إلى هذا الرأي لابن أبى مسلم أو تنفيذه. كما أن حكم أرض المغرب وهل فتحت صلحًا أم عنوة أمر مختلف فيه فقيل: فتحت عنوة، وقيل صلحًا، وقول ثالث: بأنها مختلطة هرب بعضهم عن بعض فمن بقي بيده شيء كان له، وقول رابع أن أرض المغرب أسلم عليها أهلها، فهي ملك أيمانهم وهي بذلك عشرية لا خراجية[٣].

ويجب الإشارة إلى أن الخراج لا يسقط عن الأرض المفتوحة صلحًا في كل الأحوال وإن أسلم أهلها بعد الفتح إلا في حالة واحدة وهي: أن أهل الأرض المفتوحة صلحًا اشترطوا في صلحهم أن يستبقوا الأرض ملكًا لهم لا ينزلون عن رقابها للمسلمين ويصالحون عنها بخراج يوضع عليها، فهذا خراج جزية تؤخذ منهم ما أقاموا على شركهم ويسقط عنهم بإسلامهم[٤].

وعلى كل حال فإن سياسة يزيد بن أبى مسلم هذه لم يكتب لها التنفيذ، لأنها كانت مجرد رأي وعزم لا عمل، كما أن مقتل هذا العامل المفاجئ (سنة ١٠٢هـ) بعد ولاية لم يطل أمدها، أوقف هذه السياسة وحال دون تنفيذها[٥].

أما الأندلس وجنوب بلاد الغال، فإن السمح بن مالك الخولاني أثناء حملته[٦] على جنوب بلاد الغال وبعد فتحه إقليم سبتمانية في خلافة يزيد بن عبدالملك قد قام بتنظيم

---

(١) فاطمة رضوان: نفس المرجع، ص٦١ – ٦٢، ٦٥ – ٦٦ – يوسف حوالة: الحياة العلمية في افريقية، ص١٠٣ – ١٠٤ وهوامشها.

(٢) فاطمة رضوان: نفس المرجع، ص٦١ – ٦٢.

(٣) عن حكم ارض المغرب، (انظر: فاطمة عبدالقادر رضوان المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٦١ – ٦٣).

(٤) عن أنواع ارض الخراج وما يجب فيها، (انظر: الماوردي الأحكام، ص١٢٨ – ١٢٩).

(٥) عن مقتله ومدة ولايته، (انظر قبل: ص ٣٩٠ – ٣٩٣).

(٦) عن حملة السمح على جنوب بلاد الغال، وفتحه سبتمانية وإقامته الحكومة الإسلامية فيها، (انظر قبل: الفصل الرابع، المبحث الرابع، ص ٢٩٠ وما بعدها).

حكومة إسلامية في هذا الأقاليم، ونظم الأمور المالية هناك فوضع الجزية على أهل الذمة، ووزع الأراضي بين الفاتحين وأهلها – ولاشك أنه وضع الخراج على رقابهم – ونظم أمورها[1].

ولاشك أن السمح بن مالك قد طبق على أهل تلك البلاد وأراضيهم حكم الشرع الإسلامي من حيث الجزية والخراج مراعيًا في ذلك طبيعة فتح كل منطقة على أساس فتحها عنوة أو صلحًا. أما ما ذكر من توزيع الأراضي بين الفاتحين وأهلها، فيبدوا أن السمح قد وزع على بعض جنده ما استصفاه من أراضي الصوافي[2].

ويبدو أن السمح لم يتم تنظيم أمر الأندلس ومسح أراضيه وتمييزها وضبط خراجه، وتخميسه، وهي المهمة التي أوكل بتنفيذها إبان ولايته على الأندلس زمن عمر بن عبدالعزيز وبأمره، وقد باشر المهمة معه مولى لعمر يدعى جابر[3]. ولعل الرجلين كفا عن العمل في ذلك بموت عمر وتولى يزيد بن عبدالملك. لذا نجد ما يشير إلى أن خليفة السمح في ولاية الأندلس زمن الخليفة يزيد وهو عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٣ – ١٠٧هـ)، قد قام بتنظيم الخراج وتوزيع الأراضي، ويتضح أن عمله هذا كان إتمامًا

---

(١) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، ص٨١. وانظر قبل ص٣٩٧.

(٢) الصوافي: جمع صافية، وقد أطلق اللفظ في عهد الرسول ﷺ على الأراضي التي استصفاها أي أصبحت خالصة له كما في فدك وخيبر وبني النضير التي كانت صافية لرسول الله ﷺ.
واصطلاحًا: هي الأرض التي أصبحت بعد الفتح لا مالك لها باعتبارها كانت للحاكم أو الدولة أو مرافقها أو لمن هرب أو قتل اثناء الفتح من الحكام وذويهم وبطانتهم والنبلاء أو من سائر الناس، أو لم يكن لها مالك عند الفتح، أو الاجام ومغيض الماء وبيوت النار، أو صوافي الملوك السابقين، وهي أرض خراجية. (انظر/ أحمد عبدالله خياط: الإقطاع في الدولة الإسلامية حتى نهاية العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير غير مطبوعة، مقدمة لكلية الشريعة قسم التاريخ، جامعة الملك عبدالعزيز، فرع مكة، ١٤٠٠ – ١٤٠١هـ / ١٩٨٠ – ١٩٨١م ص١٢٨ – ١٣١ – فالح حسين: الحياة الزراعية، ص٤٩ – عبدالعزيز الدوري: العرب والأرض (بحث)، ص٢٨ – ثابت الراوي: العراق، ص٧١).

(٣) عن تنظيمات السمح بن مالك أثناء ولايته على الأندلس في خلافة عمر بن عبدالعزيز، (انظر قبل: المبحث الأول، ص ٢٩٢ – ٢٩٣).

لما بدأه السمح. فقد أورد شكيب أرسلان[1]: «أن أول عمل قام به عنبسة هو تنظيم الخراج وتقسيم الأراضي بين المسلمين بدون تجاوز على الأراضي التي لها ملاك أصليون من الأهالي، فكان يستوفي العشر من الذين خضعوا لدولة لعرب من أنفسهم، ويستوفي الخمس ممن لم يخضعوا إلا بالسيف».

ويفهم من النص أنه نظم الخراج أي قدره وميز أراضيه وهيأ لضبطه وجبايته، كما وزع الأراضي التي ليس لها ملاك أصليون من الأهالي وهو يعني بها الصوافي، وهذا القول يسند ما ذهبنا إليه من قبل في توزيع السمح للأراضي. أما العشر والخمس فتلك هي المقادير التي فرضها. ولاشك أن هذا التنظيم لأرض الأندلس وجنوبي الغال ومالية هذا الإقليم من الدولة الإسلامية قد استلزم وجود بيت مال[2] وعمال خراج وجباة وغالبًا

(1) غزوات العرب، ص١١٢.

(2) افترض إنشاء ديوان لضبط الأمور المالية في الأندلس أثناء هذا التنظيم الذي بدأه السمح. فرج الهوني (انظر كتابه: النظم الإدارية والمالية ص٢٤٩) لكنه لم يسند هذا الافتراض بأي قرينة. ونجد عكس قوله على لسان حسين مؤنس الذي ذكر، أن المراجع لم تعنه على كيفية التنظيم الذي اتبعه المسلمون في الأندلس، وأبدى أنه لا يعلم أن المسلمين هناك قد دونوا للأندلس ديوانًا، ولا ما كان يرسل لدار الخلافة من أمواله ولو لسنة واحدة (انظر كتابه: فجر الأندلس، ص١٣٧ – ١٣٩، ٦١٠). والواقع أن من المنطق أن يكون المسلمون قد دونوا للأندلس منذ فتحه ديوانًا شأنه شأن بقية أجزاء الدولة الإسلامية، وإن كان قد تأخر تنظيم أراضيه وتخميسه وضبط خراجه. فلاشك أن المسلمين قد جبوا الجزية ممن ظل على دينه من بعد الفتح وأخذوا الخراج من أراضيه، وجبوا الزكاة والعشور، فأين كانت تجمع وكيف كانت تجبى. ولقد وجدنا خبرًا يدل على وجود بيت مال في الأندلس زمن عنبسة الكلبي في خلافة يزيد بن عبدالملك، إذ يشير إلى أن بعض أهل الشام في الأندلس عادوا إلى الشام أثناء حركة شيريم اليهودي في سوريا فضبط عنبسة الأملاك التي تركوها وحولها لبيت المال. (انظر نص الخبر قبل: الفصل الثاني، المبحث الثالث ص٢٥٠ – ٢٥١). ومن ناحية أخرى فقد أورد عصام الدين عبدالرؤوف: «أنه كان يرد إلى دمشق من الأندلس في العهد الأموي ثلاثمائة ألف دينار في كل سنة». (انظر: الحواضر، ص٦٨ – ٦٩ [نقلا عن المقري: نفح، ١/١٤٠]) كما أن من المراجع ما أشار إلى تنظيمات المسلمين المالية في الأندلس لا كما يقول حسين مؤنس، (انظر من اجل ذلك: محمد عنان: دول الإسلام، ص٧٤ – ٧٥ – شكيب أرسلان: نفس المرجع، ص٢٩١). ولم نذكر هذه التنظيمات لعمومها وعدم =

سيكون المسلمون هناك قد تركوا أمر جمع الأموال في الأقاليم للزعماء المحليين من أهل البلاد، وهؤلاء يقدمونها للجباة أو يوصلونها لبيت المال، كما كان ديدن المسلمين في معظم الأقطار التي فتحوها.

الضرائب:

يتضح أن الخليفة يزيد بن عبدالملك لم يكن يزن الأمور بميزان شرع الإسلام في كل الأحوال، فبينما كنا نرى الخليفة عمر بن عبدالعزيز في إصلاحاته التي قام بها في مناحي الحياة المختلفة، يعمد إلى ما وافق الشرع وجرت به السنة فيتبعه، ويرد كلما ابتدع وخالف حكم الإسلام. ولذلك كان له دور مميز في رد المظالم[١]. فإنا نرى على النقيض من ذلك يزيد وبخاصة في أمر الضرائب. فقد عمد الخليفة يزيد إلى كثير مما أبطله الخليفة عمر من الضرائب المستحدثة والغير شرعية[٢]، فأمر بإعادة فرضه وجبايته، كما كان يُجْبَى قبل عمر، بل ووضع ضرائب جديدة.

وليس لهذه السياسة من تفسير سوى الرغبة في زيادة واردات الدولة المالية وتحصيل اكبر قدر ممكن من الأموال بصرف النظر عن شرعية هذا العمل، وآثار ذلك على المدى البعيد.

ومن ذلك أمره برد الضريبة التي فرضها محمد بن يوسف الثقفي[٣] على أهل

= خصوصيتها لفترة البحث، ومن اجل تنظيمات المسلمين زمن يزيد انظر ما أوردناه في الصفحتين السابقتين وهوامشهما.

(١) عن سياسة: الخليفة عمر بن عبدالعزيز في رد المظالم، (انظر: ماجدة زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم).

(٢) الضرائب غير الشرعية: هي تلك الأموال التي فرضها الحكام المسلمين على أهل البلاد المفتوحة، ولم يكن لها أصل في الكتاب والسنة، مقلدين بذلك الفرس والبيزنطيين، ومدفوعين في ذلك إلى جمع الأموال وزيادة الموارد. كتلك التي أعتاد أهل تلك البلاد تقديمها وأدائها إلى حكامها، وما استحدث فرضه على الزراعة والصناعة والتجارة. (انظر: ثابت الراوي: العراق، ص٧٥ - ٧٧).

(٣) محمد بن يوسف الثقفي، أخ الحجاج، أمير استعمله الحجاج على صنعاء، ثم ضم إليه الجند، فلم يزل واليًا عليهما إلى أن توفى. قال الخزرجي: جمع المجذومين بصنعاء وجمع لهم الحطب ليحرقهم، فمات قبل ذلك. ومن كلام عمر بن عبدالعزيز، في خلافة الوليد: الوليد بالشام، =

اليمن، بعد أن ألغاها عمر بن عبدالعزيز.

يقول البلاذري[1] في ذلك: «لما ولى محمد بن يوسف أخو الحجاج بن يوسف اليمن، أساء السيرة، وظلم الرعية، وأخذ أراضي الناس بغير حقها، فكان مما اغتصبه الحرجة، قال: وضرب على أهل اليمن خراجًا[2] جعله وظيفة عليهم، فلما ولى عمر بن عبدالعزيز كتب إلى عامله[3] يأمره بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر، وقال: «والله لأن تأتيني من اليمن حفنة كتم أحب إلي من إقرار هذه الوظيفة، فلما ولى يزيد بن عبدالملك أمر بردها». وأضاف ابن الأثير[4] الذي أورد ذلك قوله: وقال لعامله – يعني يزيد – : «خذها منهم ولو صاروا حرضًا والسلام».

والخبر لا يبين قدر هذه الضريبة التي فرضت على أهل اليمن، إلا أن من الواضح أنها لم تكن قليلة، نستشف ذلك من حرص الخليفة يزيد عليها، دون مراعاة لحالة الناس وطاقتهم، فأمره صريح: «خذها منهم ولو صاروا حرضا»[5].

وهذا يتوافق مع سياسته المعلنة في بداية خلافته والذي تضمنها كتابه إلى عمال عمر، والذي أمرهم فيه إلى ترك سياسة عمر والعودة بالناس إلى سياسة أسلافه من بني أمية قبل عمر، دون النظر إلى حال الناس وقدرتهم على الأداء، عندما قال: «... وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، اخصبوا أم اجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم

= والحجاج بالعراق، وأخوه باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر، امتلأت الأرض والله جورًا. (الزركلي: الأعلام، ٧/١٤٧).

(١) فتوح البلدان، ص٨٤.

(٢) يقصد بالخراج هنا الضريبة، لأن أهل اليمن لا خراج عليهم، فهم ممن أسلموا على أرضهم، والمسلمون ليس عليهم في أموالهم إلا العشور، بسند قولنا، أمر عمر في نفس النص، بالاقتصار على العشر عن حكم الأراضي التي أسلم عليها أهلها، انظر / الماوردي: انظر الأحكام، ص١٢٨ وما بعده).

(٣) كان عامل عمر على اليمن عروة بن محمد السعدي. (انظر ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص٣٢٣).

(٤) الكامل، ٤/٦٦ – وأنظر أيضاً: ابن خلدون: العبر، ٣/٧٦ – حسين سليمان – رجال الإدارة، ص٢٣١.

(٥) ابن الأثير: نفس المصدر، ٤/١٦٦.

ماتوا»[1].

وأعاد من الضرائب التي ألغاها عمر بن عبدالعزيز، تلك الضرائب التي فرضها بنو أمية على أهل السواد وأهالي الأقاليم الشرقية، والتي اعتاد أهل هذه الأقاليم تقديمها إلى حكامهم الفرس قبل الإسلام، فلما فتح المسلمون تلك المناطق قدموها للمسلمين كعادتهم، فأبوها، ثم أخذها عمال عثمان رضي الله عنه، وقد حاول منع ذلك ولكن لم يتمكن، واستمر الولاة في أخذها وجمعها مع الخراج حتى قامت الدولة الأموية، فأمر الخليفة معاوية رضي الله عنه بجبايتها، فغدت ضريبة واجب أداؤها إلى جانب الخراج[2].

وظل بنو أمية يجبون هذه الضرائب حتى تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز، فأسقط هذه الضرائب[3] وأمر بإبطالها جميعًا[4] فلما تولى يزيد بن عبدالملك، أمر بإعادتها، إذ يقول اليعقوبي[5] عند ذكره كتاب يزيد إلى عمر بن هبيرة بمسح السواد: «وإعاد السخر[6] والهدايا[1]، وما كان يؤخذ في النيروز[2] والمهرجان[3]».

---

(1) انظر نص كتابه كاملاً قبل: ص ٤١٧.

(2) عن الضرائب المستحدثة وبداية جبايتها وفرضها على أهل السواد والأقاليم الشرقية. (انظر: فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٢٥٤ – ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد الظالم، ص١٩٣ – ١٩٦ – محمد كرد علي: الإدارة الإسلامية في عز العرب، ص٩٨، توفيق اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق، ص١٣٨ – ١٣٩).

(3) من الضرائب التي أمر عمر بن عبدالعزيز بإلغائها: الآيين وأجور الفيوج، وأجور البيوت، وأجور الضرابين وهدية النيروز والمهرجان، وثمن الصحف، ودراهم النكاح، كما أبطل المائدة والسخر. عن هذه الضرائب انظر: توفيق اليوزبكي: نفس المرجع، ص١٤٤ – اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣٠٦/٢ – نادية صقر: سياسة عمر بن عبدالعزيز، ص٢٢ – محمد علي نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي، ص٢٣١ – ٢٣٢ – عمر أبوالنصر: الأيام الأخيرة، ص١٠٥.

(4) توفيق اليوزبكي: نفس المرجع والصفحة – نادية صقر: نفس المرجع والصفحة.

(5) نفس المصدر والجزء، ص٣١٣ – وانظر: محمد نصر الله نفس المرجع والصفحات.

(6) السخر: أو السخرة من التسخير، والمقصود: تسخير بعض الناس وتكليفه من الأعمال ما لا يريدون بلا أجر ولا ثمن قهرًا فكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك =

ولم يقف يزيد عند حد إعادة الضرائب القديمة، بل استحدث أخرى جديدة فيقول اليعقوبي أيضاً[٤]: «ووضع على التانئة» وهي ضريبة بدل خدمة عسكرية كما يبدو، وضعت على مسلمي البلاد المفتوحة الذين لا يشاركون في الفتح[٥].

والحقيقة أن القول بإعادة يزيد بن عبدالملك هذه الضرائب على أهل البلاد المفتوحة، لم يرد إلا عند المؤرخ اليعقوبي - وهو المعروف بتشيعه - ومع ذلك فإننا نقبله ونأخذ به لموافقته السياسة المالية العاملة للخليفة يزيد، والتي بين معالمها في كتابه الذي بعث به إلى عماله بترك سياسة عمر والعودة إلى سياسة من سبقه من خلفاء بني أمية، والنص على مثيله من الضرائب، كالأمر الصريح بإعادة الضريبة التي فرضها محمد بن يوسف على أهل اليمن.

ويظهر أن ضرائب من هذا النوع قد فرضت في الأقاليم الشرقية وخاصة في بلاد ما وراء النهر الزراعية. إذ يقول عبدالله الخطيب في ذلك نقلاً عن المؤرخ الروسي قاديروفا[٦]: «إن السلطة أخذت ترغم الفلاحين - يعني فيما وراء النهر - على دفع

= مسخر. ويبدو أن المقصود هنا: تسخير أهل البلاد المفتوحة في استصلاح الأراضي ووسائل الري والطرق. انظر: اللسان (سخر).

(١) الهدايا: كل ما يهدي للحكام، وأشهرها هدايا النيروز والمهرجان.

(٢) النوروز: أهم الأعياد عند المجوس، ومعناه اليوم الجديد، ويكون يوم الاعتدال الربيعي، وهو يوم رأس السنة، ويعتبر من أكبر الأعياد الدينية والشعبية. وقد حفظ بعض خصائص (الزجموك) الذي هو عيد البابليين القدماء. ويبدو أنه عيد عالمي كان الصابئة يحتفلون به، وكذلك أقباط مصر. ويدوم هذا العيد ستة أيام. (انظر: توفيق اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة، ص٢٩٧ - ٢٩٨. وبه تفصيلات أخرى عن هذا العيد).

(٣) المهرجان: عيد كبير عند الفرس، يوافق أول الشتاء، وفي الأصل يسمى عيد مشرا (ميشرا)، يحتفل به (١٦ من شهر مهر) شهر تموز الفرس، الموافق السادس والعشرين من تشرين الأول، بينه وبين النوروز (١٦٧ يوماً)، ومدته ستة أيام، ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر، وهو شبيه بالنوروز من حيث الاحتفالات وتقديم الهدايا للملوك، وفيه كما في عيد النوروز يوماً يجلس فيه الملك للناس لا يرد عنه أحد. (توفيق اليوزبكي: نفس المرجع، ص٢٩٨ - ٢٩٩).

(٤) تاريخ اليعقوبي، ٣٠٦/٢.

(٥) انظر ما ذكرناه حول التعريف بها قبل: هامش ص ٤٣٨.

(٦) الحكم الأموي في خراسان، ص١٢٣.

مبالغ كبيرة من المال كضرائب، وعلى الأخص مطالبتهم بتسديد الضرائب التي كانوا يسددونها عملاً وبشكل نقود، فكانت الضرائب فيما وراء النهر على ثلاثة أشكال، وتجمع في آن واحد، عمل، وبضاعة، ونقود، وكانت هذه الضرائب تستحصل بوسائل قاسية حتى وصل الحال بوالي خراسان سعيد خذينة أن يهدد أهل سمرقند وضواحيها بقطع الماء عنهم».

ويبدو أن العمل الذي أشار إليه يعني السخرة، فهو يقول في مكان آخر: «وكان ينبغي على الفلاحين العمل مجاناً في أوقات معينة من السنة لصيانة منشآت الإرواء هذه»[1]. أما البضاعة، فلا نعلم ضريبة تقدم كبضاعة، ولكن قد يكون القصد ما يأخذه المسلمون من العروض مقابل الجزية أو بعضها، أو ما يفرض أحياناً من الرزق العيني كجزء من الصلح مع المبالغ النقدية، أو لعلها عشور التجارة التي تفرض على الثغور بشكل عيني أو نقدي. وللحقيقة فإن المصادر الإسلامية لم تشر إلى شيء من هذه الضرائب في خراسان وما وراء النهر، زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك، وليس هذا من باب النفي لفرضها، فمن الراجح تطبيق السياسة الضرائبية في العراق على أهالي خراسان وما وراء النهر لتبعيتها لإمارة العراق.

أما الشام فليس هناك أي روايات تشير إلى فرض أي نوع من الضرائب الغير شرعية على أهله خلال العصر الأموي[2]. ولعل هذا مما نعم به أهل الشام بحكم وجود دار الخلافة وأهلها بين ظهرانيهم، ومساندتهم لسلطة بني أمية التي وهبتهم كثيراً من المكاسب، ورفعت شأن أقليمهم.

أما في مصر فيشير محمد أمين صالح نقلاً عن المؤرخ القبطي ساويرس بن المقفع[3] ما استحدث على أقباطها من ضرائب منذ عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، فيذكر أن الكنيسة خضعت لضرائب مستحدثة بمثابة التزامات مالية على أساقفة الكور، فألزم كل منهم بأداء ألفي دينار سنوياً علاوة على خراج أرض الكنيسة، كما ألزم

---

(1) عبدالله الخطيب: الحكم الأموي في خراسان، ص١٢٢ – ١٢٣.

(2) نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام، ص٢٦٣ – ٢٦٤.

(3) دراسات اقتصادية، ص١٢٣، ١٩ – وانظر عن هذا الضرائب أيضاً: سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص١٩٨ – ٢٠٠ – ترتون: أهل الذمة، ص٢٢٩ – ٢٣٠، ١٣٦.

البطريق بدفع ثلاثة آلاف دينار[1] ويقول: «واشتدت وطأة هذه الضرائب في خلافة سليمان بن عبدالملك «٩٦ - ٩٩هـ / ٧١٥ - ٧١٧م ويزيد بن عبدالملك ١٠١ - ١٠٥هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤م»[2].

وهذا القول يعني أن الخليفة يزيد أعاد فرض تلك الضرائب واشتد في جبايتها، لأن عمر بن عبدالعزيز كان قد أمر بإلغائها[3].

والحق أننا لم نعثر على نصر صريح يفيد إعادة يزيد لتلك الضرائب المستحدثة، والنص الواحيد الذي أورده ساويرس ابن المقفع[4] عن إعادة يزيد ما رفعه عمر عن البيع والكنائس، كان قد نص على إعادة الخراج، ولم يشر إلى إعادة الضرائب أو التشدد فيها كما قال محمد أمين صالح[5] الذي اعتمد في قوله على ساويرس بن المقفع. إلا أن روح النص يحتمل ذلك، إذ يقول بعد أن ذكر إعادته الخراج على البيع والكنائس ما نصه: «وحمل على الناس ثقلاً عظيمًا حتى ضاق كل من في بلاده»[6]. ومع ذلك فإننا لا نستطيع الجزم بإعادة تلك الضرائب على هذا النحو الذي ذكره المؤرخ القبطي ساويرس بن المقفع وإن كان جبايتها زمن الخليفة يزيد يظل أمرًا مرجحًا لتمشي ذلك مع السياسة العامة له في هذا الصدد.

ويشير فرج الهوني[7] أن يزيد بن أبى مسلم عامل الخليفة يزيد بن عبدالملك على

---

(١) تشير نجدة خماش أن قرة بن شريك فرض ضريبة مائة ألف دينار سوى خراج مصر المعروف غير ما ذكر أعلاه. (انظر الشام في صدر الإسلام، ص٢٦٣ - ٢٦٤ - وانظر أيضًا: ترتون: أهل الذمة، ص٢٣٠ - ٢٣١).

(٢) محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية، ص١٢٣.

(٣) عن أبطال عمر بن عبدالعزيز الجبايات التي فرضت على أهل الذمة في مصر، (انظر: سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص١٧٩ - نادية صقر: سياسة عمر بن عبدالعزيز، ص٥٣ - عماد الدين خليل: ملامح الانقلاب الإسلامي، ص١٢٨).

(٤) انظر نص الخبر قبل: ص٤٢٩.

(٥) انظر ما أورده محمد أمين صالح في الصفحة السابقة.

(٦) ساويرس بن المقفع: سير الاباء البطاركة، ص١٥٣.

(٧) النظم الإدارية والمالية، ص١٥٨ - ٢٥٩. (نقلاً عن: سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ص١٣٤).

افريقية، طبق في الأندلس نفس السياسة التي اتبعها في افريقية لتبعيتها له، فأعاد جميع الضرائب التي ألغاها عمر بن عبدالعزيز، وفرض عليهم ضرائب جديدة تماثل تلك التي فرضها محمد بن يوسف في اليمن.

لكن هذا الخبر لم أجده في المصادر التي تيسر لي الاطلاع عليها، وبالرجوع إلى مصدر هذا الخبر الذي نقله الهوني وجدته قد بالغ في الخبر، فلم يذكر سيد أمير على إلا فرض الضرائب التي أخذها محمد بن يوسف من أهل اليمن على أهل الأندلس، إلا أن سيد أمير على لم يوثق هذه الحقيقة، فلم يكن لنا بد من ردها وعدم الاعتماد عليها.

ويذكر شكيب أرسلان[١] أنواعًا من الضرائب كان المسلمون يأخذونها من أهالي الأندلس وجنوب بلاد الغال من السابلة على المرور[٢]، ومن المزارعين على محصولاتهم الزراعية[٣]، وعلى الكنائس والأديرة[٤]، كما أشار إلى وضع العشور على التجارة في الأندلس، ربع العشر على المسلم، ونصف العشر على الذمي. لكنه لم يحدد الفترة التي فرضت فيها هذه الضرائب ولكنه تحدث عنها عند الفتوح الأولى لبلاد الغال أي في عصر الولاة في الأندلس، الذي يمثل عهد يزيد جزءًا منه.

العطاء:

وفي مجال العطاء يتضح لنا من خلال المعلومات القليلة التي وقعنا عليها، أن الخليفة يزيد بن عبدالملك، سخر العطاء في خدمة أهدافه السياسية العامة، متأثرًا في ذلك بظروف الدولة في عهده، وتكوين شخصيته، فلم يلتزم بالقاعدة التي اتخذها أبوبكر وعمر رضي الله عنهما في توزيع العطاء[٥]. ولم يتبع نهج سلفه عمر بن عبدالعزيز،

---

(١) غزوات العرب، ص٢٨٨ - ٢٩١.

(٢) يبدو أن المقصود بذلك المكوس وهي الضرائب التي تفرض على التجارة في المنافذ أثناء الانتقال بين الأقاليم. أو للداخل إلى الديار الإسلامية من التجار القادمين من ديار الكفر.

(٣) يتضح أن المقصود بذلك الخراج أو الزكاة. وهما ضريبتان شرعيتان.

(٤) قال أن على كل كنيسة ضريبة قدرها خمس وعشرون قطعة فضية وعلى كل دير دفع خمسين قطعة، أما الكنائس العظمى فكانت تدفع مائة قطعة. (انظر: نفس المرجع، ص٢٩٠).

(٥) كانت طريقة الخليفة أبي بكر في توزيع العطاء، المساواة في القسمة بين الناس، السابقين والمتأخرين في الإسلام، والكبير والصغير، والحر والمملوك، والذكر والأنثى، أما عمر فاتبع -

الذي عمل على تقديم العطاء لمستحقيه وتوزيعه بين الناس على أساس من الحق والعدل، بعد أن خرج بنو أمية قبله عن سيرة الخلفاء الراشدين في ذلك[1].

والخليفة يزيد بهذا الأسلوب يعود إلى سياسة أسلافه من بني أمية قبل عمر، الذين لم يكن لهم سياسة ثابتة في توزيع العطاء.

فقد عمدوا إلى تضييق دائرته تارة، وإلى إيقافه أخرى، وأسقطوا من الديوان من شاءوا وفرضوا لآخرين، وزادوا فيه ونقصوا. فكان ذلك مثار شكوى الكثير من المسلمين، باعتبار أن العطاء حق للمسلم لا يجوز للإمام حجبه وأن أموال العطاء مما أفاء الله به على المسلمين[2].

فينقل وفيق الدقدوقي[3]. ما يشير إلى أن ظروف الدولة العسكرية وما عاشته في زمن الخليفة يزيد بن عبدالملك من حركات داخلية كحركة ابن المهلب، واضطرابات في بعض المناطق الواقعة على الحدود كتمرد الصغد، وغزو من بعض القوى على أطراف الدولة كغزو الخزر أرمينية، قد دعت إلى تقديم العطاء لثلاثة آلاف رجل ليكونوا قوة احتياطية يعتمد إليها وقت الحاجة، فيقول: «وخصص يزيد الثاني رواتب لثلاثة آلاف

= طريق المفاضلة بين الناس حسب السبق إلى الإسلام وحسن الأثر فيه، لكنه شمل به الناس جميعًا حتى المواليد، وفرض للموالي كالعرب (فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٧٩ – ٨٠، ٨٨ – ٩٦ – ولمعلومات أوفى وأشمل: انظر أيضًا/ الماوردي: الأحكام، ص١٧٢ – ١٧٥ – عبدالعزيز عبدالله السلومي: ديوان الجند، ص٩٢ – ٩٣، ١١٠ – ١٤٢.

[1] أمر عمر بن عبدالعزيز بالتسوية بين الناس في العطاء، وجعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والعطاء سواء، فألغى سياسة من سبقه من بني أمية في تفضيل العرب وحرمان الموالي من العطاء، فساوى بين الناس في فرض العطاء، لكنه أوجد فروقًا في توزيعه. وحرم بعض الناس لعلات يرى الأخذ بها من باب العدالة. (عن تفاصيل ذلك، انظر/ ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، ص١٥٤ – ١٥٩).

[2] عن سياسة بني أمية في العطاء، (انظر: فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٢٤٣ – ٢٤٤ – عبدالعزيز السلومي: نفس المرجع، ص١٤٩ – ١٧١ – خالد جاسم الجنابي: تنظيمات الجيش العربي، ص٩٢، ٩٥ – ٩٧ – وفيق الدقدوقي: الجندية، ص١٩١ – ١٩٧).

[3] نفس المرجع، ص٩١٥.

رجل في عمان[1] ليكونوا على استعداد للخدمة عند استدعائهم».

ويتبين أن الخليفة يزيد بن عبدالملك كان مهتمًا بجيشه كثيرًا، فكما رأينا اهتمامه بوجود قوة عسكرية احتياطية يلجأ إليها وقت الحاجة، نراه شديد الحرص على رضى قواته ودوام ولائها. فيشير خالد الجنابي[2] أن الخليفة يزيد أمر أن يوزع العطاء ويعطى الناس أرزاقهم في موعده المحدد دون تأخير ودون انتظار أمره بذلك، فيقول: «فقد قال يزيد بن عبدالملك لأسامة بن زيد كاتبه على ديوان الجند إذا رأيت هلال المحرم فصك بالعطاء من غير مؤامرة، وأعط الناس أرزاقهم من غير مراجعة» فقد كان موعد صرف العطاء والرزق أول السنة في شهر المحرم، وكان التأخر في صرفه يثير على الخلفاء والعمال مشاكل جمة.

ويلاحظ تقرب يزيد للعلماء، فنجده يجري على رجاء بن حيوة ثلاثين دينارًا[3]. ولعل ذلك من باب رد الجميل لرجاء الذي أشار على الخليفة سليمان بن عبدالملك بالعهد ليزيد بعد عمر بن عبدالعزيز.

وكان لتكوين شخصية الخليفة يزيد، أثر واضح في منح العطاء، من ذلك ما اورده ابن قتيبة الدينوري[4]، من أن يزيد بن عبدالملك أمر عامل المدينة بإثبات ذوي عاشق وعشيقته في شرف العطاء تعاطفًا معهم، بعد ما حالت الأعراف دون زواجهما من بعض، فماتا كمدًا وصبابة.

ويتضح أيضاً أن يزيد تأثر بموقف القبائل اليمنية المناوئ، عندما ناصرت الخارج

---

(1) لم تضبط الكلمة في النص، والراجح أنها عمان من ارض الأردن، لا عمان. إذ أن أهل عمان غالبيتهم من الأزد، قبيلة يزيد بن المهلب الذي خرج على الخلافة الأموية مطلع خلافة يزيد بن عبدالملك، فليس من المعقول اعتماده عليهم بعد ذلك، خصوصًا انهم ممن شايع ابن المهلب وانضم إليه.

(2) خالد الجنابي: تنظيمات الجيش العربي، ص٩٣ – ٩٤.

(3) ثريا حافظ عرفة: الخرسانيون، ص١٠٦ – ١٠٧.

(4) عيون الأخبار، ص١٢٨ – ١٣٠.

على دولته يزيد بن المهلب[1]، فانضمت إلى حركته بالعراق وحاربت جيوش الدولة معه، فاتخذ إجراء انتقاميًا منهم، بتفضيل قيس عليهم في العطاء.

فيقول عماد الدين خليل[2] في هذا الشأن: «بل أن يزيد أتخذ إجراء خطير بهذا الصدد – يعني تعصبه للقيسية– وذلك بإنقاصه عطاء اليمانية وجعله نصف عطاء المضرية مما أدى إلى حدوث اضطراب في الشام نفسه».

وإن صح هذا الخبر فإننا نرى أن هذا الإجراء اقتصر على مضرية العراق ويمنية، فإن من المعروف أن يمنية الشام قد قامت بالدور الرئيسي في القضاء على حركة ابن المهلب في العراق، وأن يمنية العراق هي التي انضمت إلى ابن المهلب في ثورته، فإذا كان الخليفة يزيد قد أنقص عطاء اليمانية في العراق فإنما كان بسبب انضمامهم لخصمه ابن المهلب ومناصرته. كما أننا لم نعثر على ما يدل على هذا الإجراء في مصادرنا الإسلامية، بل أنها قد أشارت أن يزيد اكتفى بالقضاء على حركة ابن المهلب وآله، ولم يعرض لأهل العراق[3].

وقولنا هذا جاء مما عرف من تقديم بني أمية أهل الشام وتفضيلهم، حتى أن اليعقوبي[4] يشير إلى أن عمر بن عبدالعزيز زاد أهل الشام في أعطياتهم عشرة دنانير، ولم يفعل ذلك مع أهل العراق. وكان إنقاص عطاء العراقيين أو منعه سياسة سار عليها أكثر خلفاء بني أمية[5].

ولا نخفي شكنا في تفضيل عمر أهل الشام على أهل العراق في العطاء، لما عرف عنه من عدل، وسموه بالخلافة فوق مستوى الحزازات والتعصبات العرقية والإقليمية. إلى جانب ما ذكر من أنه قد زاد في أعطيات الناس كافة عشرة عشرة العربي والمولى

---

(1) انظر موقف اليمنية من حركة ابن المهلب ومناصرتهم إياه قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص١٠٠ وما بعدها.

(2) دراسة مقارنة (بحث)، ص٢٩١ (نقلاً عن/ عبدالمنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ط٣، بيروت ٢/٢٧٢ – ٢٧٣).

(3) انظر ذلك قبل: الباب الأول، حركة ابن المهلب.

(4) تاريخ اليعقوبي، ٢/٣٠٦ – وانظر أيضًا: ثابت الراوي: العراق، ص١٦٩.

(5) ثابت الراوي: نفس المرجع، ص١٠٠.

سواء[1].

وقد أمر الخليفة يزيد بمنع الزيادة التي كان عمر بن عبدالعزيز قد أمرها بها لأهل الديوان بمصر في العطاء[2]. وليس لتصرفه هذا من معنى سوى محاولته تخفيض المصروفات، وتوفير اكبر قدر من الأموال، بصرف النظر عن مبدأ المساواة والحق أن هذا الاجراء ينبئ عن حرمان الموالي من العطاء مع إسلامهم وحقهم في ذلك، وهو يعود بهم من خلاله إلى ما كانوا عليه قبل عمر بن عبدالعزيز.

الإقطاع[3]:

عاود الخليفة يزيد بن عبدالملك سياسة أسلافه من بني أمية[4]، باستغلال أراضي الصوافي لمصالحه الشخصية وخدمة أغراضه السياسية، باتخاذها قطائع له، والإقطاع منها لبعض آله ورجال دولته.

---

(1) ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص١٠٧.

(2) الكندي: الولاه، ص٧٠ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١/٢٤٤ - سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٦٨ - ٦٩. وكان الخليفة عمر بن عبدالعزيز، قد أمر بإلحاق خمسة آلاف من مسلمي مصر، وزاد في فريضة الجند في ولاية أيوب بن شرحبيل (٩٩ - ١٠١هـ). (انظر/ الكندي نفس المصدر، ص٦٨ - ٦٩ - ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٥٥).

(3) الإقطاع: هو المنح والإباحة، وأقطعه قطيعة: أي طائفة من أرض الخراج، واسم الشيء الذي يقطع: قطيعة وإقطاعا. أما اصطلاحا: فالإقطاع: أن يقطع السلطان رجلاً أرضا فتصير له رقبتها بحكم الإقطاع، وتسمى تلك الأراضي قطائع واحدتها قطيعة. واقطاع السلطان مختص بما جاز فيه تصرفه ونفذت فيه أوامره، ولا يصح فيما تعين فيه مالكه وتميز مستحقه، وهو على ضربين: تمليك واستغلال. (انظر/ أحمد خياط، الإقطاع، ص٥١ - ٥٢).

(4) توسع بنو أمية في الإقطاع حرصا من أنفسهم على اقتناء الأرض وكسب المؤيدين بإقطاع الزعماء والأشراف، حتى اضطروا إلى تعدي أرض الصوافي والإقطاع من الأراضي الخراجية التي توفى عنها أصحابها دون وريث، فأقطعوا تارة بحكم الإيجار والاستغلال كما فعل عثمان رضي الله عنه، لكنهم اعتبروا إيرادها خاصا بهم وليس لبيت المال كما فعل عثمان. وتارة يقطعونها تمليكا. (عن ذلك انظر/ محمد نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي ص٢٢٦، ٢٠٥ - أحمد خياط: نفس المرجع، ص١٣١ - ١٣٢ - فالح حسين: الحياة الزراعية، ص٥٧ - ٥٨).

فينقل البلاذري[1]: أن الخليفة يزيد بن عبدالملك كتب إلى عامله على العراق عمر بن هبيرة، أنه ليست لأمير المؤمنين بأرض العرب خرصه، فسر علـى القطـائع فخـذ فضولها لأمير المؤمنين. فجعل عمر يأتي القطيعة فيسأل عنها ثم يمسحها حتـى وقـف على أرض، فقال: لمن هذه؟ فقال صاحبها لي، فقال: ومن أين هي لك فقال:

ورثناهن عن آباء صدق ويورثها إذ متنا بنينا

قال: ثم أن الناس ضجوا من ذلك، فأمسك. وهذا الخبر فيه إشارة إلى رغبة الخليفة في اختصاص نفسه ببعض القطائع وإن عامله من أجل ذلك سـار علـي القطـائع فـي محاولة منه لاستصفاء شيء من الصوافي للخليفة، فتعرض لبعض القطائع التي كانـت بيد بعض الناس، وحاول أخذها مما أدى إلى غضب أولئك الناس، فـاتظر عاملـه إلـى التوقف عن ذلك. ولعل ذلك كما تقول نجدت خماش[2] استيلاء بعض الناس علي شـيء من أرض الصوافي في أعقاب حريق الديوان أثناء حركة ابن الأشعث في العراق، بغير وجه حق، مما دعا الخليفة إلى التفكير في الحصول علي شيء منهـا.والحـق أن أمـر الخليفة نص على الحصول علي شيء من الفضول، لا على ما بأيدي الناس، فيبـدو أن ابن هبيرة تعرض لذلك التحقيق من صحة تملك صاحبها لها، وانه ليس ممـن وضـعوا أيديهم علي شيء من أراضي الصوافي في أعقاب حريق الـديوان، إبـان حركـة ابـن الأشعث، ولعله كان يستهدف استعادة تلك الصوافي لملـك الدولـة، ومعرفـة الفضـول وضمها للخليفة بناء علي طلبه.

والأصل في أرض الصوافي أنها خراجية لا تقطع[3] لذلك أعاد عمر بن عبد العزيـز كل ما لديه من قطائع وأحرق سجلاتها، إلا السويداء[4]، وردها إلى بيت المـال[5]. الا

---

(1) فتوح البلدان، ص٣٥٩ - ٣٦٠.

(2) الشام في صدر السلام ص٢٥٦ - ٢٥٧

(3) محمد نصر الله : تطور نظام ملكية الأراضي ، ص ٢٠٥

(4) السويداء: موضع علي ليلتين من المدينة علي طريق الشام، وهي بلدة مشهور من ديـار مضـر قرب حران، وهي أيضا: قرية بحوران من نواحي دمشق. (ياقوت: معجم، ٣/٢٨٦) . ونرى أنها الأولي لارتباطها في الخبر بخيبر.

(5) فرج الهواني : النظم الإدارية والمالية، ص ٢٣٨.

أنه لم يستطع رد القطائع التي بأيدي الناس لاختلاط أمرهـا عليـه، وتشـابك الحقـوق فيها[1].

ويبدو أن يزيد بن عبد الملك لم يجد له ابن هيبرة شيئاً من فضـول الصـوافي، الا أنه حقق شيئاً مما يريد عندما قبض قطائع يزيد بن المهلب التي كان الخليفة سـليمان أقطعه إياها. ذلك أن سليمان أقطع ابن المهلب ما أعتمل من البطيحة، فاعتمل الشـرقي والجبان، والخست الريحية ومغيرتان وغيرها، فصارت حوزا، فصادرها يزيد بن عبـد الملك بعد خروج ابن المهلب في أيامه والقضاء عليه[2]، وأخذها لنفسـه. فلمـا تـولى هشام أقطعها ولده ثم حيزت بعده[3].

والأخبار لاتسعفنا بنتيجة أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك لعمر بن هيبرة، أتمكن من استخلاص شيء من أراضي الصوافي له أم لا، إلا أن مما يذكر أن فالح حسـين[4]أورد أسماء الملاك في الشام من الخلفاء والأمراء والأشراف، بدءابمعاية رضـي الله عنـه، وانتهاء بالوليد بن يزيد وهشام ومسلمة كبيري ملاك الأرض، فلم يذكر ليزيد بـن عبـد الملك شيئاً، ولعل هذا يصدق قوله عندما بعث لعمر بن هبيـرة: «أنـه ليسـت لأميـر المؤمنين بأرض المؤمنين بأرض العرب خرصة»[5].

أما اتخاذ الاقطاع وسيلة لخدمة سياسته ودولته، فتمثل في الاقطاع لبعض رجلات دولته، أما كمكافأة على إخلاصهم لسلطانه ولما قاموا به من دور فـي القضـاء علـي المناوئين، من ذلك إقطاع هلال بن أحوز المازني[6]، القطيعة التي بها مرغاب[1] مـرو،

---

(1) ابن عساكر : تاريخ دمشق، ٥٩٦/١.

(2) عن مصادرة يزيد بن عبد الملك أموال المهالبة، (انظر قبل: الفصـل الثـاني، المبحـث الـول، ص٢١٦-٢١٨

(3) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٥٩.

(4) الحياة الزراعية، ص ٦٠-٦٢.

(5) البلاذري: نفس المصدر، ص ٣٥٩.

(6) هو القائد الذي تتبع المهالبة بعد انزامهم في العقر وأوقع بهم في قندابيل، (انظر ترجمتـه قبـل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص ١٥٠)

ومساحتها ثمانية آلاف جريب، وقد تنازع ملكيتها بعده نفر من الأشراف[٢].

كما أقطع الخليفة يزيد بن عبدالملك عمر بن هبيرة «مهلبان»[٣]، وقد كانت للمغيرة بن المهلب، قبضت مع أموال المهالبة عندما صادرها الخليفة يزيد، وفيها نهر كان زادان فروخ حفره فعرف به. وقد ردها أبو العباس السفاح للمهالبة[٤].

ومما أقطعه الخليفة يزيد لآل بيته، اقطاع العباس بن الوليد بن عبدالملك «عباسان»[٥]، وهي قطيعة كان الحجاج أقطعها لخيرة بنت ضمرة القشيرية، فقبضها يزيد بن عبدالملك ضمن أموال بني المهلب[٦].

كما أقطع عنبسة بن سعيد بن العاصي «دار الروميين» وكانت مزبلة لأهل الكوفة تطرح فيها القمامات والكساحات، فاستقطعها عنبسة من الخليفة يزيد، فأقطعه إياها[٧]، فأنفق عنبسة مائة وخمسين ألف دينار، لنقل ترابها وعمرها، فصارت تعرف بدار الروميين[٨].

ومما صنعه في الأراضي، رد النعينعة صدقة على ابن أبي طالب رضي الله عنه إلى آل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، بعد أن أعادها عمر بن عبدالعزيز إلى آل علي. فقد كانت النعينعة لآل علي حتى هلك الحسين، فوثب عليها يزيد بن معاوية، ثم صارت في يد عبدالله بن الزبير، فغدت إذا كانت المدينة بيد ابن الزبير وثب عليها آل

---

(١) المرغاب: نهر بمرو الشاهجان، و المرغاب: نهر بالبصرة، قال البلاذري: حفر المرغاب بشير بن عبيد الله بن أبي بكرة، وسماه باسم مرغاب مرو. احتقره بالتغلب في القطيعة التي لهلال بن أحوز كان قد أقطعه إياها يزيد بن عبدالملك. (ياقوت: معجم، ١٠٨/٥).

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٥٨.

(٣) نهر بالبصرة كان لامرأة المهلب بن أبي صفرة، وفي ذلك تناقض مع القول انه كان للمغيرة. (انظر/ أحمد خياط الإقطاع، ص٦٦)، (عن: البلاذري: نفس المصدر، ٣٨٣/٣). ولم أعثر له على تعريف.

(٤) البلاذري: نفس المصدر، ص٣٦٠ - ٣٦١.

(٥) لم أجد لها تعريفاً.

(٦) البلاذري: نفس المصدر، ص٣٦٢.

(٧) البلاذري: نفس المصدر، ص٢٨٠.

(٨) محمد نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي، ص٢٢٨.

علي، وإذا كانت المدينة في يد يزيد بن معاوية فالنعينعة في يده، ثم دفعها عبدالملك إلى آل معاوية. حتى قام عمر فردها إلى آل علي. فلما ولي يزيد بن عبدالملك ردها إلى آل معاوية[1] وليس لتصرفه هذا من تفسير إلا التعصب لسياسة أسلافه من بني أمية قبل الخليفة عمر بن عبدالعزيز.

ومما صنعه في القطائع التي ردها عمر بن عبدالعزيز، ما رواه البلاذري وابن عساكر[2]: أن النصارى خاصموا العرب في كنيسة لهم بدمشق، يقال لها كنيسة بني نصر، كان معاوية رضي الله عنه أقطعها إياهم، فأخرجهم عمر بن عبدالعزيز منها و دفعها إلى النصارى، فلما ولي يزيد بن عبدالملك ردها إلى بني نصر.

كما روى ابن عساكر[3] مثل هذا فقال: أنه قد أقام بعد فتح دمشق من بطارقة الروم بدمشق اثنا عشر بطريقا. فأقروا في منازلهم، وكان لكل بطريق منهم في منزله كنيسة، فأقاموا بها حيناً، ثم بدا لهم، فهربوا من دمشق، وتركوا تلك المنازل، فأُقطعت لقومٍ من أشراف دمشق. فلما ولي عمر بن عبدالعزيز أخرج أولادهم منها وردها على أهل الذمة فلما مات عمر ردت إلى أولاد الذين أقطعوها. والرواية لم تصرح بمن أقطعها وأسباب ذلك، أما ردها من قبل عمر لأهل الذمة فمن المرجع أن تبين له أنها من الكنائس التي صولح عليها أهل الذمة. كما أن الرواية لا تفصح بمن ردها إلى أولاد من أقطعت لهم بعد عمر، لكن روح النص يدل على أنه يزيد بن عبد الملك.

تجويد العملة وضبط المكاييل والموازين:

يتبين أن الخليفة يزيد بن عبد الملك عزم علي اتخاذ سياسة مالية متشددة، فالي جانب ما اتخذه من سياسات في سبيل زيادة دخول بيت المال وموارده، أو تخفيض المصروفات عمل علي تجويد ضرب العملة علي وجه افضل مما كانت عليه وشدد في وزنها، لتكون بعيدة عن الغش والتزييف[4]. كما اهتمت دولته بالمكاييل والأوراق

---

(١) وكيع: أخبار القضاة، ١٥٣/١ - ١٥٤.

(٢) فتوح البلدان، ص١٣٠ - تاريخ دمشق، م١٢٧/٢.

(٣) نفس المصدر والمجلد، ص١٢٦.

(٤) عبد الله السيف: الحياة الاقتصادية، ص ١٤٣.

التجارية من غير العملة.

يقول البلاذري[1]: "فلما ولي عمر بن هبيرة العراق ليزيد بن عبد الملك خلص الفضة ابلغ تخليص من قبله، وجود الدراهم فاشتد في ذلك العيار"[2]. ويضيف: أن خالد القسري ويوسف بن عمر عاملا هشام علي العراق من بعده، تابعا الاهتمام بتجويد العملة، بل وأفرطا في الشدة علي الطابعين وأصحاب العيار، فكانت العملة الهبيرية[3]، والخالدية[4]، واليوسفية[5]، أجود نقود بني أمية، وكان المنصور العباسي لا يقبل في الخراج غيرها[6].

وكان الدرهم الهبيري يزن ستة دوانق[7].

وقد فوض الولاة بضرب النقود، فكان لضربها أماكن عديدة في أنحاء العراق وغيره، كما كان ضربها تحت إشراف الدولة، بينها منع الناس من ضربها علي غير سكة السلطان، وعاقب الحكام من ضرب النقود من تلقاء نفسه، بقطع اليد، والسجن، والجلد، والتشهير، ويبدو أن هشام بن عبد الملك خليفة يزيد، أراد السك بصفة خاصة، فأمر (سنة ١٠٦هـ) عامله علي العراق، خالد القسري، بإبطال سك العلة في مدن العراق إلا واسطا، ثم جعلها مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في حران بالجزيرة[8].

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٤.

(٢) لمعلومات أشمل عن النقود الإسلامية قبل يزيد بن عبد الملك وبعده، (انظر / البلاذري: نفس المصدر، ص ٤٥١-٤٥٦- والمقريزي: كتاب النقود الإسلامية- محمد أبو الفرج العش: النقود العربية- انستانس الكرملي: النقود العربية وعلم النميات).

(٣) نسبة الي عمر بن هبيرة .

(٤) نسبة إلي خالد عبد الله القسرى.

(٥) نسبة إلى يوسف بن عمر الثقفي.

(٦) وانظر أيضا عن تجويد ابن هبيرة السكة، (قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص ٥٩-٦٠ ابن خلدون المقدمة، ص ٢٦١ – القلشندي: مآثر، ١/ ٢٣٠).

(٧) عبد الله السيف: نفس المرجع والصفحة.

(٨) عن ذلك، (انظر / ثابت الراوي : العراق، ص ٨٣- ٨٤ -نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام، ص ٢٧٥-٢٧٦- البلاذري: نفس المصدر، ص ٤٥٥- ٤٥٦).

من ناحية أخرى أقام الجراح بن عبد الله الحكمي عامل الخليفة يزيد على أرمينية المكاييل والموازين على العدل والوفاء وضبط ذلك، واتخذ مكيالاً عرف باسمه يدعى "الجراحي" ظل الناس يتعاملون به حتى زمن البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، وسبب ذلك أنه عندما نزل برذعة بعد قدومه أرمينية عندما ولاه الخليفة يزيد أمرها، رفع إليه اختلاف المكاييل والموازين فعمل على تقويمها وضبطها[1].

السفاتج:

تطور استخدام السفاتج[2]كأوراق مالية تجارية، في عهد عمر الخليفة يزيد بن عبد الملك، فلم يعد يقتصر استعمالها على كونها حوالات نقدية فقط، بل استخدمت كحوالات لأشياء عينية كالإبل وغيرها، فيذكر أن الشاعر نصيب[3]، لما مدح عبدالرحمن بن الضحاك الفهري عامل الخليفة يزيد بن عبد الملك على المدينة، أمر له بعشرة من الإبل وكتب بذلك سفتجة "حوالة" مختومة إلى رجلين من الأنصار بتسليمها له، فذهب بالسفتجة إليهم واستلمها منهم.

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٠٨- قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص ٢٣٠ (وقد ذكر أن التعامل بالمكيال الجراحي كان معمولاً به حتى أيامه، وقد كانت وفاته (٣٢٨او ٣٢٧هـ) ، لكن ذلك فيما يبدو جاء من نقله الحرفي للخبر عن البلاذري الذي ورد عنده ذلك: "...يتعامل به اهله إلى اليوم" ونقل ابن قدامة عن البلاذري واضح في كثير من الأخبار. فأصل الخبر يشير إلى استمرار التعامل به حتى أيام البلاذري، لا زمن قدامة بن جعفر.

(٢) السفتجة : كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالاً لحاملها، يأمن بها خطر الطريق. وقيل : هو أن يعطي أحدا مالا وللآخذ مال في بلد المعطي فيوفيه إياه هناك فيستفيد أمن الطريق. (عبد الله السيف: الحياة الاقتصادية، هامش (٦)، ص ١٤٥)، (نقلا عن / الثعالبي ثمار القلوب، ص ٥٤٥- حسن يوسف موسى وزميله: الإفصاح في اللغة. ٢/ ٢٠٨)

(٣) نصيب بن رباح، مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل كان يعد مع جرير وكثير عزة، له شهرة ذائعة وأخبار مع بني مروان. كان عبدا اسود لرشيد بن عبد العزى من كنانة، من سكان البادية، اشتراه عبد العزيز بن مروان فأعتقه. وللزبير بن بكار كتاب"أخبار نصيب" وللدكتور داود سلوم " شعر نصيب بن رباح" ، توفى (سنة ١٠٨هـ، وقيل:١١١، وقيل: ١١٣). (الزركلي: الأعلام، ٨/٣١-٣٢).

ولم يقتصر التعامل التجاري علي النقود والصكوك[١]., كوسائل لدفع الأموال المستحقة، بل استخدمت السفاتج "الحوالات" كوسائل مالية في التعامل التجاري، وهناك إشارات تدل على أن استخدام السفاتج ظهر في وقت مبكر في الدولة الإسلامية، فيذكر استخدمها من قبل ابن الزبير في مكة الذي كان يقدمها التجار علي العراق، ويبدو أنها لا تكون سارية المفعول إلا بعد أن توقع أو تختم[٢].

---

(١) كانت الصكوك تستعمل كوسائل لدفع المال، وقد كان عمر بن الخطاب أول من صك وختم اسفل الصكاك . (عصام عبد الرؤوف: الحواضر، ص ٥٩).

(٢) عبد الله السيف: الحياة الاقتصادية، ١٤٥ – ١٤٧.

الفصل السادس

أبرز جوانب الحياة العلمية في الدولة الأموية

في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك

المبحث الأول : العلوم الدينية

- القراءات
- التفسير .
- الحديث.
- الفقه.

المبحث الثاني : الأدب (اهتمام الخليفة يزيد بالأدب – الشعر – الخطابة – الكتابة – القصص والوعظ).

المبحث الثالث :الكتابة التاريخية .

المبحث الرابع : مظاهر النشاط العلمي (حلقات العلم في المساجد – مجالس العلماء – الكُتاب – المؤدبون – المكتبات).

الفصل السادس

أبرز جوانب الحياة العلمية في الدولة الأموية

في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك

تعد الحياة العلمية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مرحلة من مراحل عمر الحركة العلمية التي عاشتها الدولة الإسلامية، وهي استمرار للنشاط العلمي، الذي مارسه المسلمون قبل يزيد بن عبد الملك، إذ وصلت الحركة العلمية في عهده نموها وتطورها، وإن كان ذلك قد تم في زمنه بعيدا عن اهتمام الدولة ورعايتها، في أغلب الأحوال.

لقد ندرت الأخبار المشيرة إلى رعاية يزيد بن عبد الملك واهتمامه بالحركة العلمية، ولم يكن يعني هذا توقف نشاط الحركة العلمية، أو خمولها، فقد وجدناها نشطة متنامية من تلقاء نفسها، وعلي أيدي رجالها من علماء تلك الفترة، في أمة حثها دين الإسلام علي العلم، فعكفت عليه، وشغفت بطلبه.

لذا فإن اعتمادها في دراسة أبرز جوانب الحياة العلمية للدولة الإسلامية زمن يزيد بن عبد الملك، سيكون في المقام الأول علي تراجم الرجال، واستقاء المعلومات والحقائق المبينة لجوانب تلك الحياة، وحال حركتها،وجهود رجالها وأثرهم العلمي، مما حوته تلك التراجم من مادة علمية، وأخبار تاريخية، إلى جانب ما وقعنا عليه من حقائق أخرى في المصادر العامة، والمراجع المتخصصة التي تناولت الحياة العلمية في الدولة الإسلامية في العصر الأموي.

لذا فمن غير الممكن الالتزام بالحد الزمني لفترة البحث عند تاريخنا للحركة العلمية زمن يزيد، لأن اعتمادنا كما قلنا سيكون علي تراجم الرجال، وحيث أن هؤلاء الرجال من العلماء، والأدباء. والمؤرخين، المعاصرين للخليفة يزيد بن عبد الملك، والذي زخر عهده بعدد كبير منهم، لا يتوقف عطاؤهم بنهاية عهده، كما أن معظمهم بدأ عطاؤه قبل ذلك.

وعلي سبيل المثال، عندما نؤرخ لعلم القراءات زمن الخليفة يزيد، فإنا نعرض لذكر

أشهر القراء المعاصرين له وأصحاب الأثر الكبير في هذا العلم لمعرفة حال العلم آنـذاك من خلال تراجمهم، فنبدأ بمن عاصره ومات في عهـده كـالمقرئ يحيـي بـن وثـاب (ت١٠٣هـ) ، ثم من عاصره، وكان ذا دور بارز في خدمة الحياة العلمية فـي زمنـه، بقرينة تدل علي أنه كان في سن العطاء آنذاك، وأن كانت وفاته بعد خلافة يزيد بن عبد الملك، مثال ذلك عبد الله بن عامر أحد القراء السبعة (٢١-١١٨هـ) ، فانه وأن توفي بعد خلافة يزيد إلا أنه كان مقرئا في عهده، وممن خدم علم القراءات في خلافته.

لذا فإنني سأؤرخ لأبرز الجوانب العلمية في زمن يزيد من خلال أخبار العلوم فـي عصره، وتراجم رجالها الذين عاصروه، سواء من مات في زمنه أو بعده حتـى نهايـة الدولة الأموية (١٣٢هـ) ، علي أن يكون هناك قرينة دالة علي خدمة من مـات بعـد خلافته، للعلم في عهده. مع أن من العلماء من كانت وفاته في العصر العباسي، وكان ذا دور بارز زمن يزيد وخدم العلم في عهده، كالإمام القـارئ نـافع بـن أبـى نعـيم (ت ١٦٩هـ)، الذي ظل يقرئ الناس سبعين سنة، مقرئاً زمن يزيد بن عبد الملـك، وأبـو عمرو بن العلاء (٧٠- ١٥٤هـ) الذي انتصب للإقراء منـذ أيـام الحسـن البصـري (ت١١٠ هـ) ، وسليمان بن مهران بن الأعمش شـيخ المقـرئين والمحـدثين الفقيـه (٦١- ١٤٧ هـ[١]) . لكنا آثرنا التوقف بالترجمة عند نهاية الدولة الأموية (١٣٢هـ) ، لأننا نؤرخ لأحد خلفائها.

وأبرز جوانب الحياة العلمية مطلع القرن الثاني الهجري التي آثرناها بالدراسة، هي الدراسات الدينية بمجالاتها الأربع، وهي القراءات، والتفسير، والحـديث. والفقـه، ثـم الدراسات الأدبية شعرا ونثرا، ثم الدراسات التاريخية، كما سنتحدث عن مظاهر النشـاط العلمي هذه الفترة، والتي تمثلت في حلقات العلم في المساجد، ومجالس العلمـاء، ودور الكتاتيب، والمؤدبين والمكتبات.

---

(١) انظر تراجمهم عند: سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص ٩٨- ابن حجر: تهذيب ١٢/١٩٧-١٩٩ – الذهبي:سير، ٦/ ٤٠٧- ٤١٠، ٢٢٦٠-٢٤٨.

المبحث الأول

العلــوم الدينيــة

القراءات :

كان للقراءات[1] رجالها من الصحابة رضوان الله عليهم، الذين كان لهم عظيم الأثر في القراءات، وتتلمذ عليهم عدد من التابعين، الذين نشطوا في تعلم القراءة وتعليمهــا، أخذًا ورواية، ونشروا علم القراءات في البلدان الإسلامية، ومن هؤلاء التابعين، عكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٥ هـ)، والحسن البصري (ت١١٠ هـ)، ومحمد بن سـيرين (ت١١٠ هـ)[2].

وفي نهاية القرن الأول وبداية الثاني الهجري، تجرد قوم بالقراءة والأخذ، واعتنوا بضبطها أتم عناية، حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدي بهم ويرحل إليهم، منهم يزيـد بـن القعقاع (ت ١٢٧ هـ)، وشيبة بن نصاح (ت ١٣٠ هـ) في المدينة، وعبد الله بـن كثيـر

---

(١) القراءات هي وجوه تلقي النص القرآني، وقد أصطلح علـى تسـمية هـذه الأوجـه المقـروءة بالحروف، والحروف هي وجوه القراءات واختلافاتها بين القراء، وعرف علمها أيضا بأنه: علـم يبحث فيه عن صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة، وله استمداد مـن العلوم العربية، غرضه تحصيل ملكة ضبط الاختلافات المتواترة، وفائدته صون كلام الله تعالى عن تطرق التحريف والتغير إليه، والبحث فيه عن صور نظم الكلام من حيث الاختلافات الغير متواترة الواصلة إلى حد الشهرة. (انظر / سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص ٩٤).
أما القراء، فلفظ أطلق ذي بدء علي حفظة القرآن الكريم، ثم أخذ معنى أدق منذ عهـد الخليفـة عثمان رضي الله عنه، فخص به من اشتهروا بقراءاتهم، وكان لكل منهم مصحف. (خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام ص٣٣).
وعن القراءات انظر أيضا/ مكي بن أبى طالب: كتاب التبصرة في القراءات السبع، تحقيق المقرئ محمد غـوث النـدوي، نشـر وتوزيـع الـدار السـلطية، بومبـاي، الهنـد الطبعـة الثانيـة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م-ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٢) مكي بن أبى طالب : نفس المصدر، ص ١٤٢- سعد الموسى: نفس المرجـع، ص ٩٥ -خليـل الزرو : نفس المرجع، ص ٣٦-٣٧.

(ت ١٢٠ هـ) بمكة، ويحي بن وثاب (ت ١٠٣ هـ)، وعاصم بن أبي النجود (ت ١٢٧هـ) بالكوفة، وعبد الله بن اسحق بالبصرة، وعبد الله بن عامر (ت ١١٨ هـ)، وعطية بن قيس (ت ١٢١ هـ) ، وغيرهم بالشام[١].

واشتهر من هؤلاء من صارت إليهم رياسة الإقراء، وأصبحت قراءتهم مرجع الخلائق في البلدان المختلفة، وهم الأئمة الذين تنسب إليهم القراءات السبع[٢].

ومن مميزات فترة هذه الدراسة، أنها تمثل هذه المرحلة أو جزءا منها ، أي مرحلة تجرد كثير من العلماء للقراءة والعناية بها وضبطها، فشهدت كثيرًا من أئمة القراءة.

وسنعرض الآن لذكر عدد من أئمة القراءة - في فترة الدراسة التي حددناها- مبتدئين بثلاثة من القراء السبعة[٣] كانوا معاصرين ليزيد بن عبد الملك، ثم نذكر بعض مشاهير الأئمة القراء في زمنه حسب التسلسل الزمني لوفاتهم.

وأول الثلاثة: عبدالله بن عامر اليحصبي[٤]، أحد علماء التابعين الأعلام، وأفاضل

---

(١) مكي بن أبى طالب: التبصرة، ص ١٠٤،١٣٧- ١٣٨،١٤٠- ١٤٠ ابن الجزري: النشر، ١/٨-٩.

(٢) مكي بن أبى طالب: نفس المصدر، ص ١٣٨، ١٤٠ -١٤٢ . (وانظر ما صار إليه أمر القراءة بعد هذه المرحلة عند ابن الجزري: نفس المصدر، ص ٩).

(٣) القراء السبعة هم: نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم (ت ١٦٩هـ)، وعبد الله بن كثير المكي الداري (ت ١٢٠)، وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤او ١٥٧ هـ)، وعبد الله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨ هـ)، وعاصم بن أبى النجود (ت١٢٧ هـ علي خلاف)، وحمزة بن حبيب (١٥٦هـ) والكسائي علي بن حمزة (١٨٩ هـ علي خلاف).

(٤) عبدالله بن عامر اليحصبي الدمشقي المقرئ، الحافظ الفهم، ثقة صدوقًا متقنًا، محدثًا من أجله الراوين. كان رئيس جامع دمشق والناظر على عمارته، كما تولى قضاء دمشق. قيل كان مولده (سنة ٨هـ) والصحيح (سنة ٢١هـ)، وتوفى (سنة ١١٨هـ). (انظر عنه: مكي بن أبى طالب: نفس المصدر، ص١٢١ - ١٢٢ - ابن الباذش: كتاب الإقناع في القراءات السبع، تحقيق عبدالمجيد قطامش، مطبعة دار الفكر، بدمشق، السعودية، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، الطبعة الاولى، ١٤٠٣هـ، ١/١٠٣ - ١٠٦ - الذهبي: سير، ٥/٢٩٢ - ٢٩٣ - ابن حجر: تهذيب، ٥/٢٤٠ - ٢٤١ - خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٣٧).

المسلمين الأخيار، الإمام الكبير مقرئ الشام، انتهت إليه مشيخة الأقراء فيها، واتخذه أهلها إمامًا في قراءته واختياره، وظلوا عليها تلاوة وصلاة وتلقينا حتى (سنة ٥٠٠هـ) تقريبًا، وقد كان أمام الجامع الكبير بدمشق، وقد قرأ على أبي الدرداء رضي الله عنه، وروى أنه سمع قراءة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وجاء أنه قرأ على قاضي دمشق فضالة بن عبيد رضي الله عنه، والمشهور أنه قرأ على المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب عثمان، وقد تلا عليه يحيى بن الحارث وغيره. وراوياه عبدالله بن ذكوان وهشام بن عمار السلمي.

وقراءة ابن عامر ليست اجتهادًا منه، لأن قراءة القرآن كلها توقيفية، وقد جاء الاختلاف من اختلاف الصحابة في تلقيهم، وفي هذه الناحية كان ابن عامر متلقيًا، لكنه كان يختار من بين هذه القراءات قراءة لها مميزاتها وتنسب إليه، منها ما يتعلق بطبيعة القراءة، ومنها ما يتعلق بالرسم والنحو. وقد روى أن ابن عامر انفرد من بقية القراء في أكثر من خمسين ناحية، وقراءة ابن عامر بمميزاتها هو ما يعرف بالمصحف الشامي، ومن العلماء من طعن على ابن عامر كابن جرير الطبري، وقد عد ابن الجزري ذلك من سقطات الطبري على اعتبار أن إجماع أهل الشام على قراءته دليل على صحة هذه القراءة[1].

الثاني: عبدالله بن كثير الداري[2]، الإمام العلم، كبير الشأن، مقرئ مكة، وأحد

- وللعلم فقد اتخذتُ منهجًا في الترجمة للعلماء والمعلومات التي تشير إلى عطاءاتهم العلمية، يتخلص في ذكر المعلومات الخاصة بالعلم الذي أتحدث عنه بالمتن والترجمة للعالم عند ذكره لأول مرة بالهامش، ترجمة مختصرة عن اسمه ونسبه وبعض مزاياه العامة ووظائفه أن وجدت ومولده ووفاته، ثم ذكر أي معلومة عنه تخص أي علم آخر في مكانها بالمتن والإحالة بالهامش إلى الترجمة، أو الاكتفاء بالإحالة إلى مصدر تلك المعلومات.

(١) لتفاصيل أشمل عن قراءاته ومميزاتها، (انظر/ خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٣٧- ٤٢).

(٢) عبدالله بن كثير أبومعبد الكناني الداري المكي مولى عمرو بن علقمة الكناني، فارسي الأصل، من الأبناء في اليمن، القارئ الإمام العلم، الثقة كبير الشأن، كان قاضي مكة، ولد (سنة ٤٥هـ) وقيل (سنة ٤٨هـ) بمكة، وبها توفى (سنة ١٢٠هـ) أو بعدها. (عن ترجمته وما قدمناه من معلومات عنه: انظر/ مكي بن أبي طالب التبصرة، ص١١٨ – ١١٩ – ابن الباذش: الإقناع، ٧٧/١ – ٨٠ – الذهبي: سير، ٣١٨/٥ – ٣٢٢ – ابن خلكان: وفيات، ٤٢/٣ – ٤٢ – ابن حجر: تهذيب، ٣٢٢/٥).

القراء السبعة، إليه صارت قراءة أهل مكة وبه اقتدى أكثرهم، ذكر أنه لم يكن بمكة أقرأ منه، وكان فصيحًا بالقرآن، قيل: قرأ القرآن على عبدالله بن السائب المخزومي، والمشهور تلاوته على مجاهد ودرباس مولى ابن عباس، وتلا عليه أبو عمرو بن العلاء وعدة، وراوياه قنبل والبزى.

الثالث: عاصم بن أبى النجود[1]، الإمام الكبير مقرئ العصر، وشيخ القراء بالكوفة، وأحد القراء السبعة المشار إليه في القراءات، صالحًا قرانًا للقرآن، قال العجلي: كان صاحب سنة وقراءة، وكان ثقة رأسًا في القراءة. وقال أبى اسحق: «ما رأيت أقرأ من عاصم»، وكان فصيحًا لا يخطئ، ثبتًا في القرآن وقراءته عن أبى عبدالرحمن السلمي، والسلمي قرأ على علي بن أبى طالب رضي الله عنه، وكان يعرض قراءاته على زر بن حبيش، وزر قد قرأ على عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. وقد تصدر للأقراء مدة بالكوفة فتلا عليه جماعة، وانتهت إليه رياسة الإقراء بعد أبى عبد الرحمن السلمي شيخه (ت ٧٣هـ)، قال أبوبكر بن عياش: «لما هلك أبو عبدالرحمن جلس عاصم يقرئ الناس، وكان أحسن الناس صوتًا بالقرآن، حتى كأن في حنجرته جلاجل»، جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد، كان أهل الكوفة يختارون قراءته، وقد اختارها أحمد بن حنبل بعد قراءة أهل المدينة يقول ابنه عبدالله: سألت أبى أي القراءات أحب إليك؟ قال: «قراءة أهل المدينة فإن لم يكن فقراءة عاصم». وهو شيخ أبى حنيفة، وراوياه حفص وشعبة.

ومن أئمة القراء في هذه الفترة أيضًا، يحيى بن وثاب[2] كان مقرئ أهل الكوفة،

---

(١) عاصم بن أبى النجود، أبوبكر الأسدي مولاهم الكوفي، ثقة صدوقًا خيرًا عابدًا ذو أدب ونسك وفضائله كثيرة، كان عثمانيًا، نحويًا مشهور الكلام، ولد زمن معاوية رضي الله عنه، وتوفى (سنة ١٢٧هـ) على خلاف. (انظر عن ترجمته وما أوردناه عنه من معلومات / مكي بن أبى طالب، التبصرة، ١/١١٥-١٨١ -ابن البانش: الإقناع، ٥/٢٥٦- ٢٦١ - ابن حجر: تهذيب، ٥/٣٥ - ٣٦).

(٢) يحيى بن وثاب الأسدي مولاهم، المقرى، تابعي ثقة، كان أبوه من سبى قاسان، فصار إلى ابن عباس، فسماه وثابا وأقام معه ثم استأذنه فارتحل مع ابنه يحيى الذي أقام بالكوفة فصار أمام أهلها في القراءة، (ت ١٠٣هـ). (انظر عنه: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٦/٢٩٩ - ابن حجر: تهذيب، ١١/٢٥٨).

وقد أخذ القرآن عن عبيد بن نضيلة آية آية، فكان قارئًا، وكان من أحسن الناس قراءة، إذا قرأ كأنه يخاطب رجلاً، ولا يسمع في المسجد حركة.

وعطاء بن يسار[1] كان ممن تلقى القراءة من الصحابة وقاموا مقامهم في المدينة.

ومجاهد بن جبر[2]، الإمام شيخ القراء، قرأ على عبدالله بن السائب وعبدالله بن عباس، وأخذ عنه القراءة عرضًا عبدالله بن كثير وعمرو بن العلاء، وقرأ عليه الأعمش وقد عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وقيل ثلاث، وأجمعت الأمة على إمامته والاحتجاج به.

وعكرمة مولى ابن عباس[3]، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، من علماء زمانه بالقرآن، قال الشعبي: «ما بقي احد أعلم بكتاب الله من عكرمة». قرأ على مولاه وبعض الصحابة، وقرأ عليه ابن حجر بن العلاء.

---

(1) عطاء بن يسار الهلالي، المدني، مولى ميمونة زوج النبي ﷺ، وهو أخو سليمان وعبد الملك وعبدالله بن يسار، ولد سنة ١٩هـ، وقدم الشام ومصر، وتوفى بالإسكندرية (سنة ١٠٣هـ على خلاف. انظر عنه/ ابن الجزري: النشر، ٨/١ - الذهبي: سير، ٤٤٨/٤ - ٤٤٩ - ابن حجر: تهذيب، ١٩٤/٧ - ١٩٥).

(2) مجاهد بن جبر المخزومي بالولاء، مولى السائب بن أبى السائب، التابعي، القارئ، ثقة، متقنًا، عالمًا، ثبتًا، صادقًا، عدلاً. (انظر عنه/ مكي بن أبى طالب: التبصرة، ص١٠١ - الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٤٤٩ - ٤٥٧ - ابن حجر: نفس المصدر، ٣٨/١٠ - ٤٠).

(3) عكرمة البربري، أبو عبدالله القرشي، مولى ابن عباس، المدني، التابعي العلامة، الحافظ، وثقة واحتج به وعدله وثبته جماعة من الأئمة وكثير من أهل الحديث ورجال الجرح والتعديل. وكان قد كذبه البعض، واتهم باضطراب الحديث وقلة العقل، كما اتهم برأي الخوارج الصفرية، وأنه أول من أحدث رأي الخوارج في أهل المغرب ونقله إليهم. وقد برأه بعض رجال الحديث من ذلك، يقول ابن معين: «إذا رأيت إنسانًا يقع في عكرمة وحماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام». كما برأه العجلي من رأي الخوارج. توفى بالمدينة (سنة ١٠٥هـ على خلاف) عن ثمانين سنة. (انظر عنه: مكي بن أبى طالب: نفس المصدر والصفحة - الذهبي: نفس المصدر، ١٢/٥-٣٦ - ابن حجر: نفس المصدر، ٢٣٤/٧ - ٢٤٢).

وعبيد بن حنين[1]، كان من حفاظ القرآن المتقنين.

وسالم بن عبدالله بن عمر[2]، كان من السادة القراء بالمدينة.

وطاووس بن كيسان[3]، عالم اليمن الحافظ القدوة، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، وقد أخذه عن ابن عباس.

والقاسم بن محمد بن أبي بكر[4]، كان من السادة القراء في المدينة.

وسليمان بن يسار الهلالي[1]، كان من قراء المدينة، ووردت الرواية عنه في

---

(1) عبيد بن حنين المدني، أبوعبدالله مولى آل زيد بن الخطاب ويقال مولى بني زريق. ثقة (ت ١٠٥هـ) عن تسعين سنة. (انظر عنه/ الذهبي: سير، ٦٠٥/٤ - ابن حجر: تهذيب، ٥٨/٧ - ٥٩).

(2) سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، العدوي القرشي المدني، المدني، أبوعمر، الإمام الزاهد الحافظ. تابعي ثقة صالحا ورعا فاضلا عاليا في الرجال، قال مالك: «لم يكن أحد في زمان سالم بن عبدالله أشبه بمن مضى من الصالحين في الزهد والفضل والعيش منه». وقد كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ القراء السادة على بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبدالله، وهم أبناء امهات أولاد، ففاقوا أهل المدينة علماً وتقى وعبادة وورعا، فرغب الناس حينئذ في السراري، وكان أشبه ولد ابن عمر به سالم. (ت ١٠٦هـ على الصحيح). (انظر عنه/ الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٤٥٧ - ٤٦٧ - ابن حجر: نفس المصدر، ٣٧٨ - ٣٧٩ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٩٩).

(3) طاووس بن كيسان، أبو عبدالرحمن الفارسي اليمني الجندي، من الأبناء وهو مولى حمير وقيل همدان، من سادات التابعين، كان صالحًا عابدًا زاهدًا، عفيفًا، الناس عنده سواء، متجنبًا للسلطان، وكان يتشيع، وقد حج أربعين حجة. ثقة صادقًا ثبتًا، ولد زمن عثمان رضي الله عنه أو قبله، وتوفي (سنة ١٠٦هـ على الصحيح). (انظر عنه: مكي بن أبي طالب: التبصرة، ص١٠١ - الذهبي: نفس المصدر، ٣٨ - ٤٩ - ابن حجر: نفس المصدر، ٨/٥ - ٩).

(4) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أبومحمد القرشي التيمي المدني، الإمام القدوة الحافظ الحجة، عالم وقته بالمدينة مع سالم وعكرمة، تابعي ثقة عالمًا رفيعًا ورعًا فاضلاً خيرًا صالحًا، وأمه أم ولد. قال عمر بن عبدالعزيز: «لو كان إلى من هذا الأمر شيء - يعني العهد بالخلافة - ما عصبته إلا بالقاسم بن محمد» ولد في خلافة علي رضي الله عنه، وتوفي (سنة ١٠٧هـ على خلاف) عن سبعين سنة. (انظر عنه: الذهبي: نفس المصدر، ٥٣/٥ - ٦٠ - ابن حجر: نفس المصدر، ٢٩٩/٨ - ٣٠٢، ٢٧٨/٣).

حروف القرآن.

وعمران بن ملحان[2]، له رواية علم بالقرآن، وأم قومه أربعين سنة.

وعامر بن شراحيل الشعبي[3]، تلقى القراءات عن الصحابة، وقام بها، وقد عرض على أبي عبدالرحمن السلمي وعلقمة، وروى القراءة عنه عرضًا ابن أبي ليلى.

وأبوحرب بن أبي الأسود الديلي[4]، يعد في الطبقة الثانية من قراء أهل البصرة.

والحسن البصري (ت ١١٠هـ)[5] شيخ البصرة وسيد أهل زمانه علما وعملا، قرأ القرآن على حطان بن عبدالله الرقاشي وعلى أبي العالية، روى عنه أبوعمرو بن

---

(١) سليمان بن يسار الهلالي مولى ميمونة الهلالية، أبو أيوب المدني وأصله فارسي، الإمام الفقيه عالم المدينة ومفتيها، من أعلم الناس، فضله بعضهم على سعيد بن المسيب. يقول الحسن بن محمد بن الحنفية: «سليمان بن يسار عندنا أفهم من سعيد بن المسيب».ويقول عبدالله بن يزيد الهذلي: «وسمعت السائل يأتي سعيد بن المسيب فيقول اذهب إلى سليمان بن يسار فإنه اعلم من بقي اليوم». وقد كان ثقة مأمونًا فاضلاً عابدًا رفيعا، ولي سوق المدينة لأميرها عمر بن عبدالعزيز. ولد في أواخر أيام عثمان رضي الله عنه، وتوفي (سنة ١٠٧هـ). (انظر عنه/ مكي بن أبي طالب: التبصرة، ص١٠٠ - الذهبي: سير، ٤/٤٤٤ - ٤٤٨ - ابن حجر: تهذيب، ٤/١٩٩ - ٢٠٠).

(٢) عمران بن ملحان، أبو رجاء العطاردي البصري، وقيل اسمه عطارد. أدرك زمن النبي ﷺ، كانت فيه غفلة، وعُمر أزيد من ١٢٠ سنة، و(ت ١٠٩هـ على خلاف). (انظر عنه: ابن حجر: نفس المصدر، ٨/١٢٤).

(٣) عامر بن شراحيل الشعبي الهمداني الكوفي، أبوعمرو، الإمام علامة العصر، وقيل: هو من حمير وعداده في همدان، تابعي، أدرك خمسمائة من الصحابة، وكان الشعبي كثير العلم حافظً أمي لا يكتب، وكانت له حلقة كبيرة في مسجد الكوفة، ثقة، قوي الحفظ، شاعرًا ذا أدب، وكان واحد زمانه في فنون العلم، ولد سنة ٢١هـ وقيل غير ذلك، و(ت ١٠٩هـ على خلاف). (انظر عنه: مكي بن أبي طالب: نفس المصدر، ص١٠٣ - ابن الجزري: النشر، ١/٨ - الذهبي: نفس المصدر، ٤/ ٢٩٤ - ٣١٩ - ابن حجر: نفس المصدر، ٥/٥٧ - ٦٠).

(٤) أبوحرب بن أبي الأسود الديلي البصري، قيل اسمه محجن وقيل عطاء، وقيل اسمه كنيته، ثقة، عاقلاً، شاعرًا، ولاه الحجاج جوخي حتى مات، (ت ١٠٩ وقيل ١٠٨ هـ). (انظر عنه/ ابن حجر: نفس المصدر، ١٢ / ٧٣ - ٧٤).

(٥) انظر ترجمته قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص ١٠٨.

العلاس وسلام بن سليمان، قال حماد بن سلمة عن حميد: «قرأت القرآن على الحسن ففسره على الإثبات يعني اثبات القدر». فكان ممن تلقى القرآن عن الصحابة وقام عليه[١].

ومحمد بن سيرين[٢]، الذي تلقى القراءة عن الصحابة أيضًا وقام على المصحف، فوردت عنه الرواية في حروف القرآن.

ومن قراء أهل الكوفة وعبادهم عون بن عبدالله الهذلي[٣] الامام القدوة، القاص.

ومن أئمة القراءة وناشري هذا العلم مسلم بن جندب القارئ[٤]، كان ممن تلقى القراءة بالمدينة عن الصحابة، وقام على المصحف، وقد عرض على عبدالله بن عياش، وعرض عليه نافع، وكان معلم عمر بن عبدالعزيز الذي كان يثني على فصاحته بالقرآن، فكان يقول: «من سره أن يقرأ القرآن غضًا ليقرأه على قراءة مسلم بن جندب». وكانت له مكانة بين علماء المدينة وقرائهم، حتى قال قائلون: «كان أهل المدية

---

(١) مكي بن أبي طالب: التبصرة، ص ١٠٣، - ابن الجزري: النشر، ٨/١ - ابن حجر: تهذيب، ٢٣١/٢ - ٢٣٦.

(٢) محمد بن سيرين الأنصاري، مولى انس بن مالك، كان أبوه من سبي عين التمر، فشراه انس ثم كاتب، فنشأ محمد في كنف أنس رضي الله، تابعي ثقة جليل مأمونًا متقنًا ضابطًا صادقًا عدلاً كثير العلم عابدًا ورعًا رفيعًا، كان أمام وقته، من الحفاظ، معبرًا للرؤيا. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان رضي الله عنه، و(ت ١١٠هـ) بعد الحسن بمئة يوم. (انظر عنه/ مكي بن أبي طالب: نفس المصدر، ص١٠٤ - ابن كثير: البداية ط٤، ٢٧٩/٩ - ابن الجزري: نفس المصدر والجزء والصفحة - ابن حجر: نفس المصدر، ١٩٠/٩ - ١٩٢).

(٣) عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفي، الإمام القدوة العابد، تابعي ثقة، علم مروان بن محمد في حياة أبيه وبطلبه، ثم تركه، وقدم على الخليفة عمر بن عبدالعزيز ولزمه وكان له مكانته عنده وقيل: أنه وفد عليه في جماعة فناظروه في الإرجاء، فزعموا أنه وافقهم، وكان عون مرجئا ثم ترك الإرجاء. (ت بين ١١٠ - ١٢٠هـ). (انظر عنه/ الذهبي: سير ١٠٣/٥ - ١٠٥ - ابن حجر: تهذيب، ١٥٣/٨ - ١٥٤).

(٤) مسلم بن جندب الهذلي، أبو عبدالله، المدني، تابعي من الطبقة الثانية من أهل المدينة، ثقة صالحًا فصيحًا كبير القدر، تولى القضاء وكان لا يأخذه عليه رزقًا (ت بعد ١١٠هـ على خلاف). (انظر عنه/ ابن أبي طالب: نفس المصدر، ص١٠٠ - ابن الجزري: نفس المصدر، ٨/١ - ابن حجر: نفس المصدر، ١١٢/١٠ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة النبوية، ص٩٥).

لا يهمزون، حتى همز ابن جندب فهمزوا، كلمة [مستهزئين]، و[يستهزئ بهم]».

وطلحة بن مصرف[1]، الإمام الحافظ المقرئ المجود، شيخ الإسلام، كانوا يسمونه سيد القراء، وكان من أقرا أهل الكوفة وخيارهم، قال العجلي: «اجتمع القراء في منزل الحكم بن عتبة فاجتمعوا على أن طلحة أقرأ أهل الكوفة». وكان قد تلا على يحيى بن وثاب وغيره. فلما شهر بالقراءة، كره الشهرة، وأراد أن ينسلخ عنه ذلك بعد إجماع أهل الكوفة انه أقرأ من بها، فذهب إلى الأعمش يقرأ عليه. يقول أبوخالد الأحمر: «فسمعت الأعمش يقول: كان يأتي فيجلس على الباب حتى أخرج فيقرأ، فما ظنكم برجل لا يخطئ ولا يلحن»، وكان يعلم القرآن.

والجراح بن عبدالله الحكمي[2] – أمير أرمينية من قبل الخليفة يزيد – كان من القراء العابدين، والأبطال الشجعان قتل في حربه مع الخزر (سنة ١١٢هـ)[3].

وشهر بن حوشب[4]، قرأ القرآن على ابن عباس وغيرها من الصحابة. عن شهر قال: «عرضت القرآن على ابن عباس سبع مرات». وعن أبي نهيك قال: «قرأت القرآن على ابن عباس، وابن عمر وجماعة، فما رأيت أحدًا أقرا من شهر بن حوشب».

ومن القراء أبوجعفر الباقر[5]، السيد الإمام، كان تاليًا لكتاب الله، كبير الشأن، ولكن

---

(١) طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب، اليامي الهمداني الكوفي، أبومحمد، ثقة فاضلاً زاهدًا دائم الحزن، شهد الجماجم ولم يقاتل، وكان عثمانيًا. (مات أواخر سنة ١١٢هـ على خلاف). (انظر عنه/ الذهبي: سير، ١٩١/٥ – ١٩٣ – ابن حجر: تهذيب، ٢٣/٥ – ٢٤).

(٢) انظر ترجمته قبل: ص ٢٦٤.

(٣) الذهبي: نفس المصدر، ١٨٩/٥ – ١٩٠.

(٤) شهر بن حوشب، أبوسعيد الأشعري الشامي، مولى أسماء بنت يزيد الأنصارية، كان من كبار التابعين، عالمًا عابدًا ناسكًا، ثقة ثبتًا، وتكلم فيه البعض، والاحتجاج به مترجح. (ت ١١٢هـ على خلاف). (انظر عنه: الذهبي: نفس المصدر، ٣٧٢/٤ – ٣٧٨ – ابن كثير: البداية، ط٤، ٣١٥/٩ – ٣١٦).

(٥) محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، العلوي الفاطمي، المدني أبوجعفر الباقر، تابعي جليل كبير القدر، وأحد أعلام هذه الأمة، وهو أحد الأئمة الأثنى عشر الذين تدعيهم طائفة الشيعة، ولم يكن الرجل على منوالهم ولا على طريقتهم ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم. وشهر بالباقر من: بقر العلم، أي شقة فعرف أصله وخفيه، كان أحد من جمع بين العلم والعمل =

لا يبلغ في القرآن درجة ابن كثير ونحوه، قال فيه مالك بن أعين:

إذا طلب الناس علم القرآ ن كانت قريش عليه عيالاً

وعطاء بن أبي رباح[1]، الإمام شيخ الإسلام، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، وقد روى القراءة عن أبي هريرة، وعرض عليه أبوعمرو.

وجعثل بن هاعان[2]، كان من القراء التابعين، بعثه عمر بن عبدالعزيز إلى المغرب ليقرئهم القرآن.

ومنهم عبدالرحمن بن هرمز[3]، الإمام الحافظ الحجة، المقرئ، كان احد من برز في القرآن، وقام على المصحف بعد الصحابة، وجود القرآن وأقرأه. وقد أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما وغيرهما، لكن معظم روايته عن أبي هريرة، وروى القراءة عنه عرضًا نافع بن أبي نعيم وغيره. وكان يكتب المصاحف ولا يوكل

= والسؤدد، والشرف، والثقة، و الرزانة، وكان أهلاً للخلافة. وكان أبوجعفر إمامًا مجتهدًا، ومناقبه كثيرة، ولد (سنة ٥٦هـ على خلاف، وتوفى سنة ١١٤ هـ على الصحيح). (انظر عنه: الذهبي: سير، ٤/٤٠١ - ٤٠٩ ابن كثير: البداية، ط٤، ٣٢١/٩ - ابن حجر: تهذيب، ٣١١/٩ - ٣١٣).

(١) عطاء بن أبي رباح واسم أبي رباح أسلم، الفهري القرشي مولاهم، المكي، أحد كبار التابعين الثقات الرفعاء، عالمًا، فاضلاً، عابدًا ورعًا، كان معلم كتاب، وكان له مجلس علم. ولد باليمن زمن عثمان وقيل عمر رضي الله عنهما، و(ت ١١٤ هـ على الصحيح). (انظر عنه/ مكي بن أبي طالب: التبصرة، ص١٠١ - الذهبي: نفس المصدر، ٨٧/٥ - ٨٨ - ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٣١٧ - ٣١٨ - ابن حجر: نفس المصدر، ١٧٩/٧ - ١٨٣).

(٢) أبو سعيد جعثل بن هاعان بن عمير الرعيني، ثم القتباني المصري، تابعي ثقة، ولاه هشام قضاء الجند بإفريقية وتوفي في أول خلافته قريبًا من (سنة ١١٥ هـ). (انظر عنه/ الدباغ: معالم الإيمان، ٢٠٢/١ - ابن حجر: نفس المصدر، ٦٨/٢ - ٦٩).

(٣) عبدالرحمن بن هرمز الأعرج المدنين مولى ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، تابعي ثقة عالمًا، من أصحاب أبي هريرة، عالمًا بالأنساب والعربية، ارتحل إلى مصر في آخر عمره، ومات مرابطًا بالأسكندرية (سنة ١١٧هـ) وقد جاوز الثمانين. (انظر عنه/ مكي بن أبي طالب: نفس المصدر، ص١٠٠ - الذهبي: نفس المصدر، ٦٩/٩ - ٧٠ - ابن الجزري: النشر، ٨/١ - ابن حجر: نفس المصدر، ٢٦٠/٦ - ٢٦١ سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٩٦).

بكتابتها إلا من كان موثوقًا حافظ أمينًا.

ومن القراء قتادة بن دعامة[1]، روى القراءة عن أبي العالية وأنس بن مالك، وروى عنه أبوأيوب وشعبة وأبوعوانة، وكان يدرس القرآن في رمضان، يقول أبوعوانة «شهدت قتادة يدرس القراءة في رمضان». وكان عاكفًا عليه، يقول سلام بن أبي مطيع: «كان قتادة يختم القرآن في سبع، وإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث، فإذا جاء العشر ختم كل ليلة»، وكان من علماء الناس بالقرآن.

ويزيد بن رومان المدني[2]، القارئ، العالم، قرأ القرآن على عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، وقرأ عليه نافع بن أبي نعيم.

وعطية بن قيس[3]، الإمام القانت، مقرئ دمشق مع ابن عامر، وكان قارئ الجند، عرض على أم الدرداء، وعرض عليه جماعة، يقول عبدالواحد بن قيس: «كانوا يصلحون مصاحفهم على قراءة عطية بن قيس وهم جلوس على درج الكنيسة» حيث كان له دار قبلي كنيسة لليهود.

محمد بن مسلم الزهري (ت ١٢٤ هـ) وردت عنه الرواية في حروف القرآن، فيذكر أن عثمان بن عبدالرحمن الوقاصي قد روى عنه الحروف، وكان يرى جواز التقديم والتأخير في القرآن، وله قراءته المميزة المروية عن انس، فكان قد قرأ على

---

(١) قتادة بن دعامة بن عزيز، السدوسي، البصري، حافظ العصر وأحد علماء التابعين والأئمة العاملين، حافظًا متعلمًا فاضلاً متقنًا، ثقة ثبت مأمون، امتدحه أحمد ابن حنبل ونشر علمه، وقد رمي بالقدر، وكان رأسًا في العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها، ولد سنة ٦١هـ و(ت ١١٧هـ على خلاف). (انظر عنه/ مكي بن أبي طالب: التبصرة، ص١٠٤ – الذهبي: سير، ٢٦٩/٥ – ٢٨٣ – ابن كثير: البداية، ط٤، ٣٢٥/٩ – ٣٢٦ – ابن حجر: تهذيب، ٣١٥/٨ – ٣١٩).

(٢) يزيد بن رومان الأسدي أبوروح المدني، مولى آل الزبير، من رواة الحديث الثقات. مات (١٣٠هـ). (ابن حجر: نفس المصدر، ٢٨٤/١١).

(٣) عطية بن قيس الكلبي الدمشقي، وقيل الحمصي، قيل أنه فيمن غزا القسطنطينية زمن معاوية، وهو تابعي وكان لأبيه صحبة، وهو أسن أقرانه وأكبر من ابن عامر، ولد سنة ٧هـ على خلاف، و(ت ١٢١هـ على خلاف أيضًا). (انظر عنه/ الذهبي: نفس المصدر، ٣٢٤/٥ – ٣٢٤ – ابن حجر: نفس المصدر، ٢٠٣/٧ – ٢٠٤).

أنس بن مالك وعرض عليه نافع بن أبي نعيم. ومع أنه قد أقام بالشام مدة طويلة فإننا لا نجد له اتصال بقرائها كابن عامر، وعطية بن قيس، ويحيى بن الحارث. ولعل ذلك لعدم اعتباره متخصصًا في هذا العلم، وكونه رواية للعلم[1].

وبلال بن سعد السكوني[2]، الإمام الرباني، شيخ أهل دمشق كان قارئ أهل الشام جهير الصوت، وكان إمام جامع دمشق فكان إذ كبر سمع صوته من الأوزاع – من قرى دمشق القريبة – وتبين قراءته من العقبة.

ويزيد بن القعقاع[3]، القارئ، احد القراء العشرة، قرأ على مولاه عبدالله بن عياش، وأبي هريرة، وابن عباس رضي الله عنهم، وقرأ عليه نافع، وطائفة، كان يقرئ قبل وقعة الحرة، وعلم القرآن منذ زمن معاوية رضي الله عنه، أخبر عن نفسه: «انه كان يقرئ قبل الحرة، وكان يمسك المصحف على مولاه، قال: وكان – يعني مولاه ابن عياش – من أقرأ الناس وكنت أرى كل ما يقرأ، وأخذت عنه قراءته». وتصدر للأقراء بالمدينة مدة طويلة، وكان يجلس في مسجد النبي ﷺ، وكان لا يتقدمه احد في عصره، وكان يصلي خلف القراء – الأئمة – في صلاة التراويح في رمضان يلقنهم إذا أخطاوا، مأمورًا بذلك، وكان إمام أهل المدينة في القراءة.

ومنهم أبو إسحق السبيعي[4]، الإمام الحافظ، شيخ أهل الكوفة، كان من القراء، قرأ

---

(1) مكي بن أبي طالب: التبصرة، ص١٠٠ – خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٤٤ – ٤٥.

(2) بلال بن سعد بن تميم السكوني الدمشقي، تابعي ثقة، لأبيه صحبة، وهو من الزهاد العباد، العلماء الوعاظ وكان لأهل الشام كالحسن البصري لأهل العراق، (ت نيف وعشر ومئة وقيل وعشرين، على خلاف). انظر عنه/ الذهبي: سير، ٥/٩٠ – ٩٣ – ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٣٦٢ – ٣٦٤ – ابن حجر: تهذيب، ١/٤٤١ – ٤٤٢).

(3) أبوجعفر يزيد بن القعقاع، المدني، نزر في رواية الحديث لكنه أمام في الإقراء، وقد صلى بابن عمر رضي الله عنه، ذكر أن أم سلمة رضي الله عنها مسحت على رأسه ودعت له، وكان عابدًا زاهدًا. (ت ١٢٧هـ وقيل ١٣٢هـ) عن نيف وتسعين سنة. (انظر عنه/ الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٢٨٧ – ٢٨٨ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٩٦).

(4) عمرو بن عبدالله أبوإسحق السبيعي، الكوفي، تابعي ثقة، من العلماء العاملين، طلابة للعلم، كبير القدر، من الغزاة العباد، وحفظة العلم. وقد تزوج امرأة الحارث الأعور فوقعت إليه كتبه. ولد =

عليه حمزة بن حبيب عرضًا، وكان يقرأ القرآن في كل ثلاث.

ومن القراء أيضًا، عثمان بن عاصم بن حصين[1]، الإمام الحافظ، كان يُقرأ عليه في مسجد الكوفة خمسين سنة، وقال عن نفسه: «أنا أقرأ من الأعمش».

وشيبة بن نصاح[2]، القارئ، كان إمام أهل المدينة في القراءات في زمنه، وأبوجعفر يزيد بن القعقاع، وقد أدرك عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، ودعتا الله أن يعلمه القرآن، وقد خلف أبا جعفر القارئ بعد وفاته في الوقوف خلف الأئمة في رمضان لتلقينهم إذا أخطأوا. وهو احد شيوخ نافع، وقدم ليصلي على سكينة بنت الحسين بن علي بعد موتها لفضيلة القرآن، وهو أول من ألف في الوقوف، وكتابه مشهور كما يقول ابن الجزري.

ومالك بن دينار[3]، علم العلماء الأبرار، من أعيان كتبة المصاحف، وكان يكتب المصاحف بالأجرة ويتقوت بأجرته، وكان يقرئ الناس وله أسلوبه، عن مالك قال: «أن الصديقين إذا قرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة، ثم يقول: خذوا، فيتلوا، ويقول اسمعوا إلى قول الصادق من فوق عرشه».

ومن القراء محمد بن المنكدر[4]، الإمام الحافظ القدوة، شيخ الإسلام، كان من

= في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه، و(ت ١٢٧هـ وقيل ١٢٨هـ) عن ٩٣ سنة. (انظر عنه/ الذهبي: سير، ٥/٣٩٢ - ٤٠١).

(١) أبوحصين عثمان بن عاصم بن حصين، الأسدي الكوفي، ثقة صالحاثبتا، شيخا عاليًا، صاحب سنة، وكان عثمانيًا، (ت ١٢٨هـ على خلاف). (انظر عنه/ الذهبي: سير ٥/٤١٢ - ٤١٧).

(٢) شيبة بن نصاح بن سرجس المخزومي، المدني القارئ، مولى أم سلمة، كان قاضيًا بالمدينة، وهو ثقة، وهو أسن من نافع، (ت ١٣٠هـ)، (انظر عنه/ ابن حجر: تهذيب، ٤/٣٣٠ - ٣٣١ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٩٧).

(٣) مالك بن دينار السلمي الناجي، مولاهم، البصري، من ثقات التابعين، الزهاد، الأبرار، العباد، (ت ١٣١هـ على خلاف). (انظر عنه/ الذهبي: نفس المصدر، ٥/٣٦٢ - ٣٦٤ - ابن حجر: نفس المصدر، ١٠/١٣ - ١٤).

(٤) محمد بن المنكدر بن عبدالله القرشي التيمي المدني، ثقة حجة، صالحًا عابدًا زاهدًا، ولد سنة بضع وثلاثين و(ت ١٣٠ أو ١٣١هـ). (انظر عنه/ الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٣٥٣ - ٣٦١).

سادات القراء، قال مالك: «كان ابن المنكدر سيد القراء»، وكان له مجلس يجتمع عنده القراء فيه والصالحون، يطعمهم الطعام، وكان غاية في الاتقان والحفظ.

ومن القراء أيضاً أيوب السختياني[1]، الإمام الحافظ، سيد العلماء، كان من القراء المتقنين، وكان يؤم أهل مسجده في شهر رمضان.

ويونس بن ميسرة[2]، عالم دمشق، كان يقرئ القرآن في جامع دمشق.

ويتبين من عرضنا لمشاهير القراء في هذه الفترة، أن هذا العلم كان قد تجرد له مجموعة كبيرة من العلماء في أقطار الدولة الاسلامية المختلفة، فعنوا به، وعكفوا عليه يتعلمونه وينشرونه. ومما يميز هذه الفترة ظهور عدد من أئمة القراءة السبعة، الذين خدموا هذا العلم، فكان لهم قراءاتهم المميزة، وغدوا أئمة يقتدى بهم ويؤخذ باختياراتهم.

وإن لوحظ قلة ذكر من ألف في هذا الفن، فإن ذلك لا يعني عدم التأليف فيه، بل لعل الكثير منهم كتب ودون، ولكنها قد تكون أجزاء أو صحفاً، كما دونت الكتب، وقد أشرنا إلى بعض ذلك، ومما يذكر في هذا الصدد، كتاب يحيى ابن الحارث الذماري، وكتاب خالد بن معدان، وقد دونا في عدد آي القرآن، ذكر ذلك ابن النديم، ولابن عامر كتابان في القراءات، ذكرهما ابن النديم الاول هو «كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق»، والثاني «في مقطوع القرآن وموصوله»، وبلاشك أن هناك كتباً أخرى ألفت في هذا العلم على يد أولئك الأئمة العلماء[3].

---

(١) أيوب السختياني، أبوبكر بن أبي تميمة كيسان، العنزي مولاهم، البصري، سيد شباب البصرة، العالم، العابد، ثقة ثبتاً، لا يسأل عن مثله، حجة، عدلاً، فاضلاً، صاحب سنة، زاهدًا من الأخيار، ناصحًا للعامة، إليه المنتهى في الإتقان، جامعًا للعلم، ولد سنة ٦٨هـ، و(ت ١٣١هـ). (الذهبي: سير، ٦/١٥ - ٢٦).

(٢) يونس بن ميسرة من حلبس الجبلاني، الأعمى، شامي تابعي ثقة، كان من خيار الناس وعبادهم، له كلام نافع في الزهد والمعرفة، طال عمره فبلغ ١٢٠ سنة، وقتل على يد المسودة عندما دخلت دمشق (١٣٢هـ). (انظر عنه/ الذهبي: نفس المصدر، ٥/٢٣٠ - ابن حجر: تهذيب، ١١/٣٩٤ - ٣٩٥).

(٣) خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٤٦.

التفسير:

كانت نشأة علم التفسير[1] في عصر الرسول ﷺ، أول مفسر للقرآن الكريم، وقد اقترن التفسير في عصره، ﷺ، بالوحي، حيث كان جبريل عليه السلام ينزل بالآيات ومعها تفسيرها، فلم يكن ﷺ يفسر القرآن برأيه، ولم يفسر منه إلا القليل، كما نهى عن التفسير بغير علم[2].

وأخذ الصحابة هذا العلم وغيره عن رسول الله ﷺ، حيث تتلمذوا عليه، واهتدوا بهديه، وقد اشتهر بعضهم بهذا العلم، كعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وأبي هريرة، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم[3].

ثم أتى بعد الصحابة التابعون، الذين رأوا الصحابة وسمعوا منهم، وتتلمذوا عليهم، فصار تفسيرهم مرجعًا، واعتد به، بحكم صلتهم بالصحابة، وابن تيمية في مقدمته عن أصول التفسير يبين طرق التفسير بأنها: «تفسير القرآن بالقرآن، وإلا فبالسنة، فاذا لم نجد فنرجع إلى قول الصحابي، وإلا فآراء التابعين»[4].

وكان قد قامت في الأمصار المختلفة مدارس علمية، أساتذتها الصحابة وتلاميذها التابعون، أشتهر بعضها بالتفسير، فكان أشهرها في عهد التابعين، مكة، والمدينة

---

(1) التفسير في اللغة الإيضاح، ومنه قوله تعالى: [ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا] (الفرقان: ٣٣).
واصطلاحًا: هو علم بأصول، يعرف به معاني كلام الله تعالى، أو يبين ألفاظ القرآن ومفهوماتها. (انظر: محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ١٣/١ – ١٤ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٠١).

(2) من أجل ذلك، انظر/ عبدالله محمود شحاته: القرآن والتفسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، ص١٠٤ – السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ص٤٠١ – خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٤٧ وما بعدها – والمعلومات أشمل، انظر أيضًا/ محمد الذهبي: نفس المرجع.

(3) سعد الموسى: نفس المرجع، ص١٠١ – السيد عبدالعزيز سالم: نفس المصدر والصفحة – أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٤٩.

(4) خليل الزرو: نفس المرجع، ص٥٤ – ٥٥.

والعراق، قال ابن تيمية: «وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل زيد بن أسلم، الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضًا ابنه عبدالرحمن، وعبدالله بن وهب»(١).

وسنعرض في الصفحات التالية لمشاهير المفسرين(٢) في الأقطار الإسلامية المختلفة إبان فترة هذه الدراسة وفق التسلسل الزمني لوفياتهم.

ويأتي في مقدمتهم، مجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ)(٣)، الإمام شيخ المفسرين، وأحد تلاميذ ابن عباس، أخذ التفسير عن أستاذه وغيره، وكان أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير، وكان أوثقهم، لهذا اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما، بينما لم يأخذ بتفسيره آخرون، لأنهم كانوا يرونه يسأل أهل الكتاب، إلا أنه لم يكن هناك من يطعن عليه في صدقه، قال قتادة: «أعلم من بقي بالتفسير مجاهد»، وقال خصيف: «كان مجاهد اعلمهم بالتفسير»، وقال سفيان الثوري: «خذوا التفسير من أربعة: مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك». وقد بلغ هذه المكانة، بعد ملازمة طويلة لشيخه، وسؤال دائم، وحرص على التعلم فهمًا وتدوينًا فقد عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وقيل: ثلاث مرات يسأله عن كل آية، يقول مجاهد عن نفسه: «عرضت القرآن

---

(١) محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١/١٠٠ – ١٠١ – عبدالله محمود شحاته: القرآن والتفسير، ص٩٥ – ٩٦ (وذكر أسماءاشهر تلاميذ هذه المدارس. وممن ذكره غير من ذكره محمد الذهبي في فترة البحث، عامر الشعبي وقتادة بن دعامة السدوسي، والحسن البصري، من تلاميذ مدرسة العراق، ومحمد بن كعب القرظي من مدرسة المدينة تلميذ أبي بن كعب).

(٢) تميز علماء المسلمين الأوائل بسعة العلم و التضلع في فروعه المختلفة، فنجد عالمًا قد اشتهر بالقراءات، لكنه ذو نصيب في علم التفسير، وله باع في الحديث، وقد يكون من رجال اللغة، وعلماء الأنساب والعارفين بالأيام والمغازي، وهكذا. لذا فإننا قد نواجه مفسرًا كنا قد ذكرناه بين القراء، ولعلنا نلقاه محدثًا وفقيهًا أيضًا. ومن هنا اكتفينا بالترجمة للعالم عند ذكره لأول مرة، فإذا ما ذكر في علم آخر، أوردنا عنه المعلومات الخاصة بالعلم الجديد، ووثقنا المعلومة من مصادرها، وقد نحيل القارئ إلى الترجمة أن وجدنا ما يدعو لذلك.

(٣) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٥.

على ابن عباس ثلاثين مرة». وفي رواية أخرى: «عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، وفي رواية أخرى: «عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أقفه عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت». كما دون التفسير عن ابن عباس، يقول ابن أبي مليكة في ذلك: «رأيت مجاهدا يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه الواحه، فقال ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله. وقد أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة، وهو ثقة بلا مدافعة، وإن صح انه كان يسأل أهل الكتاب، فما يظن أنه تعدى حدود ما يجوز له من ذلك»[1].

ويقال أن أول من دون في التفسر مجاهد، وتفسيره غير موجود، والصحيح انه ممن دون في التفسير، لكنه لم يكن أولهم، حيث ذكر آخرون سبقوه إلى تدوين التفسير[2]، ثم يعقب السيد أحمد خليل[3] على ذلك، بأن مجاهد كان راويا عن ابن عباس فتفسيره رواية لتفسير ابن عباس. ونستدرك نحن هذا القول، بأنه ليس من اللازم أن يكون التفسير المنسوب إلى مجاهد، هو عينه الرواية التي أشارت المصادر إلى أن مجاهد دونها عن ابن عباس، فلعله دون تفسيرًا آخر معتمدًا فيه على ما دونه عن ابن

---

(1) من أجل ذلك، (انظر: الذهبي: سير، ٤/٤٤٩ - ٤٥٧ - ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٢٣٢ - محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١/١٠٤ - ١٠٥ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص٢٠٤ - ٢٠٥، ١٧٤ - عبدالله محمود شحاته: القرآن والتفسير، ص٩٥ - الشيخ محمد الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة التاسعة، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م، ص١١٦).

(2) أشار ابن النديم إلى تدوين ابن قدامة الثقفي (ت ٦١ هـ) في التفسير، كما دون سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ) لعبدالملك بن مروان (ت ٨٦هـ) كتابًا في التفسير، وهناك تفسير أبي العالية رفيع بن مهران (ت ٩٠هـ)، ولعل هناك غيرهم لم يردنا شيء عنهم، ولم تصلنا تفاسيرهم، وفي هذا دلالة على أن هناك من دون في التفسير قبل مجاهد بن جبر. (عن ذلك انظر/ السيد أحمد خليل: نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن، والوكالة الشرقية للثقافة بالإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م، ص٤٣ - ٤٤ - خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٥٧ - عبدالله محمود شحاته: نفس المرجع، ص٩٢، ١٠٤ - ١١٢ - محمد خفاجي: الحياة الأدبية في عصر بني أمية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعةا لثانية، ١٩٧٣م، ص٣١).

(3) نفس المرجع، ص٤٣ - ٤٤.

عباس وغيره من علماء الصحابة الذين أدركهم.

وعكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٥هـ)[١]، العلامة الحافظ المفسر البحر، طلب العلم أربعين سنة، وكان ابن عباس يقيده ويعلمه القرآن والسنن، فكان أكثر تلاميذه رواية عنه قال الشعبي: «ما بقى احد أعلم بكتاب الله من عكرمة». وقال قتادة: «... وأعلمهم بالتفسير عكرمة»، وقال الثوري «خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك»، وكان واسع العلم بالقرآن، زعم أنه لا يخفي عليه شيء منه، وكان يحث الناس على سؤاله، ويزيدهم على ما سألوا، وقال عن نفسه: «لقد فسرت ما بين اللوحتين» فكان كما وصف من بحور العلم والعلماء الربانيين والمفسرين المكثرين، وكان كثير الترحال بين الأقطار، فنشر علمه في البلاد التي حل بها، وكان العلماء يعرفون قدره، فمنهم من يمسك عن التعليم إذا حل عليه عكرمة، ويترك ذلك له، حيث يذكر أن الحسن البصري، كان إذا قدم عكرمة البصرة، أمسك عن التفسير والفتيا.

ولعل في هذه الأقوال ما يشهد لمكانته العلمية، وبخاصة في التفسير، ولا عجب في ذلك، بعد ما علمناه من ملازمته لمولاه ابن عباس، وحرص مولاه على تعليمه، فكان وارث علم ابن عباس والحائز على إعجابه وثقته وتقديره لفهمه، حتى أذن له بالفتيا في حياته، والأكثر من ذلك ما ذكر من أنه قد بين لابن عباس بعض ما أشكل عليه من القرآن، لهذا لم يخل تفسير من التفاسير بالمأثور من رواياته وتفسيره، وقد ذكر ابن النديم وغيره، أن له كتاب في التفسير[٢].

والضحاك بن مزاحم الهلالي[٣]، أحد أوعية العلم، كان إمامًا في التفسير، وله باع

---

(١) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٥.

(٢) من أجل ذلك، (انظر: ابن كثير: البداية، ط٤، ٢٥٤/٩ - ٢٦٠ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٠١ - ١٠٣ - محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١٠٧/١ - ١١٢ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص٢٠٤ - ٢٠٥).

(٣) الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبوالقاسم، ويقال أبومحمد، الخراساني، تابعي جليل، روى الحديث عن غير أنه قيل: لم يصح له سماع من الصحابة. وثقة أحمد وابن حبان، وقال ابن سعيد القطان: كان ضعيفًا، وكان ببلخ وسمرقند ونيسابور، وكان يعلم الصبيان حسبة (ت ١٠٥ أو ١٠٦هـ). =

كبير فيه، وعرف به. قال الثوري: خذوا التفسير عن أربعة، مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك، قيل: لقي ابن عباس، وقيلك لم يلقه، وإنما لقي سعيد بن جبير بالري فأخذ عنه التفسير، وهذا أصح، كما أخذ التفسير من غيره من التابعين، فلم يشافه أحدًا من الصحابة، وأما روايته عن ابن عباس وأبي هريرة وجميع من روى عنهم من الصحابة ففي ذلك كله نظر.

وطاووس بن كيسان اليماني[1]، كان عالمًا متقنًا خبيرًا بكتاب الله تعالى، فقد أدرك كثيرًا من الصحابة وأخذ عنهم ثم انقطع إلى ابن عباس، وكان من خاصة تلاميذه، فأخذ عنه التفسير، أكثر مما أخذ عن غيره[2].

وممن ذكرت لهم مشاركات في علم التفسير، وبعضهم لا يقل باعًا من المشاهير، سالم بن عبدالله بن عمر (ت ١٠٥هـ)، وعبيد بن حنين (ت ١٠٥هـ)، والقاسم بن محمد بن أبي بكر (ت ١٠٧هـ)[3].

ومن مشاهير المفسرين، الحسن البصري (ت ١١٠هـ)[4]، فقد كان عالمًا جامعًا، غزير العلم بكتاب الله. قال حصاد بن سلمة عن حميد: «قرأت القرآن على الحسن ففسره على الإثبات» يعني إثبات القدر، وفي ذلك كان يقول: «من كذب بالقدر فقد كفر»، وينسب إلى الحسن تفسير للقرآن رواه عنه عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة، وانتفع به الثعالبي (ت ٧٢٧هـ)[5].

= (عن ترجمته وما أوردناه عنه/ الذهبي: سير، ٥٩٨/٤ – ٦٠٠ – ابن كثير: البداية، ط ٤، ٢٣١/٩ – ابن حجر: تهذيب، ٢٩٧/٤ – ٢٩٨ – اليافعي: مرآة، ٢٤٢/١).

(١) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٦.

(٢) محمد الذهبي: التفسير والمفسرون ١١٢/١ – ١١٣ – عبدالله محمود شحاته: القرآن والتفسير، ص٩٥ – ٩٦.

(٣) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٠٦.

(٤) انظر ترجمته قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص١٥٧.

(٥) محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١٢٤/١ – ١٢٥، ١٤٤ – عبدالله محمود شحاته: نفس المرجع، ص٩٥ – ٩٦ – بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية، عبالحليم النجار =

ومحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبوجعفر الباقر (ت ١١٤هـ)[١]، السيد الإمام العالم العامل كبير الشأن، عالي المكانة.

يقول سعد الموسى[٢]: إلا انه حسب قول الإمام الذهبي: «لا يبلغ في القرآن درجة ابن كثير ونحوه، ولا في الفقه درجة أبي الزناد، وربيعة، ولا في الحفظ ومعرفة السنن درجة قتادة وابن شهاب، فلا نحابيه ولا نحيف عليه ونحبه في الله لما تجمع فيه من صفات الكمال، وله في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال، وذكر أن له تفسير رواه عنه أحد الشيعة الزيدية».

ومن المفسرين، عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ)[٣]، وهو من تلاميذ ابن عباس، والمتتبع للرواة عن ابن عباس يجد أن عطاء لم يكثر الرواية كما أكثر غيره، ويجد مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة يسبقونه من ناحية العلم بتفسير كتاب الله لكن هذا لا يقلل من قيمته بين علماء التفسير، ولعل إقلاله في التفسير يرجع إلى تحرجه من القول بالرأي، فقد قال عبدالعزيز بن رفيع: سئل عطاء عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: الا تقول فيها برأيك؟ قال: إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأيي[٤].

وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ)[٥]، حافظ العصر وقدوة المفسرين، عالم حجة، صدوقًا عدلاً، إلا أنه كان يرى القدر. قال احمد بن خليل: «كان قتادة عالمًا بالتفسير وباختلاف العلماء، ثم وصفه بالفقه والحفظ، واطنب في ذكره وقال قلما تجد من يتقدمه». وقد كان رأسًا في العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها، واسع الإطلاع في الشعر العربي، على مبلغ عظيم من العلم، ومن هنا جاءت شهرته في التفسير فكان

= (الثلاثة الأجزاء الأولى)، والسيد يعقوب بكر ورمضان عبدالتواب (الثلاثة أجزاء الأخيرة) دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١/٢٥٧.

(١) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٩.

(٢) الحياة العلمية في المدينة، ص١٠٣ - محمد خفاجي: الحياةالادبية في العصر الأموي، ص٣١.

(٣) انظر ترجمته قبل: ص ٤٨٠.

(٤) محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١/١١٣ - ١١٤ - عبدالله محمود شحاتة: القرآن والتفسير، ص٩٥ - ٩٦.

(٥) انظر ترجمته قبل: ص ٤٨١.

من علماء الناس في القرآن. قال أبوعمرو بن العلاء: حسبك قتادة، ولولا كلامه في القدر، وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا ذكر القدر فأمسكوا»[١] ما عدلت به أحدًا من أهل دهره. وكان قتادة يدرس القرآن في رمضان، وكان لا يقول برأيه، قال أبوهلال: «سألت قتادة عن مسألة، فقال: لا أدري، فقلت: قل فيها برأيك، قال: ما قلت برأي منذ أربعين سنة، وكان يومئذ له نحو من خمسين سنة. قلت: فدل على أنه ما قال في العلم شيئًا برأيه»[٢].

ومن المفسرين عبدالرحمن بن هرمز الأعرج (ت ١١٧هـ)[٣].

ومن مشاهيرهم أيضًا، محمد بن كعب القرظي[٤]، الإمام العلامة، أحد أئمة التفسير وأوعية العلم، كان عالمًا بتفسير القرآن وتأويله، قال عون بن عبدالله: «ما رأيت أحدًا أعلم بتأويل القرآن من القرظي». ووصفه العجلي: بأنه عالم بالقرآن». وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «يخرج من أحد الكاهنين رجل يدرس القرآن دراسة لا يدرسها أحد يكون من بعده» والكاهنان قريظة والنضير، قال ربيعة: فكنا نقول هو محمد بن كعب. وظل يتدارس التفسير، حتى مات بمسجد الربذة - من قرى المدينة، على مسيرة ثلاثة

---

(١) ونص الحديث كاملاً: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وذا ذكر القدر فأمسكوا». أخرجه الطبراني في الكبير ٧٨/٢ - وأبونعيم في الحلية، ١٠٨/٤. وفي إسناده نظر وقال ناصر الدين الألباني عنه ما ملخصه: روى هذا الحديث من طرق كلها ضعيفة الأسانيد ولكن بعضها يشد بعضًا، وقد وجدت للحديث شاهدًا مرسلاً أخرجه عبدالرزاق في الأمالي بسند صحيح لولا إرساله، ولكنه مع ذلك شاهد قوي لما قبله من الشواهد والطرق وخاصة الطريق الأول، فقوى الحديث به. (ولمعلومات أوسع، انظر: السلسلة، ٤٢/١ وما بعدها).

(٢) من اجل ذلك، (انظر/ الذهبي: سير، ٢٦٩/٥ - ٢٨٣ - ابن كثير: البداية، ط٤، ٣٢٦/٩ - محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١٢٥/١ - ١٢٦ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص٢٠٥).

(٣) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٠٦.

(٤) محمد بن كعب القرضي، أبوحمزة المدني، الإمام العلامة الصادق، تابعي، ثقة، عدل، صالحًا، عابدًا، ورعًا، من أفضل أهل المدينة، مجاب الدعوة، كبير القدر. قيل ولد في حياة الرسول ﷺ، ولم يصح ذلك، وقيل: ولد في آخر خلافة علي رضي الله عنه (سنة ٤٠هـ)، و(ت ١١٧هـ على خلاف). (انظر عنه/ الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٦٥ - ٦٨ - ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٦٨ - ٢٧٠ - ابن حجر: تهذيب، ٣٧٣/٩ - ٣٧٤).

أيام منها – مع جلسائه من جراء سقوط المسجد عليهم على أثر زلزلة حدثت، وقد ذكر أن محمد بن كعب ممن صنف كتابًا في التفسير(١).

وممن ساهم في إثراء علم التفسير، محمد بن مسلم الزهري (ت ١٢٤هـ)(٢)، فقد اضطلع بتفسير بعض الآيات القرآنية من ذلك تفصيل مواضع الصدقات في الأصناف الثمانية التي ذكرها الله تعالى في آية الصدقات، وهي قوله عزوجل: [إنما الصدقات للفقراء والمساكين... الآية](٣)، وذلك بأمر من الخليفة عمر بن عبدالعزيز، فبين له ذلك(٤).

ومن مشاهير المفسرين، إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة السدى(٥)، الإمام المفسر بالقرآن، قال العجلي عنه: «ثقة عالم بالتفسير»، ومر إبراهيم النخعي بالسدى وهو يفسر، فقال: «إنه ليفسر تفسير القوم»، لكن الشعبي يجهله، إذ يقول عبدالله بن حبيب بن أبي ثابت: «سمعت الشعبي، وقيل له أن السدى أعطى حظًا من علم القرآن فقال: إن إسماعيل قد أعطى حظًا من الجهل بالقرآن». قال الذهبي: «ما أحد إلا وما جهل من علم القرآن أكثر مما علم، وقد قال إسماعيل بن أبي خالد: كان السدى أعلم بالقرآن من الشعبي رحمهما الله». ولعل إسماعيل السدى كان ممن يفسر القرآن بالرأي، فرأى الشعبي ذلك جهلاً، لانه كان لا يتجرأ على التفسير، ولا يفسر برأيه»(٦). وقد حكى عن أحمد: «أنه ليحسن الحديث – يعني السدى – إلا انه هذا التفسير الذي

---

(١) ابن حجر: تهذيب، ٩/٣٧٣ – ٣٧٤ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٠٣ – ١٠٤ – محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١/١١٦.

(٢) انظر ترجمته قبل: ص ٦٣.

(٣) التوبة: ٦٠.

(٤) خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٥٥ – محمد الحسيني: الحياة العلمية في الدولة الإسلامية، ص١٣٠ – سعد الموسى: نفس المرجع، ص١٠٧.

(٥) إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة السدى، مولى قريش، الكوفي، روى عن أنس وابن عباس وعطاء وعكرمة وغيرهم، ورأى ابن عمر والحسن بن علي و أبي هريرة وغيرهم، ثقة صدوق، وتكلم فيه بعضهم، (ت ١٢٧هـ). (انظر عنه/ الذهبي: سير، ٥/٢٦٤ – ٢٦٥ – ابن حجر: نفس المصدر، ١/٢٧٣ – ٢٧٤).

(٦) انظر ما سنكتبه حول ذلك في الصفحات التالية.

يجيء له، قد جعل له إسنادًا واستكلفه»، وقول احمد يبين أن السدى اعتمد منهج الإسناد في التفسير كالمحدثين، وتكلف في ذلك.

وممن أسهم في التفسير، محمد بن المنكدر (ت ١٣٠هـ)، وأبوالزناد عبدالله بن ذكوان (ت ١٣١هـ)[١].

أولئك ثلة من أئمة التفسير في تلك الحقبة من الزمن، وقلما تجد عالمًا من الأوائل لا يدلي بدلوه في كثير من العلوم المختلفة، وما ذلك إلا لسعة إطلاعهم وتبحرهم في العلوم، إلا أن من كبار العلماء من كان يعظم تفسير كتاب الله، فيتوقف عنه ولا يتجرأ عليه، تورعًا واحتياطًا لأنفسهم، مع إدراكهم وتمكنهم وتقدمهم، من هؤلاء عامر الشعبي (ت ١٠٩هـ)[٢] الذي مع ما رزقه من وافر النصيب من العلم، لم يكن جريئًا على كتاب الله ليقول فيه برأيه، بل كان يتحرج ويتوقف عن إجابة سائليه إذا لم يكن عنده شيء عن السلف، وقد أخرج الطبري عن الشعبي أنه قال: والله ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله. وأخرج عنه أيضًا: ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأي. لذا وجدنا الشعبي ناقدًا لرجال التفسير في عصره، وكثيرًا ما يصرح بالطعن على من لا يعجبه مسلكه في التفسير من معاصريه، فقد ذكر أبوحيان: أن الشعبي كان لا يعجبه تفسير السدى[٣]، ويطعن عليه وعلى أبي صالح، لأنه كان يراهما مقصرين في النظر، وروى ابن جرير أن الشعبي كان يمر بأبي صالح باذان، فيأخذ بإذنه فيعركها ويقول: تفسر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن، ومر على السدى وهو يفسر فقال له: لأن تضرب على استك بالطبل خير لك من مجلسك هذا[٤].

ويتضح من ذكرنا لمفسري هذه الفترة، أن علم التفسير حظى باهتمام العلماء، فنبغ فيه جماعة منهم، عنوا به، ونشروه، ودونوا فيه، وأبرز مدارسه في هذه الفترة مكة

---

(١) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٠٧.

(٢) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٧.

(٣) انظر نقد الشعبي له في الصفحة السابقة.

(٤) محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١٢٣/١ (ولم يكن الشعبي وحده يتوقف عن التفسير بالرأي، فقد ورد معنا خلال حديثنا في الصفحات السابقة، أن من مشاهير المفسرين من كان لا يقول برأيه، وممن ذكرنا، عطاء بن أبي رباح، وقتادة بن دعامة السدوسي).

والمدينة والعراق، ثم يأتي الشام ومصر، أما الأقاليم الشرقية وأرمينية وأفريقية والأندلس، فلم تكن الحركة العلمية بشكل عام قد تبلورت فيها، لقرب عهدها بالفتح، لهذا لا تمدنا المصادر بمعلومات شافية عن علمائها، وهذا لا يعني خلوها من أي نشاط علمي، فقد كان قد استقر بها بعض العلماء بعد حركة الفتح، وعنوا بنشر الدين وتعليم مبادئه. كما رحل إليها آخرن من المراكز العلمية المشهورة، فنقلوا إليها العلوم وقاموا بالتدريس فيها. من ذلك – على سبيل المثال لا الحصر – ارتحال عكرمة إلى افريقية، وتصدره للتدريس في جامع القيروان، عندما جاء إلى افريقية واستوطنها لبعض الوقت، وليس ثمة شك في أن التفسير كان أحد العلوم الذي علمها هناك، وهو المفسر المبرز[1].

كما عرفنا أن تفسيرهم للقرآن كان بالمأثور، إلا ما ذكر عن بعضهم من أعمالهم الرأي في التفسير كأبي جعفر الباقر الذي كان له فيه أقوال وآراء، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم. كما رجع بعضهم إلى أهل الكتاب كمجاهد، وكان القول بالرأي والاعتماد على أهل الكتاب مدعاة نقد لمن أخذ به، فتحرج منه الكثير من المفسرين وتوقفوا عنه، وكان بعضهم لا يفسر إلا بشيء من الأثر، كالشعبي[2].

ومما يذكر أن علم التفسير في هذه الفترة، كان فرعًا من علم الحديث، وممزوجًا بالفقه والسيرة، فظهر في مجاميع الحديث وبجانب موضوعات الفقه والسيرة، حيث كان التفسير لآيات مبعثرة متفرقة، غير مرتبة حسب السور والآيات، إلا تفسير ابن عباس الذي يشك في نسبته إليه، فحركة علم التفسير ظهرت منذ فجر الإسلام، وتدوينه حدث منذ القرن الأول إلا أن ظهور التفسير كعلم مميز، وشامل لكل القرآن وفق ترتيب سوره وآياته، قد جاء في العصر العباسي، لذلك قالوا: أن واضع التفسير مالك بن انس (ت ١٧٩هـ)، بمعنى جامعه لا مدونه، وأول تفسير للقرآن كاملاً وصل إلينا هو تفسير مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ)، بينما وصل إلينا بعض مدونات التفسير الأثري

---

(١) عن تصدي عكرمة للتدريس في جامع القيروان، (انظر / يوسف حوالة: الحياة العلمية في افريقية، ص١٠٧ – ١٠٨، ٤١٤).

(٢) اتضحت هذه الأمور من خلال حديثنا عن مشاهير المفسرين في الصفحات السابقة.

القديمة، كتفسير يزيد بن هارون السلمي (ت ١١٧هـ)[١].

وفي عصر التابعين، ازداد التفسير بالإسرائيليات والنصرانيات، لكثـرة مـن دخـل منهم في الإسلام، وميل النفوس لسماع التفاصيل مما يشير إليه القرآن من أخبار عـن اليهود والنصارى، وأخبار بدء الخليقة، وأسرار الوجود، وبدء الكائنـات، وكثيـر مـن القصص، فأخذ المفسرون دون تحر أو نقد عن مسلمي أهل الكتاب، كعبدالله بن سـلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبدالملك بن عبدالعزيز بـن جـريج، ولعـل تسـاهل المسلمين في الأخذ عنهم، لأنه لا يترتب على ما يحكى عنهم استنباط حكـم شـرعي أو نحوه، ولاشك أن هذا الأمر مأخوذ على التابعين كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم[٢].

كما تأثر التفسير بظهور الفرق والخلاف المذهبي، فنجد الحسن البصـري يفسـر القرآن على إثبات القدر، بينما يتهم قتادة بن دعامة السدوسي بأنه قـدري، ولاشـك أن هذا أثر على تفسيره، وكان بعض الناس يتحرج من الرواية عنه لذلك، وأخـذت بعـض الفرق تفسر القرآن وفق معتقداتهم، فنجد محمد بن مسلم الزهري، يرد على السبأية في قولهم بالرجعة اعتماد على قوله تعالى: [إن الذي فرض عليـك القـرآن لـرادك إلـى معاد][٣]، فقال لهم: معاده يوم القيامة[٤].

وفي هذا العصر احتفظ التفسير بطابع التلقي و الرواية لكنه لم يكن تلقيًا بـالمعنى الشامل كما هو في عصر الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، بـل غلـب عليـه رواية علماء كل مصر عن أمام مصرهم، فالمكيون عن ابن عباس، والمدنيون عن أبـي بن كعب، والعراقيون عن ابن مسعود... وهكذا، كما ظهر الاختلاف بينهم في التفسـير،

---

(١) من أجل ذلك، انظر/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ٥٠٣/١ – السيد أحمد خليل: نشأة التفسير، ص٤٣ – ٤٤ – عبدالله محمود شحاته: القرآن والتفسير، ص٩٢، ١٠٤ – ١١٢ – بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٧/٤.

(٢) من أجل ذلك، (انظر: أحمد أمين: فجر الإسلام، ص٢٠٥ محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١٣٠/١ – خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٥٨).

(٣) القصص: ٨٥.

(٤) عن ذلك، (انظر: محمد الذهبي: نفس المرجع و الجزء، ص١٣١ – خليل الزرو: نفس المرجع، ص٥٥).

وإن عد قليلاً بالنسبة لمن جاء بعدهم من متأخري المفسرين[١].

الحديث[٢]:

كان عمر بن عبدالعزيز قد أمر بجمع السنة[٣] وتدوين الحديث وتعليمه ونشره، وبعث إلى الأمصار ما ألف من ذلك في عهده[٤]، فهل كان عهد يزيد استمرارًا لتلك الحركة، وما موقف علماء عهده منها؟

في الواقع أننا لم نلحظ على المستوى الرسمي في عهد يزيد بن عبدالملك اثر لأمر عمر بن عبدالعزيز في هذا الشأن، ولعل خلفه يزيد، لم يأبه بذلك، وإن كنا لا نملك ما يفيد توقف العمل بما أمر به عمر بن عبدالعزيز. فقد يكون الباب الذي فتحه عمر لتدوين الحديث بشكل رسمي، قد ظل مفتوحًا، ولكن بعيدًا عن توجيه الدولة، وإشرافها، وعونها.

أما أهم آثاره على المستوى العام، وفي أوساط العلماء وطلاب العلم، فتخفيف كراهة التدوين، ومن ثم زوالها، فلم يكن تدوين عمر للحديث مطلع القرن الثاني نهاية حاسمة لكراهة الكتابة وإباحتها، كما قال محمد الخطيب[٥] ولكنه خفف الكراهة، خصوصًا أن ذلك الأمر قد جاء من أمير المؤمنين، العالم، والذي مما لا شك فيه أنه لم

---

(١) محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١/١٣٠ - ١٣١.

(٢) الحديث: هو ما أضيف إلى النبي ﷺ، من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خلقية أو خلقية. (انظر: محمد الخطيب: المنة قبل التدوين، ص٢١ - ٢٢ - خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٦٠ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٠٩).

(٣) لم تكن السنة مرادفة للحديث في القرنين الأولين للهجرة، وإنما كانت أعم في مدلولها عند الفقهاء، بحيث شملت الأحكام المستنبطة، مما أضيف إلى النبي ﷺ، ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب فهي عندهم الطريقة المتبعة في الدين من غير افتراض ولا وجوب. وهي عند علماء أصول الفقه: ما يصلح أن يكون دليلاً لحكم شرعي مما صدر عن رسول الله ﷺ غير القرآن. أما عن المحدثين: فترادف الحديث، وتطلق أحيانًا عند المحدثين وعلماء أصول الفقه، على ما عمل به أصحاب رسول الله ﷺ، سواء كان ذلك في الكتاب أم المأثور عن النبي ﷺ، أو غير ذلك. (انظر: خليل الزرو: نفس المرجع، ص٥٩ - محمد الخطيب: نفس المرجع، ص١٦ - ١٩).

(٤) انظر ما أوردناه عن أمر عمر هذا، قبل: التمهيد، ص ٣٦ - ٣٧.

(٥) نفس المرجع، ص٣٣٣.

يتخذ قراره ذلك دون استشارة أهل العلم و الرأي[1]. وهو الخليفة الذي سار بالخلافة على سيرة الراشدين، كما أنه قد توافر من الأسباب في تلك الفترة ما جعل تدوين الحديث والسنن ضرورة ملحة، من ذلك وفاة كثير من حفاظ الحديث والسنن، وكثرة الوضع في الحديث، واستطالة السند، وانقطاع الأحاديث، ووجود المجاهيل في الأسانيد، وعدم تدوينها في القرن الأول بشكل شامل ومتكامل، مما دعا عمر بن عبدالعزيز إلى أمره بتدوينها، و استجابة العلماء لأمره، خصوصًا بعد إدراكهم لتلك الأسباب واطمئنانهم لرسوخ القرآن في القلوب[2].

لكن الكراهة مع ذلك استمرت عند بعض العلماء، فها هو الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٥هـ أو ١٠٦هـ) الذي أباح الكتابة سابقًا، وحث عليها، والذي أملى مناسك الحج على تلاميذه[3]، يقول: «لا تتخذوا للحديث كراريس ككراريس المصاحف».

وفي رواية: «يأتي الناس زمان يعلق فيه المصحف حتى يعشعش عليه العنكبوت لا ينتفع بما فيه، وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث» كره ذلك عندما رأى إقبال الناس على الكتابة، وجعل الحديث في دفاتر وكراريس. كما كره ذلك الزهري، الذي فيما يبدو كان مكرهًا على كتابة الحديث، إذ يقول: «كنا نكره كتاب العلم، حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء فرأينا إلا نمنعه أحدًا من المسلمين»، ومما يدل على استمرار كراهته لذلك حتى بعد كتابته الحديث بأمر عمر، قوله بعد أن أمره هشام بن عبدالملك، أن يكتب للبنيه، إذ خرج وأملى على الناس الحديث، وقال: «استكتبني الملوك، فأكتبتهم،

---

(1) صبحي الصالح: علوم الحديث ومصطلحه، عرض ودراسة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٧١م ص٤٤ – ٤٥.

(2) من أجل ذلك انظر / فوزي رفعت: توثيق السنة في القرن الثاني الهجري أسسه واتجاهاته، رسالة مطبوعة، مكتب الخانجي، بمصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص٦٣ – ٧١ – حسن علي الشاذلي: المدخل للفقه الإسلامي، ص٢٢٠ – خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٦٦ – ٦٧، ٧١، ٧٥ – ٧٦ – السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٤٠١.

(3) صبحي الصالح: نفس المرجع، ص٤٧ – ٤٨.

ستحيت الله إذ كتبتها للملوك ألا أكتبها لغيرهم»[1].

كما اشتهر القاسم بن محمد (ت ١٠٧هـ)، الذي أمره عمر بجمع ما عنده من مرويات عن عائشة رضي الله عنها، القول بكره التدوين[2].

كما كان بعض العلماء يوصي بكتبه بعد موته إلى أحد العلماء خشية وقوعها في ير مواضعها.

فقد أوصى أبوقلابة (ت ١٠٤هـ) إلى أيوب السختياني (ت ١٣١هـ) فجئ بها في دل بعير[3].

ويبدو أن العلماء أدركوا خطورة بعض الأسباب الملحة والداعية إلى التدوين، منها الوضع، فكان ذلك دافعًا لهم للكتابة بعد كراهتها. يقول الزهري: «لولا أحاديث أتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها ما كتبت حديثًا ولا أذنت في كتابة»[4].

كما نجد من بين العلماء في هذه الفترة من يرد على كارهي الكتابة، حيث نرى يوب السختياني (ت ١٣١هـ) يقول: «يعيبون علينا الكتاب ثم يتلو [علمها عند ربي في تاب]» ونجد لقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٨هـ) إجابة للسائل عن كتابة الحديث، ول كقول أيوب السابق[5].

ولعل أمر عمر بن عبدالعزيز بتدوين السنة، والأسباب الداعية لذلك، وتغير مواقف بعض العلماء وآرائهم نحو الكتابة، قد أدى إلى زوال ذلك الخلاف، وأجمع المسلمون على تسويغ ذلك، وإباحته، حيث انضم مانعوا الكتابة إلى التيار العام الذي كان أقوى منهم، فاعتمدت الكتابة كوسيلة هامة لحفظ الحديث والسنة[6]. وقد أدى هذا إلى تأليف

---

(١) محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٣٣ - ٣٣٤ - خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٧٦ - ٧٧.

(٢) صبحي الصالح: علوم الحديث، ص٤٧.

(٣) محمد الخطيب: نفس المرجع، ص٣٣٥، ٣٤٥.

(٤) خليل الزرو: نفس المرجع، ص٧٥ - ٧٦ - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٤٠١.

(٥) محمد الخطيب: نفس المرجع، ص٣٣٦ - ٣٣٧، ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٦) محمد الخطيب: نفس المرجع، ص٣٣٥ - ٣٣٧.

أعدادًا كثيرة من الكتب، وشاع التدوين، حتى ندر ألا نرى لأحد العلماء تصنيفًا أو جامعًا. وممن شارك في التصنيف في هذه الفترة، محمد الزهري، الذي حملت كتبه على الدواب، عندما أخرجت من خزائن الوليد بن يزيد بعد مقتله[1].

وخالد بن معدان (ت ١٠٤هـ)، الذي قال بعضهم أنه أول من كتب الحديث، وأن علمه كان في مصحف له أزرار وعرى، والصحيح أن أول من دون الحديث رسميًا هو الزهري (ت ١٢٤هـ) كما أنه لم يكن أول المدونين شخصيًا فقد سبقه الكثير منذ عهد المصطفى عليه السلام[2].

ورجاء بن حيوة (ت ١١٢هـ)[3]، كما ألف محمد العامري (ت ١٢٠هـ) كتابًا سماه الموطأ، جمع فيه الأحاديث لتكون أساسًا للفقه، وكانوا يفضلونه على موطأ مالك، وعابوا عليه أنه لم يصحح عقد الرجال[4]، ويحيى بن أبي كثير (ت ١٢٩هـ)[5].

ويدل على انتشار التدوين والجمع، قراءة التلاميذ على أساتذتهم، وإملاء الأساتذة عليهم، يقول الوليد بن أبي السائب: رأيت مكحول (ت ١١٢هـ) ونافعًا (ت ١١٧هـ) وعطاء (ت ١١٤هـ) تقرأ عليهم الأحاديث، ويقول عبيدالله بن أبي رافع: «رأيت من يقرأ على الأعرج عبدالرحمن بن هرمز (ت ١١٧هـ)، حديثه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، فيقول: «هذا حديثك يا أباداود؟ قال: نعم «كما كان نافع مولى ابن عمر (ت١١٧هـ) يملي على طلابه وهم يكتبون بين يديه[6].

وقد كانت طريقة علماء هذا العصر في التدوين – كالزهري – أنهم يخصون كل مؤلف بباب من أبواب العلم يجمعون فيه الأحاديث المتناسبة، مختلطة بأقوال الصحابة

---

(١) محمد الخطيب: السنة في التدوين، ص٣٥٥.

(٢) محمد الخطيب: نفس المرجع، ص٣٦٢ – ٣٦٤ – خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٧٦ – ٧٧. الزرو: نفس المرجع، ص٧٦ –٧٧.

(٣) خليل الزرو: نفس المرجع و الصفحة – محمد الخطيب: نفس المرجع، ص٣٢٧.

(٤) محمد خفاجي: تاريخ الأدب في العصر الأموي، ص١٧.

(٥) محمد الخطيب: نفس المرجع، ص٣٥٧.

(٦) محمد الخطيب: نفس المرجع، ص٣٢٧ – ٣٢٨.

وفتاوى التابعين[1].

وسنعرض في الصفحات التالية لذكر بعض أشهر المحدثين الذين زخرت بهم تلك الفترة[2]، وفي ثنايا ذلك سنرى جهودهم وشيء من سمات هذا العلم آنذاك، والتي سنحاول الخلوص إليها وتحديدها بعد ذكر هؤلاء العلماء، وهم:

وأبو قلابة عبدالله بن زيد[3]، الإمام شيخ الإسلام، من أئمة الهدى، كثير الحديث، كان يكتب حديثه، فترك مجموعة كبيرة من الكتب، يقول مالك: «مات ابن المسيب والقاسم ولم يتركوا كتبًا، ومات أبو قلابة، فبلغني أنه ترك حمل بغل كتبًا». وقد أوصى بكتبه لأيوب السختياني، فحملت إليه قال أيوب: «فلما جاءتني الكتب أخبرت ابن سيرين، و قلت له أحدث منها؟ قال نعم، ثم قال: لا آمرك ولا أنهاك». لكنه كان لا يكثر من الحديث في المجلس الواحد. يقول خالد الحذاء كان أبوقلابة إذا حدثنا بثلاثة أحاديث، قال: قد اكثرت، وكان يدلس ويرسل، وهو ثقة.

وطاووس بن كيسان (ت ١٠٦هـ)[4]، العالم الحافظ، حديثه في دواوين الإسلام، وكان يعد الحديث حرفًا حرفًا، وقال لحبيب بن أبي ثابت: «إذا حدثتك الحديث، فأثبته لك، فلا تسألن عنه أحدًا». وهو ثقة صدوقًا، حجة باتفاق[5].

---

(١) حسن الشاذلي: المدخل للفقه الإسلامي، ص٢٢٢.

(٢) اخترنا مجموعة من مشاهير المحدثين، والذين قد يكون بعضهم علماء مبرزين في بعض العلوم الأخرى، وتركنا جماعات أكثر منهم، قد لا يقل بعضهم عمن ذكرنا شهرة ودورا في خدمة هذا العلم وحفظ حديث رسول الله ﷺ، خشية الإطالة، ولأن الهدف من ذكرهم هو تلمس معالم وسمات هذا العلم والتأريخ له في ضوء ذلك.

(٣) أبوقلابة عبدالله بن زيد الجرمي البصري، كان من أئمة الهدى الفقهاء، تابعي صالح، وكان يحمل على علي ولم يرو عنه شيئا، ذو لب وعلم، هرب من القضاء ونزل داريًا، (ت ١٠٤ على الأرجح). (انظر عنه: الذهبي: سير، ٤/٤٦٨ - ٤٧٥ - ابن كثير: البداية، ط٤ ٩/٢٤٠ - ابن حجر: تهذيب، ٥/١٩٧ - ١٩٩ - أبوزرعة تاريخ أبي زرعة، ١/٦٩٣ - ٦٩٤).

(٤) انظر ترجمته قبل: ص٤٧٦.

(٥) انظر عنه: الذهبي: نفس المصدر، ٥/٣٨ - ٤٩ - ابن كثير: نفس المصدر، ط٤، ٩/٢٤٤ - ٢٥٣ - ابن حجر: نفس المصدر، ٥/٨ - ٩.

وعمرة بنت عبدالرحمن[1]، يقول الذهبي: «كانت عالمة، فقيهة، حجة، كثيرة العلم». من أعلم الناس بحديث عائشة رضي الله عنها، لذا كتب الخليفة عمر بن عبدالعزيز الى ابن حزم أن يكتب له أحاديث عمرة، عندما أمر بتدوين الحديث والسنن[2]. كما كانت رحمها الله من أوعية العلم وبحر لا ينزف، وحديثها كثير في دواوين الإسلام، وهي ثقة.

والقاسم بن محمد بن أبي بكر (ت ١٠٧هـ)[3]، كان من أعلم الناس بالسنة، يقول أبوالزناد: «ما رأيت أحد أعلم بالسنة منه ولا أحد ذهنًا». فقد كان يحدث بالحديث على حروفه وكان مع عروة بن الزبير وعمرة أعلم الناس بحديث عائشة، لذلك كان عمر بن عبدالعزيز قد أمر ابن حزم أن يكتب حديث القاسم عندما أمر بتدوين الحديث والسنن[4]، وكان كثير الحديث، ثقة[5].

وعامر الشعبي (ت ١٠٩هـ)[6] الحافظ المحدث، كان واحد زمانه في فنون العلم، قوي الحفظ لا يكتب، قيل أنه سمع الحديث من مئة وخمسين صحابيًا إلى جانب كثير من التابعين، رواه عن ذاكرته ولم يدون حرفًا، يقول عاصم: «ما رأيت أحدًا أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز من الشعبي». وقال مكحول: «ما رأيت أحد أعلم بسنة ماضيه منه». وعن مكحول أيضًا: «ما رأيت أعلم من الشعبي» ويبدو أنه ندم على الإكثار من الرواية، فقد روى عنه قوله: «كره الصالحون الأولون الإكثار من الحديث ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ما حدثت إلا بما أجمع عليه أهل الحديث. وكان ثقة

---

(١) عمرة بنت عبدالرحمن بن سعد بن زرارة الأنصارية المدنية، تربت في حجر عائشة رضي الله عنها وتتلمذت عليها، قيل لأبيها صحبة وجدها من قدماء الصحابة وأخو النقيب أسعد بن زارة. (ت ١٠٦هـ على خلاف). (انظر عنها / الذهبي: سير، ٤/٥٠٧ – ٥٠٨ – ابن حجر: تهذيب، ١٢/٤٦٦).

(٢) انظر ذلك قبل: التمهيد، ص ٣٦.

(٣) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٦.

(٤) من اجل أمر عمر، انظر قبل: التمهيد، ص ٣٦.

(٥) ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٢٦٠ – ٢٦١ – ابن حجر: نفس المصدر، ٨/٢٩٩ – ٣٠١ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة النبوية، ص١٢٧.

(٦) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٧.

صادق الرواية»[1].

ومحمد بن سيرين (ت ١١٠هـ)[2]، الإمام الحافظ كثير العلم كان يحدث بالحديث على حروفه، وقد حفظ منه الكثير، ثقة، صادقًا، متقنًا ضابطًا، مأمونًا، وكان يحث تلاميذ على التثبت في تحمل الحديث، ويقول: «أن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذونه»[3].

الحسن البصري (ت ١١٠هـ)[4]، كان عالمًا جامعًا، ثقة، حجة، مأمونًا صاحب سنة، لم يطلب الحديث في صباه، ومع جلالته كان يدلس، وما أرسله ليس بحجة، وقد كان يروي بالمعنى. قال أبوزرعة الرازي: «كل شيء، قال الحسن: قال رسول الله ﷺ، وجدت له أصلاً ثابتًا ما خلا أربعة احاديث»[5].

ورجاء بن حيوة (ت ١١٢هـ)[6] كان يأتي بالحديث على حروفه قال ابن عون: «كان إبراهيم والشعبي والحسن، يأتون بالحديث على المعاني، وكان القاسم وابن سيرين ورجاء يعيدون الحديث على حروفه». إمامًا، عالمًا، كثير الحديث أثنى عليه غير واحد من الأئمة ووثقوا روايته[7].

وعطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ)[8]، كان مفتي أهل مكة ومحدثهم، عالم كثير

---

(١) انظر عن ذلك: ا(الذهبي: سير، ٢٩٤/٤ – ٣١٩ – ابن كثير: البداية، ٢٣٩/٩ – ٢٤٠ – ابن حجر: تهذيب، ٥٧/٥ – ٦٠ – محمد الخطيب: السنة قبل التدوين ص٣٢٣، ٥٥٢ – ٥٥٣ – محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١٢١/١ – ١٢٤ – فيليب حتى: تاريخ العرب، ٣١١/١).

(٢) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٨.

(٣) انظر عنه: ابن كثير: نفس المصدرط٤، ٢٧٩/٩ – ابن حجر: نفس المصدر، ١٩٠/٩ – ١٩٢ – محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٥٢٦.

(٤) انظر ترجمته قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص ١٠٨.

(٥) الذهبي: نفس المصدر، ٥٦٣/٤ – ٥٨٨ – ابن حجر: نفس المصدر، ٢٣١/٢ – ٢٣٦.

(٦) انظر ترجمته قبل: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص ٣٥٢.

(٧) الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٥٥٧ – ٥٦١ – ابن كثير نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٣١٥ – ابن حجر: نفس المصدر، ٢٢٩/٣ – ٢٣٠.

(٨) انظر ترجمته قبل: ص ٤٨٠.

الحديث، كان كثير الحديث، كان يدلس، ومرسلاته ضعيفة، وهو ثقة[١].

ونافع مولى ابن عمر (ت ١١٧هـ)، عالم المدينة، كثير الحديث، قال عنه البخاري: «أصح الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر». ولمكانته وعلمه بعثه عمر بن عبدالعزيز إلى مصر ليعلمهم السنن. قد دون نافع صحيفة سمعها من عبدالله بن عمر، كان يعطيها لتلاميذه ليقرأها، إمامًا، حافظًا، ثقة، ثبتًا، صحيح الرواية، متفق عليه[٢].

قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ)[٣]، الإمام العالم الحافظ قدوة المفسرين والمحدثين، كان يؤدي الحديث كما سمعه، وكان يؤدي الحديث كما سمعه، وكان يحفظ صحيفة جابر بن عبدالله، ثقة، مأمونًا حجة في الحديث بالإجماع إذا بين السماع، ثبتًا، متقنًا، وكان مدلسًا على قدر فيه، وضعف المديني أحاديثه عن سعيد بن المسيب[٤].

سعيد بن أبي سعيد المقبري[٥]، الإمام المحدث، كان من أوعية الحديث، وحديثه مخرج في الصحاح، كثير الحديث. وهو ثقة صدوق، وقال أحمد: ليس به بأس، لكنه اختلط قبل موته بأربع سنوات، يحسبه الذهبي لم يرو شيئًا في مدة اختلاطه، وليس له مناكير، وقد روى عنه الأئمة والثقات[٦].

وأبوبكر بن محمد بن حزم (ت ١٢٠هـ)[٧]، أحد الأئمة الأثبات، كان كثير الحديث،

---

(١) الذهبي: سير، ٧٨/٥ – ٨٨ – ابن كثير: البداية، ط٤، ٣١٧/٩ – ٣١٨ – ابن حجر: تهذيب، ١٧٩/٧ – ١٨٣.

(٢) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١١٣ – ١١٤.

(٣) انظر ترجمته قبل: ص ٤٨١.

(٤) الذهبي: نفس المصدر، ٢٦٩/٥ – ٢٨٣ – ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٣٢٦ – ابن حجر: نفس المصر، ٣١٥/٨ – ٣١٩.

(٥) سعيد بن أبي سعيد، واسم أبيه كيسان المقبري، أبوسعد مولى بني الليث المدني، ثقة جليل، قدم الشام مرابطًا، وحدث ببيروت، وكان قد تغير وكبر واختلط بأربع سنين، (ت ١٢٠هـ على خلاف). (ابن سعد: الطبقات الكبرى، القسم المتمم، دراسة وتارخي زياد محمد منصور، المملكة العربية السعودية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنور، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص١٤٥ – ١٤٧ – ابن حجر: نفس المصدر، ٣٤/٤ – ٣٥).

(٦) سعد الموسى: نفس المرجع، ص١٤.

(٧) انظر ترجمته قبل: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص ٣٤٠.

ثقة، قال مالك: «كان ولاه عمر بن عبدالعزيز وكتب إليه أن يكتب له العلم من عند عمرة بنت عبدالرحمن والقاسم بن محمد... وزاد غيره فسألت ابنه عبدالله بن أبي بكر عن تلك الكتب فقال ضاعت»[1]. وهذا يعني أن ابن حزم استجاب لأمر الخليفة، ودون حديث عمرة والقاسم في كتب، لكن تلك الكتب ضاعت، وفي ضياعها دلالة أيضًا على أن الخليفة يزيد بن عبدالملك الذي تولى أمر المسلمين بعد عمر بن عبدالعزيز، لم يتابع الاهتمام بعمل عمر على تدوين السنة، فلم يطلبها من ابن حزم الذي بقيت عنده الكتب، فكان مصيرها الضياع كما أخبر ابنه عبدالله.

ومن أشهر المحدثين في تلك الفترة، محمد بن مسلم الزهري (ت ١٢٤هـ)[2] الإمام العالم، حافظ زمانه، عالم الحجاز والشام، والتابعي الثقة، روى عنه عدد من الصحابة وخلق من التابعين، وروى عنه كثيرون، تعلم نسب قومه وشيئًا من الشعر، ثم تحول لدراسة القرآن والحديث والفقه، فدرس على الفقهاء السبعة[3]، وحرص على العلم وجد في طلبه، فكان يدور على العلماء، ومعه الألواح، يكتب فيها كل ما يسمع، ثم يحفظ ذلك، وربما مزق الرقاع التي كتب فيها بعد حفظها، وكان يجمع الحديث وأقوال الصحابة والتابعين حتى فاق أقرانه، وصار أعلم الناس في زمانه، واحتاج أهل عصره إليه، وقد كان قوي الذاكرة شديد الحفظ، لا ينسى ما استودع قلبه. وقد بلغ بذلك منزلة عظيمة، وأضحى من أوعية العلم الجامعين، كثير الحديث والعلم والرواية، عالمًا بالسنة والقرآن والأنساب. قال ابن منجويه: وصار أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقًا لمتون الأخبار، حتى قيل ليس هناك أكثر جمعًا للحديث إذا حدث من الزهري»، وعن عمرو بن دينار: «ما رأيت أحدًا أنص للحديث من الزهري»، وقال الليث بن سعد: ما رأيت عالمًا قط أجمع من ابن شهاب ولا أجمع علمًا منه، لو سمعت ابن شهاب يحدث في الترغيب

---

(١) ابن سعد: الطبقات، القسم المتمم، ص٢٤ – ٢٧ – الذهبي: سير، ٣١٣/٥ – ٣١٤ – ابن حجر: تهذيب، ٤٠/١٢ – ٤٢.

(٢) انظر ترجمته قبل: الفصل الأول، ص ٦٣.

(٣) الفقهاء السبعة هم: سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وسالم بن عبدالله، والقاسم بن محمد، وعروة ابن الزبير، وعبيدالله بن عبداله بن عتبة بن مسعود، وخارجة بن زيد. (انظر: الذهبي: نفس المصدر، ٤٦١/٤).

لقلت لا يحسن إلا هذا.... فإن حدث في القرآن والسنة كان حديثه. وقال الإمام مالك: ما أدركت بالمدينة فقيهًا محدثًا غير واحد فسئل من هو؟ قال: ابن شهاب الزهري. وقيل: أنه لا يعرف له غلط في حديث ولا نسيان مع أنه لم يكن في زمانه أكثر حديثًا منه، وكان أحد الثقات الذين دار عليهم العلم في عهده، وقال الشافعي: لولا الزهري لذهبت السنن من المدينة فوصلت الشام والعراق، وله الإمامة والمكانة والمنزلة بالمدينة حتى أنه عندما يدخل المدينة لا يحدث أحد من العلماء حتى يخرج. وقال الزهري عن نفسه: ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشري، ولا بذله بذلي.

وقد تسنم مكانة عالية في الحديث والسنن. فقد بلغت أحاديثه ألفين ومئتي حديث، النصف منها مسند، وقد جمع حديث الزهري بإتقان واستيعاب في مجلدين، وتعتبر أسانيد الزهري عن سالم عن أبيه من أجود الأسانيد، وكان يقدم في الرواية أبناء المهاجرين و الأنصار على الموالي.

ومع هذه المنزلة والمكانة العلمية الرفيعة، فإن الإمام الزهري قد اتهم من بعض المؤرخين كاليعقوبي وكتاب الشيعة، والمستشرقين، بوضع الحديث لصالح الأمويين مستشهدين بالصلة القوية بينه وبين الخلفاء الأمويين. وقد رد على هذه الاتهامات بعض العلماء، ولا أدل على نزاهة وعدالة الزهري وعدم تأثير تلك العلاقة على صدق حديثه، وسلامة مواقفه، ذلك الحوار الذي دار بينه وبين هشام بن عبدالملك عندما سأله الخليفة هشام عن الذي تولى كبره في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[1]. فقال الزهري: هو عبدالله بن أبي، قال هشام: كذبت هو علي، فقال: أنا أكذب لا أبالك فوالله لو نادى مناد من السماء، أن الله أحل الكذب ما كذبت. أبعد هذا الرد يتهم بالمداهنة والوضع. أما ما قيل من وضعه حديث: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد لعبد الملك بن مروان، حتى يصرف الناس عن البيت الحرام إلى القدس، إبان حركة عبدالله بن الزبير، فإن ذلك قول ساذج لا أساس له من الصحة، إذ أن الزهري كان في تلك الفترة صغيرًا، وأنه لم يصل دمشق إلا سنة ٨٢هـ بعد القضاء على ابن

---

(١) النور: ١١.

الزبير. كما أنه إبان فتنة عبدالله بن الزبير قد حج وفد من بني أمية، أضافه إلى أن الحديث المذكور روى من طرق كثيرة ولم ينفرد به الزهري حتى يتهم به.

وقد أورد الذهبي رأي من أخذ على الزهري صلته بالأمويين، ورد على ذلك، إذ يقول: أن بعض من لا يعتد به لم يأخذ عن الزهري، لكونه مداخلاً للخلفاء، وقال: بأنه أن فعل ذلك فهو الثبت الحجة، وأين مثل الزهري رحمه الله[1].

ولعل تلك المكانة العلمية التي بلغها الزهري، هي التي دعت الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى الاعتماد عليه مع جلة من العلماء كابن حزم في جمع الحديث والسنن، ووضع أول تدوين رسمي لذلك[2].

كما يروى أن هشام بن عبدالملك، حث الزهري على تدوين الحديث، بل قيل أكرهه عليه، وقد أملى على بعض ولد هشام أربعمائة حديث، فأراد هشام أن يختبر حفظه، فقال أنها ضاعت، فأملاها عليهم مرة أخرى، فما غادر حرفًا واحدًا، وعلى كل فقد حملت كتب الزهري على الدواب من خزائن الوليد بن يزيد بعد مقتله، كما قال أحمد بن حنبل: رأيت كتب شعيب بن أبي حمزة – وكان كاتبًا لهشام بن عبدالملك – فرأيت كتبًا مضبوطة مقيدة، وقد كتب شعيب للخليفة هشام كثيرًا بإملاء الزهري عليه[3].

وقد حظى الحديث باهتمام الزهري في جانب هام من جوانب هذا العلم، وهو نقد الحديث[4]. فقد اهتم بالإسناد، وقد تجوز بعضهم فقال: أنه أول من أسند الحديث، وهذا القول لا يسلم به، ويخرج بأنه أول من تمسك به تمسكًا تامًا وتشدد في طلبه كثيرًا في

---

(1) عما أوردناه من الإمام الزهري، (انظر: سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١١٥ – ١٢١).

(2) انظر ذلك قبل: التمهيد، ص ٣٦.

(3) من أجل ذلك انظر: خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٧٦ – ٧٧ – محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٣٤ – ٣٣٥ – حسن علي الشاذلي: المدخل للفقه الإسلامي، ص٢٩٢ – محمد الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي، ص١١٥.

(4) النقد عند المحدثين: هو تمييز الأحاديث الصحيحة من الضعيفة والحكم على الرواة توثيقًا وتجريحًا. (سعد الموسى: نفس المرجع، ص١٢٩).

عهده، أو أنه أول من أسند بالشام، حيث روى عنه أنه قال: يا أهل الشام مالي أرى أحاديثكم ليس لها أزمة ولا خطم. ومع اهتمامه بالإسناد، اهتم بالمتن، فقال: أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله ﷺ ومنسوخه. وقد بين العلائي مكانة الزهري في نقد الحديث، فقال: هو أول من رسخ الكلام في الجرح والتعديل واتصال الاسانيد وانقطاعها، ونقب عن دقائق علم العلل، وأئمة هذا الشأن بعده تبع له في هذا العلم. وعد الزهري واضع أساس علم مصطلح الحديث[١].

فكان الزهري بكل ما تقدم ذكره، من علم وأثر، صاحب الدور الأكبر في خدمة الحديث والسنن في تلك الفترة التي ندرسها، رحمة الله.

ومن أشهر المحدثين أيضًا، أبو اسحق السبيعي (ت ١٢٧ أو ١٢٨هـ)[٢] العالم الحافظ، شيخ الكوفة ومحدثها، روى الحديث عن جمع من الصحابة والتابعين، وعنه خلق كثير، تابعي، ثقة، وكان يدلس، قال أبوداود الطيالسي: وجدنا الحديث عند أربعة: الزهري وقتادة وأبو اسحق والأعمش، وكان أبو إسحق أعلمهم بحديث علي وابن مسعود. وقد كان شيوخه ثلاثمائة وقيل أربعمائة، وكان يشبه الزهري في كثرة الرواية واتساعه في الرجال، وقيل: أنه أحسن حديثًا من مجاهد والحسن وابن سيرين[٣].

ومحمد بن المنكدر (ت ١٣٠هـ)[٤]، الإمام الحافظ، شيخ الإسلام، أجمع النقاد على توثيقه والاحتجاج به لجلالته وحفظه وإتقانه، وكان صدوقًا، صحيح الحديث، وقد بلغت أحاديثه نحو مئتي حديث، قال ابن سعد وابن حجر: قليل الحديث[٥].

وأيوب السختياني (ت ١٣١هـ)[٦]، الإمام الحافظ، سيد شباب البصرة، له نحو ثمانمائة حديث، وقيل: ألفي حديث، وكان حافظًا متقنًا، ثقة، ثبتًا في الحديث، حجة،

---

(١) عن اهتمام الزهري بنقد الحديث، انظر/ سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٣٢ - ١٣٤.

(٢) انظر ترجمته قبل: ص٤٨٢.

(٣) الذهبي: سير، ٣٩٢/٥ - ٤٠١ - ابن حجر: تهذيب، ٥٦/٨ - ٥٩.

(٤) انظر ترجمته قبل: ص٤٨٣.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ٤١٧/٩ - ٤١٩ - سعد الموسى: نفس المرجع، ص١٢٢.

(٦) انظر ترجمته قبل: ص ٤٨٤.

عدلاً، جامعًا كثير العلم، صاحب سنة، لا يسأل عن مثله[١].

وهناك من علماء الحديث، من لا يقل بعضهم عمن ذكرنا علمًا وأثرًا وشهرة، وتمامًا للفائدة نعرض لتعداد بعضهم، في شيء من الإيجاز، تاركين الكثير منهم خشية الإطالة والإسهاب، ومنهم: موسى بن طلحة بن عبيد الله القرشي (ت ١٠٣هـ)، تابعي ثقة كثير الحديث، كان يسمى في زمانه المهدي، من أجلاء المسلمين[٢]. ومصعب بن سعد بن أبي وقاص (ت ١٠٣هـ)، تابعي، ثقة، كثير الحديث[٣]. وعطاء بن أبي يسار الهلالي (ت ١٠٣هـ)، تابعي ثقة كثير الحديث[٤]. وخالد بن معدان الكلاعي (ت١١٣هـ)، تابعي جليل، من الأئمة العلماء المعدودين المشهورين، عن بحير بن سعيد: ما رأيت أحدًا ألزم للعلم منه، كان علمه في مصحف له أزرار وعرى. وكان ثقة[٥]. وقد قيل أنه أول من كتب الحديث وغيره من التابعين في القرن الأول، وجعل ما كتبه مصنفًا مجموعًا في مصحف. والصحيح أنه أول من دون الحديث رسميًا هو بن شهاب الزهري أما التقييد الشخصي فقد سبقهما إليه الكثير منذ عصر الرسالة[٦]. ويزيد بن الأصم (ت ١٠٣هـ)، وكان ثقة كثير الحديث[٧] وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري(ت ١٠٤هـ) التابعي، العالم الحافظ، كان كثير الحديث، ثقة صدوقًا[٨]. ويحيى بن عبدالرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة (ت ١٠٤هـ)، تابعي جليل رفيع القدر عند الناس، ثقة كثير الحديث، كان من محدثي أهل المدينة مع سليمان بن يسار وغيره[٩]. وعامر بن سعد بن أبي وقاص (ت ١٠٤هـ) تابعي، جليل، ثقة مشهور، كثير

---

(١) الذهبي: سير، ١٥/٦ – ٢٦ – ابن حجر: تهذيب، ٣٤٨/١ – ٣٤٩.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ٣١٢/١٠ – ٣١٣.

(٣) ابن حجر: نفس المصدر والجزء، ص١٤٥.

(٤) ابن كثير: البداية، ط٤، ٢٣٢/٩ – ابن حجر: نفس المصدر، ١٩٤/٧ – ١٩٥.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ط١، ٤٥٥/٧ – ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٣٩ – الذهبي: نفس المصدر، ٥٣٦/٤ – ابن حجر: نفس المصدر، ١٠٢/٣ – ١٠٣.

(٦) محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٦٢ – ٣٦٣.

(٧) ابن سعد: نفس المصدر والجزء، ص٤٧٩ – ابن حجر: نفس المصدر، ١١/ ٢٧٣ – ٢٧٤.

(٨) ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٤٠ – ابن حجر: نفس المصدر، ٢١/١٢ – ٢٢.

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ٢١٨/١١.

الحديث[1]. وسعد بن عبيدة السلمي (ت ١٠٤هـ)، ثقة كثير الحديث (توفى في ولاية ابن هبيرة على العراق، ١٠٣ - ١٠٥هـ)[2]. وأبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ)، من كبار التابعين الثقات، قال عمرو بن شعيب: ما رأيت أعلم بحديث ولا فقه من أبان بن عثمان، وهو ثقة، له أحاديث قليلة عن أبيه وغيره[3]. وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب (ت ١٠٦هـ)، وكان ثقة كثير الحديث، عاليًا في الرجال، وقيل أصح الأسانيد: الزهري عن سالم عن أبيه[4]. وسليمان بن يسار الهلالي (ت ١٠٧هـ)، أحد الأئمة الثقات العلماء، مأمونًا، كثير الحديث[5]. وبكر بن عبدالله المزني (ت ١٠٨هـ) تابعي، ثقة، مأمونًا، ثبتًا، حجة، وله نحو خمسين حديثًا[6]. وعمرو بن شعيب بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن العاص (ت ١٠٨هـ)، الإمام المحدث، فقيه أهل الطائف ومحدثهم، ثقة وله مناكير، ولم يحتج به بعضهم[7]. وحفصة بنت سيرين أم الهذيل (ت ١١٠هـ) تابعية، ثقة، حجة، ذات فضل، ولها روايات كثيرة[8]. وأبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين (ت ١١٤ هـ)، تابعي من الأعلام، كان ثقة، كثير الحديث[9]. وعبدالرحمن بن هرمز الأعرج (ت ١١٧هـ)، تابعي، ثقة، كثير الحديث، من أصحاب أبي هريرة رضي الله عنه. وقد كان أحد من برز في القرآن والسنة[10]. وعبدالله بن عبيد الله ابن أبي مليكة التيمي (ت ١١٧هـ)، تابعي، عالم، ثقة، متقن كثير

---

(١) ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٢٣٩ - ابن حجر: تهذيب، ٥/٥٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات، ٦/٢٩٨.

(٣) الذهبي: سير، ٤/٣٥١ - ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٤٣ - ابن حجر: نفس المصدر، ١/٨٤ - ٨٥.

(٤) ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٤٤ - ابن حجر: نفس المصدر، ٣/٣٧٨ - ٣٧٩.

(٥) ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٥٤ - ابن حجر: نفس المصدر، ٤/١٩٩ - ٢٠٠.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ١/٤٢٤ - ٤٢٥.

(٧) الذهبي: نفس المصدر، ٥/١٦٥ - ١٨٠ - ابن حجر: نفس المصدر، ٨/٤٣ - ٤٨.

(٨) ابن كثير: نفس المصدر، ط٤، ٩/٣١٣ - ابن حجر: نفس المصدر، ١٢/٤٣٨.

(٩) الذهبي: نفس المصدر، ٤/٤٠١ - ٤٠٩ - ابن كثير: نفس المصدر، ٩/٣٢١ - ابن حجر: نفس المصدر، ٩/٣١١ - ٣١٣.

(١٠) تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٩٦.

الحديث[1]. ومحمد بن كعب القرظي (ت ١١٧هـ)، تابعي، عالم، ثقة، وكان كثير الحديث[2]. وعبدالرحمن بن سابط الجمحي (ت١١٨هـ). تابعي، من أصحاب ابن عباس، كان كثير الحديث ثقة[3]. وجامع بن شداد المحاربي (ت ١١٨هـ)، له نحو عشرين حديثًا، وهو ثقة متقن، شيخ عال من قدماء شيوخ الثوري[4]. وعاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (ت ١٢٠هـ)، عالم رواية للعلم، ثقة كثير الحديث[5]. ويزيد بن أبي حبيب المصري، (ت ١٢٨ هـ)، الإمام الحجة، كان كثير الحديث، ثقة[6]، وكان أول من وجه المصريين إلى العناية بالحديث، كما عمل على نشره هناك، فقد كان من تلاميذه الليث بن سعد وابن لهيعة، محدثي مصر في عصرهما[7]. وحماد بن أبي سليمان الكوفي (ت ١٢٠هـ)، الإمام العلامة، كان يكتب الحديث، ولا بأس به[8]. ومحمد بن يحيى بن حبان الأنصاري (ت ١٢١هـ)، الإمام الحجة، مجمع على ثقته، كثير الحديث[9]. وعمرو بن دينار الجمحي مولاهم، المكي (ت ١٢٥هـ)، الإمام العلم الحافظ، وشيخ الحرم في زمانه، كان من أوعية العلم والحفاظ المقدمين، ثقة ثبتًا صدوقًا متقنًا، قال ابن عيينة عمرو ثقة ثقة ثقة، وكان كثير الحديث، قال ابن المديني: لعمرو نحو أربع مئة حديث، ولعل ذلك المسند من حديثه، فقد ورد أن ابن عيينة سمع منه تسع مئة وخمسين حديثًا. وقد كان يحدث بالمعنى، ويمنع الكتابة عنه، وقيل كان ينص الحديث، فقد مرض عمرو

---

(1) الذهبي: سير، ٥/٨٨- ٩٠ - ابن حجر: تهذيب، ٥/٢٦٨ - ٢٦٩.

(2) ابن سعد: الطبقات، القسم المتمم، ص١٣٤ - ١٣٧ - ابن كثير: البداية، ٩/٢٦٨ - ٢٧٠ - ابن حجر: نفس المصدر، ٩/٣٧٣ - ٣٧٤.

(3) ابن حجر: نفس المصدر، ٦/١٦٣ - ١٦٤.

(4) الذهبي: نفس المصدر، والجزء، ص٢٠٥ - ٢٠٦ - ابن حجر: نفس المصدر، ٢/٤٩.

(5) ابن سعد: نفس المصدر والقسم، ص١٢٧ - ١٢٩.

(6) الذهبي: نفس المصدر، ٦/٣١ - ٣٣ - ابن حجر: نفس المصدر، ١١/٢٧٨ - ٢٧٩.

(7) علي حسن عبدالقادر: نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٥م، ص١٥٠ - محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص١٧٠ - ١٧١.

(8) الذهبي: نفس المصدر، ٥/٢٣١ - ٢٣٩ - ابن حجر: نفس المصدر، ٣/١٤ - ١٥.

(9) ابن سعد: الطبقات، القسم المتمم، ص١٣١ - ١٣٢ - الذهبي: نفس المصدر، ٥/١٨٦ - ١٨٧ - ابن حجر: نفس المصدر، ٩/٤٤٨ - ٤٤٩.

فعاده الزهري فلما قام الزهري قال ما رأيت شيخًا أنص للحديث الجيد من هذا الشيخ[1]. وسعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف (ت ١٢٥هـ)، الإمام الحجة العدل، كان ثقة كثير الحديث[2]. وثابت بن أسلم البناني المصري (ت ١٢٧هـ) الإمام القدوة شيخ الإسلام، كان من أئمة العلم والعمل، كان محدثًا، له نحو مئتين وخمسين حديثًا، وهو ثقة، ثبت، مأمونًا، ذو أحاديث مستقيمة إذا روى عنه ثقة، وما وقع في حديثه من النكرة إنما هو من الراوي عنه، يعد من أثبت أصحاب انس بن مالك، وكان قد صحبه أربعين سنة[3] وإسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة السدى (ت ١٢٧هـ)، ثقة، كان يكتب حديثه، قال البعض فيه لين، وقيل: لا بأس به[4]. وعبدالله بن دينار (ت ١٢٧هـ)، وكان ثقة كثير الحديث. وبكير بن عبدالله بن الأشج (ت ١٢٧هـ)، أحد الأعلام، ثقة ثبت، مأمون، كثير الحديث[5]، لا يفوقه أحد في الحديث، قال أبوالحسن بن البراء: «لم يكن بالمدينة بعد كبار التابعين أعلم من ابن شهاب، وبكير بن الأشج، ويحيى ابن سعيد»[6].

وأبوحصين عثمان بن عاصم بن حصين الأسدي الكوفي (ت ١٢٨هـ)، الإمام الحافظ، قليل الحديث، لكنه ثقة، ثبت في الحديث، صحيحه شيخًا عاليًا، صاحب سنة، لا يختلف على حديثه[7]، وأبوالزناد عبدالله بن ذكوان (ت ١٣٠هـ)، الإمام الحافظ العالم، كان كثير الحديث، ثقة حجة، صالح الحديث وصاحب سنة، كان سفيان يسميه: «أمير المؤمنين في الحديث»[8] ويزيد بن رومان الأسدي (ت ١٣٠هـ)، وكان عالمًا كثير

---

(١) الذهبي: سير، ٥/٣٠٠ – ٣٠٧ – ابن حجر: تهذيب، ٢٦/٨ – ٢٧.

(٢) الذهبي: نفس المصدر، ٥/٤١٨ – ٤٢١.

(٣) الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٢٢٠ – ٢٢٥ – ابن حجر: نفس المصدر، ٣/٢ – ٤.

(٤) الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٢٦٤ – ٢٦٥.

(٥) ابن سعد: الطبقات، القسم المتمم، ص٣٠٥ – الذهبي نفس المصدر والجزء، ص٢٥٣ – ٢٥٥.

(٦) ابن سعد: نفس المصدر والقسم، ص٣٠٨ – الذهبي: نفس المصدر، ٦/١٧٠ – ١٧٤ – ابن حجر: نفس المصدر، ١/٤٣١ – ٤٣٢.

(٧) الذهبي: نفس المصدر، ٥/٤١٢ – ٤١٧.

(٨) ابن سعد: نفس المصدر، ص٣١٨ – ٣٢٠ – الذهبي: نفس المصدر، ٥/٤٤٥ – ٤٥١.

الحديث ثقة، له باع في القرآن، والفقه، والحديث[1]. وهمام بن منبه الصنعاني (ت ١٣٢هـ)، الذي قال الذهبي عنه: «المحدث المتقن، صاحب تلك الصحيفة التي كتبها عن أبي هريرة، وهي نحو من مئة وأربعين حديثًا»[2]. وقد حدث بها عنه: معمر بن راشد. وهمام ثقة[3].

هؤلاء جلة من أئمة الحديث وعلمائه ممن عاصروا الخليفة يزيد بن عبدالملك، وقدر لبعضهم أن يعيشوا حتى أواخر الدولة الأموية، وهم غيض من فيض، وعسى أن يكون فيمن ذكرنا منهم، وما أوردناه عنهم، ما يعطي صورة جلية لاهتمام علماء المسلمين بعلم الحديث، وما كان عليه هذا العلم آنذاك، ولعلنا في سطور نوجز بعض سماته في تلك الحقبة من الزمن.

فقد تبين لنا أن الحديث والسنن قد دونت مطلع القرن الثاني بأمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز في دفاتر، وقد اعتمد في ذلك على صفوة من العلماء كالزهري وابن حزم، وبعثت تلك الدفاتر إلى الأقطار المختلفة في الدولة الإسلامية كما رافق ذلك دعوة عامة من الخليفة عمر لتدوين الحديث وجمعه، وقد أدى ذلك إلى الاهتمام بجمع الحديث والسنن وتدوينها، فقد كان ذلك الأمر حافزًا مع توفر الأسباب الداعية للكتابة آنذاك، إلى إباحة الكتابة عند بعض العلماء الذين كانوا يكرهون ذلك، وإن استمرت تلك الكراهة عند القلة آخذة في الانحسار تدريجيًا[4].

كما أتضح أن الخليفة يزيد بن عبدالملك لم يتابع مشروع عمر، ولم يهتم بإتمام ما بدأه، فلم نعثر على أي نص يشير إلى شيء في هذا الصدد. بل أن ابن حزم الذي كلفه عمر بتدوين حديث رسول الله ﷺ في المدينة، وجمع ما عند عمرة والقاسم، والذي

---

(١) ابن حجر: تهذيب، ١١/٢٨٤ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٩٦.

(٢) نشر هذه الصحيفة الدكتور محمد حميد الله الهندي الحيدر أبادي عام ١٩٥٣م، في مجلة المجمع العلمي بدمشق، المجلد الثامن والعشرون، ص٩٦ – ١١٦، ٢٧٠ – ٢٨١، ٤٤٣ – ٦٦٦. وقد أعاد نشرها، وحققها وخرج أحاديثها وشرحها، الدكتور رفعت فوزي عبدالمطلب، في كتاب مطبوع بعنوان: صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الذهبي: سير، ٥/٣١١ – ٣١٣.

(٤) انظر: ص ٤٩٦ وما بعدها.

عاجلت المنية الخليفة عمر قبل أن يرى ما كتب، قد ورد الخبر بضياع كتبه تلك[1]. ولعل في ذلك قرينة على أن الكتب بعد وفاة عمر ظلت عنده، مما يعني عدم اهتمام يزيد بذلك، ومتابعته أو طلبه. وأن كنا لا نقطع بعدم وجود أي اهتمام له بهذا العلم، خصوصًا إذا كنا نعرف أن الزهري الذي دون الحديث لعمر، كان على صلة طيبة بالخليفة يزيد، إذ كان الزهري ممن تلقى يزيد العلم على يديه، وحاز على ثقته، فولاه القضاء بدمشق خلال خلافته[2]، فلعله دون شيئًا آخر، وأثرى خزائن الخليفة بجديد، إذ تابع الأمويون اهتمامهم بتدوين الحديث، حتى سمعنا بأن هشام خليفة يزيد قد أكره الزهري على الكتابة، وأنهم حملوا كتبه من خزائن الوليد بعد مقتله على الدواب[3]، مما يدل على كثرة ما دون لبني أمية، فلعل شيئًا منها كان قد دون أيام يزيد.

أما علم الحديث، فقد تبين أنه قد حظي باهتمام أكثر العلماء، فقل أن تجد عالمًا ليس له يد في علم الحديث، كما أتضح اتصاله بالعلوم الأخرى وبالأخص الفقه[4]، إذ لازالت العلوم الإسلامية في تلك الفترة متمازجة لم تتميز، كما كان علماؤها موسوعيين، تجد الكثير منهم يحظى بوافر النصيب في كثير من العلوم.

وظهر جليا الاهتمام بإسناد الحديث منذ الفتنة، إلا أن الشاميين ظلوا يروون الحديث بلا إسناد، وكان معظمه مراسيل ومقاطيع، وهذا ما حدا بابن تيمية أن يفضل عليهم حديث أهل المدينة وغيرها، حتى جاءهم الزهري و نبه على ذلك. إذ قال يا أهل الشام ما لي أرى أحاديثكم ليس لها أزمة ولا خطم، قال الوليد بن مسلم فتمسك أصحابنا بالأسانيد من يومئذ، مع أن الزهري كان يورد بعض الأحاديث مرسلة.

وقد اعتبر إسناده، من أصح الأسانيد، كما اعتبره السيوطي من سلسلة الذهب[5].

---

(١) انظر خبر ضياعها، قبل: ص ٥٠٤.

(٢) عن تعلم يزيد على الزهري (انظر: الفصل الأول، ص ٦٣). وعن استقضائه، (انظر: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص ٣٣٨ – ٣٣٩).

(٣) انظر قبل: ص ٤٩٧ – ٤٩٨.

(٤) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢١.

(٥) خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٦٤ – ٦٦.

ومع ذلك فقد ظل بعض علماء تلك الفترة يرسلون، كمكحول الشامي وغيره[1]، من علماء الأمصار الأخرى، إذ لم يكن الإرسال مقصورًا على أهل الشام بشكل خاص كالحسن البصري، وأبوقلابة، وقتادة بن دعامة، وغيرهم.

كما حرص أئمة الحديث على البعد عن الرواية عن الوضاعين والكاذبين وكل من به عيب فادح، وقد أدى ذلك إلى الحرص على اتصال السند إلى الرسول ﷺ، والتمييز بين من يدلس أو يرسل من العلماء ولو كان كبارهم كالزهري[2]. فنشأ على هذا الأساس من ناحية النقد المفاضلة بين العلماء، بل وتعدى النقد الفردي إلى نقد البلد بكامله، كنقد الزهري لعلماء أهل مكة، وهذا النقد هو الذي تطور إلى التجريح والتعديل، وبه تم التمييز بين الرواة وعرف المدلس والوضاع[3].

ومن علماء النقد في هذه الفترة، أبوصالح ذكوان السمان (ت ١٠١هـ)، وعبدالرحمن بن هرمز (ت ١١٧هـ) والزهري (ت ١٢٤هـ)، وسعد ابن إبراهيم الزهري (ت ١٢٧هـ)، وأبوالزناد عبدالله بن ذكوان (ت ١٣٠هـ)[4].

ومما تفخر به تلك الفترة أن خمسة من محدثيها كانوا من الرجال الستة الذين يدور عليهم الإسناد، إذ قال على بن المديني: نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة، فلأهل المدينة ابن شهاب، ولأهل مكة عمرو بن دينار، ولأهل البصرة قتادة بن دعامة السدوسي، ويحي بن أبي كثير، ولأهل الكوفة أبو إسحق عمرو بن عبدالله السبيعي، وسليمان بن مهران الأعمش(ت ١٤٨هـ)، ثم صار علم هؤلاء الستة إلى أصحاب الأصناف[5]. فلم يخرج منهم كما نرى سوى الأعمش.

وكان لرواية الحديث في عصر التابعين وتابعيهم طرقها من ناحية الأخذ وكيفيته، فكان لذلك ألفاظ كحدثنا وأنبأنا وأخبرنا أو عن فلان، تبعًا لطريقة التلقي، وكان بعض

---

(١) خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٦٦.

(٢) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١١١.

(٣) خيل الزرو: نفس المرجع، ص٦٧ - ٦٨.

(٤) سعد الموسى: نفس المرجع، ص١٣٦.

(٥) محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٦٠ - ٣٦١.

العلماء كالزهري يجيز إطلاق لفظ حدثنا وأخبرنا في الرواية بالمناولة[1]. ومن هنا نشأ التدليس، وقد ميزه العلماء، وعرف المدلس من غيره حتى لو كان من كبار العلماء كعطاء بن أبي رباح، وأبوإسحق السبيعي وغيرهما.

أما رواية الحديث من ناحية متنه، فقد كان البعض يتشدد في إيراد الحديث بحروفه، وبعضهم كان يرويه بالمعنى[2] فممن يرويه بحروفه - على سبيل المثال - طاووس والقاسم بن محمد بن أبي بكر، ورجاء بن حيوة وغيرهم. وكان هناك من يرويه بالمعنى كالحسن البصري وغيره.

كما امتاز ذلك العهد بالرحلة في طلب الحديث، لتفرد بعض العلماء بأحاديث معينة، فقد ذكر أن الزهري له نحو تسعين حديثًا انفرد بها عن الرسول ﷺ، لم يروها أحد غيره، وليس من الأئمة أحد إلا وله أخبار انفرد بها[3].

ولعلنا بعد ما قدمناه عن هذا العلم، قد رسمنا صورة جلية له في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك.

الفقه:

بدأ التدوين في الفقه[4] بتدوين السنة، فإن القرآن قد عني ببيان العقائد الحقة وتفصيل القول فيها، أما الفقه وهو عبادات ومعاملات، فقد كانت الحاجة ماسة إلى سنة الرسول ﷺ، إذ لم يتناول القرآن مسائل الفقه على اختلافها إلا بإجمال يحتاج إلى تفصيل، وعموم يحتاج إلى تخصيص، ومن ثم قامت السنة بذلك كله، لذلك كان

---

(1) خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٧٣ - ٧٤.

(2) خليل الزرو: نفس المرجع، ص٦٢.

(3) خيل الزرو: نفس المرجع، ص٦٤.

(4) الفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية العلمية المستنبطة من أدلتها التفصيلية. ولم تكن كلمة الفقه تعني ذلك زمن الرسول ﷺ والصحابة، فقد كانت تطلق على كل حامل علم يعيه، بل كل عالم بأساليب المعيشة والحياة، يقول الرسول ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا فقهه في الدين». وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن فقه الرجل رفقه في معيشته».

(انظر: حسن علي الشاذلي: المدخل للفقه الإسلامي، ص٩ سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٣٨ - خليل الزرو: نفس المرجع، ص٨٠ - ٨١).

المسلمون حريصين على معرفة السنة وما فيها من أحكام تشريعية[1]. وقد قيل أن محمد بن عبدالرحمن العامري (ت ١٢٠هـ)، هو أول من جمع الأحاديث لتكون أساسا للفقه، حيث ألف في ذلك كتابا أسماه «الموطأ» كانوا يفضلونه على موطأ مالك، لكنهم عابوا عليه أنه لم يصحح نقد الرجال[2]. وما من شك أن التدوين الشخصي للحديث، ومن ثم التدوين الرسمي زمن عمر بن عبدالعزيز، قد خدم الفقه و التأليف فيه، حيث جاء بعد ذلك، إذ يرى أن التدوين في الفقه قد بدأ بموطأ الإمام مالك. مع أن الذهبي يخبر أن التدوين الحق للحديث والتفسير والفقه وغيرها من العلوم الإسلامية كان في أواخر النصف الأول من القرن الثاني الهجري[3]. وهذا لا يعني أن الفقه لم يدون فيه، قبل موطأ مالك، أو تدوين الحديث، فالمقصود هنا التصنيف في علم الفقه، أما التدوين

---

(١) محمد يوسف موسى: تاريخ الفقه الإسلامي، ص٥٨ – ٥٩.

(٢) محمد خفاجي: تاريخ الأدب في العصر الأموي، ص١٧ – بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٢٥٤/١ – ٢٥٥.

(٣) محمد يوسف موسى: نفس المرجع، ص٦٤.

ومن الجدير ذكره، أن الشيعة الزيدية ينسبون إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ١٢٢هـ) كتاب «المجموع» في الفقه، وهو كتاب لم يروه عن زيد بن علي إلا أبوخالد عمرو بن خالد الواسطي، والواسطي عند ابن حجر غير موثوق به ولا مأمون متهم بالكذب والوضع، وقام بتأليف الكتاب أبوالقاسم عبدالعزيز بن اسحق بن جعفر البغدادي، ويشمل في اجزائه الستة جماع أقسام الفقه وفروعه، وأخيرا طبع هذا الكتاب بمدينة ميلانو عام ١٩١٩م. وهذا الكتاب لاعتبارات عدة، منها ما يتعلق بمتن الكتاب وطريقة تصنيفه، ومنها ما يرجع لتفرد الواسطي بروايته كما أنه لم يروه عن الواسطي غير إبراهيم بن الزبرقان، فهذه الاعتبارات تقف دون التيقن من صحة نسبته لزيد بن علي. فإذا ما صحت نسبة هذا الكتاب إلى زيد، يكون أقدم المؤلفات الفقهية التي وصلت إلينا، ويكون قد سبق ما لك الذي قيل أن موطأة أول المصنفات الفقهية، بنحو ثلاثين سنة، وأن التدوين في علم الفقه قد تم منذ أوائل القرن الثاني الهجري. كما ينسب إلى زيد ابن علي عدد من الكتب الأخرى، لكن ينطبق عليها، من الشك في صحة نسبتها له ما ينطبق على المجموع.

(من أجل ما ذكرناه: انظر/ محمد يوسف موسى: نفس المرجع، ص٦٨ – ٧١، ٧٤ – ٧٥ – علي حسن عبدالقادر: نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي، ص١٧٩ – ١٨١ – محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٦٨ – ٣٧١ – بروكلمان: نفس المرجع، ٣٢٤/١).

الشخصي والكتابات المتفرقة في صحف وكتب لبعض الأحكام الفقهية، فقد حدث منذ عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وما كتبه بعض الصحابة والتابعين[1]، لكنها كتابات كانت تحتاج إلى الجمع والترتيب والتبويب[2]، وهذا ما ظهر في المصنفات التي قيل أن أولها موطأ مالك.

ويلحظ أن الفقه لم يحظ باهتمام الخلفاء الأمويين، سوى عمر بن عبدالعزيز، فقد نمى وتطور بعيداً عن اهتمامهم في المساجد ومجالس العلم، كما لا نرى اتصالاً للفقهاء بالخلفاء الأمويين، إلا القلة منهم كالزهري. ومن هنا لم يكن للخلفاء تأثير على نموه وتطوره كعلم من العلوم الإسلامية ولا على أئمته، حتى من كان على صلة بهم كالزهري[3]، فقد كان يفتي الخلفاء بكل نزاهة وشجاعة في الحق ولو كان قوله مخالفاً لآرائهم وأهوائهم، كموقفه من هشام عندما سأله من المعنى بقوله تعالى: {والذي تولى كبره}[4]، وغيره من المواقف[5]، أو الحسن البصري ومواقفه العديدة تجاه السلطان[6].

وقد برز من بين علماء المسلمين في الفقه عدد كبير من الفقهاء، منهم:

---

(1) دعت الحاجة منذ فجر الإسلام إلى كتابة بعض الأحكام الشرعية، فكتب بعض الصحابة والتابعين ما رأوا مساس الحاجة إلى تدوينه من الأحكام، وقد ورد أن الرسول ﷺ، قد أمر بكتابة أحكام الزكاة، وبعث بها إلى عماله على البلاد، وزود ابن حزم عندما ولاه على اليمن أحكاما مكتوبة في الفرائض والصدقات والديات وغيرها، كما كتب أبوبكر لأنس حيث بعثه إلى البحرين، كتابا بأحكام السائمة، وكان لعلي بن أبي طالب صحيفة فيها عن العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر، وغير هؤلاء كثير، أمروا بالتدوين، وأجازوه، أو قاموا به، في صحف وكتب، متفرقة لأحكام مختلفة، تمثل الكتابات الشخصية، التي سبقت التصنيف الجامع المرتب المبوب.

(انظر من اجل ذلك/ محمد يوسف موسى: تاريخ الفقه الإسلامي، ص٥٩ – ٦٢ – محمد الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي، ص١١١).

(2) محمد يوسف: نفس المرجع، ص٦٤.

(3) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص٢٤٨.

(4) انظر ذلك قبل: ص ٥٠٥.

(5) خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٩٧.

(6) انظر بعد: ص ٥٢١.

عكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٥هـ)[1]، كان فقيهًا، روى أن ابن عباس أذن له بالفتيا، فعن عكرمة أن ابن عباس قال: انطلق فافت الناس وأنا لك عون، قلت: لو أن هذا الناس مثلهم مرتين لأفتيتهم، قال: انطلق فافتهم فمن جاءك يسألك عما يعنيه فافته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤنة الناس. وقال عكرمة: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتي بالباب، وابن عباس في الدار. ولا غرابة في إذن ابن عباس له بالفتيا، وهو الذي حرص على تعليمه حتى كان يقيده ويعلمه القرآن والسنن، فأضحى بحرًا أو حبرًا، من علماء زمانه، وصف بالفقه والحديث والتفسير والسير.

قال ابن حبان عنه: كان من علماء زمانه بالفقه والقرآن فعن عمرو بن دينار أن جابر بن زيد دفع إليه مسائل ليسأل عكرمة فقال له: «هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا البحر فسلوه». وقال: عكرمة أعلم الناس. وقال سفيان الثوري: خذوا المناسك عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة. وقد كان من الرحالين، طاف البلاد وبث علمه فيها، وكان الحسن البصري إذا قدم البصرة أمسك عن التفسير والفتيا. وكان يفتي الناس حين يجتمعون عليه حتى في الأسواق والطرقات وقد قال طاووس: المسكين – يعني عكرمة – لو اقتصر على ما سمع كان قد سمع علمًا، وقال أيضًا: لو أن مولى ابن عباس اتقى الله، وكف من حديثه، لشدت إليه المطايا. مما يدل على أنه تجاوز الاعتماد على ما سمع من الأثر، فكان يجتهد ويفتي برأيه. قد قيل يوم مات وقد وافق ذلك موت كثير عزة مات أفقه الناس وأشعر الناس[2].

وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب (ت ١٠٦هـ)[3]، الإمام، مفتي المدينة،

---

(١) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٥.

(٢) من أجل ما ذكرناه عنه، انظر/ الشيرازي: طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص٧٠ – الذهبي: سير، ١٢/٥ – ٣٦ – ابن كثير: البداية ط٤، ٢٥٤/٩ – ٢٦٠ – ابن حجر: تهذيب، ٢٣٤/٧ – ٢٤٢ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٠١ – ١٠٣ – محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١١١/١ – ١١٢.

(٣) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٦.

وأحد فقهائها السبعة، عد من الفقهاء المجتهدين المجددين. قال ربيعة: كان الأمر إلى سعيد بن المسيب، فلما مات سعيد أفضى الأمر إلى القاسم وسالم[1].

وطاووس بن كيسان اليماني (ت ١٠٦هـ)[2]، الفقيه القدوة عالم اليمن، الحافظ، كان فقهيًا جليلاً، قال خصيف: أعلمهم بالحلال والحرام طاووس. ويبدو أنه كان شديد التحرز والحيطة لنفسه، فعن حنظلة بن أبي سفيان قال: ما رأيت عالمًا قط يقول: لا أدري، أكثر من طاووس[3].

والقاسم بن محمد بن أبي بكر (ت ١٠٧هـ)[4]، الإمام الفقيه، كان من أعلم الفقهاء، وأحد الفقهاء السبعة والعشرة المأخوذ بقولهم والمرجوع إليهم، أعلم أهل وقته بالمدينة مع سالم وعكرمة، وكان أعلم من سالم، تربى في حجر عائشة رضي الله عنها، وتتلمذ وتفقه عليها. وقد عده العلماء من المجتهدين المجددين. قال أبوالزناد: ما رأيت فقيهً أعلم من القاسم، وما رأيت أعلم بالسنة منه، وقيل: كان قليل الحديث والفتيا، وكان عالمًا بالمناسك، وهو كما وصفه مالك: كان القاسم من فقهاء هذه الأمة[5].

وسليمان بن يسار (ت ١٠٧هـ)[6]، الإمام الفقيه، عالم المدينة ومفتيها، وأحد الفقهاء السبعة المجتهدين، كان من أوعية العلم حتى فضله بعضهم على ابن المسيب، الذي كان يقول لمن يستفتيه: اذهب إلى سليمان فإنه أعلم من بقى اليوم ، وقد فاق علماء المدينة في العلم بالطلاق[7].

---

(١) الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٦٢ – ابن كثير: البداية، ط ٤، ٩/٢٤٤ – ابن حجر: تهذيب، ٣/٣٧٨ – ٣٧٩ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية بالمدينة، ص١٤١.

(٢) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٦.

(٣) الشيرازي: نفس المصدر، ص٧٣ – الذهبي: سير ٥/٣٨ – ٤٩ – ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٤٤ – ٢٥٣ – ابن حجر: نفس المصدر، ٥/٨-٩.

(٤) انظر ترجمته قبل ص ٤٧٦.

(٥) ابن كثير: نفس المصدر، ط٤، ٩/٢٦٠ – ٢٦١ – سعد الموسى: نفس المرجع، ص١٤٢ – علي حسن عبدالقادر: نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي، ص١٤٧.

(٦) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٧.

(٧) ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٥٤ – ابن حجر: نفس المصدر، ٤/١٩٩ – ٢٠٠ – سعد الموسى: نفس المرجع، ص١٤٣–علي حسن عبدالقادر: نفس المرجع، ص١٤٧ – ١٤٨.

وعامر بن شراحيل الشعبي (ت ١٠٩هـ)[١]، الإمام، علامة العصر، الفقيه، كان أحد زمانه في فنون العلم، قال مكحول: ما رأيت أعلم من الشعبي وقال: ما رأيت أفقه منه، وعن أبي حصين قوله: ما رأيت أحد قط كان أفقه من الشعبي. وقال أبومجلز: ما رأيت أحد أفقه من الشعبي، لا سعيد بن المسيب، ولا طاووس، ولا عطاء، ولا الحسن، ولا ابن سيرين، فقد رأيتهم كلهم. وعن أبي بكر الهذلي، قال لي ابن سيرين: ألزم الشعبي، فلقد رأيته يستفتي وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، ويقول ابن سيرين: قدمت الكوفة وللشعبي حلقة عظيمة والصحابة يومئذ كثير. وقال الزهري العلماء أربعة سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام. ولا غرابة فقد كان من علماء الناس، قال أبوأسامة: كان عمر في زمانه رأس الناس وهو جامع، وكان بعده ابن عباس في زمانه، وكان بعده الشعبي في زمانه، وكان بعده الثوري في زمانه، ثم كان بعده يحيى بن آدم.

وكان الشعبي مع سعة علمه، متحرزًا لنفسه من كثرة الفتوى، قال الصلت بن بهرام: ما بلغ أحد مبلغ الشعبي أكثر منه يقول لا أدري. وكان إذا جاءه الشيء أتقاه، ويكون منبسطًا فإذا وقعت الفتوى انقبض. كما كان الشعبي من أصحاب الأثر لا الرأي. وكان يرى الفقيه من إذا علم عمل[٢].

وقد ذكر محمد الخطيب[٣] أن الشعبي ممن حث على كتابة العلم بعد أن زالت الخشية من اختلاط الرأي بالحديث، وبعد أن كان يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء. قال: الكتاب قيد العلم، ويقول: إذا سمعتم مني شيئًا فاكتبوه ولو في حائط. كما يشير إلى أنه مع ذلك لم يوجد له بعد موته إلا كتاب في الفرائض والجراحات. وفي هذا القول ما يخالف ما ذكره الذهبي[٤] من أن الشعبي: كان حافظًا وما كتب شيئًا قط. كما أورد سماع

---

(١) انظر ترجمته قبل: ص٤٧٧.

(٢) من أجل ما ذكرناه عند، انظر/ الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٨١ - الذهبي: سير، ٢٩٤/٤ - ٣١٩ - ابن كثير: البداية، ط٤، ٩ / ٢٤٠ - ابن حجر: تهذيب، ٥٧/٥ - ٦٠ - محمد الخضري: تاريخ التشريع الاسالمي، ص١١٨- ١١٩ محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١٢١/١ - ١٢٤.

(٣) السنة قبل التدوين، ص٣٢٥ - ٣٢٦.

(٤) نفس المصدر والجزء، ص٢٩٧، ٣٠١.

ابن شبرمة لقول الشعبي: ما كتبت سوداء في بيضاء إلى يومي هذا. وأخيرًا قال: «وهذا يدل على أنه أمي لا كتب ولا قرأ».

ولعل الكتاب الذي نسبه إليه محمد الخطيب كان من رواية أحد أصحابه، أو إملاء على أحد تلاميذه.

والحسن البصري (ت ١١٠هـ)[1]، الإمام شيخ أهل البصرة، وسيد زمانه علمًا وعملاً، جامعًا للعلم و العمل، فقيهًا رفيعًا ثقة، مأمونًا، حجة. قال قتادة: ما رأت عيناي رجلاً قط أفقه من الحسن. وقال: ما جمعت علم الحسن إلى أحد العلماء إلا وجدت له فضلاً عليه، غير أنه إذا أشكل عليه شيء، كتب فيه إلى سعيد بن المسيب يسأله، وما جالست فقيهًا قط إلا رأيت فضل الحسن عليه. وسُئل أنس بن مالك رضي الله عنه مرة عن مسألة، فقال: سلوا عنها الحسن فقد سمع وسمعنا، فحفظ ونسينا. وقال أيوب السختياني: لو رأيت الحسن لقلت: إنك لم تجالس فقيهًا قط. وقال علي بن زيد: رأيت سعيد بن المسيب وعروة والقاسم في آخرين، فما رأيت مثل الحسن.

وقد كان جابر بن زيد أبوالشعثاء مفتي البصرة، ثم جاء الحسن فكان يفتي، وكان من أعلم الناس بالحلال والحرام، يقول قتادة: كان الحسن من أعلم الناس بالحلال والحرام. وقد ولاه عدي بن أرطأة قضاء البصرة زمن عمر بن عبدالعزيز ثم استعفى، قال معمر: ولي الحسن القضاء زمن عمر بن عبدالعزيز فلم يحمد فهمه. وقد كان الحسن رحمه الله يرى أن الفقيه من جمع العلم إلى العمل، فقد سأله عمران القصير عن شيء، وقال: أن الفقهاء يقولون كذا وكذا، فقال له الحسن: وهل رأيت فقهيا بعينك. إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه. وهو في هذا الرأي يوافق معاصره الشعبي رحمهما الله.

وقد كان رحمه الله شجاعًا في الحق، لا يداهن في دينه، ولا يماري السلطان ولا يخشاه، كنصحه ابن هبيرة بإتباع الحق ولو كان على غير هوى الخليفة، حدث ذلك عندما استشاره في أشياء يأمره بها الخليفة يزيد بن عبدالملك.

---

[1] انظر ترجمته قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص ١٠٨.

وقد كان كثير العلم والفتيا، قال أبوسلمة التبوذكي حفظت عن الحسن ثمانيــة آلاف مسألة. فإذا كان هذا ما حفظه واحد، فكم أفتى وكم أخذ الناس عنه؟

ولم يقتصر أثره على ما أفاد به الناس في حياته، فقد كان من ممن يكتــب العلــم، وممن أثر أنه خلف كتبًا بعد مماته، فقد قال: إنا لنا كتبًا كنا نتعهدها. وقال اصبــغ بــن زيد: مات الحسن وترك كتبًا فيها علم. ولكن سهل بن الحصين الباهلي، يحدث أنه ســأل عبدالله بن الحسن البصري، أن يبعث إليه بكتب أبيه، فأخبره عبدالله بان أباه عندما ثقل جمع كتبه وأحرقها، إلا صحيفة واحدة[١].

لكن بروكلمان[٢]، يخبر أن هناك مجموعة من الرسائل تنسب إلى الحسن البصري، عددها وذكر أماكنها والكتب التي أشارت إليها. أما فتاوى الحسن رحمه الله، فإن محمــد يوسف موسى[٣] يخبرنا أنها جمعت في سبعة أسفر ضخمة.

ومحمد بن سيرين (ت ١١٠هـ)[٤]، الإمام، شيخ الإسلام، كان فقيهًا، عالمًا، شــهد له أهل العلم والفضل بذلك، قال مورق العجلي: ما رأيت أحدا أفقه في ورعــه، ولا أورع في فقهه من محمد بن سيرين. وقال عثمان البتي: لم يكن بالبصرة أحد أعلم بالقضــاء من ابن سيرين، وكان الشعبي يقول: عليكم بذلك الأصم - يعني ابن سيرين - فهو كمــا قال عوف الأعرابي: كما كان ابن سيرين حسن العلم بالفرائض والقضاء والحساب. ومع ذلك فقد كان شديد الحيطة لنفسه، منقبضًا عن الفتوى. يقول أشعث: كان ابن سيرين إذا سئل عن الحلال والحرام، تغير لونه حتى تقول: كأنه ليس بالذي كان. وقال ابن شبرمة: دخلت على محمد بن سيرين بواسط، فلم أر أجبن في الفتوى منه. وقال ابن يونس: كان ابن سيرين أفطن من الحسن في أشياء. وكان لا يقبل من السلطان شيئًا، فعن ابن عون: أن عمر بن عبدالعزيز بعث إلى الحسن فقبل وبعث إلى ابن سيرين فلم يقبل، كما كان لا

---

(١) من اجل ما أوردناه عن الحسن، انظر/ الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٨٧ - ابن خلكان: وفيات، ٢/ ٧٠ - ٧٣ الذهبي: سير، ٤/ ٥٦٣ - ٥٨٨ - ابن كثير: البداية، ط٤ ٩/ ٢٧٨ - ٢٧٨٩، ٢٨٦ - ابن حجر: تهذيب، ٢/ ٢٣١ - ٢٣٦.

(٢) تاريخ الأدب العربي، ١/ ٢٥٨.

(٣) تاريخ الفقه الإسلامي، ٢/ ٢٥.

(٤) انظر ترجمته قبل: ص ٤٧٨.

يجيء السلطان ولا يعيب أهله، وهو مع ذلك أصلب الناس عند السلطان في الحق[1].

ورجاء بن حيوة (ت ١١٢هـ)[2]، الإمام الفقيه، كبير القدر، كثير العلم، سيد أهل الشام في أنفسهم، قال مطر الوراق: ما لقيت شاميًا أفقه من رجاء بن حيوة، وفي رواية أفضل. وكان مكحول إذا سئل قال: سلوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة. وقال رجاء بن أبي سلمة: ما من رجل من أهل الشام أحب إلى أن أقتدي به من رجاء بن حيوة. وقال ابن عون: رأيت ثلاثة ما مثلهم: محمد بن سيرين بالعراق، والقاسم بن محمد بالحجاز، ورجاء بن حيوة بالشام. وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة[3].

ومكحول الشامي (ت ١١٢هـ)[4]، الفقيه، أمام أهل الشام وعالمهم، لم يكن بزمانه أبصر بالفتيا منه، قال أبوحاتم ما أعلم بالشام أفقه من مكحول، وقال سعيد بن عبدالعزيز: كان مكحول أفقه من الزهري، وكان مكحول أفقه أهل الشام.

ولا غرو فقد كان طلابة للعلم، كان بمصر فأخذ علمها، ثم ارتحل إلى العراق، ومنه إلى المدينة، واستقر بالشام يأخذ العلم عن أئمة هذه الأمصار، يقول مكحول: طفت الأرض جميعًا في طلب العلم، وقوله على سبيل المبالغة، فصار من الأئمة العلماء، قال الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام.

وقد كان مكحول يفتي برأيه قياسًا على الأصول. وآراؤه الفقهية كآراء غيره من التابعين الشاميين. والملاحظ أنه ينقل الفتاوى عن غيره كابن عباس، وأحيانًا يتكلم برأيه. وكان له طريقته عند الإدلاء بقوله، فكان لا يفتي حتى يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا رأي والرأي يخطئ ويصيب. وقد خلف مؤلفات في علم الفقه، ذكر له ابن

---

(١) عن فقه ابن سيرين، انظر/ الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٨٨ – الذهبي: سير، ٤/٦٠٦ – ٦٢٢ – ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٢٧٩ – ابن حجر: تهذيب، ٩/١٩٠ – ١٩٢ محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٥٢٦.

(٢) انظر ترجمته قبل: ص ٣٥٢.

(٣) عن فقه رجاء بن حيوة، انظر/ الشيرازي: نفس المصدر، ص٧٥ – الذهبي: نفس المصدر، ٤/٥٥٧ – ابن كثير: نفس المصدر، ط٤، ٩/٣١٥ – ابن حجر: نفس المصدر، ٣/ ٢٩٩– ٢٣٠.

(٤) انظر ترجمته قبل: الفصل الأول، ص٥٥.

النديم كتابين هما: كتاب السنن في الفقه، وكتاب المسائل الفقهية[1].

وعطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ)[2]، الإمام، شيخ الإسلام، مفتي الحرم، الفقيه، كان من أجلاء الفقهاء، قال أبوجعفر الباقر: ما رأيت فيمن لقيت أفقه منه. وقد انتهت فتوى مكة إليه وإلى مجاهد، في زمانهما وكان أكثر ذلك إلى عطاء، وكان أعلم الناس بالمناسك. يقول أبو جعفر: ما بقى أحد أعلم بمناسك الحج من عطاء، وكان بنو أمية يأمرون في الحد أن لا يفتى إلا عطاء، فإن لم يكن فعبد الله بن أبي نجيح. ولا غرابة في ذلك فقد عد قتادة أئمة الأمصار فجعله رابعهم. وكان رحمه الله لا يقول بالرأي، ومات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس[3].

وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ)[4]، الإمام الحافظ، العالم، كان من أوعية العلم، ومن علماء الناس بالقرآن والفقه، ذكره أحمد بن حنبل، فأطنب في ذكره، فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه. يقول معمر: ما رأيت أفقه من الزهري وحماد وقتادة قال ابن عيينة مثل قوله، وقال سفيان الثوري: وهل كان في الدنيا مثل قتادة، وقال الزهري: هو أعلم من مكحول. ومع سعة علمه كان لا يفتي برأيه، وإذا سئل مسألة لا نص فيها قال: لا أدري. قال أبو عوانة: سمعت قتادة يقول: ما افتيت برأيي منذ ثلاثين سنة، وفي رواية لأبي هلال،

---

(١) انظر عما أوردناه عن علمه وفقهه / الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٧٥ - الذهبي: سير، ١٥٥/٥ - ١٦٠ - ابن كثير: البداية، ط٤، ٣١٧/٩ - ابن حجر: تهذيب، ٢٥٨/١٠ - ٢٦٠ - أبو زرعة: تاريخ أبي زرعة، ٢٤٥/١ - خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٩٧ - ٩٩ - محمد يوسف موسى: تاريخ الفقه الإسلامي، ص٦٤ - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٤٠٢.

(٢) انظر ترجمته قبل: ص ٤٨٠.

(٣) عن فقه عطاء، انظر: الشيرازي: نفس المصدر، ص٦٩ الذهبي: نفس المصدر، ٧٨/٥ - ٨٨ - ابن كثير: نفس المصدر والطبعة، ٣١٧/٩ - ٣١٨ - ابن حجر: نفس المصدر ١٧٩/٧ - ١٨٣ - محمد الذهبي: التفسير والمفسرون، ١١٣/١ - ١١٤ - محمد الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي، ص١٦٨.

(٤) انظر ترجمته قبل: ص ٤٨١.

منذ أربعين سنة[1].

وحماد بن أبي سليمان[2] العلامة الإمام فقيه العراق، تفقه بإبراهيم النخعي، وهو أنبل أصحابه وأفقههم، وأقيسهم وأبصرهم بالمناظرة والرأي، وكان يكتب عن إبراهيم وأفتى في حياة إبراهيم، وقد أوصى إبراهيم سائليه عمن يأتون بعده، فقال: عليكم بحماد، فإنه قد سألني عن جميع ما سألني عنه الناس. وقد كان معمر يقول: لم أر من هؤلاء أفقه من الزهري، وحماد، وقتادة. وقال أبوإسحق الشيباني حسان بن أبي سليمان أفقه من الشعبي، ما رأيت أفقه من حماد وهو مستقيم الفقه، يقول برأيه.

وعمرو بن دينار[3]، الإمام الحافظ، أحد الأعلام وشيخ الحرم في زمانه، كان فقيهًا، وكان مفتي أهل مكة في زمانه وقد أفتاهم ثلاثين سنة، فقد كان من أوعية العلم وقمة الاجتهاد، يقول ابن أبي نجيح: ما كان عندنا أفقه ولا أعلم من عمرو بن دينار، ولا أعلم، ولا أحفظ، وقال إياس ابن معاوية نحو ذلك، وكانوا قد سألوا عطاء، بمن تأمرنا؟ قال: بعمرو بن دينار.

ويزيد بن أبي حبيب[4]، الإمام الحجة، مفتي الديار المصرية، عالم مجمع على

---

(1) عن فقه قتادة، انظر/ الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٨٩ - الذهبي: سير، ٥/٢٦٩ - ٢٨٣ - ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٣٢٦ - ابن حجر: تهذيب، ٨/٣١٥ - ٣١٩.

(2) حماد بن أبي سليمان، أبو إسماعيل بن مسلم الكوفي، مولى الأشعريين، وأصله من أصبهان، كان من صغار التابعين، عالمًا، ثقة، صدوقًا، كريمًا، رمي بالإرجاء، أرجاء الفقهاء، وكان محدثًا، قيل: لا يحتج به وضعفه البعض حيث اختلط في آخر عمره، و مات كهلاً (١٢٠هـ). (عن ترجمته وفقهه، انظر: الشيرازي: نفس المصدر، ص٨٣ - الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٢٣١ - ٢٣٩ - ابن حجر: نفس المصدر، ٣/١٤ - ١٥).

(3) عمرو بن دينار، أبو محمد الجمحي، مولاهم المكي، من الأبناء، عالمًا فقيهًا، محدثًا، ثقة، ثبتًا، كان يحرج الكتابة عنه، ورمي بالتشيع والتحامل على ابن الزبير، ولد في أمرة معاوية، و(ت ١٢٥ أو ١٢٦هـ) (انظر عنه: الشيرازي: نفس المصدر، ص٧٠ - الذهبي: نفس المصدر، ٥/٣٠٠ - ٣٠٧ - ابن حجر: نفس المصدر، ٨/٢٦ - ٢٧).

(4) يزيد بن أبي حبيب، أبورجاء الأزدي، مولاهم المصري، من صغار التابعين، ومن جلة العلماء العاملين، ثقة حجة، حليمًا، عاقلاً، ولد بعد الخمسين هجرية، و(ت ١٢٨هـ على خلاف). (انظر =

الاحتجاج به، من العلماء العاملين، ارتفع بالتقوى، يقول الليث بن سعد: يزيد بن أبي حبيب سيدنا وعالمنا، وقال أبوسعيد بن يونس: كان مفتي أهل مصر في أيامه، وكان أول من أظهر العلم بمصر، والكلام في الحلال والحرام، ومسائل، وقيل أنهم كانوا قبل ذلك يتحدثون بالفتن والملاحم، والترغيب في الخير، وقد كان ثالث ثلاثة جعل الخليفة عمر بن عبدالعزيز الفتيا إليهم بمصر.

وأبو الزناد عبدالله بن ذكوان[1]، الإمام الفقيه الحافظ المفتي، من علماء الإسلام، وأئمة الاجتهاد، كان فقيه أهل المدينة، كانت له حلقة في مسجد رسول الله ﷺ، وقد تكاثر عليه طلاب العلم، حتى كان معه من الأتباع ما مع السلطان، وكان يجلس إليه فيها عبدالله ابن حسن وداود بن حسن بن علي بن أبي طالب، ثم تركوه إلى ربيعة الرأي. وكان أفقه الرجلين. وكان رحمه الله صاحب كتاب وحساب، وكان له من الكتب كتاب الفقهاء السبعة، وكتاب الفرائض.

وهذه الفترة كانت زاهرة بالعلماء الفقهاء، كمن ذكرناهم من الصفوة، وآخرين كثيرين، لا يسعنا في مثل هذا البحث إحصاءهم وإيراد ما ذكر عنهم، وسنكتفي بذكر عدد ممن لا يقلون درجة عمن ذكرنا.

وهم: خالد بن معدان الكلاعي (ت ١٠٣هـ)، كان من الطبقة الثالثة من فقهاء الشام وشيخهم، وأئمة الفقه والدين المعدودين المشهورين[2]. ومجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ)، العالم، روى عن ابن عباس، فأكثر وأطنب، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه، قال ابن سعد: مجاهد ثقة، فقيه عالم، كثير الحديث. وقال ابن حبان: كان فقيهًا

= عنه وعن فقهه/ الذهبي: سير، ٣١/٦ – ٣٣ – ابن حجر: تهذيب، ٢٧٨/١١ – ٢٧٩ – أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٩١).

(١) أبوالزناد عبدالله بن ذكوان، القرشي مولاهم المدني العالم، الفقيه، المحدث، ثقة، حجة، تولى بيت مال الكوفة لعمر بن عبدالعزيز، وقيل الخراج، وديوان المدينة لهشام، وكان بصيرًا بالعربية فصيحًا بليغًا، ولد سنة ٦٥هـ، و(ت ١٣٠هـ على خلاف). انظر عنه: الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٦٥ – ٦٦ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٤٤ – ١٤٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات، ٤٥٥/٧ – الذهبي: نفس المصدر، ٥٣٦/٤ – ٥٤١ – ابن كثير: البداية، ط٤، ٢٣٩/٩ – ابن حجر: نفس المصدر، ١٠٢/٣ – ١٠٣.

ورعًا عابدًا متقنًا[1]. وأبوقلابة الجرمي، عبدالله بن زيد (ت ١٠٤هـ)، كان من الأئمة الفقهاء، عالم بالقضاء[2]، وأبوبردة بن أبي موسى الأشعري (ت ١٠٤هـ)، كان فقيهًا، حافظًا، عالمًا، تولى قضاء الكوفة بعد شريح[3]. وابان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ)، من فقهاء المدينة، له علم بأشياء من قضاء أبيه، وذكره يحيى بن سعيد القطان ضمن الفقهاء العشرة، قال عمرو بن شعيب: ما رأيت أعلم منه بالحديث والفقه[4]. والضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني (ت ١٠٥هـ) كان فقيهًا، أملى على حسين بن عقيل مناسك الحج[5]. وبكر بن عبدالله المزني ١ت ١٠٨هـ الإمام القدوة الحجة، أحد الأعلام، قال محمد بن سعد: كان بكر المزني ثقة، ثبتًا، كثير الحديث، حجة فقيهًا، وكان مجاب الدعوة[6]. وأبوالجهم عبدالرحمن بن رافع التنوخي (ت ١١٣هـ)، كان من فضلاء التابعين، وهو أول من ولى قضاء القيروان بعد بناءها، وكان ممن بعثه عمر بن عبدالعزيز ليفقهوا أهل افريقية[7]. ومحمد بن علي بن الحسين (ت ١١٤هـ)، الإمام العالم، كان من فقهاء المدينة، مجتهدًا، له مسائل وفتاوى، لكنه كما يقول الذهبي: لا يبلغ في الفقه درجة أبي الزناد وربيعة[8]. والحكم بن أبي عتيبة (ت ١١٥هـ)، كان ثقة فقيهًا عالمًا عاليًا رفيعًا كثير الحديث، تفقه بإبراهيم النخعي، وقد نصحوا باستفتائه

---

(١) الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٦٩ - الذهبي: سير، ٤٤٩/٤ - ٤٥٤ - ابن حجر: تهذيب، ٣٨/١٠ - ٤٠.

(٢) الشيرازي: نفس المصدر، ص٨٩ - الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٤٦٨ - ابن كثير: البداية، ط٤، ٢٤٠/٩ - ابن حجر: نفس المصدر، ١٩٧/٥ - ١٩٩.

(٣) ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٤٠ - ابن حجر: نفس المصدر، ٢١/١٢ - ٢٢.

(٤) الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٣٥١ - ابن كثير: نف سالمصدر والطبعة والجزء، ص٢٤٣ - ابن حجر: نفس المصدر، ٨٤/١ - ٨٥.

(٥) الشيرازي: نفس المصدر، ص٩٣ - الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٥٩٨ - ٦٠٠ - محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٢٦.

(٦) الذهبي: نفس المصدر، ٥٣٢/٤ - ٥٣٦ - ابن حجر: نفس المصدر، ٤٢٤/١ - ٤٢٥.

(٧) الدباغ: معالم الإيمان، ١٩٨/١.

(٨) الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٦٤ - الذهبي: سير، ٤٠١/٤ - ٤٠٩ - ابن كثير: البداية، ط٤، ٣٢١/٩ - ابن حجر: تهذيب، ٣١١/٩ - ٣١٣.

بعد موت الشعبي[1]. وميمون بن مهران الرقي (ت ١١٦هـ)، العالم الفقيه الفاضل، كان أحد أربعة علماء ذكرهم سليمان بن موسى زمن هشام، وكان على قضاء الجزيرة وخراجها لعمر بن عبدالعزيز[2]. وعبدالله بن أبي زكريا الخزاعي الشامي (ت١١٧هـ)، كان من فقهاء دمشق وعبادها، وهو من أقران مكحول، ولم يكن بالشام رجل يفضل عليه. وكان عمر بن عبدالعزيز يقربه ويجلسه معه على سريره[3]. ونافع مولى بن عمر (ت ١١٧هـ)، الإمام المفتي، عالم المدينة، وأحد فقهائها، لم يكن يفتي في حياة سالم بن عبدالله، وقد بعثه عمر بن عبدالعزيز إلى أهل مصر يعلمهم السنن[4].

وعبدالله بن أبي مليكة التيمي المكي (ت ١١٧هـ)، من كبار أصحاب بن عباس، كان عالمًا مفتيًا، معدودًا في طبقات عطاء وقد ولى القضاء لابن الزبير، وكان مؤذنا[5] له. وأبو بكر بن محمد بن حزم المدني (ت ١٢٠هـ)، كان فقيهًا، قاضيًا قال مالك: لم يكن عندنا أحد بالمدينة عنده من علم القضاء ما كان عند أبي بكر بن حزم[6]. وعدي بن عدي الكندي الجزري (ت ١٢٠هـ)، سيد أهل الجزيرة، كان فقهياً ناسكًا يثني عليه ولاه عمر بن عبدالعزيز قضاء الجزيرة في أيامه[7]. ومحمد بن يحيى بن حيان الأنصاري المدني (ت ١٢١هـ)، الإمام الفقيه الحجة، كان له حلقة في المسجد النبوي يفتي بها[8]. وإياس بن معاوية بن مره المزني البصري (ت ١٢٢هـ)، قاضي البصرة

---

(١) ابن سعد: الطبقات، ٣٣١/٦ - ٣٣٢ - الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٨٢ - ٨٣.

(٢) الشيرازي: نفس المصدر، ص٧٧ - ابن حجر: نفس المصدر، ٣٤٩/١٠ - ٣٥٠.

(٣) الشيرازي: نس المصدر، ص٧٤ - ابن حجر: نفس المصدر، ١٩١/٥ - ١٩٢.

(٤) ابن سعد: الطبقات، القسم المتمم، ص١٤٢ - ١٤٥ - الذهبي: سير، ٩٥/٥ - ابن كثير: البداية، ط ٤، ٣٣٢/٩ - ابن حجر: نفس المصدر، ٣٦٨/١٠ - ٣٧٠ - محمد الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي، ص١١٥.

(٥) الشيرازي: نفس المصدر، ص٦٩ - ٧٠ - الذهبي: نفس المصدر، ٨٨/٥ - ٩٠ - ابن حجر: نفس المصدر، ٢٦٨/٥ - ٢٦٩.

(٦) ابن سعد: نفس المصدر، ص١٢٤ - ١٢٧ - ابن حجر: نفس المصدر، ٤٠/١٢ - ٤٢.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ١٥٢/٧ - ١٥٣.

(٨) ابن سعد: نفس المصدر والقسم، ص١٣١ - ١٣٢ - ابن حجر: نفس المصدر، ٤٤٨/٩ - ٤٤٩ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٥٩.

كان فقيهًا، فهمًا، فطنًا، عاقلاً، عفيفًا[1]. ومحمد بن مسلم الزهري (ت ١٢٤هـ)، كان أعلم أهل زمانه بالحلال والحرام، وأحد أئمة الإفتاء، من الفقهاء المجتهدين المجددين، وقد جمع محمد بن أحمد بن مفرج فتاواه في ثلاثة أسفار ضخمة مرتبة على أبواب الفقه، وكانت آراء الزهري الفقهية، تماثل آراء عمر بن عبدالعزيز، في السنة والرأي، فيقول دعوا السنة تمضي لا تعرضوا لها بالرأي، بينما يرى الرأي في الأمور التي ليس لها نص في الكتاب و السنة أو أحكام السابقين[2]. وخالد بن أبي عمران التجيبي مولاهم (ت ١٢٥هـ) الإمام القدوة، فقيه أهل افريقية، وقاضيها[3]. وسعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف المدني (ت ١٢٥هـ)، الإمام الحجة الفقيه، قاضي المدينة، كان من كبار العلماء، يذكر مع الزهري ويحيى بن سعيد[4]. وسليمان بن حبيب المحاربي الدمشقي (ت ١٢٦هـ)، كان إمامٌ كبير القدر، قضى بدمشق ثلاثين سنة، وقيل أربعين[5]. وعبدالرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر (ت ١٢٦هـ) الإمام الفقيه، من سادات أهل المدينة، وفضلائهم، ورث عن أبيه العلم وخلفه في مجلسه في المسجد النبوي بالمدينة[6]. ويزيد بن عبدالرحمن الهمداني الدمشقي (ت ١٣٠هـ)، العلامة، قاضي دمشق، وأحد الفقهاء مع مكحول، كان عمر بن عبدالعزيز قد بعثه ليفقه بني نمير ويقرئهم. قال سعيد بن عبدالعزيز: لم يكن عندنا أعلم بالقضاء من يزيد بن أبي مالك لا مكحول ولا غيره[7]. وأيوب السختياني (ت ١٣١هـ)، الإمام الحافظ، سيد العلماء، وسيد شباب أهل البصرة، قال شعبة: أيوب سيد الفقهاء، وقال ابن أبي مطيع: كان

---

(١) ابن كثير: البداية، ط٤، ٣٤٧/٩ - ٣٥٢ - ابن حجر: تهذيب، ٣٤١/١٢ - ٣٤٢.

(٢) ابن سعد: الطبقات، القسم المتمم، ص١٥٧ - ١٨٧ - ابن كثير: البداية، ط٤، ٣٥٤/٩ - ٣٥٩ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص١٥٩ - ١٦٠ - خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٩٦ - محمد يوسف موسى: تاريخ الفقه الإسلامي، ٢٥/٢.

(٣) الذهبي: سير، ٣٧٨/٥.

(٤) الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٤١٨ - ٤٢١.

(٥) الذهبي: نفس المصدر، ٣٠٩/٥ - ابن حجر: نفس المصدر، ١٥٦/٤ - ١٥٧.

(٦) سعد الموسى: نفس المرجع، ص١٤٣ - ١٤٤.

(٧) الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٤٣٧ - ٤٣٨.

أفقههم في دينه أيوب[١].

ونخلص مما أوردناه عن علم الفقه في فترة دراستنا، أن هذا العلم أن لم يحظ باهتمام خلفاء الدولة الأموية فيما عدا عمر بن عبدالعزيز، فقد أنبرى له علماء أفذاذ، عكفوا عليه ونذروا أنفسهم للدين والعلم، تعلمًا وتعليمًا وتأليفًا، وقد تميز هذا العلم آنذاك بالنمو والتطور، كما حظي بجلة من الفقهاء المبرزين، واسعي العلم، لكن غالب علمهم كان في الصدور، ومن كتب منهم كانت كتاباته شخصية، فلم نرث كتبًا عن كل من ذكرنا، إلا ما خلفه مكحول وأبوالزناد وما نسب إلى الشعبي والحسن، مع أننا علمنا أن الحسن قد أحرق كتبه عند موته ولم يبق إلا صحيفة واحدة. إلى جانب ما جمع من فتاوى بعض هؤلاء العلماء بعد في مؤلفات كجمع فتاوى البصري والزهري، ومع ذلك فقد أفاد الفقه في هذه الفترة من تدوين الحديث الرسمي زمن عمر بن عبدالعزيز وكتابات هؤلاء العلماء الشخصية، وما دونه عنه تلاميذهم، ليكون مطلع هذا القرن كمرحلة المخاض لعصر التصنيف الذي بدأ في أواخر النصف الأول من هذا القرن (الثاني).

والحق أنه مع القول بظهور المدارس الفقهية، وتميز المدنية بالأثر والتأثير الأكبر في هذا العلم والعلوم الدينية عامة، بينما ظهرت المدرسة العراقية كممثلة للرأي فإن من الواضح أن فترة دراستنا وهي مطلع القرن الثاني، لم يكن هذا التمييز قد أخذ شكله بوضوح، فقد لمسنا من خلال دراستنا لفقهاء الفترة، وجود من يقف عند الأثر، ليس في المدينة فحسب بل في العراق ومكة وغيرها، فقد وجدنا من أئمة العراق الشعبي، والحسن البصري، وقتادة، لا يقولون بالرأي، ويتحرزون من الفتوى ويحتاطون لأنفسهم ما استطاعوا وكثير ما يقول الواحد منهم إذا سئل فيما ليس فيه أثر لا أدري ومثلهم طاووس في مكة وغيرهم.

بينما نجد من يقول بالرأي، في العراق كحماد بن أبي سليمان، وفي الشام مكحول، وفي مكة عكرمة، وكذلك في المدينة نفسها، حيث نجد ربيعة بن أبي عبدالرحمن،

---

(١) الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٨٩ – الذهبي: سير، ١٥/٦ – ٢٦.

المعروف بربيعة الرأي (ت ١٣٦هـ)[1].

ومما يلاحظ من دراسة هذه التراجم، نبوغ عدد كبير من الموالي في هذا العلم، ليشاركوا العرب، في هذا الميدان بعد أن كان قاصرًا على العرب تقريبًا في عصر الصحابة، وليكونوا بذلك أئمة يقتدى بهم، وعلماء يرتحل الناس إليهم ليتفقهوا بهم ويتعلموا على يديهم، وذلك هو دين الإسلام يسمو بأهله، فقد قال عمر بن عبدالعزيز عندما أنكر عليه الناس جعل فتيا مصر لثلاثة، رجلين من الموالي، وواحد من العرب: ما ذنبي إن كانت الموالي تسموا بأنفسها صعدا، وأنتم لا تسمون[2].

---

(١) انظر عن فقهه/ سعد الموسى: الحياة العلمية في المدينة، ص١٤٦ – ٤٨.

(٢) انظر قوله هذا عند: أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٩١.

المبحث الثاني

الأدب

لم يقتصر نشاط الحركة العلمية في العصر الأموي على العلوم الدينية، فقد شمل مناحي كثيرة، حيث ازدهر الأدب في العصر الأموي شعره ونثره، فقد شهد ذلك العصر نهضة أدبية، كان لها مجالسها ومنتدياتها، كما كان لها رجالها محظية باهتمام الخلفاء الأمويين ورعايتهم لها[1].

وقد كان على رأس المجامع والمنتديات الأدبية في العصر الأموي سوق المربد بالبصرة، وسوق الكناسة بالكوفة، اللتان ورثتا سوق عكاظ في الجاهلية، وكان المربد مألف الأشراف، وقد مارست القبائل فيهما ألوانًا من النشاط الأدبي وخاصة الشعر، حيث زخرت بالشعراء، الذين كان لبعضهم حلقات ومنازل خاصة، يلقون فيها شعرهم أمام الناس، وخصوصًا في الفخر والهجاء، وكان إلى جانبهم بعض الرجاز، والمحكمين، والخطباء، وكان الأمر أحيانًا يدعو إلى تدخل الأمراء، لا سكات بعضهم، أو تهييجهم وإثارتهم، أو إعانة بعضهم على بعض. وقد شهد المربد كثيرًا من نقائض جرير والفرزدق، كما ساعد الخلفاء والأمراء على إحيائها، تنشيطًا للأدب، وللإستفادة من ذلك سياسيًا، فكانت هذه العوامل وراء تلك النهضة الأدبية التي شهدها العصر الأموي، وورثنا جليل آثارها[2].

وقد عنى الخلفاء الأمويون بالأدب ورعوا الأدباء، وأحاطوا أنفسهم بهم، وأجزلوا

---

(١) محمد خفاجي: الحياة الأدبية في عصر بني أمية، ص٧٧.

(٢) يوسف خليف: تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٥٩ - ٦٠ - محمد خفاجي: نفس المرجع، ص٣٤ - ٣٥، ٤٧ - ٤٩ - عمر أبوالنصر: الأيام الأخيرة للدولة الأموية، ص٣٥٩ - ٣٦٣.

آثرنا عدم الترجمة لرجالات الأدب في زمن يزيد، عندما يرد ذكرهم عرضًا، في هذا العرض العام للأدب في العصر الأموي وزمن الخليفة يزيد، إذ سنقوم بذكر شعراء وأدباء عصره، وسنترجم آنذاك لمشاهيرهم.

لهم العطايا والصلات وفتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء[1].

وقد حظى الشعراء بالنصيب الأوفر من اهتمام الحكام الأمويين، الذين سعوا لكسب الشعراء، وأغدقوا عليهم الأموال، وصار البلاط الأموي ومجالس الولاة والأمراء، مثابة لكل ذي شاعرية، حتى صاروا لسان الأمويين الممجد لأعمالهم، والمنافح عن سياستهم، ولاشك في أهمية الدور الذي قام به هؤلاء الشعراء في إنجاح السياسة الأموية[2].

إلا أن الشعراء خسروا تلك الحظوة في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز وبدافع من التقوى والحكمة، لم يجعل لهم مكانًا في مجلسه، ولم يجزل لهم العطايا، ومع ذلك فقد حظى هو بمدح الكثيرين منهم حيًا، والرثاء ميتًا، لما عرف عنه من حسن السيرة[3].

اهتمام الخليفة يزيد بن عبدالملك بالأدب ورعاية أهله :

ولما تولى يزيد بن عبدالملك الخلافة، فتح أبوابه للشعراء، وآثرهم بالرعاية وجزيل العطاء، وقد عده المستشرق الفرنسي بلاشير[4]، من حماة الأدب والفنون، مشيرًا إلى المكانة التي احتلها الشعر والشعراء في كنفه، حيث قال عنه: أنه كان شابًا مثقفًا ينظم الشعر برقة، شغوفًا بالموسيقى والغناء، وقد أورد أن تلك الرعاية لم تقتصر على من وفد عليه ببلاطه، بل أنه كان يرعاهم في حجه إلى مكة[5]، واستدعاء من بعد

---

(١) محمد خفاجي: نفس المرجع، ص١٤٨ – ١٤٩.

(٢) عون الشريف: شعر البصرة في العصر الأموي، ص٨٦ – ٨٧ – إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص٢٧٧ – ٢٧٨.

(٣) عن موقف عمر بن الشعراء، (انظر: ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص١٩٦ – ٢٠١ – الأربلي: خلاصة الذهبي المسبوك، ص٢٢ – ٢٣ – السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٣٨ – ٢٣٩، ٢٤٣ – الأتليدي: أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، المطبعة اليوسفية، مكتبة الجمهورية العربية، مصر، ص٤٦ – ٤٨ – محمد عبدالقادر أحمد: دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص١٠٩ – ١١٠).

(٤) تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص٧٩٤، ٦٤٩.

(٥) إن صح خبره هذا، فإن تلك الرعاية كانت خلال حجه قبل أن يتولى الخلافة، لأن يزيد لم يحج في خلافته. (انظر/ مجهول: العيون، ص٨١ – الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٦).

منهم إليه. وهناك إشارات إلى قول يزيد بن عبدالملك الشعر[١]. بل أن أحد المورخين المحدثين[٢]، جعل الخليفة يزيد من المجددين في الشعر، وأحد الشعراء الذين عنوا بالأناقة والصقل في الصناعة الشعرية. ونحن في الحقيقة لم نعثر على أي شعر ليزيد بن عبدالملك في المصادر التي أطلعنا عليها، سوى بيتين، أوردهما الأصفهاني[٣] في رواية، تشير إلى اختلاف سلامة وحبابة في صوت غنائي، فأمر الخليفة عامله على المدينة، أن يحمل إليه معبد المغني للحكم بينهما، فأتاه وحكم بينهما، وأمره الخليفة أن يغنيه، فغناه، فطرب، وقال شعرًا هو:

أبلغ حبابة أسقى ربعها المطر	ما للفؤاد سوى ذكراهم وطر
إن سار صحبي لم أملك تذكركم	أو عرسوا فهموم النفس والسهر

لكن الأصفهاني يعود إلى ذكر الاختلاف في نسبة صنعة ذلك الشعر ليزيد، فيذكر أن ابن خرداذبة نسبه ليزيد، وغيره نسبه لحبابة، وقال الأصفهاني: والصحيح أنه لمعبد.

وكان ليزيد اهتمام ظاهر بالشعر والشعراء، فنجده يسأل الزهري عن قائل قصيدة غنتها له جاريته حبابة، فلما علم أنها للأحوص الشاعر، وكان عمر بن عبدالعزيز قد نفاه إلى دهلك، أمر بتخلية سبيله، وأمر للزهري بأربع مئة دينار[٤]. وقيل: بل أخبره بذلك جاريته حبابة، فأمر بإحضاره، فمدح الخليفة يزيد، الذي أجزل جائزته[٥]. ومن بالغ اهتمامه، أمر عامله على مكة، أن يحمل إليه شاعرًا من آل أبي لهب على دواب البريد، وأن يعطيه ألف دينار نفقة الطريق[٦]. إلى جانب بعض الأخبار الدالة على تقريبه بعض الشعراء، وأجزل العطايا لهم، ككثير عزة، الذي قيل: أن الخليفة يزيد جعله يطلب

---

(١) الأصفهاني: الأغاني، ١٥/ ١٣٤ – ١٣٧ – شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية، ص٤٢٨ – ٣٩٨ – بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ١/ ٢٤٠.

(٢) شكري فيصل: نفس المرجع والصفحات.

(٣) نفس المصدر و الجزء والصفحات.

(٤) أبوالعرب: كتاب المحن، ص٤٠٥ – الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤/ ٩١ – محمد عبدالقادر أحمد: دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، ص١١٣.

(٥) الاصفهاني: نفس المصدر، ١٥/ ١٢٩ – ١٣٠ – وانظر بعد: ص٧١٣.

(٦) أحمد السيد دراج: صناعة الكتابة، ص٣٣ – فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية، ص٢٠٠.

لنفسه ما شاء، لا عجابه بقصائده التي مدحه بها، فاحتكم بمئة ألف، فكره الخليفة أن يقول الناس أعطى شاعرًا مئة ألف، لكنه نفذ وعده على أن يكون فيها عروض[1].

وسنعرض لشيء من أخباره مع الشعراء إبان ذكرنا لأهم شعراء عصره.

ويتضح أن الخليفة يزيد بن عبدالملك، كان يخضع تقريبه للشعراء، للمعايير الأخلاقية، وإن بدا غير دقيق في الحرص على ذلك – كعفوه عن الأحوص الذي نفاه عمر بن عبدالعزيز لسوء سلوكه وتعرضه لأعراض الناس بشعره – فقد أورد ابن عبدربه[2]، أن الخليفة يزيد لم يسمح لأبي الطمحان القيني[3]، بالدخول عليه لفسقه، مع محاولة أبي الطمحان إسماع الخليفة شيء من شعره الذي يمدحه فيه، لكن الخليفة لم يأذن له، وإن كان قد أمر له بألفي درهم. لكن ابن حجر[4] في ترجمته لأبي الطمحان القيني. يشير إلى أنه قد ذكر له شعر يتبرأ فيه من الذنوب كالزنا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والسرقة، مما يعارض مقتضى خبر ابن عبد ربه، إلا أن تكون توبته وشعره ذاك قد حدث بعد عهد يزيد بن عبدالملك، أو أن يزيد اتخذ موقفه منه على أساس سمعته الماضية.

ولم يكن الاهتمام بالأدب قاصرًا على الخليفة يزيد، فقد رعاه كثير من الأمراء والولاة في عهده وعلى رأسهم مسلمة بن عبدالملك، فقد كان ذا كرم وفصاحة، يقرب أهل الأدب ويرعاهم، أوصى بثلث ماله لأهل الأدب، وقال: «إنها لصنعة جحف أهلها»[5] واشتهر إلى جانب رجالات الدولة. أناس عرفوا بحب الأدب وأهله وكانوا من رعاته

---

(1) إحسان عباس: ديوان كثير عزة. دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ص٥٢ – محمد عبدالقادر أحمد: دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، ص١١٢.

(2) العقد، ٧/٤١.

(3) حنظلة بن الشرقي أبوالطمحان القيني، الشاعر، كان نديمًا للزبير بن عبدالمطلب في الجاهلية، ثم أدرك الإسلام، ذكر في المعمرين، وقيل عاش مئتي سنة. (ابن حجر: الإصابة، ١/٣٨١ – ٣٨١). فإذا ما صح ما قيل عن طول عمره يكون من المقبول صحة هذه الرواية التي أشار إليها ابن عبد ربه، ومبعث هذا الشك في صحة هذه الرواية، ترجمة الزركلي لأبي الطمحان، حيث أرخ لوفاته فيها بسنة (٣٠هـ). (انظر ترجمته في كتابه: الأعلام، ٢/٢٨٦).

(4) نفس المصدر والجزء، ص٣٨١.

(5) ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٣٤١ – ٣٤٢.

والمؤثرين فيه، كعبدالله بن أبي عتيق[١] وسكينة بنت الحسين[٢]، اللذين كان لهما دور ومكانة مميزة في الوسط الأدبي[٣]، وغيرهما ممن كان من أهله ورعاته ونقاده الموجهين[٤].

الشعر:

شهد عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك جلة من فحول الشعر في العصر الأموي، والمقدمين من شعراء الإسلام، الذين كان لكثير منهم صلة بالخليفة يزيد، وكان شعرهم معبرًا عن أوضاع عهده المختلفة، وعلى رأس هؤلاء الشعراء، الفرزدق، وجرير.

أما الفرزدق[٥]، فقد ظل متباعدًا عن القصر الأموي ومدح خلفائه حتى عهد

---

(١) عبدالله بن محمد بن أبي بكر الصديق، ناقد الحجاز في عصره، ولد زمن عثمان، و(توفي بعد سنة ١١٦هـ وقبل سنة ١٣٠هـ). كان مع سكينة من نقاد الحجاز، وممن عنوا بالأدب. (انظر أخباره عند/ عبدالعزيز عتيق: ابن أبي عتيق ناقد الحجاز أخباره ونقده، جامعة بيروت العربية، طبع دار الأحمد (البحيري إخوان، بيروت، ١٩٧٢م).

(٢) سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، الشهيد، روت عن أبيها، وقلما روت، كانت بديعة الجمال، تزوجها ابن عمها عبدالله بن الحسن الأكبر، فقتل مع أبيها قبل الدخول بها، ثم تزوجها مصعب بن الزبير، ثم غير واحد. وكانت شهمة مهيبة، دخلت على الخليفة هشام فسلبته عمامته ومنطقته ومطرفه، فأعطاها ذلك، كان الشعراء يأتون بابها فتجيزهم، (ت ١١٧هـ). (الذهبي: سير، ٥/٢٦٢ - ٢٦٣).

(٣) بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص٧٩٥ - ٨٨٠.

(٤) محمد خفاجي: الحياة الأدبية في عصر بني أمية، ص٢٩٥ - ٣٠٤ (وقد ذكر عدد من النقاد ورعاة الأدب آنذاك)

(٥) همام بن غالب بن صعصعة، الدارمي التيميمي، البصري، الشاعر المعروف من بيت عز وشرف في الجاهلية والإسلام جده صعصعة صحابي وفد على رسول الله ﷺ، وورد الفرزدق مع أبيه على علي رضي الله عنه وأخبره أنه شاعر، فقال علمه القرآن فهو خير له من الشعر، وقيل قيد نفسه حتى يحفظ القرآن، وقد رأى الحسين بن علي وسمعه وهو ذاهب إلى العراق، وغيره من الصحابة، وروى عن جماعة. وقد ورث بداوة قبيلته، وأثرت في شعره، فلم تفسد شعره الحاضرة، فكان عظيم الأثر في اللغة، قيل: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس، ويعد في شعراء الطبقة الأولى في الإسلام، وكان لا ينشد بين يدي الشعراء إلا جالسًا، وأشعاره ونقائضه مع جرير والأخطل مشهورة، كما طلق زوجته النوار، فقال فيها -

عبدالملك، وقيل حتى عصر ابنه سليمان، والأقرب للصحة، مدحه بني أمية منذ عبدالملك، لكنه لم يفد على أحد منهم قبل سليمان(١).

ويبدو أنه لم يفلح في نوال رضى خليفته عمر بن عبدالعزيز، فلما تولى يزيد بن عبدالملك، وفتح أبوابه للشعراء، كان أحد طارقيها المتلمسين الهبات والعطايا شاعرنا الفرزدق(٢). وقد استهل عهد يزيد بحركة ابن المهلب فانحازت مضر إلى الخلافة. وكان الفرزدق في هذه الحرب لسان مضر، ضد المتمرد على خليفة المسلمين، فانبرى يقول عدد من القصائد ويطنب مادحًا الخليفة يزيد وقواده مسلمة بن عبدالملك، و العباس بن الوليد. وهلال بن أحوز، وعبدالرحمن بن سليم الكلبي، كما امتدح فرسان مضر وبالأخص تميم على ما أبدوه من شجاعة يوم العقر وفي قنابيل، كما هجا ابن المهلب وأهله وقومه الأزد، وقد انبرى له الطرماح بن حكيم الطائي، شاعر اليمن يدافع عن قومه، فانغمس معه الفرزدق صاحب الثمانين عامًا في مناوشات شعرية للذود عن العرين(٣).

= أشعارًا حسانًا ورثاها بعد موتها، له من الأولاد ثلاثة أو سبعة في قول آخر وله من البنات خمس أو ست، قيل أن هواه مع آل البيت، وقيل بل مع كل معارض للأمويين لكنه لايبين ذلك، وأخيرًا تقرب من الأمويين، وأضحى من شعراء بلاطهم، ولد (٢٠ أو ٢٥هـ)، و(ت ١١٤هـ على الصحيح).

عن ترجمته وأخباره وأشعاره، انظر/ محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود شاكر، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، السفر الثاني، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص٢٩٧ - ٣٧٤ - ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٢٧٧ - ٢٧٨ - الزركلي: الأعلام، ٨/٩٣ - شاكر الفحام: الفرزدق، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ممدوح حقي: الفرزدق، دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة.

(١) شاكر الفحام: نفس المرجع، ص١٦٩ - ١٧١ - يوسف خليف: تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، ص١٨٤ - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٤٠٩.

(٢) شاكر الفحام: نفس المرجع، ص١٨٠.

(٣) من أجل ذلك ونماذج من شعره في تلك المواقف، انظر/ شاكر الفحام: نفس المرجع،، ص١٨٠ - ١٨٤ - أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دار المعارف، بمصر، القاهرة، ١٩٧١م، ص٢٧٤ - ٢٧٦ - محمد عبدالقادر أحمد: دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، ص١١٢ - بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص٥٨٨ - ٥٨٩.

ونجد الفرزدق بعد ذلك، متعرضًا لسياسة الخليفة، وولاته، فقد ولى الخليفة يزيد عمر بن هبيرة الفزاري القيسي على العراق، فيمدحه الفرزدق، ويرفع من شأن أسرته مشيدًا بكفايته، لكنه لا يلبث أن يتنكر لابن هبيرة، فيهجوه ويهجو قبيلته، وينال من أمانته، مبديًا عجبه من عزل أموي – يعني مسلمة – واستعمال فزاري، ناصحًا للخليفة بعزله، مما أوغر عليه صدر عمر بن هبيرة، الذي طلبه ففر من وجهه إلى البادية، ثم استجار بالخليفة، فلقى في كنفه الأمن والبر والصلة، وكتب الخليفة إلى ابن هبيرة بتخلية النوار زوجة الفرزدق وكان قد سجنها. وقيل: بل تمكن منه ابن هبيرة وسجنه وأطلقه[1]. ويبدو أن تغير موقفه من ابن هبيرة كان لعدم حصوله على ما كان يتأمله منه، وأن بدا مدفوعًا في شعره بمظالم ذلك الوالي.

فمدح الخليفة بعدد من القصائد، وبالغ في مدحه وتمجيده، وتواصلت مدائحه، واتصل بابنه الوليد بن يزيد، ومدحه، ونعم بقربهما وخيرهما[2].

وأما جرير[3]، فقد اتصل بيزيد بن عبدالملك، فكان الشاعر الذي يحامي عن الحكم

---

(١) شاكر الفحام: الفرزدق، ص١٨٤ – ١٨٥ – أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة، ص٢٨٤ – ٢٨٥ – نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، ص٣٠٤ – عون الشريف: شعر البصرة، ص٩٥ – محمد عبدالقادر أحمد: دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي. ص٢٩٠.

(٢) يوسف خليف: تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، ص١٦٧ – ١٦٨ – شاكر الفحام: نفس المرجع، ص١٨١ – ١٨٢، ١٨٦. (خروج عن المألوف، فهو المداح المفاخر بعنجهية بدوية، فهو أن مدح يزيد بذلك، فقد فاخر بنفسه أمامه، وقد لاقى يومًا الشاعر جرير في مجلس الخليفة، وصرح أنه لا يرى له كفء سوى الخليفة يزيد نفسه. انظر/ ممدوح حقي: الفرزدق، ص٣٥ – ٣٦).

(٣) جرير بن عطية الخطفي، الكلبي، اليربوعي، التميمي، الشاعر المشهور، يعد في الطبقة الأولى لشعراء الإسلام ولد ونشأ بالبادية، فقيرًا، راعيًا، من بيت متواضع، وقد نطق بالشعر صبيًا، فهو من بيت شعر آباء وأبناء، وكان أول من وفد عليه من الخلفاء يزيد بن معاوية، وتواصل وفوده على أكثرهم، وعمالهم، قيل كان جرير أشعر أهل عصره، وقال عن نفسه: إني لمدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعوده. له أشعار وأخبار مع معاصريه، ونقائضه مع الفرزدق والأخطل مشهورة. ولد سنة ٢٨هـ على خلاف، وتوفى (١١٤هـ على الصحيح) بعد وفاة الفرزدق بأشهر وقيل: بثمانين يومًا. وقد جمع شعره أكثر من واحد. =

الأموي، ويناضل عنه أصحابه، ويسدد السهام لخصومه، وقد أدى انتصار جيوش الخلافة على ابن المهلب في عصر يزيد، وارتفاع شأن القيسية على أثر ذلك، أن أصبح الشاعر جرير، اللسان الناطق باسم القيسية ضد اليمنية، يتغنى بذلك الانتصار، مادحًا الخليفة وقواده وفرسانه، كما مجد أعمال قواده في حروبهم الأخرى، في عدد من القصائد، ومن ذلك قوله يمدح يزيد بعد القضاء على ابن المهلب، معرضًا بأعدائه:

زان المنابر واختالت بمنتخب ... مثبت بكتاب الله منصور

يكفي الخليفة أن الله فضله ... عزم وثيق وعقد غير تغرير

إلى قوله:

وكان نصرًا من الرحمن قدره ... والله ربك ذو ملك وتقرير

ومن قصيدة أخرى يمدح فيها الخليفة يزيد بن عبدالملك ويعرض بآل المهلب:

ساس الخلافة حين قام بحقها ... وحمى الذمار فما يضاع ذمار

ويزيد قد علمت قريش أنه ... غمر البحور إلى العلا سوار

إلى قوله:

آل المهلب فرطوا في دينهم ... وطغوا كما فعلت ثمود فبارو[1]

واستمر جرير، يثير حياة الشعر، وكان آخر من مدحهم من الخلفاء هشام، حيث وافته المنية في موطنه الأصلي باليمامة[2].

وقد شهد عهد يزيد بن عبدالملك إلى جانب الفرزدق وجرير اللذين كانا مع الأخطل[3] فحول الشعر الأموي، وصدر بهم ابن سلام الطبقة الأولى لشعراء

= (انظر عنه/ ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ٢/٣٧٤ - ٤٥١ - ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٢٧١ - ٢٧٧ - الزركلي: الأعلام، ٢/١١٩ - بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص٥٧٠ - ٥٧١، ٥٧٧ - وأيضًا لمعلومات أشمل: محمد إبراهيم جمعة: جرير، دار المعارف، بمصر).

(١) انظر هذه القصائد عند: محمد إبراهيم جمعة: نفس المرجع، ص٦٨ - ٦٩، ٩٠ - بلاشير: نفس المرجع، ص٥٨٢.

(٢) يوسف خليف: تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٣) كانت وفاة الأخطل قبل عهد يزيد، وذلك سنة (٩٠هـ).

الإسلام[1]، شهد عهده معهما ثلة من الشعراء المبرزين والمؤثرين في الحياة الأدبية آنذاك منهم:

كعب الأشقري[2]، كان من شعراء المهلب بن أبي صفرة وفرسانه، ثم تنكر للمهالبة بعد موت المهلب وخروج خراسان من يد أبنائه إلى قتيبة بن مسلم ، الذي مدحه، فلما استعمل سليمان بن عبدالملك على خراسان يزيد بن المهلب، فر كعب إلى عمان، موطن قبيلته الأول، فلما قام يزيد بن المهلب بحركته زمن يزيد بن عبدالملك في البصرة وسيطر على تلك الأنحاء، دس إليه من قتله في عمان (سنة ١٠٢هـ)[3]. وهو شاعر مبدع وبخاصة في المديح، ويعد في فحول الشعراء بالعصر الأموي بشهادة الفرزدق، وبمقتله مع فقد عدد آخر من شعراء خراسان، بدأ ذلك الإقليم يفقد ملامحه العربية شعريًا[4] ويبدو أن ابن المهلب لم يقتل كعب الأشقري لتحوله عن ولائه لهم فحسب، بل لخشيته من تأثيره على قومه أزد عمان، فسعى للتخلص منه، ليضمن وقوف عصبيته إلى جانبه.

ومنهم، عبدالرحمن بن حسان بن ثابت[5]، والحكم بن عبدل[6]، أدرك أوائل القرن

- (انظر ترجمته عند: الزركلي: الأعلام، ١٢٣/٥).

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ٢٩٧/٢ - ٣٠٠.

(٢) كعب بن معدان الأشقري، أبومالك الأزدي، فارس، شاعر خطيب. من شعراء خراسان. كان في جلة أصحاب المهلب المذكورين في حروب الأزارقة (ت ٨٠هـ). (الزركلي: نفس المرجع و الجزء، ص٢٢٩) لكن الهادي حموده الغزي أورد أنه قتل سنة ١٠٢هـ في فتنة ابن المهلب، كما أشرنا إلى ذلك في المتن أعلاه، (انظر: الشعر الأموي في خراسان، ص١٧٢ - ١٧٧).

(٣) الهادي الغزي: نفس المرجع، ص١٧٢ - ١٧٧.

(٤) الهادي الغزي: نفس المرجع، ص١٧٩ - ١٨٢.

(٥) عبدالرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري، شاعر ابن شاعر كا ن مقيمًا بالمدينة وتوفى فيها، أدرك النبي ﷺ، ولم يرو عنه، وروى عن جماعة، محدث ثقة، قليل الحديث، عد في الصحابة، وقيل تابعي وقد جمع شعره في ديوان، (ت ١٠٤هـ عن ٩٨ سنة). (ابن حجر: تهذيب، ١٤٧/٦ - ١٤٨ - الزركلي - نفس المرجع، ٣٠٣/٣ - ٣٠٤).

(٦) الحكم بن عبدل بن جبله بن عمرو الأسدي، شاعر مقدم، هجاء، من شعراء بني أمية، كان اعرج أحدب، وأقعد آخر أيامه، ولد ونشأ بالكوفة، وفد على عبدالملك بن مروان فأكرمه وكان الأمراء -

الثاني، واتصل بابن هبيرة - عامل يزيد بن عبدالملك على العراق ١٠٣ - ١٠٥هـ - فأراد أن يوجهه إلى الغزو، ويعد هذا الشاعر مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا في القرن الرابع للهجرة[١].

وكثير عزة[٢]، الذي أدرك عهد يزيد وقد نيف على الخامسة والسبعين من العمر، فاتصل به، ومدحه بقصائد جياد، أعجبت الخليفة، فنال جوائزه، حتى أنه حكمه على بعضها بطلب ما يشاء[٣]، وقد تشفع لأسرى آل المهلب عند الخليفة، من ذلك قوله:

فعفوا أمير المؤمنين وحسبة ... فما تكتسب من صالح لك يكتب

أساءوا فإن تغفر فإنك أهله ... وأفضل حلم حسبة حلم مغضب

لكن الخليفة لم يقبل شفاعته، وقتل أسراه[٤]. وقد تحولت حظوة كثير عند الخليفة إلى جفوة، والسبب في ذلك كما يذكر خطل رأي كثير، إذ يروي أنه سأل الخليفة عن معنى قول أحد الشعراء وكان القول غامضا، فتصامم عنه يزيد، فأعاد القول، وأخذ يستحث الخليفة في تحد، فقال يزيد: وما على أمير المؤمنين إلا يعرف هذا وأمر بإخراجه، فحجب عن الخليفة بعد ذلك ولم يصل إليه، فكلمه فيه مسلمة وكان قد مدح الخليفة بسبع قصائد، فأعطاه سبعمائة دينار. والغالب أنه بعد هذه الجفوة عاد إلى

= لا يردون حاجته، (ت نحو ١٠٠هـ). (الزركلي: نفس المرجع، ٢/٢٦٧). ويلاحظ أن يوسف خليف قال أنه أدرك ابن هبيرة في ولايته على العراق، مخالفا بذلك الزركلي في التأريخ لوفاته.

(١) يوسف خليف: حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ص٤٧٥.

(٢) كثير بن عبدالرحمن بن الأسود الخزاعي، شاعر مدني مشهور، كان شاعر أهل الحجاز في الإسلام، لا يقدمون عليه أحدا، ذكر أنه شيعي يؤمن بالرجعة وينسب إليه القول بالتناسخ. متيم بعزة، وعرف بها، وله أخبار وأشعار معها وفيها، وفد على بني مروان ومدحهم، توفي بالمدينة (١٠٥هـ)، له ديوان مطبوع. (انظر عن ترجمته وأخباره / ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٢٦١ - ٢٦٧ - اليافعي: مرآة الجنان، ١/٢٤٩ - الزركلي: الأعلام، ٥/٢١٩ - وكذلك لمعلومات أشمل: إحسان عباس: ديوان كثير عزة).

(٣) انظر ذلك قبل: ص ٥٣٤ - ٥٣٥.

(٤) عن موقف الخليفة يزيد هذا، (انظر قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص ١٥٢).

الحجاز فظل بها حتى مات[1].

وعمر بن لجأ التيمي[2]، ويزيد بن الحكم الثقفي[3]، الشاعر الفصيح العاقل الحكيم، لما ثار يزيد بن المهلب على يزيد بن عبدالملك كتب إليه:

أبا خالد قد هجت حربًا مريرة ... وقد شمرت حرب عوان فشمر

فإن بني مروان قد زال ملكهم ... وإن كنت لم تشعر بذلك فأشعر

ومت ماجدًا أو عش كريمًا فإن تمت ... وسيفك مشهور بكفك تعذر[4]

ولعل هناك صلة حميمة بين ابن المهلب وابن الحكم منذ أن وفد الشاعر على سليمان بن عبدالملك حيث أجزل له العطاء، فقد يكون لابن المهلب يد فيما ناله ابن الحكم من الخليفة سليمان بحكم قربه منه ومكانته عنده، أو لعل يزيد بن عبدالملك، منع عنه ما أجراه عليه سليمان، وقطع فيما يبدو زمن عمر بن عبدالعزيز، فناصر لذلك خصمه[5]. وإلا كيف بشاعر ثقفي قيسي، يناصر حركة ابن المهلب اليمني، خصوصًا أن من أسباب قيام تلك الحركة، تعذيب ابن المهلب لآل أبي عقيل من ثقيف، أصهار الخليفة يزيد بن عبدالملك.

---

(1) من اجل ذلك انظر/ ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ٢/٥٤٣ – ٥٤٤ – ابن خلكان: وفيات، ١١٠/٤ – اليافعي: مرآة الجنان، ٢٥٢/١ – بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص٧٢٣ – ٧٢٨، ٨١٨.

(2) عمر بن لجا التيمي، من شعراء العصر الأموي، كان بينه وبين جرير مفاخرات ومعارضات شهر بها (ت نحو ١٠٥هـ). (الزركلي: الأعلام، ٥٩/٥).

(3) يزيد بن الحكم بن أبي العاصي الثقفي، روى الحديث وروى عنه، من فصحاء الشعراء وحكمائهم، أبي النفس شريفها، وهو من أهل الطائف، سكن البصرة، فولاه الحجاج كورة فارس ثم عزله قبل أن يذهب إليها، فوفد على سليمان فأجرى له ما يعادل عمالة فارس، فقطع عنه ذلك بعد سليمان، فلما قام ابن المهلب بحركته حرضه بشعره. وله أشعار في الحكمة (ت نحو ١٠٥هـ). (الذهبي: سير، ٥١٩/٤ – ٥٢٠ – الزركلي: نفس المرجع، ١٨١/٨).

(4) الزركلي: نفس المرجع والجزء والصفحة.

(5) انظر ذلك في ترجمته بالصفحة السابقة.

والطرماح بن حكيم الطائي[١]، شاعر إسلامي فحل، كان شاعر يزيد بن المهلب، قحطانيا متعصبا، كان لسان اليمنية المخاصم للمضرية، وخاصة تميم، واستمر على ذلك حتى انكسار المهالبة سنة ١٠٢هـ، فاتصل بخالد القسري ومدحه، فلم تمهله المنية، ومات سنة ١٠٥هـ[٢].

وأبو النجم العجلي[٣]، الراجز، أحد ثلاثة طوروا الرجز في العصر الأموي، ويعد في الطبقة الأولى من الرجاز الفحول في الإسلام، فقد كان من المحسنين في هذه الصنعة المجودين[٤].

وزياد الأعجم[٥]، من فحول الشعراء الخرسانيين في العصر الأموي، امتدح المهلب، وغيرها من الأمراء والقواد، وأدرك هشام وله وفادة عليه[٦]. ودكين بن رجاء الفقيمي، الراجز المشهور[٧].

---

(١) الطرماح بن حكيم ابن الحكم الطائي، شاعر إسلامي فحل، ولد ونشأ في الشام، وانتقل إلى الري فكان مؤدبا فيها، وفي الكوفة بعد أن انتقل إليها. اعتقد مذهب الأزارقة وكان هجاء، كان معاصرا للكميت وصديقا له (مات بالجدري سنة ١٠٥هـ)، وله ديوان شعر. (الزركلي: الأعلام، ٢٢٥/٣ - بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٢٤٤/١ - ٢٤٥).

(٢) بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص٦٢٥ - ٦٢٨ - بروكلمان: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) أبو النجم الفضل بن قدامة العجلي، البكري، الراجز، من أكابر الرجاز وأحسن الناس انشادا للشعر، نبغ في العصر الأموي، وكان يحضر مجالس عبدالملك بن مروان وولده هشام (ت ١٣٠هـ). الزركلي: نفس المرجع، ١٥١/٥.

(٤) يوسف خليف: تاريخ الشعر العربي في العصر الأموي، ص٢١٧ - بلاشير: تاريخ الأدب العربين ص٦١٦ - ٦١٧.

(٥) زياد بن سليمان الأعجم، مولى بني عبدالقيس، جزل إلى خراسان مدح المهلب وأمراء عصره، وكان هجاء بداري، له وفادة على هشام، وقد طال عمره (ت ١٠٥هـ وقيل ١٠١هـ). (الزركلي: نفس المرجع، ٥٤/٣).

(٦) الهادي الغزي: الشعر الأموي في خراسان، ص١٢٧ - ١٣٣.

(٧) دكين بن رجاء الفقيمي، التميمي، راجز شهر في العصر الأموي، له أراجيز ومدائح (ت ١٠٥هـ)، (الزركلي: نفس المرجع، ٣٤٠/٢ - بروكلمان: نفس المرجع، ٢٢٩/١).

ونصيب بن رباح[1]، شاعر فحل، كان يعد مع جرير وكثير عزة، لـه مـدائح فـي خلفاء وأمراء البيت الأموي، وقد حظي عند الخليفة يزيد بـن عبـدالملك، فقـد مدحـه وأحسن، فنال إعجاب الخليفة، فقال له: أجدت المدح فسل حاجتك، فقال: يدك يـا أميـر المؤمنين بالعطاء أبسط من لساني بالمسألة، فأمر به فملئ فمه جوهرًا فلم يـزل غنيًـا حتى مات[2]. وقد عده بعضهم من شعراء الشعوبية إلى جانب إسماعيل بـن يسـار (ت ١١٠هـ) وأخوته محمد وإبراهيم وغيرهم، الذين ظهر على يديهم لون جديد من الشعر، وهو تمجيد أقوامهم، وتاريخ شعوبهم الأعجمية[3].

ومنهم الأحوص[4]، كان منفيًا في دهلك بأمر عمر بن عبدالعزيز، فلما تولى يزيـد بن عبدالملك الخلافة، كتب إليه الأحوص مادحًا، فعفى عنه يزيد، واستقدمه إلى دمشق، على اختلاف في سبب تخلية سبيله، وكان الخليفة يعرف للأحوص مدائحه في أهل بيته،

---

(١) نصيب بن رباح، مولى عبدالعزيز بن مروان، شاعر فحل مقدم في النسيب والمدائح، قال جريـر فيه: أشعر أهل جلدته، وكان عبدًا أسود وقد كان عبدًا لراشد الكناني يسكن البادية، أنشد أبياتا بين يدي عبدالعزيز بن بن مروان، فاشتراه و أعتقه، له وفادات على خلفاء بني أمية، ومدائح فـيهم، تنسك آخر عمره، وأقبل على شأنه، وترك التغزل، (ت ١٠٨هـ على خلاف). (انظر عن ترجمته وأخباره وأشـعاره/ الـذهبي: سـير، ٥/٢٢٦ - ٢٦٧ - الزركلـي: الأعـلام، ٨/٣١ - ٣٢ - ولمعلومات أشمل انظر أيضًا: داود سلوم: شعر نصيب بـن ربـاح، مطبعـة الإرشـاد، بغـداد، ١٩٦٧م).

(٢) داود سلوم: شعر نصيب بن رباح، ص١٨ - بلاشير: تاريخ الأدب العربـي، ص٧١٦ - ٧٢٠ - نفس المرجع، ص ٧١٦ - ٧٢٠.

(٣) محمد خفاجي: الحياة الأدبية في العصر الأموي، ص١٠٠ - ١٠١ - بروكلمـان: تـاريخ الأدب العربي، ١/٢٣٩.

(٤) الأحوص عبدالله بن محمد الأنصاري، شاعر هجاء مقدم في النسيب وفد على الوليد وخص بنـي أمية بمدحه، ولسوء سيرته وتعرضه بأشعاره للناس، جلد ونفي إلى دهلـك، أطلقـه يزيـد بـن عبدالملك، فقدم دمشق ومات فيها (سنة ١١٠هـ). (الزركلي: الأعـلام، ٤/١١٦ - ولمعلومـات أولى وأشمل، انظر أيضًا: عادل سليمان جمال: شعر الأحوص الأنصاري، رسالة ماجسـتير فـي الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٤م، مطبوع، الهيئة المصرية العامة للتـأليف والنشـر، القـاهرة، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠).

لذا قال له يومًا: لو لم تمت إلينا بحرمة، ولا توسلت بدالة، ولا جددت لنا مدحًا، غير أنك مقتصر على بيتيك لاستوجبت عندنا جزيل الصلة، ثم أنشد يزيد قوله:

وإنـــي لأســـتحييكم أن يقـــودني إلى غيركم من سائر الناس مطمع

وأن اجتدى للنفع غيـرك مـــنهم وأنـــت إمـــام للبريـــة مقنــع

ووهبه الخليفة ثلاثين ألف درهم، فمدحه الأحوص بقوله:

مـــن يكـــن ســـائلاً فـــإن يزيـــدا ملـــك مــــن عطائـــه الإكثـــار

فأكثر له يزيد كما تأمل وظن، وقربه وقضى حوائجه، حتى أغناه، فتفنن الأحـوص في مدحه، ودان له بما صار إليه من الثراء، يقول:

وما كان مالي طارفًا مـــن تجــارة وما كان ميراثًا من المـــال متلــدا

ولكن عطاء مـــن إمـــام مبــارك ملا الأرض معروفا وجودا وسوددا

ويقول من قصائد تعبر عن رضا، وأمنا، وأنغام، وصدق في مدح الخليفـة راجيًـا دوام ذلك:

ولي منك موعـــود طلبـــت نجاحـــه وإني امرء لا تخلف الدهر موعدا

وعـــودتني أن لا تـــزال تظلنـــي يد منك قد قدمت من قبلهـــا يـــدا

ووفاء للخليفة، وجزاء لإكرامه، نجده مبادرًا إلى هجاء خصومه المهالبة، عنـدما أحجم الشعراء، فظهر بصورة المدافع عن سياسة الخليفة يزيد، وقد ناله من رواء ذلـك بلاء عظيم. وقد عزل الخليفة عامل عمر على المدينة أبو بكر ابن حزم الذي كـان وراء نفي الأحوص، فوجدها فرصة للنيل من خصمه، فهجاه، وذكر الخليفة بأشياء كانت مـن ابن حزم تجاهه، مما أغضب عليه الخليفة، فأمر بضربه، وبوفاة يزيد لا نجد نصوصًـا تدل على اتصاله بهشام الذي أدرك خمس سنوات من خلافته[1].

---

[1] من أجل ذلك انظر: عادل سليمان جمال: شعر الأحوص الأنصـــاري، ص٣٤، ٤١ – ٤٣، ٤٧ – بركلمان: تاريخ الأدب العربي، ١/١٩٦ – ١٩٧ – بلاشير: تـــاريخ الأدب العربـــي، ص٧٤٣ – ٧٤٧.

وثابت قطنة (ت ١١٠هـ)[١] شاعر أزدي، كان مع المهلب في حروبه مع الخوارج، فكان ولاؤه ومدحه للمهلب وآله، الذين قربوه وولوه أعمالهم، لاسيما في ولاية يزيد بن المهلب، وكان في موقف المحرض لابن المهلب في حركته أيام يزيد بن عبدالملك، وله في ذلك أشعار[٢]، وظل وفيًا للمهالبة حتى بعد نكبتهم، فقال كثيرًا من الأشعار يتفجع عليهم ويرثي فيها قتلاهم، معلنًا نقمته وسخطه على الأمويين[٣].

ومنهم ذو الرمة[٤]، والعرجي[٥]. والنابغة الشيباني[٦]، كان ممن هنأ الخليفة يزيد بانتصاره على ابن المهلب سنة ١٠٢هـ، بقصائد عديدة، ضاع أكثرها[٧].

---

(١) انظر ترجمته قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص ١١٨.

(٢) انظر موقفه هذا، وشيء من شعره خلال ما كتبناه عن حركة ابن المهلب قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص ١١٨ - ١١٩.

وانظر قصيدته في ابن المهلب إبان فتنته عند: ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٤٨٧.

(٣) الهادي الغزي: الشعر الأموي في خراسان، ص١٦٠ - ١٦١.

(٤) غيلان بن عتبة العدوي المضري، أحد فحول الشعراء، يعد في الطبقة الثانية في عصره، قيل: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة، له ديوان مشهور، تغزل بامرئ القيس وختم بذي الرمة، له ديوان مشهور، تغزل بمي بنت مقاتل المنقرة، وله فيها أشعار. وهو لم يرها وقيل رآها مرة واحدة، يذهب في شعره مذهب الجاهليين، وكان مقيمًا بالبادية. وكان يحضر اليمامة والبصرة، ولد نحو ٧٧هـ، وتوفي (١١٧هـ). (ابن كثير: البداية. ط٤، ٩/٣٣٢ - ٣٣٣ - الزركلي: الأعلام، ٥/١٢٤ - وذكر ابن الأثير وفاته سنة ١٠١هـ، الكامل، ٤/١٧١).

(٥) عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان، الأموي القرشي، من أهل مكة، لقب بالعرجي لسكناه قرية العرج قرب الطائف، شاعر غزل مطبوع، من الأدباء الظرفاء الأسخياء، ومن الفرسان المعدودين، صحب مسلمة في وقائعه ضد الروم، وأبلى فيها، وسجنه و إلي مكة محمد بن هشام، فطال سجنه حتى مات (نحو ١٢٠هـ) وكان مولده حوالي ٧٧هـ، له ديوان شعر. (الزركلي): نفس المرجع، ٤/١٠٩ - بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص٧٦٣ - ٧٦٨).

(٦) عبدالله بن المخارق الشيباني، شاعر بدوين كان يفد إلى الشام يمدح الخلفاء الأمويين، عبدالملك وأولاده، فأجزلوا له العطاء، كان نصرانيًا وأسلم وتحمس للإسلام. له ديوان شعر (٦٠ - ١٢٥هـ). (الزركلي: نفس المرجع، ٤/١٣٤ - بلاشير: نفس المرجع، ص٥٩٨).

(٧) بلاشير: نفس المرجع والصفحة.

والكميت الأسدي[١]، قال الذهبي[٢]: وفد على يزيد بن عبدالملك. ويزيد بن الطثرية[٣]، والقطامي[٤].

أولئك ثلة من مشاهير الشعراء في عصر يزيد بن عبدالملك الذين أثروا حياة الشعر، وكانوا من علامات أدب العصر البارزة، وممن شاركوا في النهوض به.

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد، أن هذه الفترة تمثل مرحلة مهمة من مراحل تدوين الشعر العربي، فالظاهر أن تدوين الشعر مر بثلاث مراحل، أولى: وكان التدوين فيها محدودًا ككتابات شخصية، أو متداخلاً مع علوم أخرى، واستمرت هذه المرحلة من الجاهلية إلى صدر الإسلام. المرحلة الثانية مرحلة جمع الشعر المدون والشعر المتداول شفهيًا، وأغلب الظن أن بداية المرحلة الثانية التي تمثل نهاية الأولى، كان مع بدايات العصر الأموي، ففي عهد معاوية نجد عبيد بن شريه يؤلف كتابًا في أخبار اليمن

---

(١) الكميت بن يزيد الأسدي، الكوفي، مقدم شعراء وقته، وشاعر الهاشميين، كان عالمًا بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، خطيب بني أسد، وفقيه الشيعة، فارسًا، راميًا، قيل: لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان، وهو من مناقب بني أسد، كان شيعيًا، متعصبًا للمضرية على القحطانية، منحازًا إلى بني هاشم، وأشهر شعره الهاشميات، وهي قصائد مدح فيهم، قيل مدح على بن الحسين، فأعطاه من عنده ومن بني هاشم أربع مئة ألف، وثيابه، ودعا له. عبر بشعره عن آراء الزيدية الشيعة، وموقفه العدائي من بني أمية، بلغ شعره خمسة آلاف بيت، ولد سنة ٦٠هـ و(ت ١٢٦هـ) انظر عنه: (الذهبي: سير، ٣٨٨/٥ - ٣٨٩ - الزركلي: الأعلام، ٢٣٣/٥ - يوسف خليف: تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، ص١٣٣).

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) يزيد بن سلمة القشيري، شاعر مطبوع، مقدم عند بني أمية، له شرف في قومه، صاحب غزل وظرف وفصاحة، جمع شعره في ديوان، قتله بنو حنيفة باليمامة يوم الفلج سنة ١٢٦هـ، وقد أدرك خلافة معاوية رضي الله عنه. (انظر عنه: الزركلي، نفس المرجع، ١٨٣/٨، - ولمعلومات أشمل انظر أيضًا: ناصر بن سعد الرشيد: شعر يزيد بن الطثرية، طبع دار مكة للطباعة والنشر).

(٤) عمير بن شييم التغلبي، القطامي، المعروف بصريع الغواني، شاعر غزل فحل، في الطبقة الثانية من شعراء الإسلام، كان نصرانيًا وأسلم، اتصل بالوليد بن عبدالملك، ومدح الأمويين ودافع عنهم، له ديوان مطبوع، (ت نحو ١٣٩هـ) وقال الزركلي في هامشه في تاريخ وفاته نظر. (انظر عنه: الزركلي: نفس المرجع، ٨٨/٥ - ٨٩ - بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ١٣٦/١ - ١٣٧ - بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص٥٦٠ - والأخيران أرخا لوفاته بسنة ١٠١هـ).

وأشعارها وأنسابها، وغيره وكانت حركة الجمع قوية في أواخر القرن الأول وبداية الثاني. أما المرحلة الثالثة، فهي أعداد مجموعات من الشعر في كتب ألفها اللغويون، وهذه مرحلة جاءت بعد ذلك، لكن المصنفين اعتمدوا على ما جمع ودون في المرحلة الثانية من الأشعار الجاهلية والإسلامية.

وتعتبر فترة البحث جزءًا من المرحلة الثانية، وقد قام بدور الرواية والتدوين والجمع فيها الشعراء أنفسهم، شاركهم فيها المؤرخون والمفسرون، وبعض الرواة، فقد اعتاد بعض الشعراء إملاء شعرهم أو كتابته، فنقرأ أن جريرًا يملي قصيدته في الراعي على خادمه، والفرزدق يكتب بعض شعره ويدفعه إلى جرير كي ينقضه وهكذا، وقد كان ذو الرمة راوي الراعي، والكميت راوية للشعر عالمًا به، قيل: أنه كان يفوق حماد الراوية.

كما ثبت أن الشعبي وقتادة والزهري وغيرهم، كانوا ذوي دراية بالشعر العربي، كما كان من ضمن مدونات الزهري كتبًا فيها شعر، ومن المعروف أن المشاهير من الرواة مثل أبي عمرو بن العلاء ينسبون مروياتهم إلى هاذ الجيل من الرواة والشعراء[1].

وجدير بالذكر أن حمادا الراوية الذي قيل: أنه أول من جمع الشعر في هذا العصر - وما هذا القول بصحيح، فقد قدمنا من القول ما يدل على أن تدوين الشعر وجمعه مر بمراحل وأن هناك من سبقه إلى ذلك- والذي كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، الحافظ للشعر المميز له، كان منقطعا إلى الخليفة يزيد بن عبدالملك في خلافته[2].

فليس مستبعدًا أن يكون قد دون للخليفة شيئًا من محفوظاته، أو قدم له شيئًا من

---

(1) من أجل ما ذكرناه عند تدوين الشعر، انظر/ فؤاد سزكين: محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، م١/١٦٣ - ١٦٦ - أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة، ص١٤٧ - ١٤٨ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٨٧.

(2) من أجل ذلك، انظر/ ابن خلكان: وفيات، ٢/٢٠٧ - ٢٠٩ محمد خفاجي: تاريخ الأدبي في العصر الأموي، ص١٨ - بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ١/٢٤٥ - ٢٤٦.

مدوناته، وليس ثمة شك في إثراء حماد للحركة الأدبية في تلك الفترة، والمشاركة في نهضتها.

الخطابة:

ازدهر فن الخطابة في العصر الأموي بشكل عام، وارتقت إلى درجة لم تعهدها من قبل، وهي على قسمين: خطابة دينية وخطابة سياسية وحربية، إلا أن الخطابة في هذا العهد غلب عليها الطابع السياسي وسماته المميزة(١).

ولقد واصل هذا الفن الأدبي في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك ازدهاره، حيث شهد عهده عدد من الخطباء الفصحاء، كالحسن البصري، وجامع المحاربي، وعبدالله بن عبدالله بن الأهتم، وعبدالله بن عروة بن الزبير، ومورق العجلي، وبكر بن عبدالله المزني، ومحمد بن واسع الأزدي ويزيد بن أبان الرقاشي، ومالك بن دينار، ومنهم القاص الواعظ، وغيرهم كثير(٢)، ولعل أهم المناسبات الخطابية في عهد يزيد بن عبدالملك حركة يزيد بن المهلب، فقد كان الناس فيها خطباء ووعاظ بين داع لها ومحرض عليها، وواعظ عن الانغماس فيها، إذ كان الاعتماد في مثل هذه الفتن لا يعتمد على السيف فحسب بن على اللسان أيضًا ممثلاً في الشعراء والخطباء، وممن يقف على رأس هؤلاء الخطباء، يزيد ابن المهلب نفسه، فقد كان خطيبًا مفوهًا حفظت المصادر بعض خطبه(٣). منها خطبته في واسط بعد خروجه على الخليفة يزيد بن عبدالملك، وهو في طريقه للقاء جيوش الخلافة بقيادة مسلمة بن عبدالملك والعباس بن الوليد(٤)، وخطبته في جنده عندما تدانت العساكر في العقر، فقد قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

---

(١) محمد خفاجي: تاريخ الأدب في العصر الأموي، ص١٣١ – ١٣٢ شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٧١م، ص٦٣ – ٦٧ – بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص٨٧٧ – ٨٧٩ – فيليب حتي: تاريخ العرب (م)، ٣١٨/١ – فيليب حتي: تاريخ سورية، ١٠٧/٢ – ١٠٨.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ط٤، ٣٥٣/٢ – ٣٥٤، ٣٥٥/١، ١٣٥/٢ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٠٢.

(٣) شوقي ضيف: نفس المرجع، ص٦٩.

(٤) انظر نص خطبته في واسط قبل: الفصل الثاني، المبحث الأول، ص ١٢٦.

«يا أيها الناس، إني قد سمعت في عسكري هذا وقولهم بأنه قد جاء مسلمة بن عبدالملك، وقد جاء العباس بن الوليد، جاء أهل الشام، فخبروني من مسلمة، فوالله ما مسلمة عندي إلا جرادة صفراء[١] قسطنطين بن قسطنطين[٢]، ومن العباس بن الوليد! فوالله ما العباس عندي إلا نسطوس بن نسطوس[٣]، ومن أهل الشام، فوالله ما هم إلا سبعة اسياف خمسة منها لي، واثنان علي، وإنما أتاكم مسلمة والعباس في برابرة وأقباط وجرامقة[٤] وأنباط[٥] وجراجمة[٦] وأخلاط ومغاربة وسقالبة[٧]، زراعون وفلاحون أوباش[٨] وأخناش[٩]، فلا يهولنكم أمرهم فوالله ما لقوا مثل جدكم، وإني لأرجو أنهما ما جاءوا إلا لهلاكهم وحلول النقمة بهم، وليس يردعهم عن غيرهم إلا الطعن في نحورهم، والضرب بالمشرفية على قممهم، فأعيروني سواعدكم ساعة تصفقون بها هامهم وخراطيمهم، فإنما هي غدوة أو روحة حتى يحكم الله بينكم وبين القوم

---

(١) قال عواد الأعظمي: صيرت عبارة الجرادة الصفراة لقبا ينعت بها شخص ليدل على مدى جشعه المادي، وشغفه الشديد في جمع الأموال واقتنائها والتهامها. (مسلمة، ص٣٩ - ٤٠).

(٢) لم أعثر لها على شرح.

(٣) لم أعثر لها على تعريف. (ولعله يرمز بقسطنطين ونسطوس عن مسلمة والعباس إلى كونهما من أمهات روميات وأنهما هجينين وليسا من العرب الخلص).

(٤) الجرامقة: جرامقة الشام أنباطها، وقيل: قوم بالموصل أصلهم من العجم، انظر: اللسان (جرمق).

(٥) الأنباط: قوم يسكنون سواد العراق، وقيل ينزلون بالبطائح بين العراقيين، وهناك أنباط الشام أيضا، وقد حذقوا جباية الخراج، وكانوا مهرة في عمارة الأراضي. انظر: اللسان (نبط).

(٦) الجراجمة: قوم من العجم بالجزيرة، ويقال: الجراجمة نبط الشام. انظر: اللسان (جرجم).
ونقل نبيه عاقل عن البلاذري، أن الجراجمة: قوم من النصارى كانوا يعيشون على جبل اللكام (الأمانوس) في مدينة اسمها الجرجومة. ثم تحدث عن فتح الجرجومة وموقف أهلها من الدولة الإسلامية. (انظر: تاريخ خلافة بني أمية، ص١٥٠ - ١٥١).

(٧) السقلب: جيل من الناس. انظر: اللسان (سقلب).

(٨) الأوباش من الناس الأخلاط، أو الضروب المتفرقون.
انظر: اللسان (وبش).

(٩) لم أجد لها شرحا يناسب معناها في هذا المقال.

الظالمين»[1].

ومن الخطب التي قيلت إبان حركة بن المهلب، خطبة الحسن البصري في الناس، بعد أن زعم ابن المهلب أنه يدعو الناس إلى سنة عمر بن عبدالعزيز، إذ قال: «اللهم اصرع يزيد بن المهلب صرعة تجعله نكالاً، يا عجبا لفاسق غير برهة من دهره، ينتهك المحارم، يأكل معهم ما أكلوا - يقصد بني أمية - ويقتل من قتلوا، حتى إذا منع شيئًا، قال: إني غضبان فاغضبوا، فنصب قصبًا عليها خرق، فأتبعه رجرجة ورعاع، يقول: أطلب بسنة عمر، إن من سنة عمر أن توضع رجلاه في القيد، ثم يوضع حيث وضعه عمر»[2].

الكتابة:

عرف المسلمون الكتابة[3] منذ بداية العصر الإسلامي، وقد ساعد استحداث ديوان الإنشاء (الرسائل) على تطور صناعة الكتابة، حيث نشأت فيه، في حرج العرب، وتحت أيديهم[4].

ولقد ظل أمر الماكتبات في الدولة الأموية، جاريًا على سنن السلف، ببساطة المظهر. وعدم التكلف في الخطاب، موجزة واضحة حتى ولي الخلافة الوليد بن عبدالملك (٨٦ - ٩٦هـ)، الذي أنف أن يكتب له مع تأخير اسمه، فأمر بتجويد الرسائل وتفخيم الخطاب، وألا يكاتب بمثل ما تكاتب به السوقة. وأجرى العمل على ذلك من بعده، حتى تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١هـ)، ويزيد بن عبدالملك

---

(١) ابن أعثم: الفتوح، م٤/٢٥٠ - ٢٥١ - وانظر هذه الخطبة أيضًا مع وجود بعض الاختلاف، عند: ابن عبد ربه: العقد، ٢١٤/٤ - الجاحظ: البيان والتبيين، ط٥، ٢٩٢/١ - ٢٩٣.

(٢) الذهبي: سير، ٥٠٦/٤.

(٣) الكتابة: هي النصوص النثرية ذات الطابع الإسلامي، أيًا كان نوعها. (سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٠٩).

(٤) عن نشأة الكتابة، وصناعتها وتطورها، (انظر/ أحمد السيد دراج: صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية - شوقي ضيف: الفن ومذاهبه، ص١٠٣ - ١٠٤ - بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص٨٦٢ - ٨٦٣ - بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٢٦١/١).

(١٠١ ـ ١٠٥هـ)، اللذين رجعا بالكتابة إلى نهج السلف[١]. ثم أخذت الكتابة بعدهما في التأنق والصنعة والإطناب وإشراق البيان[٢]. وقد كان للخليفة يزيد عدد من الكتاب، ذكر ابن عبد ربه أن من بينهم عبدالحميد الكاتب[٣].

ومن نماذج كتابات ذلك العهد، ما كتبه عمر بن عبدالعزيز يوصي به خلفه يزيد بن عبدالملك، إذ كتب: «أما بعد، إياك أن تدركك الصرعة عند العزة، فلا تقال العثرة، ولا تمكن من الرجعة، لا يحمدك من خلفت، ولا يعذرك من تقدم عليه، والسلام»[٤].

القصص والوعظ:

تطور القصص الوعظ في العصر الأموي. وأصبح القصص وظيفة رسمية، يعين القاص لها من الخليفة، ويعزل بأمره أحياناً، وكان لبعض الخلفاء الأمويين قصاص، وكان في كل بلد قاص، يقص على الناس بالمسجد الجامع، يرغبهم في الآخرة، ويزهدهم في الدنيا، ويحضهم على العمل الصالح، كما يدعوهم لطاعة أولي الأمر، وينهاهم عن الانغماس في الفتن. وقد كان منشأ القصص زمن الراشدين، فنما وانتشرت بسرعة، لموافقته ميول العامة، يدل على ذلك التصنيف فيه منذ بداية العصر الأموي[٥].

وهناك ارتباط وثيق بين الوعظ والقصص، فكثيراً ما يستغل القاص قصة ذات مغزى وأثر في العظة، لذلك كان أكثر القاصين وعاظاً[٦].

---

(١) من أجل ذلك، (انظر: أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة، ص٢٢٦ - ٢٢٨ - محمد خفاجي: الحياة الأدبية عصر بني أمية، ص٢٦٦).

(٢) محمد خفاجي: تاريخ الأدب في العصر الأموي، ص١٤٣ - أحمد كمال زكي: نفس المرجع والصفحات.

(٣) انظر أسماء كتابه قبل: الفصل الخامس، المبحث الأول ص ٣٣٤ - ٣٣٦.

(٤) ابن سعد: الطبقات، ٥/٤٠٥ - ٤٠٦ - ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص٣١٨ وورد عنده أيضا بنص آخر. انظر: نفس المصدر، ص٣١٧ - ٣١٨.

(٥) من أجل ذلك، أنظر: سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٠٤ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٥٨ - ١٦٢ - خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٢٤ - ٢٥، ٧٥ - بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ١/٢٥٨.

(٦) خليل الزرو: نفس المرجع، ص٢٥ - ٢٦.

ومن أشهر القصاص والوعاظ في عهد يزيد بن عبدالملك الحسن البصري (ت ١١٠هـ) وهو أكبر وعاظ العصر وقصاصيه، وهو لا يعتمد على الأساطير والخيال، بل يعتمد على الحوادث التي تقع حوله والثابتة لديه، فيجعل منها قصصًا، ويسخرها للعظة، متحريًا الصدق فيما يقول. وقد اشتملت كثير من المصادر على مواعظه[١]. من ذلك عظته الناس في عدم الانغماس في فتنة ابن المهلب زمن يزيد بن عبدالملك.

وعطاء بن يسار (ت ١٠٤هـ)، كان صاحب قصص وعبادة وفضل[٢] والضحاك بن مزاحم (ت ١٠٦هـ)، له باع في التفسير والقصص[٣]. والشعبي (ت ١٠٩هـ)[٤] ومحمد بن سيرين (ت ١١٠هـ)[٥]، ومن كبار القصاص مسلم بن جندب (ت بعد ١١٠هـ) كان قاص مسجد النبي ﷺ[٦].

ووهب بن منبه (ت ١١٠هـ)، كان الغالب عليه القصص، وله أقوال حسنة وحكم ومواعظ[٧]، وعون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود (بضع وعشر ومئة)[٨]. ورجاء بن حيوة (ت ١١٢هـ)[٩]. ومحمد ابن كعب القرظي (ت ١١٨هـ)، من القصاص المؤثرين، ومات من أثر سقوط المسجد عليه وهو يقص[١٠]. ومعبد بن خالد الجدلي (ت

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ط٥. ١/٣٦٧ - ابن خلكان وفيات، ٢/٧٠ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٦١ - ١٦٢، ١٨٥ - شوقي ضيف: الفن ومذاهبه، ص٧٦ - ٧٧.

(٢) ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٢٣٢ - ابن حجر: تهذيب، ٧/٥٩٨ - ٦٠٠.

(٣) الذهبي: سير، ٤/٥٩٨ - ٦٠٠.

(٤) شوقي ضيف: نفس المرجع والصفحات.

(٥) أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة، ص٢٢١ - ٢٢٣.

(٦) الجاحظ: نفس المصدر والطبعة، ١/٣٦٧ - ٣٦٨.

(٧) الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٧٤ - ابن كثير: نفس المصدر و الطبعة، ٩/٢٨٩ - شوقي ضيف: نفس المرجع، ص٧٦.

(٨) الذهبي: نفس المصدر، ٥/١٠٣ - ١٠٥.

(٩) شوقي ضيف: نفس المرجع والصفحة.

(١٠) ابن سعد: الطبقات، القسم المتمم، ص١٣٤ - ١٣٧ - ابن كثير: نفس المصدر والطبعة والجزء، ص٢٦٨ - ٢٧٠ - ابن حجر: نفس المصدر، ٩/٣٧٣ - ٣٧٤.

١١٨هـ)، قاص الكوفة[١]. وعبدالله بن كثير المقرئ (ت ١٢٠هـ)، الـواعظ المفـوه وقاص الجماعة في مكة[٢]. وبلال بن سعد بن تميم (ت نحو ١٢٠هـ)، واعظ أهل الشام وقاصهم، كان من أبلغ الوعاظ، حسن القصص، شبه بالحسن البصري[٣]. وثابت البناني (ت ١٢٧هـ)[٤]. ومحمـد بـن المنكـدر (ت ١٣٠هـ)[٥]. ومالـك بـن دينـار (ت ١٣١هـ)[٦].

---

(١) الذهبي: سير، ٢٠٥/٥.

(٢) الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٣١٩.

(٣) ابن كثير: البداية، ط٤، ٣٦٢/٩ - ابن حجر: تهذيب، ٤٤١/١ - ٤٤٢ - خليل الـزرو: الحيـاة العلمية في الشام، ص٣٠.

(٤) الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٢٢٠ - ابن حجر: نفس المصدر، ٣/٢-٤.

(٥) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٠٥.

(٦) الذهبي: نفس المصدر، ١٨٠/٧ - شوقي ضيف: الفن ومذاهبه، ص٧٦ - ٧٧.

المبحث الثالث

الكتابة التاريخية

نشأ علم التاريخ عند المسلمين منذ صدر الإسلام، وقامت الدراسات التاريخيـــة ذي بدء على دراسة سيرة الرسول ﷺ، ومغازيه، وبعض الأحداث الإسلامية الأولى، لذا كان أقدم أنواع الكتابة التاريخية ظهورًا، التدوين في السيرة النبوية، ونشـــأ ذلـــك مقرونًـــا بالاهتمام بسنته ﷺ، وعلى نحو دراسة الحديث، وبأيدي أهله، مرورًا بمراحـــل تـــدوين الحديث والسنة، متزامنًا معه[1].

وكان من الطبيعي أن تكون المدينة أول مراكز الحركة التاريخية، وبخاصة دراســـة السيرة ومغازي رسول الله ﷺ، حتى اعتبرت من العلوم الخاصة بأهل المدينة، فقيل: لا تمار أهل المدينة في المغازي. ثم يأتي بعدهم أهل الشام[2]. وإن كانت دراسة السيرة قد انتشرت في القرن الثاني إلى مراكز أخرى غير المدينة، كاليمن والعراق والشام[3].

غير أن حسين نصار[4] يقول: إن أول المدارس التاريخية ظهـــورًا، هـــي مدرســـة اليمن التي يمثلها عبيد بن شريه (المتوفى في خلافة عبدالملك بن مروان)، ووهب بـــن منبه (ت ١١٠ أو ١١٤هـ). ولعل صحة قوله تأتي في أسبقيتها فـــي دراســـة تـــاريخ اليمن وأهل الكتاب، أما دراسة السيرة والمغازي وأمر الفتوح، فليس ثمة شك في تقـــدم

---

(١) عن نشأة علم التاريخ عند المسلمين، انظر: عبدالعزيز الدوري: بحث في نشـــأة علـــم التـــاريخ، ص١٣ – ٢٠ – السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العـــرب، ص٤١ – ٧١ – حســـين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص٥ وما بعـــدها – شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ٧٤/١ – ١١٢ وما بعـــدها – محمـــد بـــن صـــامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص٢٩٣ – ٣٠٤ وما بعدها – خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص١٩٦ – ٢٠٨ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٢٧ – ٢٤٦.

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع، ص٥٤ – سعد الموسى: نفس المرجـــع، ص٢١ – خليـــل الزرو: نفس المرجع، ص١٩٩ – ٢٠٠.

(٣) عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ، ص٣٢٢ – شاكر مصطفى: نفس المرجع، ٨٤/١، ١١٩ – ١٢٥.

(٤) نفس المرجع، ص٧٣.

المدينة والشام والعراق عليها.

وقد مرت الكتابة التاريخية بثلاث مراحل، توازي مراحل تدوين الحديث بل تشاركه في بعضها. وتمثل فترة دراستنا جزءًا من المرحلة الثانية، وهي التي قام فيها المهتمون بعلم التاريخ بجمع الأخبار والأحداث (المادة التاريخية)، وتدوينها من الرواة ومما كتب قبل[١].، وأفراد كل موضوع على حدة في كتاب أو دفتر أو صحيفة تخصه بدون ترتيب أو تبويب وتعلمها وتعليمها مما أدى إلى حركة تاريخية نشطة واسعة، شملت مساحة واسعة في التاريخ وغطت كثيرًا من مواضع دراسته وألف في ذلك أعداد كبيرة من الكتب. لاشك أن معظمها أشبه بالرسائل الصغيرة التي لا تتجاوز بعض صفحات لكنها كانت تشكل في مجموعها المادة التاريخية التي اعتمد عليها المصنفون بعد[٢]. وقد قام على خدمة التاريخ في هذه المرحلة التابعون وأتباعهم[٣].

---

(١) عرف العرب التدوين التاريخي وغيره منذ الجاهلية، ولكنه كان محدودًا ونادر جدًا، لغلبة الأمية عليهم، واعتمادهم على الحفظ والرواية الشفهية، وما ذكر عن بعض الوثائق التاريخية من العصر الجاهلي، فهي حالات استثنائية نادرة. لذلك لم يصلنا أي كتاب مصنف في تاريخهم قبل الإسلام. (انظر/ محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص٢٧٣ - ٢٧٤ - عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ، ص١١٩ - ١٢٠)، إلا أنه مع بداية التاريخ الإسلامي، نشأ علم التاريخ عند المسلمين، ودونوا مادته منذ الصدر الأول، فدلت الأخبار أن كثيرًا من الصحابة والتابعين كتبوا الأخبار التاريخية، وفي مواضيعها المختلفة، فيما عرف بالكتابات الشخصية، التي كانت تأخذ من كل علم بطرف، إلى جانب بعضها البعض غير مرتبة ولا مبوبة. وتلك المرحلة الأولى للكتابة التاريخية، وهي التي تسبق مرحلة دراستنا - الثانية - التي أشرنا إلى سماتها أعلاه. (عن ذلك انظر/ محمد السلمي: نفس المرجع، ص٢٩٤ - ٢٩٦ - شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ص٩٣ - ٩٦ وما بعدها. وإن كان أدخل من مؤرخي المرحلة الثانية في المرحلة الأولى كالزهري. ومد المرحلة الثانية حتى نهاية القرن الثاني، والأرجح أنها تنتهي ببداية التصنيف في أواسط القرن الثاني).

(٢) أشار الذهبي إلى أن التصنيف المرتب المبوب للعلوم الإسلامية بما فيها التاريخ، قد حدث منذ سنة ١٤٣هـ. (شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ص٩٢ - ٩٣ - عبدالعزيز الدوري: نفس المرجع، ص١٢٠).

(٣) من أجل ما ذكرناه عن المرحلة الثانية وسماتها، انظر محمد السلمي: نفس المرجع، ص٢٨٦ - ٢٨٧ - شاكر مطصفى: نفس المرجع،، ص٩٦ - ٩٩. (وقد جعلا نهاية المرحلة الثانية في -

ولمعرفة حال هذا العلم إبان هذه الفترة، وأهم نشاطات وآثار أهله، نعرض لبعض مشاهير القائمين عليه، وما ورد عنهم في هذا الصدد، وهم:

أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ)[١]، أول من اشتهر بمعرفة المغازي والتأليف فيها[٢]، فقد ذكر أن له مغاز مكتوبة موثقة مصححة، حيث ورد أن سليمان بن عبدالملك لما حج سنة ٨٢هـ أي قبل توليه الخلافة، أمر أبان أن يكتب له سيرة النبي ﷺ ومغازيه، فقال أبان: «هي عندي، قد أخذتها مصححة ممن أثق به»، فأمر سليمان بنسخها وألقى بها إلى عشرة من الكتاب، فكتبوها في رق، وكانت هذه المغازي تحوي ذكر الأنصار في العقبتين، وذكرهم في بدر[٣]. ويفهم من الرواية السابقة أن المغازي كانت مكتوبة عند أبان، وقد أخذها أيضًا ممن يثق به مكتوبة مصححة وليس عن طريق الرواية الشفهية.

وقد روى مغازيه هذه تلميذه المغيرة بن عبدالرحمن (ت ١٢٥هـ)[٤]، ويبدو أنها ليست كتابًا بالمعنى الدقيق، وإنما هي مجموعة أخبار متعلقة بسيرة الرسول ﷺ، تماثل

- أوائل القرن الثالث، إذ جعلا بداية الثالثة هو ظهور المؤلفات التاريخية الشاملة على أساس الترتيب الزمني المتسلسل. مع أن السلمي أشار في (ص٢٩٠ - ٢٩١) إلى أن بدايات التأليف على السنين ظهر منذ منتصف القرن الثاني، وعلى هذا الأساس فإن الأرجح أن يكون منتصف القرن الثاني (أي بداية التصنيف المبوب المرتب) هو نهاية المرحلة الثانية وبداية الثالثة. أما ما حدث بعد ذلك من ظهور المدونات الشاملة على السنين أو الطبقات وغير ذلك، فإنه تطور في مناهج وأساليب وأشكال التدوين التاريخي.

(١) أبان بن عثمان بن عفان، الإمام الفقيه الأمير، الأموي المدني، وفد على عبدالملك، وتولى أمرة المدينة سبع سنوات (ت ١٠٥هـ). (الذهبي: سير، ٣٥١/٤ - ٣٥٣).

(٢) هوروفتس: المغازي، ص٣ - حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي، ص٢٧ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٢٨. لكن محمد بن صامل السلمي، الذي أشار إلى الدور المميز لعروة بن الزبير (٢٢ - ٩٣هـ) في إرساء قواعد الكتابة في السيرة النبوية، ينقل عن ابن كثير من قول محمد بن عمر: أن عروة أول من صنف في المغازي. وذكر أن له كتابًا في المغازي. (انظر/ منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص٢٩٧ - ٢٩٨).

(٣) سعد الموسى: نفس المرجع، ص٢٢٧ - ٢٢٨.

(٤) هوروفتس: نفس المرجع، ص٣ - ١٠ - حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب - محمد السلمي: نفس المرجع، ص٢٩٦ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٥٨.

الصحائف، ويظهر أن تلك المجموعة قد ضاعت، ولم ينقل عنه أصحاب السيرة، كابن إسحق والواقدي وابن سعد في الجزء المخصص للسيرة في طبقاته[١]. وليس ذلك لكون مغازيه لا تعدو أحاديث عن حياة النبي عليه السلام وسيرته، بل تضمنت أخبارًا أخرى نقل بن سعد بعضها، فقد ذكر عنه خبر آخر الكلمات التي قالها عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند مماته، وشراء معاوية رضي الله عنه لبردة الرسول ﷺ التي أعطاها كعب بن زهير[٢]. كما أشار إلى مغازيه من المؤرخين اليعقوبي[٣]، والطبري[٤]. وهذا يعني عدم النقل عنه في كتب السيرة، وندرة الرواية عنه في كتب التاريخ العامة غير أن اسمه كثيرًا ما تردد في كتب الحديث، والسبب وراء ذلك كونه محدث أكثر من مؤرخ[٥]، ولعله أيضًا لم يرزق تلامذة يقومون بنشر علمه بعده[٦]، كما أنه كان يمثل مرحلة انتقال بين دراسة الحديث وبين دراسة التاريخ[٧].

وعلى كل فكثير من المؤرخين يعتبرون أبانًا أول من دون السيرة، وجعل لها مجموعة خاصة تتناول المغازي، فكان بذلك أول من فصل التاريخ عن علم الحديث[٨].

وهب بن منبه[٩]، الإمام العلامة الإخباري القصصي[١]، مؤرخ كثير الأخبار عن

---

(١) هورفتس: المغازي، ص٣ - حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي، ص٢٧ - ٢٨.

(٢) التاريخ والمؤرخون العرب، ص٥٥.

(٣) حسين نصار: نفس المرجع، ص٢٨ - ٢٩.

(٤) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ص١٥٢ - عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ، ص٢١.

(٥) عبدالعزيز الدوري: نفس المرجع والصفحة.

(٦) محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص٢٩٦.

(٧) عبدالعزيز الدوري: نفس المرجع والصفحة - شاكر مصطفى: نفس المرجع والصفحة.

(٨) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٢٨ - هوروفتس: نفس المرجع، ص١٠.

(٩) وهب بن منبه، الأبناوي، اليماني، أصله فارسي من الأبناء في اليمن، يعد في التابعين الثقات، كان على قضاء صنعاء، محدث، لكن روايته في المسند قليلة، وغزارة علمه في الإسرائيليات، ومن صحائف أهل الكتاب أتهم بالقدر، ورجع عنه، ويقال ألف فيه كتابا، ثم ندم عليه. ولد بصنعاء (سنة ٣٤هـ)، ومات بها (سنة ١١٠ أو ١١٤هـ). انظر عن ترجمته/ الذهبي: سير، ٥٤٤/٤ - ٥٥٧ - الزركلي: الأعلام، ١٢٥/٨ - ١٢٦.

الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين وخاصة الإسرائيليات[٢]، كان له مساهمة مميزة في الكتابة التاريخية، مما رواه من مادة تاريخية وما دونه في مجالات متعددة للدراسة التاريخية. لقد كان لأصله ونشأته وثقافته كبير الأثر في كتابته التاريخية، فهو يمني تابعي من الأبناء، ذكر أنه قرأ (٧٠ أو ٧٢ أو ٧٣ أو ٩٢) من الكتب المقدسة، وعرف اللغة اليونانية والسريانية والحميرية، فكان على ثقافة واسعة، وكون بها مدرسة تاريخية يمنية لها سماتها المميزة[٣].

فقد كتب وهب في أربعة فروع من التاريخ، كان المؤسس لبعضها هي:

الأول: قصص الأنبياء السابقين، وأحاديث أهل الكتاب، أو ما عرف بالإسرائيليات، وهي قصص وأساطير العهد القديم، وفي هذا الجانب، دون كتاب «المبتدأ»، وهو في مبدأ الخلق وسير الأنبياء، فهو أول محاولة لكتابة تاريخ الرسالات، وبه يكون وهب أول من وضع الهيكل القصصي لتاريخ العالم على أساس سلسلة الرسل والنبوات[٤]، كما نسب له كتاب «الإسرائيليات» لكن هوروفتس[٥]، يرجح أن يكون كتاب الإسرائيليات هو كتاب المبتدأ، وإنما أطلق هذا الاسم عليه في وقت متأخر، لغلبة الإسرائيليات على ما جاء في ذلك الكتاب. بينما يظن حسين نصار[٦]، أن كتاب الاسرائيليات عبارة عن مجموعة من أخبار استقاها من أهل الكتاب، جمعها بعض المتأخرين وزاد عليها حتى صارت في كتاب. ولوهب من المدونات في هذا الجانب أيضًا كتاب «قصص الأنبياء»،

---

(١) الذهبي: سير، ٥٤٤/٤.

(٢) الزركلي: الأعلام، ١٢٥/٨.

(٣) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ١٣٨/١، ١٥٤ - ١٥٥ - هوروفتس: المغازي، ص٣٠ - حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي، ص٣٧ - السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص٤٨.

(٤) شاكر مصطفى: نفس المرجع، ١٣٨/١ - هوروفتس: نفس المرجع، ص٣١ - ٣٣ - عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ، ص١١٣ - السيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع، ص٤٧.

(٥) نفس المرجع، ص٣١ - ٣٢.

(٦) نفس المرجع، ص٣٧.

أظنه المبتدأ، «وقصص الأخيار»[1].

الثاني: الكتابة في تاريخ اليمن القديم، وينسب إليه في هذا الجانب، كتاب «الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم». وهو مطبوع بعنوان «التيجان لمعرفة ملوك الزمان مع كتاب أخبار عبيد بن شريه»[2] وإن كان حسين نصار[3]، يقول: أنه لم يصل إلينا هذا الكتاب وإنما وصل إلينا: «كتاب التيجان في ملوك حمير». وهو من رواية عبدالملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبي إدريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه. لكنه يشير إلى تصرف ابن هشام فيه، وإضافة أشياء من غير وهب. وتتميز كتاباته في هذا المجال أنها أسطورية، تأخذ عن الإسرائيليات، والقصص الشعبي، وإطلاق الخيال، وإدخال الشعر فيها، في أسلوب ادبي، يحكي مفاخر عرب الجنوب[4].

الثالث: ويذكر حاجي خليفة أن وهبًا جمع المغازي، وقد وجد قطعة من كتاب المغازي هذا، عثر عليه بيكر بين مجموعة أوراق بردي «شت رينهاردت» المحفوظة في هيدلبرج، وتاريخ نسخها (سنة ٢٢٨هـ)[5]، واتضح عدم اقتصارها على المغازي، لتعرضها لموضوعات أخرى من السيرة، و الحق أن ليس فيها جديد، لكنها تؤيد ما يقال أن السيرة كانت تروى في عام (١٠٠هـ) أو قبله بقليل، كما في الكتب المتأخرة بالضبط[6].

---

(١) الزركلي: الأعلام، ١٢٦/٨. (ويعتقد حسين نصار أن هذين الكتابين جزء من المبتدأ. انظر/ نشأة التدوين التاريخي،، ص٣٦ – ٣٧).

(٢) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ١٣٨/١ – ١٣٩.

(٣) نفس المرجع، ص٣٨.

(٤) عن أسلوبه في كتابة التاريخ القديم، انظر: حسين نصار: نفس المرجع، ص٣٩ – ٤٤ – عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ، ص٢٦، ١١٠.

(٥) نقل عبدالعزيز الدوري نص هذه القطعة، (انظر/ نفس المرجع، ص١١٥ – ١١٧).

(٦) هوروفتس: المغازي، ص٣٤ – ٣٦ – محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص٢٩٩ – ٣٠٠ – عبدالعزيز الدوري: نفس المرجع، ص٢٥، ١١٢ – أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٥٨.

الرابع: تاريخ الفتوح، إذ ينسب حاجي خليفة إليه «كتاب الفتوح»[1].

ومع ذلك فإن وهبا جاء أهل المدينة باتجاه جديد وأسلوب مغاير، اخذ طابع القصص، والأسطورة، دون سند، ولا دقة، وكان عماد الإسرائيليات، مما جعل العلماء لا يأخذون أحاديثه مأخذ الجد، وصارت معلوماته موضع ريبة، فاعتبر نموذج الإخباري القاص، ولم يذكروه في أصحاب المغازي والسير. لكن ذلك لم يمنع أثره في مدرسة المدينة التاريخية، كما لم يمنع الإسرائيليات من أن تدخل التاريخ والتفسير، وقد أخذ عنه الكثير من المؤرخين والمفسرين[2].

وعاصم بن عمر بن قتادة[3]، راوية العلم، والعالم بالسيرة و المغازي، ومعلم المغازي في جامع دمشق والمسجد النبوي. قال عنه ابن سعد[4]: «كانت له رواية للعلم، وعلم بالسيرة، ومغازي رسول الله ﷺ». وأضاف «وفد على عمر بن عبدالعزيز في خلافته في دين لزمه فقضاه عنه عمر، وأمر له بعد ذلك بمعونة، وأمره أن يجلس في جامع دمشق فيحدث الناس بمغازي رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه، وقال: أن بني مروان كانوا ينهون عنه، فأجلس فحدث الناس بذلك، ففعل، ثم رجع إلى المدينة فلم يزل بها حتى توفى».

وقد ذكر هوروفتس[5]: أنه ظل يشرح معارفه بالمدينة بعد عودته إليها أمام

---

(١) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ١٣٩/١ - حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي، ص٤٤ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ٥١٣/١ - هوروفتس: المغازي، ص٣٣ - ٣٤.

(٢) عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التأريخ، ص٢٦ ١٠٤ - شاكر مصطفى: نفس المرجع، ١٥٤/١ - ١٥٥ - حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي، ص٨.

(٣) عصام بن عمر بن قتادة الأنصاري المدنين ثقة كثير الحديث، عالمًا مشهورًا، (ت ١١٩هـ على خلاف). انظر/ ابن حجر: تهذيب، ٤٧/٥.

(٤) الطبقات: القسم المتمم، ص١٢٧ - ١٢٩ - ابن حجر: نفس المصدر والجزء والصفحة - هوروفتس: نفس المرجع، ص٤٧ - ٤٨ - شاكر مصطفى: نفس المصدر والجزء، ص١٥٦.

(٥) نفس المرجع والصفحات (وقد حدد تاريخ عودته سنة ١٠١هـ ولعل ذلك بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز، وتولي يزيد الذي قد يكون على رأي بعض أسلافه في النهي عن تدريس المغازي في جامع دمشق).

سامعيه حتى توفي. وقد اشتهر بأحاديثه عن حياة المصطفى ﷺ، حتى وصفه ابن قتيبة ب «صاحب السير والمغازي»[1].

ويتبين من ذلك، أن عاصمًا كان من العلماء المشهودين بمعرفة السيرة والمغازي، وأن علم التاريخ من العلوم التي أصبحت تدرس في المساجد في حلقات مستقلة، كما يشير الخبر، أن بني أمية قبل عمر كانوا يمنعون تدارس المغازي في جامع دمشق[2]، وأخيرًا، أن عاصما لم يستمر في تدريس المغازي والسير في جامع دمشق في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، وعاد إلى المدينة حيث واصل تعليمه لتلاميذه هناك، ولا نعلم الأسباب التي وراء ذلك.

ويعد عاصم من الثقات، وقد اعتمد عليه ابن اسحق والواقدي فيما رواه من المغازي، لكن لم يقتصر على المغازي، بل تطرق إلى جوانب أخرى من السيرة وتاريخ الخلفاء الراشدين. أما أسلوبه، فإنه يعتمد الإسناد تارة ويهمله أخرى، ويدخل أشعار المشاركين في الأحداث فيما يرويه من أخبارهم، ولم يكن عاصم جامعًا للأخبار وراو لها فحسب، إذ نجده أحيانًا يبدي رأيه في بعض الأحداث ومسبباتها[3].

وشرحبيل بن سعد[4]، أحد علماء المغازي بالمدينة، قال عنه سفيان بن عيينة: لم يكن أحد أعلم بالمغازي والبدريين منه، وقد دون قوائم بأسماء الصحابة المشاركين في الغزوات الكبرى[5]، والمهاجرين إلى الحبشة والمدينة[1].

---

(1) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي، ص٤٥.

(2) يشير شاكر مصطفى إلى ما يؤيد هذا القول، فإنه يذكر أن عبدالملك بن مروان أمر بحرق كتاب من المغازي وجده بيد بعض أبنائه، لأنه يشغله عن القرآن والسنة. (انظر/ التاريخ العربي والمؤرخون، ٨٢/١).

(3) ابن حجر: تهذيب، ٤٧/٥ - هوروفتس: المغازي، ص٤٧ - ٤٩ - حسين نصار: نفس المرجع، ص٤٥.

(4) شرحبيل بن سعد الخطمي مولى الأنصار، روى وروى عنه، يكتب حديثه، وكان يفتي، قيل ليس بثقة، وقيل ليس بشيء، ضعيف، وروى أن ابن معين وثقه. (ت ١٢٣هـ) عن أكثر من مئة سنة. (ابن حجر: نفس المصدر، ٢٨٢/٤ - ٢٨٣).

(5) ابن حجر: نفس المصدر والجزء، ص٨٢٨ - سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٢٨ - ٢٢٩.

وهو الإسم الثالث الذي يذكر مع أبان وعروة[٢]، لكنه لم يبلغ مكانتهما، وبذلك يعد في الطبقة الأولى من مؤرخي السيرة[٣].

وقد اتهم شرحبيل وضعف، فأسقطوا مغازيه وعلمه، إذ احتاج على كبر، فخشى من يطلبه أن لم يعطه شيئا، أن يقول لم يشهد أبوك بدر، فيعطيه، واتهم بأنه قد يجعل سابقة لمن لا سابقة له[٤]. فلم يرو عنه ابن اسحق والواقدي، بينما وقف موسى بن عقبة إلى جانبه، وأخذ ابن سعد عنه خبرا واحدا.

ومحمد بن مسلم الزهري (ت ١٢٤هـ)، مؤسس المدرسة التاريخية بالمدينة والشام[٥]، الذي قام باستقصاء روايات المدينة، والبحث عنها، وضبطها، وتدوينها، بصورة منظمة ووضعها في إطار متين وواضح، وكان أول من وضع للسيرة هيكلا محددا، وخطوطا واضحة. فوضع بدراساته الجدية أسس المغازي وحفظ الروايات التاريخية الأولى[٦]. ويمثل الزهري مع عبدالله بن أبي بكر بن حزم (ت ١٣٥هـ)، وعاصم بن عمر سابق الذكر، الجيل الثاني بعد أبان وعروة وشرحبيل بن سعد. وقد قام هذا الجيل – الثاني – بتنمية وتوسيع دراسة المغازي، وكان للزهري، دور وطريقة مميزة، سار عليها تلاميذه مثل موسى بن عقبة وابن اسحق[٧].

لقد قام الزهري بهذا الدور، لما تمتع به من سعة العلم والثقافة، فقد كان إماما جامعا، حاول أن يجمع كل ما يتعلق بسيرة المصطفى ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين، وقد

---

(١) عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ، ص٢٢ – السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص٥٧ – هوروفتس: المغازي، ص٢٥ – ٢٦.

(٢) هوروفتس: نفس المرجع، ص٢٥.

(٣) السيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع والصفحة.

(٤) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ – هوروفتس: نفس المرجع، ص٢٦ – ٢٧ (وذكر أنه اختل عقله على كبر إلى جانب الفقر) – شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ١/١٥٤.

(٥) عبدالعزيز الدوري: نفس المرجع، ص١٠١ – السيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع، ص٥٨ – ٥٩ – شاكر مصطفى: نفس المرجع والجزء، ص١٥٧.

(٦) عبدالعزيز الدوري: نفس المرجع، ص٢٣ – ٢٤، ١٠١ – ١٠٢ – السيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع، ص٥٨ – ٥٩.

(٧) عبدالعزيز الدوري: نفس المرجع، ص٢٣، ١٠١ – ١٠٢.

روى السيرة عن عروة بن الزبير، وزاد عليها ما جمعه[١].

لقد لخص الطبري دوره كمؤرخ بقوله: كان محمد الزهري مقدمًا في العلم بمغازي رسول الله ﷺ، وأخبار قريش والأنصار، راوية لأخبار رسول الله ﷺ وأصحابه[٢].

ويقول شاكر مصطفى: كان عالمًا بالأنساب عالمًا بأخبار عهد الرسالة والراشدين، خصب الإنتاج، كان يكتب كل ما يعرف[٣].

كما كان عالمًا بسير الأنبياء وأهل الكتاب[٤]، وكان قد درس أنساب قومه على يد عبدالله بن ثعلبة[٥].

ولقد تمثلت دراساته فيما رواه ودونه من الكتب في الميدان التاريخي، فقد نسب له كتاب «مشاهد النبي ﷺ»[٦]، و«سيرة الزهري» التي نقل عنها أبوالقاسم السهيلي، ووصفها بقوله: وهي أول سيرة ألفت في الإسلام[٧]. كذلك روى أنه جمع كتابًا في المغازي[٨]، وقد أشار إلى تأليف في المغازي الإمام البخاري، وذكر السخاوي أن الزهري روى المغازي عن عروة، وأشار حاجي خليفة إلى مغازي الزهري ضمن المصنفات في المغازي[٩]. كما طلب منه خالد القسري كتابة السيرة له[١٠]، لكن لا يعرف شيء عن تلك السيرة التي كتبها لخالد ولعله لم يكملها[١١]. وقد تكون هي سيرة الزهري التي نقل عنها السهيلي. كما أمره خالد القسري أيضًا بالكتابة عن القبائل العربية

---

(١) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة ص٢٢٩.

(٢) عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ، ، ص٨١.

(٣) التاريخ العربي والمؤرخون، ص ١٥٧.

(٤) ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٣٥٦.

(٥) هوروفتس: المغازي، ص٦٠.

(٦) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي، ص٤٧ – سعد الموسى: نفس المرجع، ص٢٢٩.

(٧) سعد الموسى: نفس المرجع والصفحة.

(٨) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٥٨.

(٩) عبدالعزيز الدوري: نفس المرجع، ص٧٩.

(١٠) حسين نصار: نفس المرجع، ص٤٦ – هوروفتس: نفس المرجع،، ص٦٠ – ٦٨.

(١١) خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٢٠٤.

الشمالية، ففعل، لكنه لم يتمه، ويتضح أنه كتاب «نسب قومه» الذي ذكر أنه ألفه[١]، وقد ذكر أنه دون كتابًا في «نسب قريش»، اتخذه مصعب الزبيري في كتابه نسب قريش[٢]. ويبدو أنه نفس الكتاب سالف الذكر، فلعله بدأ من الكتابة عن عرب الشمال فبدأ بقريش أو مضر ولم يتمه، فذكر على هذا الأساس أنه دون في نسب قومه أو نسب قريش، وهو اختلاف لفظي لكتاب واحد. وقد عرف الزهري بمعرفة الأنساب، ينقل ابن كثير من قول الليث فيه[٣]: «وإن حدث عن الأعراف والأنساب قلت: لا يحسن إلا هذا».

ويذكر أنه كتب «أسنان الخلفاء» بطلب من الوليد بن عبدالملك[٤]، وآخر الأحداث التي رواها الزهري، كان آخر عهد الخلفاء الراشدين، إذ لم يرو عنه شيئًا يذكر عن تاريخ بني أمية[٥]. ويظهر أنه لم يعالج الفترة الأموية، إلا ما كتبه عن أسنان الخلفاء[٦].

وسيرة الزهري تشمل حياة الرسول ﷺ كلها، المغازي وغيرها، مبتدئة بما يتصل بحياته من قبل الإسلام حتى وفاته، مراعيًا في التسلسل التاريخي، وتأريخ بعض الحوادث الكبرى، مستخدمًا الإسناد الجمعي، حيث يدمج أكثر من رواية في خبر واحد عن الحدث الواحد. وهو بذلك يسير خطوة هامة نحو الكتابة التاريخية المتصلة، وكان يرسل أخباره أحيانًا. وسيرته معتمدة على الحديث، لا تجد فيها أثرًا لقصص الأنبياء إلا نادرًا، ولم يكن يدخل أشعار المشاركين في الأحداث عند روايتها إلا قليلاً. ولقد تميز أسلوبه الكتابي بالوضوح والسهولة والبساطة والجمال، كما كان ذي طابع إنساني

---

(١) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي، ص ٤٦ - هوروفتس: المغازي، ص ٦٠ - ٦٨.

(٢) عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ، ص٢٤، ٩٦ - السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص٥٩.

(٣) البداية، ط٤، ٣٥٦/٩ - عبدالعزيز الدوري: نفس المرجع، ص٤٧.

(٤) هوروفتس: نفس المرجع، ص٦٠ - ٦٨ - حسين نصار: نفس المرجع، ص٤٧ - السيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع، ص٦٠.

(٥) خليل الزرو: الحياة العلمية في بلاد الشام، ص٢٠٣ - ٢٠٤ - السيد عبدالعزيز سالم: نفس المرجع والصفحة.

(٦) عبدالعزيز الدوري: نفس المرجع، ص٩٧ - ٩٨.

ملتزم، بعيد عن التأثر عن الآراء والنظريات المذهبية والسياسية[١].

وقد أثرى الزهري علم التأريخ بمعارفه التاريخية، فعلم ودون ونشر، وقلما نجد مصدرًا تاريخيًا ظهر بعد القرن الثاني ليس للزهري اسمًا فيه[٢]، كما احتوت كتب الحديث والسير على علمه. ولكن لم يصل إلينا مع كل هذا العلم وما دون شيء من كتبه[٣]، إلا أن بعض المتأخرين جمع الأحاديث التي احتوتها كتب الحديث من مدوناته، في كتاب سماه «الزهريات»[٤] وقد نشر سهيل زكار مرويات الزهري في كتب الحديث، في كتاب باسم «المغازي»، وأدعى أنها هي السيرة التي كتبها الزهري[٥].

وممن كان لهم مشاركات في خدمة علم التاريخ، عكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٥هـ)، قال عنه سفيان بن عيينة: «كنت إذا سمعت عكرمة يحدث الناس عن المغازي كأنه مشرف عليهم، ينظر كيف يصنعون ويقتتلون»[٦]. والقاسم بن محمد بن أبي بكر (ت ١٠٧هـ) الذي نقل عنه بعض المؤرخين نصوصًا حول المغازي وأخبار الخلفاء[٧]. وعامر الشعبي (ت ١٠٩هـ)، كان عالمًا بالمغازي حافظًا لها، محدثًا بها، روى أن ابن عمر مر بالشعبي وهو يحدث بالمغازي، فقال: شهدت القوم وأنه أعلم بها من[٨]، ويقول شاكر مصطفى[٩] عنه: اشتهر في الواقع بما روى من الأخبار في

---

(١) عن منهجه وأسلوبه في كتابه السيرة والمغازي، انظر/ عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة التدوين التاريخي، ص٢٣ – ٢٥ – حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي، ص٤٧ – ٤٩ – هوروفتس: المغازي، ص٦٠ – ٦٨ – السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص٥٩ – خليل الزرو: الحياة العلمية في بلاد الشام، ص٢٠٢.

(٢) خليل الزرو: نفس المرجع والصفحة – حسين نصار: نفس المرجع، ص٤٨.

(٣) حسين نصار: نفس المرجع، ص٤٧ – سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٣٠.

(٤) حسين نصار: نفس المرجع والصفحة.

(٥) سعد الموسى: نفس المرجع والصفحة وهامش واحد منها.

(٦) ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٢٥٥.

(٧) سعد الموسى: نفس المرجع، ص٢٤٠.

(٨) الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٨١ – ابن حجر: تهذيب ٥/٥٩.

(٩) التاريخ العربي والمؤرخون، ١/١٧٥ – ١٧٦.

الإسرائيليات، وفي القصص، والتبابعة، وأخبار اليمن، والمغازي. وأضاف: أن اسمه ورد في مواضع عديدة لدى الطبري. وقال عنه أيضًا: لم تذكر الشعبي لم كتب وألف ولكن لما روى. وقد أخذت عنه رواياته لغيره، ثم ذكر أنه ألف كتابًا في المغازي وآخر باسم «كتاب الشورى ومقتل الحسين»[1]، وكتابًا في الفتوح أملاه إملاء دون أصول. ذاكرًا أنه لم يصلنا من كتبه شيء، إلا نتفا في بعض المصادر.

ومحمد بن كعب القرظي (ت ١١٧هـ)، اهتم بأخبار اليمن وروى الكثير منها، وقد روى عنه الطبري بعض أخبار اليمن والأنبياء ويهود الحجاز[2]. ويزيد بن أبي حبيب (ت ١٢٨هـ)، كان عالمًا بالفتن والحروب، وخاصة ما يتعلق بفتوح مصر وشئونها وولاتها، وهو أحد من اعتمد عليهم الكندي في كتابه ولاة مصر وقضاتها، كما ترك عدة كتب في أخبار مصر وفتوحها[3] ويعقوب بن عتبة بن المغيرة (ت١٢٨هـ)، أحد العلماء بالسيرة[4]. ويزيد بن رومان الأسدي (ت ١٣٠هـ)، الذي ألف كتابًا في المغازي، وصل إلى الواقدي[5].

ويتبين من هذه الدراسة المقتضبة للكتابة التاريخية في فترة بحثنا، إلى أن هذا العلم كان في مرحلة يخطو بها نحو النضوج، إذ عاش التاريخ آنذاك مرحلة الجمع والتدوين المستقل في كتب تخص التاريخ، ليبدأ تميز شخصية هذا العلم وتلمس معالمه الخاصة بعيدًا عن العلوم الأخرى التي كان يعيش في أحضانها، وخاصة الحديث.

ولقد لمسنا أن الكتابة التاريخية، حظيت باهتمام صفوة من العلماء، كان جلهم من العرب، الذين طرقوا عددًا من جوانب الدراسات التاريخية، ودونوا فيها الكثير من المؤلفات، التي لم يصلنا منها وبكل أسف إلا شذرات ونتف.

---

(١) أورد اسمه في مكان آخر «كتاب الشورى ومقتل عثمان». (انظر نفس المرجع، ص٨٣).

(٢) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ١/١٣٧.

(٣) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٩١ – محمد النجار: الدولة الأموية في الشرق، ص١٦٩ – ١٧٠ – شاكر مصطفى: نفس المرجع، ص٨٢ – ٨٣.

(٤) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٤١.

(٥) شاكر مصطفى: نفس المرجع، ١/١٥٧.

وكانت دراساتهم قد شملت السيرة، والمغازي، وبعض حوادث الإسلام الأخرى، وتاريخ ما قبل الإسلام، والأنساب، وقصص الأنبياء، والتواريخ الإقليمية. وقد قامت تلك الدراسات على أسس واضحة، واتجاهات مختلفة، تدعو إلى الثبات والتأمل من ناحية، والنمو والتوسع والشمول من ناحية أخرى، لترسم للأجيال القادمة، خطوطًا ومعالم علم سيكون له مكانة متميزة بين العلوم الإسلامية الأخرى.

المبحث الرابع

مظاهر النشاط العلمي

أبنّا في التمهيد أن للحركة العلمية ونهضتها قبل عهد الخليفة يزيد، مظاهر نشاط علمي، تتمثل في المؤسسات العلمية من مساجد وكتاب ومكتبات، ورجال العلم من علماء ومعلمين ومؤدبين، ومناهج تعليم وطرق وأساليب تدريس، وفضل علماء وآداب متعلمين، واهتمام الخلفاء ورعاية الدولة لتلك الحركة وطلاب العلم والعلماء[1].

حلقات العلم في المساجد:

استمرت الحركة العلمية في عهد يزيد تتنامى نهضتها ويتواصل عطاء أهلها، وكان لنشاط تلك الحركة مظاهره في عهده أيضًا. وقد ظل المسجد يؤدي دوره الرائد في خدمة الحركة العلمية، وبخاصة الجوامع الكبرى في الأمصار الإسلامية[2]، وواصل العلماء في حلقات التدريس بها، تعليم الناس وتفقيههم، في حلقات فردية لعالم جامع يتناول موضوعات شتى فيما يلقيه كالحسن البصري (ت ١١٠هـ) في حلقته بجامع البصرة[3]، أم لعالم يختص تعليمه بجانب علمي كتعلم القراءة على يد كبار المقرئين، كأخذها عن عبدالله بن عامر (١١٨هـ)[4]، أو تعليم عاصم بن عمر بن قتادة (ت ١١٩هـ) للمغازي في جامع دمشق ثم المسجد النبوي[5]. أو حلقات ثنائية يشترك في الإلقاء بها أكثر من عالم كحلقة سالم بن عبدالله بن عمر (ت ١٠٦هـ)، والقاسم بن محمد بن أبي بكر (ت ١٠٧هـ) في مسجد المصطفى ﷺ. كما كان لبعض الأسر حلقات تخصها، كحلقة آل

---

(١) انظر ما أوردناه في التمهيد عن مظاهر النشاط العلمي قبل يزيد، ص ١٩ - ٢٥.

(٢) ذكرنا أشهرها في التمهيد، انظر: ص ٢٣.

(٣) من أجل علم الحسن البصري وما قام به من دور مميز في خدمة العلوم الإسلامية، (انظر ص٤٧٧، ٤٨٩، ٥٠٢، ٥٢١).

(٤) انظر ذلك قبل: المبحث الأول، ص ٤٧٣.

(٥) انظر ما أوردناه عن ذلك قبل: ص ٥٦١ - ٥٦٢.

حزم[1].

مجالس العلماء:

كما كان لبعض العلماء مجالس علم في منازلهم إلى جانب حلقاتهم العلمية في المساجد، فقد كان للزهري (ت ١٢٤هـ) مجالسه التي يسامر فيها الناس ويطعمهم الثريد ويسقيهم العسل، ويتجاذبون الحديث[2]. كما كان لمحمد بن المنكدر (ت ١٣١هـ)، وهو من سادات القراء، مجلس علم، يقول أبومعشر فيه: «كان سيدًا يطعم الطعام، ويجتمع عند القراء»[3] وكذلك مجلس يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس (ت ١٢٨هـ)[4].

وكان للتعلم على أيدي هؤلاء العلماء في حلقاتهم ومجالسهم، أساليبه وآدابه، إذ يأتي طلاب العلم ويسألون العلماء[5]، فيروون لهم الأحاديث والأخبار، أو يفتونهم، ويملون عليهم الإجابات، أما من الذاكرة وهو الغالب، أو من كتاب أو صحيفة، والطلاب منهم من يحفظ، ومنهم من يدون ومن العلماء من يأذن بالكتابة عنه، ومنهم من يمنع ذلك، ومن دون من التلاميذ، عرض ما كتب على شيخه، أو على نسخته المقابلة، توثيقًا وضبطًا.

ولم يكن أحد من العلماء يأذن بنشر مروياته وكتبه، إلا عن طريق التحديث أو

---

(١) عن الحلقات العلمية، انظر/ سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٨٩ – ٩١ – أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٦٥ – ١٧٤ – ابن حجر: تهذيب، ١٠٢/٣، ٤٨٨/٩، ٣٦٨/١٠ – ٣٧٠ – الذهبي: سير، ٨٤/٥، ١٨٦ – ١٨٧.

(٢) الذهبي: نفس المصدر، ٣٣٥/٥.

(٣) انظر ذلك في ترجمته عند/ الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٣٥٣ – ٣٦١.

(٤) سعد الموسى: نفس المرجع، ص٩٠.

(٥) ليست هذه الطريقة مطلقة، فمن العلماء من له من الهيبة ما يمنع التلاميذ من سؤاله، إلا أن يتكلم من تلقاء نفسه، أو يسأله أحد نزل به أمر، يقول الزهري «ولقد كنا نجلس عند ابن المسيب فما يستطيع أحد منا أن يسأله عن شيء إلا أن يبتدئ الحديث، أو يأتي رجل يسأله عن شيء قد نزل به». (انظر/ الذهبي: نفس المصدر، ٣٣٥/٥).

الإجازة، وكان لا يعتمد على الوجادة[1] إلا في أضيق الحدود، فالاعتماد كان على السماع من أفواه الشيوخ أو القراءة عليهم[2]، حتى تحصل لهم الإجازة بالرواية عنهم، ومن هنا لزم الرحلة في طلب العلم وجاءت أهميتها[3].

وكان العلماء يقدمون لتلاميذهم وآخذي العلم عنهم ما يناسب مستواهم العقلي، يقول الزهري: «ما حدثت قومًا حديثًا قط لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم»[4]. ولعروة بن الزبير قول شبيه بهذا[5].

ويرون أن أفضل الوسائل لإدراك العلم وفهمه، أخذه درجة درجة، يقول الزهري: من طلب العلم جملة فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديثًا وحديثين، كما كان يكره تكرار الحديث[6]، وينتقد من يستفهمه عن قول ذكره[7]. لذلك أن من العلماء في تلك الحقبة من يحث على الكتابة ويعين عليها، فقد كان عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ) يحض طلابه على التعلم و الكتابة، وكانوا يكتبون بين يديه، وكان يقول: «يا غلمان، تعالوا اكتبوا، فمن كان منكم لا يحسن كتبنا له، ومن لم يكن معه قرطاس أعطيناه من عندنا»[8].

ويقول الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٥هـ): «إذا سمعت شيئًا فاكتبه ولو في حائط»[9].

وكان طلاب العلم يسألون عما يريدون، يطوفون على من لديهم شيء من العلم

---

(١) الوجادة: تعني أن يجد أحد صحيفة أو كتاب لعالم ما، فيروي ما فيها، أو يحدث منها، أو ينقل عنها، دون أن يسمع منه، أو يعرض عليه ما فيها. ودون إجازة ولا مناولة.

(٢) يقول الزهري: «القراءة على العالم والسماع منه سواء إن شاء الله». (الذهبي: سير، ٣٣٨/٥).

(٣) محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص٢٨٥ – ٢٨٦.

(٤) خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٢٢.

(٥) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٤.

(٦) خليل الزرو: نفس المرجع، ص٢٢.

(٧) الذهبي: نفس المرجع، ٣٣٣/٥.

(٨) محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٢٧ – صبحي الصالح: علوم الحديث، ص٤٤.

(٩) محمد الخطيب: نفس المرجع، ص٣٢٦.

فيحفظون ويكتبون، وقد يلازم طالب العلم شيخه عدداً من السنوات يأخذ عنه العلم، حرصًا على العلم دون كلل أو ملل، يقول الزهري: «مست ركبتي ركبة سعيد بن المسيب ثماني سنين»[١].

ومما يذكر في هذا الصدد تطور طريقة الدراسة في حفظ كتاب الله، في خلافة يزيد بن عبدالملك، ينقل ابن عساكر[٢] أن عبدالله بن العلاء قال: «كنا ندرس في مجلس يحيي بن الحارث[٣] في مسجد دمشق، في خلافة يزيد بن عبدالملك إذ خرج علينا أمير دمشق الضحاك بن عبدالرحمن بن عرزب الأشعري من الخضراء، فأقبل علينا منكرًا لما نصنع فقال: ما هذا وأنتم؟! فقلنا ندرس كتاب الله. فقال: أتدرسون كتاب الله تبارك وتعالى؟ إن هذا شيء ما سمعته ولا رأيته ولا سمعت أنه كان قبل. ثم دخل الخضراء. وكان الضحاك بن عبدالرحمن أميرًا على دمشق في خلافة عمر بن عبدالعزيز».

ويظهر أن ما أنكره الضحاك بن عبدالرحمن في دراسة القرآن هو تدبر معاني القرآن والتفكر فيه، إذ أن طريقة الدراسة في قراءة القرآن، كانت قد عرفت منذ عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، وأول من أحدثها هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة المخزومي، وتعني التكرار وراء قارئ ما وقد يكون المكرر فردًا أو جماعة، عن فرد أو جماعة. وقد وصفها ابن عساكر بقول: «فقرأ هشام بن إسماعيل، فجعل عبدالملك يقرأ بقراءة هشام، فقرأ بقراءته مولى له، فاستحسن ذلك من يليه من أهل المسجد فقرأ بقراءته»[٤].

ومن طرق تحفيظ القرآن في تلك الفترة، طريقة مسلم بن جندب الهذلي القارئ (ت بعد ١١٠هـ) في تعليم كتاب الله، يقول جعفر بن الزبير: «وكان – يعني مسلم – يعلمنا

---

(١) الذهبي: سير، ٥/٣٣٢.

(٢) تاريخ دمشق، م٢/٥٢.

(٣) يحي بن الحارث الذماري الدمشقي، الإمام الكبير، أمام جامع دمشق وشيخ المقرئين، عالم بالقراءة في دهره، كان يقف وراء الأئمة يرد عليهم لا يستطيع أن يؤم من الكبر، قرأ على ابن عامر وواثلة بن الأسقع، وتلا عليه آخرون. ثقة من رواة الحديث، ولد زمن معاوية، وتوفى سنة ١٤٥هـ عن تسعين سنة. (الذهبي: نفس المصدر، ٦/١٨٩ – ١٩٠).

(٤) خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٢٠ – ٢١.

غدوة ثلاثين آية وعشية ثلاثين آية، وفي رواية يقرأ علينا»[1].

ومن آداب طلاب العلم إجلال العلماء، وتقديرهم، وخدمتهم، يقول الزهري[2]: «كنت أخدم عبيد الله بن عبدالله حتى كنت استقي له الماء المالح، وكان يقول لجاريته من بالباب؟ فتقول: غلامك الأعمش»[3].

أما العلماء، فكانوا يعينون التلاميذ على طلب العلم[4] ويتألفونهم على الحديث[5]، ومن آدابهم حسن الإنصات للمحدث، وإظهار عدم المعرفة بما يحدث به وإن كان قد سبق إلى علمه[6] ومن سماتهم التواضع والخوف من الشهرة، قال صفوان بن عمرو في خالد بن معدان (ت ١٠٣هـ على خلاف) وكان له حلقة: «رأيت خالد بن معدان إذا كبرت حلقته قام مخافة الشهرة»[7].

الكتاب:

وواصل الكتاب[8] دوره زمن يزيد، إلى جانب المسجد كدار علم ومنار ثقافة، ومن أشهر معلمي الكتاب في عصر الخليفة يزيد بن عبدالملك، عطاء بن أبي رباح (ت

---

(١) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٩٥.

(٢) ضربنا المثل بالزهري في أكثر من موضع، لأنه من علماء عصر الخليفة يزيد وممن عمل له، وكان من علماء الأمة المبرزين. لذا احتوت تراجمه على أخبار كثيرة عن تعلمه وتعليمه وأخبار العلم والعلماء، فوجدنا بها شيئاً مما نريده في هذا الباب. (انظر شيئاً من ذلك في ترجمته عند/ الذهبي: سير، ٥/٣٢٦ - ٣٥٠).

(٣) الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص٣٣٢ - الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٦٩.

(٤) محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٢٧.

(٥) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٤.

(٦) ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٣١٨.

(٧) ابن حجر: تهذيب، ٣/١٠٢ - ١٠٣.

(٨) عن التعريف بالكتاب، ونشأته، ودوره في الحركة العلمية بالدولة الإسلامية، (انظر/ يوسف حوالة: الحياة العلمية في إفريقية، ص٢٣٢ - ٢٣٤ - محمد بدوي: دراسات في التربية والفكر في الإسلام، ص٦٦ - ٧١ - خليل الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٢١ - وانظر أيضاً قبل: التمهيد: ص٥٢.

١١٤هـ) الذي كان معلم كتاب[١]. والضحاك بن مزاحم الهلالي (ت ١٠٥ أو ١٠٦هـ) كان يعلم الصبيان حسبة، وكان فقيه مكتب عظيم كالجامع في الكوفة، فيه ثلاثة آلاف صبي، وكان يركب حمارًا ويدور عليهم إذ عيي[٢].

والطرماح بن حكيم الطائي (ت ١٠٥هـ)، اشتغل مؤدبًا بالري، قال عبدالأعلى: لم أر أحدًا آخذًا للعقول ولا أجذب لأسماعهم منه، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده كأنهم قد جالسوا العلماء[٣].

المؤدبون:

ظهرت في العصر الأموي فئة المؤدبين، وهم الذين كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والأمراء والخاصة، ويؤدبونهم، ويشرفون على تربيتهم. وكان الخلفاء يغدقون عليهم العطاء، إلا أن بعضهم كان لا يأخذ لقاء تعليم القرآن شيئًا، وكان المؤدب ذا اثر بالغ فيمن يؤدبه.

واعتمد يزيد بن عبدالملك على المؤدبين في تربية أبنائه، وذلك على طريقة من سبقه من الخلفاء الأمويين، الذين استدعوا إلى قصورهم من يقوم بتأديب وتعليم أبنائهم[٤].

كما عاش في زمنه عدد من مؤدبي أبناء الخلفاء الآخرين، ومنهم: إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر (ت ١٣٢هـ) كان مفقهًا لأولاد الخليفة عبدالملك بن مروان، وكان الخليفة يزيد ممن تعلموا على يديه[٥]. والضحاك بن مزاحم الهلالي (ت ١٠٥ أو

---

(١) ابن حجر: تهذيب، ٧/١٧٩ – ١٨٣ – الذهبي: سير، ٥/٨١.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ٤/٣٩٧ – ٣٩٨ – ابن كثير: البداية، ط٤، ٩/٢٣١ – الذهبي: دول الإسلام، ١/٥٣ – الذهبي: سير، ٤/٥٩٨ – ٦٠٠ – اليافعي: مرآة الجنان، ١/٢٤٢ – محمود الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٠١ – فيليب حتي: تاريخ سورية، ٢/١١٢ – ١١٣.

(٣) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ١/٢٤٤ – ٢٤٥.

(٤) انظر ما أوردناه مجملاً عن المؤدبين في العصر الأموي، قبل: التمهيد، ص ٢٤.

(٥) أبوزرعة: تاريخ أبي زرعة، ١/٣٤٧ – ٣٤٨ – الذهبي: سير، ٥/٢١٣ – ابن حبيب: المحبر، ص٤٧٦ – ضياء الدين الريس: عبدالملك بن مروان، ص٢٥٠ – عواد الأعظمي: مسلمة، ص١٩ – ٢٠. وانظر أيضًا قبل: الفصل الأول، ص ٦٣.

١٠٦هـ) كان أحد مؤدبي أبناء الخليفة عبدالملك أيضـا[١]. وعبدالواحـد بـن قـيس السلمي، كان معلم أولاد الخليفة يزيد بن عبدالملك. وقد قال: قلت ليزيد بـن عبـدالملك: «إني لست آخذ منك على القرآن شيئًا، إنما آخذ منك على غيره»[٢]. وعبدالصـمد بـن عبدالأعلى مؤدب الوليد بن يزيد بن عبدالملك، «اختاره يزيد بن عبدالملك، وكلفه بتربية ولده وتأديبه حين كبر وبلغ سن التعليم، لمعرفته بمكانته الأدبية الرفيعة، وثقته بقدرتـه التعليمية العالية». كما أدبه أبونخيلة التميمي البصري، وكان شـاعرًا راجـزًا فصـيحًا مقتدرًا كثير البدائع والمعاني[٣]. غير أنا نجد من يشير إلـى اشـتهار عبدالصـمد بـن عبدالأعلى بالزندقة واللهو والمجون[٤]. وقد ناقش حسـين عطـوان[٥] هـذه التهمـة، وضعف الأخبار الواردة فيها.

كما يذكر حسين عطوان[٦] مؤدبا ثالثا للوليد بن يزيد هو يزيد بـن أبـي مسـاحق السلمي، لكنه شكك في صحة ذلك الخبر.

ووهب بن كيسان الفقيه المؤدب[٧]، لكنا لا نعلم لمن كان مؤدبًا.

وكان الزهري مؤدبًا لأبناء الخلفاء من بني أمية، ومنهم الخليفة يزيد بن عبدالملك نفسه[٨]. وعون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، الذي علم مروان بن محمد فـي حيـاة أبيه ثم تركه ولزم الخليفة عمر بن عبدالعزيز[٩].

---

(١) انظر قبل: الفصل الأول، ص٦٣.

(٢) ابن حبيب: المحبر، ص ٤٧٦ – الزرو: الحياة العلمية في الشام، ٢٢٨ – ٢٩ – محمد صالحية: مؤدبو الخلفاء، ص٤٤ – ٤٥.

(٣) للتعريف بهذين المؤدبين، وتربيتهما للوليد بن يزيد وسيرتهما معه وأثرهما عليه، (انظر/ حسين عطوان: سيرة الوليد بن يزيد، ص٧٣ – ٩٨).

(٤) محمد صالحية: نفس المرجع، ص٤٤.

(٥) نفس المرجع، ص٨٣ – ٨٧.

(٦) نفس المرجع، ص٩٨ – ٩٩.

(٧) الذهبي: سير، ٥/٢٦.

(٨) الزرو: نفس المرجع، ص٢٨ – ٢٩ – محمد الخطيب: السنة قبل التدوي، ص٤٩٣ – وانظر قبل الفصل الأول، ص١٠٢ – ١٠٣.

(٩) الذهبي: نفس المصدر والجزء، ص١٠٣ – ١٠٥.

المكتبات:

انتشرت الصحف والكتب في تلك الفترة- مدار البحث - وكثرت لشيوع الكتابة بين الناس وتدوين كثير من العلماء للعلم وحثهم عليهن يقول الحسن البصري: «إن لنا كتبًا كنا نتعهدها»[1]. فعرف العصر أنواعًا من المكتبات أو خزائن الكتب فكان هناك خزانة الخلفاء الأمويين، والمكتبات العامة، والمكتبات الخاصة.

وأما خزانة الخلفاء الأمويين، فقد وجد بها أعداد كبيرة من الدفاتر التي احتوت على علم الزهري، يدل على ذلك رواية عبدالرزاق أنه سمع معمرًا يقول: «كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهري، حتى قتل الوليد، فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب في خزائنه، يقول من علم الزهري»[2].

وقد كتبت هذه المدونات قبل عهد الوليد، فقد كانت وفاة الزهري (١٢٤هـ)، قبل تولي الوليد الخلافة (١٢٥هـ)، ويبدو أنها دونت وحفظت في عهد هشام الذي ألزم الزهري بالكتابة والإملاء[3]، ولعل بعضها كتب في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، فقد كان الزهري من رجال دولته وممن تولى له القضاء.

ويظهر أنه كان للخلفاء الأمويين خزاء كتب، يحفظ بها بعض العلوم والمدونات في شتى الفنون، يدل على ذلك الخبر الذي يشير إلى إخراج الخليفة عمر بن عبدالعزيز كتاب أهرن القس بن أعين الذي ترجمه ماسرجويه، من خزائن الكتب وقد حفظ بها منذ عهد مروان بن الحكم، فأخرجه بعدما وجده لينتفع به المسلمون، وقيل: بل ترجم في

---

[1] محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٢٦ - صبحي الصالح: علوم الحديث، ص٤٤. (لكن من العلماء مع تدوينه العلم لنفسه، من كان يكره الإملاء، فكان الزهري ممن يمنع أن يكتب عنه، فأذن للناس وأملى عليهم، بعد أن ألزمه هشام بالإملاء على بنيه، وقال: كنا نكره الكتاب، حتى أكرهنا عليه الأمراء، فرأيت ألا أمنعه مسلمًا». (انظر/ الذهبي: سير، ٣٢٤/٥ - شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ص٩٥ - ٩٦).

[2] الذهبي: نفس المصدر، ٣٣٤/٥ - هوروفتس: المغازي، ص٦٥ - ٦٦ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٦٨.

[3] انظر: ص ٥٠٦.

عهد عمر نفسه[1].

والغالب أن مكتبة خلفاء بني أمية هذه، كانت لحفظ الكتب، فلا تفتح أبوابها لطلاب العلم، إلا أن يكون من الخلفاء أو أبناء أسرتهم. وقد نص الخبر على إخراج كتب الزهري من خزائن الوليد بن يزيد، فلا نعلم إلى أين أخرجت إلى مكتبات عامة كانت موجودة، أو خزائن كتب قد تكون ملحقة بالمساجد التي كانت تمثل دور العلم في تلك الفترة، ليستفيد منها سائر المسلمين، وهذا أرجح.

أما المكتبات العامة، فإن من المسلمين من اتخذ بيتًا وضع فيه كتبًا وأدوات للتسلية واللعب وأعده للرواد من طلاب العلم، وفتحه أمام العامة، فيذكر أحمد أمين نقلاً عن أبي الفرج[2]: أن عبدالحكم بن عمرو بن عبدالله بن صفوان الجمحي، وكان في العصر الأموي[3]، وقد اتخذ بيتًا فجعل فيه شطرنجات، ونردات، وقرقات[4]، ودفاتر فيها من كل علم، وجعل في الجدار أوتادًا، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها، ثم جر دفترًا فقرأه، أو بعض ما يلعب به فلعب به». وكانت هذه المكتبة بالمدينة[5].

والحق أنه مظهر راق للنهضة العلمية في تلك الحقبة من الزمن، وشبيه عبدالحكم الجمحي، محمد بن جبير بن مطعم (ت ٩٩ أو ١٠٠هـ)، الذي كان لديه مكتبة عامرة بالكتب، وكان يسمح لطلاب العلم بالإطلاع فيها، لكنه كان يمنع خروج أي كتاب[6].

أما المكتبات الخاصة، فقد كان لكثير من العلماء مكتباتهم الخاصة، حيث استعانوا على حفظ علمهم بالتدوين، وحفظ تلك المدونات للمذاكرة فيها والعودة إليها عند الحاجة، أو الإملاء منها أحيانًا، وتقديمها لطلاب العلم أحيانًا أخرى ينسخون منها، أو

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٦٣.

(٢) نفس المرجع، ص١٦٨.

(٣) لم أعثر لم ترجمته، وقد قال أحمد أمين أنه في العصر الأموي، (انظر النص أعلاه).

(٤) النردات: جمع نرد، وهو ما يعرف اليوم بالطاولة وقرقات: جمع قرق وهي لعبة للصبيان. (انظر/ محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، هامش ٤، ص٣٠١).

(٥) عن هذه المكتبة، انظر أيضًا/ لأحمد زكي: الحياة الأدبية في البصرة، ص١٤٨ – محمد الخطيب: نفس المرجع و الصفحة.

(٦) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٢٤.

بإعارتها ثم إستعادتها.

فقد كان لمجاهد بن جبر (ت ١٠٣هـ) كتبًا في غرفة بيته، وكان يسمح لبعض أصحابه أن يصعدوا إليها، فيخرج لهم كتبه فينسخون منها[١].

وترك عبدالله بن زيد (ت١٠٤هـ) نزيل داريًا، لما مات حمل بغل كتبًا[٢]. كما كان لمحمد الباقر بن علي بن الحسين (ت ١١٤هـ) كتب كثيرة سمع بعضها منه ابنه جعفر الصادق، وقرأ بعضها.

كما كان عند مكحول الشامي (ت ١١٢هـ) كتب، وعند الحكم بن عتيبة (ت ١١٣هـ) أيضًا، وعند بكير بن عبدالله بن الأشج (ت ١١٧هـ) عالم المدينة، كتب انتقلت إلى ابنه مخرمة بن بكير[٣]، كما كان للزهري (ت ١٢٤هـ) مع حفظه مكتبة خاصة، يقول يونس بن يزيد: قلت للزهري أخرج لي كتبك، فأخرج لي كتبًا فيها شعر[٤]. وكان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله، فيشغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا، حتى قالت امرأته: والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر[٥].

كل ما ذكرناه دلائل واضحة على انتشار الكتب والمكتبات وبالأخص الخاصة منها، وذلك ينبئ عن نهضة علمية شهدتها الدولة الإسلامية في أواخر القرن الأول وبداية الثاني، وعل مما ساعد على انتشار الكتب والمكتبات، وجود أسواق لبيع الكتب ونسخها، فينقل الذهبي أن همام بن منبه اليماني كان يشتري الكتب لأخيه وهب بن منبه[٦]، وكان ممن ينسخ المصاحف في هذه الفترة عبدالرحمن بن هرمز الأعرج (ت١١٧هـ)، أحد القراء البارزين، وكان يكتبها بيده ولا يتركها إلا لثقة أمين[٧]، كما كان مالك بن دينار (ت ١٢٧هـ) العالم البر التابعي، من أعيان كتبة المصاحف، حيث

---

(١) محمد الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٢٦ - صبحي الصالح: علوم الحديث، ص٤٤.

(٢) الزرو: الحياة العلمية في الشام، ص٧٨.

(٣) محمد الخطيب: نفس المرجع، ص٣٥٤ - ٣٥٥.

(٤) سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة، ص٨٧.

(٥) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٦٨ - هوروفتس: المغازي، ص٦٦.

(٦) الذهبي: سير، ٥/٣١٢.

(٧) سعد الموسى: نفس المرجع، ص٩٦.

كان ينسخ المصاحف للتكسب، وكان ينسخ المصحف في أربعة أشهر[1].

ومما يستوجب الذكر ونحن ندرس أبرز جوانب الحياة العلمية في عصر الخليفة يزيد بن عبدالملك، وأهم مظاهر نشاطها العلمي، إبداء الرأي في دوره في الحياة العلمية في عهده واهتمامه بها.

كانت الحركة العلمية في الدولة الأموية في غالب الأحيان[2] تنمو من تلقاء نفسها، لاهتمام الناس بالعلم وانكبابهم عليه، حيث حثهم الدين الإسلامي على ذلك، وكونه مظهرًا من مظاهر النمو والتطور الحضاري، الذي أخذته دولة الإسلام ترتقي سلمه، إلى جانب الحاجة وضرورات الحياة الجديدة في المجتمع الإسلامي الجديد.

وهذا لا يعني عدم اهتمام الخليفة يزيد بالعلم البتة، فلعل من نافلة القول أنه ترك كثير من جهود واهتمامات سلفه الخليفة عمر بن عبدالعزيز العلمية، تسير في طريقها وتواصل نتاجها، كالإبقاء على البعثات[3] التي أرسلها سلفه عمر بن عبدالعزيز إلى الأقاليم الإسلامية لبث تعاليم الدين الإسلامي، وتفقيه الناس[4]، والاستمرار في نشر العلم في المساجد ومجالس العلماء[5]. ومما يدل على استمرارية ذلك النهج، ما ذكر عن اقتفاء بشر بن صفوان عامل يزيد على افريقية، لسياسة محمد بن يزيد وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، أميرًا افريقية قبله، في العمل على نشر الدين ونشر العلم بين البربر، فاستمر العلماء والدعاة في عملهم وكان من بينهم الواليان السابقان محمد بن يزيد وإسماعيل بن عبيد الله، وقد أدت تلك السياسة الطيبة إلى إقبال البربر على حلقات

---

(١) الذهبي: سير، ٥/٣٦٢ - ٣٦٤.

(٢) يستثنى من ذلك بعض الخلفاء، كعمر بن عبدالعزيز، (انظر قبل التمهيد، ص٦٩ - ٧١).

(٣) من ذلك البعثة التي أرسلها الخليفة عمر بن عبدالعزيز من فقهاء التابعين لتفقيه البربر، (انظر/ فاطمة رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين، ص٤٨ - الفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص٩٦ - ٩٧).

(٤) أمر عمر العلماء بنشر الإسلام في مساجدهم ومجالسهم. (انظر قبل/ ص٦٩ - عماد الدين خليل: ملامح الانقلاب الإسلامي، ص٨٣).

(٥) انظر: فاطمة رضوان: نفس المرجع، ص٦٨ - ٦٩.

العلم في المساجد وتعليم الصبيان في الكتاب[1]. ولعل مثل هذا حدث في الأقاليم الأخرى.

ومن المحتمل استمرار أوامر عمر بن عبدالعزيز بتدوين العلم وخاصة السنة، وإن لم نلمس ذلك على المستوى الرسمي[2].

وليس لدينا قرائن على استمرارية كل سياسة عمر في سبيل نشر العلوم ولكن الأقرب عدم التوقف، واستمرار العلماء المكلفين بذلك فيه، خصوصًا أن من أولئك العلماء من حظي بثقة يزيد وكان من المقربين إليه والعاملين في دولته، كمحمد بن مسلم الزهري. وليزيد اهتمام واضح بالأدب وخاصة الشعر، حيث قرب الشعراء، وفتح أبوابه لهم، وأجزل لهم العطاء، وحظوا باهتمامه، وتلك صفة تميز بها بنو أمية، عدا عمر بن عبدالعزيز.

يقول حسين عطوان[3] عن اهتمام يزيد بالعلماء وتقريبه لهم واعتماده عليهم: «وأثرت ثقافته الدينية في سياسته تأثيرًا بارزًا، إذ استهل خلافته بتقريب العلماء والفقهاء من أمثال رجاء بن حيوة الكندي، ومحمد بن مسلم الزهري وغيرهما ممن أحصاهم اليعقوبي[4]، وأجلهم يزيد وأحسن إليهم، واستعان بهم في القضاء، واستضاء بآرائهم في تصريف شئون الدولة».

فيذكر أنه كان يجري على رجاء بن حيوة ثلاثين دينارًا في كل شهر[5]، وأن سعيد بن خالد الأموي كان من خاصته أو الغالب عليه، وهو من رجال الحديث الثقات[6].

ويتبين لنا مما ذكرناه، أن الخليفة يزيد بن عبدالملك، وإن كان له بعض الاهتمام بالعلم وأهله، إلا أنه لم يكن ذي دور بارز في دفع الحركة العلمية وتنميتها، تلك الحركة التي اعتادت الحياة بعيدًا عن أحضان الدولة، فلم يؤثر عليها ذلك، حيث واصلت النمو

---

(1) انظر ذلك بالمصادر التي أحلنا إليها لمعرفة عطاءات عمر العلمية، قبل: التمهيد، ص٣٧.

(2) انظر قبل: ص ٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠٤.

(3) سيرة الوليد بن يزيد، ص١٦.

(4) بالرجوع إلى تاريخ اليعقوبي، نفس الجزء والصفحة، تبين أنه أورد أسماء علماء عصره، لكنه لم يشر إلى تقريب يزيد لهم أو اهتمامه بهم.

(5) الذهبي: سير، ٤/٥٦٠.

(6) من أجل ذلك، انظر قبل: الفصل الخامس، المبحث الأول، ص ٣٢٣ – ٣٢٤، ٣٢٧.

والتطور.

وهذا في حد ذاته ظاهرة حضارية، تعد من خصائص الأمة الإسلامية، ومميزات دولتها، حيث كانت الحياة العلمية، والمظاهر الحضارية، تحيا وتنمو نحو النضج والتقدم، بشكل طبيعي، ومن تلقاء نفسها، على أسس ثابتة مستمدة من دينها وبإمكانيات أهلها وموروثاتها، وما وصل إليها مما وافق عقيدتها، دون توجيه من الدولة، أو الاعتماد على رعايتها، كما أن من مميزات الدولة الإسلامية، ترك الحرية للرأي والفكر ما لم يكن مخالفًا للدين الحق، وإفساح المجال للحياة العلمية أن تعيش دون توجيه معين، ورعايتها رعاية هدفها حفظ رجال العلم وإعانتهم، ودفع الحركة العلمية، والمظاهر الحضارية نحو التقدم. ولعمري أن ذلك كان من العوامل التي جعلت الأمة الإسلامية رائدة الحضارة العالمية بعد حقبة قصيرة من عمر الزمن.

الخاتمة

الخاتمة

يأتي في مقدمة ما توصلنا إليه في بحثنا هذا، أن الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك، كانت قوية البنيان، ثابتة الكيان، مهابة الجانب، استطاعت حكومتها القضاء على الفتن الداخلية، ومواجهة الإخطار الخارجية، وتوجيه الجيوش الفاتحة، فحفظت الأمن، وصانت الحدود، وواصلت الجهاد، كما استمرت الأمة في رقيها الحضاري، وخصوصاً في الحياة العلمية، مما يعني قيام الدولة الأموية في عهد يزيد، بأداء واجباتها، و القيام بدورها التاريخي بكل اقتدار.

أما حاكم الدولة، وخليفة المسلمين يزيد بن عبدالملك، فقد خرجنا من دراسة سيرته، بإجماع جل المصادر على ميله للهو و اللذات، وحبه لجاريتيه سلامة وحبابة وشغفه بهما وطربه بغنائهما، لكن تلك الدراسة بينت ما اعترى قصته مع جاريتيه من مبالغة واختلاق وتزييف، فحوت ما لا يقبله العقل، ولا يقره العرف، ولا يوافق الدين. وعلى أساسها ظهرت سيرته الذاتية، بصورة الخليفة اللاهي المنصرف عن تحمل المسئولية ومباشرة شئون الحكم. غير أنا نؤكد ما أوردناه في دراسة سيرته، من أن يزيد وإن صح جانب مما قيل في سيرته الذاتية، إلا أنه ليس كما ابتلى به من أوصاف شنيعة وآراء متحاملة، وأحكام جائرة، وهو كما قال ابن كثير: ليس به من بأس، فإنه على المستوى الرسمي كحاكم للدولة الإسلامية، وكما أثبتت الجدية لأحداث عهده. وأحوال دولته، أنه قام بتحمل مسئولية الحكم، ومباشرة مهام الدولة، ونحن بذلك لا ننفى وجود بعض الأثر لسيرته الذاتية، على بعض سياساته، وبعض أحداث عهده.

ومن النتائج الهامة التي نستشفها من دراسة سيرته والدولة في عهده، أن عهد يزيد بن عبدالملك لم يكن بداية النهاية للدولة الأموية، أو سبب الانهيار. كما قالت بذلك كثير من المراجع، ولكن التبعة التي يتحملها، هي عدم الاستمرار في الحركة الإصلاحية التي بدأها سلفه عمر بن عبدالعزيز، والذي أدرك حاجة الدولة للإصلاح، وإعادة الترتيب والتوازن، فلم يدرك ذلك يزيد، ورأى مصلحة الدولة المالية العاجلة في إعادة تطبيق بعض سياسات خلفاء بني أمية قبل عمر، فرد الدولة دون أن يدري إلى الحياة في ظروفها السابقة، التي كان منها ما يمثل أسباب وهن وعوامل هدم، زاد أثرها وقويت

وطأتها مع تقادم الزمن، حتى أوصلت الدولة إلى هاوية الانهيار، بعد سبعة وعشرين عامًا - تقريبًا - من نهاية عهد يزيد.

وما ذلك لسوء سيرته الذاتية، أو لانصرافه عن تحمل المسئولية ومباشرة شئون الحكم، ولكن لأن يزيد كان خليفة عادياً، إذ لم يكن سياسياً محنكًا كمعاوية، ولا إداريًا ناجحًا كأبيه عبدالملك، ولا مصلحًا مقتدرًا كعمر بن عبدالعزيز.

وبالنظر في الحركات الداخلية في عهده، نجد الدولة قد عانت من قيام عدد من الحركات مختلفة المشارب، كان أشدها بأسًا وأخطرها شأنًا على الدولة في عهده، حركة يزيد ابن المهلب، وأعظمها أثرًا على الدولة بعده حركة بلاي، فالأول، استولى على البصرة وما حولها، ووجه العمال، وجبى الأموال وخرج على الدولة، وخلع الخليفة، ورام الخلافة لنفسه، فعظم أمره، وجل خطره، وكادت حركته تطيح بالبيت الأموي الحاكم. فألزم الدولة توجيه جيش من ثمانين ألفًا للقضاء عليه، فكلفها كثيرًا من الرجال والجهد والوقت والمال.

أما الثاني وهو بلاي، فقد قاد المقاومة النصرانية ضد المسلمين في الأندلس، ومهد نجاحه لقيام دولة اشتريس النصرانية في الشمال الغربي من الأندلس، التي لم يستطع المسلمون إزالتها بعد ذلك. وواصلت النصرانية مقاومتها للوجود الإسلامي حتى تمكنت من إزالة النفوذ الإسلامي على الأندلس بعد نحو من ثمانية قرون.

وظهر أن تلك الحركات في عهده لم تقم نقمة على سياسة الخليفة يزيد أو سيرته. ولا احتجاجًا على إجراءات عماله وأصحاب الأمر في دولته، حيث كان وراءها أسباب وطموحات شخصية، ونزعات إقليمية، ودوافع عقائدية.

وتبين جدية الدولة في إخماد تلك الحركات لحفظ الأمن والحرص على وحدة الأمة وسلامة الكيان، عن طريق إعطائها حقها من الاهتمام والمتابعة، واتخاذ الأسلوب المناسب، حزماً كما اتبع في غالب تلك الحركات، مرونة ولينًا كما عومل به عقفان الحروري. وليس هنا مكان للتساؤل لماذا لم يتبع الأسلوب السلمي مع بقية الحركات. مادام قد نجح في إنهاء حركة عقفان دون خسائر؟ فقد جرب مع حركة ابن المهلب حيث أعطى الأمان ودعى للسلم ولم يحقق الغرض، كما أن نجاحه مع إحدى حركات الخوارج

لا يعني نجاحه مع حركاتهم الأخرى، فقد مارس هذا الأسلوب عمر بن عبدالعزيز مع شوذب الخارجي، ونجح معه، لكنه لم ينجح مع غيره من الخوارج. ممن قام في عهده. فكيف بإرضاء وإقناع قوم من يزيد بن عبدالملك، لم ترضهم سياسة علي رضي الله عنه، ولم تمكنهم عدالة عمر بن عبدالعزيز.

ونتج عن دراستنا لتلك الحركات تمكن الدولة من القضاء عليها وإخمادها جميعًا، عدا حركة بلاي في الأندلس، الذي دحر قائدها ومن معه إلى الصخرة في المنطقة الجبلية في الشمال الغربي من الأندلس، فترك، وما لبث بعد عهد يزيد أن عاود المقاومة، وإن كنا لا نحمل عهد يزيد تبعة بقائه، فمنشأ تلك الحركة كان منذ عهد سليمان بن عبدالملك لا عهد الخليفة يزيد.

ويجرنا الحديث عن الحركات أنه وإن تم القضاء على معظمها. فإن بعضها قد خلف آثارًا، فلاشك أن الشدة في استئصال آل المهلب، وإن لم يتجاوزهم إلى من التف حول زعيمهم من أهل العراق، قد ترك آثارًا انتقامية في نفوس بعض اليمنيين، نجد ذلك على لسان الكرماني الذي قال: «كانت غايتي في طاعة بني مروان أن يقلد ولدي السيوف فأطلب بثأر بني المهلب».

لكنا لا نوافق ما استنتجه كثيرًا من المؤرخين، في خسارة البيت الأموي لولاء القبائل اليمانية منذ حركة ابن المهلب وتصفية آله بتلك القسوة، وإبعاد اليمانية عن الوظائف الكبرى في المشرق أيام يزيد. فالصحيح أن الأثر كان نسبيًا إذ عادت للقبائل اليمانية مكانتها في المشرق بعد عهد يزيد، عندما ولى الخليفة هشام خالد القسري العراق، فعلا شأن اليمانية وتمتعت بتلك الحظوة هناك، طوال ولايته التي استمرت من (١٠٦ - ١٢٠ هـ).

وأثبت البحث أن تلك الحركات مع تعدادها وقوة بعضها، وما أدت إليه من طمع بعض القوى المجاورة، إلا إنها لم تعق الدولة عن درء الأخطار الخارجية والقيام بواجباتها. وإن كادت في استولت على شيءٍ من اهتماماتها وجهودها.

ومما كشفته لنا هذه الدراسة، إصدار الخليفة يزيد بن عبدالملك مرسومًا سنة ١٠٢هـ / ٧٢١م، يخص النصارى ودور عبادتهم وبعض مظاهرها، قضى بتحطيم

الأصنام، وكسر الصلبان، ومحو الصور وإزالة التماثيل، وهدم الكنائس المستحدثة، في كل مكان من أقطار الدولة الإسلامية، والكتابة بأمره ذلك إلى عماله على الأقاليم، والأمر بتنفيذه. فشرع في ذلك على الفور، وجرى العمل بمقتضاه، وإن بدا أن الخليفة يزيد قد توفى قبل أن يتم تنفيذ كل ما أمر به. كما تبين ظهور أثره واضحًا في مصر والشام والعراق، دون غيرها من الأقاليم الإسلامية، لكونها مراكز تواجد المسيحيين الكبرى. داخل الدولة الإسلامية، ومعاقل فكرهم، ومقر كنائسهم العظمى، ولاستقرار الأمور فيها. بينما قل أثره في الأقاليم الأخرى، لقلة تواجد المسيحيين في بعضها ولعدم استقرار الأمور في البعض الآخر، كأقاليم الأطراف حديثة العهد بالفتح، والتي كان هم المسلمين بها نشر الإسلام بين أهلها وتثبيت سلطانهم فيها.

ورأينا أن الخليفة بمرسومه هذا، ألزم النصارى بحدود ما أعطوا من حرية دينية في عهود الصلح، خشية على المسلمين من التأثر بما يبرزه النصارى من مظاهر عبادتهم، وصونًا لمشاعر المسلمين من التآذي بمبالغة النصارى وتماديهم في إبراز بعض تلك الشعائر والمظاهر الدينية، كدق النواقيس، ورفع الصوت بالترتيب، ورفع الصلبان، وتفشي الصور المقدسة والتماثيل. وبناء الكنائس المستحدثة، خصوصًا أنهم يعيشون بين ظهراني المسلمين. ويأتوا أمرًا خارجًا عما أعطوا في صلحهم، ومنافيًا لما جاء به دين الإسلام الذي حرم تصوير كل ذي روح، واتخاذ صورها، واستعمال ما هي فيه، مما لا يمتهن.

وتبين مدى أثر هذا المرسوم في نفوس أهل الذمة كجزء من سياسة يزيد وإجراءاته تجاههم، جاء ذلك على لسان المؤرخ المصري القبطي ساويرس بن المقفع، الذى قال: «ثم تولى بعده - أي بعد عمر بن عبدالعزيز - يزيد وما نحسن بشرح ما جرى في أيامه ولا نذكره من السوء والبلاء لأنه سلك في طريق الشيطان وحاد عن طريق الله..» وذكر أمر يزيد في هذا الشأن. كما جاءت أهميته في صداه خارجيًا. وتأثر الدولة البيزنطية به، ومحاكاة امبراطورها ليو الثالث الأيسوري للخليفة يزيد في مرسومه. حيث اتخذ سياسته اللاأيقونية والقاضية بإزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس في ولايات الدولة البيزنطية، وذلك سنة (١٠٧ - ١٠٨هـ / ٨٢٦م)، أي بعد مرسوم يزيد بنحو خمس سنوات، وقد ترتب على سياسته اللاأيقونية كثير من

الآثار والنتائج الخطيرة. ولعل مما يستلزم الذكر سبقنا الدارسين المحدثين من المسلمين في إبراز هذا المرسوم، الذي أغفل جل المؤرخين ذكره، وجهل الكثير أمره.

وتوصلنا في ضوء هذه الدراسة إلى عودة النشاط العسكري والتوسع في عمليات الفتوح، زمن يزيد بن عبدالملك، وأن منها ما كان اضطرارياً، كالجهاد فيما وراء النهر الذى استهدف إخماد تمرد الصغد وصد الترك الذين أعانوا الصغد واستغلوا اضطراب الحال هناك للهجوم على الممالیك الإسلامية فيما وراء النهر. وكذلك الجهود العسكرية في أرمينية، والتي بذلت لصد هجمات الخزر على تلك الإقليم. ومنها ما كان لحفظ التوازن، والإبقاء على الهيبة الإسلامية واستمرارية الجهاد، كحروب المسلمين زمن يزيد في أرض الروم، بينما مثلت حروب المسلمين في بلاد الغال، مواصلة حركة الفتح وجهاد أعداء الإسلام ونشر الدين القويم، بين من لم يصلهم نور الإسلام، ولم تطأ أرضهم أقدام الفاتحين.

وخرجنا من تلك الدراسة، بنجاح المسلمين في إخماد تمرد الصغد فيما وراء النهر، وإعادة السيادة الإسلامية على تلك البلاد، والحفاظ على مكتسبات الفاتحين السابقين فيها. غير أن المسلمين فقد فقدوا بعد عهد يزيد كثيرًا من فتوحاتهم فيما وراء النهر، بعد أن ثبت سعيد الحرشي أقدامهم فيها من جديد، في خلافة يزيد بن عبدالملك. إذ لم يستطع ولاة خراسان في زمن هشام، الحفاظ على تلك المكتسبات، حتى لم يبق في أيديهم سنة ١١١هـ / ٧٢٩م، من منطقة ما وراء النهر سوى سمرقند وبخارى وما حولها.

كما نجح الجراح الحكمي عامل يزيد على أرمينية في صد الخزر عن أرمينية، ومطاردتهم حتى بلادهم، وإنزال الهزيمة بهم. غير أنهم عاودوا غزو أرمينية وأذربيجان زمن هشام، واستمر صراع المسلمين معهم، الذين كانوا في دور المدافع أحيانًا، وتعرضوا لمحن شديدة، كإنكسارهم أمام الخزر (سنة ١١٢هـ)، ذلك الانكسار الذي استشهد فيه الجراح الحكمي.

وتوصلنا من دراسة الفتوح في أرض الروم، بتحقيق عدد من الانتصارات والفتوح عن طريق الصوائف والشواتي في تنظيمها الجديد، فقد فتحت المخاضة، ودبسة، وسسره، وقيصرية، وقونية، وكمخ. وعلى جانب ذلك ظلت الحدود مع الروم مصانة،

وأشغل العدو بالدفاع عن نفسه، بينما ظل زمام المبادرة بأيدي المسلمين. كما واصلوا الغزو البحري عن طريق أسطول أفريقية، للجزر الرومية في وسط وغرب البحر المتوسط، حيث غزوا صقلية، وسردانية، وكورسيكا فحافظوا بأسلوبهم الهجومي هذا، على السواحل الإسلامية في إفريقية، ومع أن غزواتهم قد اتسمت بالغارات السريعة الخاطفة التي لم تسع لفتح دائم وتام لتلك الجزر، إلا أنها كانت مجالاً تدريبيًا للقوة البحرية الناشئة في إفريقية، وتهديدًا للقواعد البحرية البيزنطية، المتمثلة في جزر وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط، خصوصًا صقلية، واستكشافًا لفتوحات إسلامية لهذه الجزر، وهو ما تأخر لمدة قرن من الزمان تقريبًا، حين قام الأغالبة بغزوها أوائل القرن الثالث الهجري.

وتوصلنا من دراسة الفتح في بلاد الغال، إلى أن حملة السمح بن مالك على تلك البلاد قد تمت زمن يزيد بن عبدالملك، وأن المجاهدين المسلمين على أثرها، تمكنوا من اتخاذ موطئ قدم لهم في تلك البلاد، وهي مدينة أربونة، التي أصبحت ثغرًا إسلاميًا فيما وراء جبال البرتات منذ ذلك الحين، وتكوين حكومة إسلامية فيها ولما حولها في إقليم سبتمانيا وبروفانس. حيث تبين جدية الفتح في هذه الحملة، ونية البقاء والاستمرار، وإن كان مقتل السمح في طولوشة. قد عطل تحقيق تلك الغاية. كما تبين أن فتوحات عنبسة بن سحيم في تلك البلاد قد تم الإعداد لها في خلافة يزيد، وجرت أحداثها في خلافة هشام بن عبدالملك.

ومن النتائج الهامة في هذا الصدد، بطلان ما قيل عن مخالفة سعيد الحرشي والسمح بن مالك لأخلاقيات الإسلام وسماحة مبادئه في التعامل مع الأعداء.

ومن النتائج التي توصلنا إليها أن يزيد لهم ينقض كل سياسات عمر بن عبدالعزيز، فلم يعزل جميع عماله، ولم يلغ كل إجراءاته المالية، والذي حدث هو مخالفته لعمر في بعض إجراءاته المالية، لظنه أنها كانت ذات أثر سلبي على الدولة، وأنها أدت إلى نقص موارد بيت المال. إذ لم يدرك ما أدركه عمر من حاجة الدولة للإصلاح، وما لتلك الإجراءات المالية القديمة من آثار سلبية على الدولة. وإن بدت ذات مردود إيجابي. وتبين أنه عاد إلى بعض سياسات أسلافه من خلفاء بني أمية قبل عمر، باعتبارها في نظره أصلح وأجدى، كإعادة ضرائب النيروز والمهرجان، والضريبة التي فرضت على أهل

اليمن. يؤكد ذلك أنه أبقى على ما كان ذا مردود إيجابي على خزينة الدولة من إجراءات عمر وسياساته، كمنع بيع الأراضي الخراجية. بينما أبقى على بعض إصلاحات عمر. كمتابعة عمر في إنقاص جزية نصارى النجرانية. وإسقاط ما زيد على أهل قبرص عما صولحوا عليه.

واتضح أن يزيدا لم يكن محكومًا بروح العصبية في توجهاته وسياساته الإدارية والمالية، لذلك وجدناه يعتمد على المضريين واليمنيين، والعرب والموالي سواء، بينما بدا لنا أنه تابع عمر بن عبدالعزيز في منع أهل الذمة من العمل في دواوين الدولة. وقد اختار رجاله من أهل الثقة والكفاءة والمكانة، واتخذ موقفًا سليمًا فيمن خرج عن ذلك، فقد عزل ابن الضحاك عن المدينة عندما بدا له أنه تجاوز حدوده واستغل سلطانه في أغراضه الشخصية، كما كان مرنًا واقعيًا في موقف من البربر عندما قتلوا يزيد بن أبى مسلم وأنكر ما صنعه وقال: إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبى مسلم، وأقر من ولوه أمرهم.

ومما وصلنا إليه، اتخاذ يزيد سياسات مالية متشددة وغير عادلة، وبالأخص مع الموالي وأهل الذمة، فقد اشتد في الخراج، حيث وضع الخراج على الكنائس، وأملاك الأساقفة، ويرجع إعادته فرض الجزية على الرهبان، كما حرم الموالي العطاء، وأعاد فرض الضرائب غير الشرعية، على العرب والموالي وأهل الذمة، ويحتمل مقتضى بعض النصوص إعادته فرض الجزية على من أسلم، غير أنه لا نص صريح بذلك. وإذا ما صحت تلك الإشارات، فما فرضها قد اقتصر على المناطق والأقاليم الشرقية من الدولة الإسلامية، تلك الأقاليم التي فرضت الجزية على من أسلم فيها، لأول مرة على يد الحجاج بن يوسف الثقفي.

ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا الصدد، أن فرض الجزية على من أسلم منذ اتخذ ذلك الحجاج الثقفي لم يعمم على كل الأقاليم الإسلامية كما اعتقد كثير من الباحثين، واقتصر على حدود ولايته. بل على أهل القرى والرساتيق ومناطق الأطراف، أما من سكن الأمصار من الموالى فإن الدلائل تشير على عدم تطبيق ذلك عليهم. كما اتضح أن فرضها على من أسلم من أقاليم الأطراف، قد تم في كثير من الأحيان عن طريق الأمراء المحليين (الدهاقين)، الذين ترك لهم أمر جمع الأموال المفروضة على

أقوامهم وتقديمها لبيت المال، فكانوا يخففون عمن بقى منهم على دينه، ويبقونها على من أسلم منهم، ويثقلون عليهم في الخراج.

وتبين لنا أن يزيدًا قد اتخذ بعض الإصلاحات والتنظيمات الإدارية والمالية، بهدف الإصلاح والضبط وزيادة موارد الدولة، فاهتم بطريق الركب العراقي من الكوفة إلى مكة، وبناء قنطرة الكوفة، وبناء مدينة اللاذقية أو إتمامه، وشحنها، كما وضع في عهده الديوان الرابع لمصر، وعمل على دمج الإدارات المحلية في الحكومة الإسلامية، كما حدث في خراسان عندما تولى مسلم بن سعيد الكلابي عامل يزيد عليها، تعيين مرزبان مرو من قبله، وأتم في عهده تنظيم الأمور المالية في الأندلس، ومسح السواد وجودة العملة، وقومت المكاييل وضبطت، وحورب الفساد الإداري والمالي.

غير أن يزيد لم يدرك أن توسع الدولة، واصطدام الفتوح الإسلامية بقوى كبرى، وتعدد الجبهات، قد أدى إلى فتور الفتوحات فيما وراء الحدود. وبالتالي انقطاع موارد مالية هامة، مما زاد من أعباء الدولة وتفاقم مشاكلها، ولعل ذلك ما حداه إلى اتخاذ بعض الإجراءات المالية المتشددة لتعويض ذلك النقص وتوفير ما يلبى حاجات الدولة، وكان الأولى أن يدرك حاجة الدولة إلى مشاريع إنتاجية ثابتة، وإصلاحات داخلية بديلة.

ومع كل ذلك فإن الخليفة يزيد قد أدار دولته بما يحفظ عليها كيانها وسلطانها داخلياً وخارجياً، واتخذ من السياسات الإدارية والمالية ما ساعدهم على النجاح في ذلك. لكنه لم يكن الرجل الذي تنتظره الدولة في تلك المرحلة من عمرها.

وأخيرًا وجدنا الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، قد عاشت حياة علمية مزدهرة متطورة، وبالأخص في العلوم الدينية من قراءات وتفسير وحديث فقه، والأدب شعره ونثره والكتابة التاريخية، ولمسنا من هذه الدراسة أن عهد الخليفة يزيد مع قصره زمنيًا، إلا أنه زخر بثلة من العلماء والأدباء والمؤرخين، نهضوا بالحركة العلمية وأثروا هذه العلوم بجهودهم وعطائهم ونتائجهم، وكان لهم دور مميز في خدمة هذه العلوم في تلك المرحلة من عمرها. ولقد كانت العلوم في تلك الفترة تمر بالمرحلة الثانية من عمرها، وهي مرحلة الجمع والتأليف المنفرد المتميز لكل علم عن الآخر في كتب دون تبويب وترتيب.

واتضح من هذه الدراسة أن الحياة العلمية في الدولة الإسلامية قد نمت من تلقاء نفسها وعلى أيدي رجالها. مدفوعة بحث الإسلام عليها، وعكوف المسلمين على النهول من معينها، وبما توفر من أسباب التطور والنماء.

كما تبين قلة اهتمام الخليفة يزيد بها، إلا ما كان من رعايته للأدب ورجاله وخصوصاً الشعراء. غير أن ذلك لم يعق الحركة العلمية عن مواصلة التطور، واستمرت في النمو بشكل طبيعي.

وختامًا نسدل الستار على عهد الخليفة يزيد. وقد رأيناه قد انتهى والدولة الأموية لازالت قوية مهابة مصانة، مُقَاتِلَةً في سبيل الله لا مُقَاتَلَةً، متنامية التطور والتنظيم إداريًا وماليًا وعلميًا. مما يعني أن عهده كان استمرارًا لعصر القوة من حياة الدولة الأموية، وأن الضعف والوهن لم يظهر على الدولة حتى ذلك الوقت، وإن تلمس معالمه المتفحص، ورأى علاجه المفكر، وحاول إصلاحه المصلح.

وهكذا كان عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك كما قدمناه في هذه الدراسة، لا كما صور مشوهًا في كثير من المصادر والمراجع.

المصادر والمراجع والبحوث

(أ) المصادر المطبوعة والمخطوطة

(١) ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٢) الإربلي (ت ٧١٧هـ): خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، تصحيح مكي السيد هاشم، مكتبة المثنى، بغداد.

(٣) الأزدي (ت ٣٣٤هـ): تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

(٤) الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ): كتاب الأغاني، طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.

(٥) ابن أعثم (ت ٣١٤هـ): الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

(٦) ابن الباذش (ت ٥٤٠ هـ): كتاب الإقناع في القراءات السبع، تحقيق عبدالمجيد قطامش، طبعة جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

(٧) البلاذري (ت ٢٧٩هـ): أنساب الإشراف، الجزء الأول، تحقيق محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدولة العربية، بالاشتراك مع دار المعارف بمصر، ١٩٥٩م، والجزء الرابع القسم الثاني، باريس ١٩٣٨م، والجزء الخامس، مكتبة المثنى ببغداد، ١٩٣٦م.

(٨) البلاذري: انساب الأشراف، الجزء الثالث، مكروفيلم مصور عن مكتبة الخزانة الملكية العامة بالرباط المغرب، برقم ٢٥١٨، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، بمكة، تاريخ، رقم ١٨٥٨ (مخطوط).

(٩) " : فتوح البلدان، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(١٠) ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

(١١) الجاحظ (ت ٣٥٥هـ): البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(١٢) ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ): النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت.

(١٣) الجهشياري (ت ٣٣١هـ): كتاب الوزراء والكتاب، حققه ووضع فهارسه مطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبدالحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م.

(١٤) ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ): سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز الخليفة الزاهد، ضبطه وشرحه وعلق عليه الأستاذ زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(١٥) ابن حبيب (ت ٢٤٥هـ): المحبر. عناية وتصحيح ايلزه شتيتر، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، ١٣٦١هـ.

(١٦) ابن حجر (ت ٨٥٢هـ): الإصابة في تمييز الصحابة. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ.

(١٧) " " كتاب تهذيب التهذيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(١٨) الحميدي (ت ٤٨٨هـ): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

(١٩) أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ): الأخبار الطوال، دار السعادة، مصر. الطبعة الأولى، ١٣٣٩هـ.

(٢٠) الخشني (ت ٣٦١هـ): قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

(٢١) ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ): تاريخ ابن خلدون «العبر». المكتبة التجارية، مصر.

١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

(٢٢) ابن خلكان (ت ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

(٢٣) خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ): تاريخ خليفة ابن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(٢٤) الدباغ (ت ٦٩٦هـ): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٨م.

(٢٥) ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ): الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عاشور، مراجعة أحمد السيد دراج، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م.

(٢٦) ابن أبي دينار القيرواني (كان حيا ١١١٠هـ): المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، نشر المكتبة العتيقة، الطبعة الثالثة.

(٢٧) الذهبي (ت ٧٤٨هـ): أسماء الذين راموا الخلافة، نشر صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م / ١٣٩٨هـ.

(٢٨) " : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مطبعة السعادة، نشرة مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

(٢٩) " " : كتاب دول الإسلام، مطبعة دائرة المعارف النظامية حيدر أباد، الدكن، الطبعة الأولى، ١٣٣٧هـ.

(٣٠) " " : سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(٣١) " " : العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، الطبعة ١٩٦٠م.

(٣٢) أبو زرعة (ت ٢٨١هـ): تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق، ومطبعة المفيد

الجديدة بدمشق، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

(٣٣) ساويرس بن المقفع (كان يعيش في القرن الرابع الهجري): كتاب سير الآباء البطاركة، باريس، ١٩٠٣م.

(٣٤) ابن سعد (ت ٢٣٠هـ): الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

(٣٥) " " : الطبقات الكبرى، القسم المتمم، دراسة وتاريخ زياد محمد منصور، المملكة العربية السعودية، الجامعة الإسلامية، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٣٦) ابن سلام (ت ٢٣١هـ): طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة.

(٣٧) السيوطي (ت ٩١١هـ): تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة.

(٣٨) الشهرستاني (ت ٥٤٨): الملل والنحل، تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل، مطبعة دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٣٩) الشيرازي (ت ٤٧٦هـ): طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(٤٠) الطبري (ت ٣١٠هـ): تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، لبنان.

(٤١) ابن الطقطقا (ت ٧٠٩هـ): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

(٤٢) الضبي (ت ٥٩٩هـ): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس علمائها وأمرائها وشعرائها وذوي النباهة فيها من دخل إليها وخرج عنها، طبع بمطبعة روخس، مدينة مجريط، ١٨٨٤م.

(٤٣) ابن عبدالحكم (ت ٢٥٧هـ): فتوح مصر وأخبارها، تقديم وتحقيق محمد صبيح، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، وطبعة ليدن، ١٩٢٠م.

(٤٤) عبدالله بن محمد بن يزيد (ت ٢٧٣هـ): تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد مطيع الحافظ، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

(٤٥) ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ): العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م.

(٤٦) ابن العبري (ت ٦٨٥هـ): تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت.

(٤٧) ابن عذارى (ت ٦٩٥هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان وأ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، وليدن، ١٩٥١م.

(٤٨) أبو العرب (ت ٣٣٣هـ): كتاب المحن، تحقيق يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٤٩) ابن عساكر (ت ٥٧١هـ): تاريخ مدينة دمشق، مجلد (١)، (٢)، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.

(٥٠) " " : تاريخ دمشق، صورة من نسخة المخطوط، بالمكتبة الظاهرية بدمشق، والقاهرة، ومراكش، واستانبول، فهرست الشيخ محمد بن رزق بن الطرهوني، الناشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ١٤٠٧هـ (مخطوط).

(٥١) ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

(٥٢) ابن العمراني (ت ٥٨٠هـ): الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

(٥٣) أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ): المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

(٥٤) ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ): عيون الأخبار، طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٣٨٣هـ، وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

(٥٥) ابن قتيبة الدينوري : الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزيني، دار المعرفة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٥٦) " " : المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية، والطبعة الرابعة.

(٥٧) قدامة بن جعفر (ت ٣٢٨هـ): الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، الجمهورية العراقية وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م.

(٥٨) القرماني (ت ١٠١٩هـ): أخبار الدول وآثار الأول، بقلم البغدادي محمد حدادني، طبعة بغداد ١٢٨٢هـ.

٥٩) القلقشندي (ت ٨٢٠هـ): مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، عالم الكتب بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

(٦٠) ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ): تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، الناشرون دار الكتاب المصري القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

(٦١) الكبسي (ت ١٣٠٨هـ): اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمانية، مخطوط مكتبة كورسني، ايطاليا رقم ٣٦٢ مكروفيلم. مركز البحث العلمي جامعة أم القرى، رقم ١١٧٠، تاريخ (مخطوط).

(٦٢) الكتبي (ت ٧٦٤هـ): فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م.

(٦٣) ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م. وطبعة دار الكتاب العلمية بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(٦٤) الكندي (ت ٣٥٠هـ): كتاب الولاه وكتاب القضاه، تهذيب وتصحيح رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

(٦٥) الماوردي (ت ٤٥٠هـ): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الفكر،

القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م.

(٦٦) المراكشي (ت ٦٤٧هـ): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم ممدوح حقي، دار الكتاب، الدار البيضاء، بيروت.

(٦٧) المسعودي (ت ٣٤٦هـ): التنبيه والإشراف، دار صعب، بيروت.

(٦٨) " " : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر.

(٦٩) المصعب الزبيري (ت ٢٣٦هـ): كتاب نسب قريش، عنى بنشره لأول مرة وتصحيحه والتعليق عليه أز. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة الطبعة الثالثة.

(٧٠) المقدسي (ت ٣٥٥هـ): كتاب البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٩م.

(٧١) المقري (ت ١٠٤١هـ): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد وإحسان عباس، بيروت، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

(٧٢) المقريزي (ت ٨٤٥هـ): كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٧٣) مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ): كتاب التبصرة في القراءات السبع، تحقيق المقرئ محمد غوث الندوى، نشر وتوزيع الدار السلفية، بومباي، الهند، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٧٤) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ / ١٩٨١.

(٧٥) مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ويليه تجارب الأمم لمسكويه، مكتبة المثنى بغداد.

(٧٦) الناصري (ت ١٣١٥هـ): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولديه جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

(٧٧) النباهي (ت قبل ٧٩٣هـ): تاريخ قضاة الأندلس المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

(٧٨) الواقدي (ت ٢٠٧هـ): فتوح الشام، دار الجيل، بيروت،.

(٧٩) ابن الوردي (ت ٧٤٩هـ): تتمة المختصر في تاريخ البشر (تاريخ ابن الوردي)، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م.

(٨٠) وكيع (ت ٣٠٦هـ): أخبار القضاة، صححه عبدالعزيز مصطفى المراغي، المكتبة التجارية، مصر مطبعة الاستقامة الطبعة الأولى، ١٣٦٦هـ.

(٨١) اليافعي (ت ٧٦٨هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، تحقيق عبدالله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

(٨٢) ياقوت: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

(٨٣) يحيى بن الحسين (ت ١١٠٠هـ): غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق وتقديم سعيد عبدالفتاح عاشور دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

(٨٤) اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ): تاريخ اليعقوبي طبعة دار بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

(٨٥) " " : مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٢م.

(٨٦) أبويوسف (ت ١٨٢هـ): كتاب الخراج، تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار الإصلاح للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

المراجع العربية والمعربة والبحوث

(١) إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون، الدار القومية للطباعة والنشر، دار الجيل، القاهرة، ط٢، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٩م.

(٢) إبراهيم بيضون: الدولة العربية في أسبانيا، من الفتح إلى سقوط الخلافة (٩٢ - ٤٢٢هـ) (٧١١ - ١٠٣١م) دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨م.

(٣) " : ملامح التيارات السياسيات في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

(٤) إبراهيم علي طرخان: المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦م.

(٥) أبكار السقاف: إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٧م.

(٦) إحسان عباس: ديوان كثير عزة، جمع وشرح، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

(٧) إحسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

(٨) أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٦٥م.

(٩) أحمد تيمور: التصوير عند العرب، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات زكي محمد حسن، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٢م.

(١٠) أحمد السيد دراج: صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية، سلسلة دعوة الحق، العدد الثامن، السنة الأولى، ١٤٠١هـ، ذو القعدة.

(١١) " " : عبدالرحمن الغافقي، بحث، رسالة المسجد، العدد الرابع، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(١٢) أحمد عبدالله خياط: الإقطاع في الدولة الإسلامية حتى نهاية العصر العباسي الأول، ماجستير في التاريخ الإسلامي، مقدمة لكلية الشريعة، قسم التاريخ الإسلامي، جامعة الملك عبدالعزيز، فرع مكة المكرمة، ١٤٠٠ - ١٤٠١هـ / ١٩٨٠ - ١٩٨١م.

(١٣) أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.

(١٤) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.

(١٥) أديب السيد: أرمينية في التاريخ العربي، المطبعة الحديثة، حلب، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.

(١٦) أرمينيوس فامبري: تاريخ بخاري، ترجمة أحمد محمود الساداتي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

(١٧) أسد رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، منشورات المكتبة البولسية، لبنان، بيروت، طبعة ١٩٨٨م.

(١٨) أومان: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب مصطفى طه بدر، الناشر دار الفكر العربي، ١٩٥٣م.

(١٩) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبدالحليم النجار (الثلاثة الأجزاء الأولى) والسيد يعقوب بكر ورمضان عبدالتواب (الثلاثة الأجزاء الأخيرة)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة.

(٢٠) د. ر. بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(٢١) ا. س. ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق حسن حبشي، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد بمصر.

(٢٢) توفيق سلطان اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق (١٢ - ٢٤٧هـ)، دار العلوم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٢٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة وتعليق حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين وإسماعيل النجراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٠م.

(٢٤) ثابت إسماعيل الراوي: العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والإدارية والاجتماعية، منشورات مكتبة الأندلس، بغداد، الطبعة الثانية، طبع بمطابع النجف الأشرف.

(٢٥) ثريا حافظ: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي، رسالة دكتوراه، مقدمة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، بمكة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

(٢٦) " " : الخراسانيون، ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول، الناشر تهامة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

(٢٧) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٦٤م.

(٢٨) حسن أحمد محمود: الإسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.

(٢٩) حسن ظاظا: أبحاث في الفكر اليهودي، مطبوعات دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٣٠) حسن علي الشاذلي: المدخل للفقه الإسلامي، تاريخ التشريع الإسلامي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٧م.

(٣١) حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٣٢) حسين عطوان: سيرة الوليد بن يزيد، دار المعارف، القاهرة.

(٣٣) حسين محمد سليمان: رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، دار الإصلاح، المملكة العربية السعودية، الدمام، ١٤٠٤هـ.

(٣٤) حسين مؤنس: فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ – ٧٥٦م)، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٩م.

(٣٥) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مطبعة السعادة بمصر.

(٣٦) حورية عبده سلام: علاقات مصر ببلاد المغرب حتى قيام الدولة الفاطمية، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٩٧٤م.

(٣٧) خالد جاسم الجنابي: تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، دار الشئون الثقافية العامة، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد. الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

(٣٨) خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس، الفتح وعصر الولاة (٩٢ – ١٣٨هـ) (٧١١ – ٧٥٦م)، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، دار النجاح، بيروت، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

(٣٩) خليل إبراهيم السامرائي: الثغر الأعلى الأندلس، ودراسة في أحواله السياسية (٩٥ – ٣١٦هـ / ٧١٤ – ٩٢٨م)، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦م.

(٤٠) خليل داود الزرو: الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني والهجري، دار الأفاق بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧١م.

(٤١) خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.

(٤٢) داود سلوم: شعر نصيب بن رباح، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧م.

(٤٣) راضي عبدالله عبدالحليم: دراسات في تاريخ خراسان، الأندلس للأعلام والنشر، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، ١٩٨٧م.

(٤٤) رفعت فوزي عبدالمطلب: توثيق السنة في القرن الثاني الهجري، الطبعة الأولى،

مكتبة الخانجي، بمصر، ١٤٠٠هـ / ١٩٨١م.

(٤٥) رفعت فوزي عبد المطلب: صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه، تحقيق وتخريج وشرح الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

(٤٦) زكي شنودة: اليهود نشأتهم وعقيدتهم ومجتمعهم من واقع التوراة كتابهم المقدس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.

(٤٧) زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ملتزم الطبع والنشر، دار الفكر العربي، القاهرة.

(٤٨) سعد بن موسى الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة النبوية خلال القرن الثاني الهجري، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى، مكة، ١٤٠٩هـ.

(٤٩) سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام، منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

(٥٠) السيد أحمد خليل: نشأة التفسير في الكتب المقدسة و القرآن، الوكالة الشرقية للثقافة بالإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.

(٥١) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة. ١٩٨١م.

(٥٢) السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.

(٥٣) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

(٥٤) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

(٥٥) " " : التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،

بيروت، ١٩٨١م.

(٥٦) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.

(٥٧) سيدة إسماعيل كاشف: مصر في فجر الإسلام، من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، الناشر دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م.

(٥٨) شاكر الفحام: الفرزدق، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

(٥٩) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.

(٦٠) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٩٨٢م.

(٦١) شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، نشأتها، مقدماتها، تطورها اللغوي والأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م.

(٦٢) شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣م.

(٦٣) " " : الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٥٥هـ.

(٦٤) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٧١م.

(٦٥) صابر محمد دياب: أرمينية من الفتح الإسلامي إلى مستهل القرن الخامس، دار النهضة الحديثة، مصر، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

(٦٦) صابر محمد دياب: بلاد المغرب في القرن الأول الهجري، مكتبة السلام العالمية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(٦٧) " " : انتشار الإسلام وحركة الاندماج ببلاد المغرب في عصر الولاه، بحث في مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، ص٢٧٩ – ٣٠٨، العدد السادس، عام ١٤٠٣هـ.

(٦٨) صالح باجيه: الأباضية بالجريد، في العصور الإسلامية الأولى، دار أبوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.

(٦٩) صالح الحمارنة: المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الإسلامي، بحث ضمن مجموعة أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (من القرن ٦ – ١٧م)، المنعقد في الجامعة الأردنية، نشر الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م.

(٧٠) صبحي الصالح: علوم الحديث ومصطلحه، عرض ودراسة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٧١م.

(٧١) عادل سليمان جمال: شعر الأحوص الأنصاري، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

(٧٢) عبدالرحمن عبدالكريم العاني: عمان في العصور الإسلامية الأولى، ودورها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي وفي الملاحة والتجارة الإسلامية، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، ١٩٧٥م.

(٧٣) عبدالرحمن عبدالكريم النجم: البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، رسالة ماجستير جامعة بغداد، ١٩٧١م.

(٧٤) عبدالرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢ – ٨٩٧هـ) (٧١١ – ١٤٩٢م) دار القلم، دمشق، بيروت، دار القلم، الكويت، الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

(٧٥) الشيخ عبدالعزيز بن باز: الجواب المفيد في حكم التصوير، الرئاسة العامة

لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبع والترجمة، المطابع الأهلية للأوفست، الرياض، ١٤٠٦هـ.

(٧٦) الشيخ عبد العزيز بن باز: الفتاوي، كتاب الدعوة. سلسلة نصف سنوية تصدر عن مؤسسة الدعوة الإسلامية الصحفية، المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.

(٧٧) عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق ببيروت، لبنان ١٩٨٣م.

(٧٨) " " : العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، من القرن السادس إلى القرن السابع عشر، المنعقد في الجامعة الأردنية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م.

(٧٩) عبدالعزيز السلومي: ديوان الجند، نشأته وتطوره في الدولة الإسلامية حتى عصر المأمون، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

(٨٠) عبدالعزيز عبدالدايم: الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر. مع دراسة عن فن القتال البحري في عصر سلاطين المماليك. تحقيق ودراسة، رسالة دكتوراه، مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة القاهرة.

(٨١) عبداللطيف عبدالرزاق العاني: إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدين والأموي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

(٨٢) عبدالله محمد السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، رسالة دكتوراه، مطبوعة، جامعة الرياض، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٨٣) عبدالله محمود شحاته: القرآن والتفسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

(٨٤) عبدالله مهدي الخطيب: الحكم الأموي في خراسان، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، دار التربية، بغداد الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

(٨٥) عبدالوهاب المسيري: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٧٤م.

(٨٦) عصام الدين عبدالرؤوف: الحواضر الإسلامية الكبرى، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م.

(٨٧) علي حسن عبدالقادر: نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٥م.

(٨٨) علي حسني الخربوطلي: الدولة العربية الإسلامية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

(٨٩) علي مصطفى الغرابي: تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

(٩٠) علية عبدالسميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(٩١) عماد الدين خليل: حول انهيار الدولة الأموية دراسة مقارنة في سياسة يزيد بن عبدالملك (١٠١ - ١٠٥هـ) ص٢٨٩ - ٣١٤، بحث بمجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، العدد الرابع، ١٤٠١هـ.

(٩٢) " : ملامح الانقلاب الإسلامي، في خلافة عمر بن عبدالعزيز، الدار العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.

(٩٣) عمر رضا كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٩٤) عمر العقيلي: خلافة معاوية بن أبي سفيان، جامعة الملك سعود، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(٩٥) عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية، ١٩٧٧م.

(٩٦) عمر أبو النصر: الأيام الأخيرة للدولة الأموية، المكتبة الأهلية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٢م.

(٩٧) عواد مجيد الأعظمي: الأمير مسلمة بن عبدالملك، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ١٩٨٠م.

(٩٨) عوض خليفات: نشأة الحركة الأباضية، عمان، ١٩٧٨م.

(٩٩) عون الشريف قاسم: شعر البصرة في العصر الأموي، دراسة في السياسة والاجتماع، دار الثقافة بيروت، لبنان، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

(١٠٠) فازيليف: العرب والروم، ترجمة محمد عبالهادي شعيرة، دار الفكر العربي.

(١٠١) فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(١٠٢) فاطمة عبدالقادر رضوان: المغرب في عصر الولاة الأمويين (٩٠ – ١٣٢هـ)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ.

(١٠٣) فالح حسين: الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، نشر بدعم من الجامعة الأردنية، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

(١٠٤) فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

(١٠٥) فرج محمد الهوني: النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية، منذ قيام حكومة الرسول بالمدينة حتى نهاية الدولة الأموية، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، بمطابع الثورة للطباعة والنشر، بنغازي.

(١٠٦) الفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمه عن الفرنسية عبدالرحمن بدوي، دار ليبيا للنشر والتوزيع،

بنغازي، ١٩٦٩م.

(١٠٧) فؤاد سيزكين: محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(١٠٨) فواز أحمد طوقان: الحائر في العمارة الأموية الإسلامية، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولي (الأول) لتاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر الميلادي، المنعقد في الجامعة الأردنية، ١٩٧٤م. الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م.

(١٠٩) فوزي رفعت عبدالمطلب: توثيق السنة في القرن الثاني الهجري أسسه واتجاهاته، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ،١٩٨١م.

(١١٠) فوزي محمد عبده ساعاتي: انتشار الإسلام في بلاد السند والبنجاب حتى نهاية العصر الأموي (١٥ – ١٣٢هـ)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(١١١) فوزية محمد عبدالحميد نوح: البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة (١٨٤ – ٢٩٦هـ)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠٤ – ١٤٠٥هـ.

(١١٢) فينيب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. ترجمة كمال اليازجي. دار الثقافة، بيروت. الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.

(١١٣) : تاريخ العرب، الطبعة الثالثة، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٦١م.

(١١٤) كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(١١٥) ماجدة فيصل زكريا: عمر بن عبدالعزيز وسياسته في رد المظالم، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(١١٦) محمد إبراهيم جمعة: جرير، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.

(١١٧) محمد أمين بدوي: دراسات في التربية والفكر في الإسلام خلال عصور الإسلام

القوية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(١١٨) محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية، عصر الـولاه، الناشر مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠.

(١١٩) " " : العرب والإسلام، من البعثة النبوية حتى نهاية الخلافة الأمويـة، مكتبـة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٠م.

(١٢٠) محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، خـلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، دار الفكر العربي، الطبعة الخامسة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

(١٢١) محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعـة الثانية، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

(١٢٢) محمد الحسيني عبدالعزيز: الحياة العلمية في الدولة الإسلامية، الناشـر وكالـة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣م.

(١٢٣) الشيخ محمد الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي، المكتبـة التجاريـة الكبـرى، مصر، الطبعة التاسعة، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

(١٢٤) محمد خليفة التونسي: الخطر اليهودي (بروتوكولات حكماء صهيون)، الطبعـة الرابعة.

(١٢٥) محمد أبوزهرة: محاضرات في النصرانية، طبع ونشر الرئاسة العامـة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. الرياض، الطبعةا لرابعـة، ١٤٠٤هـ.

(١٢٦) محمد السيد الوكيل: الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائـه، دار المجتمـع للنشر والتوزيع، السـعودية، جـدة، الطبعـة الأولـى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(١٢٧) محمد شفيق غربال ومجموعة من الأساتذة المتخصصين: الموسـوعة العربيـة الميسرة، دار نهضة لبنان للطبـع والنشـر، بيـروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(١٢٨) محمد صالحية: مؤدبو الخلفاء في العصر الأموي، بحث، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، تصدر عن جامعة الكويت، العدد الثالث. المجلد الأول. صيف ١٩٨١م.

(١٢٩) محمد بن صامل العلياني السلمي، منهج كتابة التاريخ الإسلامي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(١٣٠) محمد ضياء الدين الريس: عبدالملك بن مروان والدولة الأموية. مطابع سجل العرب، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.

(١٣١) محمد الطيب النجار: الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء، دار العلوم للطباعة، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

(١٣٢) محمد الطيب النجار: الموالي في العصر الأموي، دار النيل للطباعة، القاهرة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م.

(١٣٣) محمد عبدالحي شعبان: الثورة العباسية، ترجمة عبدالمجيد حسيب القبيسي، دار الدراسات الخليجية. أبوظبي، ١٩٧٧م.

(١٣٤) " " : صدر الإسلام والدولة الأموية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م.

(١٣٥) محمد عبدالقادر أحمد: دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

(١٣٦) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، من الفتح إلى بداية عهد الناصر، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٩هـ.

(١٣٧) محمد عبدالمنعم خفاجي: تاريخ الأدب في العصر الأموي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

(١٣٨) " " : الحياة الأدبية في عصر بني أمية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

(١٣٩) محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

(١٤٠) محمد علي نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموي، ماجستير، جامعة بغداد، ١٩٧٢م.

(١٤١) محمد كرد علي: الإدارة الإسلامية في عز العرب، القاهرة، مطبعة مصر، ١٣٥٢هـ / ١٩٣٢م.

(١٤٢) محمد محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة، القاهرة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(١٤٣) محمد مختار باشا: كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

(١٤٤) محمد يوسف موسى: تاريخ الفقه الإسلامي، دار المعرفة، القاهرة.

(١٤٥) محمود إسماعيل عبدالرازق: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م.

(١٤٦) محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.

(١٤٧) ممدوح حقي: الفرزدق، دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة.

(١٤٨) مؤلف مجهول: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، الدار القومية للطباعة والنشر.

(١٤٩) ناجي حسن: القبائل العربية في المشرق، خلال العصر الأموي، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

(١٥٠) نادية حسني صقر: سياسة عمر بن عبدالعزيز تجاه أهل الذمة، مكتبة الفيصلية، مكة، ١٩٨٤م.

(١٥١) " " : الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، دار الشروق، جدة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(١٥٢) ناصر بن سعد الرشيد: شعر يزيد بن الطثرية. طبع دار مكة للطباعة والنشر.

(١٥٣) نافع توفيق العبود: آل المهلب بن أبي صفرة، ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، ١٩٧٦م.

(١٥٤) نايف محمود معروف: الخوارج في العصر الأموي، نشأتهم، تاريخهم. عقائدهم، أدبهم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م / ١٣٩٧هـ.

(١٥٥) نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أمية، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(١٥٦) نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام (من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية)، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ.

(١٥٧) نظير حسان سعداوي: الدولة العربية الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧م.

(١٥٨) الهادي حمودة الغزي: الشعر الأموي في خراسان والبلاد الإيرانية. الدار التونسية للنشر، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

(١٥٩) هاشم إسماعيل الجاسم: دراسات تاريخية عسكرية عن الثغور البيزنطية والعربية منذ الفتح العربي للشام حتى نهاية العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م.

(١٦٠) هرنشو: علم التاريخ، ترجمة وتعليق وإضافة عبدالحميد العبادي، سلسلة المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٤٤م.

(١٦١) ج. م. هسي: العالم البيزنطي، ترجمة وتعليق رأفت عبدالحميد، الناشر مكتبة سعيد رأفت، مؤسسة الوفاء للطباعة، القاهرة.

(١٦٢) هشام سليم أبو رميلة: نظم الحكم في الأندلس في عصر الخلافة، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م.

(١٦٣) هوروفتس: المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م.

(١٦٤) وسام عبدالعزيز فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، الإمبراطورية البيزنطية من ٣٢٤ - ١٠٢٥هـ، مطبعة مصنع اسكندرية الكراس، ١٩٨٢م.

(١٦٥) وفيق الدقدوقي: الجندية في عهد الدول الأموية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

(١٦٦) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، عصر الإيمان، الجزء الرابع عشر، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، مطابع الدجوى، القاهرة.

(١٦٧) وليد الأعظمي: السيف اليماني في نحر الاصفهاني صاحب الأغاني، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(١٦٨) يوسف أحمد حوالة: الحياة العلمية في افريقية «المغرب الأدنى» منذ عام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري (٩٠ - ٤٥٠هـ)، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(١٦٩) يوسف خليف: تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٦م.

(١٧٠) " " : حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

(١٧١) يوسف العش: الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان، دمشق.

(172) A. A. Vasilievs Iconoclastic Edict of the Caliph Oazid II, A. D. 721 in Dumbarton Oaks papers, g, 10, Harvard University Press, Camnidge, Massachusetts, 1956.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الفصل الخامس

الفصل السادس